اليكسي فاسيلييف

تاريخ
العربية
السعودية

تاريخ العربية السعودية
ا . فاسيلييف

المقدمة

تتمتع العربية السعودية في العالم المعاصر بنفوذ أكبر بكثير مما يفترضه عدد سكانها الأصليين، وهو حوالي 12 مليون نسمة في أواسط التسعينات.

فهي تمتلك حوالي ثلث موارد النفط المكتشفة خارج إطار روسيا واسيا الوسطى والصين.وقد غدت أكبر منتج للنفط وأول مصدر له . وعندما وجدت الطبقة الحاكمة السعودية نفسها عاجزة عن استثمار العائدات الخيالية من هذه المادة الخام في داخل البلاد صارت من أكبر مصدري الرأسمال أيضا.وتفوق الملوك والأمراء من آل سعود على أغنى طواغيت المال في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا من حيث الأحجام المطلقة لثروتهم. إن القرارات التي تتخذ في الرياض بالرغم من أنها ليست مستقلة دوما وغالبا ما تكون اضطرارية ومفروضة من القوى الخارجية، إنما تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة

على ميزان المدفوعات في الولايات المتحدة الاميركية والكثير من الدول الأخرى وعلى وتائر تطورها الاقتصادي ومستوى التضخم النقدي ومستقبل الدولار، وعلى، سير النزاع العربي الإسرائيلي ونتائجه وعلى استقرار بعض أنظمة الحكم في البلدان النامية.

وكان السبب في أكبر صدام مسلح بعد انتهاء "الحرب الباردة"، ونعني به حرب الخليج، لا يقتصر على غزو العراق للكويت، بل ينطوي على خطر احتلال العربية السعودية وتجزئتها.

ويضاف إلى العوامل الاقتصادية والمالية الفريدة دور العربية السعودية بوصفها مهد الإسلام.ففي أراضيها الحرمان الشريفان الرئيسان في الإسلام _ مكة المكرمة وفيها الكعبة التي يتجه المسلمون نحوها أثناء أداء فريضة الصلاة

ويتوجهون أليها لاداء فريضة الحج، والمدينة المنورة وفيها قبر الرسول.إن تصاعد الصراع بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية وتعمق الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي يضفيان صبغة دينية على الكثير من النزاعات السياسية والاجتماعية الجارية فيه وكذلك على الحزازات والعنعنات القومية والخلافات الدولية.ولذا تزداد في العالم الإسلامي أهمية العربية السعودية _ سادن الحرمين الشريفين.

لقد تعرضت البنية الاجتماعية والاقتصادية في العربية السعودية لتغيرات سريعة في غضون حياة جيل أو جيلين.فقد التصق الاقتصاد الرأسمالي

السـوقي الـدخيل بـالمجتمع العشـائري الإقطـاعي التقليـدي الـذي لم يكن متهيئـا للتحـويلات ولم تكن لديـه لا الكـوادر ولا المؤسسـات الحكوميـة والاجتماعيـة ولا النظـام الحقـوقي المناسـب لهـذا الغـرض. وبـدا في العربيـة السـعودية، الـتي يحكمهـا واحد من اعتق الأنظمة في المعمورة، انفصام ممض في الاقتصـاد والعلاقـات الاجتماعيـة والقـانون والسيكولوجيا الاجتماعية، فثمة مجتمـع جديـد ناشـئ يعجـز التصـنيف المعتـاد عن وضـعه في الخانـة الـتي تناسبه.

وبديهي إن تقترن زيادة الاهتمام بهذا البلد بزيادة المطبوعات المكرسة له.

فخلال الأعـوام العشـرين الأخـيرة ظهـرت في روسيا (والاتحـاد السـوفييتي سـابقا) كتابـات كثـيرة عن العربيـة السـعودية في مؤلفـات مسـتقلة وفي الصـحف والمجلات، وهي مـذكورة بالتفصـيل في الطبعـة الأولى من كتابنـا "بيبليوغرافيـا العربيـة السعودية" وفي طبعتـه الثانيـة الـتي ستصـدر قريبـا. ولكن منـذ صـدور الطبعـة الأولى "لتـاريخ العربيـة السـعودية" لم تظهـر مؤلفـات جديـدة في تـاريخ المملكـة، شـان كتابنـا هـذا، تطـور البلـد الاقتصـادي والاجتمـاعي والسياسـي منـذ تأسيسـه في أواسـط القرن الثـامن عشـر الميلادي حـتى تسـعينات القـرن العشرين.

والطبعة الحالية مزيدة ومنقحة وتتناول الأحـداث حـتى بدايـة التسـعينات حيث عـاد الاسـتقرار إلى المملكـة بعـد هـزات حـرب الخليج. ولعـل مرحلـة

التسعينات تشكل ميدانا للبحث أمام الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والساسة والصحفيين أوسع منه أمام المؤرخين، وذلك لان أحداث الأعوام الأخيرة لم تترسب وتتبلور بالقدر الكافي لبحث تاريخي صرف.

لقد اعتمدنا في أعداد هذا الكتاب على عدة مجموعات من المصادر. وفي مقدمتها مصنفات تاريخية عربية وضعها مؤلفون من أنصار آل سعود والوهابية وكذلك مؤلفون معادون لهم ومراقبون محايدون. ونستدرك هنا فنقول أننا استخدمنا مصطلح "الوهابية" كما جرت العادة في الدراسات الغربية للدلالة على الحركة الدينية السياسية التي نشأت بالجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، علما بان المصطلح المذكور لم يلق انتشارا في العربية السعودية نفسها.

ثم تأتى مؤلفات أبن عبد الوهاب وأتباعه وابرز فقهاء الجزيرة العربية. وتتكون المجموعة التالية من المصادر من مذكرات الرحالة الأوروبيين والدبلوماسيين والعلماء ورجال المخابرات الذين زاروا الجزيرة العربية والأقطار المجاورة لها في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. وتلقي وثائق الإدارة البريطانية _ الهندية الأضواء على بعض قضايا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتتضمن المطبوعات السعودية الرسمية معلومات عن الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والنظام الحقوقي في البلاد. ويمكن اعتبار بعض المطبوعات الاميركية التي تحوي معطيات اجتماعية عن العربية السعودية في عداد المراجع. كما اعتمدنا على الوثائق التي

تحتـــوي على معلومـــات عن العربيـــة الســـعودية والمحفوظة في أرشيف السياسـة الخارجيـة لروسـيا وأرشــيف السياســة الخارجيــة للاتحــاد الســوفييتي السابق.

المصنفات العربية. لا يوجـد بين المصـنفات المعروفة لدينا إلا كتاب واحد ألفه شخص تـابع تطـور الحركـة الوهابيـة ودولـة السـعوديين منـذ السـنوات الأولى لنشوئهما. ونعني كتاب "تـاريخ نجـد المسـمى روضـة الأفكـار والإفهـام مرتـاد حـال الإمـام وتعـداد غزوات ذوي الإسـلام لمؤلفـه حسـين بن غنـام. وهـو فقيه من الأحساء توفي عام 1811. في الجزء الأول يسـتعرض أبن غنـام بعض مؤلفـات محمـد بن عبـد الوهـاب. وفي الجـزء الثـاني يسـرد تـاريخ حـروب الوهابيين خلال نصف قرن، من عام 1746 حتى عام 1796

كان أبن غنام من أنصار تعاليم أبن عبد الوهـاب. وهو يعتقـد إن اللـه الهم الوهـابيين للقيـام بأعمـالهم، وان الشيطان كان وراء خصومهم. ويضطر المرء إلى جمـع المعلومـات عن البنيـة الاجتماعيـة والسياسـية للدولـة السـعودية الأولى حبـة حبـة. ومـع ذلـك فـان مصنف أبن غنام يعتبر مرجعا فائق الأهمية. فالمـادة التي يحتويها هي حصيلة متابعـة شخصـية للمؤلـف أو مستقاة من منابعها الأولى.

والمصـنف الثـاني هـو "عنـوان المجـد في تـاريخ نجـد" من تـأليف المـؤرخ عثمـان بن بشـر النجـدي الحنبلي، وهـو من فقهـاء واحـة شـقراء في منطقـة الوشم والمعروفين في الجزيـرة العربيـة في القـرن

التاسع عشر. لقد عايش الكثير من أحداث الجزيرة بعد الفترة التي توقف عندها مصنف أبن غنام. وقد توفي أبن بشر في 1871_1872.

كان أبن بشر متمسكا هو الأخر بالوهابية، لكنه تميز عن سابقه بسعة آرائه. فقد ادرج أبن بشر في مصنفه وقائع قيمة عن بنية الدولة السعودية الأولى وعن الحياة الاجتماعية الجزيرة العربية. والتاريخ الذي يستعرضه ابتداء من عام 1745 يقترن بجولات إلى فترات تاريخية اقدم ويختتم أبن بشر مؤلفه بوصف أحداث عام 1854.

وتتوافق التواريخ التي يوردها أبن بشر في أمور كثيرة مع تواريخ أبن غنام.

ويسجل أبن بشر النص الكامل لقصيدة سلفه بمناسبة وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتي وردت في "تاريخ نجد". إلا انهما يقدمان في بعض الأحيان وصفا متباينا لوقائع بعينها، ويركزان على أحداث مختلفة فلا تتوافق تواريخها وأرقامها على الدوام.وربما لم يكن أبن بشر مطلعا على مؤلف أبن غنام. وعلى آي حال فهو لا يذكر في المقدمة اسمه بين المؤرخين الذين يعرفهم. وعندما يورد خبر وفاة أبن غنام يعدد مزاياه كفقيه وشاعر دون إن يذكر كلمة واحدة عن مؤلفاته التاريخية.

ويمكن تدقيق صحة معلومات أبن غنام وأبن بشر بمقارنتها مع الوقائع التي أوردها الأوروبيون. ولم تطلع المؤرخون العرب والأوروبيون على هذين المصنفين إلا في القرن العشرين.

ومما يثير الاستغراب إن المستشرقين الذين كتبوا عن جزيرة العرب لم يلتفتوا إلى وقائع تاريخ الدولة السعودية التي أوردها المؤرخ الفرنسي ف.منجين في ملحق كتابه "تاريخ مصر في عهد محمد علي". وكان منجين قد وضع تلك الوقائع استنادا إلى معلومات حصل عليها من حفيد أبن عبد الوهاب، الذي نفي إلى مصر بعد خراب الدرعية عام 1818، وعلى ما يبدو، من وهابيين أخريين.

ويتضمن مؤلف ف.منجين "تاريخ مصر" معلومات قيمة عن مجتمع الجزيرة، وهي معلومات مستقاة من تقارير الإدارة المصرية في نجد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر.

وخلال السنوات الأخيرة لفت انتباه المستشرقين وبعض المؤرخين العرب كتاب "لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب" ومخطوطته الأصلية محفوظة في المتحف البريطاني. وتعتبر أغلبية الباحثين إن هذا الكتاب مغفلا. وهو عبارة عن سجل في 764 صفحة يشمل فترة من تاريخ الجزيرة العربية تبدأ على وجه التقريب من العقد الرابع للقرن الثامن عشر وتنقطع فجأة عند أحداث كانون الأول (ديسمبر)1817. ويعبر واضع السجل عن احترامه لابن عبد الوهاب، ولكنه يعتبر مذهبه بدعة، وقد استند في ذلك إلى رأي شيوخ من البصرة والزبير.

يتكون "لمع الشهاب" من رؤوس أقلام ولمحات كتبت استنادا إلى روايات أشخاص شاركوا في الأحداث وإلى إشاعات وخرافات، ولكن ذلك لا يحرم

هـذا المصـنف من جملـة مزايـا لا جـدال فيهـا، وهي مزايا تجعله يحتل مرتبته بين المصادر العربيـة الثلاثـة لتلـك الحقبـة، ونعـني كتـابي أبن غنـام وأبن بشـر وعرض منجين لسجل الوهابيين. فهذا المصنف الـذي وضـعه شـخص غـير متفـق مـع الوهـابيين، ولكنـه موضوعي لدرجة كافية، يعتبر قيما بسبب اسـتقلاليته وخلوه من الصبغة الرسمية. ويتضمن "لمع الشهاب" معلومـات إضـافية حـول طائفـة من القضـايا: طـابع العلاقات الإقطاعيـة والقبليـة في الجزيـرة، والتجـارة والصـنائع في نجـد، وأشـكال الشـريعة عنـد القبائـل البدويـة، وتنظيم السـلطة وجهـاز جبايـة الضـرائب والنظـام القضـائي، والقـوات في الدولـة السـعودية الأولى.

ومما لا شـك فيـه أن مؤلفـات أبن عبـد الوهـاب المخطوطة من اقدم المصـادر الـتي ظلت محفوظـة حـتى الآن. اثنـان منهـا ـ "كتـاب التوحيـد" و "كتـاب كشـف الشـبهات في التوحيـد" ـ يتفقـان من حيث أحكامهمـا الأساسـية مـع مـا نشـر مـؤخرا من مطبوعـات. إلا أن مؤلفـات أبن عبـد الوهـاب الـتي صدرت في القـرن العشـرين قـد تعرضـت لتعـديلات كبـيرة من المحققين والمـراجعين أو طبعت اسـتنادا إلى صياغات أخرى لهذه المؤلفات نفسها.

ويمكن الحصـول على معلومـات إضـافية عن الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى وعلى مـواد للتثبت من صـحة الوقـائع المعروفـة من مؤلفـات المؤرخين الحجازي احمـد بن زيـني دحلان، واليمـاني محمد بن علي الشوكاني، والعماني سليل بن رزيـق،

والمـؤرخ المصـري الشـهير عبـد الـرحمن الجـبرتي، والبحراني محمد بن خليفة النبهاني، والعراقي عثمان بن سند البصري، وكذلك إبراهيم الحيدري البغدادي.

وبعد أبن بشـر واصـل تسـجيل التـواريخ النجديـة إبـراهيم بن صـالح بن عيسـى الـذي ولـد في شـقراء عام 1853 ـ 1854.فان مصنفه "عقـد الـدرر فيمـا وقع في نجد من الحـوادث في أواخـر القـرن الثـالث عشر والقرن الرابع عشر" يتنـاول الأحـداث المنتهيـة عـام 1885ـ1886، ولكنـه كتبـه أو أنجـزه في عهـد مؤسس العربية السعودية المعاصرة عبد العزيز (أبن سعود) الذي يمتدحـه في مـدخل الكتـاب. ولم نتمكن من العثور على هذا المصنف. لذا اعتمـدنا على كتابـة "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد".

وهناك مصنف احدث هو "عنوان السعادة والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز ونجـد" لمؤلفـه عبـد الرحمن بن الناصر. ويتنـاول الأحـداث حـتى منتصـف ثلاثينات القرن العشرين. وقد استخدمنا هـذا المرجـع بصورة غير مباشرة، عن طريق عرض مضمونه الذي قدمه المستشرق الإنجليزي فيلـبي وبعض المـؤرخين العرب.

ومن المصادر الهامة مصنف ضـاري بن فهيـد بن رشد، فهو يعبر عن وجهة نظر شـمر بشـان الأحـداث في نجد في النصف الثـاني من القـرن التاسـع عشـر ومطلع القرن العشرين. و "تـاريخ ملـوك آل سـعود" في أواخــر القــرن التاســع عشــر ومطلــع القــرن العشرين لمؤلفه الأمير سعود بن هـذلول أحـد أفخـاذ آل سعود.

وخلال السنوات الأخيرة بدا استخدام عدة مصنفات مخطوطة وأحدها بقلم البسام استندنا إليها عند إعداد المواد المكرسة لتأسيس المملكة العربية السعودية في الثلث الأول من القرن العشرين.

وتشكل **مؤلفات محمد بن عبد الوهاب وأتباعه** مجموعة من المراجع الهامة جدا لدراسة المذهب الوهابي، وقد وصلتنا في العديد من المستنسخات التي يحفظ بعضها في مكتبات ومتاحف أوروبا الغربية. وقد ورد عند أبن غنام أو ابن بشر أو كليهما ذكر المؤلفات التي تعبر عن جوهر الوهابية: "كتاب التوحيد" (وهو اقدم تلك المؤلفات، وضع في ثلاثينيات القرن الثامن عشر) و "كتاب كشف الشبهات في التوحيد". و "كتاب الكبائر" ومسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية" و "مختصر سيرة الرسول". أما مؤلفات أبن عبد الوهاب الأخرى، ومنها "مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد" و "أصول الإيمان و "فضل الإسلام ونصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين" و "الأصول الثلاثة وادلتها" و "الرسائل"، فهي عديدة وقد أدرجها كارك بروكلمان في مراجع كتابه "تاريخ الأدب العربي".

وقد طُبعت مؤلفات أبن عبد الوهاب استنادا إلى المستنسخات المبكرة العائدة إلى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، مع أنها، على ما يبدو، قد روجعت في ما بعد. ثم أن المعلومات التي جمعها المستشرقون الأوربيون عن مذهب الوهابيين تطابق على العموم الأصول

المعروضة في هذه المراجع. وقد اشتهر عبد الله، وهو أبن مؤسس الوهابية، بتأليف كتب في الفقه أيضا.

ومنها "الرسالة" التي نشرت في الترجمة الإنجليزية لاول مرة نقلا عن مخطوطة عربية عام 1874 في "مجلة جمعية البنغال الآسيوية (المجلد 43، الجزء الأول، ص 68_82) (وذكرت المجلة، خطا هنا، أن المؤلف هو حفيد محمد بن عبد الوهاب). ثم نشرت في مجموعة "الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية"_ التي صدرت عام 1923 /_ 1924 . وتعتبر "الرسالة" ذات قيمة لانها غير مُثقلة بالاستشهادات والأحاديث والتعليقات وتعبر بدقة عن بعض أصول الوهابية.

وكتب عبد الرحمن بن حسن، حفيد محمد بن عبد الوهاب، في أمور فقهية كثيرة. فكان مؤلفه "فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد" عبارة عن تعليق ضاف على مؤلف أبن عبد الوهاب "كتاب التوحيد". وتتجاوب مع تعاليم الوهابية أيضا "رسالة" الفقيه النجدي، احمد بن ناصر بن عثمان، من أعيان آل معمر.

أن العثور على **مؤلفات خصوم الوهابية** الآن اصعب بكثير مما في السابق.

وبالإضافة إلى مؤلفات أبن زيني دحلان وأبن رزيق، تجدر الإشارة إلى مخطوطتين في المسائل الأصولية محفوظتين في مكتبة توبينغين في ألمانيا الاتحادية. وهما "رسالة في رد أبن عبد الوهاب"

لمحمد بن عفالق الحنبلي الاحسائي و "المشكلات المضية ردا على الوهابية" لابن السويدي.

كتابات الأوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية والبلدان المجاورة في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر.

كان الرحالة الدانمركي نيبور أول من حمل أنباء الوهابيين إلى أوروبا قبل اكثر من مائتي عام.

وفي سبعينات القرن الثامن عشر زار الرحالة والعالم الموسوعي فولني الشام وفلسطين، ولكنه لم يصل إلى الجزيرة العربية. ومع ذلك تتميز كتاباته عن البدو الأعراب المترحلين على مقربة من غزة وأحاديثه عن قبائل الجزيرة بدقة الملاحظة والأحكام.

وفي عام 1807 زار الحجاز ومكة مخبر نابليون، وهو أسباني اسمه باديا أي ليبليخ انتحل لنفسه أثناء تجواله اسم علي بك.

ويحتل بوركهاردت مكانا بارزا بين الرحالة. وهو سويسري الأصل يحمل الجنسية البريطانية، وكان مندفعا برغبة عارمة في التجوال. وكانت الحجاز التي وصلها عام 1814_1815 مجرد مرحله في تجواله. وقد جمع معلومات كثيرة جدا عن الجزيرة العربية وعن حياة العرب مستندا إلى أحاديثه الشخصية مع الحجازيين والنجديين. ولم يكتف بوركهاردت بدراسة تاريخ الوهابيين ومذهبهم وتركيب الدولة السعودية الأولى، بل تناول كذلك العلاقات الاجتماعية والشريعة عند البدو والحضر على حد سواء، كما اهتم بأشكال الأسرة والملكية وجباية الضرائب. وكانت الثقافة الواسعة التي يتحلى بها هذا الرحالة

وسعة افقه إلى جانب النزاهة العلمية قد ساعدته في تأليف كتب لولاها لبقيت معلوماتنا عن الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شحيحة للغاية. ويجدر بنا أن نذكر بين مزايا بوركهاردت الكثيرة أسلوبه الممتع الذي لا يترك سبيلا أمام الضجر المرهق في مطالعة الكثير مما كتبه الرحالة الأوروبيون.

وفي عام 1819 عبر الضابط البريطاني ج. سادلر شبه جزيرة العرب من القطيف إلى ينبع.

وكتب الأوروبيون عن الجزيرة العربية من البلدان المجاورة أيضا. ويحتل مرتبة الصدارة بين هذا النوع من المؤلفات "تاريخ الوهابيين" الذي أصدره عام 1810 ل. كورانسيز القنصل الفرنسي في حلب. وكان كورانسيز قد شارك مع مجموعة من العلماء في حملة نابليون على مصر ثم استقر في حلب، حيث عاش ثماني سنوات. ويتضمن كتابه معلومات غير قليلة عن التاريخ السياسي لدولة السعوديين وبُنيتها ومذهبها. إلا أن كتاب كورانسيز "تاريخ الوهابيين" لا يخلو من الأخطاء والأحكام غير الموزونة.

وجمع المدفعي الفرنسي ج. رايمون الذي كان في خدمة والي بغداد مواد في العراق وضمنها تقريرا بعث به إلى وزارة الخارجية الفرنسية.

وكان بريجيز، المعتمد السياسي لشركة الهند الشرقية في البصرة (اعتبارا من عام1784) ثم في بغداد، قد نشر مذكراته بعد مرور عدة عقود على عودته من الأقطار العربية.

وقد وصلت إلى الصحافة الروسية معلومات عن الوهابيين بالأساس عن طريق أوروبا الغربية.ومن اقدم الكتابات التي تم العثور عليها (بعد طبع "رحلة" فولني) ما نشرته مجلة "بشير أوروبا" (فينسك يفروبي) بالروسية عام 1803: "قدر للجزيرة العربية أن تكون مهد الثورات الآسيوية. الإمام الجديد هناك عبد الوهاب لديه الآن...قوات غفيرة وهو يقترب من مكة". وفيما بعد نشرت "مجلة المنوعات الأدبية (1805) ومجلة "بشير أوربا" (1819) مقالات ألقت الأضواء على الأحداث في الجزيرة العربية.

ويقدم **الرحالة الأوروبيون** الذين زاروا شبه جزيرة العرب بعد ج.سادلر في القرن التاسع عشر مادة غنية ممتازة لإيضاح حياتها الاجتماعية والسياسية. فهم يضيفون إلى ما كتبه بوركهاردت و فولني ونيبور والمؤرخون العرب ويثبتون شيئا فيه أو ينفون شيئا أخر فيساعدون على دراسة مجتمع الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وفي ثلاثينات القرن الماضي زار الضابط البريطاني د. ولستيد عمان وجاب ساحل الجزيرة. وفي الوقت نفسه تقريبا زار الفرنسي م. تاميزيه الحجاز وعسير،وفي الأربعينات تجول العالم الفنلندي فالين في ربوع الحجاز وشمال الجزيرة، وزار الإنجليزي ر. بارتون في الخمسينات الحجاز وبادية الشام. وفي عام 1854 زار الفرنسي ش. جيديه مكة. وفي عام 1862ـ1863 تسلل عضو سلك الجزويتين (اليسوعيين) المخبر الفرنسي و. بلغريف

إلى أواسط نجد وزار عاصمة الدولة الوهابية الجديدة _ الرياض،وكذلك القصيم والأحساء. وقد أبديت الشكوك مرارا في حقيقة رحلة بلغريف، وذلك بسبب عدم دقته، ولكن هذه الرحلة تأكدت الآن بالفعل.

وكان ل. بيلي المقيم البريطاني في بوشهر قد زار الرياض عام 1846 _ 1865 وفي ذلك الوقت تقريبا زار الإيطالي ك. غوارماني شمال نجد.

وتجول العالم الأثرى والكاتب الإنجليزي دوتي في شمال نجد والحجاز عام 1876 _ 1878. ويعتبر مؤلفه تحفة في أدب الرحلات الإنجليزي. والمعلومات التي يوردها دوتي غنية جدا.

وتجدر الإشارة إلى الرحالة الفرنسي يوبير الذي زار شمال نجد والحجاز عام 1878_ وعام 1883 _ 1884وقتل هناك، وإلى الرحالة الإنجليزي بلانت وعقيلته اللذين زارا بادية الشام وجبل شمر عام 1878 _ 1879 وعام 1881، ومربي الخيول الروسي ستروغونوف وشرباتون وعقيلته الذين قاموا برحلتين إلى بادية الشام في 1888 و1890، والضابط الروسي دافليتشن الذي زار الحجاز في أواخر السبعينات.

ومن بين المؤلفات المكرسة لبدو الجزيرة الرحل نشير إلى كتابات المستعرب والمخبر الألماني فون أوبينهايم الذي تجول في بادية الشام في تسعينات القرن التاسع عشر، ولكن مؤلفه عن البدو بمجلداته الثلاثة لم يصدر إلا بعد عدة عقود.

واستمرت الدراسات الأوروبية للجزيرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

ويبرز خصيصا بين جميع الباحثين فيلبي وديكسون. فقد صرف كلاهما قسما كبيرا من حياته في الجزيرة العربية ودرساها من النواحي الجغرافية والاجتماعية والاثنوغرافية. كان فيلبي ضابطا في الجيش البريطاني الهندي. واعتبارا من عام 1917 عمل في الفيلق البريطاني في العراق، وفي العام نفسه صار ممثلا سياسيا لبريطانيا عند ابن سعود. وفي بداية العشرينات عُين مندوبا سياسيا لبريطانيا في شرق الأردن. وفي عام 1925 ترك الخدمة الرسمية في الجيش البريطاني وأقام في العربية واعتنق الإسلام بعد بضع سنوات. وفي فترة معينة مارس تجارة سيارات فورد. وكان واحدا من الوسطاء لدى توقيع اتفاقية امتياز شركة "ستاندارد أوبل أوف كاليفورنيا" التي أرست بداية شركة ارامكو الجبارة التي هي أول منتج للنفط في العالم. وقام فيلبي بدراسة عدد من مناطق العربية السعودية وخلّف مذكرات كثيرة عن رحلاته.

أما نطاق رحلات ديكسون فهو أضيق من ذلك. لقد كان ممثلا سياسيا لبريطانيا في إمارات شرق الجزيرة ثم مقيما سياسيا في الكويت. وقد زار المناطق الوسطى من شبه جزيرة العرب. ويتضمن كتاباه "عرب البادية" و "الكويت وجاراتها" وصفا هاما، فريدا من نوعه أحيانا، لحياة القبائل البدوية ونشاطها الاقتصادي وبنيتها الاجتماعية، وكذلك طائفة

من المعلومات الهامة عن تاريخ العربية السعودية والكويت.

أما لورانس فانه يشغل مكانة خاصة، لقد كان ضابطا للاتصال عند شريف مكة أبان انتفاضة عرب الحجاز ضد الأتراك. وبعد الحرب العالمية الأولى احتاجت الدعاية البريطانية الرسمية إلى أبطال فجعلت من لورانس واحدا منهم. وزادت من أمجاده مؤلفاته التي كتبها بومضات أدبية لا جدال في قيمتها. ولكن تلك لم تكن مؤلفات عن جزيرة العرب والانتفاضة العربية ضد الأتراك بقدر ما كانت مؤلفات بقلم لورنس عن دوره شخصيا في هذه الانتفاضة ، وليس دوره الفعلي طبعا، بل الصورة التي تخيلها عبر منظار الغرور الذي كان يعاني منه. لذا، لم تكن لمؤلفاته أهمية علمية كبرى.

وكثيرا ما طاف العالم التشيكي، ا. موسيل، في شمال الجزيرة العربية والأقطار المجاورة لها اعتبارا من أواخر التسعينات وحتى عام 1917 .وأبان الحرب العالمية الأولى، كان يؤدي مهمات الأركان العامة النمساوية _ المجرية في جبل شمر. وقد نشر عدة مؤلفات بعضها ذو طابع اثنوغرافي.

وتجدر الإشارة إلى دراسة ا. جوسان المكرسة لبدو الجزيرة، وكذلك إلى مؤلفات ر. مونتان.

وترك تسجيلات بمختلف الصياغات العالم الطبيعي د. كاروتيرز الذي عمل في شمال غربي الجزيرة وبادية النفود عام 1909 والباحث الدنماركي ب. راونكيار الذي زار نجد عام 1912 والباحث الألماني ك. راسوران الذي عمل في بادية السام في

الفــترة 1911_ــ 1914 وفي مطلــع العشــرينات، وكذلك الباحثون الانجليز س. باتلروج. ليشمان ور. شيزمان.

وألفت المخبرة البريطانية والمستعربة الكبيرة هيرترودا بيل عدة كتب. وكتب ب. توماس وصفا لرحلاته إلى شمال الجزيرة في الجزيرة في العشرينات ودراسات عن وسطها وجنوبها.

ويهيئ مؤلفون آخرون في هذه الفترة الإمكانية لإدراك الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لشبه جزيرة العرب في الثلاثينات والأربعينات بشكل افضل. ومن هؤلاء المؤلفين الرحالة الإنجليزي و.سيبروك والقنصل الهولندي في جدة فان دير ميولين وقائد السلك العربي في الأردن والكاتب الثر فيما بعد حول القضايا العربية ج.غلوب وغيرهم.

وثمة طائفة من الكتب التي ترد فيها أحيانا بعض الوقائع الجديدة، وربما القليلة الأهمية، عن مجتمع الجزيرة. وهي من تأليف أوروبيين وأميركان زاروا جزيرة العرب في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات،ومنهم ك. نالينو وج. ديغوري وا. زيشكه وج. خير الله وف يلزان. وغ. ارمسترونغ ود. هاورز وا. راتر وف.توميشا وك. تويتشل وا. فالك وم. شيني ور. سانجر وب. هاريسون. وتساعدنا معلوماتهم في الحكم بمزيد من الوضوح على التبدلات التي جرت في الجزيرة خلال عدد من العقود الأخيرة، كما تساعدنا في الدراسة الأفضل للأنظمة الاجتماعية المعروفة هنا طوال القرون والتي ظلت باقية حتى الآونة الأخيرة تقريبا.

ونجد معلومات تفصيلية عن البـاحثين الأوروبـيين الـذين درسـوا الجزيـرة العربيـة في كتب ا.زيمهـه وا.رالي وس. زويمـير ود. هوغـارت وف. بارتولـد ور. كيرنان وج. بيرين.

وتشـكل **وثـائق ومطبوعـات الإدارة البريطانية الهندية** مجموعـة هامـة من المراجـع والمصادر التي لم يبدأ اسـتخدامها في البحث العلمي إلا في العقـدين الأخـيرين. ومن أبرزهـا مجموعـة الاتفاقيـات بين الهنـد والبلـدان المجـاورة، وهي المجموعـة الـتي أعـدها ك. ايتشيسـون في أواخـر القرن التاسع عشر ونشرت لاول مرة في كلكتا عـام 1892.وصـدرت الطبعـة الثانيـة المزيـدة من هـذه المجموعة في دلهي عام 1933.

وفي الفترة 1908ـ1915 نشر ج. لوريمير، وهو موظف في الإدارة البريطانيـة الهنديـة،مؤلفـاً ضـخما بعنـوان "سـجل الأحـداث في الخليج وعمـان ووسـط الجزيرة". يحتوي هـذا المؤلـف على بضـعة آلاف من الصـفحات من القطـع الكبـير. وكـان مخصصا خلال فـترة طويلـة للاسـتخدام الإداري، ولم يتمكن علمـاء البلـدان الأخـرى من الإطلاع عليـه إلا بعـد الحـرب العالمية الثانية. وتكمن قيمته في كونه يجسـد وجهـة نظر الإدارة البريطانية الهندية بخصوص الأوضـاع في بلـدان الخليج ومجمـوع المعلومـات الـتي كـانت في حوزتها عن هـذه المنطقـة ابتـداء من القـرن الثـامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين. أمـا عيب مؤلـف لوريمير هذا فهو قلة الإشارة إلى المراجـع. ويصـعب القـول على وجـه التحديـد هـل اسـتقى لوريمـير

معلوماته من مؤلفات بوركهاردت وكورانسيز ومنجين وبريجيز وغيرهم أم من إخباريات رجال المخابرات البريطانية.

وتتميز بقيمة كبيرة من هذه الناحية منشورات ج. سالدانا المكرسة لمنطقة الخليج في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي استند فيها إلى مواد الارشيفات البريطانية الهندية. ولكننا لم نتمكن من الحصول عليها، واكتفينا بالاستفادة من استشهادات ر. ويندير الكثيرة بها في مؤلفه "تاريخ العربية السعودية في القرن التاسع عشر".

المطبوعات السعودية الرسمية. نشرت إحصائيات سعودية هامة، بما فيها إحصائيات عن قوام المجتمع السعودي، في "الكتاب الإحصائي السنوي". كما أن مجاميع الوثائق والبيانات السعودية تتميز بأهمية معينة.

لقد أسفر النزاع السعودي البريطاني بسبب واحات البريمي عن ظهور "مذكرة حكومة العربية السعودية" بثلاثة مجلدات و "مذكرة" الحكومة البريطانية بمجلدين. وكانت الطبعة السعودية تستهدف إثبات عائدية الأراضي المتنازع عليها إلى العربية السعودية، ولكنها تضمنت في الوقت نفسه طائفة من المواد الجديدة عن جباية الضرائب وعن القبائل.

وفي القرن العشرين ظهر بين **المراجع العربية التي ألفها أشخاص ساهموا في الأحداث** مرجع يمكن أن يقارن، من حيث أهميته لدراسة مجتمع العربية السعودية في القرن الحالي

بكتـــاب "عنـــوان المجـــد في تـــاريخ نجـــد" و "لمـــع الشهاب" بالنسبة للقرن الثامن عشر والنصـف الأول من القرن التاسع عشر. ونعني بـه كتـاب خـير الـدين الـزركلي بأربعـة مجلـدات:"شـبه الجزيـرة في عهـد الملك عبد العزيز. بديهي أن هـذا الكتـاب يـدافع دون تحفظ عن مؤسس العربية السعودية وعن آل سـعود وعن النظام السعودي عموما. ولكن إلى جـانب ذلـك فهو عبارة عن مجموعة غنية من المعلومات الواقعية المتنوعة عن البلاد ـ من النشوء حتى تشكيل الجيش النظـامي، ومن النظـام القضـائي والحقـوقي حـتى الاثنوغرافيا، ومن الاقتصـاد حـتى التفاصـيل الفكاهيـة لحياة البلاط الملكي. وكان الزركلي، الذي خدم مـدة طويلة في وزارة الخارجية، قد ادرج ضمن كتابه عدة وثـائق قيمـة من موجـودات الدبلوماسـية السـعودية. ولكن من عيوب الكتاب عدم الإشارة إلى الكثـير من المراجع.

وترك لنا حافظ وهبه المصـري الـذي خـدم زهـاء خمسين عاما عند الملوك السـعوديين مـذكرات تزيـد من معلوماتنا عن تطور المجتمع السعودي. فقد كـان أبن سـعود يأتمنـه في المباحثـات الدبلوماسـية، كمـا شغل وهبه مناصب إدارية هامة في الحجاز بعد فتحـه وترأس ديـوان التربيـة وعمـل سـفيرا للسـعودية في لنـدن، وخلــف عــدة مؤلفــات. ويتحــدث وهبــه عن النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي للحضر والبدو في وسط الجزيرة قبل ظهور الصناعة النفطيـة وعن حركة الأخوان.

وألف فؤاد حمزة السوري الذي كان في خدمة الملوك السعوديين أيضا عدة كتب، تتضمن فيما تتضمن، معلومات ذات طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي عن العربية السعودية قبل عصر النفط.

أن مطبوعات **المعارضة السعودية**، بما فيها اليسارية المتطرفة، قليلة ولكنها قيمة لانها تكشف عن توجهات المنظمات التي تعارض النظام السعودي.

وإلى جانب المئات من المؤلفات السطحية التي لا تتسم في الواقع بأهمية علمية،

أخذت تظهر بين **المطبوعات العربية في الثلاثينات حتى السبعينات** مؤلفات جادة،

ومنها دراسة التطورات الاجتماعية والاقتصادية في منطقة القصيم النجدية والتي أعدها الباحث السعودي عبد الرحمن الشريف في أواسط الستينات. وفي عام 1965 أصدرت جامعة الدول العربية كتابا عن البدو الرحل في الاقطار العربية، بما فيها جزيرة العرب. وقدم نزار الكيالي شرحا ضافيا لقوانين العمل. وتناول محمد صادق (ولعله مصري) تطور الجهاز الإداري السعودي. أن **المؤلفات العربية في تاريخ العربية السعودية** تستند بالأساس إلى مصنفات الجزيرة، ولا تستخدم كثيرا المراجع والمطبوعات الأوروبية. ثم أن المؤلفين العرب يقتصرون، عادة، على سرد الأحداث التاريخية دون أن يمحصوا مضامينها السياسية، ناهيك عن مضامينها الاجتماعية. ونلاحظ ذلك حتى عند افضل

الباحثين، من أمثال محمود شكري الالوسي وأمين الريحاني واحمد علي وأمين سعيد وصلاح الدين المختار واحمد عبد الغفور ومحمد عبد الله وراقب حراز ومنير العجلاني. ويهتم خصوصا بعرض المذهب الوهابي عبد الله القاسمي واحمد أمين ومحمد حميد الفقيه وعباس محمود العقاد وكذلك محمد رشيد رضا أحد زعماء الحركة الإصلاحية الإسلامية في مصر. وتتناول مؤلفات محمد المدني وحسين ناصيف نشأة العربية السعودية.

ويتميز بمستوى أعلى بعض الشيء كتاب الباحث الحجازي عبد الحميد الخطيب "الإمام العادل" الذي يتحدث عن عهد عبد العزيز. وهو يحتوي على طائفة من الوقائع التاريخية المجهولة أو غير المعروفة كثيرا. وكان مؤلفه من خصوم السعوديين سابقا ومن مؤسسي الحزب الحجازي اللبرالي. وبعد تدمير الحزب عفا أبن سعود عن زعمائه وأعيد إليهم اعتبارهم بعد فترة من الزمن. وكرس عبد الله عبد الجبار وفهد المارك دراسات للفكر والأدب في العربية السعودية في القرن العشرين.

ويتناول الحقوقي صبحي المحمصاني بالتفصيل النظام الحقوقي والشريعة في العربية السعودية.

وأورد عبد الرحمن عبد الرحيم بعض المواد الجديدة من الارشيفات المصرية وغيرها عن تاريخ الدولة السعودية الأولى، كما أورد عبد الفتاح أبو علية معلومات مماثلة عن الدولة السعودية الثانية.

ثم أن **الكتب الجديدة المدافعة عن الوهابية** والتي ألفها سليمان بن سحمان تتضمن،

بالإضـــافة إلى الأصـــول الوهابيـــة، مقتطفـــات من مؤلفات خصوم الوهابية.

وفي "عصر البترول" ازداد مـرارا عـدد المؤلفـات الأوروبيـة الغربيـة والأميركيـة الخاصة بالعربية السعودية. وبـديهي أن رحالـة أوروبيين كثيرين تناولوا التغيرات الاجتماعية السياسة والاقتصـادية. ويضـاف إلى ذلـك عـدد من المؤلفـات الهامة.

في بداية الخمسينات أجرى ف. فايدال، بتكليـف من إدارة أرمـك، دراسـة ميدانيـة لواحـات الأحسـاء، وجمـع طائفـة من المعلومـات الجديـدة عن الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها.

وفي أواخـر السـتينات أعـدت الباحثـة اليابانيـة موتوكو كاتاكورا دراسـة ميدانيـة مختصـة اثنوغرافيـة واجتماعيـة واقتصـادية في وادي فاطمـة بين مكـة والمدينة. وكانت هذه الدراسة ذات قيمة لانها تتضمن وصـفا لسـكنى الحضـر والروابـط بينهم وبين قبائـل البـدو، والصـلات الاجتماعيـة التقليديـة واسـتخدام العلاقات البضاعية النقدية.

وأجـــرى و، راو الـــذي كـــان مـــديرا لمكتب الاسـتعلامات في السـفارة الاميركيـة في الريـاض تحليلا لنظام التعليم في العربية السـعودية ودوره في المجتمع. وجمع معلومـات قيمـة مـع أن طريقتـه في تصـنيف النـاس ضـمن "صـفوف" طبقـا لتحصـيلهم العلمي لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد.

وهناك طائفة من الكتب الاميركية الضخمة حـول العربية السـعودية لا يمكن إدراجهـا رسـميا في عـداد

المراجع ولكنها تعتبر مراجع على أي حال. ومنها كتاب "جزيرة أبن سعود" بقلم موظفي ارامكو ليبكتشر ورينتز وستينيكه، وقد نشر عام 1952، وكتاب "العربية السعودية: سكانها ومجتمعها وثقافتها" بقلم ج. ليبسكي وآخرين،وقد صدر عام 1959، وطبعتان صدرتا عن وزارة العمل الاميركية بعنوان "قوانين العمل والتطبيق في العربية السعودية"، "وكتاب شبه سري بعنوان "الدليل الإقليمي للعربية السعودية"، وقد صدرت منه عدة طبعات مزيدة.

أن هذه الكتب موضوعة على أساس التي جمعت في العربية السعودية مباشر، بما فيها الدراسات الميدانية الاثنوغرافية والانثروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية. فقد استخدم واضعو "الدليل الإقليمي، مثلا، تقارير ودراسات المخابرات الاميركية والسفارة الاميركية وعدد من دوائر ارأمكو. وكانت في متناول أيديهم مواد الارشيفات وبعض التقارير الإحصائية الأصلية لمختلف الدواوين السعودية. وهذه الكتب غير مخصصة للجمهور الواسع، فهي تعني بالدرجة الأولى الخبراء والأشخاص المرتبطين بالعربية السعودية مباشرة _ رجال الأعمال والمهندسين والدبلوماسيين والصحفيين. لذا فهي غاصة بكثير من الوقائع والأرقام وتحتوي على بعض التقييمات الموضوعية. إلا أن نقطة الضعف المشتركة بينها، شأن كل المطبوعات الاميركية بخصوص العربية السعودية، هي طابعها المتحيز للسياسية الاميركية ونشاط

أرمك. وان تقييماتها للنظام السعودي على أكبر قــدر من الحــذر، فهي اقــرب إلى الــتزلف ممــا هي إلى التحليل العلمي. ولكن بوسـع البـاحث أن يغـترف من هذه المطبوعات معلومات عن طـابع علاقـات الأرض واستثمارها والتغيرات في الزراعـة وخصـائص نشـوء الطبقة العاملة والبرجوازية، والتطورات في المجتمع السـعودي وإصـلاح جهــاز الحكم وتطــور النظــام الحقوقي.

ألــف ر. كنــاويرهيز كتابــا قيمــا في الاقتصــاد السعودي في أواسط السبعينات أورد فيه الكثـير من الوقــائع والأرقــام المســتقاة مباشــرة من مصــادر سعودية.

ومن المؤلفــات ذات الطــابع السياســي بــل الصحافي على الأغلب، والتي تتضـمن تفاصـيل هامـة عن الأوضاع في العربية السـعودية، كتـاب" الجزيـرة العربيــة بلا ســلاطين" بقلم الكــاتب الإنجلــيزي ف. هولـدي، وكتابـان ألفهمـا بصـورة مشـتركة الباحثـان الفرنســيان ل. شــامبينوا وج ـ ل. ســوليه. وتعتــبر مقالات ب. بونيتغـان من الكتابـات الصـحفية الجـادة. وفي الســنوات الأخــيرة صــدرت كتب في الاقتصــاد السـعودي اسـتخدم مؤلفوهـا الطرائـق العصـرية في البحث الاقتصادي استنادا إلى مـادة معلوماتيـة غنيـة. ومنها كتب ر.كراين وب. لوني وف.الفارسي.

واشتهر بين المؤلفين الغربـيين الـذين كتبـوا عن القضايا النفطية في الشـرقيين الأدنى والأوسـط كـل من س.لونغريـغ وب.شـفادران وش. كليبـانوف وف.

روحاني وج _ م شفاليه وش. علي واضعي دليل ارأمكو وأدلة آوبيك وأوابيك.

وتتناول طائفة هامة من المؤلفات الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الراهنة في العربية السعودية، ومنها مؤلف ج. لبركز وك. سنكلير حول نزوح السكان وكتاب ج. كارتر وبحث إبراهيم سعد الدين وكذلك كتاب "الدولة والمجتمع والاقتصاد في العربية السعودية" لجماعة من المؤلفين.

وحلل ج. بارودي النظام الحقوقي في السعودية. وأبدى مؤلفو كتاب "المملكة العربية السعودية" الصادر في لندن ب. هوبدي وا.كيليدار ود. لونغ اهتماما كبيرا بالقضايا الاجتماعية والسياسية، بما فيها تركيب السلطة والقانون.

وفي الثمانينات والتسعينات في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية ازداد الاهتمام بالعربية السعودية. ومن المستحيل الإشارة إلى كل المؤلفات الصادرة في هذا التقديم الموجز. ولا نذكر سوى المطبوعات بقلم الباحث الأميركي نداف سفران التي أثارت رد فعل سلبي في الدوائر الرسمية في الرياض وكتاب بإشراف "تيم نبيلوك" من بريطانيا العظمى.

وخلال السنوات العشر الأخيرة نشرت الحوليات والدوريات الغربية والعربية الكثير من المقالات عن العربية السعودية.

أن المطبوعات الأوروبية الغربية والروسية الصادرة قبل ثورة أكتوبر حول تاريخ العربية السعودية تتميز، أساسا،

بطريقتها الوصفية التي تتجاهل الجانب الاجتماعي من الأحداث، كما تتميز بملاحظات سطحية عن الدوافع السياسة لتلك الأحداث، ولا تعترف أكثرية المستشرقين الأوربيين بوجود أي تطور في مجتمع الجزيرة حتى القرن العشرين. ولا يختلف عن ذلك كتاب المستشرق الروسي ا. كريمسكي "تاريخ العرب والأدب العربي" بجزأين (1911_1912).

والمؤلف الأوروبي الوحيد الذي يتناول بتفصيل كبير تاريخ السعودية كله هو كتاب فيلبي "العربية السعودية" الصادر عام 1955 والذي سبق أن أشرنا إليه.وهو عبارة عن صيغة موسعة لكتابه الأسبق "الجزيرة العربية" الذي صدر عام 1930 .واعتمد فيلبي في سرد الأحداث كليا على مصنفات مؤلفي الجزيرة ابتداء من أبن غنام وحتى أبن هذلول، وكان أول أوروبي قام بهذا العمل. ولكنه يتحاشى الاعتماد على المراجع الأوروبية في تاريخ الجزيرة ويبدي أدنى قدر من الاهتمام بتطور البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصاد. ولا يمكن أن تنسب إليه فضيلة الموضوعية وعدم التحيز في عرض الوقائع التاريخية. كما انه كان مولعا بشخصية أبن سعود،فأضفى صبغة مثالية على نشاط آل سعود. بيد أن المؤرخ الذي يتناول دراسة العربية السعودية لا يحق له أن يتجاهل كتب فيلبي في أدب الرحلات ولا مؤلفاته التاريخية، وذلك لان صاحبها أوروبي مطلع عن كثب على خفايا الحياة في الجزيرة العربية، لذا فهو قادر على الالتفات إلى نقاط خفية يمكن أن يمر بها الباحثون الأكاديميون مرور الكرام.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث التشيكي ا.موسيل استخدم هو الأخر المصنفات العربية.

ومن بين المؤلفات الاميركية المنشورة والمخصصة لفترات معينة في تاريخ الجزيرة يبرز كتاب ر. ويندير الآنف الذكر: "العربية السعودية في القرن التاسع عشر"، وكتاب ج.ترولير "ميلاد العربية السعودية الحديثة" المكرس للعقدين الأول والثاني من القرن العشرين. وكلا الكتابين يعتمدان على مراجع كثيرة متنوعة، إلا انهما يقتصران بالأساس على سرد الأحداث السياسية.

أن بعض المستشرقين الأوروبيين، مثل العام المجري ا. غولدزيهير، يستعرضون بشكل صائب، على العموم، الجانب العقائدي الأصولي للوهابية ويشيرون إلى السمات الخاصة للمذهب الوهابي. ونجد عرضا تفصيليا للأصول الوهابية في مقالة مارغوليوس المنشورة في الطبعة الأولى " لدائرة المعارف الإسلامية" بأربع مجلدات. وكتب المستشرق الفرنسي أ. لياوست عدة دراسات هامة مكرسة لابن تيمية، سلف الوهابيين، وتأثير مذهبة على معتقدات الطبقة الحاكمة في المجتمع السعودي. كما أن لهذا المستشرق مقالة عن محمد بن عبد الوهاب في الطبعة الجديدة من "دائرة المعارف الإسلامية.

وفي الفترة من أواخر السبعينات حتى مطلع التسعينات صدرت عدة مؤلفات مكرسة للصحوة الإسلامية وتنشط الحركات الدينية في الشرق، وتتناول الإسلام في العربية السعودية. ومنها كتاب

ى. مورتيمير وكتابا "الإسلام في السياسة الخارجيـة" و "الشـيعة والـرفض الاجتمـاعي" لجماعـة من المـؤلفين، بالإضـافة إلى كثـير من المقـالات في الصحف والمجلات.

وفي **المطبوعـات السـوفييتية** كـان م. تومارا أول من تناول موضوع الوهابية وتـاريخ الدولـة السـعودية. ويعـود لـه الفضـل في طـرح الجـذور الاجتماعية للوهابية. إلا أن استنتاجاته غدت عتيقة في الوقت الحاضر.

وكتب أ. بتيرشيتس عـدة دراسـات عن الجزيـرة العربية ونظامها الاجتماعي والسياسي واثنوغرافيتهـا. وعرض حصـيلة دراسـات اسـتغرقت سـنوات طويلـة في كتاب جيد بعنوان "الاقتصـاد والنظـام الاجتمـاعي والسياسـة في شـمال الجزيـرة العربيـة في القـرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين". وقد اعتمدنا عليه في إعداد الفصـل الأول من بحثنـا هـذا. وهـو يتضـمن كميـة كبـيرة من الوقـائع المصـنفة والمقتبسة من أغلبية الرحالة الأوروبيين الذين طافوا الجزيـرة العربيـة. كمـا يحتـوي على تحليـل لمجتمـع الجزيـرة. وسـاعد كتـاب بيرشـيتس على الاسـتيعاب الأفضل لمجموعـة المصـادر الأوربيـة المدونـة. إلا أن بعض أحكـام المؤلـف قابلـة للجـدل. وقـد اسـتكمل بيرشـيتس آراءه وطورهـا بقـدر معين، الأمـر الـذي انعكس في مقالاتـه الـتي ظهـرت فيمـا بعـد بعنـوان "بعض خصائص نشـوء الطبقـات والعلاقـات الطبقيـة المبكرة عند الرعاة الرحل".

ونشر م. شوراكوف كتابا بعنوان "تاريخ نجد الحديث" لخص فيه كتاب أمين الريحاني الذي يصف الأحداث حتى أواسط القرن التاسع عشر كما جاءت عند أبن بشر. وشدد شوراكوف على النقاط الهامة في دراسة الاثنوغرافيا والعلاقات الاجتماعية في أواسط الجزيرة.

ويتيح كتاب ى.بيلايف "العرب والإسلام والخلافة في أوائل القرون الوسطى" إمكانية التعمق التاريخي في دراسة مجتمع الجزيرة العربية ومعتقداته على امتداد القرون. كما أن مؤلفات ن. ايفانوف عن القبائل العربية في شمال أفريقيا وتاريخ المغرب والمجتمع العربي والعثماني وكذلك كتابات الباحثة ا. سميليانسكايا عن آسيا الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لدارسي الجزيرة العربية تهيئ مجالا للمقارنات الاجتماعية والتاريخية الهامة.

وألف ن. بروشين بحثا بعنوان "العربية السعودية" أهم ما في جزئه التاريخي سرد أحداث الأربعينات والخمسينات ومطلع الستينات. ويستعرض الكتاب بشيء من التفصيل انتفاضة الإخوان في العشرينات. وهو أول محاولة في روسيا لتحليل منشأ الرأسمالية السعودية وظهور وتطور العلاقات الرأسمالية ونشوء الطبقة العاملة في العربية السعودية.

واصدر ف. أوزولينغ ثلاثة كتب قيمة عن العربية السعودية، وهي مكرسة بالدرجة الأولى لاقتصاد هذا البلد، ولكنها تحتوي في الوقت نفسه على مادة جيدة عن مجتمعه وعن تطور الأنظمة والمؤسسات

الاجتماعية والاقتصادية. وقد استعنا بتحليلات أوزولينغ الاقتصادية أثناء الحديث عن البنية الاجتماعية والسياسية للعربية السعودية في فصل "عصر البترول".

وألفت الباحثة الروسية ل. فاكوفا كتابا عن السياسة الخارجية للعربية السعودية في الستينات والسبعينات أساسا. ويتضمن الكتاب مادة وفيرة في هذا الموضوع. كما أصدرت المؤلفة كتابا أخر بعنوان "العربية السعودية: النفط والإسلام والسياسة".

وقد وضع ا. ياكوفلين كتابين وسلسلة مقالات معظمها مكرس لقضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي في العربية السعودية والعلاقات المتبادلة بينها وبين البلدان الغربية. وللباحث ياكوفليف بالاشتراك مع ف. ميشين كتاب عن دور الخليج في سياسة الولايات المتحدة وأقطار أوروبا الغربية. وحظيت قضايا السياسة الخارجية للعربية السعودية بالتحليل في كتابات ر. بوريسوف ول. ميدفيدكو وي. بريماكوف ور. توروسونوف، وكذلك في بحث "السياسة الخارجية لأقطار الشرقيين الأدنى والأوسط" بقلم جماعة من المؤلفين.

ويتضمن دليل "العربية السعودية" الصادر عام 1980 مادة غنية عن المملكة.

وكرس غ. بونداريفسكي كتابا للاوضاع في حوض الخليج على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. ويلقي المؤلف الأضواء على بعض قضايا تاريخ الجزيرة خلال تلك الحقبة.ويمكن تتبع سير الحرب العالمية الأولى بالنسبة للجزيرة العربية في

كتاب م.لازاريف "سقوط السيطرة العثمانية في العالم العربي".

ونجد توضيحات لبعض المسائل الحقوقية في المواد المخصصة لبناء نظام الدولة السعودية في كتاب "دساتير دول الشرقيين الأدنى والأوسط" مع أن ترجمة بعض النصوص تحتاج إلى تدقيق. وقام س. كامينسكي بتحليل الأنظمة الملكية في العالم العرب ، كما عالج ل. سوكيايينين في كتاب "الشريعة الإسلامية" القضايا المتعلقة بالفقه والشريعة في النظام الحقوقي السعودي.

وشهدت الثمانينات ومطلع التسعينات بحوثا إسلامية تناولت بهذا القدر أو ذاك قضايا الإسلام وأحواله الراهنة في العربية السعودية. ومن تلك البحوث "الإسلام في السياسة الراهنة لبلدان الشرق" و "العامل الإسلامي في العلاقات الدولية في آسيا" بقلم جماعة من المؤلفين والدليل الموسوعي "الإسلام وكذلك دراسات الباحثين ا. كودرباقتسيف ود. ماليشيفا وغ. ميلوسلافسكي ور. شريفوفا. كما كرس ف. شيستوبالوف بحثا لقضايا تحديد الجرف القاري في الخليج العربي.

ثم نشر كتبا عن العربية السعودية كل من ا. بيليايف وف. بوديانسكي وم. لازاريف وو. غيراسيموف. وظهرت في عدة مجلات روسية مقالات تناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية في العربية السعودية.

ويبدي الباحثون في روسيا اهتماما كبيرا بقضايا النفط ودور الصناعة النفطية في مجتمع بلدان

الشرق الأوسط، ومنها العربية السعودية. وفي مقدمة أولئك الباحثين ر.اندياسيان وب. راتشكوف وأ. مكسيموف وأ. بيوتروفسكايا وأ. بريماكوف وأ. سيف الملوكوف.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى **الفهارس الخاصة بالعربية السعودية** والتي وضعها ر. ماكرو وهيورت دون وج. ستيفينس ور. كينغ والباحثان السعوديان يحيى محمود ساعاتي وعبدالله القحطاني، وكذلك الدليل الذي صدر في واشنطن عام 1951 وقائمة المؤلفات الخاصة بالجزيرة العربية والمحفوظة في المكتبة الوطنية بالقاهرة، وكتاب "الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز. قائمة بيبليوغرافية مختارة عن حياته وأعماله". وفي عام 1994 اصدر الباحث الأستاذ فهد السماري من الرياض القائمة المفصلة للكتب المكرسة لعهد الملك عبد العزيز آل سعود. وتتضمن "بيبليوغرافيا العربية السعودية" (من وضع كاتب السطور) اكثر من أربعة آلاف عنوان كمؤلفات عن المملكة بالروسية والعربية وبلغات أوروبية. ويضاف إليها سجل "بيبليوغرافيا بلدان جنوب وشرقي الجزيرة العربية" من وضع ا. شفاكوف. ومن اكمل السجلات في هذا المجال "بيبليوغرافيا" هانس يورغين فيليب التي صدرت في ألمانيا عام 1984.

وفي عام 1989م صدر المجلد الثاني للبيبليوغرافيا للمؤلف نفسه. وللاسف لم يدمج "فيليب" في هذين المجلدين الكتب لا باللغة العربية ولا بغيرها من اللغات الشرقية ولا باللغة الروسية

واللغات الشرق أوروبية الأخرى. وقد زاد عدد المؤلفات البيبليوغرافية البحتة التي تخص العربية السعودية على اكثر من 100 كتاب.

الجزء الأول

الفصل الأول

الجزيرة العربية قبيل ظهور الوهابية

الاقتصاد والمجتمع والسياسة

ظهرت دولة السعوديين في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي على أساس حركة المصلحين الإسلاميين الوهابيين. بديهي أن دراسة مجتمع الجزيرة العربية بالدرجة الأولى يمكن أن تقدم لنا مفتاح فهم المذهب الوهابي وأسباب تأسيس وتطور واندثار وبعث الدولة التي تحمل اليوم اسم العربية السعودية . ونستدرك هنا فنقول إن اهتمامنا منصب على المناطق الوسطى والشمالية والشرقية من شبه جزيرة العرب، على نجد والأحساء . أما اليمن وعمان فلا نتناولهما بالدراسة. والسبب في ذلك لا ينحصر في كونهما قد احتفظتا باستقلالهما عن العربية السعودية، بل يكمن بالدرجة الأولى في احتفاظهما بالخصائص المتميزة تماما (الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسكانية والمذهبية) التي تقدم المبررات لاعتبار سكانهما شعبين مستقلين لهما مصيرهما وتركيبهما الاجتماعية

والسياسـي. لقـد كـان من الصـعب على الحجـاز أن يحتفظ باستقلاله لأن الحرمين في مكة والمدينة كانـا يسـتثيران شـهية جميـع الإمبراطوريـات في الشـرق الأوسـطـ وكـان النظـام الاجتمـاعي،والسياسـي والاقتصادي في الحجاز مشابهاً تقريبا للنظام في نجد التي لم تشـهد في الواقـع السـيطرة الأجنبيـة. إلا أن مكانـة الحجـاز كولايـة للخلافـة الأمويـة أو العباسـية، لمصـر أو الإمبراطوريـة العثمانيـة، وكـذلك الحج والتجارة والنشاطات الأخرى المرتبطة به، قد جعلتـه يختلف عن جيرانه. ولذلك فعندما نتكلم عن "مجتمع" نعـني بالدرجـة الأولى نجـد، مهـد الوهابيـة ودولـة السـعوديين، والمنـاطق المتاخمـة لهـا من الشـمال والشرق.

بحران من الرمال - صـحراء النفـود الكـبرى في الشمال والربع الخـالي في الجنـوب - يرسـمان على وجه التعريب حدود نجد الشمالية والجنوبية. وتنبسـط نجد من الغـرب إلى الشـرق من جبـال الحجـاز حـتى الخـط السـاحلي على الخليج. ويمتـد الانحـدار العـام لأراضـي البلاد من الغـرب إلى الشـرق. ويتمـيز الطقس بتذبذب منتظم لدرجات الحرارة - من القيظ الساخن الجاف في الصيف إلى الـبرد الشـديد نسـبيا في الشتاء. وغالبا ما تصادف سنوات جفـاف مطبـق. ولكن عندما تهطل الأمطار تعتبر خيراً مخلوطا ببعض الشرور. فالسيول العارمة التي تجتاح الوديان تسـفر عن كـوارث في بعض الأحيـان. أشـهر هـذه الوديـان وادي الرمـة الـذي يبـدأ في الحجـاز، شـمال شـرعي خيبر، ويتجه إلى الشرق على مسافة 360 كيلو مـترا

تقريبا ثم يلتف نحو الشمال الشرقي ويضيع بين الرمال ثم يظهر باسم آخر هو الباطن وينتهي قرب البصرة في العراق على مسافة ألف كيلو متر تقريبا من "منبعه". ومن الوديان الشهيرة الأخرى وادي حنيفة ووادي الدواسر ووادي نجران. والمياه الجوفية في الوديان أقرب إلى سطح الأرض، مما يوفر أسباب الحياة هناك. وفي وادي حنيفة بالذات ظهرت عدة واحات كبيرة صارت مهدا للوهابية وآل سعود.

وتقع في وادي الرمة المدينتان الرئيسيتان في منطقة القصيم، وهما بريدة وعنيزة.

إن نجد مقسمة إلى مناطقٍ ذات حدود مائعة. ألا أن تلك المناطق نشأت تاريخياً ويتميز كل منها بوحدة جغرافية معينة. وأهمها منطقة العارض التي يقطعها وادي حنيفة والتي تقع فيها الرياض العاصمة، ومناطق المحمل وسدير والوشم. وأهم مناطق الجنوب الخرج المعروفة بآبارها العميقة وأحواضها، والأفلاج التي ظلت باقية فيها قنوات الري الجوفية القديمة، ووادي الدواسر، وفي الشمال تقع منطقتان هامتان هما القصيم وجبل شمر. في القصيم توجد المدينتان المتنافستان بريدة وعنيزة الواقعتان على الطريق من البصرة إلى المدينة المنورة، لذا كانتا على الدوام مركزين تجاريين هامين. وتقع منطقة جبل شمر جنوبي صحراء النفود الكبرى، وهي أبعد قسم شمالي من أقسام نجد.

لقد حملت إلينا مراجع القرن الثامن عشر مشاهد متفرقة من الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. لكن المعلومات الأحدث تمكننا من تصور

اللوحة كاملة وأن بالخطوط العامة. أن تباطؤ تطور القوى المنتجة وثبات البنيات الاجتماعية طوال القرون يهيئان لنا فرصة "سحب" خصائص العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين على القرون السابقة.

كانت حياة السواد الأعظم من سكان نجد والأحساء وكذلك الحجاز مرتبطة أساسا بنوعين من النشاط الاقتصادي - الزراعة السيحية أو الإروائية في الواحات والرعي البدوي.

الزراعة الإروائية. إن الطقس الجاف شبه الاستوائي في القسم الأكبر من الجزيرة يستدعي ضرورة الإرواء الاصطناعي في الزراعة. وتنبجس إلى أسطح إللى أسطح مياه جوفية وفيرة بهذا القدر أو ذاك في المناطق الشرقية من الجزيرة فقط. أما أغلبية المناطق الأخرى فالإرواء ممكن بواسطة الآبار، وفي حالات نادرة تستخدم مياه الأمطار أو السيول. في بعض الأحيان تبعد منابع المياه عشرات بل مئات الكيلومترات بعضها عن بعض. ولكننا نصادف عدداً كبيرًا نسبياً من الواحات في نجد حيث تتواجد الطبقات الحاوية للمياه على مقربة من سطح الأرض، وكذلك في الأحساء.

وتطلب حفر الآبار جهداً كبيراً وأموالاً طائلة. وكانت الوسائل البدائية لرفع المياه تديرها الجمال والبغال والحمير. بديهي إن ذلك يحدد الأراضي الزراعية المروية وحجم الإنتاج الزراعي. فقد كانوا يروون فداناً واحداً على وجه التقريب (خمس

الهكتار) من بئر عادي بعمق عشرة أمتار تقريباً ترفع مياهه بواسطة شادوف أو ناعور أو غيره (1).

وكانت النخيل هي المزروعات الرئيسية في المناطق الشمالية والوسطى من الجزيرة. ويستخدم التمر طعاماً بمختلف الأشكال، وكان يمثل المحصول الزراعي الهام الوحيد الذي يسد حاجات الحضر والبدو على نحو ما في سنوات "الرخاء".

وتأتي الحبوب - الشعير والدخن والقمح والهرطمان - في المرتبة الثانية بعد التمور. ومعروف أن كمية معينة من الحبوب كانت تنقل من نجد إلى الحجاز في بعض السنوات. وكانوا في بعض الأماكن يزرعون الأرز والقطن والخضر والفواكه.

وكانوا يجنون في الأراضي المروية محاصيل كبيرة نسبيا، إلا أن الحجم الإجمالي للمحاصيل غير كبير بسبب محدودية الأراضي المفلوحة وقلة الأسمدة وبدئية الطرائق الزراعية. إن الجفاف المتواصل الذي كتب مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوروبيون عن مصائبه يعني استحالة ضمان جني محاصيل ثابتة حتى في الأراضي المروية. وفي فترات الجفاف الطويل الأمد تجف بعض الآبار نهائياً. وعند ذاك تهلك المزروعات وتتقلص مساحات الأراضي المفلوحة وتذبل حتى النخيل وتغدو عقيمة ويعاني السكان من المجاعة فيموتون أو يرحلون عن ديارهم زرافات ووحدانا. وعندما تهطل الأمطار من جديد يستأنف الفلاحون البذار ويشرعون برعاية ما تبقى من نخيل، ولكن بعض الواحات يكون قد اختفى إلى الأبد.

وليس الجفاف وحدة من خصوم المزارعين. فأن هطـول الأمطـار الغزيـرة على ندرتـه يشـكل خطـراً عليهم أيضـاً. فيحـدث أن تقشــط السـيول العارمـة الطبقة العليا من تربـة الحقـول مـع بـذارها وزرعهـا، وتُدمر المسـاكن وتتلـف ثمـار جهـد السـنين. كمـا أن الجراد غالباً ما كان يلتهم كل النباتات فيحـرم النـاس من أسـباب العيش. وفي الغـالب لا تكفي المـواد الغذائية أهالي الواحات حتى موسم الحصاد الجديد.

وكـانت الأوبئـة المتفشـية (الكولـيرا والطـاعون) تجهز على قرى بكاملها.

إن ضـيق القاعـدة الإنتاجيـة والعوامـل الطبيعيـة الضارة بالزراعة (ناهيك عن العوامل الاجتماعية التي سـنتناولها فيمـا بعـد) والطـرق الزراعيـة البدائيـة وإنعزال الواحات بعضها عن بعض - كل ذلك أدى إلى تبـاطؤ شـديد جـداً في تطـور الاقتصـاد. وان إمكانيـة تجديد الإنتاج الموسع المنتظم كانت ضئيلة وغالبـاً مـا يلغيها التراجع إلى الوراء.

كـانت الزراعـة في الواحـات تتمـيز ليس بجمـع الجهود الاقتصادية بل بتشتيتها، وكان يسـودها نشـاط جماعات صغيرة من الفلاحين أو عوائل منفصـلة.ولم تكن هنـاك منشـآت ري كـبري أو مسـاحات زراعيـة إروائيـة واسـعة من شـأنها إن تفـرض على مجتمـع الجزيـرة في القـرون الوسـطى ضـرورة التنظيم المركـزي. ولم يكن تشـتت الواحـات يتطلب توحيـد المزارعين تحت لواء قيادة مركزيـة. لأجـل ممارسـة النشاط الاقتصادي المشترك.

الري البدوي وشبه البـدوي. كـان الـرعي عند بدو الجزيرة يقسم إلى نوعين.

فالأعراب "الحقيقيـون" هم البـدو الرحـل الـذين يمارسون في الغـالب أو بالأسـاس تربيـة الإبـل الـتي تكاد تكون الماشية الأكـثر شـمولاً وإحاطـة بين سـائر المواشي والدواب. فإن لبن الإبل الطازج أو المخمـر والجبن والزبدة تستخدم في الطعام. وغالبا ما يعيش البـدوي أسـابيع طويلـة على اللبن ومشـتقاته فقـط. وفي حالات خاصة كانوا ينحرون الناقة ويأكلون لحمها وشـحمها. ويصـنعون الأنسـجة من وبـر الإبـل، ويسـتخدمون جلودهـا لمختلـف الأغـراض، كمـا يستخدمون بعرها وقودا وبولها للغسل والعلاج. وكـان الجمل الصبور المتحمـل بشـكل مـدهش هـو وسـيلة النقل التي لا يُستغنى عنها إطلاقاً في اجتياز البـوادي القاحلـة. فالجمـل في الصـحراء، كمـا يقـول فولـني بحـق، مهم لدرجـة تجعـل اختفـاءه منهـا يـؤدي إلى اختفاء سكانها جميعا(2).

بيـد أن قـول المستشـرق النمسـاوي شـبرينغير: "البدوي طفيفي على الجمل" قد انتشـر على سـبيل النكتة لا غير. إن عمـل البـدو من مـربى الإبـل عمـل مرهـق يتطلب مهـارة وقـدرة، ويتـوجب عليهم أن يعرفـوا جيـداً ويسـتخدموا المـراعي ويقتـادوا الإبـل ويعالجوهـا ويحلبوهـا ويجـزوا وبرهـا. وكـانوا يعلمـون صغار الإبل على أداء مختلف الأعمال وعلى الانصـياع للركوب والأحمال. وكان البدو يحفرون الآبار ويعتنون بهـا، فالمسـافات الـتي تقطعهـا القوافـل كـانت تبلـغ آلاف الكيلومترات.

وكـانت حيـاتهم غاصـة بالحرمـان. ففي الشـتاء القـارص أحيانـا تهلـك صـغار الإبـل وتجـوع الماشـية وتجـف ضـروع النـوق. وكـان الحرمـان والمخـاطر يتربصان بالبدوي في الصيف القائظ أيضا، بحيث تنفد حـتى الاحتياطيـات الشـحيحة من التمـر والحبـوب فيقتـات فقـراء البـدو على الجـذور والثمـار البريـة، ويهلك الكثيرون بسـبب الجـوع. وكـانت المقـابر تقـع عادة قرب مواقف البدو الصيفية(3).

أن الخيـول العربيـة الشـهيرة الـتي هي موضـع افتخـار لـدى أصـحابها وحسـد لـدى سـواهم، كـانت تستخدم للأغراض الحربية فقط وللاستعراضات. وفي رحلات القوافـل الطويلـة الأمـد كـانوا يأخـذون دومـاً احتياطيـاً من الميـاه لأجـل الخيـول أو يسـقونها لبن الإبل.

أما الرعاة الذين يمارسون في الغالب أو بصورة أساسية تربية الأغنام والماعز فلم تكن لديهم إمكانية كبيرة للترحـل في الأمـاكن الخالية من الميـاه، ولـذا كان ترحالهم لا يتجاوز بضـع مئـات من الكيلومـترات. وكان من اللزوم أن يعثروا على مصادر للميـاه قـرب المراعي.

أن المسـافات غـير البعيـدة نسـبياً للترحـال في الأماكن التي توجد فيها مصادر مائيـة ثابتـة قـد مكنت رعاة الضأن من ممارسـة الزراعـة. فكـانوا يقطعـون الترحـال في شـهور الأعمـال الزراعيـة لكي يعتنـوا بالنخيـل أو بحقـول الحبـوب. وغـدا العمـل الـزراعي رئيسيا بالنسبة لقسم من رعاة الضأن.

ونجد عند غ. فالين وصفاً لهذا النوع من اقتران العمل الزراعي بالرعي البدوي في شمال نجد: "بسبب العرى الوثقى التي تربط بين فخذي الشمريين نجن أن سكان القرى ما يزالون يتشبثون لدرجة معينة بعادات وتقاليد الحياة البدوية، في حين يزاول البدو أعمالاً تعتبر عادة أموراً غير لائقة بهم. فأن قسماً كبيراً من الأولين يترحلون في الربيع مع خيولهم وقطعانهم في البادية ويعيشون بعض الوقت في بيوت الشعر، في حين تمتلك عوائل بدوية كثيرة بساتين النخيل وحقول الحبوب...التي تفلحها بنفسها"(4).

ويقول أ. بوركهاردت أن أحد أفخاذ قبيلة حرب الحجازية "يمتلك عدة مشارب متواجدة في بقعة خصبة يزرعون فيها الهرطمان والشعير. ولكنهم يعيشون في بيوت الشعر ويقضون اكبر قسم من العام في البادية"(5).

ولم تكن توجد بين رعاة الإبل الرحل ورعاة الضأن شبه الرحل والحضر حدود معينة فيما يخص النشاط الاقتصادي عادة. فالكثيرون من البدو رعاة الإبل بدأوا بممارسة تربية الضأن. واستقر قسم من البدو الرحل فصاروا حضراً. وفي الوقت نفسه جرت عملية معاكسة هي تحول الحضر إلى بدو. إن التوازن غير المستقر بين البدو والحضر كان يتوقف على الظروف الطبيعية والتاريخية في الجزيرة العربية، وما كان بوسعه أن يتجاوز أطراً معينة. وكان فائض السكان الرحل ينتقل إلى الشمال. وإذا أستقر هناك فهو يقطع الصلة نهائياً، على الأكثر، بماضيه

البدوي. وليس من قبيل الصدفة أن يقال إن العراق قبر الأعراب(6). ويشمل هذا القول سورية بقدر ما. لذلك ففي إطار الجزيرة العربية كان هناك توازن تلقائي بين التحضر والبداوة.

يمكن لتقسيم سكان الجزيرة إلى بدو من رعاة الإبل وشبه بدو من رعاه الضأن أن يتوافق مع تقسيمهم إلى قبائل. وفي بعض الأحيان يمارس فخذ من القبيلة تربية الإبل، ويمارس فخذ آخر تربية الضأن والماعز، بينما يمارس الفخذ الثالث الزراعة كالحضر.

وكان الاقتصاد البدوي يعتمد على هطول الأمطار أكثر من اعتماد الاقتصاد الحضري عليه. فعندما تتساقط الأمطار بعد فترة تكتسي السهب والبوادي بأعشاب ريانة وتتسمن القطعان وتزدهر حياة البدو الرحل. أما جفاف الصيف وبرد الشتاء والأوبئة الحيوانية فتؤدي إلى هلاك أعداد كبيرة من الماشية وإلى المجاعة وانقراض البدو. وإمكانيات تجديد الإنتاج الموسع والحصول على منتوج زائد أضيق في الرعي البدوي مما هي في الواحات.

الحرف والتجارة. كانت الحرف والصنائع المنزلية عند الفلاحين الحضر تسد حاجاتهم المحدودة جداً. لقد كانوا يضفرون السلال والأكياس والحصر من سعف النخيل ويفتلون من أليافها الحبال والأعنة، ويستخدمون جذوعها في صنع الأدوات الزراعية وفي بناء المساكن، وكانوا يصنعون الأواني الخزفية البدائية والأنسجة الصوفية والقطنية.

وفي الوقت نفسه يصل إلى السوق قسم كبير من منتوج البدو الحرفي الأقل تطوراً (الأنسجة الصوفية الخشنة والمصنوعات الجلدية).

وفي الواحات الكبيرة تطورت بعض الشيء الصنائع الحرفية المختصة. وكان بين الصنائع حدادون ونحاسون ولحامون وصاغة ونجارون وصناع سلاح وأسطوات في صنع التحف الخشبية وبناة وعمال طلاء وأخصائيون في صنع العجلات للنواعير واسكافيون وخياطون ومطرزون ومفصلون وصناع هواوين المرمر لدق القهوة وضافرو الحصر(7). وكان الصفارون وصناع الأسلحة أكبر فئة من الحرفيين. وقد أطلق لفظ "الصناع" بالمعنى الضيق للكلمة عليهم بالذات. وبالمناسبة فأن صناع الأسلحة كانوا يمارسون في الغالب تصليح الأسلحة المستوردة. ونشأ تخصص معين لدرجة ما في الإنتاج ببعض المناطق. إلا أن من الصعب تحديد هذا التخصص قبل القرن الثامن عشر. ومن المعروف، مثلاً، إن الناس "في نجد كانوا ينسجون الأقمشة القطنية التي تستخدم في خياطة ألبسة السكان وفي مبادلتها بالأصواف والماشية مع القبائل"(8)وفي بعض المناطق تطور صنع الأنسجة الصوفية وخياطة العباءات منها (اشتهرت الأحساء بها خصوصا) وكذلك أقمشة بيوت الشعر.

ولم يصادف وجود ورش ضخمة في الجزيرة العربية. وفي حالات نادرة فقط شكل الصناع ما يشبه التنظيمات الحرفية.

كان قسم من الصناع يترحل مع قبائل البدو. فكان بعضهم يصنع حدوات الخيل ويصلح السلاح أو الأدوات المنزلية وبعضهم يعالج الماشية إذا مرضت. وكان الصناع الرحل أنفسهم يمارسون تربية الماشية.

كان من الصعب العثور في الجزيرة العربية على مدينة بالمعنى الكامل للكلمة حيث لا تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي لمعيشة أغلبية سكانها(9). وكانت مكة تمثل استثناء واضحاً من القعدة. وفي أغلب الأحوال كان مفهوم "الواحة الكبيرة" ومفهوم "المدينة" متطابقين في الجزيرة العربية. وكانت عاصمة الدولة السعودية المرتقبة - الدرعية مكونة من عدة قرى متقاربة.

ولم تكن الصنائع تحدد ملامح الحياة الاقتصادية في المدن - الواحات في الجزيرة العربية. وكان دورها الهام في حياة مجتمع الجزيرة مرتبطاً بالتبادل التجاري المكثف ونابعاً من التقسيم العميق للعمل بين الزراع والرعاة والرحل.

وكان اقتصاد البدو الرحل يتميز بطابع يعوزه الاكتفاء الذاتي، وكان اقتصاد الزراع أفضل قليلاً من هذه الناحية. ومع أن بعض البدو غالباً ما كانوا مضطرين إلى أن يقتاتوا أساساً على لبن الإبل، فأن السواد الأعظم منهم ما كان قادراً على الاستغناء عن المنتجات الزراعية والتمور والحبوب، كما كانوا بحاجة إلى المصنوعات الحرفية..وقد وزع بوركهاردت مصروفات البدوي الموسر بالشكل التالي: أربعة أحمال من القمح - 200 قرش، شعير

للفـرس- 100 قـرش، ألبسـة-200 قـرش، بن وتبـغ وحلويـات ولحم غنم إلى 200 قـرش. ويُشـكل ذلـك بمجملـه مـا يعـادل 35 _ 40 جنيهاً اسـترلينياً(10).
ويبدو أن عدم ذكر التمور في هذه القائمـة يعـود إلى أن البـدو الأثريـاء يمكن أن يحصـلوا عليهـا ليس عن طريق التبادل التجاري، بـل بشـكل أتـاوة من الـزراع الخاضعين لهم. ويبدو أن البدو البسطاء كانوا يقتنـون أيضاً الكثير من البضائع الـتي ذكرهـا بوركهـاردت وأن بكميات أقل.
وفي الصيف كان البدو يتقـاطرون على الواحـات الكبـيرة والمراكـز التجاريـة فيعرضـون الماشـية والأصواف والسمن والجبن لمبادلتها بالتمر والحبـوب والأقمشـة والحصـر والحـدوات والأسـلحة والبـارود والرصاص والمواد الطبيـة والبن والتبـغ. وكـان قسـم من التجارة يجري عن طريـق التبـادل العيـني. إلا أن مؤرخي الجزيرة يذكرون على الدوام أسعاراً بـالتعبير النقدي لمختلف البضائع، مما يدل على تطور التداول النقـدي في الجزيـرة العربيـة آنـذاك. إن نـزوح البـدو الرحل الصيفي إلى المراكـز التجاريـة يعتـبر بالنسـبة لهم وللحضـر أعظم أحـداث السـنة(11). ففي الأسـواق الصـيفية كـان يجـري الجـزء الأساسـي من التبادل البضاعي بين البدو والحضر.
ولم يكن البـدو يتـاجرون في الواحـات القريبـة فقـط، بـل كـان نطـاق صـلاتهم التجاريـة أوسـع بكثير،ويتجاوز إطار شبه جزيـرة العـرب. كـانت الإبـل في تلك الحقبة الباب الأساسي في صادرات الجزيرة حيث كانت تحظى بطلب واسع. كانت الإبل تُسـتخدم

كوسائل للنقل ليس بالنسبة للجزيرة وحدها، بل للبلدان الأخرى في الشرق الأوسط. وكانت الجزيرة تُصّدر الأصواف والسمن والخلود والخيول الأصيلة أيضاً. وساعدت التجارة الخارجية، بقدر أكبر من التجارة الداخلية، على تطوير العلاقات البضاعية النقدية في شبه جزيرة العرب.

وكان يصل إلى شمال ووسط الجزيرة، خصوصاً إلى الحجاز، الأرز المصري والهندي والقمح والشعير من مصر واليمن. وكانوا يستوردون البن من اليمن والتوابل من الهند والفواكه المجففة من سوريا والسكر من مصر كما كانوا يستوردون الأسلحة والحديد والنحاس والرصاص لصنع الخراطيش والكبريت لصنع البارود(12).

ويتحدث مؤلف "لمع الشهاب" فيقول: "الكفّية (الكوفية) وصناعها في نفس نجد قليلون بل أكثر ما يلفيهم منها من جانب العراق ومن الأحساء والقطيف... والعباة تصنع في بلدان نجد لكن قليلا وأكثر مجيها من ملك العراق ومن الأحساء... وقد تلبس نساء الأغنياء منهم الحرير الهندي الذي يبلغ كل ثوب منه قيمة عشرين ريالا وأكثر بألوان عديدة من أحمر وأصفر وأخضر... فتلبسه نساء المتمولين وأما صيغهم في أمر حلى النساء فذاك شيء لا يُضبط بالعدد لأنهم يبالغون في ذلك جدا حتى الفقراء منهم لا بد أن يصيغوا شيئا من الزينة الذهبية لنسائهم قطعاً... وأما الرجال فيزينون سيوفهم بكثير من الفضة وكذا بنادقهم يلبسونها من أطواق الفضة

كثيراً وهكذا خناجرهم ورماحهم يطيبونها بالفضـة..."(13)..

ويضـيف المـؤرخ قـائلا: "ومن صـفات أهـل نجـد التجارة. فأن كثيرا منهم تجـار يسـفرون إلى أطـراف الـروم وبقيـة جزيـرة العـرب ولم يـذهبوا بسـلعة من نفس نجــد إلى ملــك الــروم وإنمــا يحملــون معهم الـدراهم النقديـة خاصـة ويـأتون من حلب أو الشـام بـالبز الحريـر وغـيره وكـذا بالنحـاس ظروفـاً وغيرهـا والحديد والرصاص.... وقـد يسـرون أهـل نجـد بخيـل عناف إلى أطراف ملـك الـروم بالتجـارة لأن خيـولهم مرغوب فيها عند الرومـان لشـد علوهـا وهكـذا يجلب أعراب نجد إبلاً كثيرة إلى حلب والشام للبيع.

وقد قال لي بعض الناس أنا شاهدت تجـار وأهـل نجد أهل القصيم منهم يبيعون تمراً في دمشق الشام وعرفت أنهم يجلبونه من بلادهم وقد يسافر أهل نجد إلى أرض مصــر لكنهم لم يشــتروا منهــا إلا الســلاح والمرجــان واعلم أن تجــارتهم في بقيــة بلاد العــرب كــذلك غالبــا مــا يــذهبون بــه إلى هــذه النــواحي هــو الــدراهم ويــأتون من اليمن بــالقهوة كثــيراً والــورس والميعة واللبان واعلم أن ليس لأجل تجـار أهـل نجـد خانات معينة للبيع والشـراء بـل جميـع أمـوال التـاجر في بيته... وأمـا أهـل بيـع القليـل منهم فلهم دكـاكين وليس سـوقهم مسـقف مثـل سـوق أهـل فـارس ولا ضيق كضيقه بل سوقهم مكشوف لا سقف له وواسع الطريق جداً بحيث تمر القوافل محملة فيه وأعلم أن أجناس الهند من سكـر وبلـوج وهيـل وقرنفـل وقرفـة وفلفل وكركم ونحو ذلك الأجناس كلهـا مرغوبـة عنـد

أهل وأكثر هذه يجلبونها من بنادر اليمن وقلما يـأتون بـه من سـاحل عمـان ويـأتيهم من طريـق القطيـف والبحرين شيء كثير...

ولهم اشتياق عظيم للسفر وهمـة غريبـة وطاقـة عجيبـــة بحيث يمكن الشـــخص منهم أن يتغـــرب عن أهله ووطنه مدة عشرين سنه أو أكثر وأن يسافر عن بيته إلى ملك الصـين مثلاً كمـا أن كثـيراً من تجـارهم اليوم جلسوا ونزلوا في حلب ودمشـق الشـام ومنهم من هو في مصر... وأيضا من جملة أحوال أهـل نجـد الحضر منهم أنهم يتعاطون الزروع كثيراً ويسـتعملون غرس الأشجار والنخيل ويتعبون أنفسـهم عليهـا جـداً وكذلك لأهل الحضر منهم غنم وبقر وإبل وأن لم تكن كثيرة لكن لا بد لهم منها بقدر ما يسع المعاش لأجـل الحليب واللحم والركوب.

وأما أحوال نجد فأنهم أهـل بيت شـعر خاصـة ولا لهم غـير المواشـي شـيء ولا يـردون بأهـاليهم البلاد أصلاً ومـا يـأتي الرجـال منهم لأجـل التجـارة قحطـوا فأنهم يدخلون المدن والقرى بأهاليهم..."(14).

وكان البدو يقدمون الإبل والأدلاء لأجـل القوافـل التجارية في الجزيرة العربيـة ويشـاركون في تكـوين القوافل خارج الجزيرة.

وكانت توجد في شـمال الجزيـرة اتحـادات تجـار الإبل وأدلاء القوافل المنتسبين إلى قبيلة بني عقيـل. وقد استقروا في مختلـف أرجـاء نجـد، إلا أن بعضـهم أقـام في العـراق. وفي أواخـر القـرن الثـامن عشـر كانوا وحدهم يتمتعون بحق تشكيل القوافل التي تعبر بادية الشام وقيادتها وحمايتها(15).

وكان التجار قد جمعوا ثـروات طائلـة. صـحيح أن البيوتات التجارية في نجد كـانت أقـل شـأنا من تجـار الجملـة الحجـازيين. ففي جـدة بلغت رسـاميل تجـار البن والبضائع الهنديـة مـا يعـادل عشـرات بـل مئـات الآلاف من الجنيهـات الإسـترلينية. واتسـم الحج إلى مكة والمدينة بأهمية فائقـة للجزيـرة العربيـة عمومـاً وللحجاز خصوصـاً. وكـانت قوافـل الحجـاج الرئيسـية تمر من شمال الحجاز قادمة من مصـر والشـام عـبر المناطق الشمالية من نجد مع ميلان نحو الشـمال أو الجنـوب على اختلاف السـنين يمتـد طريـق الحج الإيراني العراقي من أن أهميته كانت أقل من أهميـة طـريقي مصـر والشـام. والطريـق الرابـع يـأتي من موانئ الخليج ومن عمان عـبر وسـط نجـد والحجـاز، أمـا الطريـق الخـامس فيـأتي من اليمن إلى مكـة. ويقـترن الحج بالتجـارة، فقـد كـان الحجـاج يجلبـون مختلف أنواع البضائع. وقد أمن نقـل الحجـاج أسـباب العيش للكثير من البدو.

عناصر العلاقات القبلية العشائرية في الواحـات.

كـان قسـم كبـير من السـكان الحضـر في الجزيـرة العربية يعتبرون أنفسهم من هذه الأفخاذ والقبائـل أو تلك. وكان أبناء القبيلة الواحدة من بـدو وحضـر على ارتباط وثيق فيمـا بينهم يمكن أن يظـل قائمـاً طـوال حيـاة أجيـال عديـدة. وفي بعض الأحيـان كـان أبنـاء القبائـل المختلفـة يعيشـون في أحيـاء منفصـلة في الواحات نفسها.

وكان الفلاحون وأهل المـدن الأصـليون يعتقـدون أن أنسابهم تغوص عميقاً في انساب العرب.

وتشـكل عـدة عوائـل كبـيرة أو صـغيرة جماعـة تسـمى الحمولـة. وكتب دوتي يقـول "إن الجماعـة تحالف طبيعي لاستثمارات تربط بين أفرادهـا صـلات القـربى ولهم جـد واحـد. وهم متوحـدون فيمـا بينهم تحت رايـة عمـدتهم ورب الأسـرة كلـه الـذي يـرث سـلطة مؤسـس الجماعـة. وفي إطـار هـذه الأواصـر والتقسيمات العائليـة يمكن وجـود الحيـاة المترابطـة الآمنة في بلد خاو أو خال من السلطة. ويعتبر الغرباء المنتسبون إلى الجماعـة حلفـاء لإصـدقائهم . ويعتـبر المعتوقون زبائن للعائلة السائدة ... وكلهم من "أبناء عمومـــة". الجماعـــة المعنيـــة... إن الجماعـــات في الواحات هي روابط يقطن أفرادها في عـدة أحيـاء أو حـارات. وعنـدما يتشـاجر أبنـاء المـدن من جماعـات مختلفة يحاول زعماؤهم المصالحة فيما بينهم، مع أن أبناء المدن في الواحات الكبيرة ذات التسيير الذاتي، مثـل عنـيزة، يراجعـون الأمـير المـتربع في المجلس لأجل حل الخلافات بينهم..ـ وقبـل أن تهـيئ السـلطة الوهابية الوئام المدني كـان سـكان المراكـز الكبـيرة في باطن الجزيرة في نزاع دائم: جماعة ضد جماعـة وسوقاً ضد سوق"(16) والشخص الـذي يعيش خـارج الجماعة وحيداً لا نسب لـه إنمـا يعـاني من صـعوبات كبيرة، فلا جماعـة تحميـه من التطـاولات على حياتـه وأمواله.

وكـانت عوائـل الأمـراء والشـيوخ تتمـيز بصـلات القـربى الـوثقي خصوصـاً، ممـا يمنحهـا وزنـا ونفـوذاً كبـيرين. وغالبـاً مـا توحـد بينهـا الملكيـة المشـتركة للأرض والعائدات.

وقـد ضـعف التنظيم القبلي العشـائري لدرجـة كبيرة لدى السكان الحضر مـا عـدا قسـم منهم ممن انتقلـوا إلى حيـاة الاسـتقرار الحضـرية مـؤخراً ولم يقطعوا الصـلات القديمـة بالكامـل. والشـيء الوحيـد البـاقي فعلا هـو العائلـة الكبـيرة والمجموعـة غـير الكبـيرة نسـبياً من ذوي القـربى والـتي تمثـل الخليـة القبليـة المتبقيـة الـتي غالبـاً مـا تنعت في مطبوعاتنـا الاثنوغرافية بالخلية الأبوية (العشائرية).

وكـانت العائلـة الكبـيرة تمتلـك الأرض والأمـوال الأخرى بصورة مشتركة وتمارس تسيير استثمار غـير موزعة وذلك بإشراف الأب.

وبعد وفاة الأب يجري تقسيم التركة. وكان للابن البكر حقوق تفضيلية في الميراث.

وظلت باقية في بعض منـاطق الجزيـرة العربيـة أشـكال مختلفـة للملكيـة المشـاعة لأراضـي أفخـاذ معينـة. وفي الأمـاكن الـتي يجـري الإرواء فيهـا من مصادر مائية كبيرة

يمتلكون المياه ويسـتخدمونها بصـورة مشـتركة. وفي بعض الأحيـــان كـــانت المـــراعي من الملكيـــة المشـــاعة للحضـــر. وإذا لم يكن ســـكان الواحـــات يمتلكون مراعي خاصة بهم فهم مضطرون إلى رعي الماشية في الأراضـي العائـدة لقبائـل البـدو الرحـل(17).

أن عادات التعاضد العشائري كانت موجودة بقدر ما عنـد السـكان الحضـر. وكـان المزارعـون ينفقـون بصـــورة مشـــتركة على رعـــاة ماشـــيتهم وحراســـها ويلـتزمون بعـادة كـرم الضـيافة. وظلت باقيـة تقاليـد

عونة الجيران. ويصادف أن لا يحصد مالكو الحقول السنابل الساقطة إذ يتركونها للفقراء. وفي بعض الأحيان يخصص للفقراء قسم غير محصود من الحقل أو عدد من النخيل المثمرة(18). ألا أن العلاقات الاجتماعية في الواحات لا تضبطها هذه الروابط العشائرية.

التقسيم الطبقي في الواحات. بنتيجة عملية طويلة معقدة في المجتمع الزراعي في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر وقع قسم من الأراضي في حوزة الوجهاء من بين البدو وكذلك الذين تحولوا إلى حضر من زمان في الواحات. مثلاً، كان حاكم واحة العيينة في النصف الأول من القرن الثامن عشر، يمتلك أرضاً في الأحساء ويستلم منها عائدات(19). وكانت بساتين النخيل والجنائن والحقول ملكاً للفقهاء أيضاً. والمثال على ذلك أملاك مؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب(20) ولكننا لا نجد عند مؤرخي الجزيرة والرحالة الأوربيين إشارة إلى أن الملكية العقارية الكبيرة كانت سائدة أو منتشرة في نجد والحجاز والأحساء.

فقد أشار بلغريف في أواسط القرن التاسع عشر تقريباً إلى أن الأرض "نادراً ما كانت في حوزة الملاك العقاريين الكبار مثل الإقطاعيين الهنود وكبار المزارعين الإنجليز"(21).

إن المزارعين الصغار المكبلين بالديون كانوا يفقدون ملكية الأرض التي تنتقل إلى المرابين الأثرياء والتجار. وكتب دوتي عن الفلاحين "أن الدائنين الأثرياء كانوا يلتهمون الفلاحين مع حصتهم

من الأرض (بقدر لا يكاد يقل عما في مصر والشام)، ويكبلونهم لأمد طويل بالديون الربوية الجائرة"(22). ويبدو أن هذه الظاهرة كانت منتشرة كذلك عشية ظهور حركة الوهابيين في القرن الثامن عشر، ولعل ذلك هو سبب إصرارهم على شجب الفوائد الربوية.

وكان الملاك العقاريون يقدمون قطع الأرضي إلى الفلاحين على سبيل الإيجار بمختلف الشروط.وكان الطريق الرئيسي للحصول على الريع هو المحاصة العينية التي تحدد مقاديرها بموجب العادات والتقاليد.

وكان الاستيلاء على مصادر المياه الكبيرة والصغيرة قد مكن أصحابها من بيع الماء وبالتالي الحصول على حصة من ريع الأراضي المروية. ولم تكن لدى الكثير من الفلاحين دواب عمل ولم يكن بوسعهم الاستفادة من الآبار أو المصادر العامة وفلاحة الأرض بصورة مستقلة، فكانوا مضطرين إلى استئجار الدواب.

وكانت مختلف الأتاوات المفروضة على السكان تعود بمداخيل كبيرة على الوجهاء. ومن المعروف، مثلاً، أن الأمير الذي يتمتع بالسلطة السياسية كان في أواسط القرن الثامن عشر يجبي ضريبة ما من السكان(23). وكانت الرسوم المفروضة على القوافل التجارية قد أدت كذلك إلى إثراء الوجهاء بالدرجة الأولى. لقد كان حكام الحضر الأقوياء يملئون خزائنهم أثناء الغزوات الناجحة على الواحات المجاورة وعلى قبائل البدو الرحل وشبه الرحل، ما

جعل الغزوات المصدر الرئيسي للمداخيل بالنسبة للعديد من الإقطاعيين.

وتبين عائدات شريف مكة أساليب إثراء الوجهاء من حكام الواحات. فقد كانت الرسوم الجمركية في جدة تعود عليه بأكبر المداخيل، وكان يشارك في التجارة المربحة التي تمر عبر هذه المدينة، كما كان يمتلك سفناً بحرية ويبيع المواد الغذائية إلى الحجاج. وقد فرض ضريبة نفوس كبيرة على الحجاج الفرس، وكان يستلم الهدايا والهبات من الحجاج السنة الأثرياء. وكان يستحوذ على قسم من النقود التي تأتي من الأستانة إلى مكة بمثابة هدية من السلطان العثماني لأهالي مكة المكرمة. وترد إلى خزينة الشريف عائدات الملكية العقارية من الطائف الواحات الأخرى وكذلك من الدور العائدة له. ويعتقد بوركهاردت أن الدخل السنوي لشريف مكة كان يعادل 350 ألف جنيه إسترليني(24). بديهي أن الشريف كانت له مكانة خاصة في الجزيرة العربية إلا أن الأمراء الآخرين كانت لهم بعض أبواب الدخل المذكور أعلاه وان بقدر أقل.

ولم تتطور في الجزيرة أشكال ربط الفلاح الإعرابي بالأرض مباشرة. فقد أشار نيبور إلى "إن الفلاح المتذمر من سيده كان حراً في تركه والانتقال إلى مكان آخر"(25). إلا أن عدم إمكان الاستغناء عن حماية شخص قوي أو فخذ قبلي في ظروف انعدام الأمان قد أدى إلى ظهور تبعية الفلاح شخصياً لأمير الواحة مع أن هذه التبعية كانت ضعيفة جداً.

وكانت توجد في واحات الجزيرة دون شك، في الحقبة موضوع البحث، علاقات طبقية من طراز ما قبل الرأسمالية، ويبدو أنها نشأت لقرون عديدة قبل القرن الثامن عشر. ولكننا عندما نقول إنها علاقات "إقطاعية" علينا أن نستدرك ونذكر أن البنية الاجتماعية للسكان الزراعيين في الجزيرة التي هي على العموم من الأطراف المتخلفة في الشرقيين الأدنى والأوسط، كانت تكرر بشكل بدائي العناصر الأساسية للتنظيم الاجتماعي في البلدان الأكثر تطوراً في هذه المنطقة. لذلك فعندما نستخدم مصطلح "الإقطاعية" في تحليل مجتمع الجزيرة نعني بها الإقطاعية الملازمة لبلدان الشرق الأوسط.

العلاقات القبلية العشائرية داخل قبائل البدو الرحل. ورد في "لمع الشهاب" تعداد لقبائل البدو الرحل في وسط وشرق وشمال وغرب الجزيرة في القرن الثامن عشر ومطلع(26)، الأمر الذي لانجده في المصنفات التاريخية الوهابية في تلك الحقبة. ويرى مؤلف "لمع الشهاب" أن أكبر قبيلة عربية (تذكرنا باتحاد القبائل) هي قبيلة عنزة التي تضم ثلاث مجموعات في كل منها حوالي60 ألف رجل. ويقصد مؤلف الكتاب بهذا الرقم الخيالة القادرين على حمل السلاح. (وذكر منجين أن نسبة الخيالة إلى النساء والأطفال والعجزة والشيوخ هي الثلث(27)، وذلك يمكننا من تقدير العدد الإجمالي لأفراد عنزة بأنه حوالي نصف مليون نسمة). واشتهرت عنزة بفن الفروسية. وكانت تقاليد العونة والنخوة والتعاضد عندها أقوى مما عند القبائل الأخرى.

وعندما يرتحل قسم من عنزة أثناء الجفاف من نجد إلى المناطق شبه الصحراوية في الشام فأن أبناء هذه القبيلة المقيمين هناك يساعدون القادمين.

ويقول مؤلف "لمع الشهاب" أن القسم الأكبر من عنزة خضع للسعوديين بدون حرب. وذلك أمر كبير الدلالة. فأن الجهود التوحيدية المركزية لأمراء الدرعية كانت، على ما يبدو، تستجيب لمصالح هذه القبيلة المنتشرة في قسم كبير من شبه جزيرة العرب.

وكان لدى قبيلة شمر التي تقطن شمال نجد وتعتبر نفسها من أبناء قحطان ومن قبائل طي عشرون ألف فارس. وكان لدى قبيلة حرب الحجازية 30 ألف رجل مسلح من البدو والحضر.

وكان لدى قبيلة مطير النجدية التي اشتهرت بفرسانها وحماسها 14 ألف فارس ، ولدى قبيلة عتيبة (من القحطانيين) التي قطنت نجد والحجاز 40 ألفا، ولدى قبيلة عتيبة البقوم 4 آلاف ولدى قبيلة سبيع المخلصة للسعوديين كل الإخلاص 12 ألفا، ولدى قبيلة السهول 110 آلاف.

وفي جنوب نجد كان لدى قبيلة الجبارة قحطان 50 ألف فارس، فلم يتجرأ أحد على التحرش بها. وانضم القحطانيون إلى السعوديين بشرط تأييد الدرعية لغزواتهم على تهامة ومرتفعات اليمن وحضرموت.

وكان لدى قبيلة العجام خمسة آلاف فارس. وكانت هذه القبيلة قد ارتحلت في القرن الثامن عشر من منطقة نجران إلى الشمال فازداد تعدادها

وتَقّوت على ما يبدو. وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر قدمت إلى سوح القتال في شرق الجزيرة آلافاً عديدة من المحاربين.

ويقول مؤلف "لمع الشهاب" أن بني مرة أو آل مرة الذين كانوا يقطنون أطراف أدهشت هذا المؤرخ العربي فلم يجد بداً من القول إنهم كانوا قادرين على أن يقتاتوا بلبن الإبل وحده ويشربوا الماء المالح تقريباً.

وأخيرا نجد 30 ألف فارس عند خالد أسياد شرق الجزيرة في أواسط القرن الثامن عشر ومنافسي إمارة الدرعية في عهد نهوضها.

ومما لا ريبه فيه أن الأرقام تقريبية بعيدة عن الدقة. ولم يبد المؤرخ اهتماماً بالقبائل غير الكريمة المحتد ولا المملوكين والمعتوقين والصناع الذين سنتحدث عنهم فيما بعد. إلا أن تعداد القبائل يقدم لنا لوحه إحصائية، وأن افتراضية، لمجتمع البدو في الجزيرة العربية آنذاك (ما عدا اليمن وعمان). وقد بلغ العدد الإجمالي للخيالة البدو حوالي 400 ألف شخص، الأمر الذي يشير إلى أن عدد البدو الرحل في الجزيرة يكاد يكون 2,1 - 1,5 مليون شخص.

كانت العائلة هي أصغر خلية في القبيلة. وفي بعض الأحيان كانت مجموعة من ثلاث أو أربع عوائل مترابطة بصلة القربى تمتلك "أموالاً غير مجزأة بهذا القدر أو ذاك"(28). ولكن هذه الظاهرة كانت نادرة. فأن حاجات حياة الترحل ورعاية الماشية ورعيها لم تكن تستدعي في ظروف الجزيرة توحيد جماعات كبيرة من الناس لأجل العمل المشترك.

وكانت عدة عوائل من ذوي القـربى الحميمـة أو البعيـدة، الـذين يتـذكرون أو يعرفـون جـداً مشـتركاً لهم،تُشّكل جماعة قبلية صغيرة.

وكـانت الجماعـة القبليـة الكبـيرة تشـمل عوائـل متوحـدة بصـلة قـربى متباعـدة. وأكـثر أسـماء تلـك الجماعـة انتشـاراً العشـيرة. كـان أفـراد العشـيرة مـترابطين فيمـا بينهم بالتزامـات وحقـوق صـارمة للتعاضد والمسئولية المتبادلة. ويرأس العشيرة شـيخ أو قائد عسكري أحياناً - عقيد. وكان للعشـيرة كـذلك عارف ومفسر لأصول العادات والأعراف. ولـدى كـل عشيرة اسمها الخاص وطمغتها وصيحتها في الحـرب وأحياناً مقـبرة خاصـة بهـا. ويمكن للعشـيرة أن تقبـل انتساب بعض الغرباء إليها.

وبعد ذلك يأتي الفخذ أو البطن وهو مجموعة من العشائر المترابطة بعلاقات نسب مفتعلـة أو حقيقيـة وبتحالف سياسي أو حربي.

والدرجة التالية من البنية الاجتماعية للبدو الرحل هي القبيلة التي لها أراضـيها وبعض خصـائص اللهجـة في لغتها وسـمات معينـة لحياتهـا المعيشـية وثقافتهـا ومعتقـداتها، كمـا لهـا طمغتهـا وصـيحتها. وكـان أبنـاء القبيلة يعتبرون أنفسهم أقربـاء متحـدرين من جـد أو سلف واحد. ويترأس القبيلـة شـيخ وفيهـا أيضـاً عقيـد وعـدد من العِّراف المتضـلعين في معرفـة العـادات والتقاليد.

وكان تكتل القبائـل يجـري حسـب صـلة القـربى وكذلك لاعتبارات سياسـية. كمـا كـانت العلاقـات بين

القبائل المترابطة بصلة القربى تضبط حسب العرف(29).

وظلت الظواهر الفعلية الملازمة للمجتمع العشائري باقية داخل قبائل البدو الرحل. وفي مقدمتها ملكية القبيلة الجماعية للمراعي (الديرة). وكانت حدود الأراضي العائدة للقبيلة مرسومة بتنشين دقيق. ويقول فولني "أن كل قبيلة من هذه القبائل تستأثر بمنطقة معينة تصبح ملكاً لها. وتختلف القبائل من هذه الناحية عن الشعوب الزراعية بأن أراضيها يجب أن تكون أوسع بكثير لكي تؤمن العلف للقطعان طوال العام. وتشكل كل من هذه قبائل مخيماً أو عدة مخيمات موزعة على المنطقة. وتستبدل مواقفها على الدوام في هذه المنطقة حالما تلتهم القطعان الكلأ حول المخيمات"(30).

كان قسم كبير من الآبار وأحواض الماء في السهوب ملكا لقبائل البدو. ويقول بوركهاردت "أن أغلبية الآبار في أعماق البادية وخصوصاً في نجد ملك مطلق لقبيلة ما أو لأشخاص حفر أجدادهم تلك الآبار... وعندما تنفد مياه الأمطار في البادية تنصب القبيلة خيامها قرب بئرها ولا يسمح لأي بدو آخرين بإرواء إبلهم هنا"(31).

ويمكن للقبائل والأفخاذ والبطون أن تمتلك بصورة جماعية الأراضي المفلوحة في الواحات(32). وكان البدو يقدمون تلك الأراضي على سبيل الإيجار إلى الزنوج المعتوقين أو الفلاحين العرب ويستلمون لقاء ذلك حصة من الغلة ويوزعونها على العوائل (33).

وكان قسم كبير من جياد الأنسال ملكاً عاماً للقبيلة، ولكن الأفراس تعتبر على الدوام ملكية خاصة لأصحابها(34).

كانت لدى البدو الرحل عناصر كثيرة من التعاضد العشائري في الأمور الاقتصادية مثل جز الأغنام الذي يتم تقديم الطعام أثناءه. وكان أبناء القبيلة الواحدة يساعدون بعضهم بعضاً في المناسبات العائلية - الزفاف والختان واستقبال الضيوف.

واشتهر البدو بكرم الضيافة. وكانوا يعتبرون الإستهانة بهذه العادات عيباً شنيعاً. وكتب فولني يقول: "إذا لمس الغريب، وحتى العدو، خيمة البدوي يحصل على الحصانة الشخصية أن صح القول. وحتى أخذ الثأر المستحق يعتبر عاراً لا يمحى إذا جرى على حساب حسن الضيافة. وإذا وافق البدوي على اقتسام رغيف العيش مع الضيف فما من قوة في العالم ترغمه على خيانة ضيفه"(35).

وتتسم بأهمية بالغة المعونة المادية التي يقدمها أبناء القبيلة لمن تهلك قطعانه بسبب الجفاف أو الأمراض ولمن يفقد أمواله أثناء غزوات النهب. فالأموال المضيعة يعوض عنها بالماشية والنقود والأدوات المنزلية أو مستلزمات الخيام. والعوائل التي تصاب بكارثة تتلقى المعونة من أقاربها، بينما تتلقى القبيلة المتضررة المعونة من أفرادها أو من القبائل الأخرى المتحالفة معها. وكتب دوتي يقول: مهما كان الشخص الذي تنهب أمواله فأن ذلك يعتبر "مصيبة عامة للقبيلة كلها، ولا ينبغي أن يظل أحد ممن فقد ماشيته فقيراً معوزاً. والشيخ الحاكم يلزم

جميـع أفـراد القبيلـة بـأن يعوضـوا للمتضـررين في غضون يوم أو يومين عن كل الماشية التي فقـدوها"(36).

وتجـدر الإشـارة مـع ذلـك إلى أن التعـويض عن الخسـائر بشـكل الكامـل لم يمكن ممكنـا في أغلب الأحيان رغم متانة أواصـر التضـامن العشـائري. فـإذا فقدت القبيلة قسـماً كبـيراً من قطعانهـا بعـد هزيمـة حربيـة ماحقـة فـإن عـادة التعـويض عن الخسـائر لن تعود سـارية المفعـول في الواقـع. ويتعـرض الفقـراء في مثل هذه الأحوال للموت جوعاً. ويحـدث الشـيء نفسـه أثنـاء الجفـاف الفظيـع أو انتشـار الأوبئـة. فالخسائر آنذاك تصيب بهذا القـدر أو ذاك كـل أفـراد القبيلـة، وفي تلـك الحالـة لا يعـودون قـادرين في الغالب على نجدة الأكـثر تضـرراً. أن عـادة التعـويض عن الخسائر لم تكن شيئاً وهمياً، ولكن أطرها مقيـدة بالإمكانيات الفعلية.

كـانت العلاقـات بين مختلـف القبائـل تضـبط في المقام الأول بـأهم عنصـر في الأعـراف القبليـة وهـو الثأر(37). ويقول فولني "أن مصالح الأمان المشترك قد أوجدت عند العرب منذ القدم قانوناً يتطلب غسل عار مقتل أي شخص بالثأر له من القاتل. ويأخذ الثـأر أقرباء القتيل، لأن شرفه قـد تلـوث في أنظـار سـائر الأعـراب لدرجـة لا يمكن معهـا أن يسـتهين بـواجب الثأر، وإلا سـيبقى شـرفه ملوثـاً إلى أبـد الآبـدين.لـذا ينتهز الفرصة السائحة ليثأر للقتيـل. وإذا مـات عـدوه لسـبب آخـر يبقى غـير راض إطلاقـاً ويأخـذ ثـأره من أقرب أقرباء القاتل. وتنتقل هذه الأحقاد بالوراثـة من

الأب إلى أبنائه ولا تختفي إلا باختفاء أحد الفخذين إذا لم تتفق العائلتان على تسليم المذنب أو دفع تعويض بالنقود أو الماشية" (38).

وكان الثأر عند البدو يشمل عادة الأقارب من خامس ظهر. وفي الغالب تترك كل الجماعة التي يشملها الثأر قبيلتها وتبحث عن ملجأ وحماية عند شيخ قوي لقبيلة أخرى. وبعد ذلك تحاول تلك الجماعة البحث عن وسيلة الاتفاق بشأن دفع التعويض. وإذا كان القتيل من غير الوجهاء فإن أقرباءه يوافقون على التفويض. ومقادير التعويض تختلف باختلاف المناطق والقبائل، ولكنها مقادير كبيرة ويشارك جميع أقارب القاتل في تسديد التعويض. أما الشيوخ فلا يقبلون إلا بالقتل ثأراً للقتيل (39).

وتشارك القبيلة كلها في دفع التعويض لإطلاق سراح أبنائها من الأسر (40). وكان البدو الأثرياء يساعدون الفقراء عند الاقتضاء. كما كانوا يقدمون إلى أقربائهم الفقراء هدايا من أطعمة وألبسة وماشية. وبهذه الصورة يحصلون على شعبية. وكان من العيب على أبناء الوجهاء أن يتهموا بالبخل، في حين يعتبر السخاء أسمى فضيلة (41).

ولم يكن البدو يعرفون الضرائب المنتظمة. وكانوا يعتبرون "دفع الضرائب إهانة" (42). وإن انعدام الضرائب داخل القبيلة من أهم الأدلة على متانة العلاقات العشائرية.

ومع ذلك فحتى المراقبون المعجبون بتضامن البدو الوحل وتعاضدهم قد عثروا في القبائل على ظواهر بعيدة عن المثاليات العشائرية.

عناصر التفاوت داخل القبائل البدوية. في أواخر عام 1784 عندما زار فولني شيخ قبيلة كانت تترحل في منطقة غرة، رأى أن مقارنة رفاه ممثل الوجهاء العشائريين هذا، على الرغم من انه لا يعتبر غنياً بالمقاييس الأوروبية، مع حالة البدوي العادي تكشف عن أمور كثيرة.

"كانوا يعتبرون الشيخ أغنى الجميع في المنطقة. ولكنه خيل إلى أن نفقاته لا تزيد على نفقات تاجر عادي ثري. وأمواله المنقولة المكونة من الألبسة والبسط والسلاح والخيول والإبل لا تتجاوز 50 ألف ليرة. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك يشمل أربع أفراس أصيلة بستة آلاف ليرة... ولذا فإذا تحدثنا عن البدو لا ينبغي لنا أن نضمن الكلمات مفاهيمنا المعتادة لمصطلح "السيد". أن الشيخ الذي يقود مفرزة من 50 خيالاً لا يستنكف من إسراج حصانه بنفسه ومن تقديم الشعير والقش له. وفي بيت الشعر تعد زوجته القهوة وتعجن العجين بنفسها وتطبخ اللحم. وتغسل بناته وقريباته البياضات ويتوجهن محجبات إلى البئر لإحضار الماء بأباريق يحملنها على رؤوسهن. وهذه اللوحة تشبه بالضبط ما وصفه هوميروس أو "كتاب الوجود" في قصه إبراهيم الخليل...

إن بساطة البدو أو فقرهم، أن صح القول، من بساطه ظروف حياة شيوخهم. فأن ملكية العائلة كلها تتكون من أموال أوردها هنا بالشكل الكامل تقريباً:

عـدد من الجمـال والنـوق والمـاعز وبضـع دجاجـات، وفرس مع عـدتها وبيت شـعر ورمح طولـه 13 قـدما وسيف منحن وبندقية صـدئة، وغليـون ورحى وإبريـق ودلــو جلــدي ومقلاة لتحميص البن وحصــير وبعض الألبسة وعباءة صوفية سوداء وأخـيراً، وبـدلاً من كـل الحلى الثمينة، عدة أساور وخلاخيل زجاجية أو فضـية ترتديها المرأة في قدميها أو معصميها. وإذا كان ذلـك كله متوفراً فإن العائلة تعتبر غنية"(43).

إن أوصــاف فولــني هــذه تصــطبغ بالصــبغة السياسية أكثر من الأثنوغرفية. ومع أن هـذه الرحالـة يضفي طابعاً مثالياً على بساطة حياة الشيخ البدوي، فإن الفارق في الحالة المالية للشيخ كبير جداً إذا مـا قارناه ببدوي يمتلك حصاناً. أما البدو الفقراء فكـانوا يعيشون في ضنك أكبر بكثير.

ويقول فولني: " لاحظت أن الشيوخ، أي الأثرياء، وخدمهم، على العموم أطول قامة وأكـثر اكتنـازاً من سـائر أبنـاء القبائـل... ولا يفسـر ذلـك إلا بطعـامهم الأوفــر ممــا لــدى بــاقي النــاس. ويمكن القــول أن البدوي البسيط يعيش دوماً في عز ويعاني من الجوع طــوال الــوقت... إن طعــام اليــوم الواحــد للســواد الأعظم منهم لا يتجاوز ست أوقيات. وفي قبائل نجــد والحجاز يصل الاعتدال في الطعام إلى حده الأقصى. فـإن وجبـة البـدوي لليـوم الواحـد تتكـون من سـت ثمـرات أو سـبع منقعـة في سـمن ذائبـة وقليـل من اللبن الطازج أو المخمر. والبدوي يعتبر نفسه سـعيداً إذا اسـتطاع أن يضـيف إلى ذلـك حفنـة من الـدقيق الخشـن أو قليلاً من الأرز. والبـدو لا يـأكلون اللحم إلا

في أكبر الأعياد. ففي حفلات الزفاف أو المآتم ينحرون معزة صغيرة. ولا ينحر صغار الإبل ويأكل الأرز مع اللحم إلا الشيوخ الأثرياء وقادة العساكر"(44).

وقد تجلى التفاوت في الأموال لدى قبائل البدو الرحل بشكل ملحوظ خصوصاً في ملكية الماشية. فلئن كان الواحد من فقراء فقبيلة عنزة لا يكاد يمتلك في مطلع القرن التاسع عشر 10 جمال، فأن قطعان البدو الأغنى كانت تضم زهاء 50 جملاً، في حين أن عائلة الشيخ تمتلك عدة مئات من الإبل(45). وكان الشيوخ الأكثر قوة وثراء يمتلكون عدة آلاف من الإبل.

إن وجهاء القبائل الذين يضبطون الترحال الموسمي ويشاركون في توزيع المراعي صاروا يكتسبون حقوق الأسبقية للتصرف بالأراضي مع أن تعسفهم كان مقيداً بالعادات العشائرية. لقد كانت القطعان التابعة للشيوخ تحصل على المراعي الأفضل. وكان هناك منذ القدم حمى لهذه القطعان، وغدا قسم من موارد المياه ملكاً لوجهاء البدو الرحل.

ومن نظام التعاضد القبلي ظهر استغلال البدو أثناء تسليمهم الماشية لأجل رعيها. في بادئ الأمر كان تسليم الماشية يبدو بمثابة سلفه مؤقتة عبارة عن عدد من رؤوس الماشية تقدم إلى أبن القبيلة الذي أصابه الإملاق(46). وقد انتشرت هذه الظاهرة عند بدو الجزيرة ومكنت كبار ملاك الماشية من صيانة قطعانهم ومضاعفتها.

والدرجــــة التاليــــة في الاســـتغلال هي تســـليم الماشية على سبيل المحاصة إلى الفقـراء المعـدمين وغير المعدمين، حيث يستلم الملاك جزاءاً من النسل والمحاصيل الحيوانية(47).

وكان تسليم الأغنام لأجـل الـرعي أكـثر انتشـاراً. مثلاً فإن رعـاة الإبـل يكن بوسـعهم أن يأخـذوا معهم الماشية الصـغيرة أثنـاء الترحـال الطويـل الأمـد. لـذا كانوا يتركون الأغنام عند رعاة الغنم من أبناء الأفخـاذ الأخـرى أو القبائـل الغريبـة بغيـة رعيهـا. وفي هـذه الحالـة كـان الاسـتغلال أكـثر وضـوحاً وغـير ممـوه بالإشكال العشـائرية. وإذا لم تتمكن عوائـل الوجهـاء من رعاية قطعان إبلها فهي تستخدم الرقيق أو أبنـاء القبائل الأخرى. ونادراًص ما تستخدم أبناء قبيلتها.

وتحـولت الإتـاوات الخاصـة بالصـرف على كـرم الضيافة إلى واحد من أساليب استغلال البدو من قبل الوجهـاء. وقـال بوركهـاردت: :عنـدما يـأتي الضـيوف ويتعين نحر كبش من أجلهم فـإن الأعـراب يحضـرون هذا الكبش عادة إلى خيمة الشيخ. وفي بعض القبائل لا يســمح الأعــراب بـأن ينحـر شـيخهم كبشــه، ولـذا يـزودون خيمتـه بـاللحوم حسـب الـدور"(48). ولمـا الشيخ "مضطراً إلى استقبال الضيوف كان يأخذ جملاً أو خروفاً من هذا أو ذلك، وكان الناس يقـدمونهما لـه بطيبة خـاطر، وذلـك لأنهم لا ينـدر أن يـأكلوا لحمهمـا عنده بعد الضيوف". بهـذه الصـورة أوضـحوا للرحالـة موسيل طبيعة هذه الأتـاوات حـتى في مطلـع القـرن العشرين(49).

وكانت القبيلة تساعد الشيخ في اقتناء حصان. وعندما يتناقص قطيعه بسبب غزوات النهب يحاول أبناء القبيلة التعويض عن كل خسائره. وفي الحالات المماثلة لا يعوضون للبدوي العادي إلا عن جزء من خسائره كما يقول بوركهاردت(50).

وكان الشيوخ والعراف في القبائل يستلمون مكافأة على الفصل في النزاعات القضائية.

وفي بعض الأحيان يقع البدو البسطاء في تبعية شخصية بقدر ما للوجهاء. وساعد على ذلك نظام التجاء البدو إلى شيخ قوي من قبيلتهم أو من غير قبيلتهم (الدخلة) من أجل حمايتهم. وكانت تلتف حول هذا الشيخ "عوائل صغيرة لا تقوى بالقدر الكافي على الحياة المستقلة، بل هي بحاجة إلى الحماية والتحالف"(51).

وكانت الوصاية من أشكال التبعية الأكثر تطوراً. فالفقراء في هذه الحالة ينشدون حماية الشيخ تلقاء مدفوعات معينة. وانتشر على نطاق واسع لجوء جماعات بكاملها إلى وصاية الشيوخ طلباً للحماية. فالأشخاص الذين يخشون الثأر من جانب أهل القتيل يسعون إلى الحصول على حماية الوجهاء من قبيلة أخرى. وعلى البدو أن يتحملوا مقابل ذلك بعض الواجبات، ومنها واجبات اقتصادية. وإن الحرية الشخصية لمثل هؤلاء الناس تكون مقيدة بعض الشيء(52).

ويدل على ضعف الأواصر العشائرية كذلك واقع أن المدين داخل القبيلة ملزم بأن يسدد الدين بنفسه

إلى الدائن، ولا أحد يساعده في ذلك، خلافاً لممارسة التعاضد وتسديد الدين لدائن غريب.

ويتبادر إلى الذهن سؤال: هل وصل تحلل الأواصر العشائرية داخل قبائل البدو إلى درجة تجعلها تتحول إلى علاقات طبقية إذا استخدمنا المصطلح الماركسي المعهود؟ إن تحليل طابع ملكية أراضي المراعي والآبار يساعدنا في الجواب على هذا السؤال.

كتب كارل ماركس يقول: "إن الملكية العقارية تفترض احتكار أشخاص معينين لتصرف بقطع معينة من الأراضي بوصفها ميادين استثنائية لإرادتهم الشخصية خاضعة لهم وحدهم"(53). فهل كان شيخ قبيلة ما أو جماعة من الوجهاء يتمتعان بحق التصرف بالمراعي "بوصفها ميادين استثنائية لإرادتهما الشخصية خاضعة لهما وحدهما" مع أن أشكال الملكية في القرون الوسطى لم تكن ناجزة لا جدال فيها؟ وهل يمكن، والحال هذه، الكلام عن ملكية شيخ ما أو جماعة من الوجهاء لقطع من أراضي المراعي؟ وهل يعني ذلك انهما، مثلاً، يتمكنان من بيع مراعي القبيلة للغرباء؟ أو تأجيرها والاستئثار بكل عائداتها؟ وهل يستبدلاها بأخرى، في الواحة مثلاً؟ والأمر الأهم هو هل يستطيعان أن يحرما أبناء قبيلتهما من حق الانتفاع بالمراعي؟ في ظروف الجزيرة العربية قبل القرن العشرين لم تكن هذه التصرفات ممكنة، أو أنها كانت تمثل حالات استثنائية نادرة وغير معروفة لدينا. كان حق الشيوخ والوجهاء في التصرف بالأراضي مقيداً على الأقل بانتمائهم

إلى قـــبيلتهم إي أنهم كـــانوا ينتفعـــون بالأراضـــي المشاعية بسـبس كـونهم من أبنـاء تلـك القبيلـة وأن كانوا وجهاء وأثرياء يتمتعـون بالامتيـازات وهـذا طبعـاً يقيـد حقهم في التصـرف بالأراضـي ويقيـد إمكانيـات الطريقة الإقطاعية في تسيير الاقتصاد، كما يقلل من الاستغلال الإقطاعي داخل القبيلة(54).

وفي بعض القبائـــل المترحلـــة المنفـــردة في القرنين الثامن عشـر والتاسـع عشـر يمكن ملاحظـة مجرد اتجـاه نحـو العلاقـات الإقطاعيـة، وليس شـيوع تلك العلاقات. فإن تصفية الملكيـة المشـاعية القبليـة للمراعي في العربية السـعودية لم تنجـز ولم تكتمـل حتى الآن .

وتـــدل وقـــائع كثـــيرة على أن العائـــدات الـــتي يســتلمها الوجهــاء في قــبيلتهم لم تكن كبــيرة، وفي بعض الأحيــان لا تســد النفقــات المرتبطــة بتقاليــد التضامن والتعاضد العشائريين. وانتشرت عنـد قبائـل البدو، في القرنين الثامن عشـر والتاسـع عشـر على إي حال، العلاقات العشـائرية المسـتندة إلى الملكيـة المشاعية للمراعي ومنابع المياه وإلى أواصر القربى المتينـة وإلى تقاليـد التعاضـد والتضـامن. إن عمليـة تشديد استغلال البدو البسطاء من قبل الوجهاء، وهـو الاستغلال المسـتند إلى التفـاوت في الأمـوال، كـانت جارية ولكنهـا لم تبلـغ بعـد مرحلـة شـق قبائـل البـدو الرحل وتقسيمها إلى طبقات.

ونعتقد أن أسباب ذلك تكمن في صـفوف القـوى المنتجة البدوية وشحة المنتـوج الفـائض، وكـذلك في استقرار الأحوال النفسية الاجتماعية للبـدو والأحـرار.

وما كان بوسع وجهاء البدو أن يشددوا استغلال أبناء قبائلهم أكثر من الحد الأدنى المعين.

إن بقاء فئة كبيرة بل وغالبة من البدو "المتوسطين" أو الفقراء الذين يمارسون شؤوناً اقتصادية مستقلة في قبائل البدو لهو دليل قاطع على عدم وجود العلاقات الاستغلالية الناجزة هنا. ولا يذكر الرحالة الأوروبيون شيئاً عن بدو تعرضوا للاستغلال داخل القبائل المترحلة. ويفترض ذلك أن أغلبية البدو تمتلك ماشية خاصة بها وترعاها في المراعي العامة.

ولكننا، عندما نقيم طابع العلاقات الاجتماعية عند قبائل البدو الرحل، لا يجدر بنا أن نتناولها بمعزل عن مجتمع الجزيرة عموماً، وذلك لأن مثل هذا الأسلوب يشوه اللوحة الفعلية. لأن سكان الجزيرة العربية البدو الرحل وشبه الرحل والحضر كانوا يمثلون كياناً اجتماعياً مترابطاً واحداً. وإن دراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف جماعات السكان في الجزيرة العربية، ودراسة الكثير من السمات الخاصة بالحياة في الجزيرة إنما تتميز بأهمية خاصة وتقدم تحليلاً للقبيلة البدوية وللمجتع كله.

الغزوات. كان البدو، في ظل انعدام السلطة المركزية القوية، يقومون بالغزوات دوماً. وكانت الماشية في الغالب عرضة للنهب، ويشمل النهب أدوات بيوت الشعر والأسلحة والألبسة والعبيد. وكانت سلع التجار تسلب منهم، كما تسلب من الحضر مختلف المحاصيل والأدوات الزراعية. وكان هناك فارق بين الغزوات وبين الحرب الحقيقية

بسـبب المـراعي والآبـار. إلا أن هـذين النـوعين من العمليات الحربية كانا متشابكين دوماً.

كتب بوركهاردت يقول: "إن القبائـل العربيـة في حالة حرب دائمة تقريباً فيما بينهـا، ونـادراً مـا يحـدث أن تتمتع قبيلة مـا بلحظـة من السـلام المشـترك مـع سـائر جيرانهـا. إلا أن الحـرب بين قبيلـتين نـادراً مـا تستمر طويلاً، فالصـلح يعقـد بسـهولة، ولكنـه يخـرق لأتفه الأسباب. وإن أسلوب خوض الحرب هو أسلوب الأنصار، فالمعارك الشاملة نادرة. والهـدف الرئيسـي لكلا الطرفية المتحاربين هو مباغتة العدو بهجوم غـير متوقع ونهب مخيمه. لذا فـإن حـروبهم عـادة لا تـراق فيها الدماء. ويهاجمون العدو، بقـوات متفوقـة عـددياً فيتنازل لهم دون قتـال. ثم أن عـواقب الثـأر الفظيـع تدرأ الكثير من النزاعات الدموية"(55).

وكتب فولني عن غزوات البدو يقـول: "لمـا كـان الإعرابي نهاباً أكثر مما هو محارب فهو لا يسـعى إلى إراقــة الــدماء. إنــه يهــاجم فقــط من أجــل النهب والسلب، وإذا قوبل بمقاومة فهو يعتقـد بـأن الغنيمـة الزهيدة لا تستحق المجازفة بحياته. وبغية إثارة غضبه لا بد من محاولة إراقة دمه، وعند ذاك يكـون مصـراً على الثـأر والإنتقـام بقـدر مـا كـان حـذراً يتحاشـى المخاطر. غالباً مـا يلومـون الأعـراب على ميلهم إلى النهب والسلب، ولكن اللائمين الذين لا يريدون تـبرير هذا الميل لم يلتفتوا بالقدر الكافي إلى أن الميل إلى النهب والسـلب موجـه ضـد الغـريب الـذي يعتـبره الأعراب عـدواً، ولـذا يسـتند هـذا الميـل إلى أعـراف أغلبية الشعوب"(56).

كان الغزو يعتبر عملاً نبيلا جداً، وكانت الرغبة في النهب تثير دوماً حماس البدو، وكانت المشاركة في الغزوات طواعية ولكن المحاربين في الواقع، وخصوصاً الشبان، ما كان بوسعهم رفضها. فالامتناع عنها ينطوي على خطر الاتهام بالجبن وتضييع الاحترام لدى الأقارب وأبناء القبيلة. وكتب نيبور: "يقال أن الفتى لا يستطيع أن يتزوج ما لم يتزوج عدة مآثر". وكانت أسماء أبرز المشاركين في الغزوات تتناقلها الألسن ويتغنى بها الشعراء. وحتى في القرن العشرين يعدد المؤلفون أسماء الأبطال الاماجد في الفروسية البدوية.

وبنتيجة الغزوات يستطيع البدوي الفقير بعد غارة موفقة واحدة أن يصلح أحواله المالية بل ويمكن أن يغدو موسراً. ومما لا شك فيه أن الغزوات كانت واحداً من أسباب بقاء فئة البدو الرحل المستقلين.

وكانت الغزوات مصدراً لأثرياء وجهاء القبائل. فإليهم يرد أكبر جزء من الغنائم وأفضلها(58). ويتزعم الغزوات الشيوخ أو العقداء. و "تفرد" للشيخ حصة حتى ولو لم يشارك في الغزوات. وليس من قبيل الصدفة أن غنائم الغزوات تعتبر من أهم مداخيل وجهاء البدو.

بديهي أن السلب والنهب المتواصلين في الجزيرة العربية قد ألحقا ضرراً بالاقتصاد والقوى المنتجة. ويصادف أن الغزوات لا تمر دون إراقة دماء، بل وتؤدي إلى حروب إبادة قاسية. وبنتيجة المداهمات يمكن أن تهلك أو تنقرض أفخاذ وقبائل عن بكرة أبيها. ويقول فولني "في بعض الأحيان

ترتقي قبيلة ضعيفة، وينتشر نفوذها، بينما يصيب الركود، وحتى الإبادة، قبيلة أخرى كانت قوية فيما سبق"(59). ولاحظ جوسان مثل هذه الظاهرة بعد أكثر من مائة عام: "يمكن للقبيلة أن تختفي من البلاد بأساليب عديدة، وفي مقدمتها بالنزوح بسبب النزاعات الكبيرة أو المجاعة المتواصلة في المنطقة... والسبب الآخر الأكثر انتشاراً لإبادة هذه القبائل يكمن في الحروب والغزوات الدائمة. فيكفي يوم منحوس واحد لإبادة قبيلة بكاملها: الرجال جثث في ساحة القتال والنساء يتوزعن على القبائل المجاورة أو... يهلكن من الجوع"(60). ويمكن أن تنهار القبائل القوية فيما مضى، وتفقد أبناءها وماشيتها ومراعيها وتخضع لقبائل أخرى وتندمج معها أحياناً.

ولكن هل هناك سُنة معينة في انتصارات وهزائم القبائل؟

كانت القوات المقاتلة لمختلف القبائل والأفخاذ غالباً ما تتوقف على طابع أعمالها الاقتصادية، وليس فقط على بسالة المقاتلين وموهبة القائد وشجاعته. وإن رعاة الإبل بالذات، أي البدو الرحل الحقيقيين، هم الذين كانوا يمتلكون أكبر قدرة حربية. فالإبل تمكنهم من التنقل بسرعة ولمسافات طويلة في البوادي الخالية من المياه، وتحشيد القوات وتسديد الضربات المباغتة، والتخلص، عند الاقتضاء، من الملاحقة واللجوء إلى البادية التي لا يُطالها العدو. وكان رعاة الإبل قد قاموا بأكثر الغزوات توفيقاً وغالباً ما كانوا يخرجون من المعارك الكبرى

ظافرين، ولا أحد ينافسهم إلا أمثالهم من رعاة الإبل. إن القبائل والأفخاذ من رعاة الإبل هي بالذات الرابحة في الميزان العام للخسائر والغنائم بعد الغزوات، أما رعاة الغنم شبه الرحل فكانوا الخاسرين. وفي سوح القتال المكشوفة كان الحضر أيضاً يهابون البدو الحقيقيين في الغالب. فإن سلامة روابطهم التجارية وماشيتهم التي ترعى في السهوب أو أشباه البوادي، وسلامة مزارعهم وبساتين نخيلهم غير المحمية بأسوار كانت تتوقف على العلاقات المتبادلة مع البدو.

وكانت قبائل البدو القوية من رعاة الإبل تفرض الإتاوات على القبائل الأضعف، وخصوصاً رعاة الغنم والحضر. وكانت الغزوات واحدة من طرق الإكراه وتبعية الجزية والخراج وأحياناً تبعية الخدم والحشم.

الخوة أو الخاوة. كانت الخوة التي يدفعها السكان الحضر وشبه الرحل إلى البدو ترتدي منذ القدم لبوساً عشائرياً وكأنها مكافأة على الحماية والوصاية. ولذلك اشتق اسمها من لفظ الاخوة. كتب بوركهاردت يقول: "تدفع الخوة عادة إلى الشيخ أو أحد أبناء القبيلة الذين يتمتعون باحترام كبير. وحالما تتفق الجماعة مع إعرابي ما بشأن الخوة يطالب هذا الأخير فوراً بجزء من المبلغ السنوي المتفق عليه. ويشتري به بعض الاحتياطات ويتقاسمها مع أصدقائه لكي يكونوا، بعد تناول جزء من الخوة، شهود عيان على الاتفاق"(61).

ويقول فالين أن الخوة تدفع ليس فقط إلى حامي دافعيها "شيخ المشايخ، بل كذلك إلى كل

شخص متنفذ في مختلف الأفخاذ"(62). ويستقر قسم كبير من الخوة في جيوب وجهاء القبيلة، ومع ذلك فإن حصة منها تبقى عند أبناء القبيلة البسطاء. وكان الحضر والبدو شبه الرحل يدفعون الخوة إلى عدة قبائل بدوية في وقت معاً، علماً أن هذه القبائل تجمع الخوة بدورها من مختلف الواحات وقبائل رعاة الغنم(63). وفي بعض الأحيان يقوم البدو شبه الرحل الذين يدفعون الخوة لمن هو أقوى منهم بجباية الجزية من القبائل أو الواحات الأضعف.

وخلق ذلك كله أشكالا معقدة من التبعية ولكن جوهر القضية لم يتغير، وهو ابتزاز قسم كبير من المنتوج الفائض، وأحياناً قسم من المنتوج الضروري، من الحضر والبدو شبه الرحل إلى الأكثر جبروتاً. وكانت الخوة مصدراً لعائدات كبيرة على وجهاء الرحل وسائر البدو. وكانت قبائل البدو تتنازع على حق جباية الخوة. وأثناء تلك المنازعات يهلك دافعو الخوة أيضاً. ولم يكن بالإمكان التخلص من نير جباة الخوة إلا بالمقاومة المسلحة.

وتتحول علاقات الخوة أحياناً إلى علاقات تبعية الخدم والحشم، وعند ذاك تشارك القبائل الخاضعة في الغزوات الحربية لأسيادها، أي إنها تدفع جزية الدم. ويقدم الشيخ التابع آيات التكريم الظاهري للشيخ المتبوع. وكانت تبعية بعض القبائل قد بلغت حداً جعل ديكسون، مثلاً، ينعت قبيلة الرشايدة "بالاقنان" لقبيلة مطير، وينعت قبيلة العوازم "بالخدم" لقبيلة العجمان(64). صحيح أن هذا القول

يخص القـرن العشـرين، ولكن مثـل هـذه العلاقـات كانت، على ما يبدو، موجودة في السابق أيضاً.

وكان البدو قد فرضوا رسوماً على قوافل التجـار والحجاج وأطلقـوا عليهـا كـذلك أسـم "الخـوة"(65). وأستخدم أبن بشر للدلالـة على هـذه الرسـوم كلمـة من نفس الأصل "خاوى" وقد وردت عند أبن خلـدون أيضـاً. وجمـع ثـروة كبـيرة خصوصـاً وجهـاء القبائـل المسيطرة على طرق الحج.

وكان الباب العالي يـدفع إلى البـدو مبـالغ كبـيرة لقـاء مـرور قوافـل الحجـاج العثمـانيين إلى مكـة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقدر بوركهاردت تلك المبالغ في بداية القرن التاسع عشـر بــ50 -60 ألـف جنيـه إسـترليني سـنوياً(66). وفي عـام 1756 تلكـأ والي دمشـق العثمـاني في دفـع النقـود وأعـدم شيوخ البـدو الـذين جـاءوا لاسـتلام المبـالغ المقـررة، ولكن قبائل البدو توحدت بعد عامين وسحقت حـرس الحجاج ونهبت القافلـة وأرغمت السـلطات العثمانيـة من جديد على دفع هذه الضريبة(67).

وكـان وجهـاء البـدو يسـتلمون كـذلك مـدفوعات تحـددها الأعـراف لقـاء "حمايـة" الصـناع والباعـة المتجولين(68).

القبائل "الوضيعة". العبيد والمعتوقـون. ومن بين دافعي الجزية لقبائل البدو القوية كـذلك من يسـمون بالقبائل الوضيعة في الجزيرة العربية: الصـلبة وهـتيم والشرارات وفروعها.فبنتيجة التطور التاريخي الخاص غدت هذه القبائل مجزأة إلى عـدة أفخـاذ هائمـة في شبه الجزيرة كلها بشكل جماعات غـير كبـيرة وليس

لها أرض خاصة بها، الأمر الذي كان سبباً في ضعفها. وكان أغلبها يترحل في أراضي الغير مع أصحاب تلك الأراضي. وكتب بوركهاردت يقول: "بين القبائل الكثيرة جداً التي تقطن بوادي الجزيرة لا توجد قبيلة أكثر تشتتاً وتواجداً في جميع أرجاء هذا البلد من قبيلة هتيم. فيمكن للمرء أن يصادف خيام هذه القبيلة في سوريا وفي صعيد مصر والدلتا ونجد وبلاد الرافدين... وفي كل مكان تقريباً نجدها مضطرة إلى دفع الأتاوت للقبائل المجاورة لقاء رعي الماشية"(69).

وكانت واسطة النقل الرئيسية عند الصلبة هي الحمير وليس الإبل. ولم يكن الرعي عادة بقادر على إطعام هذه القبيلة، ولذا اضطرت إلى ممارسة نشاط يعتبر مهينا في مجتمع الجزيرة، مثل بعض الصنائع. وصار البعض موسيقيين محترفين وراقصين ومطببين. وخدموا عند الوجهاء في هذه المهن(70). وكانوا يتكهنون باحتمالات الطقس ويشيرون إلى مواقع المراعي الأفضل ويتلقون الهبات في مقابل ذلك(71).

وغدا أفراد القبائل "الوضيعة" مادة للاستغلال والابتزاز بلا رحمة من قبل البدو الأقوياء. وأورد دوتي مثالاً فقال: "وصل عدد من أبناء عنزة إلى الواحة وهم يقتادون في الدرب شخصا عارياً يثير الشفقة والحبل في عنقه. كان ذلك من أبناء هتيم. وكان البدو يصرخون كالمسعورين متهمين إياه بتأخير تسديد الخوة وقدرها عشرة ريالات. اقتادوه لكي يروا ما إذا كان هناك شخص في خيبر يدفع الخوة بدلاً عنه كما

وعدهم، وإذا لم يجدوا ذلك الشخص فسيسحبون هذا المسكين إلى خارج المدينة ويقتلونه"(72). إن هذه الواقعة وحدها تبين مدى الهوة العميقة التي تفصل بين البدو الأحرار وبين أفراد القبائل "الوضيعة"، ومدى قساوة أشكال استغلال بعضهم للبعض الآخر.

وقد ظلت العبودية (الرقيق) في الجزيرة العربية قائمة طوال قرون(73). وكان العبيد ينقلون إلى شبه الجزيرة في الغالب من شرق ووسط أفريقيا. كانت هناك حملات خاصة لتجارة العبيد تستولي عليهم أو تشتريهم خصيصاً، كما أن بعض الحجاج كانوا يبيعونهم بغية تغطية نفقاتهم على زيارة الحرمين. كانت تجارة العبيد متركزة في مكة على الأغلب، ولكنها كانت تجري أيضاً في مدن أخرى، مثل الهفوف ومسقط. ويبدو أن عدة آلاف من العبيد كانت ترد إلى الجزيرة سنوياً. وفي حالات استثنائية كان الأعراب يتحولون إلى عبيد.

كان أكبر عدد من العبيد متواجداً في مركز تجارة العبيد - الحجاز، حيث كانت كل أسرة مستقلة بهذا القدر أو ذاك تسعى إلى شراء الرقيق. أما خارج الحجاز فقد كانت العوائل الغنية فقط هي التي تمتلك عبيداً. كتب بلغريف: "صادفنا أحياناً في الجزيرة العربية زنوجاً، في الجوف وجبل شمر والقصيم وسدير. ولكننا رأيناهم فقط يؤدون أدوار العبيد، ونادراً ما صادفناهم في منازل غير منازل أكثر الناس ثروة"(74). ويقول الرحالة أن عدد الزنوج والمولدين في جنوب نجد كان في ازدياد وكانوا في بعض الواحات يشكلون أغلبية السكان. "في الرياض كثير

من الزنوج، وعددهم أكثر في منفوحة والسلمية وغالباً ما نصادفهم في الخرج ووادي الدواسر وأطرافهما"(75).

وكان وجهاء البدو يمتلكون العبيد أيضاً. كتب بوركهاردت عن عنزة يقول : "كل شيخ قوي يقتني سنوياً خمسة عبيد أو ستة وعدداً من الإماء..."(76).وكانت الحال كذلك في القبائل البدوية الأخرى.

كان العبيد يؤدون أصعب وأقذر الأعمال. كانوا في القبائل المترحلة يرعون الماشية وينقلون الماء وينصبون الخيام ويرفعوها ويجمعون الحطب والوقود. وكان عمل العبيد يستخدم كذلك في الزراعة والصنائع، ولكن بقدر محدود جداً ولكن الميدان الأساسي لاستخدامه هو الشؤون المنزلية حيث يؤدي العبيد واجبات الخدم والحراس ومدبري المنزل.

وتجدر الإشارة إلى بعض الخصائص الجوهرية لأوضاع العبيد في الجزيرة العربية. فالعبودية هنا كانت تتميز بطابع عشائري.وهذا هو السبب في المعاملة الطيبة نسبيا للعبيد. فالعبيد وخصوصاً المولدون كأنما يغدون أفرادا غير كاملي الحقوق في عائلة سيدهم. وفي بعض الأحيان يغدون ورثة لأملاك سيدهم. وكانت الإماء، عند وجهاء المدن خصوصاً، تستخدم كجوار ويغدو أبناؤهن أحراراً عادة، ويصبحن هن حرائر بعد وفاة أسيادهن. كان العبيد محرومين ومهانين من الناحية الاجتماعية، ولكنهم من الناحية الاقتصادية يعيشون أفضل من البدو الرحل أو

الفلاحين شبه الجياع. فقد كانوا يتمتعون بقسم من عائدات الوجهاء.

وكان كثيرون من العبيد في الجزيرة قد حصلوا على الحرية وأصبحوا معتوقين ولكنهم ظلوا يسمون بالعبيد أيضاً. ولم يكن ذلك يشمل الجواري وأبناءهن فقط. أن عدد العبيد "الموروثين" لم يكن كبيراً في الجزيرة العربية.

كانت عملية عتق العبيد في القبائل البدوية أشد مما عند الحضر. فبعد مضي فترة معينة كان البدو دوما يمنحون الحرية للعبيد ويزوجونهم من نساء من بشرتهم. وقال بوركهاردت:"أبناء عنزة لا يعاشرون الإماء أبداً، ولكنهم بعد بضع سنوات من الخدمة يمنحونهن الحرية ويزوجونهن من العبيد أو أبناء العبيد المتبقين في القبيلة"(77). وكان المعتوقون يمارسون البيع والشراء والصنائع ويعملون خدماً في منازل الأثرياء.

كان تحرير العبيد في ظروف الجزيرة العربية يتسم كذلك بمغزى آخر. فإن أحد شيوخ عنزة مثلاً "يمتلك أكثر من خمسين عائلة من أناس كانوا في زمن ما عبيداً له، وهم مدينون لسخاء هذا الشيخ بكل ما يملكون. ولا يحق له الآن أن يستحصل منهم الجزية السنوية، لأنهم صاروا يعتبرون من الأعراب الأحرار، ولكنه يزوج بناتهم من عبيده الجدد ومن المعتوقين، وعندما يستولي ذوو البشرة السوداء هؤلاء على غنائم كبيرة أثناء الحروب بوسع الشيخ أن يأخذ منهم ناقة جيدة، وهم لا يرفضون ذلك أبداً"(78). وقد توجد بعض المعتوقين حسب السمة

القبلية السكانية، إلا أن منزلة هذه القبائل الجديدة أوطأ من منزلة قبائل الأعراب الأقحاح. وكان المعتوقون في تبعية مالية وشخصية لوجهاء البدو.كان السواد الأعظم من المعتوقين يمارس الزراعة. كانوا محرومين من الأراضي، ولذلك صاروا يستأجرونها بالمحاصة من وجهاء الحضر والبدو في الغالب (وأحياناً من قبائل البدو الرحل بكاملها). وكان المستأجرون المعتوقون يتعرضون لاستغلال بشع. يقول فالين: "أنهم نادراً ما يبلغون الثروة والرفاه"(79). وظلت باقية كذلك تبعية المستأجرين المعتوقين الشخصية بقدر كبير لمالكي العبيد السابقين. وبالإضافة إلى ذلك كان على المعتوق، في عدة حالات، أن يعيد إلى سيده قبل مغادرته، الأموال التي استلمها أثناء التحرير(80)، الأمر الذي لم يكن ممكنا على الدوام. وكان المستأجرون المعتوقون يرتبطون بالأرض بقد ما ، فضلا عن الريع الإقطاعي الذي يسددونه. ولذلك فأن أحوالهم أقرب إلى أحوال الأقنان مما هي إلى سائر فئات سكان الجزيرة.

كان استغلالهم من قبل وجهاء الحضر نوعاً خاصاً من الاستغلال الإقطاعي للأعراب المحاصين. وكانت عائدات الأراضي التي يفلحها المعتوقون واحداً من أهم مصادر الدخل الخارجية (خارج القبيلة) لوجهاء البدو.

تنظيم السلطة وطابعها في القبائل البدوية. إذا كانت تسود بين الوجهاء وبسطاء البدو داخل القبيلة المترحلة علاقات لم تصبح طبقية بعد، فإن وجهاء البدو خارج القبيلة صاروا استغلاليين طبقيين. فهم

يستلمون حصة الأسد من المداخيل بشكل جزء من غنائم الغزوات وخوة وجزية من الحضر وأشباه البدو والقبائل "الوضيعة". والصناع والباعة والحجاج وريع إقطاعي من الأراضي السيحية المقدمة على سبيل الإيجار(81). كان وجهاء البدو، كما أسلفنا، يستلمون من أبناء قبائلهم قسماً ضئيلاً من المنتوج الفائض لعملهم. إلا أن الزراعة أمنت إنتاجية أعلى وساعدت على استغلال الفلاحين بقدر أكبر. زد على ذلك أن الوجهاء كانوا يسمحون لأنفسهم، خارج القبيلة، بأن يستأثروا بشكل جزية، ليس بالمنتوج الفائض فقط، بل بقسم من المنتوج الضروري أيضاً فيحمون على دافعي الجزية بالحرمان والجوع.

إن المداخيل الخارجية الواردة على القبيلة تغني الوجهاء وتشدد التفاوت في الأموال. إلا أن قسماً من هذه المداخيل يصل إلى أبناء القبيلة البسطاء، الأمر الذي ساعد على بقاء فئة البدو المستقلين وطمس التفاوت.

إن الطابع المزدوج لوجهاء القبائل بوصفهم من أبناء القبيلة الأكثر ثراءً وجاهاً وبوصفهم مستغلين للسكان خارج قبيلتهم قد حدد خاصية السلطة السياسة عند البدو الرحل وفي مجتمع الجزيرة عموماً.

فقد كان الشيخ داخل القبيلة بالدرجة الأولي رئيساً عشائرياً للجماعة ومتصرفا بالنشاط الاقتصادي. كان يتزعم الرحلات الأساسية للقبيلة ويشرف على توزيع المراعي والآبار ويختار مكان نصب المخيم ومدة المكوث فيه. وكان بوسع الشيخ

أن يضطلع بدور القاضي أو الحكم في النزاعات التي تنشأ داخل القبيلة واختلاف الآراء والشكاوى في مسائل الأسرة والزواج والمعيشة، وكان يتابع الالتزام بالعادات القبلية وخصوصاً المرتبطة بأخذ الثأر ويراقب استعادة الأموال المسروقة. وكان يمثل القبيلة في العلاقات مع العالم الخارجي. وبوسع الشيخ أن يغدو قائداً في الحرب وأن يعلن الحرب ويعقد الصلح(82).

وكان الشيخ يتخذ أهم القرارات بعد التشاور مع وجهاء القبيلة أو مجلسها(83) الذي احتفظ بسمات التنظيم الديمقراطي للمجتمع العشائري. ويقول الرحالة الإنجليزي دوتي: في المجلس "يتكلم من يشاء، ويرتفع هنا صوت أبسط أبناء القبيلة لأنه من أبنائها"(84). ولا يستطيع الشيخ أن يعلن الحرب أو يعقد الصلح بدون تشاور مبدئي مع أبناء القبيلة المسموعي الكلمة. وإذا أراد أن ينصب مخيماً فعليه أن يستطلع آراءهم(85).

ويقول دوتي أن المجلس كذلك "شورى للشيوخ ومحكمة اجتماعية، ويراجعه أبناء القبيلة في أي وقت للنظر في شؤونهم... ويتشاور الشيخ مع الشيوخ الآخرين والوجهاء والأشخاص الأرفع منزلة. ويصدر القرار دوماً دون تحيز ودون آي ارتشاء. وهو قرار نهائي"(86). وبالإضافة إلى ذلك يمارس العراف النظر في الدعاوى القضائية. وإذا اعترض المحكوم عليه بالغرامة المالية على القرار يضطر إلى ترك القبيلة.

ويتجلى الطابع العسكري الديمقراطي للتنظيم القبلي في تقسيم السلطة في الفخذ والقبيلة في عدة حالات إلى سلطة "مدنية" (الشيخ) و"عسكرية" (العقيد). ويقول بوركهاردت: "لكل قبيلة عقيد، إضافة إلى الشيخ، ويندر أن يتسلم شخص واحد كلا هذين المنصبين. فأنا، على أي حال، لا أعرف مثالاً على ذلك مع أن بعض الأعراب يقولون أنهم رأوا شيخاً كان بين أعراب منطقة البصرة عقيداً أيضاً... وإذا شارك الشيخ في الحملة فهو يخضع، كسائر أبناء القبيلة، للعقيد الذي لا تنتهي صلاحياته ألا عندما يعود المحاربون إلى ديارهم. وعند ذاك يعود الشيخ إلى منصبه"(87). ويفيد مؤرخو الجزيرة والمعلومات الأحدث بأن توافق سلطة الشيخ والعقيد كان ظاهرة أكثر حدوثاً مما يعتقد بوركهاردت. ويمكن أن يغدو عقيداً أبن الشيخ أو أحد أقربائه. ولا يندر أن تربط أواصر القربى بين عائلتي الشيخ والعقيد.

ولم تكن لدى زعيم القبيلة، عادة، شارات ظاهرية للسلطة ولم يكن يلتزم بمراسيم خاصة في معاملة أبناء قبيلته. فالبدو البسطاء يتعاملون معه كما لو كان في منزلتهم.

وفي حالة وفاة أو عجز الشيخ يختارون شخصاً آخر بدلاً عنة. ومن السجايا التي يجب توفرها في زعيم القبيلة السخاء والشجاعة والذكاء والحكمة والثروة (الماشية والأرض). وينبغي أن يكون له أنصار كثيرون من الأقارب والخدم(88). واليكم ما كتبه فولني عن شيخ قبيلة بدوية: "حقاً، فإن شيخ المشايخ في كل قبيلة يضطلع بواجب الأنفاق على

القادمين والذاهبين، وهو الذي يستقبل الحلفاء وكل من يأتي أليه في حاجة ما. وقرب خيمته ينصب بيت شعر كبير هو ملجأ لكل الغرباء والقادمين. وهنا بالذات تعقد الاجتماعات الكثيرة للشيوخ والوجهاء لانتقاء مواقف المخيمات أو لشد الرحال، وللنظر في مسائل الحرب والصلح والمنازعات مع الولاة العثمانيين أو القرى وللنظر في الشكاوى والنزاعات بين الأفراد. ويجب إطعام جميع هؤلاء الأشخاص الذين لا ينقطع سيلهم بالرغيف المخبوز على الرماد وبالأرز ولحم الماعز أو الجمال المشوي أحياناً والقهوة - وباختصار يتعين على الشيخ أن يتحلى بكرم الضيافة"(89). وفي أغلب الأحوال يظل لقب الشيخ محصوراً في عائلة واحدة من الأعيان والوجهاء طوال عقود وأحياناً طوال قرون. ويؤكد دوتي: "لا يستطيع أن يكون زعيماً لعشيرة البدو أي بدوي بسيط أو أي شخص من غير تلك العشيرة وأن كان يتفوق على الجميع من حيث الثروة والجاه والمواهب"(90).

وغالباً ما تنتقل السلطة من الأب إلى الابن، ولكنه في حال عدم توفر الخصال اللازمة عند المرشح للسلطة تحال إلى شخص آخر من الوجهاء. وتلك هي أيضاً حال سلطة العقيد. كان الشيخ والعقيد يتنافسان في القبيلة، وفي بعض الأحيان كان العقداء يستولون على منصب الزعيم المدني. ويجري داخل الفئة الحاكمة في القبيلة أحياناً صراع طاحن من أجل السلطة، وترفق ذلك دسائس وقتل وانشقاق في القبيلة.

وكـان من بين الوجهـاء الحـاكمين أيضـاً عـراف العادات والتقاليد في القبيلة(91).

إن تركـز أهم المناصـب الاجتماعيـة في القبيلـة البدويـة بأيـدي كبـار الوجهـاء يـدل على أن السـلطة أخذت تفقد سماتها العشائرية. ولكن هل كـانت لـدى الشيخ مستلزمات السلطة الطبقية؟ وبعبـارة أخـرى، هـل كـانت وظائفـه العشـائرية الخارجيـة تكتسـب مضموناً آخر؟ نعم، بقدر معين. فمما لا شـك فيـه أن الشـيخ يخـدم بالدرجـة الأولى مصـالح وجهـاء البـدو. فالوجهـاء يسـتلمون بمسـاعدته أفضـل المـراعي وأفضل موارد المياه وحصة كبيرة من غنائم الحـرب. وكان الشيخ لا يكتفي، لكي يفرض إرادته، باسـتخدام السخاء والمنزلة الشخصية الرفيعة، بـل يعتمـد كلـك على قوة الفخذ الغفير وعلى الأنصـار وعلى مفرزتـه المكونة من العبيد والمعتوقين.ولكنـه رغم الاتجاهـات الواضحة نحو تحول سلطة الشيوخ داخل القبيلـة إلى سلطة من النمط الإقطاعي ، فإنها،على ما نعتقد، لم تتحول بعد إلى سلطة إقطاعية في تلك الحقبة.

وبغية إيضاح هذه المسألة يجدر بنا أن نتأكد ممـا إذا كان لـدى وجهـاء البـدو جهـاز خـاص يتواجـد فـوق المجتمع ومـا إذا كـانوا يسـتطيعون اسـتخدام العنـف بانتظام لفرض إرادتهم.

يقــول فولــني: "إن نمــط إدارة هــذا المجتمــع خليط، فهو في الوقت نفسه جمهوري وأرسـتقراطي وحتى طغياني دون أن يكون دقيقـاً في أي صـفة من هـذه الصـفات. فهـو جمهـوري لأن الشـعب في هـذا المجتمـع يتمتـع بـالنفوذ الأول في كـل الشـؤون، ولا

يجـري أي شـيء بـدون موافقـة الأغلبيـة. وهـو أرسـتقراطي لأن عوائـل الشـيوخ تتمتـع بطائفـة من الامتيازات الناجمة عن القوة في كـل مكـان. وأخـيراً فهو طغياني لأن سلطة شيخ المشـايخ غـير محـدودة ومطلقة تقريباً. وعنـدما تكـون طبـاع الشـيخ شـديدة فيمكن أن يسـتفيد من سـلطيه إلى حـد سـوء التصرف، ولكن هناك حدود ضيقة نسـبيا حـتى لسـوء التصرف هذا. حقاً، فإذا اقترف الشيخ ظلماً كبيراً، إذا قتـل إعرابيـاً مثلاً، فلا يسـتطيع تقريبـاً أن يتحاشـى العقاب، فأن غضب الـذين أهـانهم لا يجعلهم يعـيرون اهتماماً للقبه، ولذا يتعـرض للثـأر، وإذا لم يـدفع لقـاء الدم الذي أراقه فسيُقتل من كل بد...

وإذا أثقـل على رعيتـه بقسـاوته فـأنهم يتركونـه وينتقلـون إلى قبيلـة أخـرى. ويسـتفيد أقربـاؤه من أخطائـه بغيـة تنحيتـه والحلـول محلـه. ولا يسـتطيع استخدام قوات أجنبية ضـدهم. وإن رعيتـه يتفـاهمون فيمـا بينهم بسـهولة لا تمكنـه من التفرقـة بينهم وتشكيل كتلة كبيرة مؤيدة له. ثم كيف يستطيع شراء ذمم هـذه الكتلـة إذا كـان لا يسـتلم من القبيلـة أي ضرائب عنـدما يضـطر القسـم الأكـبر من رعيتـه إلى الاكتفاء بالضروريات وإذا كانت ملكيته ضئيلة ومثقلـة بنفقات كبيرة؟"(92).

ولاحظ بوركهادت "إن الشيخ ليست لديه سـلطة فعليـة على أبنـاء قبيلتـه ولكنـه يسـتطيع أن يحظى بنفـوذ واسـع عن طريـق خصـاله الشخصـية. وهـو لا يتمكن من إصدار الأوامر ولكنه يقدم النصـائح... وإذا حدث خلاف بين أثنين من أبناء القبيلة فالشيخ يحاول

تسويته بالنصح والإرشاد وليس بوسعه أن يصر على رأيه. ولا يتمكن أقوى زعيم لقبيلة عنزة من فرض أبسط عقوبة على واحد من أكثر أبناء قبيلته فقراً دون أن يجازف بالتعرض للثأر من قبل هذا الشخص وأقربائه والعقوبة الوحيدة المعروفة في هذا القبيلة هي الغرامة المالية..."(93).

كان جهاز العنف الطبقي عند البدو الرحل في طور الظهور. ولم تكن مقوماته الأساسية - الجيش والشرطة والسجون والآلة الإدارية والمحاكم الطبقية - موجودة عملياً في القبيلة. وإن المفرزة الشخصية للشيخ والمكونة من العبيد يواجهها التنظيم العسكري الديمقراطي للقبيلة، وهو تنظيم أقوى منها بكثير. والحالات التي نعرفها لاستخدام العنف داخل القبيلة تعود إلى مطلع القرن العشرين، مع إنها يمكن أن تحدث أيضاً في وقت أسبق(94).

وفي ظل البنية التي كانت قائمة في مجتمع الجزيرة عموماً لم تكن لوجهاء البدو الرحل موضوعياً مصلحة في تحطيم التنظيم العشائري واستبداله بنوع من أنواع آلة الدولة. فبالاعتماد على القدرة الحربية للقبيلة وعلى التنظيم القبلي فقط كان وجهاء البدو يمارسون سيطرتهم الطبقية على مجاميع السكان المتواجدين خارج القبيلة.

الطابع الإقطاعي للسلطة في الواحات. لاحظت الباحثة والرحالة الإنجليزية بلانت الطابع المزدوج للسلطة البدوية. وكتبت بلانت تقول: "المدن تطلب حماية شيخ مشايخ البدو في المنطقة، وهو يؤمن، لقاء جزية سنوية، سلامة سكان المدن خارج

أسوارها فيمكنهم من الترحال دون عائق على طول المسافة التي تشملها سلطته، وهي، إذا كنا نقصد شيخ قبيلة قوية، سلطة تشمل مئات الأميال ومدناً كثيرة وعند ذاك يقال أن المدن "عائدة" لهذه القبيلة أو تلك، ويغدو الشيخ البدوي وصياً عليها أو حاميها الرئيسي...

ثم يستمر التطور. فالشيخ البدوي الذي يثرى على حساب الجزية من عدة مدن يبني لنفسه قلعة قرب إحدى تلك المدن ويقضي أشهر الصيف فيها. ثم يغدو بسرعة حاكماً للمدينة في الواقع بفضل مكانته (لأن أصله البدوي ما يزال يعتبر هو الأنقى) وبالاعتماد على سيطرته في البادية، يتحول الشيخ من وصي على سكان المدينة إلى سيد لهم. وعند ذاك يمنحونه لقب الأمير، فيغدو ملكاً لجميع المدن التي تدفع له الجزية مع بقائه شيخاً للبدو. (التشديد للمؤلف).

ومن جهة أخرى فإن الرأي العام في المدينة يقيد الأمير البدوي بقدر أكبر، مع أنه يمكن أن يكون طاغية... فالأمير وأن كان حراً في تصرفاته الفردية ولكنه يعرف جيداً بأنه لا يمكن أن يخرق قانون الجزيرة التقليدي غير المدون ويبقى بدون عقاب"(95).

كانت عملية تحول وجهاء البدو إلى طبقة مسيطرة على الحضر في الجزيرة العربية قد جرت بالتدريج. علماً أنه يمكننا ملاحظة الأشكال المتنوعة في العلاقات المتبادلة بين الوجهاء وبين القبيلة والسكان الحضر ونمط الحياة المتباين والسلوك

المختلـف في الحيـاة المعيشـية. وإن شـيوخ القبائـل الأقوياء أو شيوخ اتحـادات القبائـل كـان بوسـعهم أن يفرضـوا السـيطرة على الواحـات أو على مجموعـة منها. ولكن وجهاء القبائـل يصـادف أن يحـافظوا على نمــط الحيــاة البــدوي ويظلــوا شــيوخاً بــدويين في الغالب. والمثال على ذلك هو أبناء آل حميد من قبيلة بني خالد الـذين سـيطروا في القـرنين السـابع عشـر والثامن عشر على منطقة الأحساء الزراعيـة الغنيـة، ولكنهم فضــلوا، مثــل الأمــويين الأوائــل، البقــاء في قبيلتهم المترحلة. ولم يكن ذلك يمنعهم من الاحتفاظ بحاميات في الواحات الأساسية.

وبعد الاسـتيلاء على السـلطة في الواحـات كـان أبناء وجهاء البدو ينفصلون عن قبائلهم ويتحولون إلى حكـــام إقطـــاعيين حضـــر . علمـــاً أن مطـــامعهم الاستغلالية إزاء سكانهم الزراعيين كانت تتعارض مـع مصالح البدو الذين يشاركونهم في اسـتلام الاتـاوات. وبعد أن يتحول شيوخ البدو السـابقون إلى قسـم من وجهــاء الحضــر يقومــون بالــدفاع عن ممتلكــاتهم ومـداخيلهم دون اعتـداءات البـدو الرحـل. ومن هـذا الأصل يتحدر أمراء الدرعية السعوديون وحكام حائـل الرشيديون.

وأخيراً يقوم الحاكم الحضـري القـوي، بالتحـالف مع بعض القبائل البدوية أو بصـورة مسـتقلة بغـزوات على البـدو المجـاورين فينهبهم ويـرغمهم أحيانـاً على دفع الإتاوات.

لم تكن السلطة في الواحـات مـتركزة دومـاً في أيــدي أشــخاص بعينهم. ففي بعض الأحيــان كــان

المزارعون المتحدرون من قبائل مختلفة يتنازعون فيما بينهم ولا يخضعون لحاكم واحد، إذا أن لديهم شيوخهم وأمراءهم.

كانت سلطة الأمير الحضري تختلف اختلافاً جوهرياً عن سلطة الشيخ البدوي. فالحاكم في الواحة لا يواجهه تنظيم عسكري ديمقراطي عشائري. وكان المزارعون الذين ضعفت روابطهم العشائرية رازحين تحت تبعية لوجهائهم أكبر بكثير من تبعية البدو. لذلك فلا يثير الدهشة أن ينعت مؤرخو الجزيرة سكان الواحات بالرعية. وكان الأمير الإقطاعي يعتمد من جهة على وجهاء الواحة الذين تربطه بالكثيرين منهم صلة القربى، ومن جهة أخرى يعتمد على مفرزته الخاصة المكونة من العبيد والمعتوقين والجنود المرتزقة. وكان النظام القضائي في الواحات مبنياً، عادة، على أساس الشريعة الإسلامية. ويمارس الأمير شخصياً أمور القضاء إلى جانب القاضي الذي يتحلى بإعداد حقوقي وفقهي.

إن التركيب السياسي لإمارة جبل شعر التي وصفها الرحالة في أواسط القرن التاسع عشر والنصف الثاني منه يمكن أن يعتبر تكراراً لسمات تنظيم السلطة في الدويلات - الواحات في وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر. كان أمراء حائل يديرون الدولة بمساعدة أقربائهم، وبصورة رئيسية بمساعدة العبيد والمعتوقين الذين يتمتعون بثقة الحاكم بقدر أكبر مما يتمتع به أقرباؤه علماً أن مشايخ آل رشيد اعتمدوا على مفارز من العبيد والمرتزقة. وكان زعماء العبيد الذين يسمون بزلم

الشيوخ يتسلمون أهم المناصب في البلاط ومناصب الموظفين في جهاز الدولة الناشئ. وكانوا ولاة أو عمالاً في الواحات. وكانت أهم الدعاوى القضائية وبعض القضايا المدينة ينظر فيها في مجلس الأمير الذي يعقد جلساته أمام الملأ، ويشارك فيه ممثلو وجهاء حائل وكبار علماء الدين. وكان حرس الحاكم نفسه يضطلع بدور الشرطة في أمارة مشايخ آل رشيد. كما كان هناك سجن في حائل وكانت العقوبات على الجرائم هي مصادرة الأموال والضرب بالعصي وقطع اليد(96).

إلا أن نظام الدولة في الواحات الأخرى كان أقل تطوراً. فإن دوتي الذي زار عنيزة، المركز التجاري الكبير في القصيم، لم يجد هناك سجناً(97).

ومن السهل أن نلاحظ أن سند السلطة الإقطاعية في الواحات هو حرس العبيد.فهذا الحرس المعتمد كلياً على سيده وغير المرتبط بالسكان المحليين، وسيلة ناجحة للسيطرة السياسية علماً بأن العبيد - المحاربين والشرطة والموظفين والعمال - كانوا يتمتعون بمكانة متميزة ويحصلون على مداخيل كبيرة، وقد تحولوا في الواقع إلى جزء من الطبقة الحاكمة، مع أنه جزء خاص ذو حقوق مبتورة. وكانت فئة العبيد قد حصلت في بعض الحالات على وزن ونفوذ كبيرين فادعت أحياناً بالسلطة العليا واستولت عليها. وحدث ذلك، مثلاً، في الرياض في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكذلك في مكة في أواخر الثمانينات من القرن المذكور(98). وتجلى تأثير القوة العسكرية لمفارز العبيد بقدر ما على

مشايخ البدو أيضاً إلا أن إمكانية تحول العبيد إلى طبقة حاكمة في الجزيرة العربية لم تتحقق في سياق التطور التاريخي. ولكن الحرس التركي في عهد العباسيين والمماليك في مصر دليل على مدى الشوط البعيد الذي يمكن أن تقطعه مثل هذه الاتجاهات في المجتمع.

الفئات والمراتب في مجتمع الجزيرة. إن البنية المتعددة الجوانب لمجتمع الجزيرة قد تعقدت بقدر أكبر بسبب عناصر التقسيم الفئوي والعادات والتصورات المرتبطة بها. وكانت هذه العناصر نابعة بالأساس من النشاط الاقتصادي والعلاقات العشائرية والتقسيم الطبقي والخصائص النفسانية.

كان البدو من رعاة الإبل بالذات يعتبرون في الجزيرة من أنبل ممثلي النوع البشري. وكانوا هم أنفسهم على اعتقاد راسخ بتفوقهم على الحضر وأشباه البدو. وكانوا يعتبرون العمل الوحيد اللائق بهم هو الغزو وتربية الإبل والقوافل وأحياناً التجارة. وكان رعاة الغنم في القبائل البدوية الكريمة المحتد يشغلون مرتبة وضيعة ولا يتمتعون بالاحترام. وان تحول البدوي من راع للإبل إلى راع للغنم أو مزارع يهبط به من منزلته "الرفيعة" لدرجة تجعل من الصعب عليه العودة إلى حظيرة البدو الاقحاح(99). وكان البدو يبررون رفعة منزلتهم بانتسابهم إلى أصول تغوص في أعماق القرون(100).

ويقف في الدرجة التالية من سلم المراتب رعاة الغنم الذين ينظرون إلى الحضر باستعلاء. ويأتي بعدهم الزراع إذا تهيأت لهم إمكانية الوصول

بأنسابهم إلى أجداد كريمي المحتـد. إن التفـاوت في مراتب هذه الفئـات من السـكان يعـززه عـدم وجـود علاقـات متينـة للـتزاوج فيمـا بينهـا. ومن النـادر أن يوافـق البـدوي المعـدم على تـزويج ابنتـه من فلاح موسر.

وكـان الوجهـاء يحتلـون منزلـة أعلى من هـذه الفئات الثلاث من سكان الجزيرة العربية والتي تتميز بدرجات مختلفـة من المحتـد الكـريم. وكـان الوجهـاء يعتبرون أنفسهم أرقى من سائر البدو الرحل بقدر ما يعتـبر هـؤلاء أنفسـهم أنبـل من الـزراع. وان بيوتـات شيوخ مشايخ القبيلة، خلافاً لسائر أبناء القبيلة الـذين يعتـبرون أنفسـهم خلفـاً لجـد واحـد، غالبـاً مـا تـدعي بأصول تختلـف عن الأصـول النبيلـة الخاصـة بالقبيلـة كلهـا. إن دم أفـراد عائلـة الشـيخ (عنـد البـدو) يفـوق التقدير أو أنه (عند أشـباه البـدو) أغلى من دم سـائر أبناء القبيلة. وكـان الشـيوخ يخرقـون أصـول الـزواج العشـائري المرسـومة بالعـادات والتقاليـد فـيزوجون بناتهم من شـيوخ قبائـل أخـرى ولا يـتزوجون هم إلى من بنات الشيوخ، علماً بأن المهر المتعارف عليه بين الشـيوخ أعلى بكثـير من المهـر العـادي. ونعت دوتي وجهاء القبائل "بالأرستقراطية من حيث الدم والأصل (الجـد المشـترك)"(101). وكـان هـذا أيضـاً هـو رأي فولني، حيث يقول: "تضـم كـل قبيلـة عائلـة أو عـدة عوائـل رئيسـية يحمـل أبناؤهـا لقب الشـيوخ. وهـذه العوائـل تماثـل عوائـل الأعيـان في رومـا والنبلاء في أوربا"(102).

وكان الإقطاعيون الحضر يتباهون بتحدرهم من وجهاء البدو. وفي بعض الأحيان حاولوا الحفاظ على نمط الحياة البدوي واحتفظوا بأواصر القربى مع وجهاء البادية.

وكانت القبائل "الوضيعة" (هتيم وغيرها) منبوذة في مجتمع الجزيرة. وإذا نعت شخص ما من قبيلة باسم تلك القبائل فهو يعتبر ذلك إهانة بالغة. وكان على أبناء القبائل "الوضيعة" أن يقدموا آيات التبجيل للأعراب الكريمي المحتد. والذين تجري الدماء الطاهرة في عورقهم لا يتزوجون أبداً من بنات القبائل "الوضيعة"(103). وتتحدث عن أصول هذه القبائل حكايات وأساطير تحط من سمعتها. ولكن ذلك لم يمنع شباب عوائل الوجهاء من الأستفادة من التسيب الخلقي في القبائل "الوضيعة" وإقامة علاقات غرامية مع المحظيات منها. والشعر البدوي الشفهي مليء بالأمثلة من هذا النوع(104).

ويعتقد بعض الباثين في العلم المعاصر أن أصول بعض القبائل "الوضيعة" تعود إلى ما قبل العرب بل وحتى إلى ما قبل الساميين(105). ويرى آخرون إنها ظهرت في الجزيرة بعد ظهور العرب(106).

كان الصناع في مجتمع الجزيرة أكثر احتقاراً من القبائل "الوضيعة"، وكان احتراف الصنائع، وخصوصاً النسيج، أحط عمل يمكن أن يمارسه الإعرابي. وكانت كلمة "الصانع" تطلق للإهانة والتحقير. وحتى أبناء القبائل "الوضيعة" كانوا يستنكفون من الدخول في علاقات زواج مع الصناع. وقد شَكّل بعض الصناع

(وخصوصا الحدادون) طائفة منعزلة منتشرة في أرجاء شبه الجزيرة كافة وكانوا يعتبرون أنفسهم أبناء قبيلة واحدة(107).ولم يكن تنظيمهم يشمل الصناع من بين المعتوقين والأجانب.

وعلى أوطأ درجة من السلم الاجتماعي في الجزيرة العربية يتواجد العبيد والمعتوقون. فهم وحدهم يقدمون على الزواج من بنات القبائل "الوضيعة" والصناع،. ولا يستبعد أن يكون ذلك بالذات هو السبب في التفرد الاثنوغرافي للقبائل "الوضيعة" والصناع.

إن تقسيم مجتمع الجزيرة إلى فئات ومراتب غالباً ما لا يتوافق مع تقسيمه إلى استغلاليين ومستغلين. فلدى كل فئة "منبوذة" من فئات السكان - القبائل "الوضيعة" والصناع والعبيد - نخبة من أبنائها. وفي بعض الأحيان تتجاوز ثروة هذه النخبة ليس فقط ثروة البدو العاديين، بل حتى بعض وجهاء البدو. فالعبيد (من موظفي كبار الإقطاعيين) تفوق أحياناً على من وجهاء الحضر والبدو. إلا أن أكثر البدو فقراً كان ينظر باستعلاء إلى العامل أو الوالي الزنجي المتنفذ، وما كان يوافق على تزويجه من أبنته في أي حال.

مجتمع الجزيرة من خلال تطوره. مما لا شك فيه أن المجتمع الطبقي الاستغلالي كان موجداً في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إلا أن الحدود الطبقية فيه تمتد بخطوط متعرجة ليس فقط بين الأغنياء والفقراء، بين الوجهاء والرعية، بل كذلك بين البدو من رعاة الإبل والسكان

شبه الرحل والحضر، بين القبائل الكريمة المحتد والقبائل "الوضيعة"، بين الأحرار والعبيد. وفي بعض الحالات تطمس هذه الحدود في غمار العلاقات العشائرية والفوارق الفئوية.

فهل يجوز القول إن النظام الاجتماعي موضوع البحث قد نشأ في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر فقط؟ كلا، بالطبع. صحيح أن قضية تحديد الأطر الزمنية لوجوده تتطلب دراسة خاصة. إلا أن بعض معلومات الأوربيين،مثلاً، عن الحياة في الجزيرة خلال القرون الوسطى لا تتعارض مع المعلومات الأحدث. ومما يعزز وجهة النظر هذه ما كتبه أبن خلدون عن مجتمع شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر، في المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية، والذي يتميز بكثير من السمات المشتركة مع مجتمع الجزيرة العربية، حيث انتقلت العلاقات الاجتماعية للقبائل العربية دون شك، مع ترحالها إلى شمال أفريقيا، فإن سمات النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل الحمية والدخلة واستبدال الثأر بالتعويض وحرس العبيد في مكة، كانت معروفة في الجزيرة منذ فجر الإسلام(108)، مع أنه لا يستبعد أن مضمون بعض الأنظمة اتسم خلال القرون العديدة بصبغة طبقية لدرجة أكبر. إن الصعاليك من شعراء الجاهلية يشبهون كثيراً فقراء البدو في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في حين كان نعت ممثلي وجهاء القبائل في القرنين السادس والسابع هو "أصحاب المئات" (المقصود

مئات الإبل)(109). ونظراً لعدم حدوث أي تغيرات ثورية في تطور القوى المنتجة في الجزيرة خلال القرون الأخيرة حتى حلول القرن العشرين، يمكن الافتراض أن مثل هذا النظام الاجتماعي ظل باقياً أمداً طويلاً مع بعض التعديلات والتعمق التدريجي للفوارق الطبقية.

ومنذ عهد النبي وحتى ظهور الوهابية لم تشهد الجزيرة العربية السلطة الموحدة والاستقرار والوئام. وطوال القرون ظلت مجزأة في الغالب إلى دويلات - واحات صغيرة أو اتحادات لتلك الدويلات وإلى قبائل مترحلة أو اتحادات لتلك القبائل. وكان التشتت الاقتصادي للواحات والقبائل التي هي وحدات اقتصادية مستقلة، وكذلك نطاق البادية الخالية في الجزيرة حيث كانت جزائر الحياة البشرية متباعدة عن بعضها بعضا لمئات الكيلومترات، بمثابة عوامل للامركزية.

ومما أعاق التوحيد كذلك الفوارق القبلية والمحلية بين سكان الجزيرة ولهجاتهم وتنوع وتناقض المذاهب والمعتقدات الدينية.

وكانت لوجهاء القبائل والحضر مصلحة في توسيع حدود سلطتهم من أجل زيادة مصادر الإثراء. واصطدمت مطامح كل من كتل وجهاء القبائل والحضر بمصالح جيرانهم المماثلة. واستنزفت القوى في الصراع بينهم. ولكنه صادف أن هذه الكتلة أو تلك من الوجهاء تنشر سيطرتها على نطاق واسع بالاعتماد على القدرة العسكرية للبدو والحضر وبزعامة قائد موهوب. وبالنتيجة نشأت دول على

مساحات واسعة نسبياً. وكان التوسع المشترك الـذي يؤمن غنائم الحرب حافزاً رئيسياً للتوحيد. وكانت في الجزيرة العربية مناطق شاسـعة اختلطت فيهـا قـوى الفوضـى العشـائرية اللامركزيـة بـالقوى التوحيديـة المركزية. وتلك المناطق هي الحجاز ونجد والأحسـاء واليمن وعمان.

وبنتيجة إحلال الأمن وتقاطر الثروات من الخـارج كان من الممكن في أراضي الاتحـادات الكبـيرة على صعيد الدولة أن يجـري تطـور القـوى المنتجـة بوتـائر أسـرع بعض الشـيء. ولكن الحمـاس الحـثيث كـان يستنفذ فيما بعد، ويؤدي الصـراع الـداخلي والتنـافس إلى تفتت متانـة السـلطة، ويشـدد الوجهـاء اسـتغلال السـكان الخاضـعين لهم فيسـببون بظهـور مقـدمات التذمر الداخلي، وتتفوق القـوى اللامركزيـة الطـاردة وتنهار الدول. وكانت هذه العمليـة تسـير بسـرعة في حالة الكوارث الطبيعية أو تفشي الأوبئة.

ولـذلك يمكن القـول أن قـوى التوحيـد الكامنـة كانت موجـودة طـوال القـرون في الجزيـرة العربيـة المجزأة، وأن مفعول قوى التحلل الجبـارة كـان يبـدأ في أي دولة مركزية تنشأ هناك.

ولا تستثنى من ذلك الدولة السـعودية الأولى في الجزيرة العربية. ولكنها بلغت قوة واتساعاً لم يسـبق لهما مثيـل منـذ فجـر الإسـلام، في حين تـرك العصـر أثره في طابعها وقرر مصيرها.

الإمبراطورية العثمانية والجزيرة العربيـة. ضـعف النفوذ الأجنبي في الجزيرة عند أواسط القرن الثامن عشر. كـانت الـدول الإسـلامية الكـبرى الـتي نشـأت

وسقطت في الشـرقيين الأدنى والأوسـط قـد أثـرت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الجزيرة العربية. واعتبـاراً من القـرن السـادس عشـر صـار الأتـراك العثمانيون عاملاً دائمـاً للسياسـة في الجزيـرة. فعلى أثـــر احتلالهم لمصــــر جـــاء دور الحجـــاز ثم اليمن والأحساء وسائر مناطق الجزيرة العربية. وعين الباب العـالي واليـاً لـه في جـدة - البوابـة البحريـة لمكـة. ورابطت حاميات تركية غير كبـيرة بين فـترة وأخـرى في مكـة والمدينـة وجـدة وبعض المنـاطق الأخـرى. وأرسلت الأستانة بعض الموظفين إلى مكة والمدينة. ومع ذلك كانت سلطة العثمانيين في الحجاز اسـمية، وكان الحكام المحليون يتمتعون باستقلال كبير.

كانت السلطة في مكـة بأيـدي عوائـل الأشـراف المتنافســـة الـــتي كـــانت تبعث إلى والي مصــــر والسلطان العثماني نقـوداً وهـدايا ثمينـة. إلا أن مكـة كـانت مدينـة متمـيزة تعيش على الحج والتبرعـات الخيرية من العـالم الإسـلامي كلـه. وكـان السـلاطين الجبـابرة والمسـلمون الأطهـار يتـبرعون بـالأموال لـترميم الكعبـة والمسـاجد والإنفـاق عليهـا ولشـق القنـوات. وكـان قسـم من هـذه الأمـوال يبقى قي المدينة ولا يندر أن تستقر في خزنة الشـريف. كـانت مكة منطقة هامة للعثمانيين، ولكنهـا بعيـدة جـداً فلم يسـتطيعوا أن يقيمـوا سـيطرتهم المباشـرة عليهـا، وفضلوا الإبقاء على حكامها المحليين. وكـانت عوائـل الأشـــراف المقيمــة في الأســتانة مســتعدة دومـــاً للمشـاركة في دسـائس البـاب العـالي السياسـية(110).

وعلى تخوم القرنين السادس عشر والسابع عشر، في فترة الفتن والقلاقل التي اجتاحت الإمبراطورية العثمانية، اكتسب وسط وشرق الجزيرة العربية الاستقلال الفعلي عن العثمانيين مع أن والي بغداد ووالي البصرة ظلا حتى أواخر القرن السابع عشر يؤثران على سير الأحداث في الأحساء ونجد.

وفي مطلع القرن الثامن عشر دخلت الإمبراطورية العثمانية مرحلة الأفول بعد هزيمة معركة فيينا عام 1683. ومع أن العثمانيين استطاعوا في العقود الأولى من القرن الثامن عشر أن ينتصروا على الفرس في الشرق فإن ذلك لم يغير شيئا في سير الأمور. كانت الإمبراطورية العثمانية ما تزال تمتلك مساحات شاسعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا حيث تركزت الثروات الطبيعية والموارد البشرية، إلا أن أساس الجبروت العثماني - النظام العسكري الإقطاعي - أخذ يتفتت دون رجعة. وتدهورت القوة الكفاحية للانكشارية الذين أسسوا عوائل ومارسوا الحرف والصنائع والتجارة. وحل التسيب والفساد محل الانضباط السابق لدى جنود وموظفي الإمبراطورية العثمانية.

وبنتيجة الهزائم الحربية انتفى أهم مصدر لعائدات الطبقة الحاكمة - نهب المغلوبين عسكرياً. فأخذ الولاة والموظفون العثمانيون ينهبون دون رحمة سكان الإمبراطورية الكادحين وبالدرجة الأولى الفلاحين. وجرى بوتائر سريعة خراب الزراعة التي هي أساس اقتصاد الإمبراطورية العثمانية.

ولم تكن الحياة ولا الملكية مضمونة في الإمبراطورية العثمانية. وكان السلطان وولاة الأقاليم والإقطاعيون والموظفون الأصغر غالباً ما يعدمون الناس لسبب واحد هو مصادرة أموالهم فيما بعد. ولم يتمتع بالأمان الشخصي وحصانة الملكية إلا علماء الدين. وبغية تحاشي المصادرة كان أصحاب المقاطعات المدمرون وصغار المالكين يحيلون مزارعهم ودورهم إلى الأوقاف ويستخدمونها على سبل الإيجار.

وحصلت أقاليم الإمبراطورية العثمانية على المزيد من الاستقلال ووقعت تحت سلطة الكتل الإقطاعية الضارية شبه التابعة. ولا يثير الدهشة أن يفقد الباب العالي السلطة في هذه الظروف على أراضي الجزيرة العربية أيضاً.

صار أشراف مكة يتصرفون بمزيد من الاستقلال ولا يعيرون اهتماما كبيراً للعثمانيين. وصار السلاطين يمنحون لقب والي جدة إلى أشخاص لا يظهرون في الحجاز على الأغلب، وأخذ أشراف مكة يستأثرون بحصة متزايدة من مداخيل جمارك جدة، وقبائل البدو تسيطر على طرق الحج الأخرى. وكانت متانة موقع الباب العالي في الحجاز آنذاك تحددها ليس قوته العسكرية بقدر ما تحددها مصلحة وجهاء الحجاز والسكان جميعاً بمداخيل الحجاج القدمين بالأساس من الإمبراطورية العثمانية، وبالهدايا الثمينة من السلاطين العثمانيين(111). أما اليمن فقد أحرزت الاستقلال الرسمي والفعلي بعد الغزو العثماني في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

في سبعينات القرن السابع عشر لمَّ المدعو براك، وهو شيخ أحد "أفخاذ قبيلة بني خالد، شمل القبيلة كلها وطرد المفارز العثمانية الصغيرة من واحات الأحساء وحمى شرق الجزيرة حتى من شبح السيطرة العثمانية(112).

وكان تضاؤل التدخل الأجنبي في شؤون الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في الضعف التدريجي الذي أصاب مواقع البرتغال على سواحل الخليج العربي. وفي أواسط القرن السابع عشر طرد البرتغاليون من عمان بعد أن استولوا عليها في القرن السادس عشر. أما الإنجليز والفرنسيون فإن بوسعهم الاستعماري في الجزيرة العربية بعود على الأكثر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان اقتحام الفرس للمدن الساحلية في شرق الجزيرة في مطلع القرن الثامن عشر يجري عرضاً ولم يؤد إلى تثبيت أقدامهم في هذه المنطقة من الجزيرة العربية.

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابيين متروكة لحالها بقدر كبير طوال عدة عقود من السنين.

نجد والحجاز والأحساء في النصف الأول من القرن الثامن عشر. تعرض وسط الجزيرة في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر لغزوات جيرانه من الشرق والغرب، مع أن ذلك لم يستبعد بعض الحملات الموفقة التي قامت بها القبائل النجدية على واحات وقبائل الحجاز والأحساء. كان الحجازيون قد هاجموا تقريباً كل مناطق نجد،

وبالدرجة الأولى القصيم، كما هاجموا القبائل البدوية في وسط الجزيرة - عنزة ومطير والظفير. وكان بعض قبائل وواحات وسط الجزيرة تدفع الأتاوات لحكام مكة. ويذكر أبن بشر بعض الأشخاص من وجهاء الحجاز وينعتهم بأشراف نجد(113).

وفي بداية القرن الثامن عشر تدهورت الحالة الاقتصادية في الحجاز. وبنتيجة المجاعة المرعبة خلت مكة من أهلها(114). وأشتد فيها الصراع من أجل السلطة والنزاعات الداخلية حتى لم يعد بمقدور الحجازيين القيام بحملات على باطن الجزيرة. وكانت آخر الحملات الكبرى على نجد عد قامت في أواسط عشرينات القرن الثامن عشر(115).

كان براك شيخ بني خالد قد بدأ بعد أن سيطر على شرقي الجزيرة بغزوات على البدو المترحلين بين الأحساء ونجد، ثم بغزوات على نجد. وواصل خلفاؤه توسعهم. وتعرضت الخرج وسدير وثادق والعارض لغزوات الأحسائيين. وفي عام 1722/1723 توفي زعيم بني خالد بن سعدون عريعر(116). وأدت الحزازات التي أعقبت ذلك إلى إضعاف الوحدة لدرجة كبيرة.

ولم تكن في نجد اتحادات كبيرة تلعب دور القوة المسيطرة. فقد احتفظت بعض الواحات والقبائل باستقلالها. وحتى الواحات - المدن، مثل العيينة والدرعية والرياض، التي كان مقدراً لها أن تلعب دورا هاما في الصراع من أجل الزعامة في نجد، لم تكن ترتفع إلى أعلى من المستوى المتوسط. وكانت مزيتها تكمن في أنها جميعاً واقعة في منطقة

العـــارض، وهي المنطقـــة الوســطى في نجـــد، حيث تلتقي كل الطـرق التجـارة. إلا أن الموقـع الجغـرافي وحـده لا يعطي مـبرراً للاعتقـاد بأنهـا بالـذات كـانت تستطيع أن تغدو مركز للدولـة الموحـدة لعمـوم يجـد ناهيك عن عموم الجزيرة.

ومن المستبعد إمكان الموافقة على تأكيد فيلـبي من أن الدرعية كانت في مطلع القرن الثـامن عشـر إحدى المدن الـتي تـدعي بالسـيطرة ليس فقـط في نجـد وحـدها، بـل وحـتى في الجزيـرة العربيـة كلهـا(117). فقد قال مؤلـف "لمـع الشـهاب" أنـه لم يكن في نجد "رئيس قاهر يردع الظـالم وينصـر المظلـوم بل كان كـل من الحكـام حـاكم بلـده مدينـة كـانت أو قريـة وفي بـدوها كـذلك كـل طائفـة منهم لهـا شـيخ وكبير يرجع أمرهم إليـة... والبلـدة ذات قبائـل شـتى يرعـون الـبراري والقفـار ويشـربون المناهـل والآبـار وحكومة كل شيخ في قبيلته برضـاها فكـل من تقـدم كرماً وشجاعة رضوا به كبيراً لهم. وفيهم مشايخ صار في القبيلـة الواحـدة نفسـها يخـالفون رأي المشـايخ الكبـار... وكـان أهـل المـدن في نجـد دائمـا بعضـهم يحارب بعضا"(118).

كـان الوضـع في القسـم الأوسـط من نجـد في العقود الأولى من القرن الثـامن عشـر يتمـيز بتـوازن القوى بين الخصوم الرئيسيين. فقد اجتـازت الدرعيـة تواً مرحلة القلاقل والفتن الداخلية والصراع من أجل السـلطة بين الوجهـاء الحـاكمين. وكـان القتـل والخيانات تتوالى الواحـدة تلـو الأخـرى، إلى أن صـار مؤســس ســلالة الســعوديين، ســعود بن محمــد بن

مقرن أميراً للواحة في العقد الثاني. ويعتبر بعض السعوديين أنفسهم من قبيلة بني حنيفة، بينما يعود بعضهم الآخر بنسبهم إلى عنزة أكبر وأقوى قبيلة في وسط وشمال الجزيرة(119).

لم يكن عهد سعود طويلاً. فقد توفي في حزيران (يونيو) 1725(120)، وبعد وفاته تنافس على رئاسة الواحة عدة أشخاص تنافساً مستميتاً. واقترن الصراع بينهم بخيانات متبادلة وقتل عدة أشخاص لبعضهم بعضاً. وأخيراً شغل مكان سعود أبن عمه زيد(121).

كان حكام العيينة في تلك السنوات مشغولين بالحروب ضد جيرانهم في منفوحة وثادق، وكذلك ضد القبائل البدوية في أطرافهما. ولم تتجاوز العمليات الحربية نطاق الحملات المحلية. وفي عام 1725/1726 اجتاح العيينة وباء الكوليرا(122). وكانت الضربة التي تلقتها شديدة لدرجة جعلتها تخرج لسنوات طويلة من الصراع في سبيل السيطرة على وسط نجد.

وانتهز زيد هذه الفرصة فهاجم الواحة الخالية في العام التالي. وأعرب أمير العيينة محمد بن معمر عن استعداده للخضوع له، ولكنه استدرج الدرعيين إلى منزله وقتل زيداً. وتمكن محمد بن سعود من الفرار مع جماعة من المحاربين. فصار أميراً للدرعية(123).

وفي أواخر الثلاثينات ومطلع الأربعينات استولى على السلطة في الرياض دهام بن دواس وهو رجل همام نشيط ظل طوال عدة عقود من أشد خصوم

الدرعية تصلباً. واليكم قصة توليه السلطة كما كتبها ابن غنام: "كان أبوه رئيساً في بلد منفوحة متغلباً عليها فقتل أناساً من جماعته من المزاريع ظلماً وعدواناً، وبقي بعد ذلك زماناً ثم مات. وتولى بعدة أبنه محمد، فقام عليه أبن عمه زامل بن فارس هو وبعض أهل منفوحة فقتلوه وأجلوا إخوانه، ومن جملتهم دهام وأخوته، فاستوطنوا الرياض وكان واليها إذ ذاك زيد بن موسى أبا زرعة. فلما قتل زيد المذكور على غير سبب مأثور، وكان الذي قتله أحد أبناء عمه، وكان معتوه العقل صعد إليه وهو نائم في علية له فذبحه بسكين معه. فلما قتله جاءه عبد لزيد يقال له خميس فقتله... فتغلب العبد المذكور على بلد الرياض، وكان أولاد زيد إذ ذاك صغاراً له وزعم أنه قابض لهم حتى يتأهلوا لذلك. فأقام والياً عليها مدة يسيره نحو ثلاث سنوات ثم هرب خميس من الرياض خوفاً من أهلها لأمور جرت منه فأقام في الحاير مده ثم أتى منفوحه فأقام بها مده، ثم عدا عليه رجل من أهلها كان قتل أباه زمن رياسته على الرياض فقتله ثم بقيت الرياض مدة يسيرة بلا رئيس، وكان دهام بن دواس مدة تغلب خميس على الرياض خادماً له. فلما بقيت الرياض بعد هروب خميس بلا رئيس ترأس فيها دهام بشبهة أن ابن زيد أبا زرعة نهو أبن أخت دهام، فزعم أنه يكون نائباً عنه في ذلك حتى يكبر ويعقل ثم بعد ذلك يتخلى له عن الولاية فأجلاه عن البلاد. كرهه أهل الرياض وسعوا في عزله إذ لم يكن لهم حيله إلى قتله، فاجتمعوا عليه وأحاطوا بقصره وحصروه فيه، وكانوا

عامة وغوغاء ليس لهم رئيس. فأرسل أخاه مشلباً راكباً فرساً إلى محمد بن سعود أمير الدرعية يطلب منه النجدة والنصرة على تلك الرعية... فقام له محمد بالنصرة أتم قيام، وأرسل أليه من الجنود فئام ورئيسهم مشاري بن سعود، فبلغ دهام بمجيئهم المرام والمقصود، فخرج من قصره مع تلك الجنود وقتلوا من أهل الرياض ثلاثة أو أربعة رجا ل ثم فروا بلا توان ولا إمهال، فبعدها قر ملكه فيها وأقام رئيسها وواليها وأقام مشاري عنده شهوراً، ولم يتوقع ما صدر من الخبيث الشرور، فاستفحل أمره وتعاظم فجره ومكره وتزايد على الرعية شره وتوالى عليهم ضره وتظاهر بأمور وأعلن بفجور تحاكي الأفعال النمرودية والقضايا الفرعونية: فمنها أنه غضب يوماً على امرأة فأمر بفمها أن يخاط... ومنها أنه غضب يوماً على رجل فقطع من فخذه قطعة وقال: لا بد أن يسيغها مضغة مضغة. فحاول الرجل المعذب بعد أن لم يجد له مهرباً أن يأكلها بعد أن تشو فلم يسعفه بذلك فأكلها نعوذ بالله من البلوى. ومنها أنه غضب يوماً على رجل مسجون ذكر له أنه فك بأسنانه الحديد، فأمر بمقمعة من حديد فضربت بها أسنانه... ومنها أنه غضب على رجل آخر فأمر بقطع لسانه فقطعه بعض أعوانه، وله قضايا مثل هذه كثيرة"(124).

هذا المقتطف من أبن غنام عن تولي دهام بن دواس السلطة، وكذلك المواد الخاصة بتطور الأحداث في الدرعية والعيينة، إنما تكشف عن الصراع من أجل السلطة والنزاعات الضارية

والغزوات المدمرة المتبادلة والنهب والسلب، مما صار من أصول الحياة السياسية في نجد في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ومما ساعد على تزعزع الحكم عدم الوضوح والدقة في حق الميراث. فلا يندر أن يهب أخوة الحاكم المتوفي وأبناء عمومته ضد أبنائه. ولا يمكن تفسير استيلاء عبد على السلطة في الرياض في تلك الحقبة إلا بتزعزع نظام الإدارة الإقطاعية في الواحات.

وقد بلغ تعسف وطغيان الوجهاء في الواحات أقصى الحدود. واتخذ الاستغلال طابعاً وحشياً. وهناك مبررات للقول بأن اشتداد استغلال المزارعين من قبل الإقطاعيين قد أدى إلى اشتداد الصراع الطبقي. فقد كتب أبن غنام عن انتفاضة السكان المتذمرين من دهام إلى حد الغليان، ويمكن اعتبار إرسال أبن سعود أخاه لنجدة دهام مظهراً للتضامن الطبقي بين الإقطاعيين. ويبدو أن بعث الوهابيين للأصول الإسلامية القديمة التي تحرم الفوائد الربوية كان رد فعل على تعسف المرابين القاسي.

وفي القرن الثامن عشر تدهور الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. وكان الركود الاقتصادي في الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر ودمار القوى المنتجة وتقلص التجارة كل ذلك قد أدى في بعض الأحيان إلى تقلص مشتريات واسطة النقل الرئيسية - الإبل. وتدهورت التجارة مع الهند عبر الحجاز(125). وكانت النزاعات والحزازات في الإمبراطورية العثمانية والخراب الذي

أصاب السكان قد أدت إلى تقلص الحج. وكانت لذلك كله أثار أليمة على بدو الجزيرة.

ويمكن الافتراض بأن الحروب العثمانية الفارسية المدمرة في مطلع القرن الثامن عشر قد تركت أثراً فتاكاً على الحج من إيران والعراق، الأمر الذي انعكس على مداخيل سكان نجد. وفي هذه الظروف، على ما يبدو، شدد البدو من نهب السكان الحضر المحليين والقوافل النادرة.

وما كان بالإمكان تحقيق الاستقرار السياسي ووقف النهب البدوي وتأمين سلامة الروابط التجارية إلى في ظل دولة مركزية. وكان بوسع سياسة التخفيف من الظلم الذي تعرض له السواد الأعظم من السكان، أن تؤمن لمثل هذه الدولة دعماً جماهيريا. ولكن كان من اللازم العثور على مصادر خارجية، أي على غنائم الحرب لأثرياء الوجهاء وعدم الإضرار بمصالحهم. وفي هذه الفترة ولدت في نجد حركة دينية جبارة نشأت على أساسها دولة مركزية كبرى.

الفصل الثاني

محمد بن عبد الوهاب ومذهبه

حياة مؤسس الوهابية قبل بدء نشاطه السياسي. كتبت "مجلة المنوعات الأدبية الروسية في عام 1805 تقول "قبل حوالي نصف قرن

اسس هذه الطائفة _ المقصود الوهابية _ شـيخ عـربي اسـمه محمـد. ويؤكـد الوهـابيون انـه ابن عبـد الوهـاب بن سـليمان. وبقـول روايـة قديمـة أن سـليمان هـذا، وهـو إعـرابي فقـير من قبيلة نجدية صغيرة، قد رأى في المنـام أن لهبـا انـدلع من بدنـه وانتشـر في البراري على مسافات بعيدة ملتهما في طريقـه الخيـام في البـوادي والمنـازل في المـدن. ارتعب سـليمان من هـذا الحلم وطلب لـه تفسـيرا من شـيوخ قبيلتـه الـذين اعتـبروه بشـير خـير، واخـبروه بـان ابنـه سـيكون مؤسسـا لمذهب جديد يعتنقه أعراب الباديـة وان هؤلاء الأعراب سيخضعون سكان المدن. وقد تحقق هـذا الحلم ليس بشـخص ابن سليمان عبد الوهاب، بل بشخص حفيده الشـيخ محمـد"(1).هـذه الروايـة تجسـد جيـدا نفح تلـك الحقبـة، مـع أن جفـاف الوقائع التاريخية يخلع عما كتبته المجلة هالة الغيبية.

ولـد مؤسـس التيـار الـديني والاجتمـاعي والسياسـي الـذي يسـمى بالوهابيـة في الجزيـرة العربيـة عـام

1703/1704 في عائلة دينية في العيينة(2). كان والده عبد الوهاب بن سليمان قاضيا شرعيا. وكان هو المعلم الأول لابنه. وكان أخوه سليمان بن عبد الوهاب قد ذكر للمؤرخ ابن غنام أن مؤسس الحركة الإسلامية الجديدة المرتقب قد كشف في طفولته عن مواهب كبيرة وحفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة من العمر. واطلع الصبي على تفسير القرآن والحديث وسيرة النبي. وفي الثانية عشرة بلغ محمد سن الرشد فزوجه أبوه.

بعد الزواج أدى فريضة الحج بموافقة أبيه. وفيما بعد قضى شهرين في المدينة المنورة ثم عاد إلى أهله. وطاف كثيرا في الأقطار المجاورة وزار الحجاز والبصرة مرارا ثم عاش في الأحساء(3).

وتعلم في المدينة على يد شخص يدعى عبد الله بن إبراهيم بن سيف، وهو من وجهاء واحة المجمعة في سدير. وتحدث الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيما بعد قائلا: "كنت عنده يوما فقال لي: تريد أن أريك سلاحا أعددته

للمجمعة؟ قلت: نعم. فأدخلني منزلا عنده فيه كتب كثيرة. وقال: هذا الذي أعددنا لها..."(4). ولمح ابن عبد الوهاب بذلك إلى أن معلمه في المدينة كان يعد "سلاحا فكريا" لمحاربة المعتقدات السائدة في واحته.

وعندما كان ابن عبد الوهاب في البصرة دعا للعودة إلى أصول التوحيد الحقيقي في الإسلام. "وتجمع عليه أناسا في البصرة من رؤسائها وغيرهم فآذوه اشد الأذى وأخرجوه منها"(5). وفي الطريق من البصرة إلى الزبير كاد يموت عطشا، إلا أن أحد سكان الزبير أنقذه(6).

وبعد ذلك عاش ابن عبد الوهاب بعض الوقت في الأحساء عند العالم الديني عبد الله بن عبد اللطيف. ثم توجه إلى واحة حريملا في نجد. وفي عام 1726/1727انتقل إلى هذه الواحة أبوه عبد الوهاب بسبب خلافه مع حاكم العيينة الجديد الذي استولى على السلطة بعد وفاة الأمير السابق حامي العلماء(7). وفي حريملا اخذ محمد بن عبد الوهاب يبشر بأفكاره بنشاط جديد،

حتى انه كان يتجادل مـع أبيـه. وأمضـى في هذه الواحة عدة سنوات، وفي هـذه الفترة ألف "كتاب التوحيد". ويقول ابن غنام عنه: "اشتهر حاله في جميع بلدان العـــارض في... العيينـــة والدرعيـــة ومنفوحة... وكان الناس عند ذلك حزبين وانقسموا فيه فريقين فريق احبـه ومـا دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعـه وحـذا حذوه وتابعه وفريق انكر ذلك عليه"(8).

وفي عـام 1740/1741 تـوفي عبـد الوهـاب فصـار محمـد، على مـا يبـدو، قاضيا بـدل أبيـه. وكـانت حـريملا آنـذاك مقسمة بين فخذين ربما كانا مسـتقلين عن بعضهما بعضا. واثـارت دعـوة محمـد بن عبـــد الوهـــاب تـــذمر بعض ســـكان الواحـة. ويقـول ابن بشـر: "وكـان في البلـد عبيـد لاحـد القبيلـتين يقـال لهم الحميان كثير تعـديهم وفسـقهم، فـاراد الشـــيخ أن يمنعهم عن الفســـاد ونفــذ فيهم الأمــــر بـــالمعروف والنهي عن المنكـر. فهمَّ العبيـد أن يفتكـوا بالشـيخ ويقتلوه بالليل سرا"(9). ونجـا ابن عبـد الوهـاب بالصـدفة واضـطر للفـرار إلى العيينة(10).

وكتب المستشـرقون الأوربيـون عن رحلات ابن عبد الوهاب إلى بغداد وبعض المدن الإيرانية ودمشق. وانعكست هـذه المعلومـات كـذلك في "دائـرة المعـارف الإســـلامية. وفي عـــام 1933 كتب المستشـرق المعـروف مـارغوليوث عن هـــذه الـــرحلات في مقالـــة بعنـــوان " الوهابية" اعتمد فيها على مصنف "لمـع الشهاب".

ويفيـد "لمـع الشـهاب" أن ابن عبـد الوهـــاب توجـــه في رحلتـــه وهـــو في السـابعة والثلاثين من العمـــر، أمضـــى ست سنوات تقريبا في البصرة، وخمس سـنوات في بغـداد وحـوالي السـنة في كردستان وسنتين في همـدان (إيـران). وفي بدايـة عهـد نـادر شـاه انتقـل إلى اصـــفهان حيث أمضـــى ســـبع ســـنوات، وعـاش في قم ومـدن إيرانيـة أخـرى، وقضى ستة اشـهر في حلب وسـنة في دمشـــق وبعض الـــوقت في القـــدس وسنتين في القاهرة، ثم وصل إلى مكة وعاد إلى نجد، وأمضـى سـنة ونصـفا أو سـنتين في اليمامـة، وفي سـنة 1150 هجريـة (1737/1738 ميلاديـة) اسـتقر

في العيينـة. وتـوفي في سـنة 1212 (1797 / 1798) كما يقول صاحب "لمع الشهاب". ويؤكد مؤلف هـذا الكتـاب أن محمد بن عبد الوهـاب كـان يغـير اسـمه طوال الوقت. ففي البصرة اسـمه عبـد اللـه، وفي بغـداد احمـد وفي كردسـتان محمد وفي همدان يوسـف(11). وتـبين عملية جمع بسيطة أن ابن عبد الوهاب، كما يقول صاحب "لمـع الشـهاب"، كـان يجب أن يقضـــي في اصـــفهان وقم وحلب ودمشق والقدس والقاهرة مـا لا يقـل عن 11 ـ 12 عامـا. وهـذا يجعـل عودتـــه إلى نجـــد تتم في أواخـــر الأربعينات، الأمر الذي يتعارض حتى مـع التاريخ الـوارد في "لمـع الشـهاب" بعـد سطرين من ذلك.

وينسـب مؤرخـو الوهابيـة ومنجين عـودة ابن عبـد الوهـاب إلى نجـد إلى الثلاثينات. ويؤكد أخبارهم كذلك المؤرخ الحجـازي في القـرن التاسـع عشـر ابن زيـــني دحلان. فقـــد كتب أن ابن عبـــد الوهاب بدا يبشر بمذهبـه في نجـد عـام 1730/1731(12).

وغدت مصنفات الوهابيين معروفة لدى أغلبية المستشرقين الأوربيين على اثر صدور "دائرة المعارف الإسلامية. ونجد في طبعتها الجديدة مقالة أ. لياوست المكرسة لمحمد بن عبد الوهاب والمعتمدة على ابن غنام وابن بشر(13).

أن الزعم بان محمد بن عبد الوهاب صار حنبليا أثناء رحلاته، ولا سيما في قم التي هي أحد مراكز الشيعة، لا يصمد للنقد، وذلك على الأقل لان اغلب علماء واحات نجد، ومنهم أسلاف ابن عبد الوهاب كانوا حنبليين. زد على ذلك أن مؤلفاته ليس فيها ما يدل على إطلاعه على أرسطو ولا على دراسة الصوفية.

كان مؤلف مخطوطة "لمع الشهاب" من خصوم الوهابيين. ولذلك يمكن الافتراض بانه لم يكن قد حضر مجالس محمد بن عبد الوهاب وان كان معاصرا له، وان معلوماته عن حياته ليست من مصدرها الأول.

إلا أن ما كتبه مؤرخو نجد عن مكوث محمد بن عبد الوهاب في جنوب العراق

وشرقي الجزيرة كـان شـحيحا جـدا. ولا يســتبعد أن العــالم الــديني الشــاب النشـيط النابـه اسـتطاع أن يصـل مـع القوافل إلى بغداد وإلى المدن الإيرانية القريبة وإلى الشام. وقد كتب عن هـذه الإمكانيـــة، المــؤرخ الــدقيق للدولـــة السعودية الأولى منير العجلاني(14).

وقــد أثــرت رحلات محمــد بن عبــد الوهاب الطويلة وإقبالـه ومثابرتـه على دراسة الفقه تأثيرا حاسـما على تكـوين مذهبه. فقـد تهيـأت لـه إمكانيـة الإطلاع على المذاهب والمعتقـدات الدينيـة في الجزيــرة والبلــدان المجــاورة وتحديــد موقفـه منهـا ودراسـة العلـوم الدينيـة وتفســير القــرآن والحــديث وشــروحه وجمع الحجج اللازمة لوضع مذهبه. واخذ هـذا المـذهب يعـبر عن خـط معين في تطـور الإسـلام بالاسـتناد إلى الظـروف الملموسة للحياة الاجتماعية والسياسية والروحيـــــة في الشـــــرقيين الأدنى والأوسـط عمومـا وفي وسـط الجزيـرة العربية خصوصا.

السنة والبدع في تاريخ الإسلام. **كان الدين في القرون الوسطى هو الشكل السائد**

للمعتقدات الأيديولوجية. وكانت التيارات السياسية والاجتماعية تتخذ أشكالا دينية أو تتستر بزي ديني. وكان البحث عن أشكال أيديولوجية جديدة ولبوس أيديولوجي جديد للتعبير عن المضمون الاجتماعي الجديد قضية معقدة وطويلة الأمد وغير محمودة العاقبة. وكان ذلك يحدث عادة مع أكبر الانقلابات التاريخية فقط. فالحركات الاجتماعية والسياسية الصغيرة كانت مضطرة إلى الاكتفاء بالأزياء الأيديولوجية القديمة. وغالبا ما كانت تستخدم المذاهب الدينية السائدة. وهذا أمر يلازم تاريخ الأقطار الإسلامية بقدر أكبر مما يلازم تاريخ البلدان المسيحية.

ظهر الإسلام في المجتمع الحجازي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي، وقد جسد، فيما جسد، التمايز الاجتماعي البدائي. ولذا لم يستطع النظام الديني للعرب المتجلي في القرآن وحده في بادئ الأمر أن يلبي بالكامل متطلبات المجتمع الأكثر تطورا في البلدان الأخرى التي فتحوها. ودعت الحاجة إلى إضفاء طابع على

الإسـلام يسـتجيب بقـدر أكـبر لـذلك المجتمـع الإقطـاعي ولمصـالح طبقتـه الحاكمـة. وهـذا هـو منشـا الكثـير من الأحـاديث عن سـيرة النـبي ونشـاطه. وغـدت تلـك الأحـاديث بمثابـة مجموعـة قـوانين السـلوك والآراء المعتمـدة على سـلوك وآراء الرسـول لأحـوال الحيـاة كافة. واطلق على هـذه القـوانين اسـم "السنة".

وانتهى وضـع الأحـاديث على وجـه التقـريب في مطلـع القـرن العاشـر الميلادي، أي بعـد حـوالي ثلاثمائـة عـام من ظهور الإسلام.

كان عدد الأحاديث ضـخما جـدا. وهي حتى بالشكل الـذي جمعت فيـه واقـرت حسب الأصول الإسلامية تتضمن الكثـير من الغمـوض والمتناقضـات. وحـتى الأحاديث الواضحة كانت تفسـر بأشـكال مختلفـة لصـالح مختلـف الفئـات والجماعـات، وبمـوجب ظـروف المكـان والزمان. وفيما بعد اخذ كـل تيـار ديـني يجـد لنفسـه أحـاديث تـبرر توجهاتـه. واستخدم تفسير القرآن على هذا النحو أيضا. لـذا يمكن بخصـوص تطـور الفقـه

تكــرار مــا قالــه البــاحث المجــري أ. غولدزيهير: "أن تـاريخ الـدين... هـو في الوقت ذاته تاريخ تفسير التنزيل"(15).

وتجسدت في السنة التقاليد الثابتـة. إلا أن تغــير ظــروف الحيــاة اســتوجب تغيــير العــادات وتغيــير التقاليــد على أثرهـا. ويجـري تكيـف الإسـلام للواقـع المتغــير عن طريــق تــبرير التقاليــد الجديــدة واثبــات مطابقتهــا للســنة. ويتحقق ذلك بواسطة إجماع الفقهاء أو بواسطة القياس.

أما المستجدات الـتي لم يـرد ذكرهـا في الأحــاديث الصــحاح فتنعت بالبــدع. وتبقى البدعـة على طـرفي نقيض مـع السنة ما لم يتم الإجماع عليهـا. وتعـني البدعــة رأيــا أو شــيئا أو عملا لم يكن معروفـا في السـابق أو لم تجـر العـادة على ممارسته.

وهكـذا كـان تـبرير البدعـة وتحويلهـا إلى حديث هـو جـواب الـدين الإسـلامي على تغير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحيـة وهـو رد فعـل الإسـلام على الواقـع المحيـط بـه وتكيفـه لمتطلبـات المكان والزمان.

وفيما يخص مسالة فهم السنة، والموقف من البدع بالأساس، نشأت في الأصولية الإسلامية (السنية) أربعة مذاهب، وأكثرها مرونة بهذا الخصوص المذهب الحنفي وأكثرها تشددا الحنبلي الذي رفض البدع رفضا باتا. وتعتقد الحنبلية أن ما ينص عليه القرآن والسنة فقط، وبالشكل الذي ينصان عليه فقط، هو الشرعي من وجهة نظر الممارسة الدينية. بديهي أن الحنبلية تتناول طائفة واسعة من المسائل داخل الإسلام، وان اختلافها مع المذاهب الأخرى يشمل ميادين متفرقة، إلا أن ما يميزها هو رفض البدع.

ولكن من الصعب جدا البقاء على هذه المواقف المتشددة التي ترفض كليا إمكانية تكيف الإسلام لمتطلبات الحياة. ولذا اضطرت الوهابية فيما بعد (وهي، كما سنرى، شكل متطرف للحنبلية) إلى استحسان الإذاعة والتلفون والتلفزيون وقوانين العمل والضمان الاجتماعي. بيد أن رفض البدع حول الحنبلية مع ذلك إلى المذاهب

الأكثر تشددا من المذاهب الإسلامية، مما أدى إلى ضيق انتشاره وظل الحنبليون المتشددون يشكلون طائفة صغيرة في مواجهة المذاهب الإسلامية الأخرى لانهم انطلقوا من مواقف الأصولية المتناهية. في حين كانت تعاليم الطائفية والشرك بمثابة النوافذ التي يتسرب منها التذمر. ولا يندر أن تنضوي حركات المظلومين تحت راية معتقدات الطوائف.

وكان من البدع التي دخلت الإسلام تقديس الأولياء. وإذا كان الرومان يدرجون في عداد آلتهم آلهة المناطق التي يلحقونها بإمبراطوريتهم من اجل تقوية التأثير الأيديولوجي على المؤمنين في تلك المناطق، فان المسيحية سلكت لهذا الغرض طريق عبادة الأولياء المحليين. وحل محل عبادة الآلهة المحليين تقديس القديسين المسيحيين الذي تشبع بالعبادات السابقة بعد تغييرها بالشكل المناسب. وسار الإسلام على طريق مماثل. أن تقديس الأولياء في الإسلام ذو اصل محلي جاهلي بالأساس. ولكن

الأوليـاء وانصـار النـبي وابـرز الفقهـاء أزالــوا أصــنام الجاهليــة والقديســين المســيحيين وحلــوا محلهم. وبعـــد أن تشّرب الإسلام بتلك العبـادات غـدا دينـا شاملا عزيـزا على جماعـات واسـعة في مختلف المناطق والأصقاع.

وكان انتشار تقديس الأوليـاء يرتبـط ارتباطا وثيقا بنشاط متصوفي الإسلام. فقـد نسـبوا إلى الأوليـاء القـدرة على اجــتراح المعجــزات مجتــذبين جمــاهير المؤمــنين. وقــال المتصــوفة أن بلــوغ الحقيقة الإلهية غـير ممكن إلا بالحـدس والإشـــراق الـــذي يتحقـــق بمختلـــف الوسائل. والإنسان يلتزم بالتقشف كي ينــدمج بالخــالق. وابــدى المتصــوفة، وخصوصــا في الفــترة المبكــرة، ازدراء باعتبـارات المجتمـع القـائم واسـتهانوا بالشعائر الإسلامية المقننة.

في القـــرن الحـــادي عشـــر ادخـــل الغـــزالي، الـــذي هـــو بمثابـــة تومـــاس الاكويــني في المســيحية بعض عناصــر التصوف إلى الأصولية الإسلامية، ومنها الحب الغيـــبي للخـــالق. وفي الـــوقت نفسـه ادرج الغـزالي في الإسـلام بعض

الأفكار العقلانية التي قال بها الأشعري فقيه القرن العاشر الميلادي. وهكذا نشأ بالخطوط العريضة مذهب سني شامل يضم ليس فقط الجانب الديني الشعائري، بل وكذلك الفلسفة والقانون والشريعة، والمبادئ السياسية والأصول المعاشية وآداب السلوك.

وكان من ممثلي الاتجاه المتطرف في الحنبلية الفقيه الشامي تقي الدين بن تيميه (القرن الرابع عشر). وهو من أهم الشخصيات وأكثرها تناقضا في الفقه والفكر الفلسفي الإسلامي.

ففي الفقه كان في خطبه ومؤلفاته ينادي بتغيير أشكال الأصولية الإسلامية القائمة آنذاك ويضع السنة والبدع على طرفي نقيض بشكل قاطع. وقد عارض كل البدع التي تبتعد عن أصول الإسلام في النظرية والتطبيق. كما عارض ابن تيميه إدراج آراء العشرين الفلسفية في الإسلام. وعارض المتصوفة كما رفض تقديس الأولياء والرسول. وشجب زيارة قبر الرسول في المدينة المنورة قائلا بأنها

لا تطابق الإسلام، مع أنها صارت تعتبر منذ سنوات طويلة عملا متمما لحج بيت الله.

ورفض ابن تيميه آراء العلماء الذين استخدموا الإجماع ليضفوا طابعا شرعيا على مثل هذا التقديس. واستند إلى السنة وحدها. وصار عماد الدين الحنيف، الغزالي، هدفا للحنبليين "الجدد" من أتباع ابن تيميه. وكان من شدة تطرف ابن تيميه انه اختلف في بعض المسائل حتى مع الحنبليين.

ولم يحظ هذا الفقيه الشامي بالاعتراف في حينه، فقد كانوا يجرجرونه من محكمة دينية إلى أخرى حتى مات في السجن عام 1328 بعد أن ترك حوالي 500 مؤلف. وكانت جماعة صغيرة من أتباعه، وأولهم وابرزهم ابن القيم، قد أحاطت اسمه بهالة من التقديس. ويقول غولدزيهير "أن تأثيره فيما بعد استمر بصورة خفية طوال أربعة قرون. وكانت مؤلفاته موضع بحث دقيق وقد لعبت في الأوساط الإسلامية دور القوة الصامتة التي تفجر العداء للبدع من حين لاخر"(16).

الإسلام في الإمبراطورية العثمانية. **أصبحت الحنفية المذهب الرسمي للإسلام في الإمبراطورية العثمانية. وهي أكثر المذاهب الأربعة مرونة، مع أن المذاهب الأخرى كانت تحظى بالاعتراف. وتعود الصياغة النهائية للنظام الديني هنا إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واتخذ السلطان العثماني لنفسه لقب خليفة المسلمين ليعزز مكانته بذلك.**

كان علماء الدين من أكثر جماعات السكان نفوذا في الإمبراطورية. وكان على رأس علماء الدين هناك مفتي الآستانة شيخ الإسلام الذي يضاهي منصبه منصب الوزير الأول. ويأتي بعده قاضيان ثم سائر علماء الدين الكبار. وحاول الباب العالي أن يشرف على العلماء عن طريق المصادقة على تعيين القضاة المحليين الذين يمارسون الرقابة على الشؤون الحقوقية والإدارية والمحتسبين الذين يتابعون التزام المؤمنين بمبادئ الأخلاق ويراقبون المنظمات الحرفية للصناع والتجار.

وكان الانحلال العام في الإمبراطورية العثمانية قد أصاب علماء الدين المسلمين أيضا. وان فساد العلماء وجشعهم وظلمهم قد ألب السكان عليهم.

وكان شيوخ المتصوفة الذين تخلوا في القرن الثامن عشر عن الكثير من مواقفهم المعارضة للسنة قد اقتسموا الجاه والمال مع علماء الدين في الإمبراطورية العثمانية في القرن المذكور. وغطت الإمبراطورية شبكة من جماعات الدراويش المتصوفة. وازداد عدد الدراويش كثيرا آنذاك، وارتبط بجماعاتهم كثير من المنظمات الحرفية والمهنية وسكان بعض الأماكن.وقد اشتهرت على نطاق واسع، مثلا، صلات جماعة الدراويش البكتاشيين مع الإنكشارية.

وكان المتصوفة ما يزالون كالسابق يعلقون أهمية استثنائية على تقديس الأولياء، الذين يضمون، عندهم، كل الأنبياء من آدم حتى محمد وكثيرا من الصوفيين المشهورين. وكان هناك أولياء على قيد الحياة. وأيد علماء الدين

السنة كذلك تقديس الأولياء، وكل من عارض ذلك كان يجازف بالوقوع ضحية في أيدي المتعصبين. وكان المتصوفة ينشدون الأغاني ويعزفون على الآلات الموسيقية. وكان بعضهم يتعاطى المشروبات الكحولية ويدخن السجائر والمخدرات. كما كانوا يمارسون علم التنجيم والسحر وقراءة الفال.

كانت للجزيرة العربية علاقات واسعة في ميدان الفكر والثقافة، فضلا عن العلاقات الاقتصادية والسياسية، مع البلدان الأكثر تطورا في الشرقيين الأدنى والأوسط. ومع ذلك فان بعض العزلة لهذه الجزيرة الشاسعة وخصائص نظامها الاجتماعي قد ولدت الكثير من الأشكال الخاصة للحياة الروحية هناك.

المعتقدات والعبادات في الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابية. **مما يثير الانتباه انتشار الحنبلية في واحات نجد، وكان ذلك ظاهرة فريدة بالنسبة للعالم الإسلامي. وعندما يذكر مؤرخو الوهابية وفاة الأشخاص المشهورين في عصرهم لا ينسون العلماء الحنبليين. فما هي أسباب بقاء الحنبلية في هذه الأرجاء؟**

أن وسط الجزيرة المعزول بحكم طائفة من الملابسات عن المناطق الأخرى الأكثر تطورا في الشرق الأوسط لم يبتعد كثيرا عن مستوى النظام الاجتماعي الذي كان قد بلغه الحجاز في فجر الإسلام، أي مستوى المجتمع البدائي لدرجة كبيرة.

وفي العقائد الإسلامية المبكرة التي وضعت في القرون الأولى لنشوء الإسلام كثير من الأشكال الفكرية للعلاقات الاجتماعية للحجاز في فجر الإسلام، ومن أعراف وعادات مكة والمدينة التي باركتها الأحاديث. ولما كانت الحنبلية تعترف من حيث المبدأ بالإسلام المبكر فقط فقد كانت على العموم تستجيب لحاجات مجتمع وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر.

كان وسط وشرق الجزيرة مهملين دوما من الإمبراطوريات الإسلامية في الشرق الأوسط. وقد حافظا على أصالتهما. لذا كانت هناك ظروف ملائمة لمختلف تيارات "الزندقة" مثل الخوارج والإباضية. وخلال حقبة طويلة ظلت

قائمة في الأحساء دولة القرامطة القوية ذات التركيب الاجتماعي الفريد.

أما بخصوص المناطق الأخرى في الجزيرة فان قسما كبيرا من سكان عمان كانوا ينتمون إلى الطائفة الإباضية، وفي اليمن كانوا ينتمون إلى الطائفة الزيدية الشيعية المعتدلة. وفي المناطق الشرقية والشمالية الشرقية للجزيرة والمرتبطة مع جنوب العراق ومع إيران كان الكثير من العرب من الشيعة. وفي بعض مناطق اليمن ونجران كان يقطن اليهود(17). ويقول نيبور انه يصادف وجود صابئة في الأحساء(18).

أن الأغلبية في مدن وواحات الحجاز تتكون من المسلمين من مختلف المذاهب الأصولية.

وكانت جميع المذاهب الإسلامية في الجزيرة تتعايش بوئام مع عبادة الأولياء المنتشرة على نطاق واسع في الجزيرة كلها، بل حتى مع بقايا عبادة الأوثان. وقد ترك لنا ابن غنام وصفا مفصلا لمعتقدات سكان الجزيرة العربية(19). فقد كتب عن الفترة التي ظهر فيها

محمد بن عبد الوهاب يقول: "كان غالب الناس في زمانه متضمخين بالأرجاس متلطخين بالأنجاس... فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين..."وكانوا يترددون على الأولياء أو على أضرحتهم طالبين منهم عمل الصالحات أو تخليصهم من المصائب والخائبات، ويرجون ذلك من الأحياء والأموات. وكثير منهم "يعتقد النفع والأضرار في الجمادات كالأحجار والأشجار... ولعب بعقولهم الشيطان... وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه إلى سواه وزادوا على أهل الجاهلية".

"وكان في بلدان نجد من ذلك أمر عظيم والكل على تلك الأحوال مقيم". وفي وادي حنيفة كان هناك ضريح زيد بن الخطاب. وكانوا يترددون عليه راجين تخلصيهم من المصائب والنكبات. وفي الجبيلة والدرعية كانوا يقدسون قبورا دفن فيها، كما يقال، بعض أنصار الرسول. وفي منطقة الفدا كانت تنمو نخلة يأتي أليها الرجال والنساء يطلبون التبرك ويقومون "بأقبح الأفعال. وتتقاطر على النخلة النساء العانسات

وكل منهن تصيح "اريد زوجـا...". وكـان النـاس يلتفـون حـول النخلـة ويعلقـون علنها الزينة.

وعلى مقربة من الدرعية كان هنـاك غـار مقـدس يسـمى غـار بنت الأمـير يـتركون فيـه الخـبز واللحم. ويقـال أن بعض الأرجـــاس أرادوا ذات مـــرة أن يوقعـوا ببنت الأمـير، فاسـتعانت باللـه وانفتح الجبـل أمامهـا عن الغـار الـذي صـار محجـة للعبـاد. وفي الخـرج على مقربـة من الدرعيـة، كـان يعيش ولي اسمه تاج. وكـانوا يتوجهـون إليـه طلبـا للتـبرك ويرجونـه تحقيـق المعجـزات وإزالة الغمـة. وكـانوا يـدفعون لـه لقـاء ذلـك. اشـتهر الـولي بانـه أعمى ولكنـه يسير من غير قائد يقوده. وكان الحكـام المحليون يخافونه.

وفي مكـة يوجـد ضـريح أبى طـالب وقبر ميمونة بنت الحـارث أم المؤمـنين وقـبر خديجـة وغيرهمـا. وكـان الرجـال والنساء يخاطبون هذه القبـور بصـيحات عالية طالبين منها العون. وكان الشـيء نفسه يجري عند قبر عبد الله بن عباس في الطائف.

ويقال أن "قبر حوى" موجود في جدة. وانشئ هناك معبد يأوي إليه المفلسون والمدينون واللصوص. وحتى الشريف لا يستطيع إخراجهم منه. ففي عام 1795/1796 التجأ إلى هذا المعبد تاجر بلغت ديونه 70 ألف ريال، وبذلك أرغم دائنيه على تأجيل الدفع.

وكانت القرابين تذبح عند قبور الأولياء. وفي اليمن كانت تجري مواكب يطعن المشاركون فيها أنفسهم بالسكاكين.

وسمع ابن غنام عن عبادة الأولياء خارج الجزيرة أيضا. ففي الشام ومصر الأمثلة على ذلك كثيرة حتى "أن المؤرخ لم يذكرها. واعرب عن استيائه كذلك من عبادة ضريح الإمام علي في العراق. وكتب يقول أن الشيعة كأنما يعتقدون بأن زيارة هذا الضريح افضل من سبعين حجة. ويذكر ابن غنام الأضرحة والمساجد الكثيرة حول قبور الأولياء في البصرة والساحل الشرقي من الجزيرة العربية والبحرين.

وتوجد معطيات تفيد بوجود المتنبين في بعض الأماكن. وقـد شـجبهم محمـد بن عبد الوهاب بحزم(20).

وقال عبـد الـرحمن بن حسـن حفيـد محمد بن عبد الوهاب أن الأعراب كـانوا آنذاك ينحرون القرابين للجن ويطلبـون منهـا أن تشـفيهم من الأمـراض(21).وكتب بلغريف يقول: "قبـل ظهـور الوهابية كان سكان الجوف (في شـمال الجزيـرة)، شـأنهم شـأن جميـع سـكان الجزيـرة، قـد انهمكـوا في عبـادة شـبه وثنية وراحوا يقدسون الجـني المحلي". وحتى بعد مرور أكثر من مائة عـام على ظهور الوهابية كان سكان الجـوف، كمـا لاحظ بلغريف، "شـان أغلبيـة أشـقائهم قـد اسـتبدلوا من زمـان المحمديـة بالصنمية المحلية والعبادة شبه السبائية والابتهالات الموجهة إلى الشمس ونحر القرابين للموتى"(22).

البـدو والإسـلام. **يشـير جميـع دارسـي الجزيرة العربية إلى أن الإسـلام يغـرس بصعوبة بين البدو. وقد أشار فولني في حينـه إلى موقـف البـدو اللامبـالي من الفرائض الإسلامية. "فالبـدو القـاطنون**

على الحدود مع العثمانيين يتظاهرون بأنهم مسلمون لاعتبارات سياسية، ولكنهم ضعيفو الإيمان وتدينهم ضعيف إلى درجة يعتبرون معها كفرة ليس لديهم نبي ولا قانون. وهم بأنفسهم يعترفون بان دين محمد فوق مستواهم. فكيف نقوم بالوضوء إذا كنا لا نمتلك ماء؟ وكيف نقدم الصدقة إذا كنا لسنا أغنياء؟ وما حاجتنا إلى الصيام في شهر رمضان إذا كنا صائمين طوال العام؟ ولماذا نذهب إلى مكة إذا كان الله موجودا في كل مكان؟"(23).

ويقول بوركهاردت أن البدو قبل الوهابية غالبا ما كانوا لا يعرفون الإسلام عموما(24).

ويؤكد بلغريف " أن دين محمد لم يحدث طوال 12قرنا إلا تأثيرا ضعيفا أو لم يحدث آي تأثير بين جماهير البدو الرحل... وفي الوقت نفسه فان البدو المحاطين بمسلمين صادقين بل متعصبين والمعتمدين عليهم أحيانا كانوا يعتقدون في بعض الأوقات أن من الحكمة القول بأنهم مسلمون"(25).

ويقــول مونتــان أن البــدو الــذين يهتدون بالأجرام السماوية في تجوالهم قــد ابتــدعوا عبــادة الشــمس والقمــر والنجــوم(26). واســتنادا إلى مراقبــة قبائل شـمال الجزيـرة اسـتنتج بلغريـف "أن الإله بالنسبة للبـدو هـو زعيم يقيم أساسا، كمـا يخيـل ألينـا، على الشـمس وهم يجسـدونه بالشـمس بمعـنى مـا"(27).

وهـذا مـا التفت إليـه أيضـا الرحالـة الفنلنـدي فـالين الـذي طـاف الجزيـرة العربيــة في منتصــف القــرن التاســع العشــر. فقــد كتب يقــول "إن قبيلــة "معزة"، شـأن أغلبيـة القبائـل الـتي لم تــرغم على تبــني تعــاليم الطائفــة الوهابيـة الإصـلاحية في فـترة تصـاعد سلطتها في الجزيـرة، لا تعـرف إطلاقـا الـدين الـذي تعتنقـه. وبلكـاد أتـذكر أني صـادفت أحـدا من أفـراد القبيلـة الـذين كــانوا يــؤدون الفــرائض الإســلامية أو لديهم ابسط فكـرة عن أصـول الإسـلام وأركانـه الأساسـية. ويمكن في الـوقت نفســه قــول العكس بدرجــة معينــة عن

البـــدو الــذين صــاروا من الوهــابيين أو كانوا منهم في السابق"(28).

وبعـد عـدة عقـود من رحلات فـالين كتب دافليتشســـن وهـــو أحـــد ضـــباط الأركـــــان العامــــة في جيش روســـــيا القيصـــــرية: "أن أعــــراب الباديــــة لا يتميزون بالتدين إطلاقا، وهم يخلطــون مع الدين كثيرا من العـادات والأسـاطير الفريدة التي تتعارض تماما مع التعـاليم الإسلامية(29).

وظلت باقيــة عنـــد البـــدو عبـــادة الأجــداد. فقــد كتب جوســان أن البــدو كانوا يقـدمون القـرابين للأجـداد أو للـه عن طريق الأجداد. ويجري ذلك بفخفخة كبيرة بعد الانتصار في الغزو. ولا يفوت الرولة آي مناسبة لنحــر ناقــة على قــبر جدهم إحياء لذكراه(30).

ويرتبـــط بعبـــادة الأجـــداد وجـــود " المــركب" عنــد البــدو، وهــو عبــارة عن هودج خاص على ظهر الجمـل يعتقـدون بانه ملجا لروح جدهم، ولذا يقـدمون لـه القرابين. ويجلس فيه الحادي وهو عبــد أو غلام، واحيانــا بنت الشــيخ أو اجمــل فتاة في القبيلة تستحث المحاربين في

القتـــال(31). ولا بـــد أن نتـــذكر بهـــذا الخصوص كاهنات الجاهليـة اللـواتي كن يمتطين الإبـــل ويســـتحثن البـــدو في القتال.

وهكـذا كـانت في الجزيـرة العربيـة قبيل ظهور الوهابية طائفة واسـعة من المـذاهب والاتجاهـات الإسـلامية ابتـداء من الحنبلـيين وسـائر مـذاهب السـنة وانتهاء بالزيدية والشيعة والإباضية. كما انتشرت على نطاق واسع عبادة الأولياء والصالحين، واختلطت بالإسـلام أو حلت محلـه المعتقـدات والعبـادات الجاهليـة كالســحر والوثنيــة وعبــادة الشــمس والأرواح والجمادات وعبادة الأجداد. تلك هي التركـة الروحيـة الـتي نشـأت على أساسـها آراء محمـد بن عبـد الوهـاب، وتلك هي البيئة التي عاش فيها.

التوحيـد وشـجب عبـادة الأوليـاء همـا أسـاس مـذهب الوهابيـة. **أن الطريـق الـذي قطعـه محمد بن عبد الوهاب في تكوين مذهبـه يتلخص، على مـا نعتقـد، في الدراسـة المثابرة منذ الطفولة للفقـه الإسـلامي والطمـوح إلى معالجـة الـدين وتغيـير الحيـاة الاجتماعيـة طبقـا للمثـل العليـا**

للإسلام بعد تفسيرها وفهمها بشكل متميز. ويمكن أن نتصور كيف أوضح ابن عبد الوهاب لنفسه الخلل والاضطراب والتشويش في العالم المحيط به: فقد نسي الناس الإسلام الحقيقي وذلك هو سبب الانحطاط الخلقي العام الذي تنجم عنه المشاكل السياسية والفوضى الاقتصادية والركود والخراب. وبغبية إنقاذ العالم الغارق في الآثام لا بد من تنقية الدين واستعادة الشكل الذي كان عليه في القرون الثلاثة الأولى من نشوئه.

أن أهم فكرة كانت تدور في بال ابن عبد الوهاب أثناء رحلاته ودراسته للفقه هي التوحيد الذي هو المحور الرئيسي للإسلام. وهو يعتقد أن التوحيد يعني الاعتقاد بان الله وحده خالق العالم وسيده الذي يمنحه القوانين. ولا أحد ولا شيء مما خلقه بقادر على الخلق مثله(32). والله ليس بحاجة إلى معونة من أحد مهما كان عزيزا عليه. والله على كل شيء قدير. وما من أحد غيره يستحق التبجيل والإجلال والتقدير(33).

إلا أن العـــالم الإســـلامي في رأي الوهـابيين ابتعـد عن مبـادئ التوحيـد. فالناس ينساقون وراء البـدع الـتي هي أم الكبائر(34). ويمنحون ما خلقـه اللـه صـفات الخـالق وقدراتـه. فهم يؤمـون أضـرحة الأوليـاء والصـالحين ويقـدمون لهم النذور والقـرابين ويطلبـون العـون منهم معتقدين بأنهم قادرون على عمل المعـــروف والنهي عن المنكـــر(35). ويطلقون نعوت الله حتى على النباتـات والأحجـار، الأمـر الـذي يتعـارض مـع التوحيد الحقيقي(36).

وطالما لا يجوز "الإشراك بالله"(37) أو إطلاق نعوتـه على مـا خلـق فينبغي تحديـد وضـبط الشـعائر، إذ أن البـدع لا تجوز فيها أيضا.

ويقـول الوهـابيون: لا يجـوز تقـديم القرابين إلا لوجـه اللـه. ولا يجـوز طلب المعونـة إلا من عنـد اللـه. ولا يجـوز الاسـتجارة إلى باللـه(38). فالملائكـة والرسـل والأوليـاء والصـالحون لا يمكن أن يشـفعوا للمسـلمين أمـام اللـه على آثامهم(39). ولا يجوز تقـديم النـذور إلا لوجه اللـه(40). ولا يجـوز الإفـراط في

تبجيـــل الصـــالحين وانصـــار الرســـول والأولياء. ولا يجوز بناء الحضـرات حـول قبورهم، ولا يجوز الإفـراط في العنايـة بقبورهم وتحويل أضرحتها إلى أصــنام. يجب احترام الأولياء وتقـديرهم ولكن لا تجوز عبادتهم(41).

وكـان للوهـابيين موقـف خـاص من النبي محمد. فقد كانوا يعتبرونه إنسـانا من البشــر اختــاره اللــه لاداء رســالة النبوة. ولكن لا يجوز تأليهه وعبادتـه ولا يجــوز طلب شــيء منــه. كمــا لا يجــوز تقـديس قــبره ولكن يمكن زيارتـه دون طلب شيء منه أو الاستنجاد والاستغاثة به. إلا انه سيشفع للمسلمين أمام اللـه في يـــوم القيامـــة. ولا يجـــوز عبـــادة الأماكن المرتبطة بحياته(42).

واعتـــبر الوهـــابيون جميـــع أنـــواع العبادات والمعتقدات التي تتعـارض مـع هذه المبادئ "شركا"

ودعــا محمــد بن عبــد الوهــاب إلى مكافحة السحر والشـعوذة(43) وقـراءة الفال مع انه لم يركز على ذلك. وشجب كذلك بقايا الوثنية مثل التعويذ والـرقي والطلاسم(44).

أن مصدر الإسلام في رأي الوهابيين هو الكتاب والسنة فقط. وكانوا يعترفون بالأئمة الأربعة مؤسسي المذاهب السنية(45)، وكذلك بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيميه وابن القيّم. (القرن الرابع عشر). ولكنهم رفضوا في الواقع نظريات وممارسات جميع الأجيال اللاحقة. وقد اخطأ بعض الرحالة والباحثين عندما قالوا أن الوهابيين يرفضون السنة كلها ولا يعترفون إلا بالقرآن وحده(46).

أن "الوهابية" تسمية أطلقها على هذه الحركة خصومها أو الناس من غير أبناء الجزيرة. وقد ترسخت هذه التسمية في مطبوعات المستشرقين. أما أتباع محمد بن عبد الوهاب فكانوا يسمون أنفسهم بالتوحيديين أو المسلمين فقط، ولا يسمون بالوهابيين إطلاقا.

وقد اقتبس الوهابيون تشكيلة حججهم وتهجمهم الشديد على عبادة الأولياء وعلى البدع من ابن تيميه وابن القيّم. صحيح أن الوهابيين لم يتعمقوا في القضايا الدينية والفلسفية المعقدة

كمـــا فعـــل ابن تيميـــه. وأعلنـــوا انهم يختلفـــون مـــع هـــذا الفقيـــه في بعض المســـــائل الشـــــعائرية والمعيشـــــية الطفيفة(47). إلا أن مؤلفاته ومؤلفـات ابن القيم كانت في الواقع ملازمه لهم. وقـد استشـهد محمـد بن عبـد الوهـاب مـرارا بمقتطفـات من ابن تيميـه وابن القيم. وظلت محفوظـة بعض مؤلفـات ابن تيميه منسوخة بخـط محمـد بن عبـد الوهاب(48). واستشهد بفقيهي القرن الرابع عشر كذلك مـؤرخ الوهـابيين ابن غنام(49). وكتب عبـد للـه بن محمـد بن عبد الوهـاب يقـول: "وعنـدنا أن الإمـام ابن القيم وشيخه (يقصد ابن تيميه) أما ما حق من أهل السنة وكتبهما عندنا من اعز الكتب"(50).

لقـــد بعثت الوهابيـــة في الإســـلام النهج المتشدد الـذي يـرفض كـل البـدع ويدعو للعودة إلى الكتـاب والسـنة غـير المشوهة.

ومن ناحية الأصـول الإسـلامية يبـدو الوهـابيون من أنصـــار الاســـتقامة في الـدين الحـنيف. وهـذا هـو رأيهم ورأي أغلبية الباحثين الموضـوعيين من عـرب

وغــيرهم، من معاصــري حــركتهم في بدايتها ومن أبناء الأجيال اللاحقة.

ويقــــول بوركهـــاردت أن فقهــــاء القاهرة المعارضين للوهابية عموما قــد أعلنوا انهم لم يعثروا على اثر للزندقــة في تعاليمها، ولما كان هذا التصريح قـد أدلى به أصحابه على مضض فهو لا يثير الكثير من الشكوك. وبعد أن قرأ العديــد من فقهاء القاهرة كتابا ألفه محمــد بن عبد الوهاب أعلنوا بالإجماع انه إذا كــان هــذا هــو رأي الوهــابيين فــانهم، أي الفقهاء، يؤيدون هذه العقيدة دون قيــد أو شرط(51).

واكد الفقيـه الجزائـري الناصـري أن معتقدات الوهـابيين صـائبة تمامـا(52). واشار المؤرخ البصري ابن سـند إلى أن الوهابيين هم حنبليو الأزمـان السـالفة(53). ويعتقد ل. كورانسـيز أن الوهابيـة هي الإسلام في نقاوته الأولى(54).

وفي العصر الحديث كتب طه حسين يقــول أن هــذا المــذهب... "ليس إلا الــدعوة القويــة إلى الإســلام الخــالص النقي المطهــر من شــوائب الشــرك والوثنية" (55).

إلا أن الوهابيين الأوائل، كما نعتقد، طائفيون لأنهم عارضوا المذهب السنّي بشكله الذي كان سائدا آنذاك وأن كانت معارضتهم منطلقة من مواقع تنقية هذا المذهب. واعتمدوا على ابن تيميه في نضالهم ضد السنة القويمين (وشيخهم الغزالي). وكان النضال ضد المعتقدات السائدة انطلاقا من النزعة القويمة الأكثر تشددا يتسم بطابع طائفي مثل محاولات تحطيم أو تحديد أو تغيير بعض أسسها. وفي القرن العشرين فقط، عندما ذابت أو أمحت المظاهر المتعصبة جدا في الوهابية فقدت الحركة نفسها شكلها الطائفي المتشدد.

وقد انتشر على نطاق واسع في المطبوعات الأوروبية والعربية نعت الوهابيين بالصفاء والنقاوة وبأنهم "بروتستانت الإسلام. وكان كورانسيز أول من استخدم هذا النعت(56) وكرره بعده بوركهاردت(57). وتلك مقارنة للوهابيين بالتيارات الأوروبية في الحركة الإصلاحية في القرون الوسطى حسب سمة شكلية صرف، أي حسب

الطموح الظاهري إلى "تنقية" الدين "الحقيقي" من الشوائب التي علقت به فيما بعد. ومن هذه الناحية فقط يمكن الكلام عن التشابه الخارجي بين ظاهرتين مختلفتين تمام الاختلاف من حيث مضمونهما الاجتماعي والسياسي، بل حتى الفقهي واللاهوتي.

لقد ظهرت الوهابية في ظل انفصام نفساني خطير وفي ظروف عدم الرضا عن حالة الحياة الروحية آنذاك، وكانت بمثابة رد فعل على الأزمة الروحية في مجتمع الجزيرة العربية، وخصوصا مجتمع نجد، الذي كانت تحوم فيه، ربما بصورة غير واعية، مطامح تبتغي مثلا عليا جديدة.

ولم يكن محمد بن عبد الوهاب الشخص الوحيد الذي شعر بحاجة إلى تجديد الإسلام في الجزيرة العربية ذلك العصر. فليس من قبيل الصدفة أن معلمه في المدينة المنورة عبد الله بن إبراهيم بن سيف كان يعد "سلاحا فكريا" لتغيير الدين. وكان فقيه صنعاء محمد بن إسماعيل (توفي عام 1768/1769) قد دافع في مؤلفاته عن

الدين الخالص. وعندما سمع بدعوة محمد بن عبد الوهاب ألف قصيدة في مدحه(58). وكان في اليمن فقيه اسمه محمد المرتضى (توفي عام 1790) وكان يستنكر سلوك الدراويش(59). وفيما بعد نشط في اليمن فقيه آخر لقبه الشوكاني (توفي عام 1834)، ألف كتبا ووضع شروحا لمؤلفات ابن تيميه. وفي تلك الكتب والشروح رفض زيارة القبور وعبادة الأصنام معتبرا ذلك إشراكا بالله. وربما كانت له صلة بابن عبد الوهاب في نجد(60).

ولا يستبعد أن هذه الأسماء ليست كل ما في قائمة الأشخاص الذين صاروا وهابيين فيما بعد وصاغوا تعاليم الوهابية. وكما هو الحال أثناء الانعطافات الاجتماعية والسياسية الكبيرة الشان بهذا القدر أو ذاك يظل تعليلها الفكري "معلقا في الهواء" أن صح القول. ووقعت بذور الدعاية الوهابية في تربة كانت معدة بهذا القدر أو ذاك لتقبل المذهب الجديد ونمت حيثما توفرت الظروف الأكثر ملاءمة

لتحقيق الأفكار الاجتماعية والسياسية التي طرحها الوهابيون.

أن التعاليم الوهابية تتناول بقدر كبير ميدان علم أصول الدين، ولكن لها من الناحية الاجتماعية والسياسية مضمونا أصيلا لا جدال فيه. ولا يغير من جوهر الأمر أن مؤلفات محمد بن عبد الوهاب تتكون بنسبة 90_95% من مقتطفات مأخوذة عن فقهاء القرون الأولى من نشوء الإسلام ومن الأحاديث الصحاح.

المضمون الاجتماعي للوهابية: **تتضمن مؤلفات مؤسس الوهابية أحكاما لا لبس فيها وهي تجسد مصالح الوجهاء ضد الفقراء. وتهدف إلى تأمين الاستقرار الاجتماعي.**

فالعامة يجب أن تخضع لاصحاب السلطة(61)، كما يؤكد طبقا لاصول الإسلام. وان عذاب الجحيم من نصيب كل متمرد على الأمراء(62).

واعتبرت الوهابية دفع الزكاة واجبا وليس مطلبا طوعيا، وبذلك جعلت عائدات السلطة من جميع الفئات

للسكان، بمن فيهم البدو، مبـدأ دينيـا لا مناص منه(63).

أن الأشـــخاص الـــذين يعتنقـــون الوهابيـة لا يعفـون من واجبـاتهم إزاء أسيادهم أو دائنيهم. وقال عبد اللـه بن محمـــد بن عبـــد الوهـــاب أن خصـــوم الوهابيـة يكـذبون عنـدما يزعمـون "بـان من دان بمـا نحن عليـه سـقطت عنـه جميع التبعات حتى الديون"(64).

ومع ذلك دعا الوهـابيون إلى العنايـة بالعبيـد والخـدم والأجـراء(65). وكـانوا يغـازلون مشـاعر الفقـراء بمـدح الفقـر وذم الجشع زاعمين بـان الفقـير يـدخل الجنـــة بصـــورة اســـهل(66). ولاحـــق الوهابيون في التطبيق نشاط المرابين(67).

وكـانت التعـاليم الوهابيـة تـدعو إلى الوئـــام الاجتمـــاعي: "كلكم راع وكلكم مســـؤول عن رعيتـــه: فالإمـــام راع ومسـؤول عن رعيتـه، والرجـل راع في أهلـه ومسـؤول عن رعيتـه، والمـرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسـؤولة عن رعيتهـا، والولـد راع في مـال أبيـه ومسـؤول عن رعيتـه والخـادم راع في

مال سيده ومسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"(68).

وكان ذلك ، وان بصورة جزئية، هو هدف تقوية التبشير "بأخوة" المسلمين(69). وبعد حوالي مائة وخمسين عاما من ذلك استخدمت فكرة "الاخوة" بشكل مكيف بعض الشيء في حركة الأخوان. واكد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قائلا: "والعرب أكفاء بعضهم لبعض، فما اعتيد في بعض البلاد من المنع دليل التكبر وطلب التعظيم، وقد يحصل بسبب ذلك فساد كبير"(70).

بديهي أن المذهب الوهابي ينطوي على طائفة من الأصول الأخلاقية الصالحة لمختلف فئات السكان. فقد أوصت الوهابية الناس بالطيبة والحرص(71) وتنفيذ الوعود التي يقطعونها على أنفسهم(72) وبالصبر(73) والصدق ومساعدة الضرير وعدم ممارسة الافتراء والنميمة والثرثرة. وأدانت الوهابية البخل والحسد وشهادة الزور والجبن(74). وحددت الوهابية أدق تفاصيل السلوك البشري. وقدمت

النصائح فيما يخص كيفية الضحك والعطاس والتثاؤب والمعانقة والمصافحة والتنكيت وهلمَّ جرا(75).

ومما لا جدال فيه أن الوهابية كانت بقدر ما تتميز بالسمات الملازمة للحركات الشعبية التعادلية الموجهة ضد الظلم الطبقي المفرط. مع أن الفلاحين الذين يتعرضون للاستغلال قبل غيرهم لم يواجهوا ذلك باللامبالاة. فالفلاحون يلتزمون دوما جانب دعاة تخفيف أو "تنظيم" الاستغلال. ولذلك حظي الوهابيون لدرجة كبيرة بتعاطف فلاحي نجد في أواسط القرن الثامن عشر.

ومع ذلك كان مركز ثقل المذهب الوهابي متواجدا في الميدان السياسي أكثر مما في الميدان الاجتماعي.

التعصب والجهاد. كان الوهابيون يعتبرون جميع المسلمين المعاصرين لهم والذين لا يؤمنون بتعاليمهم أكثر شركا من الجاهليين في الجزيرة العربية(76).

وكان سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب قد تزعم لأمد طويل الحركات

المناوئة للوهابية في العديد من واحـات يجـد. وقـد أشـار إلى أن التعصـب من السـمات الملازمـة للوهابيـة. وكتب المـؤرخ الحجـازي ابن زيـني دحلان "وقال له أخوه سليمان يومـا كم أركـان الإسلام يا محمد بن عبد الوهـاب فقـال خمسـة فقـال بـل أنت جعلتهـا سـتة السـادس من لم يتبعـك فليس بمسـلم هذا ركن سادس عندك للإسلام(77).

وكتب عن هذه الآراء المتطرفة أيضا ابن سـند: "واعلم أن أتبـاع ابن سـعود عندما قتل طُعيس العبـد الأسـود ثوينيـا (شـيخ المنتفـق في الفـرات الأوسـط) مـدحوه وحمـدوه بقتـل ثويـني لكـونهم يعتقدون كفر ثويني بل كفـر جميـع من على وجـه الأرض من المسـلمين الـذين لم يعتقدوا معتقدهم..."(78).

أن الوهابيين عندما عارضـوا الشـكل السـائد للإسـلام آنـذاك قـد سـاروا إلى ابعـد من الطـائفيين العـاديين. ويعتقـد بيلايـف "أن أتبـاع جميـع الاتجاهـات والتيـارات والطوائـف في الإسـلام يعتـبرون مسـلمين بمـوجب التصـورات الراسخة لدى المسلمين أنفسـهم(79).

أما الوهابيون فلا يعتبرون خصومهم مسلمين بل مشركين وكانوا يعتقدون أن جميع الذين سمعوا دعوتهم ولم يتبعوها كفرة. وفيما بعد، كان موقف الوهابيين حتى من "أهل الكتاب" أخف من موقفهم من المسلمين غير الوهابيين. فقد سمحوا لليهود والنصارى بالصلاة في المنازل وفرضوا جزية طفيفة على كل واحد منهم(80).

وعندما كان الوهابيون يحتلون واحة أو مدينة يحطمون الشواهد والأضرحة على قبور الأولياء والصالحين ويحرقون كتب الفقهاء الذين يختلفون معهم(81).

وربما كانت الممارسات الدينية للوهابيين تختلف عن مذهب ابن عبد الوهاب ووصاياه الرسمية. وقد اتهم فقهاء كثيرون الوهابيين بعدم احترام الرسول. وينكر المؤلفون الوهابيون المحدثون جميعا هذا الاتهام بغضب شديد. ولعل الرغبة في التقليل من مكانة النبي محمد بوصفه "خليل الله" قد أدت عمليا إلى التقليل من دوره في

الإسلام وتجلت في "عدم الاحترام" المذكور.

وانتشر على نطاق واسع الرأي القائل بان الوهابيين قد منعوا تعاطي القهوة(82). إلا أن الوقائع تدحض هذه الأقوال، ولكنه لا يستبعد أن بعض المتعصبين جدا قد رفضوا هذا الشراب.

واتخذ التعصب بين الوهابيين أشكالا متطرفة جامحة. فان اعتقادهم بان خصومهم كفرة ومشركون صار مبررا للقسوة ضدهم. وفي الوقت نفسه صار التعصب وسيلة لتلاحم وانضباط الوهابيين حيث يستحثهم على تحقيق المآثر الحربية والقيام بالحملات والغزوات على المشركين. وهكذا تهيأت المقدمات الفكرية لإعلان الجهاد ضد جميع المختلفين مع الوهابيين.

فهل من داع للكلام عن المزايا التي يوفرها المذهب الوهابي للأمير الذي يتسلح بهذا المذهب؟ فهو يتحول من زعيم لغزوة عادية على جيرانه إلى مناضل في سبيل الدين النقي، أما خصومه فيصبحون من خدم الشيطان وعبدة الأوثان والمشركين. وعندما

اعتـــبرت الوهابيـــة الجهـــاد من أهم مســـلماتها صـــارت منـــذ ظهورهـــا أيديولوجية للتوسع الحربي.

الاتجاهــات التوحيدية**. لم تكن الوهابيــة مجردة رايـة لحـروب الغـزو والفتح، بـل كانت تبريرا فكريا للاتجاهات التوحيديــة في الجزيرة العربية. أن معارضـة عبـادة الأوليـــاء وتحطيم أضـــرحة الصـــالحين وقطع الأشجار المقدسة _ كل ذلك كان يعـــني في ظـــروف الجزيـــرة العربيـــة تحطيم السند الفكري والروحي للتجزئة الاجتماعية. وان وجهاء واحـة مـا عنـدما ظلوا بـدون ولي خـاص بهم قـد فقـدوا حقهم بـالتفوق والأصـالة كمـا فقـدوا عائدات زيارة ضريح هذا الولي.**

واكـــد الوهـــابيون أن على النـــاس البسـطاء أن يطيعـوا حـاكمهم، إلى إذا أمر بمعصية(83). وكان المناضـلون في سبيل التوحيـد، وعلى رأسـهم ابن عبـد الوهــاب، هم أعلى جهــة يرجــع أليهــا الناس في تحديد المعصية. وان أي عمل يقوم به الحكام ضد أمير الدرعيـة يعفي الرعية من واجب الانصــياع لهم ويحطم سند سلطة الحكام المحليين.

وكانت الوهابية تنطوي بالدرجة الأولى على أفكار توحيد نجد ووجهائها في الصراع ضد خصومهم التقليديين أشراف الحجاز. لقد منعت الوهابية زيارة العتبات المقدسة في مكة والمدينة (ما عدا الكعبة) ومنها قبر الرسول، الأمر الذي كان سيحرم الحجازيين من قسم كبير من عائداتها. وفي تلك الظروف التاريخية كان الحجازيون يتعاطفون مع الصيغة الرسمية للإسلام في الإمبراطورية العثمانية التي هي المصدر الرئيسي للحجاج. وكان فقهاء الحجاز يخشون من تضييع منزلتهم ومعها امتيازاتهم وعائداتهم في حالة انتصار الوهابيين. ولذا فمن الطبيعي أن علماء الحرمين لم يوافقوا على أن يقوم أحد النجديين بتعليمهم الإسلام الحقيقي".

ويتضح من أحكام وممارسات الوهابية اتجاهها المحدد تماما والمناهض للصوفية، وعلى وجه الدقة شجبها للصوفية بالشكل الذي انتشرت به في الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر، صحيح أن تعاليم

الوهـابيين لم تتضـمن تهجمـات سـافرة على هـذا التيـار في الإسـلام. حـتى أن عبد الله بن محمد بن عبد الوهـاب قـال ذات مرة انه ليس ضد الصوفية(84). إلا أن هـذا القـول، على مـا يبـدو، مجـرد اسـتدراك تكـتيكي. فمن وجهـة نظـر الوهابية الحقيقية المعتمدة على الكتاب والسنة وتعاليم فقهـاء القـرون الثلاثـة الأولى للإسلام أنها تعتبر الصوفية بدعة وواحدة من أمهـات الكبـائر. وان شـجب عبادة الأولياء ورفض السحر والشـعوذة موجهـان في الواقـع ضـد الـدراويش المتصوفة. ولا يغيبنَّ عن البـال أن منـع التبـغ والأفيـون(85) والمسـبحة والموسيقى والإنشاد الصاخب وحلقـات الذكر والـرقص واحـد من أهم محرمـات الوهابية الثابتـة(86). وكـان هـذا المنـع يشمل على الأكثر الممارسات الفعليـة، ففي مؤلفات الوهـابيين نجـد الاهتمـام بـه اقـل ممـا في كتابـات الرحالـة الأوروبيين.

وعندما عـارض الوهـابيون البـدع من حيث المبدأ وساروا بأحكام الحنبلية إلى حـدها الأقصـى رفضـوا في الواقـع

المذهب السني الرسمي للإمبراطورية العثمانية، أي الحنفية. ولذلك يمكن القول أن الوهابيين عارضوا الإسلام بالشكل الذي كان قائما به في الإمبراطورية العثمانية.

أن حظر التبغ والألبسة الحريرية والاحتفالات الصاخبة لم يكن يمثل مجرد موقف من البدع يطبق عمليا. فقد كان رد فعل لسكان نجد على المظاهر الخارجية لنمط حياة الوجهاء العثمانيين. وكتب بوركهاردت "أن الوهابيين يحتقرون الفخفخة في أردية الحجاج الأتراك"(87). وقال أن أعراب الجزيرة متذمرون من المحاكم الفاسدة والتعسف في الإمبراطورية العثمانية ومن لجاجة الأتراك ومن الشذوذ الجنسي الذي يمارسونه على المكشوف(88). واشار ج. رايمون، وهو مدفعي فرنسي كان يعمل في خدمة والي بغداد، إلى أن الميول المعادية للأتراك كن منتشرة على نطاق واسع في الجزيرة العربية. وقال له أحد الأعراب: سيأتي اليوم الذي نرى فيه العربي جالسا على عرش الخلافة. فقد

مـر علينـا زمـان طويـل ونحن تحت نـير مغتصبي السلطة(89).

أن تمــرد الوهــابيين على الإســلام العثماني، كما بينت الأحداث، قـد تجـاوز كثــيرا الإطــار الــديني واتســم بطــابع سياسي وعسكري. لقد كان ذلك صـداما بين نظـام الدولـة العـربي في الجزيـرة وبين الإمبراطوريـة العثمانيـة. وصـارت راية للحركة الوطنية العربية ضد النفـوذ العثماني في الجزيرة.

وكان اتجـاه الوهـابيين المستشـرس ضد ا لشـيعة ينطـوي كـذلك على جـنين أفكار النضال ضد الفرس بوصــفهم من غلاة الشيعة، إلا أن ذلك لم يظهـر خلال الأحداث اللاحقـة على نطـاق واسـع من الناحتين العسكرية والسياسية.

****

كـان مـذهب الوهابيـة نتيجـة لازمـه روحيــة خطــيرة في الجزيــرة العربيــة أساســــها العوامــــل الاقتصــــادية والاجتماعية والسياسة.

وقــد شــكل هــذا المــذهب جناحــا متطرفا للحنبلية، إذ رفض كل البدع في

الفرائض والعبادات وطالب بالعودة إلى الكتاب والسنة فقط.

ومن الناحية الاجتماعية كانت الوهابية تخدم مصالح الوجهاء، لكنها طالبت بمعاملة العامة بالعدل والإحسان. وكانت في الوقت نفسه تنطوي على عناصر ملازمة لحركات المساواة التعادلية.

وعندما وضع مذهب محمد بن عبد الوهاب الوهابيين على طرفي نقيض مع سائر المسلمين حولهم إلى طائفة متراصة وأجج التعصب لديهم. وكانت ضرورة الجهاد ضد المشركين التي أعلنها مذهب الوهابية قد جعلت منه راية لحروب الفتح والغزوات.

وصارت الوهابية سلاحا فكريا لحركة التوحيد المركزية في شبه الجزيرة العربية.

وقد باركت الوهابية نضال وجهاء نجد السياسي والعسكري من اجل السيطرة في الجزيرة العربية ضد الحجازيين بالدرجة الأولى.

وعندما عارضت الوهابية شكل الإسلام السائد في الإمبراطورية

العثمانية تحولت إلى صيغة فكرية للحركة الوطنية لعرب الجزيرة ضد الأتراك.

ووجد الوهابيون تربة صالحة في الواحات. فمع أن الكثير من توجهات الوهابية، وبالدرجة الأولى تسديد الزكاة، قد نفَّر البدو، وخصوصا أبناء القبائل الكريمة المحتد، ناهيك عن عدم مطابقة الكثير من التصورات الإسلامية لمعتقدات وعبادات البدو الرحل. إلا أن أفكار الجهاد التي أعلنتها الوهابية، أي الغزو تحت راية الإسلام، تنطوي على سمة جذابة بالنسبة للبدو. وعلى هذا الأساس كان بالإمكان انضمام البدو إلى الوهابيين والتحالف بين وجهاء الحضر ووجهاء البدو في ظروف معينة ولفترة زمنية محددة.

محمد بن عبد الوهاب وخطواته الأولى في السياسة**. عندما انتقل محمد بن عبد الوهاب إلى العيينة سارع إلى كسب رضا الأمير عثمان بن حمد بن معمر. وقال له حسبما رواه المؤرخون "إني أرجو أن أنت قمت بنصر لا اله إلا الله أن ينصرك الله تعالى وتملك نجدا**

وإعرابها". وكان هذا الاقتراح يناسب الأمير. وسرعان ما ربطت أواصر القربى بين عائلتي محمد بن عبد الوهاب وحاكم العيينة(90).

وبغية تحقيق أحكام الوهابية شرعا بتدمير الأضرحة المحلية. وقطع محمد بن عبد الوهاب شخصيا الشجرة التي كان سكان تلك المنطقة يقدسونها(91).

ثم جاء دور ضريح أحد الصحابة وهو زيد بن الخطاب المدفون في الجبيلة. وكان ذلك ضريحا محليا يتوارد عليه الزوار. أراد سكان الواحة أن يقاوموا تدمير ضريح وليهم، ولكن عثمان ومعه ستمائة محارب كان يحمي محمد بن عبد الوهاب الذي حطم شاهد القبر بنفسه(92).

وبعد ذلك جرى في الواحة رجم أمراة اقترفت إثما. وطبق ابن عبد الوهاب أحكام الشريعة حرفيا فأمر برجمها بالأحجار(93). ويقول ابن غنام: "فخرج الوالي عثمان مع جماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان أول من رجمها عثمان المذكور، فلما

مـــاتت أمـــر أن يغســـلوها وان تكفن ويصــلى عليهــا(94). وشــاع نبــأ هــذا الحـادث في الأرجـاء مثـيرا الـرعب في قلــوب الــذين انحرفــوا عن الإســلام الحقيقي، كمــا يقــول ابن غنــام(95). وأعلنت الوهـابي عن نيتهـا في تطـبيق مبادئها دون رحمة.

وبلغ نبأ هذه الجريمـة أسـماع حـاكم الأحســاء والقطيــف وبــدو أطرافهمــا سليمان بن محمد غرير الحميـدي، الـذي كانت العيينة تعتمد عليه بقدر مـا. ولمـا كان جزء من تجارتهـا يمـر عـبر مـرافئ الأحسـاء، زد على ذلـك أن أمـير العيينـة كـانت لـه في الأحسـاء بسـاتين نخيـل وأملاك أخرى يستلم منها عائـدات، أمـر سليمان الحميـدي عثمـان بقتـل الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب، وهـدده، أن لم يفعل، يقطع مؤن الأغذية والألبسة عنه وحرمانه من العائدات(96).

ولعــل أســباب تصــرف ســليمان الحميـدي هـذا تعـود إلى الضـغط الـذي مارســه عليــه العلمــاء المحليــون المستاءون من انتشـار المـذهب الجديـد الذي ينسف مـواقعهم. زد على ذلـك أن

زعيم بني خالد كان، على ما يبدو، يخشى من تزايد قوة الوهابيين الذين اعتبرهم خطرا على سلطته.

إلا أن أمير العيينة لم يتجرا أو ربما لم يرغب في قتل الشيخ المتنفذ فنفاه(97).ولا يستبعد أن عثمان بن معمر كان يريد الانتظار بعض الوقت ليعيد الفقيه الذي لا يقر له قرار.

واستقر محمد بن عبد الوهاب في الدرعية عام 1744 _1745 (98). وكانت عنده في هذه الواحة جماعة من الأتباع ومنهم اثنان من إخوان أميرها محمد بن سعود وكذلك زوجة الأمير. ونزل محمد بن عبد الوهاب عند أحد تلاميذه وشرع حالا بالاتصال بحاكم الدرعية وساعد شقيقا الأمير وزوجته على التقارب بينهما وكان محمد بن سعود الذي يعد خططا حربية طموحة مطلعا على مذهب الفقيه المشهور، لذا قدر آفاق الوهابية حق قدرها.

وتوافقت رغبة محمد بن عبد الوهاب الذي ينشد الدعم العسكري ورغبة الأمير الطموح الذي ينشد الدعم الديني في توحيد جهودهما وتم

التحالف المنشود. وطلب ابن سعود من محمد بن عبد الوهاب أن لا يغادر الدرعية وسعى إلى جعله يوافق على الضرائب السابقة المفروضة على سكان الواحة. وقال له الأمير "إن لي على الرعية قانونا أخذه منهم في وقت الثمار واخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئا". إلا أن محمد بن عبد الوهاب وافق على الشرط الأول ورفض الثاني ووعد ابن سعود بان غنائمه من الغزوات والجهاد ستكون أكبر من هذه الضريبة(100).

ويبين ذلك أن أمير الدرعية حاول أن يحتفظ بحق رعيته، وهو أمر مرفوض على ما يبدو، من وجهة نظر الشريعة الإسلامية. إلا أن محمد بن عبد الوهاب الأبعد نظرا اقترح على ابن سعود أن يتخلى عن تلك الضريبة وذلك بغية تحقيق هدفين، هما الحفاظ على نقاوة المذهب وكسب تأييد السكان المحليين الذين خفت أعباؤهم في الحال. وكان محمد بن عبد الوهاب يرى أن ذلك كله يمكن التعويض عنه، وقد تم التعويض عنه فعلا بالغنائم الحربية الهائلة.

بهـــذا تنتهي المرحلـــة الأولى من تـاريخ الوهابيـة، وهي، أن صـح القـول، مرحلـــة التطـــور الجنيـــني والتجـــريب والاخفاقات والصياغة السياسـية. ومنـذ الانتقـــال إلى الدرعيـــة ارتبطت حيـــاة محمد بن عبد الوهاب ارتباطا لا ينفصـم بمصير أماره الدرعية والدولة السعودية.

الفصل الثالث

قيام الدولة السعودية الأولى (1745_ 1811)

على أثـــر انتقـــال محمـــد بن عبـــد الوهاب إلى الدرعية لحق بـه الكثـير من أتباعه من العيينة وسائر واحات نجد.

كـــانت عاصـــمة الدولـــة السـعودية الشاسعة آنذاك تعيش حياة البؤس. ولم يتمكن أبن ســـعود حـــتى من تـــأمين الأغذيـــة لِأعـــز تلاميـــذ محمـــد بن عبـــد الوهاب الذي كان يمـارس تـأثيره بقـوة الإقناع فقط(1).

واطلع محمد بن عبد الوهاب أتباعه وأنصاره على مبادئ مذهبه وأوحى لهم فكرة ضرورة الجهاد ضد الكفرة(2).

وبعد أولى غزوات الدرعيين على جيرانهم وزعت الغنائم بالعدل طبقاً لِأحكام الوهابية: الخمس لِأبن سعود والباقي للجند: ثلث للمشاة وثلثان للخيالة. وكان التمسك بالوهابية يكافأ مادياً. وإذا كان الغزو السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحول الآن إلى انتزاع أموال المشركين وأحالتها إلى المسلمين الحقيقيين.

ولم تكن عمليات الوهابية الحربية تختلف عن النزاعات العادية بين الدويلات_الواحات. غارة سريعة وكمين تنصبه بضع عشرات من المحاربين وبضع عشرات من الإبل أو الأغنام التي يتم الاستيلاء عليها في حالة الانتصار وأشجار نخيل مقطوعة وحقل منهوب أو عدة منازل منهوبة _ تلك هي "منجزات" الدرعيين في السنوات الأولى بعد مجيء محمد بن عبد الوهاب إليهم.

إلا أن راية تجديد الدين منحت أمير الدرعية وزناً ومنزلة. وأخذ مؤرخو نجد يلقبونه بالإمام. وصار يعتبر أميراً للمؤمنين، أي لجميع المنضمين إلى الوهابية. وأثناء الصلاة كان في مقدمة جمهور المصلين.

فرض زعامة الدرعية في وسط نجد. **كان المحاربون من العيينة بزعامة عثمان بن معمر أنصاراً ثابتين للدرعيين، حتى أن أميراً من العيينة قاد القوات التي توحدت في السنوات الأولى(3). وارتبط عثمان بن معمر بالسعوديين بصلة قربى حيث زوّج ابنته من عبد العزيز بن محمد. وفي عام 1748 ولد أبنهما سعود الذي بلغ الوهابيون أوج قوتهم في عهده(4). إلا أن العداء حتى الموت بين الأقارب كان ظاهرة عادية تماماً في الجزيرة العربية، فلا داعي للدهشة من تطور الأحداث لاحقاً. وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب، الذي لم ينس أن أمير العيينة نفاه منها، أهمية حاسمة في التنافس بين حكام الدرعية والعيينة.**

واتهموا أمير العيينة كذلك بأنه أجرى مرسلات سرية مع حاكم الأحساء محمد بن عفالق وأعد العدة للخيانة. وفي حزيران (يونيو) 1750 قتله الوهابيون من أبناء واحته بعد صلاة الجمعة. وصار حاكماً للواحة قريبه مشاري بن إبراهيم بن معمر المعتمد على الدرعية(5). وبعد عشر سنوات فقدت العيينة استقلالها نهائياً. فقد نحى محمد بن عبد الوهاب مشاري وأسكنه الدرعية مع عائلته وعين بدلاً منه شخصاً خاضعاً للسعوديين كلياً. ووصل محمد بن عبد الوهاب شخصياً إلى العيينة وأمر بتدمير قصر آل معمر(6).

وبعد خمس سنوات من التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود كانت سلطة أمير الدرعية ما تزال موضعاً للشك والمجادلة حتى في أقرب الواحات. وفي 1750 _ 1753 حاولت إمارات منفوحة وحريملا وضرمى، التي كانت بين أوائل الذين تحالفوا مع الوهابيين، أن تنفصم عرى التبعية للدرعية(7). وشجع الانتفاضة في حريملا سليمان شقيق محمد بن عبد

الوهـاب. وبعث إلى أرجـاء نجـد كافـة رسائل شجب فيها تعاليم أخيه. وبتـأثير الدعايـة المناهضـة للوهابيـة بـدأت القلاقل حتى في العيينة(8). إلا أن عبد العزيز اسـتطاع مـع 800 من المشـاة و 20 من الخيالـة الاسـتيلاء على حـريملا في عـام 1755، وفـر سـليمان إلى سدير(9).

وظل أمـير الريـاض دهـام بن دواس المنافس الرئيسي للسـعوديين. وكـانت الغـزوات من الدرعيـة والريـاض على بعضـهم بعضـاً تجـري كـل عـام تقريبـاً. وقاتـل مـع دهـام على التـوالي سـكان مناطق وواحـات الوشـم وسـدير وثـادق وحـريملا، إلى أن الوهـابيين كـانوا، في الغالب، هم الجانب المهاجم.

وعلى مسرح الأحداث في يجد ظهـر الأحسـائيون من جديـد في أواخـر الخمسـينات، وقـد قـادهم خلال بضـع سنوات حتى ذلك الحين زعيم نشيط هو عريعـر أبن دجين. فقـد قـاموا بحملـة على وسط الجزيرة، ولكنهم لم يوفقـوا فيها. وانتقلت المبادرة مـرة أخـرى إلى الدرعية.

وفي أواخر عام 1764 قام زعيم القبائل البدوية في منطقة نجران الحسن بن هبة الله بحملة على الدرعية. ودحر قوات عبد العزيز عن آخرها، حيث كبدها حوالي 500 قتيل و 200 أسير. وأبدي محمد بن عبد الوهاب دهاء دبلوماسياً كبيراً فسارع لعقد الصلح على أساس دفع تعويضات الحرب وتبادل الأسرى. وانسحب النجرانيون دون أن ينتظروا وصول عريعر من الأحساء(10)

ووصلت قوات عريعر المسلحة بالمدافع إلى ضواحي الدرعية في بداية عام 1765. وانضم إليها الكثير من النجديين، بمن فيهم دهام أمير الرياض وزيد بن زامل أمير الخرج. إلا أن حصار الدرعية أخفق(11).

وفي ذلك العام توفي محمد بن سعود. وخلفه عبد العزيز. ويشير أبن غنام وأبن بشر إلى أن عبد العزيز لم يكن ولي العرش فقط، بل كان إماما للوهابيين.

وبعد الهزة التي نجمت عن الهزيمة أمام النجرانيين وغزو الأحسائيين تماثلا

إمــارة الســعوديين للشــفاء بســرعة. واستمر توسعها بوتائر متســارعة، وفي أواخر الستينات اخضـع الوهـابيون كليـاً الوشم وسـدير وهـاجموا واحـة الـزلفى الواقعة شمال شرقي مقاطعة القصـيم النجدية الغنية وشنوا حملات ناجحة على البـدو جنـوبي وشـرقي نجـد. وخضـعت مفــارز من قبائــل ســبيع والظفــير للوهابيــة. وفي عــام 1669 ـ 1770 أقسم القسم الأكـبر من القصـيم يمين الولاء للوهابية والسعوديين(12).

وفي هذه الظروف غدا وضع الرياض المطوقــة من جميــع الجهــات بإتبــاع حلفــاء الوهــابيين ميئوســاً منــه. وفي إحدى المناوشات قتل الـدرعيون أثـنين من أبناء دهام. وتدهورت معنويات أمـير الرياض العجوز. وعندما وصل الوهابيون في صــيف 1773 إلى الريــاض رأوا أن المدينـة خاليـة من سـكانها. وفـر أمـير الرياض مع عائلته. وحذت حـذوه أغلبيـة السـكان الـذين كـانوا يخشـون، وليس بدون حق، من ثـأر خصـومهم القـدامى. وهلــك كثــير من ســكان الريــاض في الطريــق بســبب الحــر والعطش، كمــا

سقط الكثيرون بسيوف الوهابيين(13). وانتهى الصراع من أجل السيطرة في وسط نجد بعد أن استغرق حوالي ربع قرن. ولكنه لم يخرج عن نطاق النزاع القبلي. وتفيد حسابات المؤرخين، التي هي ربما أقل مما في الواقع، أن عدد القتلى بلغ 4 ـ 5 آلاف شخص يشكل أتباع دهام أكثر من نصفهم. ويمكن أن نوافق على رأي فيلبي الذي كتب يقول: "حتى ذلك الحين كان عبد العزيز يتربع منذ ثماني سنوات على عرش الدرعية التي كانت أكبر شأناً بقليل من سائر (primus inter pares) الدويلات العديدة في الجزيرة العربية(14). إلا أن الوهابيين حصلوا على قاعدة متينة لمواصلة توسيع دولتهم.

كانت سلطة السعوديين قائمة ليس فقط على قوة السلاح. فكل واحة تضم إلى الدولة يصلها من الدرعية علماء وهابيون يدعون إلى التوحيد الحقيقي. وأخذ قسم من سكان نجد يعتبر الدرعية لا مجرد عاصمة لِإمارة قوية بل مركزاً روحياً، ويعتبر حكام الدرعية ليسوا مجرد أمراء أقوياء بل مناضلين في

سبيل نقاوة الدين. ولا يغيبن على البال أن العلماء وأنصار الوهابيين في الإمارات المعادية للدرعية كانوا يفُتتون المقاومة من الداخل.

على العموم لقد تمكن السعوديون بصعوبة كبيرة، رغم الجهود الهائلة، من قهر مقاومة الأمراء المستقلين. وكان واضحاً أثر قوى التجزئة واللامركزية والفوضى القبلية. لذا تعين مرور عشرة أو اثني عشر عاماً على سقوط الرياض لتقع نجد بكاملها تحت سيطرة الدرعية.

توحيد وسط الجزيرة العربية. **بعد ضم الرياض صار الخصم الرئيسي للسعوديين في نجد، زيد بن زامل، الأمير الداهية الشجاع وحاكم الدلم ومنطقة الخرج كلها. وقد حاول من جديد اجتذاب قبائل نجران للمشاركة في مكافحة الوهابيين. ولهذا الغرض توجه بطلب إلى أمير نجران للمشاركة في مكافحة الوهابيين. ولهذا الغرض توجه بطلب إلى أمير نجران ليرسل محاربين لنجدته ووعده بمكافأة معينة. ووصل أبناء نجران ولكنهم بدلاً من**

تقديم النجدة أخذوا يبتزون النقود وينهبون سكان الخرج. فأخفق التحالف المنشود.

وفي منتصف السبعينات دخل محاربو بني خالد وعلى رأسهم عريعر نجد قادمين من الأحساء واحتلوا بريدة في القصيم ونهبوها بوحشية. وكان العديد من حكام واحات نجد المتذمرين من سلطة السعوديين مستعدين لدعم الأحسائيين، ولكن عريعر توفي بغتة. وبدأ عند بني خالد صراع من أجل الرئاسة. وفاز في هذا الصراع مؤقتاً أحد أبناء عريعر وهو سعدون، إلى أن أمراء الدرعية أخذوا يحرضون إخوانه ضده(15).

وخلال السنوات القليلة التالية كان الأحسائيون يظهرون في نجد كل عام تقريباً. وشاركت مع بني خالد في الغزوات قبائل سبيع والظفير. وكان عدد من واحات نجد تارة ينضم إلى الوهابيين وتارة ينفصل عنهم ويعمل بصورة مستقلة وتارة يتحالف مع أعداء الدرعية.

ويبين مشهد هام ذكره منجين سير العمليات الحربية آنذاك. فقد أنشأ الوهابيون قرب الدلم قلعة للتضييق على عمليات مفارز زيد بن زامل. وكانت مشارف القلعة صعبة المنال وقد وقفت في حمايتها عساكر وهابية مختارة. وبغية إخراج العدو من القلعة أنشأ أهل الدمل، بإشراف أحد الفرس القاطنين في الواحة، برجاً متنقلاً على أربع عجلات ولبسوه بالرصاص لحمايته من النار. ودخله محاربون ودحرجه آخرون نحو القلعة. إلا أنه تلكأ عند مشارفها، ولم ينقذ المحاربين القابعين في البرج المتنقل إلى عملية مستميتة لمفرزة من شجعان الدلم(16).

ورغم المقاومة وسعت الدولة السعودية نفوذها وأراضيها بالتدريج. وبعد احتلال الوهابيين لواحة المجمعة توقف عمل أنشط الدعاة المعاديين للوهابية، ونعني سليمان بن عبد الوهاب. فقد نقل مع عائلته إلى الدرعية حيث ظل حتى وفاته(17).

وفي مطلع الثمانينات تقرر مصير القصيم نهائياً، فطوال عدة سنوات

استمرت القلاقل والنزاعات التي تخللتها عمليات ضد الدرعية. ولم يخفت أوار العداء القديم، وظل باقيا مفعول علاقات التحالف والترابط والنفور والتضاد السابقة. وفي عام 1782 دخل القصيم سعدون بن عريعر على رأس قوات بدوية من بني خالد وشمر والظفير. وكان مصمماً على طرد الوهابيين.وانضم أليه زيد بن زامل وقواته. وطوال عدة أسابيع حاصروا بريده التي ظلت موالية للوهابيين، ولكن دون جدوى هذه المرة. وانحل الائتلاف المعادي للوهابيين وغادر الأحسائيون نجد(18).

وفي عام 1783 قُتل زيد. وتزعم الدلم أبنه براك. إلا أن مكانة الأمير الجديد كانت مضعضعة بسبب التنافس داخل الأسرة الحاكمة(19).

وفي الفترة 1783_1786 أصاب نجد جفاف مرعب وتفشت المجاعة. وغدت حالة الخرج التي حاصرها الوهابيون ميئوسا. وفي عام 1785 تم احتلال الدلم بهجوم سريع، وقتل الأمير وبعض أنصاره. وأقسمت منطقة الخرج كلها

يمين الـولاء للسـعوديين. وعين القائـد العسكري الوهابي سليمان بن عفيصان حاكماً للدلم(20).

في تلك السنوات على وجه التقريب خضعت للدرعيـة الأفلاج والدواسـر، مـع أن الانتفاضات ضد الوهـابيين اسـتمرت أمداً طويلاً في الدواسر(21).

وشعرت أقـوى القبائـل البدويـة في الجزيـرة العربيـة بثقـل قبضـة حكـام الدرعيـة. وعنـدما دحـر الوهـابيون بـدو الظفـير في عـام 1781 انـتزعوا منهم كل مـا يملكـون: أدوات المخيمـات و 17 ألف نعجـة ومـاعز و 5 آلاف جمـل و 15 حصـاناً(22) وقـام الوهـابيون كـذلك بغزوات على آل مـرة وقحطـان وسـبيع وبـني خالـد. وتوغلـوا في الشـمال واخضعوا جبل شمر في النصـف الثـاني من الثمانينات(23).

واكتمـل التفـاف أراضـي وسـط الجزيـرة حـول الدرعيـة. ومـع أن بعض العمليات كانت ما تزال جاريـة في بعض المناطق ضد السعوديين فلم يعد جـائزاً اعتبار الأمراء المحليين من منافسـيهم. وفي أفضل الأحـول كـانوا شـبه تـابعين

لهم، وفي الغالب كانوا صنائع مباشرين للدرعية يؤدون دور الولاة(24).

وأدى تعزز سلطة آل سعود ونفوذهم عموماً إلى جعل عبد العزيز ومحمد بن عبد الوهاب يقدمان في عام 1788 على خطوة هامة. فقد أمنا لسعود حق ولي العرش بالوراثة والأمام عبد العزيز ما يزال على قيد الحياة. وأخذ محمد بن عبد الوهاب على عاتقه مهمة جعل مدن ومناطق الدولة تقسم يمين الولاء. وكان سعود قد حضي أصلاً بشعبية واسعة بفضل بسالته وانتصاراته الحربية ومشاركته في تصريف شؤون الدولة(25). وكان الإعلان عن ولي العهد قد عزز أسرة آل سعود لأنه أمن انتقال السلطة بصورة أسهل نسبياً من الأمير إلى أبنه.

إن وراثة الابن لأبية شيء معتاد في الجزيرة العربية ولكنه غير إلزامي. فالسلطة كانت تنتقل حسب الأقدمية في العمر داخل الفخذ وحسب السجايا الشخصية لأقرب الأقرباء. وتعود الكلمة الحاسمة في اختيار الأمير الجديد إلى كبار الوجهاء. وان إصرار المؤرخ

الوهـابي أين غنـام على تـبريرـ شـرعية يمين الولاء لسعود يشـيرـ إلى أن فكـرة لزوم انتقال السلطة من الأب إلى أبنـه صـادفت، على الأرجح، بعض المقاومـة والاعتراض.

وبالاعتماد على موارد وسط الجزيرة بـدأ الوهـابيون تقـدما ناجحـاً في جميـع الاتجاهـات: نحـو الشـرق والشـمال الشرقي _ إلى الأحساء وجنوب العراق، ونحو الغرب _ إلى الحجاز، ونحو الجنوب الغـربي _ إلى اليمن، ونحـو الجنـوب الشـرقي _ إلى عمـان، ونحـو الشـمال إلى حدود الشام.

الوهابيون في شرقي الجزيـرة. **مما سـهل هجوم الوهابيين على الأحساء النزاعات الداخلية في هذه المنطقة الغنيـة. وفي عام 1785 _ 1786 دبـر أقـرب أقربـاء سعدون بن عريعر مؤامرة ضده. وطلبوا من شيخ المنتفق ثويني بن عبد الله أن يؤيدهم. فبدأت العمليات الحربية.**

مُني سعدون بالهزيمة في الاشـتباك الحاسم وولى هارباً. وطلب من الدرعية أن تمنحـه اللجـوء فاسـتقبلته بحفـاوة. وتفيد بعض المعلومـات أنـه سـرعان مـا

تـوفي بعـد ذلـك. وصـار دويحس، لبعض الوقت، حاكماً للأحساء(26).

وخف ضغط الوهابيين على الأحسـاء فـــترة قصـــيرة بســـبب الغـــارة غـــير المتوقعة التي قـام بهـا شـيخ المنتفـق ثويني على القصيم في 1786 ـ 1787. فقـــد جمـــع قـــوات كبـــيرة مـــزودة بالمدفعيـــة. وشـــاركت معـــه في هـــذه الغزوة بعض قبائل شمر وكـذلك سـكان الزبير. وحطمت قوات ثويني عدة قـرى في القصيم ولكنها ردت على أعقابهـا(27).

وبعـــد أن عـــاد ثويـــني إلى منطقـــة قبائـــل المنتفـــق أراد أن يســـتولي على البصرة ويعلن نفسـه حاكمـاً لهـا. إلا أن والي بغداد سليمان باشا، المستقل في الواقع عن الباب العـالي، هـاجم ثويـني في خريـف 1787 وهزمـه قـرب مدينـة سوق الشيوخ، ثم أمر فيما بعـد برصـف ثلاثة أبراج من جماجم قتلاه. وفر ثويني وصـار حمـود بن ثـامر شـيخاً للمنتفـق(28).

وكثـــيراً مـــا نصـــادف في كتابـــات مـــؤرخي الجزيـــرة، الـــتي تتنـــاول بدايـــة

نشـاط الدولـة الوهابيـة، معلومـات عن الاشـــتباكات بين قـــوات الســـعوديين والبـــدو. ولكنـــه في أواخـــر الثمانينـــات نلاحـظ مشـاركة متزايـدة من بـدو بعض القبائـــل في الحملات الـــتي يشـــنها الوهابيون أنفسهم. وقد كـرر أبن بشـر الإشارة إلى ذلك مراراً.

وكـان الوهـابيون يقومـون سـنوياً بحملات على أعماق الأحساء حتى بلغـوا سـواحل الخليج. ولم يكتـف الوهـابيون بغزو واحات شرق الجزيرة وقبائل بـني خالد، بل هاجموا كـذلك قبيلـة المنتفـق شمالي الأحساء(29).

وقمـع الوهـابيون المقاومـة بمنتهى القســـوة. فقـــد كتب أبن غنـــام أن الوهـابيين عنـدما عـادوا ذات مـرة من الواحات وجدوا "أكثر الرجال... في بيت من الـــبيوت، وكـــانوا ثلاثمائـــة نفس فقتلوا جميعاً(30).

وفي خريف 1788 صـار بعض أفخـاذ قبيلـــة بـــني خالـــد يقاتـــل في صـــف الوهابيين. ونصبت الدرعية زيد بن عرير شيخاً لمشايخ بني خالد. إلا أن الأحســاء كانت مـا تـزال غـير راضخة بعـد(31).

فـإن المقاومـة اللاحقـة الـتي أبـداها سكانها وانتفاضاتهم المتكررة تدل على أن الميول المعادية للوهابية كانت قويـة هنا. وربما يعزى ذلك إلى وجـود عناصـر شـيعية قويـة في الأحسـاء، وإلى كـون وجهائهـا الـذين تعـودوا على اعتبـار النجديين جهة لهجمـاتهم لم يسـتطيعوا الرضوخ لدور الخضوع.

وفي 1791 _1792 اجتـاح سـعود بالحديد والنـار واحـات شـرقي الجزيـرة فاحتل القطيف. وفي تلـك الأثنـاء قـام سليمان بن عفيصان بغزوة على قطـر(32). إلا أن الأحسـاء كلهـا سـرعان مـا هبت في انتفاضة عارمة. ودحر بنو خالد صنيعة الوهابيين، وصار شيخاً للأحسـاء، برّاك بن عبد لمحسن، الذي بـدأ غزواتـه فـوراً على البـدو والواحـات الخاضـعة للسـعوديين إلى أن بـني خالـد انـدحروا في إحـدى المعـارك ففقـدوا أكـثر من ألف شـخص. وأعـربت واحـات الأحسـاء عن خضوعها لسـعود. وظـل الوهـابيون شهراً في هذه المنطقـة فـدوروا قبـاب الأضـرحة وجميـع العتبـات المقدسـة

للشيعة. وتوجه العلماء الوهابيون إلى المدن والواحات هناك(33).

وفي معمعان إخضاع الأحساء، في عام 1792، توفي مؤسس الحركة الوهابية محمد عبد الوهاب(34). وكان شخصية بارزة بالنسبة لعصره ومجتمعه وطبقته. وكان يتحلى ببسالة وحماسة متناهيتين. فإن تحدي النظام الديني في الجزيرة العربية آنذاك ومواجهة حماة القديم الهائجين يتطلبان بسالة منقطعة النظير. وتعرضت حياته للخطر مراراً، وقد أجلى ثلاث مرات، ولكن ذلك لم يثن عزيمته. وساعد محمد بن عبد الوهاب لدرجة كبيرة، بخطبه الحماسية وبلاغته، على نجاح الحركة الدينية التي بدأها وعلى توسيع الدولة السعودية. وكتب أبن بشر عنه أنه نشر "راية الجهاد بعد أن كانت فتناً وقتالاً(35). ويقول منجين: "كان يتحلى بأكبر قدر من فن الإقناع ويخلب الألباب بخطبه..."(36).

ويشير مؤلف "لمع الشهاب" إلى نقطة هامة أخرى وهي أن محمد بن عبد الوهاب بالذات علّم سكان الدرعية،

كمـا يزعمـون، على صـنع واسـتخدام السلاح الناري(37). وإذا كان قد اضطلع بهذا الدور الذي لا يميز الفقهاء فيمكن الافتراض بأن مكانته في تأسيس أمارة الدرعية وانتصاراتها الحربية كانت أكبر مما يشير إليه مؤرخو نجد.

كان محمد بن عبد الوهاب يتحلى بهمة حياتية فائقة. ويقول منجين أنه "كان يهوى النساء وله عشرون زوجة أنجب منهن 18 طفلاً" ولعل في ذلك شيء من المبالغة. وقد غدا خمسة من أبنائه وكثير من أحفاده فقهاء معروفين.

وترك محمد بن عبد الوهاب لورثته أرضاً فيها نخيل وأشجار فاكهة وحقول تبلغ عائداتها 50 ألف درهم ذهبي سنوياً، بالإضافة مكتبة تضم بضع مئات من الكتب. وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب صار أبنه حسين، وهو ضرير تقريباً، مفتياً للدرعية، وبعده شغل أخوه هذا المنصب.

إن أسرة الفقهاء التي صارت تسمى آل الشيخ قد احتفظت بوزنها ونفوذها ومكانتها في الدولة السعودية حتى

اليوم، ولكن أحداً من أحفاد محمد بن عبد الوهاب لم يرتفع إلى منزلة مؤسس الوهابية في إمارة الدرعية.

وفي تلك الأثناء بدأت في الأحساء من جديد انتفاضة ضد سلطة النجديين. فقد قتل سكان الهفوف ثلاثين من ممثلي الدرعية ـ الحاكم والموظفين والعلماء الوهابيين وسحلوا جثثهم في شوارع المدينة ومثلوا بها على رؤوس الأشهاد. وأيدت الهفوف عدة واحات أخرى. وكان صنيعة الوهابيين زيد بن عريعر، زعيم بني خالد، قاد خان أسياده وشاركه في الانتفاضة.

وفي خريف 1793 توجه سعود مع قوات كبيرة إلى الأحساء، ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها وقتلت دون رحمة كل ما أبدى مقاومة ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور ورعت الماشية في الحقول. وكان منافس زيد بن عريعر وخصم الوهابيين سابقاً، براّك بن عبد المحسن، قد انتقل إلى جانبهم. وأعربت الأحساء كلها عن خضوعها لهم. وعين برّاك بن عبد المحسن أميراً

للأحساء(39)، ولكنه حاول في ربيع 1796 أن يتخلص من سلطة الوهابيين الذين انشغلوا بعمليات حربية غربي وجنوب غربي نجد(40). وبعد عدة أشهر وصل سعود مع جيش قوي إلى الأحساء وقمع الحركة فيه من جديد(41).

وكتب ابن بشر في وصف إخضاع الأحساء يقول: "فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح فلما استووا (يقصد الوهابيين) على ركائبهم وساروا، ثوروا بنادقهم دفعة واحدة. فأظلمت السماء وأرجفت الأرض وتأرجح الدخان في الجو وأجهضت الكثيرات من النساء الحوامل في الأحساء. ثم نزل سعود... وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته. وأمرهم بالخروج أليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله، ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغوراً ويهدم دوراً، وضرب عليهم الوفا من الدراهم وقبضها منهم. وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة

المسلمين، وجرهم الأعداء عليهم، وأكثر فيهم سعود القتل، فكان مع ناجم بن دهينيم عدة من الرجال يتخطفون في الأسواق لأهل الفسوق ونقاض العهد... فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه إلى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود، حتى أفناهم إلا قليلاً. وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يعد ولا يحصى. فلما أراد سعود الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهلها... وظهر بهم إلى الدرعية وأسكنهم فيها واستعمل في الأحساء أميراً ناجم المذكور، وهو رجل من عامتهم"(42).

هكذا تم إخضاع شرق الجزيرة العربية للوهابيين وصارت تابعة للسعوديين الممتلكات العائدة في الجزء القاري لأسرة آل خليفة الحاكمة في البحرين(43).

وفي بداية التسعينات كانت على أشدها أيضاً العمليات الحربية غربي نجد. إمارة السعوديين والحجاز قبل عام 1802.

بعد بدء الحركة الوهابية وتوسع إمارة

السعوديين لم تنشب أي صدمات حربية بين حكام الدرعية ووجهاء الحجاز.

ولم تكن سلطة شريف مكة مساعد الذي حكمها من 1752 حتى 1770 متينة. ففي نهاية حكمه خيم على مكة خطر فقدان الاستقلال الواسع الذي كانت تتمتع به في الإمبراطورية العثمانية. وفي عام 1769 أعلن حاكم القاهرة علي بك استقلال مصر عن الباب العالي. وضم الحجاز إلى ممتلكاته بيد أن محاولة علي بك لتأسيس دولة عربية مستقلة لم تكلل بالنجاح. فتخلص الحجاز من حكم المصريين(44).

ويقول مؤرخو الجزيرة أن السعوديين ومحمد بن عبد الوهاب أقاموا مع حكام مكة علاقات ودية. وعلى أثر انتقال محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وصل إلى مكة ثلاثون فقيهاً وهابياً للحصول على موافقة بالحج وإجراء حوار مع فقهاء مكة واعتبر فقهاء مكة كما يفيد دحلان تعاليم الوهابيين زندقة فظيعة وكفراً. وأمر شريف مكة بأن تنشر في كل

مكـــان رســـائل فيهـــا أدلـــة تثبت كفـــر الوهـــابيين وبـــأن يقيـــد هـــؤلاء الكفـــرة بالسلاســـــل ويـــــزج بهم في الســـــجن. وتمكن قسـم منهم من الفـرار فحملـوا إلى الدرعية أخبار ما حدث(45).

وفي مطلع السبعينات أجـرى محمـد بن عبد الوهاب وعبـد العزيـز مراسـلات مع شريف مكـة ويتبـادلوا الهـدايا. وفي تلك السـنوات كـان الأشـراف يسـمحون أحيانـاً بـالحج للوهـابيين. وعنـدما صـار سرور حاكماً لمكة عـام 1773 بعث إليـه عبد العزيـز هـدايا ثمينـة ليعـرب لـه عن مودته(46).

ويبدو أن حكام مكـة والدرعيـة كـانوا يقيمون علاقات ودية معتدلة فيما بينهم طالما أن مصالح النجـديين والحجـازيين لم تتصـــــادم مباشـــــرة وطالمـــــا أن الحجازيين يخشون تـدخل المصـريين أو الأتـــراك في شـــؤونهم. أمـــا تعـــاليم الوهابيين فأن علمـاء الحجـاز ووجهـاءه كـانوا، على الأرجح، قـد اسـتقبلوها في العداء منذ البداية

وتمكن حـــاكم مكـــة، ســـرور، من التخفيـف من غلـواء عوائـل الأشـراف

وتعزيز مواقعه في الحجـاز(47). ولكنـه على أثـر وفـاه سـرور صـار غـالب بن مسـاعد شـريفاً لمكـة في عـام 1788، وهو فتى لا يمتلك سـلطة فعليـة فظـل لبعض الـــوقت أداة في أيـــدي عبيــــد ومملوكي الأمير السـابق اللـذين أخـذوا يضيقون على السكان المحليين فصاروا يضـمرون لهم حقـداً. وهـذا مـا سـاعد غالب في القريب العاجـل على التخلص من العاصـيين وتعزيـز منزلتـه. وكـان غـالب محاربـاً شـجاعاً وسياسـياً نافـذ البصـيرة. فاسـتطاع أن يقيم علاقـات طبيـة مـع القبائـل البدويـة المجـاورة لمكة، وقام بالغزوات معتمـداً على هـذه القبائل وعلى حرس العبيد المكـون من بضع مئـات من الأشـخاص بعـد تجديـده(48).

وفي عام 1790 ـ 1791 أعد شريف مكة حملـة على نجـد من قـوات بعشـرة آلاف محـــــارب و 20 مـــــدافعاً. إلا أن محاولاته في السيطرة على واحات نجد المحصنة قد أخفقت، فتركه حلفاؤه من بعض قبائـل البـدو. وعـاد إلى مكـة مـع النـواة الأساسـية لقواتـه. وفي صـيف

1791 ألحق سعود هزيمة ماحقة بحلفاء الشريف في منطقة جبل شمر بعد أن شاركوا في حملاته، ونعني بدو شمر ومطير. وفر البدو تاركين للوهابيين غنائم وفيرة جداً _ حوالي مائة ألف من الغنم والماعز وبضعة آلاف من الإبل(49).

وبدأت فصائل الوهابيين غزوات على المناطق الواقعة بين نجد والحجاز وعلى الواحات والقبائل الخاضعة لشريف مكة. وفي أيار (مايو) 1795 حاصر سعود تربة التي كانت مركز استراتيجي هام على مشارف الحجاز(50).

وفي صيف العام نفسه ورداً على هجوم الوهابيين قام الحجازيون بغزوة على نجد. وتشجع غالب بنجاح هذه الغزوة فجّهز في شتاء 1795 _1796 قوات كبيرة جديدة مزودة بالمدافع للقيام بحملة في أعماق الجزيرة العربية. وقد أبيدت هذه الحملة عن آخرها على يد القوات الموحدة وبعض من قبائل عتيبة على ما يبدو. ويؤكد أبن غنام أن غنائم الوهابيين بلغت 30

ألـف من الإبـل و 200 ألـف من الغنم الماعز(51).

وأرغمت الهزيمـة الماحقـة غـالب على توقيع الصلح(52). وكان واضحا أن النجـديين متفوقـون في القـوات. فقـد واصـلوا تقـدمهم نحـو الجنـوب حـتى وصلوا نجران والحدود الشـمالية لليمن(53). ويبـدو أن اتصـالاتهم مـع سـكان عسير تعود إلى تلك الفترة.

كانت قبيلة عتيبـة الجبـارة الخاضـعة في السـابق لأشـراف مكـة قـد انضـمت إلى إمارة الدرعية في 1797 ـ 1798. ووافـق البـدو على تنفيـذ كـل أحكـام الوهابية وتسديد الزكاة ودفع تعويضـات الحرب لقاء العمليات العدائية السـابقة. ويقول منجين أن البـدو دفعـوا من كـل عائلة أربعة ريالات، ومن كل فخذ كميـة معينة من السلاح والخيل والإبل(54).

وفي عـام 1798 حـاول غـالب الـذي ضـمت قواتـه مرتزقـة من الأتـراك والمصريين والمغاربـة أن يتقـدم مـراراً نحو الحرمة وبيشة، ولكنه دحر. وسيطر أمير الدرعية على بيشة. وأقدم شـريف مكـة من جديـد على الصـلح وسـمح

للوهابيين بالحج(55). وبعد عامين، كمـا يقـول أبن بشـر، أدى سـعود وعائلتـه وبعض قواتـه فريضـة الحج لِأول مـرة، وفي السـنة التاليـة قـام بـالحج للمـرة الثانيـة. وقـدم هنـاك الهـدايا بسـخاء وحصــل على أنصــار(56).وفي هــذا الوقت بالـذات أقـام عثمـان المضـافي، وهـو من أقربـاء شـريف مكـة، ارتباطـاً معه وعرض علينه خدماته(57).

وغـداً واضـحاً أن الوهـابيين يكـادون يخضعون الحجاز بالكامل.

فشل حملتي والي بغـداد على الأحسـاء. في الفترة نفسها لغزو الأحساء، وخصوصـاً بعد إخضاعها، قامت فصـائل الوهـابيين بحملات على المناطق الواقعة شـمالها. فقـد تعرضـت لهجمـاتهم قبائـل وقـرى جنوب العراق. واستعد والي بغداد الـذي دفعه الباب العالي لمحاربة الوهابيين.

كان والي بغداد آنذاك يتمتع بحظــوة خاصة عند الإمبراطورية العثمانية. فبعد الحروب التركية الفارسية المدمرة وبعد الفتن والنزاعــات الداخليــة اســتولى المماليــك على الســلطة في بغــداد. واعتبــاراً من عــام 1780 حكم بغــداد

بصورة مستقلة في الواقع سليمان باشا، وهو مملوك جورجي لوالي بغداد السابق. واضطرت الأستانة إلى الموافقة على تسنمه لهذا المنصب.

كان توسع أمارة الدرعية في هذه المنطقة يستهدف الشمال الشرقي. وفي هذا الاتجاه كانت القبائل العربية تنزح عموماً طوال القرون. فمن المعروف، مثلاً، أن قبائل شمر في القرن الثامن عشر تغلغلت في أعماق العراق بعيداً حتى أنها انتقلت إلى ما وراء دجلة(58). وأثناء القحط الفضيع في وسط الجزيرة في الستينات انتقل بقض سكان نجد إلى الزبير وشمالها(59).

وكانت قبائل البدو المترحلة في جنوب العراق قد أقامت علاقات وثقى مع مدن العراق وقراه. وكانت لحكام بغداد مصلحة في مساعدة البدو لِأجل حماية الطرق التجارية والقرى والمدن، كما كان هؤلاء الحكام يشترون من البدو ماشية الحمل والركوب. وواصل ولاة بغداد تقاليد حكام ما بين النهرين منذ آلاف السنين فراحوا يمنحون

الهدايا لشيوخ البدو، ويسلحونهم لكي يصدوا الحملات البدوية المنطلقة من مناطق وسط الجزيرة العربية. وكان استخدام قبائل المنتفق وغيرهم في محاولة لتقويض سلطة الوهابيين في الأحساء يستجيب كلياً لهذه السياسة.

وتزعم ثويني الحملة على الوهابيين. كان زعيم المنتفق السابق هذا قد طاف أمداً طويلاً عندما أجلي بعد إخفاق محاولته لترسيخ إقدامه في البصرة حتى أنه حل بعض الوقت بمثابة ضيف كريم على الدرعية. ثم استولى على السلطة في قبيلته من جديد، كما تفيد بعض الروايات. وتوجه بطلب إلى سليمان باشا ليسلحه ضد الوهابيين(60). وتقول رواية أخرى أن ثويني اقنع والي بغداد بأن يسلمه السلطة في المنتفق ووعده بالقيام بحملة على نجد ودحر الوهابيين، وعند ذاك نحي سليمان باشا حمود بن ثامر عن رئاسة القبيلة عين ثويني بدلاً منه(61).

وفي مطلع عام 1797 بدأ ثويني حملته على الوهابيين. ككان تحت

قيادته جنود القوات النظامية بالإضافة إلى فصائل من البصرة والزبير. وانضمت إلى حملته بعض أفخاذ بني خالد برئاسة براك بن عبد المحسن الذي هرب من الأحساء.

وجمع عبد العزيز كل قواته مدركاً خطورة الموقف. وأمر البدو المخلصين له بأن يحتلوا أراضي قبيلة بني خالد التي يمكن أن تنضم إلى ثويني، كما أمرهم بحماية الآبار الرئيسية، وعلى أثر ذلك أرسلت إلى الأحساء أكثر قوات الوهابيين صموداً، وهي مكونة من حضر العارض.

وبدأت في الأحساء معارك طاحنة بين قوات ثويني والوهابيين، إلا أن الحظ ابتسم لحاكم الدرعية فجأة. ففي معمعان الحملة قتل ثويني على يد عبده الأسود طعيس، وهو وهابي متعصب. وقد قطعوا عنق طعيس في الحال إلا أن مقتل ثويني قد قرر مآل النزاع، فانفصل بنو خالد بزعامة براك عن المنتفق، الأمر الذي جعل الاضطراب يستولي على قوات ثويني. وذعرت فصائل البدو والترك وأخذت تنسحب

على عجل إلى الشمال تاركة الأسلحة والذخيرة، مما أوقع معسكر ثويني كله ومدفعيته في أيدي الوهابيين في حزيران (يونيو) 1797. وطاردت الفصائل الوهابية العدو حتى وصلت مشارف الفرات الأوسط(62).

وفي العام التالي تغلغل الوهابيون في بادية الشام، كما وصلوا إلى مديني سوق الشيوخ والسماوة في العراق(63).

في أواخر التسعينات كان الباب العالي يبعث إلى بغداد بأوامر متواصلة للقضاء على الوهابيين، وعين على باشا قائداً للجيش. وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت الحملة العراقية على الأحساء. وبغية إيضاح التواريخ الفعلية يجدر بنا أن ننطلق من إفادة شاهد العيان بريجيز الذي وصل إلى بغداد بصفة مندوب سياسي بريطاني في لحظة قيام جيش علي بالحملة. تحركت قوات الجيش من بغداد نحو الفرات الأوسط بأحمال ثقيلة وأخذت تستوعب في الطريق المتطوعين من البدو. لذا لم يكن

بوسـعها أن تظهـر في الأحسـاء قبـل أواخـر عـام 1789 وأوائـل عـام 1799، وهذا يتفق مـع مـا أورده أبن بشـر وأبن سند ومنجين.

كـان الجيش الـذي بعثـه والي بغـداد يضـم المشـاة والخيالـة وكـذلك فصـائل البـدو غـير النظاميـة من قبائـل شـمر والمنتفق والظفير. وتجـاوز عـدد أفـراد تلك القوات عشرة آلاف شخص. وسـلم سـكان الهفـوف والواحـات الأخـرى وصـاروا تحت رحمـة علي. وقاتـل الوهـابيون المتمركـزون في الحصـون فصدوا ببسـالة كـل الهجمـات. ولم تفـد المهاجمين في بعض المواقع لا المدافع ولا آلات الحصـار ولا الحفـر تحت الأسـوار. وانهـارت معنونـات القـوات الهاجمـة وبـدأت تنسـحب والوهـابيون يلاحقونهـا. وجـرت مكاتبـات بين علي وسعود وتم بينهما الاتفاق على الصلح(64). وكـان السـبب في إخفـاق علي ضـعف المعنويـات عمومـاً وصـعوبات اجتياز الأماكن الخالية من ميـاه الشـرب والتي يسـيطر عليهـا الوهـابيون. ثم أن حمـاس الهجـوم عنـد الوهـابيين لم

يستنفذ بعد، وقد حول التعصب الديني والانضباط النجديين إلى مقاتلين صامدين.

وفي عام 1799 وصل إلى بغداد ممثل أمير الدرعية لأجل مصادقة الوالي على الاتفاق بين سعود وعلي. وترك لنا ح. بريجيز الذي حضر لقاء رسول الدرعية مع والي بغداد وصفاً طريفا لهذا اللقاء. فقد جرى في قصر الوالي الأعداد اللازم لترك انطباع لدى سكان البادية. فاستقبلت رسول الدرعية بطانة سليمان باشا مرتدين أفخر الألبسة وقد ارتسمت إمارات الغضب على وجوههم. وكان الرسول الوهابي في لباس متواضع، وقد أبعد مستقبليه وتوجه رأساً نحو سليمان باشا الذي كان يرتدي لباساً من حرير وفرو مزيناً بأحجار كريمة. وجلس الرسول جنب الباشا وقال له ما فحواه: يا سليمان السلام على من أتبع الهدى. بعثني عبد العزيز لأسلمك هذه الرسالة واستلم منك تصديقاً على الاتفاقية الموقعة بين أبنه سعود وخادمك علي، فليتم ذلك بسرعة وبالشكل الصحيح.

ولعنة الله على من يخون. ثم أضاف بلهجة شديدة: إذا كنت تنشد النصح فاستنصح عبد العزيز. قال ذلك ملمحاً إلى أن الوهابيين يعتبرون سليمان من المشركين. ومد يده إلى الوالي بالاتفاقية المكتوبة على قصاصة من ورق(65).

كان واضحاً أن حكام الدرعية لا يقيمون ثمناً للاتفاقية مع والي بغداد. وتوجه مبعوث خاص من سليمان باشا إلى الدرعية لأجل التفاوض مع سعود. وحاول أن يحصل على التزامات من الوهابيين بعدم مهاجمة العتبات الإسلامية في الفرات الأوسط، ولكن سعود قهقه وقال لرسول الوالي: "جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له..."(66).

ومما شجع الوهابيين الأنباء التي وردت عن دخول جيش نابليون إلى مصر في عام 1798 وعجز الباب العالي أمام الغازي الفرنسي.

في عام 1801 حل الإنجليز محل الفرنسيين في مصر. وغدت الجزيرة العربية طرفاً بعيداً عن مسرح العمليات

الحربية الرئيسي. وهذا ما أطلق أيدي الوهابيين في مواصلة توسعهم.

تدمير كربلاء. اختمرت لدى أمراء الدرعية خطة الاستيلاء على كربلاء وفيها العتبات المقدسة الشيعية التي يكرهونها، وخصوصاً ضريح الإمام الحسين حفيد النبي محمد. وحقق الوهابيون نواياهم في آذار _ نيسان (مارس _ إبريل) 1802(67).

اعتاد المستشرقون الأوروبيون والسوفييت على اعتبار نيسان 1801 تاريخا لتدمير كربلاء. وإذا تناولنا مصادر هذه المعلومات نجد أن هذا التاريخ قد ذكره ج. روسو(68)ول. كورانسيز(69) وبوركهاردت(70) وف. منجين(71).

أما المراجع التاريخية العربية، ومعها من الأوروبيين فيلبي(72)، فتنقل هذا الحادث إلى العام التالي: آذار _ نيسان 1802. والأساس المعتمد في ذلك هو مصنف أبن بشر. ويؤيد هذا التاريخ أبن سند(73) وج. رايمون(74) و "مجلة المنوعات الأدبية"(75). وجميع هذه المصادر قريبة زمنياً من الأحداث.

والقول الفصل بهذا الخصوص، وهو لصالح عام 1802، وأراد في تقرير وصل من العراق إلى سفارة روسيا في الأستانة وكتب قبل صيف عام 1803. فالشخص الذي عاش آنذاك في العراق وتحدث شخصياً مع شهود عنان عن تدمير كربلاء من المستبعد أن يخطئ لعام كامل بخصوص تاريخ هذا الحادث الهام(76). وبالمناسبة فأن مقارنة ذلك بنص التقرير الوارد من العراق عن تدمير كربلاء على يد الوهابيين والذي تصمنه كتاب ج. ورسو بعد ست سنوات تدل على تماثلهما الحرفي تقريباً. ومن الصعب القول كيف وصل تقرير القنصل الفرنسي في العراق إلى سفارة روسيا في الأستانة. أما تغير تاريخ احتلال الوهابيين لكربلاء في كتاب روسو فلعله ناتج عن تهاون المؤلف أو سهو المطبعة.

ويبدو أن روسو وكورانسيز هم المصدر الأول للمعلومات غير الصحيحة بهذا الخصوص. فهما على العموم يتناولان التواريخ بشيء من التصرف. أما بوركهاردت ومنجين المطلعان على

مؤلفاتهما فقد أوردا هذا التاريخ دون تمحيص. وقد كتب المستشرق الفرنسي أ. دريو في مقدمته لتقرير رايمون المطبوع أن كورانسيز في مقالاته المبكرة اعتبر عام 1802 أيضاً هو تاريخ تدمير كربلاء(77).

ويقول كاتب التقرير: "رأينا مؤخراً في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الإمام الحسين مثالاً مرعباً على قساوة تعصب الوهابيين. فمن المعروف أن هذه المدينة قد تجمعت فيها ثروات لا تعد ولا تحصى وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي. لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا من الفضة والذهب والأحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة... وحتى تيمور لنك صفح عن هذه الحضرة، وكان الجميع يعرفون أن نادر شاه قد نقل إلى ضريح الإمام الحسين وضريح الإمام علي قسماً كبيراً من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدم معه ثرواته الشخصية وها هي الثروات الهائلة التي تجمعت في الضريح الأول

تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمــد طويل. فقـد كـانوا دومـاً يحلمـون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجـاحهم لدرجة أن دائـنيهم حـددوا موعـد تسـديد الـديون في ذلـك اليـوم السـعيد الـذي تتحقق فيه أحلامهم.

وأخيراً، ها قـد حـل اليـوم، وهـو 20 نيســان (إبريــل) 1802. فقــد هجم 12 ألـف وهـابي فجـأة على ضـريح الإمـام الحسين. وبعد أن استولوا على الغنــائم الهائلة الـتي لم تحمـل لهم مثلهـا أكـبر الانتصــارات، تركـوا كـل مـا تبقى للنـار والســيف... وهلــك العجــزة والأطفــال والنساء جميعاً بسيوف هـؤلاء الـبرابرة. وكـانت قسـاوتهم لا تشــبع ولا ترتــوي فلم يتوقفــوا عن القتــل حــتى ســالت الـدماء أنهـاراً... وبنتيجـة هـده الكارثـة الدمويـــة هلـــك أكـــثر من أربعـــة آلاف شخص... ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من أربعة آلاف جمل(78).

وبعـد النهب والقتـل دمـروا ضـريح الإمـام وحولـوه إلى كومـة من الأقـذار والـــدماء وحطمـــوا المنـــائر والقبـــاب خصوصــاً لأنهم يعتقــدون بــأن الطــابق

الـذي بـنيت منـه مصـبوب من الـذهب"(79).

وبهذه الصبغة نفسها تقريبـاً، يصـف منجين تـدمير كـربلاء ولكنـه يقـول أن الوهـــابيين أقـــدموا على مجـــزرة في المدينـــة، غـــير أنهم رأفـــوا بالنســـاء والأطفـال والشـيوخ والعجـزة. ودمـروا قبة ضريح الحسـين. وحصـل الوهـابيون على أغـــنى الغنـــائم، ومنهـــا مرصـــعة بالأحجـار الكريمـة، ولؤلـؤة هائلـة بحجم بيضة الحمام وقد استأثر سعود شخصـياً بالســيوف واللؤلــؤة. واســتولوا كــذلك على مزهريـات وفـوانيس من المعـادن النفســـية وحلى ذهبيـــة ملبســـة على الجــدران وســجاجيد فارســية ونحــاس ملبّس بالـــذهب من الســـطوح. ووقعت في أيـدي الوهـابيين كـذلك احتياطيـات فوطـــات كشـــمير والأقمشـــة الهنديـــة وألفــان من الســيوف العاديــة وألفــان وخمسمائة بندقيـة وعبيـد سـود ومبـالغ طائلـــة من النقـــود المعدنيـــة. واســـتمر النهب ثماني ساعات. وعند الظهر غادر الوهابيون كربلاء(80).

وكتب المؤرخ الوهابي أبن بشــر عن هــذا الحــادث يقــول: "ســار ســعود بــالجيوش المنصــورة والخيــل العتــاق المشهورة من جميع حاضر نجـد وباديهـا والجنـوب والحجـاز وتهامـة وغـير ذلـك وقصــد أرض كــربلاء... فحشــد عليهــا المســلمون وتسـوروا جـدرانها ودخلـوا عنوة وقتلوا غـالب أهلهـا في الأسـواق والــبيوت. وهــدموا القبــة الموضــوعة (بــزعم من أعتقــد فيهــا) على قــبر الحســين. وأخــذوا مــا في القبــة ومــا حولها كما أخذوا النصيبة التي وضـعوها على القــبر وكــانت مرصــوفة بــالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا أيضاً جميـع مـا وجـدوا في البلـد من أنـواع الأمـوال والســلاح واللبــاس والفــرش والــذهب والفضة والمصاحف الثمينـة وغـير ذلـك مما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميـع تلـك الأمـوال وقتـل من أهلهـا قـريب ألفي رجل"(81).

ولم يواجــه الوهــابيون أي مقاومــة تقريبـاً. ويعـزى ذلـك إلى أن قسـماً من السـكان توجهـوا للزيـارة إلى النجـف.

ومن المحتمل أيضاً أن حاكم كربلاء، وهو سني متعصب، لم يتخذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن هذه المدينة(82).

كان تدمير كربلاء أفدح هزيمة لسليمان باشا العجوز. وكان السلطان يتحين الفرصة من زمان لتنحية هذا الوالي المستقل الذي كان له داخل العراق أيضاً، خصوم يتحلون بقدر كاف من الفتوة والنشاط. ومما زاد في تدهور وضع الوالي أن الشاه الفارسي فتح علي كان يلومه دوماً متهماً إياه بالعجز عن تأمين حراسة العتبات الشيعية، ويهدده بإرسال قوات فارسية إلى كربلاء(83). وبالفعل، فبعد بضع سنوات من تدمير كربلاء بدأت فارس تحارب ولاية بغداد. إلا أن المسؤولين في بغداد كانوا يعتقدون بعدم إمكان إلحاق الهزيمة بالوهابيين في أعماق الجزيرة العربية. لذا وجهوا جل اهتمامهم لتعزيز المدن وترميم كربلاء وضريح الحسين.

استيلاء الوهابيين على مكة مؤقتاً ورد فعل الباب العالي. **بعد تدمير كربلاء غدا الحجاز مسرحاً رئيسياً للعمليات الحربية. وحتى**

ذلك الحين أدى سعود فريضة الحج مع قواته وعائلته مرتين ليستعرض قوته العسكرية ويتأكد من الموقف في الحجاز محلياً. وانضمت قبائل عسير إلى الوهابيين(84).

كانت أحوال غالب في تلك الأثناء معقدة. وأثار ابتزازه وإدارته المتعسفة استياء في مكة والمدن الأخرى. وكانت الرسوم المتزايدة دوماً في جدة قد حرمته من تعاطف التجار. ورجحت كفة النجديين، وصار الأشراف يطلبون السلاح من الأستانة. إلا أن الباب العالي كانت لديه آنذاك هموم أكثر خطورة من تهديد الوهابيين لمكة. وفي أواخر عام 1798 وصل إلى مكة فرمان من السلطان تضمَّن طلباً بتعزيز تحصينات المدن في الحجاز خوفاً من احتمال هجوم القوات الفرنسية. وجرى ترميم أسوار جدة وأخذ السكان يمارسون الاستعدادات الحربية(85).

في عام 1798، قصفت العمارة البريطانية بقيادة الأميرال بلانكيت مدينة السويس المحتلة من قبل الفرنسيين. وفي طريق العودة ألقت

العمـــارة مراســيها في جــدة. وطـــالب الإنجليز بوقف تجارة الحجـاز مـع مصـر، فوافـــق الشـــريف على هـــذا الطلب شفوياً، ولكن التجارة اسـتمرت، بـل أن غـالب أقـام اتصـالات مـع الفرنسـيين، ولكن لم يحـل دون إرسـال فصـيلة من متطـوعي الجزيـرة الـذين حـاربوا ضـد الفرنسيين في صعيد مصــر(86). وعلى الـرغم من الجهـود الـتي بـذلها غـالب لزيادة حرسـه وفصـائل المرتزقـة فـإن قواته العسكرية تقلصت بسبب انفصـال بعض قبائل بدو الحجاز(87). إلا أن أكبر خسارة مؤلمة بالنسبة له كـانت انتقـال قريبـــه ومســـاعده المقـــرب عثمـــان الضايفي إلى صف الوهـابيين، وقـد بـدأ هذا الأخير بجمع البـدو الـذين كـانوا في السابق من أنصار غالب(88).

بـدأ المضـايفي بهجـوم نشـيط على الحجاز. وفي عام 1802، استولى بدون قتال تقريباً على مدينة وواحـة الطـائف ونهبهمـا بلا رحمـة. وقتـل الوهـابيون حـوالي 200 من السـكان ودمـروا عـدداً من المنـــازل. وكـــان البـــدو يـــداهمون

المدينة يومياً وينهبون كل ثمين، كما أتلفوا آلاف الكتب(89).

وكان تدمير كربلاء ما يزال عالقاً بالذاكرة في الأستانة، فصار المسؤولون هناك يخشون كثيراً على مصير مكة وحاولوا اتخاذ بعض الإجراءات لمقاومة الوهابيين. وفي أواخر آذار (مارس) 1803 كتب أ.ايتالينسكي، سفير روسيا في الأستانة، إلى بطرس بورغ يقول: "في ظروف الوضع الراهن يعتقد الباب العالي أن الخطر عليه نابع فقط من نوايا فرنسا ومن حركات التمرد لعدة قبائل عربية تسمى الوهابية وعدد العسكريين لديها زهاء 60 ألف شخص. وهم يتوقون إلى الاستيلاء على ثروات الحرمين في مكة والمدينة وينوون معارضة المحمدية بمذهب التوحيد، وبغية جعلهم يحترمون القرآن أرسل إليهم من هنا عالم فقيه متبحر في هذا الكتاب، بينما تتخذ إجراءات أخرى، فقد عينت قوات يراد لها أن تهاجمهم من جهة الخط البادئ من البصرة إلى

العريش في حين سيهاجمهم الشريف من جهة الحجاز"(90).

إلى أن محاولات الحيلولة دون سقوط مكة قد أخفقت.

ففي أواخر آذار (مارس) 1803، توجه سعود مع قوات الوهابيين الرئيسية إلى الحجاز. وفي تلك الأثناء كان في مكة حجاج مسلحون من الشام ومصر والمغرب ومسقط وبلدان أخرى. ولكنهم رفضوا المشاركة في العمليات الحربية ضد الوهابيين. أما الشريف الذي ظل مع قلة قليلة من المحاربين المخلصين له فقد فر إلى جدة وأخذ يعزز تحصيناتها على عجل. وبعث سعود إلى أهالي مكة رسالة عرض فيها آراء الوهابيين ووعد بالرأفة بمن ينصاع لهم.

وفي نيسان (إبريل) 1803، دخل الوهابيون بانتظام إلى مكة(91). وبعد أداء مراسيم الحج أخذوا يدورون كل الأضرحة والمزارات ذات القباب والتي أنشئت تكريماً لِأبطال فجر الإسلام. ومسحو عن وجه الأرض كل المباني التي لا تناسب معتقداتهم. وألزموا

أهالي مكة بأداء الصلاة من دون ألبسة حريرية، كما ألزموهم بعدم التدخين بحضور الآخرين. وأحرقت أكوام الغلايين في الساحات، وحرم بيع التبغ. وألغيت الصلاة في المساجد تكريماً للسلطان العثماني. وعين الوهابيون عبد المعين، شقيق غالب، حاكماً لمكة. وبدلاً من القاضي التركي عين فقيه من الدرعية قاضياً لمكة. وخلافاً لسابقه التركي ترك هذا القاضي انطباعاً وكأنه يحكم بالعدل(92).

أثار نبأ احتلال مكة الذعر والهلع والاكتئاب في الأستانة. وسدد فقدان مكة أقسى ضربة إلى سمعة الخليفة العثماني ومكانته بوصفه حامي الحرمين والمدن المقدسة. فقد كان السلطان _ الخليفة يسمي نفسه رسمياً على النحو التالي: "نحن خادم وحامي الحرمين في مكة والمدينة أنبل المدن وأقدس العتبات واللذين تتيمم جميع الأمم شطرهما أثناء الصلاة، وكذلك مدينة القدس الطاهرة. أنا الخليفة الأعلى والملك السعيد لممالك وأقاليم ومدن لا تعد ولا تحصى تثير

حسـد ملـوك العـالم وتقـع في آسـيا وأوروبا وعلى البحرين الأبيض والأسـود وفي الحجـاز والعـراق..."(93) وغيرهـا وهكذا دواليك.

وجـاء في "مـذكرة أنبـاء الأسـتانة وأخبارها" التي أعدتها سفارة روسيا ما يلي: "أن الخلافـات الـتي تنهش أحشـاء الإمبراطوريـة التركيـة ونهب الوهـابيين لمكة والإتاوات المتزايدة بلا انقطاع كل ذلك أثار عند رعاع هذه العاصمة اسـتياءً شاملاً من الحكومة"(94).

كـان ينبغي القيـام بشـيء إلى أن الأسـتانة عجـزت عن إرسـال قواتهـا لمحاربـة الوهـابيين، فطلبت المسـاعدة من عكا وبغداد.

ويقـول ايتالينسـكي: "القـرار الـذي اتخـذه الـديوان الـوزاري الحـاكم لاستخدام (والي عكا أحمد) باشا الجزار ضد الوهابيين حظي بدعم هام... لسـبب غير متوقع. فقـد اسـتلم البـاب العـالي رسـائل مسـتعجلة من الجـزار تتضـمن أنباء غزوات عبد الوهـاب وتقـول بعـدم وجود عوائق تحـول دون تقدمـه اللاحـق وتشـير إلى نيتـه في احتلال الشـام...

وأخيراً يعرب الجزار عن استعداده للنهوض في وجه هذا العدو الخطر على الدين والعرش ويعد بالقضاء عليه وتشتيت قواته في غضون ستة أشهر وإعادة الممتلكات التي نهبها إلى الباب العالي"(995).

وكتب والي بغداد إلى الباب العالي يقول إيه متوجه في حملة للبحث عنهم في عقر دارهم وأنه ينوي أبادتهم ولديه من أجل ذلك خيالة بخمسة آلاف فارس ومشاة بـ 10 آلاف رجل و 60 ألف جمل، ويأمل بأن تتم هذه الحملة في غضون ستة أشهر. وطلب من الباب العالي مدفعية وباروداً وخياماً.

وعندما استلم الباب العالي هذه المعلومات من حاكمي الشام والعراق "أخذ يعلل نفسه بالآمال بالتخلص من الخوف نهائياً في القريب العاجل". إلا أن سفير روسيا يشك في قدرة بغداد على تسديد الضربة ويلاحظ بحق "إن الجزار يفكر بالاستيلاء على دمشق الشام أكثر مما يفكر بالحملة على الوهابيين"(96).

ومـع ذلـك تمكن البـاب العـالي من إرسال فصيلة تركية غـير كبـيرة بقيـادة شـريف باشـا إلى الحجـاز. ولم يتمكن أمـير الدرعيـة هـذه المـرة من تثـبيت أقدامه في الحجاز لأن عدد قواته تقلص كثـيراً بسـبب الأمـراض(97). وكتب روسـتي يقـول: "إن الأمـراض الـتي تفشـت في جيش عبـد الوهـاب أرغمتـه على رفـع الحصـار عن جـدة. والتقت قوات شريف باشا بقوات شريف (مكة) فتمكنت من دخولها"(98).

وظلت، لبعض الوقت، قلعة المدينـة، التي رابط فيهـا فصـيل من الوهـابيين، تبدي مقاومة إلى أن سقطت في تمـوز (يوليو) 1803.

وكتب ايتالينسـكي في 25 آب ـ 3 أيلول (أغسطس ـ سـبتمبر) "إن البـاب العـالي اسـتلم من المدينـة المنـورة تقـارير من شـريف باشـا والي جـدة وصلت بعد 50 يومـاً. وهي تؤكـد الأنبـاء التي وصلت سابقاً عن الانتصار الذي تم على الوهابيين قرب جدة والمدينة وعن انسحابهم إلى عاصمتهم الدرعية"(99).

وكان مقتل أمير الدرعية عبد العزيز ضربة جديدة للوهابيين. ففي خريف عام 1803، قتل في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردي من إحدى قرى الموصل. كان هذا الدرويش قد حل ضيفاً على البلاط. وعندما سجد عبد العزيز أثناء الصلاة في الصف الأمامي من المسلمين هجم هذا الدرويش الذي كان في الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنة خنجر، ثم جرح أخاه عبد الله. وعم المسجد هرج ومرج وتمكن الجريح عبد الله من ضرب الدرويش بالسيف، وأجهز عليه الآخرون في الحال(100).

وتفيد بعض المعلومات أن قاتل عبد العزيز شيعي كان قد هلك كل أفراد عائلته أثناء غزو كربلاء(101). وكتب منجين أن عمامته احتوت على مكتوب بالفارسية: "ربك ودينك يوجبان عليك قتل عبد العزيز. إذا تمكنت من الفرار ستحظى بمكافأة سخية وإذا مت فأبواب الجنة مفتوحة أمامك"(102). إن هذا يشبه لدرجة كبيرة تكتيك

الإسماعيلية في القرون الوسطى والروايات المرتبطة بنشاطهم. وكان أبن بشر يشك في أن مقتل الإمام عبد العزيز كان ثأراً لكربلاء، وذلك لأن القاتل كردي والأكراد سنة كما هو معروف(103). يؤكد مؤلف "لمع الشهاب" إن والي بغداد بعث عميلاً إلى الدرعية ودفع بسخاء لعائلته فيما بعد(104). ومع ذلك يضل جواب السؤال عن هوية قاتل عبد العزيز ودوافع سلوكه في طي الافتراضات. فقد كان لدى الوهابيين عدد كبير من الأعداء الحاقدين عليهم.

أسرع سعود إلى الدرعية بعد مقتل أبيه، فبايعه سكانها في الحال، واعترفت كل المناطق بالأمير الجديد. وبعث سعود إلى حكام المناطق رسائل عاهدهم فيها على أن يلتزم بالعدل، ولكنه سينتقم بلا رحمة من العصاة والمتآمرين.

السيطرة على الحجاز. في العام التالي، أخذ الوهابيين من جديد يضيقون على خصومهم في الحجاز واستمرت طوال

العام المعارك التي شارك فيها الأتراك إلى جانب قوات الشريف.

وفي عام 1805، هاجمت قوات غالب، وعددها 10 آلاف شخص، اتحاد القبائل الموالية للوهابيين وعلى رأسها الأمير عبد الوهاب أبو نقطة وهو من شيوخ عسير، ومُني الشريف غالب بهزيمة فقد فيها بضع مئات من القتلى، وأغلبهم من الأتراك(105). ويبدو أن حلفاء غالب البدو قد تركوه، بينما دحرت نهائياً الفصيلة التركية في قواته. وعلى أثر ذلك، طوق الوهابيون مكة وأعاقوا الحج(106) وتأجج العداء من جديد بين الأتراك والشريف غالب آنذاك، فرفض الأتراك مساعدته.

وفي شتاء 1805 ـ 1806، عزم سعود على تسديد ضربة قاضية إلى غالب. وحاصر مكة بدو بزعامة عبد الوهاب أبي نقطة وعثمان المضايفي وسالم بن شكبان (أمير بيشة). وفي تلك الفترة (من 1804 حتى 1809) كانت الجزيرة العربية تعاني من قحط شديد. وبفضل طرق القوافل الآمنة كانت الأغذية تصل إلى نجد بانتظام،

الأمر الذي خفف من أعباء أهاليه. إلا أن الوضع لم يعد يطاق في مكة المحاصرة. وصـار النـاس يـأكلون الكلاب والجلـود. ولم تنجح محاولـة الانتقـام من أنصـار الصلح فطلب غالب ذلك الصـلح. ودخلت القوات الوهابية مكة(107).

وسرعان ما اقتنع غالب بعدم جـدوى مقاومته للوهابيين، فأعلن الخضوع لهم في عـام 1806. وفي العـام نفسـه وصـلت إلى مكـة جماعـة من العلمـاء الوهـابيين وعلى رأسـهم الفقيـه حميـد بن ناصر للتبشير بأفكار تجديد الإسلام(108). وكان نجاح الوهـابيين في بسـط سلطتهم شمالي مكة من الأسباب التي دفعت غالب للكف عن المقاومة.

فمنـذ عـام 1803 تبـنى عـدد من مشـايخ القبائـل حـرب المـذهب الجديـد ووصل دعاة الوهابيـة إليهم. ولم تتكلـل بالنجاح محاولة احتلال المدينـة المنـورة رأساً في عام 1803. إلا إنها استسلمت عام 1805(109).

وفي الوقت نفسه، احتل الوهـابيون ينبع الواقعة تحت سيطرة شريف مكة.

وجرى ضم الحجاز إلى دولة السعوديين. صحيح أن تبعيته للوهابيين كانت أقل من تبعية بعض مناطق نجد أو الأحساء، مثلاً. واحتفظ شريف مكة باستقلال كبير، فلم يدفع الضرائب لا هو ولا رعيته. إلا أن عائداته من الرسوم الجمركية في جدة تقلصت كثيراً، لِأنه لم يعد باستطاعته أن يجبي تلك الرسوم من التجار الوهابيين. وتقلصت عائداته الأخرى أيضاً.

يقول بوركهاردت: "ظلت بيد الشريف سلطة كبيرة مع أن الحجاز قد احتل. فأن أسمه ومنصبه الرفيع وتأثيره الشخصي على الكثير من القبائل البدوية التي كانت ما تزال تقاوم سعود، وكذلك الهدايا الثمينة التي يقدمها لسعود عندما يزور هذا الأخير مكة، كل ذلك جعل زعيم الوهابيين يتساهل بخصوص بعض تصرفات غالب" (110). كانت سلطة سعود في مكة متوازية مع نفوذ غالب، أما جدة فقد ظلت بالأساس تحت سيطرة غالب. ولتحقيق المزيد من

التوازن عين المضايفي حاكماً للطائف وخضعت له بعض قبائل الأطراف.

توقف الحج من الإمبراطورية العثمانية.

اعتباراً من عام 1807 أخذ سعود يؤدي فريضة الحج سنوياً على رأس قواته. وكان عادة يعين موضعاً قرب المدينة المنورة لتجمع الوهابيين ثم يتحرك نحو الجنوب. وفي الطريق تنضم إليه فصائل من عسير والطائف وبدو من مناطق الحدود بين الحجاز ونجد وعسير ومحاربون من مختلف نجد وجبل شمر بزعامة أمرائهم. وكان سعود كل مرة يوزع الصدقات في مكة ويتبادل الهدايا مع غالب ويحمل كسوة ثمينة للكعبة(111). وقد شهد أبن بشر حج سعود ذات مرة وترك وصفا تفصيليا له(112).

لقد أجلى سعود من الحجاز القضاة والموظفين العثمانيين الذين كانوا في مكة والمدينة. وكان يعزز دوماً تحصينات المدينة المنورة ويحتفظ بحامية قوية فيها يستبدلها كل عام.

واعتباراً من عام 1803، أخذ الوهابيون يعيقون بمختلف الوسائل قوافل الحجاج من أرجاء الإمبراطورية

العثمانية، ومنها الشام ومصر. كانت قوافل الحجاج التي تتوارد على الحجاز سنوياً تحضر معها المحمل وهو عبارة عن هودج مزين بفخامة على ظهر جمل يحظى بالتقدير. وفي المحمل كسوة الكعبة أو نسخ من القرآن أو نفائس الأحجار الكريمة. ويسير مع الحجاج موسيقيون يعزفون على الطنبور والطبول وغيرها. وكان بعض الحجاج يحضرون معهم مشروبات وترافقهم محظيات. ولا بد أن يثير ذلك تذمر الوهابيين لأنه يتعارض مع أصول الدين ومبادئهم الأخلاقية.

وطالب الوهابيون بأن تصل قوافل الحجاج إلى الحجاز بدون محمل وبدون آلات موسيقية. وأخذوا في الوقت نفسه يزيدون ضريبة الحج. وفي عام 1803 دفع كل حاج شامي إلى دفع 10 بيزات عن الشخص الواحد و10 بيزات عن كل من دواب الركوب و7 بيزات عن كل قنطار من الأحمال و100 كيسة عن مرور القافلة كلها(113). وفي عام 1805، أخذوا من القافلة الشامية 200 كيسة ولكنهم سمحوا بالدخول لحجاج

منفـردين(114). ويقـول كورانسـيز أن الأتراك حاولوا في عام 1806 شراء حق أداء فريضـة الحج بمبلـغ هائـل هـو ألفـا كيسة (مليون بيزة) ولكن قافلـة الشـام لم تتمكن من دخول مكة مع ذلك(115).

وبغية تـأمين السـماح بـالحج تظـاهر والي دمشق يوسف باشا بأنه يلتزم بكل فرائض الوهابية. فقد منـع الخمـر وأمـر بغلـق جميـع الأسـواق في دمشـق أثنـاء الصلاة وفرض تقيِّدات مشينة على أهل الكتاب (زياً خاصاً وهلم جرا)، ومنع حلق اللحيـــة أيضـــا، وكتب بـــازيلي "أن الوهـابيين طـالبوا، وليس دون سـبب، بعـدم احتـواء القافلـة على غلمـان أو حليقي اللحى عموماً"(116). وفي عـام 1807 ـ 1808، حاولت قافلة الشام أن تـدخل مكـة بـدون محمـل ولا سـلاح ولا موســـيقى ولكن دون جـــدوى(117). وتوقف في الواقع توارد وجبـات كبـيرة من الحجاج من الباب العالي.

بريطانيـــا والصـــراع من أجـــل عمـــان. **لم يقتصر تقـدم الوهـابيين على العمليـات الحربيـة في الحجـاز وشـمال شـرقي الجزيرة العربيـة في بدايـة العقـد الأول**

من القرن التاسع عشر. فقد تمكنوا من فرض سيطرتهم تدريجياً على كل الساحل العربي للخليج بما فيه البحرين وتغلغوا في أعماق عمان أكثر فأكثر.

كان سكان عمان مكونين من مجموعتين من القبائل: الإباضية الهناوية وسنة الغفري. وكان الصراع بين هاتين المجموعتين قد حدد تاريخ عمان طوال القرون. وهو الذي سهل تغلغل الوهابيين إلى هذه البقاع. ونشير، دون أن ندخل في التفاصيل، إلى أن سلطان، أحد أبناء أحمد بن سعيد، زعيم وإمام الإباضية الذي طرد الفرس من عمان في عام 1744، صار حاكماً لمسقط في عام 1792. ولكن سلطان لم يعتبر زعيماً روحياُ (إماماً)، ما أدى ذلك إلى أضعاف سلطته.وعلى الساحل العماني من الخليج، وهو ساحل تخترقه الروافد والخلجان والمرافئ الملائمة، كانت تعيش قبائل أخرى تمارس التجارة البحرية والقرصنة وصيد اللؤلؤ والأسماك. كانوا من أهل السنة وكانوا منعزلين عن الهناوية وعن الغفري(118). وفي عام 1801 شن

سلطان بن أحمد حملة على البحرين. وطلب سكان البحرين النجدة من الدرعية. وطرد الوهابيون المسقطيين وألحقوا بهم خسائر فادحة، ولكنهم جعلوا البحرين تابعة لدولة السعوديين(119).

وقبل ذلك بقليل بعث عبد العزيز إلى عمان نسخة من مؤلف لمحمد بن عبد الوهاب، وطالب بتبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة الدرعية. وفهم العمانيون، وأغلبهم من الإباضية، مضمون الكتاب بشكل فريد. فقد كتب المؤرخ العماني أبن رزيق ما معناه أن هذا الكتاب يحلل قتل جميع المسلمين غير المتفقين مع محمد بن عبد الوهاب والاستيلاء على أملاكهم واستعباد أبنائهم واستحلال نسائهم دون موافقة أزواجهن(120). ورفض الإباضية مطالب الوهابيين(121)، إلا أن الغفري تحالفوا مع إمام الدرعية.

وورد في "لمع الشهاب" إن الوهابيين في العقد الأخير من القرن الثامن عشر بدأوا بالحملات على عمان بقيادة مطلق المطيري وإبراهيم بي

عفيصــــان وحولــــوا مجموعــــة واحــــات الــــبريمي إلى قاعــــدة لهم(122). وقــــد كانت الــبريمي ملتقى لطــرق القوافــل المؤديــــة إلى شــــواطئ الخليج العــــربي وخليج عمان والجبل الأخضر.

وفي عـام 188 ـ 1801 قـام جيش الوهــابيين بحملــة موفقــة على عمــان قادها سـلام الحـرق أحـد مملـوكي عبـد العزيز. وأقسم صقر حـاكم مدينـة رأس الخيمة، التي هي مرفأ هام من الناحيــة الإستراتيجية ومركـز لقبيلـة القواسـم، يمين الــولاء للوهــابيين(123). ووقعت تحت سـيطرتهم المشـيخات والإمـارات الصــغيرة الأخــرى على شــاطئ الخليج العربي.

وغــدا حــاكم مســقط ســلطان في تبعية للدرعية. حاول أن ينظم المقاومة ضـــد الوهــــابيين فصـــمم على تقويـــة الاتصـالات مـع والي بغـداد الـذي كـان مبعوثـــــوه يحرضـــــونه من زمتن على محاربــة العــدو المشــترك. وفي أواخــر عـام 1804 توجـه شخصـياً مـع أسـطول إلى البصــرة. وفي طريــق العــودة إلى

مسقط نشبت معركة مع أسـطول رأس الخيمة قتل فيها سلطان(124).

وعـاد إلى مسـقط قريبـه بـدر الـذي كان منفياً إلى الدرعية مؤملاً بـأن يركـز أقدامـه بمسـاعدة حماتـه الوهـابيين. وبقي على دسـت الحكم عـدة سـنوات وحـاول غـرس المـذهب الوهـابي ولكن دون نجاح كبير(125). لكن أبناء سلطان بن أحمد ثـاروا في عـام 1807 وأزاحـوا بدر، وفي البدايـة الـتزم حـاكم مسـقط الجديـد سـالم ومن بعـده أخـوه سـعيد بالخضـوع للسـعوديين، ولكنهمـا رفضـا فيما بعد دفع الإتاوات وآخـذو يسـتعدان للعمليـات الحربيـة(126). وطلب سـعيد النجدة من الشاه الفارسي فأرسل أليـه هذا بضعة آلاف من الجنـود(127). وفي 1808 ـ 1809 بـدأ المسـقطيون مـع حلفـائهم صـحار العمليـات الحربيـة ضـد رأس الخيمـــة ولكنهم أعلنـــوا عن خضوعهم للسعوديين بعد أن فقدوا عدة آلاف من الأشخاص(128).

وغدا سكان الساحل العمـاني للخليج العربي، وخصوصاً قبيلة القواسم الذين توحدوا تحت سـلطة السـعوديين وكفـوا

عن الحزازت الداخليـة، قـوة كبـيرة راح أسـطولها المكـون من بضـع مئـات من السفن الكبيرة والصغيرة يجـوب الخليج سيداً فيه. وفرضوا الرسـوم والضـرائب ونهبوا السفن التجارية العائـدة لشـركة الهند الشـرقية والـتي تمخـر البحـر بين بومباي والبصرة(129).

ونعيـــد إلى الأذهـــان أن المـــؤرخين الغربـــيين يركـــزون على "الطـــابع القرصـــني" المزعـوم لسـكان سـاحل الخليج العربي. إلا أن الحقيقة هي أنهم كـــانوا يعيشـــون بالدرجـــة الأولى على الملاحـــة البحريـــة التجاريـــة (دون أن يســـتنكفوا عن القرصـــنة إذا ســـنحت الفرصـــة) وكـــانوا يعتـــبرون الســـفن البريطانية منافسـة فتاكـة لهم. وينبغي على الأغلب اعتبـــار "قرصـــنتهم" ضـــد السفن البريطانيـة حربـاً ضـد القـادمين غير المرغوب فيهم.

وقـد اصـطدم توسـع أمـارة الدرعيـة في عمـان وسـاحل الخليج العـربي مـع المصالح البريطانية الاستعمارية.

في أواخـــر القـــرن الثـــامن عشـــر، ترسـخت سـيطرة بريطانيـا نهائيـاً على

الهند، حيث تمكنت بعد صراع دام قرنين تقريباً من التفوق على سائر منافسيها الأوروبيين. وكان الإنجليز قد سعوا إلى الإبقاء على الخليج العربي مفتوحاً أمام تجارتهم وخالياً من نفوذ أي دولة يمكن أن تهدد الهند. وظلت فرنسا أخطر دولة عليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لذا اعتبر الإنجليز المتمركزون في الهند حملة نابليون على مصر عام 1798 مظهر للخطر القديم. ولم يغير انهزام الفرنسيين في مصر فيما بعد خططهم (المشكوك في إمكان تحقيقها) الرامية إلى التقدم نحو الهند عن طريق الشام والعراق والخليج العربي مثلاً.

وعلى تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صار الوكلاء التجاريون البريطانيون في البلدان المرتبطة بالخليج العربي يتحولون الواحد تلو الآخر إلى ممثلين سياسيين. وفي عام 1798، وقعت بريطانيا معاهدة مع حاكم مسقط موجهة ضد الفرنسيين، ولكنها أرسلت بداية تبعية مسقط لبريطانيا.

وبعد عـامين وصـل ممثـل بريطانيـا إلى المدينة.

وحـاولت بريطانيـا أن تقيم علاقـات ودية مع حكومة السعوديين الـتي كـانت تتقوى آنذاك. فكانت وكالة شركة الهنـد الشرقية، التي كـانت موجـودة بالبصـرة في أواخـر القـرن الثـامن عشـر، تبعث الهـدايا دومـاً إلى سـعود(130). وكـانت للإنجلـــيز مصـــلحة في دعم تجـــارتهم المنتعشة بين بومباي والبصـرة، وكـذلك في سـلامة الطريـق البريـدي من الهنـد إلى الشام عبر البصرة. وحـاولوا إقنـاع الوهابيين بعدم المساس بسـعاة البريـد من البصرة إلى حلب(131).

بيد أن الإنجلـيز لم يكونـوا يتورعـون كذلك عن اسـتخدام القـوات العسـكرية. فأن الفصيل الوهابي الـذي اقـترب في عـــام 1798 ـــ 1799 من الوكالـــة البريطانية المتواجدة آنذاك في أراضـي الكويت الحاليـة قـد تراجـع أمـام مـدافع سـفينة حربيـة بريطانيـة(132). وبغيـة تسوية الـنزاع على نحـو مـا، وصـل إلى الدرعيـــة رينـــو، ممثـــل شـــركة الهنـــد الشرقية(133). وكان يريد الحصول من

الوهابيين على ضمانات للمصالح البريطانية في الخليج العربي، ولكنه لم يبلغ مقصده. وحاول الإنجليز في عام 1805 أن يفرضوا الحماية على الكويت إلا أن أميرها عبد الله الصباح فضل أن يبقى مستقلاً(134).

وفي العقد الأول من القرن التاسع عشر، شنت السفن الحربية البريطانية عمليات حربية مباشرة ضد أسطول عرب عمان، وفي عام 1805، شنت أول حملة على القواسم(135). وغدا المسقطيون حلفاء طبيعيين للإنجليز.

وفي عام 1809، زحف سعيد بن سلطان بقواته وأسطوله الذي قاده ضابط إنجليزي على رأس الخيمة وتوجهت أليها عمارة حربية بريطانية. وقام الإنجليز بإنزال قواتهم بعد أن دحروا أسطول العمانيين الضعيف التسليح. وأزالوا المدينة عن سطح الأرض ودمروا كل المستودعات وأحواض بناء السفن وقتلوا السكان المحليين(136). وكانت هزيمة حلفاء السعوديين وأتباعهم ضربة شديدة للدرعية.

وأخذ حاكما البحرين والزبارة من آل خليفة يبديان تذمرهما من سلطة الوهابيين فاقتيدا إلى الدرعية رهينتين. وهرب أبناؤهما إلى مسقط وطلبوا النجدة من الإنجليز. ودمرت السفن الحربية البريطانية حامية الوهابيين في الزبارة ثم في المنامة. واخفقت محاولات الدرعية لاستعادة سلطتها في البحرين مع أن البحرانيين ظلوا يدفعون جزية ما إلى السعوديين(137).

وبعد جلاء الإنجليز من رأس الخيمة عمرها سكانها من جديد. وعلى الرغم من تدمير رأس الخيمة مجدداً في عام 1816،فقد تمكن القواسم في العام التالي من جمع قوات بحرية كبيرة نسبياً وظهروا على بعد 70 ميلاً عن بومباي(138). ولكن تلك الأحداث جرت فيما بعد.

في مطلع القرن التاسع عشر، سعى الإنجليز إلى فرض سيطرتهم على البحر في هذه المنطقة. ولم تكن سياستهم آنذاك تنص على تدخل نشيط في الأحداث بالجزيرة العربية. فلم تكن قوى الإنجليز كافية لهذا الغرض، ثم أن

المكافـأة الـبي يتوقعونهـا في صـحارى الجزيرة ضئيلة للغايـة. وكـان خصـومهم الفرنسيون قد أبعدوا عموماً عن مسرح الجزيـرة مـع أن نـابليون، كمـا يعتقـد المؤرخ التركي المعروف أ.جـودت، كـان بوسعه أن يقيم اتصالاً مـع السـعوديين(139). إلا أن فرنسا كـانت مشـغولة في مسارح العمليات الحربيـة الأوروبيـة، ثم أن الفرنسـيين فقـدوا في عـام 1810 جزيـرة موريشـيس القاعـدة الرئيسـية لأسطولهم في المحيط الهندي.

وقد بلغ نفـوذ الوهـابيين في عمـان أوجـــه في عهـــد القائـــد العســـكري السـعودي مطلـق المطـيري في بدايـة العقد الثـاني من القـرن التاسـع عشـر. وعلى الرغم من الدم البريطـاني، فقـد اضطر حاكم مسقط سـعيد بن سـلطان إلى دفـــع أربعين ألـــف ريـــال لأمـــير الدرعيـــة(140). ويبـــدو أن الوهـــابيين توغلـــوا في تلـــك الفـــترة نفســـها إلى الجنـوب الغـربي، إلى مـا وراء مسـقط، واقتحمـوا حضـرموت، حيث كـان أوائـل المبشرين الدرعيين قد وصلوا في عـام 1803 _ـــ 1804. ولم تكن جهـــودهم

الدعائية موفقة آنذاك، إلا أن حضرموت دفعت هذه المرة الجزية أرى الدرعية(141). غير أن مطلق المطيري قتل في عام 1813 خلال مناوشة بسيطة. وفي تلك الأثناء، بدأ الغزو المصري للجزيرة، فأخذ الوهابيون يسحبون قواتهم من عمان. وكان بعد هذا البلد وعداء الإباضية للوهابية ومقتل القائد العسكري الموهوب مطلق وغزو المصريين للحجاز والأجراءات المضادة التي اتخذتها بريطانيا _ كل تلك العوامل أعاقت توسع أمارة الدرعية في جنوب شرقي الجزيرة.

الزحف على عسير واليمن. على تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انضمت عسير إلى الوهابيين. وعلى أثرها رضخت أمارة أبو عريش للدرعة(142). ويصعب القول أن سيطرة الوهابيين على المناطق الواقعة جنوبي مكة كانت سيطرة كاملة. فهناك على الأصح حلفاء للسعوديين بحقوق منقوصة، وليس رعية بالمعنى الكامل.

وفي الوقت تنالذي زحف فيه الوهابيون على اليمن، كان الوضع

هناك، ملائماً لتوسعهم. فالبلاد منقسمة على نفسها بسبب الخلافات الداخلية والفوضى العشائرية والإقطاعية. وفقد أئمة الزيدية سلطتهم على المنطقة الساحلية إلى أن التوسع في اليمن لم يحقق نصراً كاملاً. إن حملة قوات أمير الدرعية عام 1805 ـ 1806 على نجران لم تتكلل بانتصار حاسم مع أن حاميات وهابية ظلت في قلاع تلك المنطقة. ووقعت الحديدة في أيدي الوهابيين مرارا. وفي الواقع، ظلت المنطقة الجبلية في اليمن مستقلة مع أن قوات السعوديين حاصرت صنعاء في عام 1808(143).

لقد مارس الوهابيون دعاية نشيطة في اليمن وكانوا يرسلون أليها كل عام تقريباً جماعة من العلماء ولكن دون جدوى. وكان الشافعيون من سكان الساحل _ تهامة اليمن _ يتعاطفون مع المذهب الوهابي بسبب عدائهم لِأمة صنعاء الزيديين. إلا أن الشافعيين ما كانوا راغبين بالتفريط في استقلالهم الفعلي والخضوع للسعوديين.

وكان حمود أبـو مسـمار صـاحب أبي عـريش الـذي شـملت سـلطته جـزءً من تهامـة اليمن قـد أنضـم إلى الوهـابيين، حــتى أنــه شــارك، على مــا يبــدو، في العمليات الحربية ضد إمام صنعاء(144). ولكن مــا كــان يقلقــه هــو ارتفــاع نجم جاره ومنافسه حاكم عسير عبد الوهاب "أبــو نقطـــه تحت رعايـــة الوهـــابيين. ويقول أبن بشر أن سـعود اسـتدعى كلا الـــرجلين المتنافســـين إلى الدرعيـــة وحــاول إصـــلاح مــا بينهمــا ولكن دون جـدوى. وأحس سـعود بـأن روح التمـرد تتصـاعد عنـد أبي مسـمار فـأمر بشـن حملـــة على صـــنعاء إلا أن صـــاحب أبي عريش رفض.

وبعـد أن تـوافرت لـدى سـعود أدلـة على عدم ولاء تابعه المشاكس هذا أخـذ يجمع المحاربين من أرجاء الجزيرة كافة للقضاء عليه. وبلغ عدد القوات الوهابية حــوالي 50 ألــف شــخص، مــع أن هــذا الرقم قد تكون فيه مبالغة. وكان يقاتل إلى جـانب أبي مسـمار بـدو من نجـران واليمن. وفي أواخر عـام 1809، نشـبت معركة ضارية قتل فيها أبو نقطة. ولكن

قوات أبي مسمار منيت بالهزيمة، ففر من المعركة وراح يعزز مواقعه في عاصمته أبو عريش التي لم يتمكن الوهابيون من احتلالها. وبأمر من سعود شغل منصب أبي نقطه قريبه طامي بن شعيب(145).

غزو العراق والشام. **إذا تناولنا من جديد الوضع في الحدود الشمالية الشرقية للدولة السعودية نرى للوهلة الأولى أن الأحداث تطورت بصورة ملائمة للوهابيين.**

فما كان سليمان باشا يقضي نحبه في آب (أغسطس) 1802، حتى بدأ صراع مستميت من أجل السلطة شارك فيه الإنجليز والفرنسيون بشكل محموم. وتمكن كيخياه على قريب سليمان من القضاء على منافسيه فصار والياً على بغداد. واحتفظ بالسلطة خمس سنوات تقريباً. كانت الولاية مضعضعة بسبب القلاقل الداخلية والانتفاضات الشعبية وبسبب نضالات الأكراد المتواصلة. وفي آب 1807، ذبح علي في أحد المساجد. وبعد قليل استولى على منصبه كوجوك

سليمان الذي ظل والياً لمدة ثلاث سنوات وانشغل بالحرب ضد الأكراد والوهابيين حتى قتل في تشرين الأول (أكتوبر) 1810. واستمرت الصدامات الحربية مع الفرس في النصف الثاني من العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وطوال السنوات التي أعقبت تدمير كربلاء، قام الوهابيون بغزوات عنيدة على العراق. ولكن حملاتهم التي استمرت حتى عام 1810 كانت محصورة في نهب القرى غير المحمية وفي نهب البدو. ورغم المشاكل الداخلية في العراق لم يتمكن الوهابيون من تحقيق نجاحات تضاهي غزو كربلاء.

ولم تسفر عن انتصارات حاسمة كذلك غزوات الوهابيين على الشام مع أن القبائل البدوية فيها أخذت تدفع الجزية لِأمير الدرعية في مطلع القرن التاسع عشر(146). وفي عام 1808، بعث سعود رسالة إلى مشايخ دمشق وحلب ومدن الشام الأخرى طالباً تبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة

سـعود ودفـع الجزيـة. وسـاد الـذعر والاضطراب ودمـرت فصـائل الوهـابيين القـرى في أطـراف حلب، وتغلغلت في فلسطين في الوقت نفسه. وقد اتخذت إجـراءات عاجلـة لحمايـة المـدن إلا أن الوهـابيين لم يتجـرأوا على اقتحامهـا(147).

وفي عـام 1810، قـام سـعود مـع بضعة آلاف من المقاتلين بغزوة جسورة على الشـام ونهب بضـع عشـراتٍ من القرى ووصل إلى دمشق تقريبـاً(148). وكـانت تلـك آخـر حملـة لـه في الاتجـاه الشمالي.

لقد بلغت حملة الدرعية أقصى حدود توسـعها. وانتشـرت سـلطة السـعوديين في شبه الجزيرة العربيـة كلهـا تقريبـاً، ودفع لهم الجزية حتى سلطان مسـقط وإمام اليمن وحكام حضرموت. وخضعت لأمـير الدرعيـة القبائـل القاطنـة في البوادي والفيافي الممتدة حتى أراضـي الهلال الخصـيب. ويقـدر مؤلـف "لمـع الشـهاب" عـدد السـكان الخاضـعين للسـعوديين في نجـد بـ 300 ألـف وفي الحجـاز وتهامـة 400 ألـف وفي اليمن

400 ألـف أو أكـثر وفي شـرقي اليمن 200 ـ 300 ألف وفي شرقي الجزيـرة 400 ألف وفي القبائل المترحلـة، مثـل عنزة، في البوادي بين المدينة المنـورة والشـام حـوالي 400 ألـف، وفي عمـان وسـواحلها من بـدو وحضـر 200 ألـف(149). وهكـذا ضـمت أمـارة الدرعيـة عموماً حوالي 2.4 مليـون نسـمة. وهـذا الـرقم يبـدو واقعيـاً، مـع أن مـا يخص اليمن قليـل أو ربمـا لم يـدرج المؤلـف عمـداً هـذا البلـد كلـه ضـمن دولـة السعوديين.

الفصل الرابع

النظام الاجتماعي والسياسي
في أمارة الدرعية

لم تغير الوهابية النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية مع أن فئة الوجهاء والأعيان في أمارة الدرعية الشاسعة قد برزت من بين سواد السكان وكان نشاطها الإداري المبكر منظماً بعض الشيء. إن عائدات الوجهاء الحاكمين من النهب والجزية ومصادرة الأموال وفرض الضرائب واستلام بدلات الإيجار قد اتسعت، ولكنها لم تكن تختلف من حيث الجوهر عن الممارسات السابقة.

النهب في الغزوات والغرامات الحربية. كانت حملات الوهابيين تحت راية تجديد الدين تستهدف تحقيق مهمات دنيوية بحتة تتلخص في زيادة ثروات حكام الدرعية ووجهاء الجزيرة المرتبطين بها (وجهاء نجد بالدرجة الأولى) وكذلك الجند المساهمين في الغزوات. ويدل ما كتبه مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوروبيون على أن الغزو ظل الطريق الرئيسي لحصول الوجهاء على الثروة. وكتب المؤرخ الوهابي أبن بشر يقول، بعد أن عدد الضرائب التي وردت إلى الدرعية: "وما ينقل أليها من الأخماس والغنائم أضعاف ذلك"(1). ويعتقد بوركهاردت كذلك أن الأخماس تحتل المرتبة الأولى بين عائدات حاكم الدرعية(2).

كانت غـزوات الوهـابيين الأولى تنتهي بالاسـتيلاء على بضع عشرات من الإبل والأغنـام ونهب الحقـول أو بساتين النخيل، أما في سـنوات أوج قـوتهم، فقـد كـانت غنـائمهم تبلـغ عشـرات الآلاف من رؤوس الماشية المنهوبة. وفي عـام 1796 بعـد دحـر قـوات شـريف مكـة، وقـع في أيـدي الوهـابيين 30 ألفـا من الإبل و 200 ألف من الأغنام والماعز(3)، إذا لم تكن في ذلك مبالغة.

ويقول أبن بشر أنه عندما جـرى في عـام 1790 ـ 1791 دحر قبائل مطـير وشـمر حصـل الوهـابيون على "غنائم كثيرة من الإبل والغنم والأثاث والأمتعة". وسرعان ما تعـرض سـائر البـدو لمثـل هـذا المصـير. فقـد كـان الوهـابيون يطـاردونهم يـومين أو ثلاثـة "ويأخـذون منهم الأمـوال ويقتلـون الرجـال"(4). إن المصـنفات التاريخيـة العربيـة غاصـة بوقـائع من هـذا النوع.

وكمـا هـو حـال الغـزوات البدويـة كـان النهب الوهابي يسفر عن تجريـد القبائـل المستضـعفة ليس فقط من المنتوج الزائد، بل كذلك من قسم كبير من المنتـوج الضـروري، وغالبـاً مـا يحكم على السـواد الأعظم من السـكان المنهـوبين بـالموت جوعـاً. ولم يقتصـر النهب على البسـطاء من أبنـاء القبائـل أو سـكان المـدن، فقـد تعـرض لنهب الوجهـاء والأعيـان أيضاً. إلا أن هؤلاء كـانوا يعوضـوا عن خسـائرهم على حسـاب بسـطاء البـدو أو الفلاحين. وكـان الوهـابيون المنتصرون يرأفـون عـادة بحـال الوجهـاء، ويفضـلون إقامة علاقات طيبة معهم. وكـان الوجهـاء المغلوبـون

يفقدون استقلاليتهم السابقة، ولكنهم يصبحون جـزءاً من الطبقة الحاكمة في الدولة السعودية.

ويدل كبر حصة غنائم الحرب في مداخيل الـدول الوهابية على طابعها الحربي التوسعي. فقد تعرضـت للنهب القبائـل والمـدن والواحـات والمنـاطق غـير المنضـمة أليهـا أو الـتي حـاولت التخلص من سـلطة أمـراء الدرعيـة. وكـانت الحـروب والغـزوات والنهب والتوسـع المتواصـل من أهم شـروط وجـود الدولـة السعودية.

وكان مستوى تطور القوى المنتجـة في الجزيـرة العربية ما يـزال عـاجزاً عن تمكين الوجهـاء والأعيـان الوهابيين من الاستئثار بمنتوج عمل السكان بواسطة الأنواع الأكثر تنظيماً من الاسـتغلال بالمقـادير نفسـها الـتي يؤمنهـا النهب السـافر. وبغيـة الحفـاظ على مداخيل الطبقة الحاكمة تعين على أمارة الدرعيـة أن تتوسع بلا انقطاع. وفي حالة توقف التوسع لن يتمكن الوجهاء الحضر، وخصوصـاً وجهـاء البـدو، من اسـتلام المـداخيل الـتي تعـودوا على اسـتلامها من السـكان الخاضعين لهم. وفي تلك الحالـة تنتفي دوافـع توحيـد الوجهاء والأعيان في إطـار دولـة موحـدة. وفي ذلـك يكمن التنـاقض الـداخلي الرئيسـي للدولـة الوهابيـة الأولى الـتي كـانت تحمـل في أحشـائها منـذ لحظـة ظهورها جنين هلاكها وسقوطها.

وكان المصدر الآخر للإثـراء هـو الغرامـات، وهي عبارة عن جزية نقدية أو عينية تفرض على القبائل أو الواحـات الخاضـعة للوهـابيين أو المنضـمة إليهم. وكانت الغرامات تفرض مرة واحـدة، ولكن تسـديدها

قد يستمر عدة سنوات فيكتسب شكل الجزية أو الضريبة المتواصلة.

ففي عام 1787 _ 1788، فرضت على أهالي واحات وادي الدواسر الذين أخضعهم الوهابيون غرامات بمبلغ ألفي ريال كان يجب تسديد ألف منها فوراً(5).

وبعد أن مني أمير الأحساء عريعر بالهزيمة في هجومه على الوهابيين تهيأ أمير الدرعية للتنكيل بحلفائه الذين انتقلوا إلى صف الأحسائيين. وطلبت منه واحات المحمل وثادق أن يعفو عنها، فعفا عنها، ولكنه فرض عليها، كعقوبة، غرامات "من ثمر الزرع والتمر"(6).

وفي عام 1767 _ 1768، أنضم إلى الوهابيين سكان الوشم وسدير و "بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة". والتزموا بأن يدفعوا للدرعية غرامات نقدية وعينية(7).

وعندما أخضع أمير الدرعية سكان الحوطة والحريق واليمامة والسلمية وقسم من الخرج فرض عليهم جزية" بما شاء من النقود(8).

وفرض الوهابيون غرامات بشكل نقود وأسلحة وأفضل الخيول مع عدتها على قبائل البدو المجاورة لمكة(9).

الاستيلاء على الملكية العقارية. لم يورد المؤرخون الوهابيون عن انتزاع الأراضي من الفلاحين وتحويلهم إلى مستأجرين إلا أنباء متفرقة وشحيحة.

عندما احتل عبد العزيز الرياض "ملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها"(10). ويبدو أن مساكن أهل الرياض ملكا لأمير الدرعية. ولكن ماذا يستفيد من هذه الملكية إذا كان الكثير من سكان الرياض قد هربوا؟ وهل يستطيع الأمير أن يؤجر تلك الدور؟ لعل أمير الدرعية قد باع في أغلب الظن الأدوات المنزلية المنهوبة وليس واضحاً كذلك كيف جرى التصرف بالنخيل. فمن الذي صار يسهر عليها؟ وما الذي يعنيه المؤرخ بقوله "إلا قليلها؟"ربما كانت هذه النخيل ملكاً لِأنصار الوهابيين من أهالي الرياض أو أن عبد العزيز وزعها على المقربين أليه.

ونجد معلومات أكثر تحيداً عن بساتين النخيل في الخرمة. فقد احتل الوهابيون الواحة ووافق سكانها على إحالة النخيل إلى بيت المال(11). أما باقي المزروعات المغروسة بين النخيل أو في الحقول الخالية من النخيل فلا نعرف عنها شيئاً. (وبالمناسبة فإن شروط هذا الاتفاق لم تنفذ. فقد اعتبرها عبد العزيز سهلة جداً، ولذا أمر بتدمير أسوار الواحة وتهديم قسم من الدور وطرد جماعة من السكان).

وفي معرض الحديث عن مداخيل الدولة السعودية أشار بوركهاردت إلى أن بيت المال (الخزينة) يقسم إلى قسمين أحدهما للإمام والآخر للدولة. "ويتسلم زعيم الوهابيين القسم الأكبر من مداخيله من عائدات أملاكه الخاصة. وقد جرت العادة على أن ينهب إحدى مناطقه أو مدنه إذا كانت قد تمردت لأول مرة. وإذا تكرر التمرد لا يكتفي بالنهب،

بل يصادر كل أراضي السكان ويحيلها إلى بيت المال. ثم يهدي قسماً منها إلى الغير، ولكنه يترك القسم الأكبر لِأصحابها السابقين الذين يتحولون إلى مستأجرين ويجب عليهم أن يدفعوا له تبعاً للظروف ثلث المحصول أو نصفه. إن ملكية الأشخاص الذين شاركوا أنشط مشاركة في التمرد تحال إلى غيرهم. أما هم أنفسهم فيطردون أو يقتلون... وفي الوقت الحاضر يعود القسم الأكبر من الملكية العقارية في نجد إلى بيت المال أي خزينة الدولة.وإن ملكية كل الأراضي في القصيم التي كان سكانها يتمردون دوماً قد تركت لهم على سبيل الإيجار. والكثير من القرى في الحجاز وفي الجبال الواقعة على جانب اليمن يعود إلى بيت المال أيضاً(12).

إن نظام جباية المال من السكان الخاضعين الذين يتحدث عنهم المقتطف أعلاه يبدو على العموم ناجزا وكاملاً، مع أن الكثير من جوانبه يبقى غامضاً، ومن ذلك، مثلاً، مسألة ما إذا كان بدل الإيجار يرد إلى بيت المال أو يوضع تحت تصرف أمير الدرعية شخصياً. ومن يقصد بوركهاردت بكلمة "الغير"، هل يقصد الفلاحين الذين استقروا في المناطق التي استولى عليها الوهابيون أم يقصد ملاكاً جدد يستأجر الملاك السابقون الأراضي منهم؟ سؤال تصعب الإجابة عنه.

إن معطيات هذا الرحالة الأوربي والمصنفات العربية تكمل بعضها بعضاً، ولكنها متعارضة بعض الشيء. وهناك مبررات تجعلنا نصدق بقدر أكبر ما يقوله مؤرخو الجزيرة. فأن ابن بشر، مثلاً، كانت له

علاقات مع موظفي المالية في البلاط وقد استقى معلوماته منهم شخصياً. أما بوركهاردت، فكان يتناول الكثير من ظواهر الحياة في الجزيرة من مواقع الأوروبي المتحيزة دون قصد.

إن مؤرخي الجزيرة لا يتحدثون إلا نادراً جداً عن ملكية الأراضي المحالة إلى بيت المال. وهم يشيرون في عدة حالات فقط إلى وجود الخراج (ضريبة الأرض) في الدولة الوهابية، ولكنهم لا يحددون طابعه. وإذا كان الخراج هو إيجار الأرض الذي يقدم لقاء أراضي الدولة، فأن معطيات بوركهاردت تحصل على برهنة كافية إلى حد ما. وفي هذه الحالة يمكن الكلام عن إعادة توزيع مكثفة لملكية الأراضي في الدولة السعودية وعن التوافق بين ريع الأرض والخراج الذي يجبيه بيت المال.

وعندما أبدى حليف الوهابيين أمير حريملاً مبارك بن عدوان تذمراً اقترح عليه محمد بن عبد الوهاب وأمير الدرعية قائلين "خذ من نخيل حريملاً ما تريد واجلس عندنا ولك الحشمة والوقار وخراجك علينا". وصار مبارك بن عدوان أسيراً فخرياً عند الوهابيين(13). ولكنه، على ما يبدو، احتفظ بريع بساتين النخيل.

الزكاة. من أهم المستحدثات في إمارة الدرعية فرض ضريبة مركزية منتظمة على جميع سكان الدولة بشكل الزكاة المنصوص عليها في القرآن لمساعدة الفقراء والمساكين والتي هي واحد من أركان الإسلام. إن الأهداف الدينية المتجسدة في بعث الزكاة تستجيب بأفضل شكل لمتطلبات

ومهمات الدولة السعودية الإقطاعية. وأشار أبن بشر وهو يتحدث عن استيفاء الزكاة إلى أن "الإسلام الحقيقي" انتشر في نجد وقال "بعثت العمال لقبض الزكاة وخراج الثمار بعد أن كانوا قبل ذلك يسمون عند الناس مكّاساً وعشّاراً"(14).

ويقول هذا المؤرخ النجدي أنه كانت تخرج من الدرعية سنوياً جماعات لقبض الزكاة من البدو. وكل جماعة تتكون من سبعة أشخاص تضم أميراً وكاتباً وحامل الدفتر وجابياً لجمع النقود من بيع الإبل والغنم والماعز المخصصة لتسديد الزكاة، بالإضافة إلى ثلاثة حراس مسلحين يقومون بجمع القطعان واقتيادها وحراستها. وكان حكام الدرعية يرسلون إلى البدو أكثر من 70 جماعة لقبض الزكاة. وكان هناك مخولون خاصون باستيفاء الزكاة من محاصيل المزارعين ومن القرى الصغيرة والكبيرة وموظفون لاستيفاء الزكاة من البضائع (15).

وكتب بوركهاردت يقول "كان جباة الزكاة يرسلون سنوياً من الدرعية إلى مختلف المناطق والقبائل. وهم يستلون مبلغاً نقدياً معيناً مقابل عملهم وكذلك نفقات السفر"(16).

وتبين معلومات أبن بشر أن جماعات قبض الزكاة كانت تعيش على حساب الأشخاص الذين تستوفي عنهم الزكاة (17). وهذا يهيئ الفرصة للفساد.

وتبلغ الزكاة عشر محصول الأراضي الديمية وخمس محصول الأراضي الاروائية وربع العشر من رأسمال التجار (18). ويقول بوركهاردت أنهم كانوا

يأخذون ريالاً من قبيلة عنزة لقاء كل خمسة جمال وثمن نعجة واحدة لقاء كل 40 رأساً من الغنم، وما يعادل 7 شلنات على كل حصان(18). ولكنه يمكن الافتراض بأن مبلغ الزكاة يختلف باختلاف المناطق.

ويصعب تحديد المبالغ الإجمالية للزكاة التي كانت ترد إلى الدرعية، مع أن ابن بشر قد أورد بعض الأرقام وكتب يقول: "وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي قال كنت كاتباً لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز. فكان ما حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة أحد عشر ألف ريال. قال وكان عمال بريه من مطير رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود. فكان ما جبى منهم اثني عشر ألف ريال. ومن هتيم سبعة آلاف ريال. وكانت زكاة مطير في تلك السنة ثلاثين ألف ريال. وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومن في نجد من عنزة يبعث إليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة. وأخبرني من أثق به قال أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال بوادي الشام، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال. قلت ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز الحصر. وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيّب من إبله أو غنمه شيئاً عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال"(20).

ويبدو أن حجم واردات الزكاة في الدرعية قد ازداد بقدر أكبر في عهد سعود بن عبد العزيز.

فقد قال عنه ابن بشر ما يلي: "وأما عماله الذين يبعثهم لقبض زكاة الإبل والغنم في بوادي جزيرة العرب مما وراء الحرمين الشريفين وعمان واليمن والعراق والشام وما بين ذلك من بوادي نجد فذكر لي بعض خواص سعود ممن قد صار كاتباً عنده، قال: كان يبعث إلى تلك البوادي بضعاً وسبعين عاملة في كل منها سبعة رجال... وأخبرني ذلك الرجل أن سعوداً بعث عماله لبوادي الغز المعروفين في ناحية مصر، وبعث عماله أيضاً لبوادي يام نجران وقبضوا من الجميع الزكاة وقال: آتوا عمال آل فدعان المعروفين من بوادي عنزة بزكاتهم بلغت أربعين ألف ريال من غير خرج العمال وثماني أفراس من الخيل الجياد. قال: وهذا أكثر ما تأتي به العاملة من تلك العمال كل سنة، وأقل ما تأتي به العاملة من أولئك العمال المذكورين ثلاثة آلاف ريال وألفين ونصف، قال: والذي يأخذه سعود على بندر اللحية المعروفة في اليمن مائة وخمسون ألف ريال وهو لا يأخذ إلا ربع العشر، ومن بندر الحديدة نحو ذلك....

قلت: وأما غير ذلك مما يجيء إلى الدرعية من الأموال من القطيف والبحرين وعمان واليمن وتهامة والحجاز وغير ذلك وزكاة ثمار نجد وعروضها وأثمانها لا يستطيع أحد عده ولا حصره..."(21).

ولم يذكر ابن بشر المبلغ الإجمالي لمداخيل أمراء الدرعية. وربما لا يعرف ذلك المبلغ الأمراء

أنفسهم. وقد قدر بوركهاردت العائدات السنوية لبيت مال الوهابيين بمليون ريال، علماً بأن أفضل الأعوام عاد عليهم بمليوني ريال(22). إلا أن الرحالة لم يؤكد على ما إذا كان هذا الرقم يضم غنائم الحرب ومختلف أنواع الغرمات أم أنه يضم الضرائب فقط.

ويقول مؤلف "لمع الشهاب" بأن العائدات الضرائبية السنوية لسعود في عز جبروته بلغت كما يلي: 400 ألف ريال من سكان نجد البدو والحضر و 500 ألف من بدو الشام واليمن وتهامة وعمان وحوالي 400 ألف من الأحساء و 200 ألف من القطيف و 40 ألفاً من البحرين، و 300 ألف من اليمن (من السكان الحضر على ما يبدو) و 200 ألف من بدو الحجاز وبعض المناطق الأخرى و 120 ألفاً من رأس الخيمة بما فيها حصة النهب) و 120 ألفاً من حضر وبدو عمان، فضلاً عن نفقات القوات الوهابية هناك. أما غنائم الغزوات فلا تعد ولا تحصى. وكان سعود شخصياً يستلم مداخيل كبيرة بشكل هدايا من الحجاج الأثرياء، وكانت الأراضي التي يملكها في نجد والأحساء تعود عليه بـ 300 ألف ريال(22) وهكذا يصل المبلغ الإجمالي لمداخيل أمير الدرعية بشكل ضرائب حسب معلومات "لمع الشهاب" إلى مليوني ريال تقريباً. وهذا يتفق مع ما قاله بوركهاردت.

كانت عائدات الأمراء السعوديين هائلة بالنسبة للجزيرة العربية آنذاك. ولكنه ينبغي أن نأخذ في الاعتبار التذبذب الكبير في الأسعار من موسم لآخر أو من منطقة لِأخرى. ويكفي القول أن حمل الحطب

في الدرعيه، كما يقول أبن بشر، يكلف 5 ـ6 ريالات وأن ثمن النخلة الواحدة يصل إلى 50 ريالاً(24).

إن طابع الدولة السعودية التي كانت تخدم بالأساس مصالح وجهاء الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في ميدان التوزيع المركزي للثروات. ولكنه لا يمكن تحديد المبالغ المطلقة والنسبية لنفقات الدولة إلا بصورة تقريبية.

البلاط السعودي. إن الأموال التي تنفق على بلاط أمراء الدرعية وأسرة محمد بن عبد الوهاب تشكل واحداً من أبواب الصرف الرئيسية. لقد تجمعت كملكية شخصية للسعوديين ثروات بشكل أراض في الواحات وماشية وأحجار كريمة ومجوهرات وأموال أخرى. وكتب أبن بشر يقول أن ثلث الضرائب المستحصلة في منطقة الأحساء ينفق على بلاط السعوديين وأسرة أبن عبد الوهاب والحاشية(25).

إن عوائل الوجهاء العرب عموماً كبيرة للغاية. فالأموال الكثيرة تمكن أبناء الوجهاء من التزوج من أربع نساء على الأقل كما ينص القرآن، بالإضافة إلى الجواري. وإن التغذية الجيدة والظروف الصحية الأفضل بعض الشيء مما لدى باقي السكان تقلل من وفيات الأطفال في العوائل الموسرة. وكانت عائلة السعوديين كبيرة جداً (الأمير وإخوانه وأولاده وأعمامه وأبناء عمومته وأبناؤهم). ويقول بور كهاردت أنه كان لدى سعود عدة زوجات ووصايف حبشيات(126).

إن أمـراء الدرعيـة بعـد أن أنضـووا تحت لـواء الوهابيـة الـتي بـاركت سـلطتهم والـتي تـدعو إلى البسـاطة والاعتـدال صـاروا يعيشـون بقـدر كبـير من البـذخ والفخفخـة بالنسـبة للجزيـرة العربيـة. وأشـار كورانسيز إلى "إن سعود ذاق طعم الترف وكان لا بد أن يتأثر به". ويضيف المؤرخ الفرنسي قائلاً: ذلك هو طريق جميع الطوائف التي "تبدأ بالبساطة والتقشف لتجتذب الجماهير وتنتهي بالترف للزعماء"(27).

ونقـرأ في "لمـع الشـهاب" عن سـعود مـايلي:
"وكان تحته أربع نسوة بالعقد وست جوار من القـرج أرسـل بعض النـاس خفيـة إلى أطـراف بلاد الـروم فاشتروهن له بقيمة كبيرة قيـل كـل واحـدة اشـتراها بثلاثـة آلاف ريـال أو أكـثر لأنهن متنـاهيت في حسـن الصـورة وأيضـاً لـه عشـر وصـايف حبشـيات بعضـهن أهـداه لـه الشـريف حمـود أبـو مسـمار صـاحب أبي عريش وتهامة اليمن وبعضهن أتوه به القواسـم أهـل رأس الخيمـة من مـا اكتسـب من الغنـائم وقـد غـير بنيان البيت الذي كان لِأبية عبد العزيز فوسع عرصـته وبنى غرفاً وخلوات وعين لكـل امـرأة موضـعاً خـاص هي وخدمها... وأما لباس نسـائه فكـان أطيب لبـاس وغالبه من الحرير الهندي المصنوع بالذهب، أحمـر أو أصفر أو أخضر وغير ذلك من الألـوان وكـذلك من بـز الشام الحرير العال المطرز بالذهب...

وقد جملهن من الحلي شـيئاً عظيمـاً من الـذهب المرصع بالجواهر النفيسة من الياقوت الأحمر وغيره كثيراً... وكـان يرسـل بعض النـاس إلى ملـك فـارس فيشترون له ذلك... وكان سـعود يـترف في المـأكول

كما يترف في الملبوس وغالب قوته وقوت عياله الأرز وصار أكل الحنطة لديهم قليلاً واتخذ له أُناساً من أهل الأحساء أو القطيف يصنعون له الأطعمة الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية والحلويات..."(28).

وكتب رايمون "إن سعود يحب إبداء كل مظاهر الفخفخة. وكل شيء في قصره يدل على العظمة والبذخ ولا يرفض أي شيء من تزيين القصر. ولا يبخلون بالذهب وللؤلؤ وأغلى الأقمشة الهندية من أجل جعله أكثر روعة. ويقال أن عباءة سعود بديعة الصنع للغاية وقد كلفته ما لا يقل عن 60 ألف بيزة"(29).

في أقوال رايمون مبالغة. ولكن من الواضح أن أمراء الدرعية في تلك الأزمان الغابرة لم يبخلوا على أنفسهم بالترف الذي يقدرون عليه. وإلى جانب الماشية والأراضي والأحجار الكريمة والسلاح المزين بالنفائس والقصور والقلاع كانوا يمتلكون كذلك الخيول الأصيلة التي يعتز بها وجهاء الجزيرة كل الاعتزاز. ومن المعروف أن سعود بن عبد العزيز أنفق أموالاً طائلة على رعاية تلك الخيول. وبلغ عدد الخيول الأصيلة في قطعانه 2.5 ألف رأس(30). وخصص منها 600 حصان لأشجع البدو والمماليك(31). وكان لدى كل من أبناء سعود 100 _ 150 حصانا، وكان عند ولي لعهد عبد الله 300(32). كان أمراء الدرعية يستولون على الخيول في الغزوات ويستلمونها بشكل هدايا وزكاة وغرامات، ولا يتورعون حتى عن ابتزازها. كتب بوركهاردت يقول

"الأعراب يتشكون من أنه عندما يمتلك أحد ما حصانا جيداً فأن سعود يجد ضده تهمة ما بخرق القانون أو بسوء السلوك لكي يبرر مصادرة ذلك الحصان"(33).

وكانت أموال كبيرة تنفق على الضيافة التقليدية. ففي كل يوم يحل على سعود بضع مئات من الضيوف(34). وكان سعود يخصص للضيوف سنوياً 500 صاع من الأرز والقمح(35). (يراوح الصاع في الجزيرة ما بين لتر واحد ولترين ونصف) وخلال يومين من ولائم زفاف أحد أبناء سعود التهم الضيوف 140 ناقة و 1300 خروف(36).

إن ضيوف سعود الكثيرين لم يكونوا من الفقراء عادة. وكان سخاء الأمير يعم الموسرين في الغالب. ثم أن الغذاء المقدم للضيوف يختلف. فالوجهاء يقدم لهم اللحم والأرز، والأقل منهم جاهاً يقدم لهم التمر والبرغل(37).

وكان سعود يمتلك عدداً من العبيد. كتب ابن بشر يقول: "ومماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك وقال غيره: ستمائة الذكور وقال آخر أن مماليكه ألف الذكور أكثر من خمسمائة ومائتان الإناث والذين يظهر من القصر آخر رمضان ألف وثلثمائة فطرة عن خدمه وعبيده وما في قصره من الأيتام"(38). وكان عبيد الأمير يتمتعون بالامتيازات بالمقارنة مع مجموع سكان الجزيرة الفقراء شبه الجياع. وكانوا يشكلون حرس البلاط. وحاشية شخصية للأمير. وقد ارتقى بعضهم إلى مناصب علياً في الدولة. فأن المملوك الخرق صار قائداً للقوات

الوهابية في المعارك(39). وقد تم إنعتاق الكثيرين من العبيد.

واحتفظ بلاط السعوديين، وخصوصاً في المراحل الأولى، ببساطة العادات و "بديمقراطيتها" إذا استخدمنا المصطلحات الحديثة. ولم يظهر بشكل واضح جداً الانفصال الظاهري بين أصحاب السلطة والأمير الإقطاعي وبين جمهور السكان. ومن الناحية الظاهرية احتفظ أمير الدرعية ببعض التشابه مع شيوخ القبائل البدوية.

فأن أبسط البدو كانوا يخاطبونه بدون رسميات: يا سعود، يا أبا عبد الله، يا أبا شوارب(40). وكتب كورانيسز عن "بساطه وخشونة العادات"(41) في بلاط أمير الدرعية. كان مجلس سعود مفتوحاً للجميع. ويستطيع كل قادم أن يؤمل في كرمه وحسن ضيافته. وكان الأمير شخصياً ينظر في شكاوى رعيته. وكان حكمه القضائي يتميز بالسمات العشائرية. وقد كتب بوركهاردت أن سعود بنفسه كان أحياناً يجلد الكاذب، ولكنه يأسف لذلك طويلاً فيما بعد، ويطلب من المحيطين به أن يخففوا من غضبه(42).

وكان سكان الدرعية غالباً ما يحضرون دروس الفقه التي يأتي أليها جميع الوجهاء وأبناء محمد بن عبد الوهاب وأبناء سعود وأقاربه. وكان الأمير نفسه يحضرها. "فإذا اجتمع الناس خرج سعود من القصر ومعه دولة وجلبة عظيمة تسمع جلبتهم كأنها جلبة النار في الحطب اليابس من قرع السيوف بعضها بعضاً من شدة الازدحام، لا ترى فيهم الأبيض من

الرجال إلا نادراً، بل كل مماليكه عبيد سود ومعهم السيوف الثمينة المحلاة بالذهب والفضة، وهو بينهم كالقمر تبين في فتق سحاب. فإذا أقبل على ذلك قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد حتى يخلص إلى مكانه. فيسلم على الكافة ثم يجلس بجانب عبد الله ابن الشيخ وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس.. فإذا تكامل سعود جالساً التفت للعلماء والرؤساء من المسلمين... ودخل القصر وجلس في منزل من منازله القريبة للناس ورفعوا أليه حوائجهم حتى يتعالى النهار ويصير وقت القيلولة فيدخل إلى حرمه... وكان من أحسن الناس كلاماً وأعذبهم لساناً وأجودهم بياناً فإذا سكت قام أليه أهل الحوائج من أهل الشكاوى من البوادي وغيرهم وكان كاتبه على يساره فهذا قاض له حاجة وهذا كاتب له شكوى وهذا دافعه وخصمه إلى الشرع فيجلس في مكانه ذلك نحو ساعتين حتى ينقضي أكثرها، ثم ينهض قائماً ويدخل القصر ويجلس في جلسة في المقصورة ويصعد أليه كاتبه ويكتب أجوبة تلك الكتب التي رفعت أليه في ذلك المجلس".

كان الحراس يحيطون بسعود دوماً. وعندما يصلي في مسجد القصر يحرسه عبدان، وعندما يخرج إلى الصلاة مع الناس يرافقه ستة عبيد يحملون السيوف: اثنان أمامه واثنان خلفه واثنان وراء الصف الثاني من المصلين(43). وقد اتخذت هذه الإجراءات تحوطاً للطوارئ بعد مقتل أبيه عبد العزيز في المسجد.

ويستنتج مما ذكره أبن بشر مع ذلك أنه نشأت في بلاط السعوديين مراسم

خاصة للفصل الظاهري بين الوجهاء والشعب والتأثير على بسطاء الناس عن طريق الأبهة والفخفخة عند الحاشية والخدم وخصوصاً آداب السلوك وهلم جرا.

نفقات الدولة خارج بلاط الأمير. كانت الهدايا التي يقدمها أمراء الدرعية إلى الوجهاء والأعيان بشكل عيني (خيول أصيلة وأسلحة وماشية) وبشكل مكافأة مالية واحداً من أساليب إعادة توزيع الثروات المستحصلة داخل الطبقة الحاكمة. وكتب بوركهاردت أن أمير الدرعية كان يهدي لشيوخ البدو ما بين 50 و 300 ريال(44). وقال أبن بشر أن أمير الدرعية كان "كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء"(45).

وتلقي المعلومات الخاصة بالميزانيات المحلية وميزانيات المناطق ضوءاً إضافياً على طابع النفقات في الدولة الوهابية. ويتوقف بوركهاردت طويلاً عند هذه المسألة. صحيح أن ملاحظاته تنم عن رغبة غير متعمدة في تصوير جهاز الدولة الوهابية بصورة أكثر تنظيماً مما كان عليه فعلاً.

ويقول بوركهاردت "إن جميع المداخيل، ما عدا زكاة البدو، ترد إلى بيت المال. ولكل مدينة أو قرية ذات شأن بيت مال محلي يدفع له السكان ما يترتب عليهم. وفي بيت المال كاتب يبعثه زعيم الوهابيين ويأمره بعدم السماح للشيخ المحلي بإساءة التصرف

بالأموال بأي حال. ولا يسمح للشيوخ لا باستحصال النقود ولا بالتصرف بما يتم جمعه منها.

فهذه الأموال مخصصة للخدمات العامة وهي تقسم إلى أربعة أقسام. يرسل ربع إلى بيت المال المركزي في الدرعية، ويخصص ربع للتخفيف من أعباء الفقراء... وهو ينفق على علماء الدين الذين يرشدون التلاميذ وعلى القضاة وعلى أعمار المساجد وصيانة الآبار العامة... ويخصص النصف للصرف على الجنود الفقراء الذين يزودون بالأغذية أثناء الحملات، ويزودون بناقة عند الاقتضاء، وكذلك على الضيوف. وأن النقود المخصصة للضيوف تسلم إلى الشيوخ الذين يفتحون مضايف ليتوقف فيها الضيوف ويتغذون. وتخصص لهذا الغرض كذلك الضرائب العينية(46).

إن هذا المقتطف لا يقدم جواباً على أسلة كثيرة. فليس واضحاً ما إذا كان بيت المال المحلي يستلم قسماً من الزكاة أو أنه يفرض ضرائب إضافية، وما إذا كان بيت المال المركزي يساهم في النفقات المحلية. وكتب بوركهاردت أن المركز يعوض عن الخسائر الناجمة عن الكوارث الطبيعية وغزوات الأعداء(47). ولكن هل أن ذلك مشاركة من بيت المال المركزي في النفقات المحلية لمرة واحدة أو أنه يجري على الدوام؟

وأورد أبن بشر تقسيماً آخر للميزانية المحلية فقد كتب عن توزيع أمير الدرعية لِأموال الأحساء يقول: "والذي يحصل من بيت مال الأحساء يقسم ثلاثاً، ثلث يدخره لثغوره وخراجاً لأهلها والمرابطة

فيها، وثلث خراجاً لخيّالته ورجاله ونوابه وما يخرجه لقصره وبيوت آل الشيخ وغيرهم في الدرعية، وثلث يباع بدراهم وتكون عند عماله لعطاياه وحوالاته... ويحصل بعد ذلك ثمانون ألف ريال تظهر للدرعية"(48).

وهكذا كانت الأموال المحلية توزع في عدة اتجاهات أساسية. ينفق القسم الرئيسي منها على الأغراض الحربية _ لتأمين حاجة الجنود الفقراء وتزيد الحاميات بالأغذية ودفع الرواتب والأنفاق على الخيالة (أي الوجهاء المسلحين). والباب الهام الثاني للصرف هو الهدايا التي تقدم إلى الوجهاء المحليين الذين يحتلون أهم المناصب في الإدارة الوليدة ويتصرفون بجزء من النفقات، وليس بدون نفع شخصي طبعاً. إما النفقات على "الفقراء" فتغطي حاجات علماء الدين والقضاة.

الأعمال الخيرية. يتحدث أبن بشر عن سجايا أمير الدرعية عبد العزيز فيقول: "وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يكتب أليه منه ومن أمه وزوجته وأبنه وأبنته من كل واحد كتاباً وحده، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالاً وأقل وأكثر. وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبد العزيز وأبنه يستخلفونه فيعطيهم عطاءً جزيلاً. وربما كتب لهم راتباً في الديوان... في كل وقت وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر... وأخبرني كاتبه قال أن عبد العزيز أخذه يوماً صداع فدعاني وقال اكتب

صـدقة لأهـل النـواحي فـأملي عليِّ لأهـل منفوحـة خمسمائة ريال. وأهل العيينة مثل ذلك. وأهل حـريملا سـبعمائة ريـال. وأهـل المحمـل ألـف ومائـة ولجميـع نواحي نجـد على هـذا المنـوال. قـال قيمتهـا تسـعون ألف ريال. وأتى أليه يوماً خمسة وعشـرون حملاً من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسـيفه. وقال: اللهم سلطني عليهـا ولا تسـلطها عليِّ، ثم بـدأ في تفريقها"(49).

ووصف أبن غنام المجاعة المرعبة التي اجتـاحت نجد في أواسط الثمانينـات من القـرن الثـامن عشـر حيث ارتفعت أسعار المـواد الغذائيـة إلى أقصـى حـد وهلك الرجال والنساء ناهيك عن الشـيوخ والأطفـال. كـان النـاس يسـقطون أثنـاء الصـلاة بسـبب الهـزال. واستمرت المجاعة عدة سنوات. وعنـد ذاك بـدأ عبـد العزيز بإطعام الأرامل والأيتام والضعفاء(50).

وهكذا طبقت الدولة السعودية عمليـاً واحـداً من المسـتحدثات العبقريـة (أو على الأصـح المكتسـبات) الـتي جـاء بهـا الإسـلام، ونعـني الأعمـال الخيريـة أو العمـل بـالمعروف. فهـذا العمـل الـذي "يفتح" أمـام القائمين به أبواب الجنة في الآخرة كـان يحميهم في الـدنيا ولـو مؤقتـاً من غضـب الفقـراء وانتفاضـاتهم وتمرداتهم. وكانت الأعمال الخيرية تجرد الفقـراء من سـلاحهم الفكـري وتـوحي إليهم بـأن خلاصـهم من الجوع والحرمان والتخفيـف من أعبـائهم يتمـان ليس بالكفـاح الحـازم، بـل بصـدقات الأثريـاء والوجهـاء. ولعبت أعمال السعوديين الخيرية دوراً سياسياً لا يقل أهمية: فقـد تحسـنت الأوضـاع الماديـة بعض الشـيء

لسكان المناطق الوسطى من الدولة الوهابية على حساب الأطراف، وأدى ذلك إلى زيادة ولاء أولئك السكان لِأمراء الدرعية. وكان قسم من الأموال المخصصة للأغراض الخيرية يقع في أيدي الوجهاء والأعيان المحليين أو يخدمهم بصورة غير مباشرة إذ يخلصهم من لزوم الأنفاق من جيوبهم على فقرائهم.

وكانت الأعمال الخيرية في إمارة الدرعية بمثابة ترجمة للتضامن العشائري في مواجهة الكوارث.

البينة السياسة للدولة وتنظيم السلطة. لقد توحدت بقوة السلاح تحت سلطة أمير الدرعية مختلف المناطق والقبائل البدوية. وكانت درجة تبعيتها للدرعية متباينة.

ويقول أبن غنام أن القبائل أو الواحات عندما يجري ضمها إلى الوهابيين تقسم أمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير أبن سعود على خوض الجهاد ضد المشركين (أي غير الوهابيين) وتقديم العون للوهابيين(51). وعندما أنضم سكان الخرمة والمجمعة إلى الوهابيين بعثوا وفداً إلى الشيخ وإلى عبد العزيز للأعراب عن رغبتهم في التمسك بالإسلام وأداء كل الفرائض بما فيها الزكاة، ولكنهم طلبوا السماح لهم بعدم المشاركة في الجهاد خلال عامين(52).

فما الذي تعنيه مثل هذه الاتفاقيات؟ لقد كانت تلك، بالدرجة الأولى، تحالفات عسكرية التزم فيها الطرف المنضم إلى الوهابيين بشن العمليات الحربية ضد غير الوهابيين. وهذا هو الأمر الرئيسي.

وليس من قبيل الصدفة أن تأجيل المشاركة في الجهاد عامين كان يعتبر استثناء من القاعدة.

لقد ألزم التحالف مع الوهابيين القبائل والواحات بأن تدفع ضريبة دائمة إلى بيت المال المركزي وقيد استقلالها بقدر كبير.

وفي عام 1865، زار المندوب البريطاني ل. بيلي الدولة الوهابية التي بُعثت مع عاصمتها الجديدة الرياض بعد تدميرها على يد المصريين. وأشار إلى مختلف أشكال تبعية القبائل التي انضمت أو ضُمت إلى الوهابيين للرياض. ويمكن، ببعض التصرف الحذر، تطبيق أقواله على الدولة الوهابية الأولى.

كانت بعض القبائل تدفع الضرائب وتشارك في الحملات الحربية وتؤدي مختلف الواجبات، بينما تقوم قبائل أخرى برعي الماشية في نجد وأطرافها وإذا تعرضت لهجوم من طرف ثالث فأن الوهابيين لا يتدخلون. والمجموعة الأخرى من القبائل تلتزم بعدم الأعداء على القبائل الخاضعة لأمير الرياض، مقابل التزام مماثل من جانب هذه القبائل الأخيرة. وتتكون المجموعة الرابعة والأخيرة من قبائل لا تعترف بسلطة أمير الرياض ولكنها تدفع الإتاوات له(53).

وكانت السلطة المركزية تتخذ الإجراءات لِإلغاء العادات العشائرية القديمة في حل النزاعات وتسعى إلى تسوية التناقضات المحلية في إطار الدولة الموحدة. وأفاد بوركهاردت أن النزاعات القبلية في الدولة الوهابية تحل من قبل أمير الدرعية نفسه. وهو يعاقب بشدة المذيبين فيها(54).

واستخدم السعوديون قسماً من الوجهاء والأعيان المحليين الذين انضموا إليهم بمثابة سند وحليف لهم. وفي بعض الأحيان ظل الأمراء والشيوخ السابقون على دست الحكم في القبائل والواحات. ولكنه بقدر اتساع الدولة الوهابية وتعزز السلطة المركزية أخذت الدرعية تستبدل الحكام المحليين أكثر فأكثر بممثلي الأفخاذ والبطون المنافسين لهم أو أبناء الأسر التي لم يكن لها في الماضي أمل في الارتقاء.

ويقول بوركهاردت: "يعتقد الوهابيون أن من الضروري استبدال جميع الشيوخ تقريباً في القبائل التي ضموها إليهم. ولم يتركوا السلطة في أيدي أبناء الشيخ بل أحالوها إلى أسر الأعيان المنافسة. وعندما احتل محمد على الحجاز أعاد حقوق الشيوخ المحليين وأنشأ بذلك معقلاً ضد الوهابيين"(55).

ومن الإجراءات التي اتخذها السعوديون لضمان ولاء القبائل والواحات للسلطة المركزية الإجراء المجرب في ممارسات الغزاة والفاتحين، ونعني أخذ الرهائن. وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون عدداً من الأعيان بمثابة رهائن بعد أداء يمين الولاء من قبل الواحة أو الفخذ(56). وكان بعض الشيوخ المتمردين يقيمون بصورة دائمة في الدرعية، وقد عين بدلاً منهم أشخاص موالون للسلطة المركزية. وبغية إضعاف القدرة الكفاحية للبدو وتشويش تنظيمهم فرضت الإقامة في الدرعية على بعض عقداء القبائل(57).

وهكـذا، بـدلاً من الشـيوخ والأمـراء السـابقين المستقلين رسمياً وفعلياً ظهـر أتباع لِأمـير الدرعيـة يكادون يكونون غير مستقلين أو صـنائع سـافرين لـه.

وكتب بوركهـاردت يقـول "يتلقى كبـار شـيوخ البـدو من الـزعيم الوهـابي لقبـاً تقـديرياً هـو أمـير الأمـراء. إن سـلطة هـؤلاء الأمـراء على الأعـراب محـدودة جـداً، ولا تزيـد إلا قليلاً على السـلطة الـتي يتمتـع بهـا الشـيخ البـدوي المسـتقل، مـا عـدا كونـه يستطيع أن يفرض الخضوع للقانون بحبس المخـالف أو فرض غرامه عليه"(58). إن هذا "القليل" هـو أهم سـمة تمـيز الشـيخ في الدولـة السـعودية عن زعيم القبيلة في عصر ما قبل الوهابية: أي تعزيـز السـلطة العامة (السجون والغرامات) وفصل السـلطة العامـة عن جمهور البدو.

كـان أمـراء المنـاطق من أتبـاع السـعوديين يجمعـون القـوات ويسـاعدون جبـاة الضـرائب. وسلطتهم يقيدها القضاة القادمون من المركز(59).

وجاء في "لمع الشهاب": كان شـأن السـعوديين حيث تولوا بلـداً كبـيرة أو كـورة بنـوا حصـناً في تلـك البلد على حدة عن حصـنها الأول أن كـان لهـا حصـن وبحثوا حوله خنـدقاً أن كـانت الأرض صـلبة واحكمـوا بنيان القلعة ورتبوا في الحصن قـدر خمسـمائة رجـل عسـكري أو ألـف رجـل على قـدر البلاد لكن بشـرط كشف حالهم عن الاسـتقامة التامـة بحسـب الاعتقـاد بهذا الـدين ويعينـون لهـؤلاء متاعـاً كثـيراً ربمـا كفايـة سـنتين أو ثلاث سـنين ويجعلـون في الحصـن أيضـاً

بنادق عديدة وباروداً كذلك وربما جعلوا في بعض الحصون مدافع"(60).
وعين الوهابيون المفتين والقضاة في الواحات. وفي القرى الصغيرة كانوا يعينون قضاة فقط كما يقول "لمع الشهاب". وكانت رواتبهم تأتي من بيت المال. وكانوا يبعثون قاضي الزكاة إلى كل واحة. وفي بعض الأماكن كان هناك أربعة جباة، وفي بعضها الآخر سبعة. وهم مستقلون عن الأمير ولكنه كان يساعدهم في قبض الزكاة. كما كان يعين محتسب وظيفته مراقبة أداء الشعائر الدينية وصواب عقد الصفقات التجارية ومراعاة المقاييس والأوزان وأداء القضاة لواجباتهم وقطع دابر الارتشاء(61).
وهكذا، يمثل السلطة المحلية الأمير قائد الحامية وكذلك القاضي (أو المفتي) وجباة الزكاة والمحتسب.
كان أمراء الدرعية يبتون في أهم شؤون الدولة بعد التشاور مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبنائه وأحفاده وعلماء الدين ووجهاء القبائل وأعيان الواحات وأفراد عائلة السعوديين.
ويقول أبن غنام أنه عندما عاد سعود منتصراً من الأحساء "قصد والده والأهل والذرية، واستقر مجلسه مع والده وأعيان الرعية"(62). وتحدث أبن بشر عن سعود بمزيد من التحديد فقال: "ومع ذلك إذا أهمه واراد إنفاذ رأي أرسل إلى خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم فأذا أخذ رأيهم وخرجوا من عنده أرسل إلى خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم فأذا أخذ رأيهم وخرجوا من عنده أرسل

إلى خواصه أهل الرأي من أهل الدرعية ثم أخذ رأيهم. فأذا خرجوا أرسل إلى أبناء الشيخ وأهل العلم من أهل الدرعية واستشارهم. وكان رأيه يميل إلى رأيهم ويظهر لهم ما عنده من الرأي"(63).

ولا توجد معطيات تفصيلية عن تنظيم السلطة المركزية في الدولة السعودية الأولى. وليس معروفاً ما إذا كان لدى أمراء الدرعية مجلس دائم من كبار الوجهاء والأعيان. فالمؤرخون الوهابيون يتحدثون عن وجود ديوان عند الأمير ولكنهم لا يحددون وظائفه. وعلى أي حال فقد كانت هناك دوائر أو مصالح مركزية.

علماء الدين والقضاة.. قدم علماء الدين الوهابيون دعماً كبيراً للسياسة التوحيدية لِأمراء الدرعية. وقد أوردنا أمثلة على مشاركتهم الواسعة المستمرة في أهم شؤون الدولة. وكان مؤسس الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتمتع بمنزلة رفيعة للغاية. وفي السنوات الأولى لتحالفه مع محمد بن سعود لم يكن مجرد عالم دين ومعلم ومفت. فقد قام بتنظيم القوات ومارس الشؤون الداخلية والخارجية وأجرى المكاتبات والمراسلات مع علماء الدين في الجزيرة وبشر بتعاليمه ودعا إلى التمسك بالولاء لأمير الدرعية(64). وساهم مساهمة نشيطة في تأسيس وإدارة الدولة الوهابية. كانت دعوة الشيخ قد ضبطت الوهابيين ورصت صفوفهم حول الأمير وأججت تعصبهم. وما كان عبد العزيز يوزع غنائم الحرب إلا بعد التشاور مع محمد بن عبد الوهاب.

كان محمد بن عبد الوهاب يحافظ على سمعته فلا يستأثر صراحة بدرهم واحد من غنائم الحرب. وبعد احتلال الرياض التي كانت الخصم الرئيسي للدرعية في نجد اعتزل محمد بن عبد الوهاب شؤون الدولة وأناط بعبد العزيز مراقبة بيت المال وكرس نفسه لشؤون الدين والمذهب والدعوة(65). وانهمك أبناء الشيخ وأحفاده بتأليف كتب الفقه استناداً إلى تعاليمه وبتفسير مؤلفاته(66). وعلى هذا النحو نشأت مدرسة رجال الدين الوهابيين التي ظلت سالمة بعد الغزو المصري.

وكتب ابن بشر عن أمير الدرعية يقول: "وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من... القضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد" . وبعد إنهاء التعلم كان الشبان يحصلون على هدايا كبيرة(67). وكان بيت المال ينفق على تلاميذ أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب(68). وكانت النفقات على المساجد والقائمين على خدمتها تعتبر بالطبع من أسمى وأنبل نفقات بيت المال. ويقول منجين أن المساجد في الدولة السعودية، تعتمد مالياً على جزء من العشر وعلى عائدات الأوقاف المخصصة لها. ويديرها مدير يُعَيِّنه علماء الدين"(69). ومما يؤسف له أننا لم نعثر على معطيات أخرى تثبت وجود وانتشار أموال الأوقاف في الجزيرة العربية. ويقول مؤلف "لمع الشهاب" أن محمد بن عبد الوهاب وعائلته يمتلكان أراضي واسعة، وبالإضافة إلى ذلك كان يستلم

مـداخيل هائلـة من بيت المـال وهـدايا من الأمـراء التابعين(70).

وكانت الدرعيـة ترسـل علمـاء الـدين إلى جميـع الواحـات والمـدن والقبائـل الهامـة. وكـانت مهمتهم تتلخص في توعيـة السـكان دينيـاً واجتثـاث تمسـكهم بالمـذاهب الأخـرى وفـرض أصـول الوهابيـة وإثـارة الحماسـة الحربيـة والـولاء للدرعيـة. وقـد افتتحت كتاتيب قام علماء الدين فيها بتعاليم القراءة والكتابـة وتجويد القرآن. ويقـول بوركهـاردت أن علمـاء الـدين جمعوا مكتبات كبـيرة في الدرعيـة. وقـد كـانت لـدى سعود مكتبة كبيرة أيضاً(71).

وكـان القضـاة الوهـابيون يمارسـون القضـاء مسترشـدين بالكتـاب والسـنة(72) على أسـاس المذهب الحنبلي. وكانت الشريعة تغرس بنجـاح أكـبر في الواحات التي تتسم بتمايز طبقي متطور.

أما البدو فأن الشريعة الإسلامية لا تطبق عنـدهم إلا قليلاً(73). ودخـل النظـام القضـائي الوهـابي في خلاف شـديد مـع العـرف البـدوي. وهنـاك مـبررات للافـتراض أن العـرف هـو الـذي فـاز مـع أن ازديـاد الوظـائف الإداريـة لِأعيـان القبائـل البدوية قـد وسـع إمكانيات تطبيق الشريعة. وفي الوقت الحاضر شـهد كاتب هذه السـطور محاكمـة في منطقـة مـأرب في اليمن الشـمالي. فـأن المحافـظ نظـر في النزاعـات القبلية استناداً إلى العرف وحده.

وحـدثت بعض التغيرات في مطـاردة المجـرمين قضـائياً وإنـزال العقوبـة بهم في الدولـة الوهابيـة.

وبموجب الشريعة كانوا يقطعون يد اللص أو يفرضون عليه غرامة حسب الظروف(74).

وكما هو الحال في عهد النبي محمد سعى الوهابيون إلى تقييد الثأر فاستبدلوه بتعويض قدره 100 ناقة أو 800 ريال. (أورد بوركهاردت هذه المعلومات دون أن يؤكد ما إذا كان ذلك يسري على جميع مناطق الجزيرة). ويبدو أن السعوديين تمكنوا من تضييق مفعول عادات الثأر بعض الشيء دون أن يقضوا عليها.

ولم يكن الوهابيون يعترفون بعادات الحماية التي يقدمها بعض أبناء القبائل للمجرمين.

الاقتصاد والتجارة (الجوانب الإيجابية للمركزية). لِأول مرة خلال قرون عديدة ساد الاستقرار الجزيرة العربية. وخصوصاً مناطقها الوسطى، وأن بصورة مؤقتة. فقد اتخذ الأمراء إجراءات لا هوادة فيها لِإحلال الأمن في الطرق وحماية التجارة الداخلية من النهب وحماية الملكية. وكتب المؤرخ البصري أبن سند أن ضمان الأمن والسلامة في الطرق يكاد يكون واحداً من الوصايا الأساسية للوهابيين(75). ويقول أبن بشر عن عبد العزيز "كان رحمه الله تعالى رافقاً بالرعية شديداً على من جنى جناية من الأعراب أو قطع سبيلاً أو سرق شيئاً من مسافر بحيث من فعل شيئاً من ذلك أخذ ماله نكالاً أو بعض ماله أو شيئاً منه على حسب جنايته وأدبه غير ذلك أدباً بليغاً..."(76).

واستحدث أمراء الدرعية نظام المسؤولية المشتركة للقبائل عن الأمن في أراضيها. كما ألغى

الوهابيون الرسوم التي كانت تتقاضاها القبائل لقاء "حماية" و "مرافقة" القوافل ولقاء مرورها في أراضيها.

فالتجار والرحالة، كما يقول أبن بشر "لا يخشون أحداً من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق. وليس يؤخذ منهم شيء من الأخوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج. وبطل جميع الأخوات والجوائز على دروب الأعراب التي احيوا بها سنن الجاهلية. يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام ولا يحمل سلاحاً بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء(77)... وكانت الأقطار والرعية في زمنه (عبد العزيز) آمنة مطمئنة في عيشة هنيئة. وهو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه. لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء شتاءاً وصيفاً يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك لا يخشى أحداً إلا الله لا سارقاً ولا مكابراً"(78).

وقد استفاد السكان الحضر. سكان الواحات والمدن، من استتباب الأمن والاستقرار. فقد توقفت الغارات على نخيلهم وحقولهم(79). وفي ظروف الدولة المركزية ما كان بوسع البدو أن يستحصلوا الأخاوات بالاعتماد على العنف الحربي أو التهديد باستخدامه وتهيأت مقدمات إلغاء علاقات الإتاوة. ويصعب القول إلى أي مدى سارت مثل هذه الاتجاهات.

وكتب أبن بشر يقول: "وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصسم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يتركون جميع مواشيهم في البراري والفلاة من الإبل والخيل والجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراع بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى فلاتها حتى ينقضي الربيع أو يحتاج لها أهلها... وربما تلقح وترد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها، إلا الخيل الجياد، فأن لها من يتعاهدها في فلاتها لسقيها وحدها بالحديد.

وكانت أبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم سائبات أيام الربيع في الحمادة وفي أراط والعبلة، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور أهله ويرجع أليها وهي في مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنها. وكذلك خيل أهل الوشم ونجائبهم. وهكذا يفعلون بها. وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة الموضع المعروف قرب بلد ضرمى، وفي الشعيب المعروف بقرى عبيد من وادي حنيفة وليس عندها إلا من يتعاهدها لمثل ما ذكرنا. وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك...

وكان في الدرعية راعية إبل كثيرة وهي ضوال الإبل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعاً أو فرادى، فمن وجدها من باد أو حاضر في جميع أقطار الجزيرة أتى بها إلى الدرعية خوفاً من أن تعرف عندهم... وجعل عبد العزيز عليها رجلاً يقال له عبيد بن يعيش يحفظها ويجعل فيها رعاة ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها. فكانت تلك الإبل تتوالد

وتتناسل وهي محفوظة. فكل من ضاع لـه شـيء من الإبل من جميع البادية والحاضرة أتى إلى تلـك الإبـل. فإذا عرف مـا لـه أتى بشـاهدين أو شـاهد ويمينـه ثم يأخذه"(80).

كـان الواقـع الاقتصـادي للدولـة الوهابيـة الأولى بعيداً، طبعاً، عن الصورة الطوباوية الـتي رسـمها أبن بشـر. فقـد حـدث نهب في الطـرق (وإلا لمـا عـاقب أمـراء الدرعيـة أحـداً) وحـدث هجـوم على بسـاتين وحقول السكان الحضـر، وقـامت انتفاضـات متكـررة للبدو وأهل الواحات.

وقـد وصـف المـؤرخ الحجـازي أحمـد بن زيـني دحلان النهب في الـدروب عنـدما بـدأ الوهـابيون يستولون على الحجاز تدريجياً ، وكـان أمـير مكـة هـو الشريف عبد لمعين الموالي لهم(81).

كـانت إجـراءات الوهـابيين الراميـة إلى إحلال الأمن في الطرق وإلغاء الرسوم الجمركية" الداخليـة وحمايـة الملكيـة قـد هيـأت ملائمـة للتجـارة داخـل الجزيـرة العربيـة. وتـوفر حـافز إضـافي للتبـادل في مجتمـع الجزيـرة، وهـو تبـادل متطـور أصـلاً. ولكن المقصود، ونحن نؤكد على ذلك، هو التجارة الداخليـة بالـذات، فـأن سياسـة الوهـابيين في ميـدان التجـارة الخارجية كانت تدميرية كم سنتأكد أدناه.

وقد أثرى البعض بقـدر هائـل بمقـاييس الجزيـرة من التجـارة، وخصوصـاً في سـنوات القحـط عنـدما ارتفعت الأسعار لدرجة كبيرة جداً. وكتب بوركهـاردت يقول "في نجد كانوا يتاجرون أساساً بالمواد الغذائيـة _ وأكد منجين هذه المعلومات أيضـاً(82) _ فالقبائـل

القادمة من أعماق البادية تشتري ما تحتاج أليه. وطالما أن سنوات القحط تتكرر فأن الأثرياء يكدسون كميات كبيرة من الحبوب. ولم يتدخل سعود في ذلك مطلقاً، وفي سنوات شحة الأغذية يسمح ببيع الحبوب بالأسعار التي يحددونها هم مهما كان ذلك صعباً على الفقراء، وكان يقول أن النبي محمد لم يمنع أبداً الحصول على أي ربح ممكن من الأموال"(83). وبالمناسبة فأن الوهابيين منعوا الربا طبقاً لأصول فجر الإسلام(84).

لقد ساعد تطور التجارة داخل الجزيرة على ازدهار الدرعية عاصمة الدولة. وقد زارها أبن بشر في عهد سعود وترك لنا وصفاً للمدينة حيث كتب يقول: "ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود... وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب العمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان. ولقد نظرت إلى موسمها يوما في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريف ومنازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ. ورأيت موسم الرجال في جانب... وموسم النساء في جانب وموسم اللحم في جانب وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام والبيع والشراء والأخذ والعطاء وغير ذلك وهو مد البصر. ولا تسمع فيه إلا كدوي النحل من النجاج وقول بعت وشريت

والدكاكين على جانبيه الشـرقي والغـربي، وفيهـا من الهدوم والسلاح والقماش..."(85).

ويضيف أبن بشر "وكـان قـوة هـذه البلـد وعظم مبانيهـا وقـوة أهلهـا وكـثرة رجالهـا وأموالهـا لا يقـدر الوصف صـفتها..." فلـو ذهبت أعـد رجالهـا وإقبـالهم فيها وأدبارهم في كتائب الخيـل والنجـائب العمانيـات وما يـدخل على أهلهـا من أحمـال الأمـوال من سـائر الأجناس التي لهم مع المسافرين من أهلها ومن أهل الأقطار لم يسعه كتاب...

وكان الداخل في موسمها لا يفقد أحـداً من أهـل الأفاق من اليمن وتهامـة والحجـاز وعمـان والبحـرين وبادية الشام ومصـر وأنـاس من حاضـرتهم إلى غـير ذلك من أهل الآفاق ممن يطـول عـدهم هـذا الـداخل فيها وهذا خارج منها وهذا مستوطن فيها.

وكانت الدور لا تباع فيها إلا نـادراً وأثمانهـا سـبعة آلاف ريال وخمسـة آلاف والـداني بـألف ريـال وأقـل وأكثر وكل شيء بقدره على هذا التقدير.

أجرة الدكان الواحد في الشهر خمسـة وأربعـون ريالاً وسائر الدكاكين الواحد بريال في اليـوم وشـيء نصف ريـال. وذكـر لي أن القافلـة من الهـدم إذا أتت أليها بلغت أجرة الدكان في اليوم الواحد أربعة ريال.

وأراد رجل منهم أن يوسع بيته ويعمـره فاشـترى نخيلات تحت هذا البيت يريد قطعها وتعمـير موضـعها كـل نخلـة بـأربعين ريـالاً وخمسـين ريـالاً... وكـان غلا الحطب فيهـا والخشـب إلى أعلى حـد حـتى قيـل أن حمل الحطب باغ خمسة ريـالات وسـتة والـذراع من الخشبة الغليظة بريال"(86).

لقد غدت الدرعية مركزاً تجارياً كبيراً للجزيرة العربية. فعندها تلتقي الطرق التجارية من أجزاء الجزيرة كافة. وكانت وفرة الثروات المنهوبة المتواردة على المدينة قد خلقت انتعاشاً مفتعلاً وتسببت في تجمهر أعداد غفيرة من الناس مما أدى إلى ازدياد الغلاء ولم تكن موجودة آنذاك المقدمات الاقتصادية الضرورية لِإنشاء مراكز سكنية كبرى من هذا القبيل. وتدل على ذلك الأسعار الباهظة للأخشاب والنخيل والحطب. ومع ذلك أسفرت سلامة الطرق عن تعزز الصلات الاقتصادية داخل الجزيرة بقدر ما، وأن بصورة مؤقتة.

وأدت الإجراءات الاقتصادية والسياسية والفكرية لمركزية الدولة إلى ظواهر لم يشهدها وسط الجزيرة فيما مضى. فقد ظهر اتجاه نحو تكوين وحدة فوق القبائل. وكان ذلك أمراً مدهشاً جعل المؤرخ الوهابي أبن بشر يهتف متعجباً وأن بشيء من المغالاة: "والرجل يأكل ويجلس مع قاتل أبيه وأخيه كالإخوان"(87)، ورغم المبالغة في هذا القول، فهو يدل على الاتجاه العام. وأشار أبن سند إلى أن الوهابيين أزالوا غارات البعض على البعض وصار جميع البدو رغم الفوارق بينهم، من حضرموت إلى الشام أخوة وأبناء شخص واحد. وكان بالإمكان أن يرى المرء في بعض المناطق خيمة لعتيبة وخيمة لحرب وكانوا يعيشون بوئام(88).

إلا أن العساكر ظلت هي الإدارة الرئيسية لسياسة المركزية ولرص صفوف مختلف المناطق والقبائل في إطار الدولة السعودية. وطالما أن

العشائر قوية ومظفرة ظل وجود إمارة الدرعية مكفولاً.

العساكر. كتب بوركهاردت يقول أن سعود وأباه لم يحتفظا بجيش نظامي قط ما عدا بضع مئات من الجنود المختارين كانت لهما في الدرعية(89)، ولكن جميع الرجال ما بين الثامنة عشرة والستين كانوا يعتبرون ملزمين بالخدمة العسكرية(90). وكان كل بدوي أو حضري صحيح الجسم وقوي يعتبر في الواقع محارباً.

عندما ينوي أمير الدرعية القيام بغزوة يبعث رسولاً إلى شيوخ القبائل ويأمرهم بالحضور في يوم معين إلى منطقة بئر معين. ويقول أين ببشر "ولا يتخلف أحد عن ذلك الموعد حقير ولا جليل، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك". وإذا تخلف أحد تفرض عليه غرامة. وكان أشخاص مختصون يبعثهم الأمير فيأخذون الغرامة بشكل مختلف الأموال والجياد والإبل ويضربون المذنبين"... ويعذبون المجرم بأنواع العذاب... ولا يتجاسر أحد أن يقول لهم شيئاً، أو يشفع فيه بل كلهم طائعون مذعنون"(91).

وكتب المؤرخ البصري أبن سند يقول: "فإذا أراد أبن سعود قتال قرية أو قبيلة فأولاً يرسل إلى القرى التي أطاعته ويطلب من كل قرية مقدار العسكر المفروض على تلك القرية أو القبيلة فيأتي أليه..."(92).

وكتب الرحالة الأسباني باديا ـ أي ـ ليبليخ "عندما يحتاج أمير الوهابيين إلى العساكر يكتب إلى

القبائل ويحدد عدد المحـاربين الـذين يتعين إرسـالهم أليه"(93).

وكتب منجين بهذا الخصوص: "قبيل بـدء الحملـة الحربية كان سعود يطلب من المناطق أن ترسـل لـه العـدد اللازم من العسـاكر. وكـان الأمـراء يصـدرون الأوامر لمن هم تحت سلطتهم. وكان كـل من وجهـاء المدينة والمنطقـة يقـود محاربيـه المسـلحين بنفسـه إلى المكـان المخصـص لـه ويبقى رئيسـاً وقائـداً لهم طوال فترة الحرب.

وتتشـكل في كـل منطقـة مفـارز خاصـة بقيـادة أميرهـا، وفي كـل مفـرزة كاتبـان وإمـام. وتتلخص وظيفة الإمام في أداء الصلاة في المعسكر، وهو في الـوقت نفسـه حكم في الخلافـات الـتي يمكن أن تنشأ"(94).

كانت أكبر قبائل وسط الجزيرة _ عنزة وقحطان ومطير _ تخضع لِأوامر حكام الدرعية وأن كـانت تقيم بعيداً عن مسـرح العمليـات الحربيـة(95). صـحيح أن وصف الغزوات يبين أن القبائل القريبة فقط تشـارك فيها بالقدر الكامل عادة.

وكتب منجين "إن كل محارب يحمل معه سـلاحه وطعامه وذخيرته. وكانوا يقدمون للمحـاربين الفقـراء مساعدة في التجهيز. والأثرياء يزودون أسـرة الفقـير بما تحتاج أليه. ويسـتطيع الشـخص الـذي يطلب منـه الأمير المشاركة في الغزو أن يقدم شخصاً آخـر بـدلاً منه لهذا الغرض. وهو يـزوده بكـل مـا يلـزم أو يتعهـد بمنحه جملاً أو حصاناً. ولم يكن الرجالة والهجانة على

الجمال يستلمون أي أجور. أما الخيالة فيستلمون علفاً للحصان وراتباً شهرياً"(96).

ويقول بوركهاردت أن قوت الجندي يتكون من 100 أوقية من الدقيق و 50 ـ 60 أوقية من الثمر و 20 أوقية من السمن وكيس من القمح أو الشعير للبعير وقربة ماء(97).

بديهي أن هذه الاحتياطيات أقصى ما يمكن أن يأخذه المحارب، وأن كميتها تختلف باختلاف مدة الغزوة. وقد أشار أبن سند إلى ذلك. فهو يقول أن أبن سعود نفسه يحدد مقدار الدواب أو الذخيرة التي يتعين على المشاركين في الغزوة أن يأخذوه معهم. ولكنه لم يكن يحب الغزوات التي تطول أكثر من شهر، كي لا يزود الجنود العتاد والأغذية بنفسه. ففي الغزوة التي لا تزيد على شهر يتزود المحاربون بما هو ضروري بأنفسهم، وإذا زادت الفترة على الشهر فأن أمير الدرعية يقدم لهم جزءاً(98). وإذا جاء المتطوعة سيئي التجهيز فأن الأمير الوهابي يعيدهم من حيث جاءوا، ثم يعاقب الواحات أو القبائل التي أرسلتهم أليه بهذه الصورة.

إن المئونة الشخصية التي يتزود بها المحاربون تعفي بيت المال من الاهتمام بتغذيتهم وتزيد من استقلالية العساكر في الحملات. إلا أن تجنيد المحاربين وتهيئة المئونة لهم كانا عبئاً ثقيلاً على القسم الفقير من السكان. فهم لا يستطيعون، مثل الأغنياء، أن يقدموا البدل من الخدمة العسكرية، وكانوا يضيعون الأيدي العاملة، ولا يمكن لأي معونة أن تعوض عن فقدان المعيل. ولا يعول المحاربون

ألبسطاء الذين يشاركون في الغزوات على شيء سوى حصة في الغنائم. ولذلك فأن سكان الواحات والبدو، كما يقول بوركهاردت كانوا كثيرا ما يتهربون من المشاركة في الحملات(99).

وبعد اقتطاع خمس غنائم الحرب لصالح أمير الدرعية يقسم الباقي على المحاربين: ومن المقرر أن الفارس، أي ممثل الوجهاء والأعيان، يستلم بقدر حصتي الرجالة. وفي الواقع كان الوجهاء، على ما يبدو، يستأثرون بحصة الأسد. وأشار رايمون إلى أن الجند في عهد عبد العزيز كانوا يتشكون من الظلم في توزيع الغنائم، حيث يستلم قادتهم حصة الأسد. وكان يتعين على أمير الدرعية أن يتدخل ويحق الحق(100).

وكتب بوركهاردت أن حرس أمراء الدرعية يتكون من أفضل الجنود وعددهم 300 شخص. وهذا الحرس هو الاحتياطي الرئيسي في سوح القتال. وهم مسلحون جميعاً أفضل تسليح وينفق الأمير عليهم(101). ولا يذكر المؤرخون النجديون شيئاً عن مثل هذا الحرس. فهم يتحدثون فقط عن العبيد المسلحين. ويبدو أن الحرس الشخصي للأمير يضم المماليك المسلحين والأحرار.

كان سعود منذ الطفولة وحتى الشيخوخة يحب الغزو والجهاد. وشارك معه في الغزوات علماء الدين من الدرعية والواحات القريبة. وكان يترك في العاصمة أحد أبنائه خليفة له، وهو عبد الله في أغلب الأحوال(102). ويقول أبن بشر أن سعود يثير

الرعب في الأعداء "فإذا سمعوا بمغزاه هرب كل منهم وترك أخاه وأباه وماله وما حواه(103).

ويقول منجين "خلال الحملات النهارية والليلية تخصص مقدمة ومؤخرة. وتتقدم العساكر بطابور أو عدة طوابير تبعاً للملابسات. وكان الأمراء دوماً يقودون المحاربين الخاضعين لهم. وتسير الخيالة والهجانة في مقدمة الطابور وفي مؤخرته. والوسط يخصص للمدفعية والرجالة الذين يمتطي كل أثنين منهم جملاً.

وأثناء الحملات يقتات الوهابيون على التمر مع لبن الإبل ونادراً ما يتناولون الخبز واللحم.

ويدخل الوهابيون المعركة بشكل كتائب. ويترك الرجالة الجمال تحت رعاية الخدم(104). وعندما يقترب العدو أو يتفوق تغدو الجمال بمثابة الدروع الواقية للمتحاربين. وتتكون كل كتيبة من سكان منطقة معينة يتزعمهم أمير أو وجيه قروي. صفوف المحاربين مزدوجة وعندما يتعب الصف الأول أو يتكبد خسائر كبيرة يحل محله الصف الثاني. وتنقل جثث القتلى من ساحة القتال ومن العيب عدم مواراتهم التراب. وفي حالة الهزيمة تنسحب العساكر بلا ذعر ولا اضطراب. وإذا مني العدو بالهزيمة فإن الرجالة لا تطارده، ولكن الخيالة والهجانة تطارده لمسافة معينة"(105).

وفي المعسكر "يعرف كل فرد مكانه. والقائد في وسط المعسكر. والخيالة حول خيمته. وعلى مقربة من المعسكر مخافر الرجالة والخيالة. ويجري استبدال الخفراء كل أربع وعشرين ساعة. وفي

النهـار الجميـع ينـامون ولا ينهضـون إلا لِأداء الصـلاة خمس مرات. وفي الليل يتجـاذبون أطـراف الحـديث ويجودون القرآن ويحكون الحكايات والقصص.

كـان الانضـباط متشـدداً عنـد الوهـابيين. فالقائـد الـذي لا يـؤدي واجباتـه أو الـذي يبـدر منـه مـا يثـير الشكوى يُنّحى من منصبه وأحياناً تفرض عليه غرامة. وتجـري معاقبـة الجنـود المـذنبين بالجلـد بالعصـي. وأحياناً تفـرض عليـه غرامـة. وتجـري معاقبـة الجنـود المذنبين بالجلد بالعصي. وإذا اقترف الجنـدي جريمـة كبيرة تقطع رقبته. ويفعلون به الشيء نفسـه إذا فـر من العدو"(106).

وفي الواحـات الكبـيرة والمـدن (في الأحسـاء والقصـيم ومكـة والمدينـة) كـانت لِأمـراء الدرعيـة حاميات من النجديين الموالين لهم(107).

كانت عساكر الجزيرة العربية مسلحة بالسـيوف والحراب والخناجر والرماح القصيرة للرجالة والدروع والهـراوات والبنـادق الحارقـة والمسدسـات(108). وكـان الوهـابيون يصـنعون البـارود بأنفسـهم(109). وأحياناً كانوا يرتدون خوذاً وأردية حماية جلدية(110). وكـانت لـدى الوجهـاء قمصـان من زرد(111). ولـدى المحـارب كـذلك خنجـر مشـدود إلى حزامـه وحقيبـة مليئـة بـالخراطيش. وكـان لـدى البعض مسدسـات(112). ولم تستخدم البنادق الحارقـة كثـيرا، فلم يكن السلاح الرئيسي لدى العساكر. ويقـول أبن بشـر أنـه كان لدى سعود 30 مدفعاً كبيرا و 30 مدفعا صـغيرا(113). وقد تم الاستيلاء على أكـثر هـذه المـدافع من العدو ولم تستخدم تقريباً في القتال.

وبلغ عدد العساكر تحت رايات أمير الدرعية 50 ألفاً(114) وكان الأوروبيون ميالين إلى المبالغة، فيذكرون أرقاما مثل 100 و 120 ألف وحتى 200 ألف (115). لم يكن للوهابيين نظير في شبه الجزيرة، ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا منتصرين دوما.

مقدمات تحلل وسقوط الدولة السعودية الأولى. اتضح أن مهمة إخضاع شبه جزيرة العرب كلها كبيرة على أمراء الدرعية. فأن أراضي الجزيرة الشاسعة وسوء طرق المواصلات عبر البوادي القاحلة والجبال الوعرة جعلت المناطق منعزلة عن بعضها بعضاً وخلقت الصعوبات أمام الغزوات وتموين العساكر. ولم تكن الطاقات والعساكر كافية لِأمراء الدرعية كي يخضعوا المناطق الجبلية في اليمن وحتى في الحجاز وساحل مسقط وحضرموت، وكي يثبتوا مواقعهم في تهامة ونجران. وكان ذلك يُشّكل تهديداً متواصلاً ومصدراً للاضطراب في أطراف الدولة وأرغم الوهابيين على تبديد قواهم وأموالهم على العمليات الحربية التي لم تنته دوماً بالعقوبة المثلى "للمشركين" وبثواب "الموحدين" بغنائم وفيرة.

ولم تكن العساكر الوهابية خارج شبه الجزيرة العربية وفي المناطق الصحراوية بقادرة على خوض معارك كبيرة ناجحة. فبعد غزو كربلاء، كما أسلفنا، لم تقع في أيدي الوهابيين أي مدينة محصنة وأن كانت صغيرة في الشام أو العراق. كانت عساكر

السعوديين تحجم أمام المدن المحصنة والمحمية ببسالة وبمعرفة في الفن العسكري.

كانت حماسة الوهابيين في الهجوم تتسم بطابع حروب الغزو في القرون الوسطى. ومن الصعب التكهن بمصير دولتهم لو كانت قد ظهرت قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون. بيد أن سير التطور التاريخي لا يعترف بأي افتراضات. فعندما تجاوز الوهابيون إطار الجزيرة العربية التي كان مستواها هو مستوى القرون الوسطى اصطدموا بالقوات الأكثر تطوراً للإمبراطورية العثمانية والتي سبقتهم من حيث التطور بعدة قرون. في تلك الأثناء كانت بعض ولايات الإمبراطورية العثمانية تقوم بمحاولات مستميتة، وإن دون جدوى حتى ذلك الحين، من أجل التحول إلى دولة عصرية. وتبنت بالدرجة الأولى التكتيك الحربي الأوروبي والتنظيم العسكري الأوروبي. ومني الوهابيون بالهزيمة في الصدام مع جيش مدرب ومسلح على الطريقة الأوربية.

ويكمن في وقف التوسع بحد ذاته خطر على وجود الدولة السعودية. فإن المشاركة في الغزوات الموافقة والنهب المشترك، كما أسلفنا، هما الأمر الرئيسي الذي وحد وجهاء وأعيان مختلف الواحات والقبائل. وعندما تباطأ التوسع العسكري لِأمارة الدرعية بعد أن بلغ حدوده الطبيعية، ثم توقف في الواقع فقد التوحيد كثيراً من جاذبيته بالنسبة لوجهاء الجزيرة. وتقلص ورود الثروات المنهوبة. وصار بوسع الوجهاء الإقطاعيين أن يحصلوا على مداخيل أكثر عن طريق تطبيق سياسة مستقلة وممارسة الغزو

التقليـدي. وكـانت القبائـل البدويـة الجبـارة تشـعر خصوصاً بثقل نير الدولة المركزية. فـالكثير من البـدو الذين لم يكونوا يعرفون الضرائب في السـابق وأبـدا صـاروا يسـددون الزكـاة الإلزاميـة خوفـاً من التنكيـل الشـديد، وكثـيراً مـا أخـذوا يتمـردون. وكـان البـدو مسـتعدين دومـاً للتخلص من نـير الوهابيـة. ولم يكن اعترافهم بالوهابية إلا ظاهرياً كما يقول بوركهـاردت(116). وكـانت غنـائم الحـرب تعـوض بشـكل مـا عن تسـديد الزكـاة وفقـدان مـداخيل مختلـف أنـواع الاخاوات، ولكنـه في حالـة توقـف الغـزوات الناجحـة صار عبء الدولة المركزية عبئاً ثقيلاً لا يطاق.

كان الاسـتغلال الضـرائبي والإتـاوات والغرامـات في بعض الحـالات أثقـل من مزايـا السـلامة والأمن والاستقرار. وعند ذاك كانت قبائـل ومنـاطق بكاملهـا برفض دفع الإتاوات(117). وكان سعود يقـوم سـنوياً بعـدة حملات ليس فقـط على أطـراف الجزيـرة المتمردة أو ولايات الإمبراطورية العثمانية، بل كـذلك على القبائل والمناطق المتمردة في دولته.

وسارت داخل الدولـة السـعودية عمليـة التعمـق المتزايدة في فـوارق الملكيـة والتناقضـات الطبقيـة. وصار وجهاء وسط الجزيرة الذين أثروا من الغـزوات يبتعـدون أكـثر فـأكثر عن بسـطاء البـدو والفلاحين ويتذوقون طعم الترف والفخفخة. وتعمقت الهوة بين الدعوة الوهابية الموجهة إلى الرعية وبين نمط حيـاة الوجهاء والأعيان.

وكـانت الحملات البعيـدة تلهي فلاح نجـد عن الأعمـال الزراعيـة دون أن تكـافئهم دومـاً بالغنـائم.

وكانت من أسباب تذمر قسم من السكان الحضر ضرورة تسديد بدل الإيجار للإقطاعيين أو للدولة بالإضافة إلى الزكاة.

إن تضاؤل مصلحة الوجهاء والأعيان في وجود الدولة المركزية بعد توقف التوسع، وتذمر البدو وأعيانهم من سلطة السعوديين، وخيبة أمل الفلاحين المزارعين في أمراء، الدرعية والوهابية ـ كل ذلك كان مقدمات موضوعية، خارجة عن إرادة الأمراء، لتحلل الدولة المركزية في الجزيرة العربية. كانت تلك المقدمات موجودة بشكلها الكامن، ولكنها لم تظهر إلا بعد فترة زمنية طويلة نسبياً. إلا أن بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية التي فرضها التعصب الضيق على أمراء الدرعية قد أدت إلى تفاقم الصعوبات أمام الدولة وعجلت في تحللها.

وكان تعصب الوهابيين الشديد قد حملهم على قطع العلاقات التجارية مع "المشركين"، أي غير الوهابيين. وحتى عام 1810 ظلت التجارة مع الشام والعراق محرمة(118). وكانوا إذا وجدوا تاجراً في طريق يؤدي إلى "المشركين" صادروا بضاعته كلها(119). ومن السهل تصور الضربة الفظيعة التي تتلقاها الحياة الاقتصادية في بعض المناطق في حالة التطبيق الحرفي للأوامر المتعصبة.

بيد أن الحاجات الاقتصادية كانت أقوى ن القرارات المتهورة والتعصب الأعمى. فقد تقلصت تجارة الجزيرة مع "المشركين" ولكنها ظلت مستمرة. وفي فترة تأزم العلاقات مع مصر والعراق والشام لم تتوقف تجارة القمح(120). وكان

الوهـابيون أنفسـهم يـبيعون في الهنـد المجـوهرات المنهوبـة(121). إن أمـراء الدرعيـة عنـدما قـاموا بمحاولة فاشلة لِإقامة "الحصار الذاتي" على الجزيرة وعجزوا عن الاستغناء عن التجـارة مـع "المشـركين" قد أساءوا إلى سمعتهم هم.

وكـانت سياسـة الوهـابيين تدميريـة خصوصـاً بالنسبة للحجاز. وكانت الضربة الأشـد قـد نجمت عن منع وصول أغلبية الحجاج من الإمبراطورية العثمانية. ولم يعـد البـدو يسـتلمون بـدل مـرور القوافـل عـبر أراضيهم ولا أجور دواب الحمل. وفقد عـدد غفـير من المتسـولين المحـترفين والإدلاء وسـدنة العتبـات المقدسة مداخيلهم. ولم تعد هدايا السلطان السنوية تصل إلى الحرمين(122). وبنتيجـة ذلـك، كمـا يقـول الجبرتي، لم يعد سكان مكـة والمدينـة يسـتلمون مـا يعيشون عليـه: الصـدقات والأغذيـة والنقـود. فأخـذوا نساءهم وأطفالهم وتركوا ديـارهم ولم يبـق هنـاك إلا الذين لم يكونوا يعتمدون على تلـك المصـادر للعيش. وتوجه أولئك الناس إلى مصر والشـام وسـافر قسـم منهم إلى الأستانة(123).

وعنـدما اجتـاحت المجاعـة بسـبب الجفـاف المـرعب الجزيـرة العربيـة طـوال خمس أو سـت سنوات كانت الأغذية تصل إلى الحجـاز مـع ذلـك من بلدان أخـرى. بيـد أن عملياً الوسـاطة أو السمسـرة وبيع البضـائع من قبـل الحجـاج هي الأنـواع الرئيسـية للتجارة في الحجاز. وهي بالذات الـتي تضـررت أكـثر من غيرهـا. وتقلص مـرور البضـائع عـبر جـدة بسـبب التقلص الشديد في عدد الحجاج الذين كـان كثـير من

البضـــائع يجلب من أجلهم، في حين أن تجـــار البن والأقمشة الهندية لم يجرءوا على الظهور في المرفأ، لأنهم يُعاملون معاملة "المشركين". وأصـاب الكسـاد التجارة مع مصر. وتجلى الأثر السلبي لذلك كله ليس فقط عند التجار الأثرياء بل كذلك بسـطاء النـاس في جـدة ومكـة ومـدن أخـرى، لأنهم هم أيضـاً مرتبطـون بالتجارة. وأصاب الإفلاس كثـيرين منهم، وخلت جـدة من أهلها(124).

وألغى أمـراء الدرعيـة مختلـف الإتـاوات الجـائرة وحـالوا دون الابـتزاز من جـانب شـريف مكـة أو آغـا المدينة المنورة. ولكنهم فرضوا الزكـاة الإلزاميـة في المناطق غير الخاضعة للشـريف مباشـرة. ويمكن أن نتصور مشاعر البدو أو سكان المدينة المنـورة الـذين فقـدوا مـداخيلهم من الحج وصـاروا مضـطرين على تسديد الزكاة.

لقد تركت لشريف مكة مداخيله، ولكنها تقلصـت كثيرا بسبب تقلص توارد الحجاج وركود التجارة ومنـع استحصال الرسوم من التجـار الوهـابيين، ناهيـك عن الأثر الذي تركة فيه فقدان الاستقلال السياسـي. ولم تكن المشـاركة في الغـزوات لتبشـر سـكان الحجـاز عمومـاً بخـير، فقـد تعـودوا الحصـول على أسـباب العيش بأسـاليب أسـهل. ويكفي القـول أن سـكان المدينة المنورة الذين كانوا يمتلكون جياداً قد باعوهـا فوراً لتفادي الاستدعاء للخدمة في عساكر الوهابيين(125).

وكانت العادات الصارمة "النقية" التي استحدثت في مكـة تتعـارض مـع عـادات ومفـاهيم سـكانها. إن

الانتماء إلى الحرم الشريف قد ولد لدى سكان مكة شعورا بالتفوق على سائر المسلمين، الأمر الذي قدم لهم تبريرات جاهزة للتسيب(126).

وكانت الأنظمة الجديدة تحظى بتأييد علماء الدين الأتقياء والمؤمنين الصادقين، ولكنها كانت ثقيلة على أغلبية السكان. وكان ثقيلاً أيضاً الشعور بالإهانة بسبب الخضوع للنجديين لأول مرة بعد قرون عديدة.

إن كل هذه العوامل الاقتصادية والسياسية والسيكولوجية قد أثارت في الحجاز جو العداء والحقد على الوهابيين الذين كانت مكانتهم وسلطتهم تستندان إلى القوة العسكرية فقط.

وكان بوسع أي دافع خارجي قوي أن يؤدي إلى بدء عملية تحلل الدولة السعودية الأولى، في حين أن التناقضات التي كانت تفتتها من الداخل ببطء قد اكتسبت طابعاً تدميرياً.

الفصل الخامس

دحر الوهابيين على أيدي المصريين (1811 _ 1818)

مقدمات لتوسيع الحملة المصرية على الجزيرة العربية. كان احتلال الوهابيين لمكة والمدينة المنورة قد الحق ضرراً بسمعة السلطان العثماني سليم الثالث.فأن خليفة المسلمين وسادن

الحرمين الشريفين لم يكن قادراً على تأمين الحج لرعيته وهو واحد من أركان الإسلام الخمسة.

وبعد الإطاحة بالسلطان سليم الثالث حاول السلطان الجديد الذي كان في السابق لعبة في أيدي الإنكشارية إعادة الحجاز مهما كلف الثمن إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية، وأتضح إنه لا أمل في محاولات دفع والي بغداد ودمشق إلى العمليات النشيطة ضد الوهابيين.

وكانت الإمكانية الواقعية الوحيدة لدحر إمارة الدرعية هي استخدام قوات والي مصر الذي أخذ يتقوى.

وعندما ترسخت أقدام محمد علي في مصر وصار والياً على القاهرة في عام 1805 . كلفه الباب العالي بمهمة استعادة الحرمين من الوهابيين. كان الوالي الجديد مشغولاً بتعزيز سلطته ومكافحة منافسيه والمماليك والدفاع عن مصر دون الإنجليز ومهتماً بالإصلاحيات الداخلية فلم تكن لديه طوال عدة سنوات قوى كافية لمعالجة شؤون الجزيرة العربية. ولكنه اعتباراً من نهاية عام 1809 أخذ يبدي اهتماماً جدياً بالتحضير للحملة (1).

ولم تكن رغبة الباب العالي السبب الرئيسي الوحيد الذي دفع حاكم مصر المستقل في الواقع للقيام بحملة طويلة الأمد وباهظة التكاليف على الجزيرة العربية كان محمد علي يأمل من وراء تحرير الحرمين الشريفين بتقوية سمعته في الإمبراطورية العثمانية كلها وبكسب شعبية كبيره. وكانت خطط والي القاهرة، مثل خطط علي بك في

حينه، تستهدف السيطرة على تجارة السلع الهندية والبن اليمني التي تمر عبر جدة، ثم الاستيلاء على اليمن نفسه. وكان محمد علي ينوي كذلك، من وراء الشعارات النبيلة لتحرير مكة والمدينة المنورة، إخراج الجنود الذين نصبوه على دست الحكم في مصر ولكنهم تحولوا إلى قوة خطيرة للغاية وصاروا يقيدون أعماله. وأخيراً فأن الباب العالي قد وعد، على ما يبدو، في مباحثات غير رسمية بتسليم ولاية دمشق إلى أحد أبناء محمد علي حالما يتم تحرير مكة والمدينة(2).

كان بضع مئات من العمال يمارسون بناء السفن في السويس، وحتى آذار (مارس) 1810، كانت هناك تقريباً عشرون سفينة جاهزة(3).

ثم بنيت عدة سفن أخرى. وحول المصريون أحد مرافئ البحر الأحمر إلى قاعدة رئيسية لتموين الحملة وعززوا القلاع في القسم الشمالي من طريق قوافل الحجاج من مصر إلى الحجاز حيث أرسلوا إليها حاميات من الجنود المغاربة المرتزقة، ووزعوا الهدايا على القبائل البدوية(4).

وفي الأول من آذار (مارس)، فتك والي مصر بالمماليك في قلعة القاهرة، ثم استمر قتلهم في المدينة كلها. تمت تصفية منافسي محمد علي الخطرين في الوجه البحري.

وكانت الحرب في أوروبا قد أزالت مؤقتاً خطر اقتحام دولة من الدول الأوروبية لمصر وساعدت على القيام بالحملة على الجزيرة العربية.

وعين لقيادة الحملة طوسون بن محمد علي وهو فتي شجاع كان ما يزال آنذاك في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر(5).

وبغية الحصول على تأييد شريف مكة غالب بدأ محمد علي مراسلات سرية معه. ووعده الشريف بالتأييد. وكانت المعلومات التي حصل عليها رجال محمد علي تبعث على الارتياح. فأن سكان الحجاز يكنون العداء للوهابيين وكأنما كانوا ينتظرون "الأتراك" كمخلصين لهم. (في بادئ الأمر دخل محمد علي الجزيرة العربية وكأنما نزولاً عند إرادة السلطان العثماني، لذا استقبل السكان جيشه بوصفه جيشاً تركياً). وكانت مثل هذه المعلومات تتوارد على حاكم مصر من مصادر أخرى أيضاً، فقرر أن الوقت قد حان(6).

هزيمة طوسون في وادي الصفراء.

في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر لوحظ ضعف العمليات الهجومية لِإمارة الدرعية. فبعد تدمير كربلاء والاستيلاء على الحجاز لم يحقق الوهابيون انتصارات كبيرة. فقد ألحق الإنجليز المتحالفون مع أهل مسقط عدة هزائم شديدة بالوهابيين في البر والبحر ومكنوا البحرين من الخروج على الدرعية. وقامت في عمان تمردات متواصلة على الوهابيين.

وأدى الجفاف والقحط في الجزيرة العربية لسنوات عديدة وحتى عام 1809 إلى إضعاف تحرك الدولة السعودية. ومما زاد في الطين بلة وباء الكوليرا الذي تفشى آنذاك. ففي الدرعية وحدها كان يموت يومياً عشرات الأشخاص(7).

وكـانت الخلافـات في الأسـرة الحاكمـة تفتت سلطة السعوديين من الداخل.

إلا أن الدولـة السـعودية احتفظت ببعض جوانبها القوية. فإن تعصب الوهابيين القتالي لم يستنفذ بعـد. وكان أمراء الدرعية ما يزالون قـادرين على الاعتمـاد على مفـارز صـلبة من حضـر نجـد وبعض القبائـل البدوية. ثم أن الطبيعـة الصـعبة في الجزيـرة أخـيراً كـانت إلى جـانب الوهـابيين في الكفـاح ضـد العـدو الخارجي.

كـان الجيش المصـري المكـون من المرتزقـة الأتراك والألبان والمغاربة مسلحاً بصورة جيدة، ولديه مدفعية. وكانت لدى العديد من قادته خـبرة الحـروب ضد الفرنسيين والإنجليز وكانوا مطلعين على التكتيك الحربي الأوروبي. بيد أن الانضـباط والمعنويـات عنـد الجيش لم تكن عالية آنذاك.

وفي آب (أغسـطس) 1811، أرسـل قسـم من القوات المصرية إلى الحجاز بحراً للاستيلاء على ينبـع بواسـطة الإنـزال، بينمـا تـوجهت الخيالـة بقيـادة طوسون إلى هناك براً. ويقول بوركهاردت أنه أرسـل عن طريـق البحـر 1500 جنـدي، بينمـا وصـل مـع طوسـون 800 فـارس (يـذكر عبـد الـرحيم أ. عبـد الـرحيم، اسـتناداً إلى الارشـيفات المصـرية، إن عـدد الذين جاءوا معه ثلاثة آلاف، بمن فيهم البدو). ووصل مع طوسون واحد من أفضل القادة العسـكريين عنـد محمد علي وهو أحمد الملقب بونابرت، وكـان بمثابـة مستشار عسكري عنده وكان هو القائد الفعلي.

وفي تشـرين الأول (أكتـوبر) من العـام نفسـه احتلت قوات الإنـزال البحـري المصـرية مدينـة ينبـع، ولم تكن فيها قـوات وهابيـة، بـل كـانت هنـاك حاميـة صغيرة خاضعة لشـريف مكـة ولم تبـد في الواقـع أي مقاومة (8). ونهب الجنود كل مـا كـان في ينبـع "من الودائـع والأمـوال والأقمشـة والبن وسـبوا النسـاء والبنات الكائنات بالبندر وأخـذوهن أسـرى ويـبيعونهن على بعضـهم البعض" (9). ومن المسـتبعد أن يحظى سلوك الجنود هذا باستحسان السكان بيد إن المهمـة الرئيسية للمرحلة الأولى من الحملة قـد نفـذت فقـد تم الاستيلاء على رأس جسر هام لمواصلة العمليات ضد الوهابيين.

وفي تشـرين الثـاني (نوفمـبر) وصـل طوسـون وخيالتـه إلى ينبـع .ويقـول أبن بشـر أن أكـثر من 14 ألف شخص تحشدوا في ينبـع(10). وحـتى لـو أخـذنا في الاعتبـار أن بوركهـاردت حـاول التقليـل بعض الشيء من تعداد القوات المصرية فأن عـدم تطـابق أرقامه مع أرقام المؤرخ النجدي يثير الدهشـة. ويبـدو أن حاميـات أخـرى أرسـلها محمـد علي سـابقاً إلى القلاع على طريـق القوافـل قـد التحقت بقـوات طوسون في مسيرتها بالإضافة إلى بعض البدو(11).

ظـل طوسـون عـدة أسـابيع في ينبـع، وبعـد أن وصلته إمدادات من مصـر سـار بقواتـه نحـو المدينـة المنورة.

كان سعود مطلعـا على اسـتعدادات محمـد علي الحربية، فقد أطلعه مخبروه في القاهرة على أنبائها.

ويبدو أن ذلك هو سبب اهتمامه المتواصل بتعزيز المدينة المنورة. وعندما احتل طوسون ينبع عبأ سعود أفضل قواته وارسلها إلى الحجاز بقيادة أبنه عبد الله. وشغل 18 آلفا من الوهابيين، بمن فيهم 600 من الخيالة، مواقعهم عند وادي الصفراء على منتصف الطريق بين ينبع والمدينة(12).

ونشبت المعارك الحاسمة في كانون الأول (ديسمبر). كان جيش طوسون يلاحق قبيلة حرب التي لم يقم معها علاقات ودية فدخل في ممر جبلي ضيق قرب وادي الصفراء وتعرض لضربات قوات الوهابيين المختارة التي لم يكن لطوسون أي علم بوصولها. وفر الجيش المصري البالغ تعداده 8 آلاف شخص. ولم تنقذ الموقف بسالة طوسون شخصياً. فقد دُمرت قواته تدميراً وفقدت نصف أفرادها. ولم ينقذ المصريين من الهلاك عن بكرة أبيهم إلا انشغال الوهابيين بنهب المعسكر الذي تركوه، فعادت إلى ينبع بقية ضئيلة من قوات طوسون إلا أن الوهابيين لم يهاجموا هذه المجينة. فظل المصريون يحتفظون بأهم رأس جسر(13).

ووصف الجبرتي سلوك جنود طوسون حالما لاحت أولى علامات الهزيمة: "فما يشعر السفلانيون إلا العساكر اللذين في الأعالي هابطون منهزمون فانهزموا جميعاً وولوا الأدبار وطلبوا جميعاً الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله وأخذ دابته وساروا طالبين

الوصول إلى السفن بساحل البريك لِأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البريك من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا أن القوم في أثرهم والحال أنه لم يتبعهم أحد لأنهم لا يذهبون خلف المدبر ولو تبعوهم ما بقي منهم شخص واحد فكانوا يصرخون على القطائر فتأتي إليهم القاطرة وهي لا تسع إلا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها فيصعد منهم الجماعة ويمنعون الباقي من إخوانهم فأن لم يمتنعوا منعوهم بالبنادق والرصاص..."(14).

كان الجبرتي من الأزهريين المعارضين لمحمد علي. وقد قدم توضيحاته لأسباب هزيمة القوات المصرية: "وقد قال لي بعض أكابرهم الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً وصَحَبَتْنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم إذا دخل الوقت أذّن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف أمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط والشاربين الخمر والتاركين للصلاة الأكلين الربا القاتلين الأنفس المستحلين المحرمات(15).

وبالإضافة إلى الأسباب العسكرية الصرف - عنصر المباغتة عند الوهابيين وسوء المواقع عند القوات المصرية، وتدهور معنويات جنود طوسون - لعب دوراً كبيراً عجزه في تلك الفترة عن إقامة علاقات ودية مع القبائل البدوية المحلية. فإن قوات طوسون مرت بمناطق كان سكانها حلفاء للوهابيين ولم يقرروا بعد مهاجمتهم.

احتلال الحجاز. كان تصحيح الأوضاع قد تطلب استمالة شيوخ البدو المحليين. وتطلب ذلك أموالاً. وسرعان ما وصلت تلك الأموال من مصر.

كتب قنصل روسيا في مصر ش. روسيتي: يقول "إن استمرار تصدير الأطعمة من هنا (من الإسكندرية إلى مالطة وأسبانيا يقدم له (لمحمد علي) وسيلة لسد العجز في خزينته ويمكنه من إنفاق الأموال على استئناف هذه المدينة... وعلى الاستعدادات الهامة للحملة على عبد الوهاب. والحال تصل من تركيا إلى الإسكندرية بلا انقطاع قوات جديدة يرسلها هو بفصائل صغيرة إلى ينبع عن طريق السويس. ويقال إن عبد الوهاب يتخذ من جانبه إجراءات نشيطة لمواجهة هذه الحملة الجديدة. ويوجد خلاف شديد بين عبد الوهاب المذكور وشريف مكة..."(16).

وكتب ش. روسيتي كذلك عن الإشاعات الدائرة عن الاستعداد للحرب بين فرنسا وروسيا وكان ذلك قد ساعد والي القاهرة في العمل دون أن يعبأ كثيراً بالدول الأوروبية.

ووصلت "إلى ينبع إمدادات جديدة ومعدات حربية، واجتذب طوسون بالهدايا الكبيرة شيوخ قبائل جهينة وحرب وكثيراً من الحضر. وخصص راتباً شهرياً لكل شيخ من شيوخ القبائل(17). كان التذمر من الوهابيين في الحجاز قد تحول من زمان إلى حقد، ولذلك أخذت سياسة طوسون هذه تعود بثمارها.

وفي خريف 1812، توجه طوسون على رأس قوات كبيرة نحو المدينة المنورة واقترب منها في تشرين الأول (أكتوبر) دون أن يواجه مقاومة في الطريق(18). وكانت حامية من الوهابيين بسبعة آلاف شخص تدافع عن المدينة، إلا أن المرض، كما يقول ابن بشر، أصاب قسماً كبيراً من الجند. ولم يكن سكان المدينة راغبين في القتال إلى جانب الوهابيين.

وأخذ طوسون يقصف المدينة بالمدفعية ففتحت الانفجارات ثغرات في أسوارها. واستسلمت المدينة المنورة. والتجأت حامية الوهابيين إلى قلعة المدينة، ولكن الجوع أرغمها على ترك القلعة بعد ثلاثة أسابيع في تشرين الثاني (نوفمبر). ووعد طوسون بالسماح بجلاء بقايا الحامية الوهابية بشروط مشرفة(19). ويقول منجين إن جنود طوسون تصرفوا تصرفاً نبيلاً(20). إلا إن بوركهاردت المطلع عن كثب على سير الحملة يقول أن هؤلاء الجنود قتلوا ونهبوا في الطريق أغلبية الوهابيين (21). وارسلت إلى القاهرة 4 آلاف أذن اقتطعت من الوهابيين واعدت لإرسالها إلى الأستانة (22). وانتقل آغا المدينة المنورة حسن إلى صف المصريين ولكنه اعتُقِل

ونُفي إلى الأستانة حيث أُعدِم. وعُين حاكماً للمدينة بدلاً منه توماس قيس وهو اسكتلندي أُسر في مصر واعتنق الإسلام (23).

ولعب الشريف غالب على حبلين. فقد كان مسروراً لهزيمة الوهابيين وكان يأمل في التخلص من ظلمهم بمساعدة المصريين. إلا أنه لم يكن راغباً في تقوي مواقع والي القاهرة في الحجاز لدرجة كبيرة. وكان افضل ما يُناسب غالب هو استنزاف القوات المصرية وقوات الوهابيين وعودة السلطة الفعلية في الحجاز إليه.

وهاهو يقسم الولاء من جديد لسعود الذي أدى فريضة الحج آخر مرة في نهاية عام 1812(24)، ويستعد لتسليم مكة وجدة إلى قوات والي القاهرة. وفي تلك الفترة كان معسكر قوات عبد الله يرابط ليس بعيداً عن مكة. إلا إن مصنفات أبن بشر والمصادر الأخرى لا تشير إلى قيام الوهابيين باستعدادات ما لعمليات حربية. ولم تكن سلبية سعود وأبنه تعني بأنهما لم يفهما مدى الخطر الذي يتهددهُما. ولا يمكن أن يُفسر سكوتهما إلا بالحالة الداخلية للدولة الوهابية وعدم الاستقرار في المؤخرة وعدم أمانة البدو.

وفي كانون الثاني (يناير) 1813، أحتل فصيل مصري غير كبير مدينة جدة بلا قتال. وخوفاً من تلقي ضربة غادرة من غالب سحب عبد الله الحامية الوهابية من مكة وانسحب بجيشه كله إلى الخرمة. وفر عثمان المضايفي وعائلته من الطائف. وسقطت مكة، والطائف بعد بضعة أيام، ووقعتا في يد

طوســـون بلا قتــال(25). وأعلن غــالب، وعلى أثــره قبائل الحجاز البدوية، الولاء للأسياد الجدد.

وانـتزع المصــريون الحجــاز من الوهــابيين بـدون جهود حربية كبيرة رغم هزيمتهم الفادحة ولعب الدور الحاسم في انتصارهم عداء الحجازيين لأمير الدرعيـة وللوهابية وكذلك الذهب المصـري الـذي وزع بسـخاء على وجهاء وأعيان البدو وعلى البدو أنفسهم، وأخيراً انتقال شريف مكة إلى جانب والي القاهرة.

وبمناسـبة احتلال المـدينتين المقدسـتين أقيمت في القــاهرة احتفــالات صــاخبة أطلقت فيهــا نـيران المدافع وأجـرت الألعـاب الناريـة. وتوجـه رسـول من محمد علي إلى الأستانة يحمل مفاتيح مكـة والمدينـة المنورة وجدة. وكتبت السفارة الروسية من الأسـتانة تقول: "حضر جميع أعضاء الحكومة العثمانية لاستلام المفــاتيح في مســجد أيــوب، ومن هنــاك نقلت إلى الســلطان في الســراي. وفي ذلـك اليـوم دوت ثلاث مرات صليات المدفعيـة من جميـع بطاريـات المدينـة والأســطول ومضــيق البحـــر الأســود احتفــالاً بهــذا الحــادث. واســتمرت الاحتفــالات ســبعة أيــام"(26). وعين الســلطان العثمــاني طوســـون واليــاً لجـــدة، واستلم محمد علي والشريف غـالب هـدايا ثمينـة من السلطان(27).

ولم تعــد الأشـــهر التاليـــة على المصـــريين بمــا يفـرحهم. ففي ربيـع وصـيف 1813، قـام الوهـابيون بغزوتين موفقتين على الحجاز. وظهـر سـعود بنفسـه قرب المدينة المنورة مع أنـه لم يتمكن من احتلالهـا. وهجم أهـالي عسـير الـذين ظلـوا مـوالين للوهـابيين

على الفصائل المصرية قرب أسوار مكة وجدة تقريباً.

وفقد جيش الاحتلال المصري بسبب الإرهاق والحر والأمراض المتواصلة الناجمة عن سوء التغذية وتلوث المياه عدداً من الجنود أكبر مما فقده في المعارك. ويقول منجين أن جيش والي القاهرة فقد خلال هذه الحملة 8 آلاف شخص و 25 ألف جمل. وكان هلاك دواب الركوب والنقل قد حرم المصريين من إمكانية المناورة والمسيرات البعيدة وإيصال العتاد والذخيرة والأغذية في الوقت اللازم. وبدأت آمال البدو في والي مصر تخيب، وصاروا يتعاونون مع قواته على مضض(28).

وفي خريف 1813، ابتسم الحظ لطوسون من جديد. فقد قام القائد العسكري الوهابي عثمان المضايفي بغارة على الطائف ولكنه مني بالهزيمة وفر. وقبض عليه بدو عتيبة وسلموه إلى غالب(29). ثم أرسل إلى القاهرة ومنها إلى الأستانة حيث أعدم.

سياسة محمد علي في الحجاز. كان حاكم مصر يدرك أن الوهابيين لم ينتهوا رغم احتلال الحجاز. فقرر أن يتوجه شخصياً إلى الجزيرة العربية ويدرس الموقف هناك، ويؤدي فريضة الحج في الوقت نفسه. وفي خريف 1813، وصل محمد علي مع بضعة آلاف من الجنود إلى جدة(30).

واستقبله غالب. وعاهد أحدهما الآخر بالصداقة، وأقسما على ذلك في الكعبة، إلا أن خلافاً جدياً كان يختمر بين الوالي والشريف.

كـان مركـز شـريف مكـة قويـاً بحيث لا يسـمح بالتطـاول السـافر على سـلطته. وكـان مبعث قوتـه وجــود بضــعة آلاف من العبيــد المســلحين والجنــود المرتزقـة والحجـازيين المـوالين لـه وسـيطرته على قلعة مكـة(31). إلا أن الـوالي الداهيـة اعتقـل غـالب غدراً في أواخر عام 1813 بزعم أن السـلطان طلب ذلــك وأرغم محمــد علي شــريف مكــة تحت تهديــد المـوت على أن يصـدر أمـره إلى أبنائـه ليكفـوا عن المقاومة، وبعد ذلك نفاه مع عائلته كلها إلى القاهرة. وعين محمد علي بـدلاً منـه صـنيعته يحـيى بن سـرور وهو من أقرباء الشريف غالب وصادر أموال الشريف من نقود وأثاث وبضائع وبن وتوابـل بلغت قيمتهـا مـا يعادل 250 ألف جنيه إسترليني.

إلا إن الســلطان أمــر بإعــادة قســم من تلــك الأموال إلى الشريف غالب الذي أقام في سـالونيكي وتوفي فيها بعد بضع سنوات (32).

لقد فاز محمد علي دون شـك من حيث الهـدف البعيد الذي يتلخص في إخضاع الحجـاز بصـورة تامـة. فقد جرد شريف مكة من السـلطة والنفـوذ وأسـتبعد احتمال انتقال غالب إلى صف الوهابيين. ووضـع يـده على مداخيل الشـريف السـابقة كلهـا تقريبـاً وسـاعد ذلك على تمويل الحملة الباهظة. وأخيراً حـرم البـاب العالي من إمكانية الاستفادة من التناقضات بينهُ وبين غالب.

إلا أن النتيجة المباشـرة لغـدر محمـد علي تجلت في غضـب سـكان الحجـاز ،وخصوصـاً البـدو، ولجـوء الكثـير من عوائـل الوجهـاء إلى الوهـابيين خوفـاً من

التنكيل ومشاركتها في الحرب إلى جـانب الوهـابيين. وكان من بين هؤلاء الشريف راجح وهو قائد عسكري شجاع.كما لجأ إلى الوهابيين جزء من حرس غـالب (33).

ومن الناحية العسكرية كان الإخفاق يلاحق محمد علي في بادئ الأمر. ففي أواخر 1813وأوائل 1814 مُنيت قواته بالهزيمة في تربة والقنفذة.

وعنـدما اسـتولى الإنـزال البحـري على مدينـة القنفذة قتل الجنود كثيراً من السكان العزل وقطعـوا آذانهم لإرسالها إلى الأستانة كدليل على البسـالة في القتال. وقال ج.فيناتي الذي شـارك في هـذا الإنـزال إن الجنـود كـانوا أحيانـاً يقطعـون آذان الأحيـاء لكي يحصلوا على المكافأة الموعودة(34).وتوحد السكان المحليون الغاضـبون بسـبب ذلـك حـول طـامي أمـير عسير الذي حاصـر القنفـذة وقطـع عنهـا ميـاه الآبـار الموجودة حولها ثم بدأ الهجوم بعد أن استنزف قـوى المحاصرين. وفر الجنود إلى السفن في هرج ومـرج. وقتـل الكثـيرون منهم وغـرق آخـرون أو هلكـوا في الطريق بسبب العطش(35).

كـان محمـد علي يـدرك أنـهُ إذا لم يحقـق نصـراً حاسـماً في الجزيـرة العربيـة فـإن مكانتـهُ في مصـر سـوف تـتزعزع، ولـذا بـدأ باتجـاه إجـراءات عاجلـة لِمواصلة الحملـة.   وفرضـت ضـرائب إضـافية على الفلاحين المصريين، ووصلت إلى جدة إمـدادات جديدة وذخيرة وعتاد وأغذية. فصارت المدينـة بمثابـة مستودع رئيسي. ووصلت عدة مئات من الخيالـة من بدو ليبيا الموالين لمحمد علي باشا. وكانوا سنداً ثميناً

لــه لأنهم متعــودون على العمليــات في الظــروف الصـحراوية. وازدادت وسـائط النقـل بـآلاف الجمـال الـتي اشـترى محمـد علي بعضـها من الشـام وجلب البدو الليـبيون بعضـها الآخـر. واتفـق محمـد علي مـع أمام مسقط حول إرسال السفن لنقل القوات(36).

واتخذت خطوات لتحسين العلاقات مـع السـكان المحليين. وألغى محمد علي بعض الإتـاوات المرهقـة جداً وقلص الرسوم الجمركية في جـدة. ووزع النقـود على المحتـاجين ورمم الكعبـة وقـدم الهـدايا لعلمـاء الدين وكشف خصيصاً عن ورعه وتدينه. وأمـر جنـوده بأن لا يمارسـوا النهب والتنكيـل وأن يـدفعوا ثمن مـا يأخذونه من أغذية. وتغير موقف الحجازيين من قوات محمد علي نحو الأفضل(37).

إلا أن الأمر الرئيسي يتلخص في اسـتئناف الحج. فقد استلم البدو نقوداً من قافلة الشام بعد أن كـانت السلطات العثمانية لا تدفع شيئاً منـذ عشـر سـنوات. وأسفر توارد عشرات الآلاف من الحجـاج عن ازدهـار أحوال سكان الحجاز من جديد(38).

وكـانت وفـاة أمـام الدرعيـة سـعود في ربيـع 1814(39) قد أفادت والي مصر. فأن موهبة سـعود كقائـد عسـكري ورجـل دولـة معروفـة للجميـع. ولم يبخل أبن بشر بالكلمات في مدحه، فرسم له صـورة الحاكم المثـالي الـتي وردت أوصـافها في الكثـير من الروايات الشفهية وفي الأدب العربي. ويقول المؤرخ أن سعود كان محبوباً عند الرعية. وكـان جيـد الإطلاع على الكتاب والسنة بفضل تعلمـه على يـد محمـد بن عبد الوهـاب. وقـد كـافح في سـبيل الإسـلام وخاصـة

الجهاد ببسالة. وكتب وصايا للرعية أدهشت الجميع بعمق معرفة الفقه، ودلل على أفكاره بآيات من القرآن وأقوال من الحديث ومقتطفات مما كتبه أشهر الفقهاء. ودعا إلى الامتناع عن المحظورات: الزنا والنميمة والافتراء والأكاذيب والربا. وكان متواضعاً ورعاً سخياً وكان بسيطاً في معاملة المقربين أليه. كان فطيناً حاد الذكاء وقد حظي بإعجاب كبير وشعبية واسعة(40).

في فترة وفاة سعود كان الوهابيون قد فقدوا الحجاز كله وعمان والبحرين وقسماً من تهامة. وتسلم أبنه عبد الله دولة انتابها الخراب. وبعد أن قهر مقاومة المتذمرين ثبت مركزه على العرش وأخذ يستعد لموصلة الحرب ضد جيش محمد علي. وتشير أغلبية المؤرخين إلى أن عبد الله كان محارباً شجاعاً، ولكنه أقل من والده من حيث الدهاء السياسي والمرونة وسائر خصال رجال الدولة. وربما كان في هذا القول بعض الحق. فالتاريخ يدين المغلوبين بوصفهم غير موهوبين، مع أن الملابسات كانت في كثير من الأحيان أقوى منهم.

انتصار المصريين في معركة بسل وتقدمهم نحو عسير. أخذت سياسية محمد علي في الحجاز تؤتى ببعض الثمار. فقد تمكن من تحسين العلاقات مع البدو. والدليل على ذلك ما قاله أبن بشر من أن عبد الله هاجم مراراً القبائل البدوية الحجازية المالية لمحمد علي. واضطر أمام الدرعية إلى القيام بحملة تنكيلية ضد بدو مطير أيضاً(41). وفي أواخر عام 1814، تمكن محمد علي من

الاتصال مع الشريف راجح وإقناعه بالعودة للخدمة عنده ودفع له مبلغاً ضخماً.

وحتى ذلك الوقت، صارت لدى محمد علي قوات كافية. ويقدر بوركهاردت تلك القوات بـ 5 آلاف شخص، ولكن محمد علي كان يعتقد بأن لديه 20 ألفاً(42). ويبدو أن الرقم الحقيقي هو بين هذا وذاك.

وفي أواخر 1814 وبداية 1815، حشد الوهابيون في بسل، على مقربة من تربة، جيشاً بلغ 30 ألفاً كما يقول أبن بشر، و 20 ألفاً كما يقول بوركهاردت. وأكثر من نصفه أحضره طامي بن شعيب من عسير. وترأس بلك القوات الموحدة فيصل شقيق عبد الله. توفي كانون الثاني (يناير) 1815 نشبت معركة انتصرت فيها قوات محمد علي المتحالفة مع البدو. ودفع محمد علي 6 ريالات مقابل كل قتيل من الأعداء. واحتفل محمد علي بالنصر حيث اعدم في مكة مئات الأسرى. وبلغت خسائر الوهابيين عدة آلاف.

ثم احتلت قوات محمد علي تربة ورنية وبيشة. ووصل المصريون إلى ساحل البحر الأحمر واستولوا على القنفذة. وجرى تسليم زعيم عسير طامي بن شعيب إلى محمد علي الذي أرسله إلى مصر ثم إلى الأستانة حيث أعدم. وكان محمد علي ينصب على القبائل البدوية في كل مكان أناساً طائعين له(43). وبنتيجة العمليات الحازمة التي شنها محمد علي جرى دحر الوهابيين في عسير وفي المناطق الهامة من الناحية الإستراتيجية بين الحجاز ونجد وعسير.

وبعد عدة أشهر، عاد محمد علي إلى مصر حيث وصلته أنباء عن القلاقل. وبالإضافة إلى ذلك كان محمد علي، بعد احتلال الحلفاء لباريس، يخشى من إنزال جديد يقوم به الإنجليز على مصر أو من هجوم الأتراك(44).

دخول طوسون القصيم والصلح مع عبد الله. لم تكلل بالنجاح محاولة طوسون الأولى لدخول القصيم. فقد عاد أدراجه عندما علم بظهور عبد الله مع قوات كبيرة. إلا أن التذمر في القصيم من سلطة الوهابيين قد أشتد. واتصل وجهاء الرس بطوسون ووعده بالمساعدة إذا دخل القصيم. وتحرك طوسون بلا إبطاء مع عدد غير كبير من القوات نحو مدينة الرس ودخلها. ودمر هنا قسماً من التحصينات وفرض الضرائب على السكان ونصب معسكراً على مقربة من المدينة مؤّمناً تزويد الجيش بالأغذية على حساب السكان المحليين. فلم يتمكن من تأمين المؤن من المدينة المنورة بصورة منتظمة.

وكانت قوات عبد الله مرابطه في عنيزة. وقام الوهابيون بهجمات متفرقة باتجاه الرس وكانوا يستولون على قسم من القوافل القادمة من المدينة المنورة. فقد وقع فصيل الإمدادات الذي قاده توماس قيس في كمين نصبه الوهابيون وأبيد(45). واستمرت العمليات الحربية سجالاً طوال عدة أشهر حتى صيف 1815.(46).

غدت حالة طوسون عصيبة للغاية. فأن ضغط الوهابيين الشديد كان يمكن أن يدمره. بيد أن قوى

عبد الله لم تكن كافية على ما يبدو، ثم أنه كان يخشى تمرد أهل القصيم في مؤخرته. وتم توقيع الصلح بشروط تعكس توازن القوى المترجرج هذا.

ونص الاتفاق على توقف العمليات الحربية. وترك جيش طوسون القصيم وكف المصريون عن التدخل في شؤون نجد. وتأكد ضمان حرية التجارة والحج للجميع. وأورد أبن بشر وبوركهاردت كلاهما هذه المعلومات عن الاتفاقية. إلا أن الرحالة بوركهاردت أورد بضعة شروط أخرى من الاتفاقية: يجب أن تخضع لعبد الله كل القبائل المتواجدة شرقي الحناكية. ويقول بوركهاردت كذلك أن عبد الله وافق على اعتبار نفسه من رعية السلطان العثماني. ويؤكد المؤرخ المصري المعاصر أ.عبد الرحيم هذه الحقيقة استناداً إلى وثائق من أرشيفات القاهرة(47).

ووصل مبعوثو عبد الله مع طوسون إلى القاهرة، خريف 1815(48).

وبعد انسحاب طوسون أخذ عبد لله ينحي أمراء القصيم الذين أبدوا ترددا أثناء وجود الفصيل المصري في الرس، أو الذين تعاونوا مباشرة مع طوسون، وبدأ كذلك عمليات تأديبية ضد بدو حرب ومطير الذين خانوا العهد.

وإلى الجنوب من ذلك، في مناطق بيشة وتربة ورينة التي كانت، باعتقاد بوركهاردت، مستثناة من الاتفاقية بين عبد الله وطوسون، استمرت الصدامات بين الوهابيين والقوات المصرية(49).

وأثـارت أعمـال عبـد اللـه التـذمر في القصـيم، ناهيك عن البدو، فأرسـلت شـكاوى إلى محمـد علي. وفي المراسلات التي جرت بين عبد الله وبين محمـد علي وأبنـــه وردت إشـــارات متكـــررة إلى خـــرق الوهابيين لشروط الاتفاقية(50).

ارتفعت منزلــة محمـــد علي في الإمبراطوريـــة العثمانيـة بفـرض سـيطرة مصـر على الحجـاز. وأخـذ محمد علي يطالب الباب العالي بتسليمه الشام على سـبيل المكافـأة عن الانتصـارات في الحجـاز. ولـذا أصبحت أكثر إلحاحاً بالنسبة لـه مهمـة تثبيت أقدامـه في الحجـاز وفي الجزيـرة العربيـة عمومـاً بتقـويض الدولة السعودية الأولى نهائياً(51).

احتلال نجد من قبل إبراهيم باشا. عين إبراهيم الابن الأكبر لمحمد علي لقيـادة الحملـة هـذه المـرة. وظلت معروفـة إحـدى الطرائـف الـتي قيلت بمناسبة تعيين إبراهيم قائداً للحملة الجديدة. يقال أن محمد علي جمع قواده العسكريين في القاهرة قبيـل بدء الحملة ليناـقش معهم خطـة العمليـات. ثم أشـار محمد علي إلى تفاحة موجودة وسـط سـجادة كبـيرة مفروشة في القاعة. وقال: من يحضـر هـذه التفاحـة ويسلمها لي دون أن يمس السـجادة برجليـه سـيقود القـوات. انبطح المقربـون إلى الـوالي على الأرضـية ولكنهم لم يبلغـوا التفاحـة. وعنـد ذلـك اقـترب أبنـه إبـراهيم، وهـو قصـير القامـة، من السـجادة فطواهـا وبلغ التفاحة وسلمها إلى أبيه. وهكذا لمحَّ لأبيـه، كمـا يقال، إن القوات المصرية تحت قيادته سوف تطـوي "سـجادة" بـوادي الجزيـرة في البدايـة بتـأمين

المواصلات والعلاقات الطيبة مع السكان المحلين(52).

كانت مثل هذه المبادئ بالفعل أساساً للسياسة المصرية في الجزيرة العربية أثناء حملة إبراهيم. فقد كان يفهم جيداً أن التوغل في أعماق الجزيرة مستحيل بدون مساعدة البدو، لذا سعى إلى اجتذابهم. ولهذا الغرض ألغى إبراهيم الزكاة الوهابية على البدو، وراح يدفع المال نقداً لقاء كل الخدمات. إلا أن فلاحي مصر هم الذين دفعوا ثمن انتصارات إبراهيم.

كان إبراهيم عارفاً بمدى العداء الذي خلفته تصرفات وتعسف جنوده المتباينين في الحجاز، لذا حاول أن يترك انطباعاً طيباً عند الأعراب بورعه وتقواه ونبله وإيفائه بالوعد. وقد قطع بكل حزم دابر أي أعمال للعنف ضد السكان المحليين إلى أن تم تدمير الدرعية.

في تلك الأثناء أصاب الضعف دولة السعوديين. وكانت القبائل البدوية الرئيسية مستعدة في أي لحظة لتقلب لها ظهر المجن. وابتعد وجهاء وأعيان واحات وسط الجزيرة عن الوهابيين بسبب التوقف التام تقريباً في مسيل الثروات المنهوبة. وكان السكان الحضر يتذمرون من الحروب المتواصلة الطويلة الأمد والإتاوات التي لا تنقطع. ولم تكن منزلة عبد الله رفيعة كمنزلة أبيه سعود. ولم يبق سنداً لأمراء الدرعية في كل مكان إلا علماء الدين الوهابيون.

وما كان بوسع المصريين أن يرسلوا إلى نجد قوات غفيرة. إلا أن جنودهم صاروا يختلفون عن أولئك الذين قاموا بالإنزال في الحجاز قبل ست سنوات. فهم الآن يجيدون تدبير حصار القلاع وبناء الطوابي الحامية من الهجمات المباغتة واستخدام المدفعية بمهارة ليست قليلة. وكان مع إبراهيم مدربون من جيش نابليون وأطباء أوروبيون(53).

إما عساكر عبد الله فقد ظلت على غرار المتطوعة العشائرية والحضرية كما كانت سابقاً. وكان الوهابيون متخلفين عن المصريين من حيث الأعداد الحربي. صحيح أنهم كانوا يقاتلون في ظروف مناخية تعودوا عليها ويدافعون هذه المرة عن ديارهم ونخيلهم وحقولهم، إلا أن وطنيتهم النجدية لم تكن قوية، وكانت المشاعر التي يكنونها لآل سعود آنذاك متعارضة.

ويبدو أن عبد الله كان يدرك تعقد الموقف بالنسبة له. كان ينوي دحر المصريين في معركة مكشوفة، وفي حالة الاخفاق كان يريد أن يرغمهم على محاصرة واحة محصنة بعد أخرى وينسحب إلى وسط نجد. وكانت صعوبات الحملة وسط الجزيرة البعيد عن قواعد التموين لا بد أن ترغم المصريين، كما يعتقد على التخلي عن نيتهم في احتلال نجد.

وفي خريف 1816، وصل إبراهيم إلى المدينة المنورة مع قوات كبيرة. وجاءته من مصر قوات جديدة وأغذية ومعدات. واجتذبت إبراهيم القبائل في ضواحي المدينة لعمل معه وبدأ زحفه البطيء على

نجـد. وبعـد أن احتـل الحناكيـة أنشـأ فيهـا معسـكراً محصناً.

ودعا أليهـا زعمـاء القبائـل المجـاورة وقـدم لهم الهـديا واسـتعرض جيشـه أمـامهم. وفي تلـك الأثنـاء وصل من الأسـتانة نبـأ منحـة لقب باشـا. وكـان ذلـك بمثابة مغازلة لمشاعره لا أكثر، فهو لا يعـني أي دعم له.

وفي تلك الأثناء، كانت القبائل البدويـة تبتعـد عن عبد الله الواحدة تلو الأخرى.

فأن زعيم مطير فيصل آل دويش، مثلاً، جـاء إلى إبراهيم وعرض عليه خدماته مقابـل تعيينـه فيمـا بعـد أميراً للدرعية. ووصل عبـد اللـه إلى القصـيم وهـاجم المصـريين ولكنـه مـني بهزيمـة. وقتـل كثـيرون من الوهابيين واقتطعت آذانهم وأرسلت إلى القاهرة.

وفي صـيف 1817، أقـترب إبـراهيم من الـرس وبدأ حصاراً اسـتمر عـدة أشـهر، ودافـع المحاصـرون عن أنفسـهم ببسـالة. ويمكن الافـتراض من ضـراوة المعركة أن عبد الله الذي يفهم الأهمية الإسـتراتيجية للرس قـد تـرك هنـاك أفضـل مـا كـان متـوفراً لديـه. وخلال الحصار الطويل لمدينـة الـرس كـان عبـد اللـه على مقربـة منهـا دون أن يتمكن من نجـدتها بشـكل فعال. ولم تتمكن من دخول المدينة عبر المعـارك إلا قافلتان وهابيتان.

وبلغت خسـائر إبـراهيم ثلاثـة آلاف وخمسـمائة شخص. وأغلبهم بسـبب الأمـراض. فالحصـار في أوج الصيف، مما زاد في الصعوبات أمـام جيش إبـراهيم. ولكنـه كـان يتمتـع بمزايـا المدفعيـة ومختلـف آلات

الحصار والقيادة الماهرة. والأمر الأهم أنه استلم إمدادات. فأن عبد الله لم يتمكن من قطع طرق التموين. وكان للذهب المصري الذي وزعه إبراهيم بسخاء ولإلغاء الزكاة على البدو أثر كبير بهذا الخصوص.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) استلمت الرس بشروط مشرفة. والتحقت حامية الوهابيين المتبقية حاملة أسلحتها بقوات عبد الله(54). وحسبما يقوله ج. سالير كان مصير الرس يختلف بعض الشيء. فالمدينة لم تستسلم، بل وعدتا بالاستسلام للمصريين بعد أن يحتلوا عنيزة(55).

كان يقود الدفاع عن عنيزة أشخاص من أقرباء أمام الدرعية. وكانت حامية الوهابيين مزودة بالمؤن والذخيرة بصورة جيدة. ولكن المدينة احتلت بعد عدة أيام من الحصار، واستسلمت حاميتها بشروط مشرفة. والتحق المحاربون الوهابيون حاملين السلاح بعبد الله(56).

ولم يحاول أمام الوهابيين إبداء مقاومة أكثر لجيش إبراهيم في سوح مكشوفة. فأن احتياطات مصر تحمي ظهر إبراهيم. وكان هجومه بطيئاً، ولكنه لا مرد له. وبعد عنيزة استسلمت بريدة، وفي أواخر عام 1817 أعلنت القصيم كلها عن خضوعها لإبراهيم(57). وكتب إبراهيم باشا لأبيه أن كل سكان المنطقة يكرهون حجيلان أمير بريدة العجوز وكذلك عبد الله(58).

في البداية انسحب عبد الله إلى شقراء حيث كان يجري على جناح السرعة بناء المنشآت الدفاعية، وبعد ذلك انسحب إلى الدرعية.

ظل إبراهيم في بريدة حولي الشهرين لاستلام الامدادات. ثم تحرك نحو شقراء. وذكر منجين أن عدد قوات إبراهيم قليل جداً ـ ألف جندي. ويبدو أن هذا الرقم أقل مما في الواقع. وبعد ذلك ذكر منجين الرقم 4500 جندي دون أن يوضح ما إذا كان البدو بضمنهم أم لا. ولكن الحقيقة هي أن إبراهيم تمكن من قهر نجد بقوات قليلة نسبياً. إلا أن حملته على شقراء شارك فيها بدو مطير وحرب وعتيبة وبنو خالد. وكان أولئك من البدو الذين كانوا آخر من خضع للوهابيين وأول من قلب لهم ظهر المجن. وكتب ابن بشر بمرارة يقول أنه سار مع إبراهيم كثير من زعما القبائل ووجهاء الواحات في نجد بأمل الغنيمة والاستقلال المرتقب، ولكن آمالهم خابت بعد سقوط الدرعية أشد خيبة(59). فعندما ترك إبراهيم المدن التي أحتلها كان يدمر في البداية كل التحصينات ويأخذ رهائن معه(60).

وفي كانون الثاني (يناير) وصل إبراهيم إلى ضواحي شقراء. وبعد القصف المدفعي بدأ اقتحام المدينة. وسقطت شقراء بعد عدة أيام. وأطلق سراح حاميتها بعد أن جرد أفرادها من السلاح ووعدوا بأنهم لن يشاركوا في الحرب. واستولى إبراهيم على الوشم كلها(61). ثم احتل سدير والمجمعة بلا قتال في الواقع، وأعلنت حريملا والمحمل عن خضوعهما(62).

وتحرك إبراهيم من شقراء إلى ضرمى التي كان يدافع عنها محاربون أشداء من الخرج. ورغم القصف المدفعي واستخدام تكنيك الحصار لم يتمكن إبـراهيم باشا من إرغام الحامية على الاستسلام. إلا أن القوى لم تكن متعادلة. واقتحم جنود إبراهيم المدينة ونكلـوا بأهلها جزاء لهم على المقاومة، وقطعوا آذان القتلى، كمـا هي العـادة، وأرسـلوها إلى القـاهرة. ونهبـوا المدينة عن آخرها. وجرى ذلك في شباط (فـبراير) _ آذار (مـارس) 1818(63). وبـذلك فتح الطريـق نحـو الدرعية.

سقوط الدرعية. في نيسـان (إبريـل) جـرى المشهد الأخير من فاجعة الدولـة السـعودية الأولى. فقد بدأت معركة الدرعية. ومع أن واحات ومدن نجـد سقطت الواحدة تلو الأخرى في يد الغازي المصـري، إلا أنه كـان في كـل منها وهـابيون راسـخوا العقيـدة رفضوا حتى فكرة التعايش سـلمياً مـع "المشـركين" وظلوا مخلصـين حـتى النهايـة لآل سـعود. وتقـاطروا على الدرعية للمشاركة في المعركة الأخيرة.

وواجهت القوات المصـرية فصـائل من العاصـمة والواحـات الأخـرى في وسـط الجزيـرة. وقـاد هـذه الفصـائل ثلاثـة من أشـقاء عبـد اللـه، وهم فيصـل وإبـراهيم وفهـد. وكـانت في الدرعيـة قـوات من منفوحة بقيادة العقيـد الشـجاع عبـد اللـه بن مـزروع وكذلك فصائل من حريـق و سـدير. وكـان كهـول من سكان العاصمة يدافعون عن مراكز الإسناد الصغيرة. وكانت هناك مفارز تحت قيادة أبناء آل سعود وأفـراد عائلة آل معمر وغيرهم من القادة البارزين(64).

وكان تحت امرأة إبراهيم باشا حـوالي ألفين من الخيالـة و4300 من الجنـد الألبـان والأتـراك و1300 من الخيالـة المغاربـة و150 من المـدفعيين ومعهم خمسـة عشـر مـدفعاً وكـذلك 20 من المختصـين بالبنادق و11 من المختصين بالقذائف(65).

كانت واحة الدرعية تمتد لعدة كيلومترات بشـكل خط على طول وادي حنيفة. وتتكـون المدينـة نفسـها والواحة من عدة نزل متلاصقة. وتطل على المنطقـة قلعة الطريف ومسجدها ومختلف المباني التابعة لها. وهي محمية بصخرة جبلية عاليـة من جهـة وقنـاة من الجهة الأخرى.

بـدأ إبـراهيم هجومـه ببطء على طـول الـوادي. وبعد المناوشات الأولى مع العدو ترك المترددون عبد اللـه وانتقلـوا إلى إبـراهيم وزودوه بمعلومـات عن الوضـع في المدينـة.وكـان تفـوق المصـريين في المدفعية قـد مكنهم من تـدمير تحصـينات الوهـابيين، وكـان المهـاجمون يحمـون أنفسـهم من الهجمـات المباغتة ببناء الطوابي على النمط الأوروبي هنـا كمـا فعلوا في السابق. ومرت لحظة خيل فيهـا الوهـابيين أنهم سينتزعون النصر. فقـد أنفجـر مسـتودع البـارود الرئيسي عنـد إبـراهيم وتوجـه الوهـابيون في هجـوم سريع ولكنه أخفق.

كـان تـوارد الأغذيـة وذخـيرة والإمـدادات على إبراهيم طول الوقت قد أمن النجـاح لزحفـه البطيء. وكان المرضى والجرحى من قـوات إبـراهيم ينقلـون إلى مستشـفى أنشـئ في شـقراء. وكـانوا يتمـاثلون إلى الشفاء هناك أحياناً ويعودون إلى صف المقاتلين.

وأرغم إبـراهيم الأمـراء الـذي التحقـوا بـه على أن يرسلوا إلى الدرعيـة محـاربين يقـاتلون تحت ألويتـه. وكـان جنـود جـدد يحتلـون مواقـع الجنـود القتلى من أفــراد قــوات إبــراهيم في حين كــانت صــفوف المـدافعين عن الدرعيـة تتضـاءل. وكـان من أسـباب ذلك نقص الأغذية في الواحة(66).

وغـدت حالـة الوهـابيين ميئوسـاً منهـا. وتكـررت حالات الفرار. وفي مطلع أيلول (سبتمبر)بدأ الهجـوم العـام على المدينـة. واحتمى عبـد اللـه وقسـم من أقربائه في قلعة الطريف. وفي 9 أيلـول، أقـدم عبـد الله على المفاوضات بعد أن أدرك أن كل شـيء قـد ضاع. وتوجه إلى معسكر المصريين عمه عبد الله بن عبد العزيز وعلي أبن الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب وكذلك محمد بن مشاري بن معمر. وطالبهم إبـراهيم باشا بالاستسلام. وأتفق مبعوثـو عبـد اللـه معـه على الاستسلام بشـروط مشـرفة لسـكان واحـة الدرعيـة الـذين كـانوا مـا يوالـون يقـاومون. وقاتـل عبـد اللـه ومحاربوه المرابطون في القلعـة قتـالاً باسـلاً يـومين آخـرين. وأوصــل إبــراهيم إلى منطقــة القلعــة كــل مدفعيته، وفي 11 أيلول استسلم عبد الله.

وانتهت سـتة أشـهر من المعـارك الطاحنـة(67). وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من أقرباء الإمـام بمن فيهم ثلاثـة من إخوانـه. وقـدر أبن بشـر الخسـائر العامـة للوهـابيين بـرقم صـغير يُثـير التسـاؤلات، وهـو 1300 شـخص، بينمـا يقـول أن خسائر إبراهيم في معركة الدرعية حـوالي 10 آلاف(68). وأفاد إبراهيم في رسالته إلى القاهرة والأستانة

بأن الوهابيين خسروا 14 ألفاً من القتلى و6آلاف من الأسرى، ومن بين الغنائم 60 مدفعاً(69).

وبمناسبة احتلال الدرعية جرت في القاهرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1818 احتفالات بهيجة أطلقت فيها نيران المدافع وأجريت الألعاب النارية وكان الناس يسرحون ويمرحون(70). وعلى أثر ذلك أعرب السلطان عن ارتياحه العميق عندما بلغه نبأ هزيمة "أعداء الإسلام"(71). وأعرب شاه إيران في رسالة إلى محمد علي باشا عن تثمينه لدحر الوهابيين(72).

نقل عبد الله عن طريق القاهرة إلى الأستانة بصحبة أثنين من المقربين أليه في مطلع كانون الأول (ديسمبر). وأفادت السفارة الروسية من الأستانة: "في الأسبوع الماضي قطعت رؤوس زعيم الوهابيين ووزيره وإمامه الذين أسروا في الدرعية ونقلوا إلى العاصمة مؤخراً. وبغية إضفاء المزيد من الفخفة على الانتصار على ألد أعداء المدينتين اللتين تعتبران مهد الإسلام أمر السلطان في هذا اليوم بعقد المجلس في القصر القديم في العاصمة. وأحضروا إلى القصر الأسرى الثلاثة مقيدين بسلاسل ثقيلة ومحاطين بجمهور من المتفرجين. وبعد المراسيم أمر السلطان بإعدامهم. قطعت رقبة الزعيم أمام البوابة الرئيسية للقديسة صوفيا، وقطعت رقبة الوزير أمام مدخل السراي وقطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسية في العاصمة. وعرضت جثثهم ورؤوسها تحت الإبط... وبعد ثلاثة أيام ألقوا بها إلى البحر.

وأمر صاحب الجلالة بأداء صلاة عمومية شكراً لله على انتصار سلاح السلطان وعلى إبادة الطائفة التي خربت مكة والمدينة ونشرت الذعر في قلوب الحجاج المسلمين وعرضتهم للخطر(73).

الوهابية خارج الجزيرة العربية: إن تعاليم محمد بن عبد الوهاب التي بدت وكأنها ظاهرة خاصة بالجزيرة العربية وحدها قد وجدت لها بغتة أنصاراً في بلدان أخرى تبعد عن الجزيرة آلاف الكيلومترات. لقد نشرها الحجاج الذين كانوا في مكة في مطلع القرن التاسع عشر. فقد وجد شجب الوثنية ورفض عبادة الأولياء ومكافحة البدع ونشر الجهاد ضد "الكفرة" و "المشركين" والجمع بين الشعارات الطبقية والتعادلية ـ معتقدات وممارسات الوهابيين _ تربة صالحة في بلدان ذات أنظمة اجتماعية وسياسية متباينة بعد تكيف وتعديل مناسب. ووصلت الوهابية إلى الهند وإندونيسيا وأفريقيا.

وكان لتعاليم محمد بن عبد الوهاب تأثير كبير في الهند. فقد استخدم بعض أحكامه المصلح الإسلامي والسياسي الهندي سيد أحمد بارلوي، وهو من أتباع المفكر الإسلامي المعروف ولي الله شاه. وكان سيد أحمد قد باشر بدعوته في مطلع القرن التاسع عشر. وفي العشرينات حج إلى مكة وأطلع هناك على تعاليم محمد بن عبد الوهاب وتبناها. وعندما عاد إلى الهند اتخذ من باتنا مقراً له وأخذت تتوارد عليه جموع الأنصار.

وفي عام 1824، أعلن سيد أحمد الجهاد ضد الكفار، ثم في عام 1826، اجتاحت قواته البنجاب

وأخــذت تفتــك بالســيك. وفي عــام 1830، أحتــل الوهابيون بيشاور وأسسوا دولة لهم حتى أنهم بـدئوا بصـك قطـع نقديـة تحمـل أسـم احمـد. ولكن أمـام الوهــابيين قُتــل في العــام التــالي. ونشــط أتباعــه أعمالهم في المناطق الإسلامية من الهند، وخصوصــاً في الشمال وفي البنغال الشرقية وأعلنوا الجهاد ضد المستعمرين الإنجليز.

وكتب مؤلف إنجليزي بمرارة في القــرن التاسـع عشــر "كــان المبشــرون المتمــردون الــذين وعــدوا المؤمـنين بـالخلاص أو الجنـة قـد أججـوا الحقـد على الإنجليز والذي كان يضـمره بعض المسـلمين الهنـود. وكانت كل صـلاة يؤدونهـا مفعمـة بهـذا الحقـد"(74). كان نضال الوهابيين ضد السيطرة البريطانية قسـطاً في حركة الشعب الهندي ضد الاستعمار. واستمر هذا النضال عدة عقود حيث كان يشتد تـارة ويخفت تـارة أخــرى. ومعــروف جيــداً دور الوهــابيين الكبــير في انتفاضـة 1857 ـ 1859 الشـعبية ضـد السـيطرة البريطانية(75).

وعلى الحــدود الشــمالية، في ســيتان، صــمد المركز الوهابي في وجـه حـوالي عشـرين حملـة من القوات الاسـتعمارية. ولم ينـدحر إلا في عـام 1863. إلا أن نشــاط الوهــابيين اسـتمر بعـد ذلـك. وكـانت السلطات البريطانية، كما يقول المؤرخ الإنجلـيزي و. هنـتر، تعتـبرهم "جماعــة... تشــكل، في رأي جميـع الحكومـات الـتي حلت محـل بعضـها بعضـاً، مصـدراً لخطر دائم على الإمبراطورية الهندية"(076).

ودفعت الوهابيـــة بعض الحجـــاج الإندونيســـيين الذين أمّـوا مكـة في العقـد الأول من القـرن التاسـع عشـــر إلى ممارســـة النشـــاط الإصـــلاحي. ففي سومطرة بدأت حركة دينية سياسية استخدمت عدداً من الشـعارات الوهابيـة. وكـانت في البدايـة موجهـة ضد السكان المحلـيين غـير المسـلمين، ثم اكتسـبت طابعاً مناوئاً للهولنديين. وطوال حوالي خمسة عشـر عامـاً، اعتبـاراً من عـام 1821، خـاض المسـتعمرون الهولنديون الحرب ضد وهابيّي سومطرة.

ويرى بعض الباحثين أن الوهابيـة مارسـت تـأثيراً معيناً على حركة عثمان دان فوديو في غرب أفريقيـا في مطلــع القــرن التاســع عشــر والــتي أدت إلى تأسيس دولة سوكوتو الشاسـعة هنـاك، وكـذلك على السنوسيين في ليبيا(77).

وكان سلطان مراكش مولاي سليمان (1792 _ 1822) الـذي اشـتهر بثقافتـه وورعـه وحرصـه على الإسـلام قـد اسـتخدم الأفكـار الوهابيـة في مكافحـة التجزئــة الإقطاعيــة والعشــائرية في البلاد. وواجــه نشـاط المـرابطين الانفصـالي بمبـدأ: سـلطة واحـدة ودين واحد ودولـة واحـدة. وتقليـداً للوهـابيين شـجب السـلطان الشـعائر السـنوية لتكـريم الأوليـاء وألغى مختلـف الضـرائب الـتي لا ينص عليهـا القـرآن وأخـذ يرسـل إلى منـاطق الـبربر قُضاة مسـلمين يعملـون على نشــر الشــريعة واجتثــاث العــرف القبلي عنــد الـبربر. وكـانت إصـلاحات مـولاي سـليمان الوهابيـة تشكل خطراً على المصالح المادية للجمعيات الدينيـة والمــرابطين وســلطتهم بــل حــتى على وجــودهم.

فتوحدوا، إلا القليل منهم، ضد السياسة الوهابية للحكومة وألحقوا الهزيمة بالسلطان وأرغموه على التنازل عن العرش(78).

الفصل السادس

من سقوط الدرعية حتى جلاء المصرين

عن الجزيرة العربية (1818 _ 1840)

السياسة المصرية في الجزيرة العربية بعد دحر الوهابيين.

بعد سقوط الدرعية لم يعد للدولة السعودية الأولى وجود وأصبح المصريون أسياداً بالتمام والكمال في أواسط الجزيرة، وأخذوا يزيلون بالحديد والنار نفوذ آل سعود والوهابيين.

عذبوا الأمراء والعقداء والفقهاء وأطلقوا النار عليهم فرادي وجماعات وربطوهم إلى فوهات المدافع و مزقوهم بالقذائف تمزيقاً. وأرغموا سليمان بن عبد الله، حفيد محمد بن عبد الوهاب، على الاستماع إلى أنغام الربابة قبيل الإعدام ساخرين من مشاعره الدينية(1). وفي مدن وواحات جبل شمر و القصيم و الدلم قتلوا أفراد عوائل

الوجهاء والأعيان والعقـداء واستـولوا على أمـوالهم(2).

وأرسـلوا أفـراد عوائـل آل سـعود وآل الشـيخ ووجهـاء نجـد (حـوالي 400 شـخص مـع النسـاء والأطفـال) للإقامـة في مصـر. وتمكن بعضـهم من اهرب فيما بعد، بينما ارتقى بعض قليـل إلى مناصـب عاليـة في مصـر. وغـدا أحـد أحفـاد محمـد بن عبـد الوهاب وهو عبد الرحمن بن عبد الله، محاضراً للفقه الحنبلي في الأزهر(3).

وكتب الكابتن ج. سادلر "إن تاريخ حملة إبـراهيم باشا عموما يكشف عن سلسلة من أبشع القسـاوات الوحشية التي اقترفت خلافاً لأكثر الالتزامات قدسية. ففي بعض الحـالات اغتـنى من نهب القبائـل نفسـها الـتي سـاهمت بقسـط في انتصـاراته، وفي حـالات أخرى ينتزع ثروات أعدائه المغلـوبين أنفسـهم الـذين تمكنوا في وقت ما من تحاشي غضبه"(4).

وبعث محمـــد علي إلى إبـــراهيم أمـــراً بإزالـــة عاصـمة الدولـة الوهابيـة من الوجـود. و قبيـل تـدمير المدينة ابتز المصريون النقود من أهلها ونهبوهم دون رحمة. ولو يستلم فيصل بن وطبان آل دويش منصب أمير الدرعية، بـل طالبـه المصـريون بـأن يسـدد لهم الزكـاة للسـنوات الخمس الـتي كـان مـدينا بهـا للسـعوديين. فـرفض زعيم مطـير تلبيـة هـذا الطلب وارتحل إلى الفرات الأوسط(5).

وانتهـز عـدد من أفـراد عائلـة آل عريعـر فرصـة سقوط الدولة السعودية فاستولوا على السـلطة في الأحسـاء. ألا إن إبـراهيم باشـا طـردهم من شـرقي

الجزيرة وصادر كل أموال آل سعود ونهب الواحـات(6).

وكانت بريطانيا التي تكره إمارة الدرعية تـراقب بتـذمر تعـزز المصـريين في الجزيـرة العربيـة. وقـامت عمـارة بريطانيـا بـإنزال في القطيـف(7). وكتب فيلـبي يقـول "يصـعب الافـتراض بـان إنـزال القـوات البريطانيـة في القطيـف في وقت احتلال المصـريين للاحسـاء تقريبـاً كـان يمثـل شـيئاً غـير استعراض العضلات ضد المصريين. فقـد كـان بسـط نفـوذهم على سـاحل الأحسـاء تحـدياً للمواقـع البريطانيـة في سـاحل الصـلح البحـري مـع إن المصـريين يمكن أن يعتـبروا أنفسـهم ورثـة لسـلطة الوهابيين في هذه المنطقة"(8).

كان الإنجليز يريدون أن يعرفـوا نوايـا المصـريين في الخليج. فأرسلوا ج.سادلر لمقابلة إبـراهيم باشـا. وكـان ج. سـادلر أول أوروبي اجتـاز الجزيـرة من شـرقها إلى غربهـا وشـاهد أنقـاض الدرعيـة. ألا إن إبراهيم باشا غادر نجد في أواسط عام 1819وتوجـه إلى المدينـة المنـورة. ولم يكن للعمليـات المشـتركة التي اقترحها عليه سادلر ضد الوهابيين أي معـنى. زد على ذلك أن مصـر عمومـاً كـانت ذات وجهـة مناوئـة للإنجلـيز. ورفض إبـراهيم اقـتراح الإنجلـيز بشـأن التعاون وطـرد سـادلر من جـدة في خريـف 1819 . وسرعان ما غادر فصيل الاحتلال البريطاني القطيـف بعد أن فقد كثيراً من جنوده بسبب الأمراض(9).

في أواخر عام 1819 دمر الإنجليز رأس الخيمـة من جديـد. ووضـعت الإدارة الإنكلوهنديـة مـا يسـمى

"بمعاهدة الصلح العامة" التي فرضت فيما بعد على جميع حكام الساحل والبحرين(10). وكانت تلك في الواقع معاهدة الحماية التي أضيفت إليها بمر السنين مواد جديدة متزايدة.

وسرعان ما أدرك إبراهيم باشا إن عائدات البلد لا تسد نفقات احتلاله. فالقوات المصرية بعيدة عن القاهرة بآلاف الكيلومترات وبعيدة عن قاعدتها الرئيسية التعبوية في الحجاز بمئات الكيلومترات. وأخذ السكان، من بدو وحضر، يضمرون للغزاة عداء متزايداً. ولم يكن عدد الجمال كافياً. ولا يندر أن يستولي البدو على قوافل الأغذية. ويمكن تصور المجاعة التي اجتاحت نجد إذا علمنا أن في وقت ما حتى جنود إبراهيم كانوا يقتاتون على الأعشاب. وقامت تمردات في جيش الاحتلال(11).

وأخيراً قرر إبراهيم أن يجلي قسماً كبيراً من قواته من نجد ومن شرق الجزيرة، فهو يعرف أن أباه يسعى بالدرجة الأولي لسيطرة على حوض البحر الأحمر وليس على أواسط الجزيرة العربية. وحشد المصريون قواتهم في منطقة الرس.

وقبيل الانسحاب دمروا كل القلاع والتحصينات الدفاعية واقتادوا الماشية وقطعوا النخيل وخربوا الحقول. وكتب ج. سادلر: "كان سكان منفوحة آنذاك في حالة يرثى لها، في حالة أسوأ مما كانت في أي زمان في الماضي منذ أن قامت سلطة الوهابيين. فإن أسوار المدينة التي هي الحامي الرئيسي لملكيتهم قد أزيلت عن سطح الأرض وأخذ الأتراك

محصـــول الموســـم ولم يكن بالإمكـــان هنـــا لا شـــراء القمح ولا الشـــعير. ولم تبـــق في القـــرى ولا فـــرس واحد"(12)

وبعثت الخلافات القبلية والمحليـــة بتغـــاض ســـافر أو مستتر من جانب الأسياد الجدد، وبـــدأت النزاعـــات وأخـــذ البعض يغـــزو البعض الآخـــر. وتعرضـــت طـــرق القوافل للخطـــر. وحـــتى في المـــدن لم يكن الســـكان يتجرأون على الخروج إلى الشارع بدون سلاح. ونشـــأ انطبـــاع وكـــأن سياســـة المصـــريين تتلخص في إغـــراق وسط الجزيرة في حالة الفوضـــى والركـــود والخـــراب وإلغاء احتمال انبعاثه(13). وكانت الحاميات المصرية الصـــغيرة لا تلعب دور العامـــل الإيجـــابي للمركزيـــة وإحلال النظام، بل غدت مجرد أداة للنهب والدمار.

كانت الدولة السعودية تحت الأنقاض وقد قهـــرت عساكرها ودمرت أدارتهـــا. وبـــدأ وكـــأن قـــوى التشـــتت والتجزئة التي انطلقت من عقالها بعد دحر الوهـــابيين قد مزقت التوحيد السابق شذر مذر.

ولكن بقيت داخل مجتمع أواسط الجزيرة القـــوى التي تمنت قبل نصف قـــرن ونيـــف من رص صـــفوفها وتأسيس أمارة الدرعية.

بعد تصفية الجولـــة الســـعودية كـــان مزارعـــو نجـــد واتجارهـــا وصـــناعها يتحســـرون على العهـــود القديمـــة، عهود الاستقرار والسلامة الشخصية وسلامة الملكيـــة والمداخيل. وكانت حروب السعوديين الموفقـــة الـــتي عادت بغنائم وفيرة قد رسمت حولهم هالة في أنظار وجهـــاء نجـــد. وراح الفقهـــاء الوهـــابيون الـــذين ســـلموا

بجلودهم يدعمون الذكريات ويتغنون بأمجاد السعوديين الغابرة.

وإلى جانب النزاعات القبلية الإقطاعية كان هناك تيار لرص الصفوف وسعى إلى توحيد نجد بغية طرد المحتلين الأجانب واستئناف الظروف الملائمة للحياة الطبيعية والنشاط الاقتصادي. وبين تطور الأحداث لاحقاً أن وجود الدويلات ـ الواحات الصغيرة والمتناهية في الصغر قد عفا عليه الزمن. فبعد بضع سنوات من سقوط أمارة الدرعية أسفرت الحركة الواسعة للأمة ضد الاحتلال الأجنبي عن بعث الدولة السعودية التي اختيرت الرياض هذه المرة عاصمة لها.

النزاعات القبلية الإقطاعية في ظل الاحتلال المصري. حل خليل باشا أبن أخت محمد علي محل إبراهيم باشا كحاكم للجزيرة العربية. إلا أن خليل باشا سرعان ما توفي وعين بدلاً عنه أخوه أحمد شكري يكن بك الذي ظل في الجزيرة باسم أحمد باشا حتى عام 1829 حيث استدعاه محمد على إلى القاهرة وعينه رئيساً لحربيته(14).

وفي خريف 1819، عين محمد بن مشاري بن معمر حاكماً لنجد. وهو من العائلة التي حكمت العيينة في فجر الحركة الوهابية. حاول أبن معمر ترميم أنقاض الدرعية، الأمر الذي واجهه السكان بالاستحسان. وأخذ أهالي مناطق الأطراف يبعثون الوفود إليه ليعبروا عن تأييدهم(15). وأمنت الأمطار الوفيرة محصولاً لا بأس به وساعدت أبن معمر على

التخفيف من المجاعة. ولكن مع ذلك فالأغذية لم تكن كافية.

وظهر منافسون لابن معمر. فقد بعث ماجد بن عريعر، وهو من شيوخ بني خالد، سلطته في شرقي الجزيرة. وحكم آل عريعر تلك الأنحاء حتى عام 1830(16).

وظهر على مسرح الأحداث في نجد تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وهو ممثل فرع جانبي من آل سعود، وقد فر من المصريين بعد سقوط الدرعية. وكان لبعض الوقت يعمل إلى جانب أبن معمر(17).

وكان أحد أخوان آخر إمام سعودي وهو مشاري بن سعود بن عبد العزيز، قد فر من الحرس المصري في الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع، ثم ظهر في سدير حيث أعلن نفسه إماماً، وفي آذار (مارس) 1820استولى على الوشم. وحظي ببعض التأييد في القصيم وفي مناطق أخرى. بيد أن أبن معمر تمكن من الاعتماد على قبيلة مطير ودحر قوات مشاري وأسره(18).

ظلت سلطة أبن معمر مضعضعة. وأخذ المتذمرون يلتفون حول تركي بن عبد الله. واقتربت الصدامات الحاسمة بين المتنافسين. وأخيراً استولى على الدرعية بسرعة كبيرة حتى تمكن من تناول الطعام في وليمة الغذاء التي كان الأمير السابق قد أعدها لضيوفه. ثم تحرك نحو الرياض حيث قبض على أبن محمد بن معمر. وفي الأسر قتل أبن معمر مع أبنه(19). كان حكم أبن معمر قد استمر عاماً

واحداً تقريباً. وكان من أسباب سقوطه تلوث سمعته كعميل للمصريين وبقاء منزلة آل سعود رفيعة كالسابق.

وعندما بلغت أنباء الاضطرابات في نجد محمد علي قرر تعزيز الحاميات في

أواسط الجزيرة. وفي خريف 1820، وصل إلى القصيم حسين بك مع إمدادات وقرر التخلص من الأمير السعودي. وتحصن أنصار تركي في قلعة الرياض، ولكنهم بعد حصار قصير من المصريين وافقوا على الاستسلام للأسر بشرط الحفاظ على حياتهم، إلا أنهم فيما بعد قُتلوا كلهم تقريباً. وتمكن تركي من الهرب(20).

وفي آذار 1821، أمر حسين بك جميع أهالي الدرعية الذين عادوا أليها بأن يجتمعوا واعداً إياهم بتوزيع الأراضي عليهم. وعندما جاء 230 من أهالي الدرعية قتلهم الجنود المصريون. وكان القتل والسجن بلا محاكمة وتقطيع الأعضاء والتعذيب أموراً معتادة في نجد. وكانت الحاميات في المدن تنهب الأهالي. ويقتطع الجنود النخيل ويخربون الحقول. وفر الكثير من السكان إلى البوادي أو غادروا نجد(21). وكتب أبن بشر يقول "وترأس عليهم الشيطان"(22). وفي عام 1821 تفشي وباء الكوليرا فزاد في الطين بلة.

وقبيل العودة إلى مصر جمع حسين بك رهائن من مدن عديدة وحبسهم في الحصن الذي أنشئ في ثرمداء(23). وظلوا هناك حتى وصل إلى نجد في ربيع 1822 قائد مصري جديد هو حسن بك الذي

انشغل بجمع الإتاوات والنهب. وأصبح الأمر لا يطاق، حتى أن انتفاضات كثيرة ومقاومة مسلحة قامت ضد المحتلين رغم الإرهاب. ولم تكن لدى المصريين قوات كافية. فاكتفوا بإبقاء حاميات في عدة مدن هامة ـ الرس وشقراء وبريدة وعنيزة وثرمداء والرياض(24).

لقد أخفقت المحاولات الأولى لبعث السلطة المحلية من قبل أبن معمر في البداية ثم من قبل أثنين من أفراد العائلة السعودية. إلا أن الوهابية احتفظت بجذور عميقة بين أهالي نجد، في حين كانوا يتصورون أن العائلة السعودية هي منفذة المشيئة الإلهية على الأرض.

بعث سلطة السعوديين في عهد تركي. بعد أن وفق تركي في الهرب من المصريين عام 1820، ظل متخفياً طوال عدة سنوات، في المناطق الجنوبية على ما يبدو، ولكنه ظهر من جديد على مسرح الأحداث في نجد في أيار (مايو) أو حزيران (يونيو) 1823، حيث يشير أبن بشر إلى عمليات فصيله الصغير في الحلوة(25).

ووجد تركي حلفاء وأنصاراً له من بينهم سويِّد حاكم مدينة جلاجل في سدير(26). ووصلت مع سويِّد فصائل من بعض المناطق الأخرى. فتشجع تركي وقام بغزوة على مدينتي منفوحة والرياض المتواجدتين قرب بعضهما بعضاً وفيهما حاميات مصرية من 600 شخص. ولم تكن جميع المناطق بعد تؤِّيد الأمير تركي. وعلى أي حال فأن أبن بشر

ذكر أن ثرمداء وحريملا والخرج تعاديه وأن قسماً كبيراً من واحات الوشم وسدير فضل الانتظار(27).

وفي تلك الأثناء بدأت في القصيم انتفاضة شاملة ضد المصريين سببها الإتاوات والابتزاز من جانب حسن بك. واضطر المصريون على الجلاء إلى الحجاز وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوحة فقط(28).

وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصرية في نجد في عامي 1823 ـ 1824 فوسع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوحة وعزل الحاميتين المصريتين واخضع سدير والمجمعة والوشم. وفي أواخر تموز (يوليو) 1823 شدد تركي الضغط على الرياض وثرمداء والخرج. وأجليت الحامية المصرية من منفوحة. وبعد عدة أشهر من الحصار سقطت الرياض على يد تركي وتم جلاء المصرين من الحجاز وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركي. وتم تطهير أواسط نجد كلها من المحتلين(29).

استمر حكم تركي بن عبد لله بن محمد بن سعود من عام 1813، عندما بدأ يحتل نجد، حتى مقتله في عام 1834. ويرى الكثيرون من المؤرخين أن تركي هو مؤسس الدولة السعودية الثانية لأنه كان يحكم بصورة مستقلة رغم اعترافه بسلطة الإمبراطورية العثمانية شكلياً والمصريين فعلياً. ولكنه لا يمكن الكلام عن الاستقلال الحقيقي للأمارة الجديدة إلا بعد جلاء المصريين نهائياً من الجزيرة العربية عام 1840. كان الأئمة السابقون يتحدرون

من عبد العزيز بن محمد بن سعود، في حين أن تركي وجميع الحكام اللاحقين، بمن فيهم الملك الحالي فهد وهو من سلالة تركي كانوا يتحدرون من عبد الله بن محمد بن سعود.

وفي أواخر عام 1824، استقر تركي في الرياض التي ظلت عاصمة لنجد ثم للعربية السعودية بأسرها حتى اليوم. وبدأ نشاء المسجد والقصر والتحصينات وفي نيسان (إبريل) _ أيار (مايو) 1825، توجه أمير الرياض إلى منطقة الخرج وأخضعها بعد معارك(30).

وسيطر تركي على العارض والخرج والحوطة والمحمل وسدير والأفلاج والوشم. وفي منطقة القصيم خضعت له بعض الواحات فقط. وظلت منطقة جبل شمر في الواقع ليست في متناول يد الأمير. وربما كان تركي يدفع الحد الأدنى من الضريبة للسلطات العثمانية، أو على الأصح للمصريين مباشرة في الحجاز أو في القاهرة(31)، مع أن ابن بشر لا يشير إلى ذلك.

وكان بعض الفارين قد عادوا إلى نجد التي سادتها فترة من الاستقرار المؤقت. وكان من أبرز العائدين مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود الذي فر من مصر. وفي عام 1825، عين حاكماً للمنفوحة. وفيما بعد، قتل مشاري هذا الأمير تركي غدراً. ووصل من المنفى أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو عبد الرحمن بن حسن الفقيه الكبير ومعلم جيل كامل من أفراد آل الشيخ الأصغر منه سناً(32). وقد بعث إلى أنحاء نجد على

الفور رسائل طالب فيها الجميع، وخصوصاً الفقهاء والأمراء، بالعودة إلى "الإسلام الحقيقي" ورفض ممارسات المشركين من أدعياء الإسلام والخضوع لِإمام المسلمين. واتخذ الشيخ عبد الرحمن سيرة جده الشهير مثالاً وقدوة لخدمة الدين الحقيقية(33). ويقول الرحالة السويِّدي فالين أن عبد الرحمن كان قاضياً في الرياض عام 1845(34)، إما بلغريف الذي زار الرياض عام 1862 فيتحدث عنه بوصفه "الزعيم الروحي للبلاط"(35). وتعززت سلطة السعوديين الدنيوية من جديد بفضل تأثير الوهابية مع أنها لم تعد تتميز بالتعصب الذي كانت عليه في السابق.

بديهي أن تركي قد حاول تسديد الضربة إلى البدو، بعد أن أحتل عدة مناطق ذات سكان حضر بكثافة كبيرة نسبياً. وفي الفترة 1826 ـ 1828، قام غزوات على قبائل بني خالد وهتيم والدواسر وغيرها. وسرعان ما أرسل العديد من شيوخ قبائل سبيع والسهول والعجمان وقحطان وكذلك مطير (الأمر الذي أفرح الأمير تركي بخاصة) أرسلوا وفوداً أعربت عن خضوع تلك القبائل له. وبالمناسبة فأن ذلك لم يمنعها من الحنث بالوعد والقيام بغزوات جديدة(36).

وكان من الأحداث الهامة في 1827 ـ 1828 فرار فيصل، أبن تركي، من الأسر المصري(37). فقد كان مقدراً له أن يحكم أمارة الرياض مرتين.

إن عدم وجود منافسين كبار وعدم تدخل المصريين أو الأتراك مؤقتاً في شؤون نجد قد مكن

الرياض من إخضاع القصيم وأن بصورة غير كاملة(38). ثم جاء دور جبل شمر(39).

وفي عام 1827، قتل يحيى، شريف مكة، فعين محمد على بدلاً منه محمد بن عبد المعين بن عون الذي ظل في هذا المنصب حتى عام 1851.

واتضح أن عسير كان عسيراً على محمد علي. فقد دحر أهل هذه المنطقة مراراً في معارك مكشوفة ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها.

شرق وجنوب شرق الجزيرة في عهد تركي. لم تكن في شرقي نجد قوات تستطيع أن تهدد أمارة الرياض كالقوات المصرية في الحجاز. وبديهي أن تركي الذي عزز مواقعه في نجد قد بدأ غزوات على الشرق، على الأحساء. في تلك الأثناء كان محمد وماجد من آل عريعر قد حكما هذه المنطقة منذ عشر سنوات تقريباً. وربما كانا قد عينا رسمياً من قبل محمد علي أو ربما كانا يدفعان له الإتاوة(40).

وفي عام 1830 اجتاح نجد تجمع بدوي كبير من بني خالد وسبيع وعنزة ومطير وبني حسين. وبالإضافة إلى حضر نجد الموالين لتركي التزم جانبه قسم من البدو من قبائل أخرى. ونشبت معركة استمرت عدة أيام بين أهل نجد وخصومهم، وانتهت بمقتل ماجد آل عريعر وتدمير بدوه. وتقررت في هذه المعركة مسألة من سيسيطر على شرق الجزيرة، هل هم آل سعود أم آل عريعر(41).

وسيطر تركي على الأحساء.

وخلافاً للأمراء السابقين واللاحقين طبق تركي وفيصل في الأحساء سياسة متسامحة(42)، الأمر الذين ساعدهما في التمركز هنا. وتجدر الإشارة إلى أن أمراء الرياض رغم استخدام راية الوهابية السابقة، قد ابتعدوا عن التقوقع الطائفي والتعصب اللذين كانا ملازمين لسابقهم. ومن الصعب اعتبار أنصارهم من أفراد الطائفة الوهابية، ولذا فسوف نستخدم مصطلح "الوهابيين" بصورة محدودة.

وفي أواخر عام 1830 فرض تركي سلطة السعوديين على حاكم البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة (1816 ـ1843) الذي كان يسيطر كذلك على قسم كبير من قطر. وفي تلك الفترة توافقت مؤقتاً مصالح أمير الرياض وسلطان مسقط الموجهة ضد البحرين. وبعد ذلك اختلفا فيما بينهما. وبعد مرور أقل من ثلاث سنوات قطع حكام البحرين علاقات التبعية للرياض حتى الواهية منها. وفي عام 1834، انتقل عبد الله آل خليفة إلى الهجوم وحاصر المرفأين السعوديين القطيف و العقير (43).

وقبل فرض السيطرة السعودية على شرقي الجزيرة أخذ الأنصار القدامى للنجديين ينشطون في جنوب شرقي الجزيرة. ففي عام 1821، استولى سعد بن مطلق، وهو أبن حاكم البريمي السعودي السابق، على مجموعة واحات البريمي الهامة استراتيجياً وأخضع قسماً من عمان(44). وعندما ثبت تركي في عام 1824منصبه كحاكم للرياض أجرى معه مباحثات سلطان بن صقر، حاكم الشارجة، وراشد حميد من العجمان وكان قسم كبير

من سكان الشارجة وعجمان يتعاطفون مع الوهابيين كالسـابق(45). وفي الـوقت نفسـه أجـرى حكـام إمـارات السـاحل مفاوضـات مـع الإنجلـيز مـؤملين بمساعدة منهم ضـد خطـر الوهـابيين. إلا إن الإنجلـيز آنـذاك كـانوا متمسـكين بسياسـة عـدم التـدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية(46).

وفي عـام 1828،مهـد أنصـار الوهـابيين على سـاحل الخليج العـربي وخليج عمـان التربـة لتـدخل جديد من قبل القوات الموالية للريـاض. وعين تـركي أميراً للبريمي عمر بن محمد بن عفيصان الذي بدأت غزواته للمناطق الداخلية من عمان ومنطقة الباطنـة السـاحلية(47). وفي عـام 1832، أعتـدت قـوات النجـدين الكبـيرة على عمـان عـبر الـبريمي. ووافـق سلطان مسقط سعيد على دفـع 5 آلاف ريـال لأمـير الريـاض. ثم اتفقـا على مسـاعدة بعضـهما بعضـاً في إخمـاد الانتفاضـات في أراضـيهما واقتسـما سـاحل الجزيرة الجنوبي الشرقي(48).

ويقول الدبلوماسي والمـؤرخ الإنجلـيزي ولسـون "أن سـاحل الخليج العـربي كلـه اعـترف بسـلطة الوهابيين منذ عـام 1833 وصـار يـدفع لهم الجزيـة"(49).

الوضـع في أمـارة الريـاض في عهـد تركي. في مطلع الثلاثينات كـانت مكانـة تـركي في الرياض راسخة تماماً. فأن نجد المخربة التي أرهقهـا نير الاحتلال كانت خاضعة لسلطة تركي. إلا إن خلافـاً نشب في عائلة السعوديين، ففي عـام 1831، تمـرد مشـاري بن عبـد الـرحمن حـاكم منفوحـة مـع بعض

أفخاذ قحطان على الأمير. ولكنه فر بسبب عدم حصوله على تأييد واسع. وفي عام 1832، عاد إلى نجد بعد أن عفا عنه الأمير(50).

كانت محدودية موارد الدولة الجديدة وعدم إمكان الحصول على غنائم وفيرة في الغزوات قد دفعا الوجهاء والأعيان إلى تشديد استغلال الرعية، وكان أمير الرياض يجد صعوبة كبيرة في فرض مبادئ معاملة السكان "بالعدل". وأورد ابن بشر حادثة ذات دلالة. ففي عام 1832، عاد تركي من الهوف إلى الرياض وعقد المجلس الكبير للأمراء وأخذ يلومهم بصرامة لأنهم يعاملون الناس بتعسف ويأخذون منهم ما ليس لهم حق به بموجب القانون. وقال في ما قال: "وأنكم إذا ورد أمري بالمغزا حملتموهم زيادة لكم وإياكم وذلك فإنه ما منعني أن أجعل على أهل البلدان زيادة ركاب في غزوهم إلا الرفق بهم وإني ما حملتهم إلا بعض ما حملهم الذين من قبلي... وإنه إذا ورد عليكم أمري فرحتم بذلك لتأكلوا في ضمنه وصرتم كراصد النخل يفرح بشدة الريح ليكثر الساقط عليه وأعلموا إني لا أبيحكم أن تأخذوا من الرعايا شيئاً ومن حدث منه منكم ظلم على رعيته فليس أدبه عزله بل أجليه عن وطنه. (ثم قال للرعايا) أيما أمير منكم ظلمكم فأخبروني..."(51).

وأوصى الأمير تركي الرعية بأن يعرضوا تدينهم في الإيمان بالتوحيد و أداء الصلاة ودفع الزكاة. وشجب أمير الرياض الربا وحذر من محاولات الالتفاف على منع ممارسته وأوصى جميع الحكام بأن

يوحدوا الموازين والمكاييل في أقاليمهم وطالب بـأن لا يحنث أحـد بـأي صـفقة أو اتفاقيـة حـتى إذا كـانت معقـودة مـع أهـل الذمـة من اليهـود أو مسـيحيين أو زرادشــتيين وألــزم الأمــراء بــأن يمنعــوا التــدخين ويُشجعوا التعليم الديني ويبنوا المساجد(52).

ورغم القحط المتوالي فـأن الأوضـاع الاقتصـادية في أواسط الجزيـرة أبـان حكم تـركي قـد اسـتقرت بقدر ما بعـد النهب والنزاعـات والاقتتـال. ولكن بعض الناس في سدير والقصيم ماتوا من المجاعة الناجمة عن الجفاف في 1826 ـ 1827 أيضـاً. وفي مطلـع الثلاثينات، وبفضل المحصـول المتوسـط والاسـتقرار النسبي انخفضت الأسعار وتوقفت المجاعــة(53). إلا أن وباء الكوليرا تفشى في نجد في عهد تركي. ظهر هــذا الوبــاء في 1828 ـ 1829 ثم في 1830 ـ 1831. وفي نيســان (إبريــل) أيــار (مــايو) 1832 انتشرت الكوليرا بين الحجاج في مكة، فتوفي حوالي 20 ألفاً منهم. وهلـك ثلث حجـاج قافلـة الشـام، كمـا هلك نصف حجاج قافلة نجد. وفي العام التالي اجتـاح الوباء نجد كلها. ووصف أبن بشـر لوحـة مرعبـة حيث توفي عدد هائـل من النـاس ولم يبـق من يتمكن من دفنهم. ولا أحــد يحــرس الأمــوال المتروكــة. وكـانت الماشية تنفـق لأن أحـداً لا يقـدم لهـا العلـف والمـاء. وتـوفي كثـير من الأطفـال في المسـاجد لأن أبـاهم عنـدما أصـيبوا بـالمرض تركـوهم في المسـاجد على أمـل أن يسـاعدهم أحـد هنـاك. ولكن لم يبـق أحـد ليساعد أولئك الأطفال. فقد خلت الواحات من أهلها(54).

مقتل تـركي والفـترة الأولى من حكم فيصل. لم تكن القبائل البدوية في أواسط الجزيرة تهتم كثـيراً بمنزلـة أمـير الريـاض، فكـانت تتصـرف بصورة مستقلة. وفي عام 1833، بدأ حاكم البحـرين عمليـات حربيـة ضـد أمـير الريـاض، وفي بدايـة عـام 1834، تعرضـــت مـــرافئ الأحســـاء إلى ضـــربات البحرانيين الذين اعتمدوا على أسطولهم وعلى قلعـة الـدمام على سـاحل الجزيـرة العربيـة(55). وحاصـر فيصل بن تركي بلدة سيهات التي تمركز فيهـا أنصـار البحرانيين. وفي تلك اللحظة وصل نبأ مقتل أبيـه في الرياض على أيدي مرتزقة مشـاري بن عبـد الـرحمن الذي استولي على السلطة في العاصمة. رفع فيصل الحصار فوراً وأسرع أرى نجد.

يعتقد البعض أن مشاري فعل فعلتـه بتكليـف من المصريين. ويعتقـد البعض الآخـر، ومنهم لوريمـير أن لحـاكم البحـرين ضـلعاً في قتـل تـركي(56). ولكن مطامح مشـاري الشخصـية هي الـتي لعبت، على مـا يبـدو، الـدور الرئيسـي. في التاسـع من أيـار (مـايو) 1834، خرج تركي من باب جانبي بعد صلاة الجمعـة فأحـاط بـه ثلاثـة أشـخاص، شـهر أحـدهم المسـدس وأطلق النار على الإمام. وحاول عبد الإمـام زويـد أن يدافع عنه، فتمكن من إصابة أحـد القتلـة بجـرح قبـل أن يقبضـوا عليـة. وبعـد ذلـك فـر إلى فيصـل. وظهـر مشاري في الحال شاهراً سيفه وطالب السكان بـأن يبايعوه(57).

كـان تـركي حكيمـاً، ولم يكن يسـتخدم القـوة بلا رحمة إلا في حالـة الضـرورة. ومن الأدلـة على عـدم

تمسكه بالثأر موفقه من مشاري، قاتله فيما بعد. وبالمناسبة فأن العفو عن الخصوم لم يكن ظاهرة استثنائية في الجزيرة العربية، بل كان دليلاً على ضرورة المساومات مع الأقرباء والشخصيات القوية. وكان تركي يتسم بالسخاء، شأنه شأن الحكام السعوديين الذين سبقوه، وحاول أن يحد من جشع وجهائه وأعيانه. وتجدر الإشارة إلى أنه درس في وقت ما التطبيب عند العوام واشتهر بأنه حكيم(58). وكان بتصرفاته الذكية قد عجل في انسحاب المصريين من نجد. وكانت أواسط الجزيرة موحدة في عهده طوال أحد عشر عاماً.

وأسفر مقتل تركي عن نزاعات قبلية واضطرابات في نجد استمرت تسعة أعوام. وخلال هذه الفترة اعتلى عرش الرياض أربعة من آل سعود.

ولم يبق مشاري بن عبد الرحمن في السلطة غير شهر ونيف. فقد وصل فيصل وأنصاره العاصمة وباغتوا مشاري وقبضوا عليه. ففي ليلة 28 أيار (مايو) 1834، أرسل فيصل إلى الرياض محاربين من أبناء المدينة مؤملاً بأنهم سيواجهون بمقاومة أقل من أهلها. واصطدموا بجماعة من الحرس فعرفوهم ولكنهم تمكنوا من أن يتخذوا مواقع حول القلعة. وعندما سمع مشاري إطلاق النار نصب المتاريس في القلعة. وفي صباح اليوم التالي، أحتل فيصل المدينة وبدأ حصار القلعة. ثم اقتحم محاربوه القلعة، وتم القبض على مشاري وأُعدم(59).

استلم فيصل زمام الحكم وهو في حوالي الأربعين من العمر في أوج نضوج قابلياته الجسمانية

والروحية. وأسرع لتقبل البيعة من أهالي العاصمة واستدعى القضاة من مختلف المناطق إلى الرياض حيث حلوا ضيوفاً عليه طوال شهر تقريباً ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن أغدق عليهم فيصل الهدايا. وبعد ذلك وجه الإمام إلى الواحات والبوادي رسالة دعا فيها الجميع للولاء له. وأخذ أمراء الواحات وشيوخ البدو يتقاطرون على الرياض ليعربوا عن ولائهم للحاكم الجديد. وبعد ذلك فقط أرسل فيصل عملاءه إلى البوادي لجمع الزكاة.

إلا أن مقتل تركي قد زعزع السلطة في أمارة الرياض. فقد رفض أهالي وادي الدواسر والافلاج وقبيلة قحطان دفع الزكاة واضطر فيصل أن يرسل إليهم فصائل لِإخماد القلاقل(60).

وسرعان ما اضطرب شرقي الجزيرة، حيث نشبت معارك بين عساكر أمير الرياض التي قادها المملوك زويد وبين البحرانيين الذين حاصروا القطيف والعقير من جديد، ولكنهم واجهوا خطراً آخر يتمثل في مطامع إيران. ووافق حاكم البحرين على دفع جزية رمزية مقدارها ألفا ريال، والتزم فيصل بحماية البحرين من العدوان الخارجي. ورفع الحصار عن القطيف والعقير(61).

كان نفوذ أمير الرياض في عمان كبيراً في أواسط الثلاثينات. وفي شتاء 1835 _ 1836، تأكد كولونيل الأسطول الإنكلوهندي ج. ويلستاد ورفيقه وايتلوك، وهما يتجولان في هذا البلد تحت حماية سلطان مسقط سعيد، من أن الوهابيين في عمان كانوا أحياناً أقوى من السلطان(62). إلا أن عداء

الإباضية ومعارضة الإنجليز جعلا مواقـع النجـديين هنـا غير مأمونة إطلاقاً.

ألا أن فيصل كان قلقاً أشد القلق للأنباء الـواردة من الحجـاز، حيث تأكـد لـه أن المصـريين يسـتعدون لهجوم جديد على نجد.

فبعـد الهــزائم الجديــدة في عســير 1833 ـ 1834، حاول محمد علي مرة أخرى في عـام 1835 أن يستولي على هذا الإقليم الذي كان يعتـبره مفتـاح الجزيرة. إلا أن قواته منيت بالهزيمة من جديد.

وقبل أن ننتقل إلى الأحـداث المرتبطـة بـالهجوم المصـري الأخـير على نجـد من المناسـب أن نتحـدث عن إمـارة جديـدة لا يعـرف عنهـا الكثـير بعـد، وقـد شاركت في قصـة الجزيـرة العربيـة الفاجعـة. ونعـني إمارة جبل شمر التي قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في أواسط الجزيرة.

بعد سقوط إمـارة الدرعيـة بـدأت النزاعـات في جبل شمر. فقد هب ضد الأمير محمد آل علي الحاكم هنا فخذ من قبيلته هو آل رشيد، ولكنه مني بالهزيمة. فقـد طـرد زعيم هـذه الأمـارة أسـرة علي آل رشـيد وأبناءه عبد الله وعبيد من حائل عاصمة الأمارة(63). وبعد عدة سنوات دخل عبد الله في خدمة تركي أمير الريـاض وتصـادق مـع أبنـه فيصـل. وكـان من بين العقداء الذين بايعوا فيصل بعد مقبل أبيه مباشرة.

كـان فيصـل ينتظـر الفرصـة ليشـكر صـديقه المخلص، فاسـتفاد من الشـكاوى على حـاكم حائـل صـالح بن عبـد المحسـن آل علي ونحـاه من منصـبه. وبعد إزاحة المنافسين أمسك الأخوان عبد الله وعبيد

بزمام السلة في جبل شمر وسرعان ما أخذا ينشئان قلعة في العاصمة في محلة البرزان التي غدت فيما بعد رمزاً لِأمجاد وجبروت آل رشيد.

وأعرب الأخوان عبد الله وعبيد آل رشيد عن ولائهما للأمير فيصل أن يشارك الذي أكد تعيينهما لحكم جبل شمر وأرسل إلى حائل فقيهاً وهابياً، ولكن الأخوين آل رشيد أخذ في الوقت نفسه يهيئان الجمال ويرسلانها إلى المصريين في الدينة المنورة(64).

هزيمة فيصل. كان المصريون قد طلبوا من أمير الرياض فيصل أن يشارك في حملاتهم على أهالي عسير الذين هم حلفاء له سراً، أو أن يقدم الجمال للقوات المصرية. تملص فيصل بلياقة دون أن يلبي هذا الطلب ولكنه أرسل أخاه إلى مكة يحمل الهدايا لِأحمد باشا(65).

في عام 1835 ـ 1836، لم تسقط الأمطار الموسمية في أواسط الجزيرة فبدأ القحط والمجاعة، ونزح قسم كبير من سكان نجد إلى منطقة البصرة والزبير. وأشار أبن بشر إلى ظهور مذّنب في كوكبة الدب الكبير واعتبر ذلك نذير بالقحط، وفسر القحط بدوره على أنه عقاب على الخطايا التي اقترفت بمقتل الإمام تركي(66). لكن إذا صدقنا التكهنات فأن المذّنب والقحط كانا ينذران بمصائب أكبر بكثير. فقد عزم محمد علي على فرض سلطته على نجد ونصب هناك صنيعته خالد وهو أبن لإمام سعود الشهير. وكان هذا الأمير الشاب الذي قضى سنوات عديدة في بلاط محمد علي هو الأخ

الأكبر من إخوان عبد الله الذين ظلوا على قيد الحياة بعد إعدامه في الأستانة.

وفي تموز (يوليو) 1836، زحفت من القاهرة قوات بقيادة إسماعيل بك، وهو مدير سابق لشرطة القاهرة. وتتكون هذه القوات من أتراك وألبان ومغاربة وبدو مصريين، وهي معززة بالمدفعية.

وبعد أن نزل إسماعيل في ينبع واصل زحفه إلى المدينة ومن هناك إلى الحناكية. أما فيصل الذي يعرف أن التدخل سيجري عبر القصيم فقد شغل المنطقة ونصب معسكراً في الرس التي هي بوابة القصيم من جهة الحجاز. إلا أن جنود فيصل كانت تعوزهم إرادة القتال وكانوا مسحوقين بائسين، إذ ما يزالون يتذكرون جيداً مصير إخوانهم الأكبر وآبائهم. وعندما بدأ فيصل في نيسان (إبريل) 1837سحب الآليات الثقيلة إلى عنيزة أصاب الذعر عساكره فأخذوا يتفرقون(67).

وعاد فيصل مع جماعة من أتباعه المخلصين إلى الرياض واتضح له أن روح الهزيمة استولت على أهالي العاصمة الذين لا يريدون بأي حالة دعمه والتضحية بالنفس والأموال من أجله(68).وعندما أدرك فيصل إن الوضع في العاصمة غير مأمون توجه نحو الجنوب، إلى الخرج،ثم ذهب إلى الهفوف حيث وضع حاكمها الموالي له، عمر بن عفيصان، قواته تحت تصرفه. وظل فيصل في الهفوف حتى تموز(يوليو)1837.

اعترفت القصيم بسلطة خالد بن سعود بدون مقاومة تقريباً. وبعد ذلك أرسل المصريون فصيلاً

نظامياً ومتطوعة من القصيم للاستيلاء على جبل شمر. وأقنعهم عيسى آل علي، وهو أحد المرتدين من أفراد الأسرة التي أسقطت في حائل، بأن يعينوه أميراً. ويبدو أن المصريين لم يكونوا يثقوا بالأخوين من آل رشيد. وتم احتلال المدينة سلمياً تقريباً. وفر عبد الله وأخوه عبيد. وعاد قسم كبير من المصريين إلى القصيم بعد أن اكتفوا بغرامات حربية نقدية. إلا أن عيسى لم يتمكن من البقاء في حائل إلا بضعة أشهر. فإن ابتزاز و قساوة حماته المصريين جعلا الأهالي يهبون في وجه المحتلين وصنائعهم، ويحرضهم في ذلك الإخوان عبد الله وعبيد اللذان اختبئا في البادية. واصبح الوضع عسيراً لا يطاق بالنسبة للمصريين، فأجلوا عن جبل شمر. وأرتحل معهم عيسى بن علي. وعاد عبد الله بن رشيد حاكماً لجبل شمر(69).

وفي أيار (مايو) 1837، دخل إسماعيل بك وخالد الرياض. وانتهت رسمياً الفارة الأولى من حكم فيصل (1834_1837).

وتعزى سرعة هزيمة أمير الرياض وسهولة احتلال المصريين لنجد إلى فظاعة شبح إبراهيم باشا وذكر احتلاله للبلد والمصائب التي لحقت به. فالنجديون يتذكرون تفوق المصريين في العساكر، وخصوصاً في المدفعية. وكانت أواسط الجزيرة كلها قد أضعفها القحط والمجاعة والأوبئة. ومما لا شك فيه إن ظهور خالد بن سعود قد ولد انقساماً بين الموالين لآل سعود. وعلى أي حال فأن أهالي نجد لم

يبدأوا بالتمرد على المحتلين إلا بعد أن أدركوا بأن الخضوع لن يحميهم من التعسف والنهب.

وبعد الاستيلاء على الرياض أرسل خالد رسالة إلى أمير الحريق تركي الهزاني يُطالب فيها بالخضوع، ولكنه استلم رداً يكشف عن طبيعة الأمزجة في الواحات الجنوبية: "إن كان الأمر لك ولا يأتينا في ناحيتنا عسكر من الترك فنحن رعية لكم وإن كان الأمر للترك فنحن لهم محاربون"(70).

وفي تموز (يوليو) 1837، توجه إسماعيل بك وحلفاؤه بقوات قدرها 7 آلاف شخص تقريباً إلى الجنوب ولكن لحقت بهم هزيمة ماحقة في معركة الحلوة. وكانت الهزيمة شديدة لدرجة جعلت البدو، حلفاء المصريين، ينتزعون منهم الخيول ليهربوا عليها من ساحة المعركة بأسرع ما يمكن. وترك المصريين مدفعيتهم كلها. وفر خالد وإسماعيل بك وبعض الضباط المصريين مع فصيل صغير. وهكذا، ففي تموز 1837 تم دحر قسم كبير من قوات الاحتلال المصرية في نجد(71). وحاول فيصل استعادة العاصمة، فحاصرها، ولكنه لم يتمكن من احتلالها بعد شهرين من الحصار.

وكانت قوات المتخاصمين متعادلة مؤقتاً، مع أن إمدادات مصرية وصلت إلى القصيم في بداية عام 1838 وقد بعثها خورشيد باشا من المدينة. وتم بين فيصل والمصريين اتفاق نص على تقسيم نجد في الواقع إلى قسمين. ظل فيصل مسيطراً على شرقي الجزيرة والبريمي وجزء من جنوب نجد. وكانت أواسط نجد خاضعة رسمياً لخالد(72).

ولكن خورشيد باشا وصل شخصياً إلى نجد في حزيران (يونيو) 1838. وكانت من المهمات الرئيسية لحملته كالسابق جمع الجمال لِإرسالها إلى الحجاز. وفي عنيزة جاء عبد الله إلى خورشيد باشا من حائل وأقنعه بالاعتراف به أميراً لمنطقة جبل شمر الخاضعة للمصريين(73).

وجاء شيوخ القبائل البدوية الكبرى ليعبروا عن خضوعهم لخورشبد باشا. وطوال عدة أشهر قام خورشيد باشا بتعزيز عنيزة كقاعدة رئيسية له وبنى فيها قلعة متينة.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1838، توجه المصريون إلى الرياض وانضمت إليهم متطوعة بقيادة خالد بن سعود. وكان مجموع ما عند خورشيد من قوات 4 آلاف مقاتل و10 مدافع. وتحركت تلك القوات نحو الجنوب للقضاء على فيصل المتمركز في الدلم. وبعد حصار استمر أكثر من شهر سقطت الدلم في 10 كانون الأول (ديسمبر) 1838. وللمرة الثانية، اضطر فيصل للسفر إلى مصر بمثابة أسير. وللمرة الثانية سقطت أواسط الجزيرة مدمرة تحت أقدام المصريين(74).

الفترة الأخيرة من الاحتلال المصري.

استمر حكم خورشيد باشا كعامل لمحمد علي في نجد سنة ونصف. وكان المصريون هذه المرة يعتبرون نجد لا دولة معادية يجب تدميرها وتخريبها، بل جزءاً من ممتلكاتهم الدائمية. وكان خورشيد يأمل في بسط سلطته من أواسط الجزيرة إلى الأحساء وعمان(75) وربما العراق أيضاً(76). وفر أمير

الأحساء عمر بن عفيصان الموالي لفيصل وأعرب الباقون عن خضوعهم للمصريين الذين أرسلوا حامياتهم إلى مدن شرقي الجزيرة.

وحاول خورشيد باشا عبثاً "أن يرغم حاكم البحرين على دفع الجزية مجدداً لصنيعة المصريين أمير نجد خالد ووضع جزيرة تاروت وقلعة الدمام تحت السيطرة المصرية وكذلك تسليم عمر بن عفيصان الذي فر إلى البحرين(77). وبدأ القلق على الإنجليز.

ومنذ عام 1838، كان القنصل البريطاني العام في القاهرة الكولونيل كامبيل قد حذر محمد علي من محاولات التمركز في منطقة الخليج، ومنها البحرين. وأصدرت السلطات البريطانية في الهند أمراً إلى الأميرال ف. مايتلاند قائد العمارة البحرية في الخليج بأن يدافع عن البحرين عند الاقتضاء(78).

وعندما سمع حاكم البحرين عبد الله آل خليفة أنباء انتصار محمد علي في الشام والجزيرة العربية فضل دفع جزية رمزية إلى خورشيد بمبلغ ألفي ريال سنوياً مع أنه رفض أن يكون له ممثل في جزر البحرين.

وفي عامي 1838 و 1839 ظهر وجود مصري في الكويت أيضاً. فقد وصل مخبر من خورشيد باشا إلى المشيخة لشراء أغذية. وكتب لوريمير أن هذا المخبر كان على ما يبدو يؤدي وظائف سياسية وتجسسية فيما يخص نية خورشيد باشا لانتزاع العراق من الأتراك. وكان حاكم الكويت جابر الصباح يخشى المصريين لدرجة كبيرة، حتى أنه قدم

للمنـدوب المصـري مكـان الشـرف في مجلسـه إلى جنبـه. وكـان رد فعـل الإنجلـيز شـديداً جـداً بهـذا الخصوص.

وفي الوقت نفسه أخذ خورشيد باشا يزحف نحـو عمان. ونصب هناك صنيعته سعد بن مطلق الذي كان يخدمه مثلما يخدم الأمير السعودي فيصل. وأيدته أبو ظبي والشـارجة، ولكن دبي وأم القيـوين امتنعتـا عن تأييـد المصـريين. وكـان المقيم البريطـاني الكـابتن هانيـل قـد زار إمـارات السـاحل ووقـع اتفاقيـات مـع أربعة من حكامها الذين وعدوا بتأييـد الإنجلـيز. وكتب هانيل رسالة إلى سعد بن مطلق ينصحه فيها بالعودة إلى نجد، وأخذ يحرض قبائل عمان ضده.

كانت قـوات محمـد علي تحقـق الانتصـارات في المعـارك في عسـير ولكنهـا لم تتمكن من السـيطرة على البلد. وفي أيلول (سـبتمبر) ، 1837، قـام أهـل عسير بانتفاضة جديدة. وتم إخماد الانتفاضة في أيـار (مـايو) 1838، ولكن أحمـد باشـا المقيم في مكـة وإبراهيم باشا كوجوك الموجود في الحديـدة كانـا في عام 1840 ما يزالان يشنان حملة غير موفقة(79).

ويعـزى اسـتيلاء بريطانيـا على عـدن في عـام 1839، إلى الرغبة في الحيلولة دون تقدم المصريين في عسـير واليمن وإنشـاء قاعـدة بحريـة بريطانيـة ومحطـة للفحم في القسـم الشـمالي من المحيـط الهندي.

في عام 1840، انهارت إمبراطورية محمد علي. فأصدر أمـره إلى قواتـه بـالجلاء عن نجـد واليمن في آذار (مارس) 1840. وفي حزيران (يونيو) سـار على

قـدم وسـاق انسـحاب قـوات خورشـيد من نجـد والمنطقة الشرقية وانسحاب قوات إبراهيم كوجـوك من اليمن. كان محمد علي بحاجة إلى تحشـيد قواتـه قريباً من مصر تحوطاً لمـا إذا كـانت ستنشـب حـرب كـبرى بين مصـر وفرنسـا من جهـة، وبين تركيـا والإنجليز وحلفائهم من جهة أخرى.

وغادر المصـريون أواسـط الجزيـرة العربيـة إلى الأبد. لكن أحداً لم يكن يعرف ذلك آنذاك. فقد تركت في نجـد حاميـات رمزيـة من جنـود مصـريين. كـان عليهم أن يرفعوا العلم ويدعموا خالد(80).

الفصل السابع

الدولة السعودية الثانية (1843 _ 1865)

في العقـد الخـامس من القـرن التاسـع عشـر أزيحت مصر في الواقـع من المسـرح السياسـي في الجزيـرة العربيـة. ولم تكن لـدى البـاب العـالي بعـد إمكانية ورغبة في التدخل النشيط تنفي شؤون نجـد، وكان الإنجليز مشغولين بتعزيز مواقعهم على سـاحل الخليج العربي وخليج عمان وفي عمـان نفسـها، ومن جديـد تـركت أواسـط الجزيـرة وشـأنها وتهيـأت فيهـا الظروف لبعث الدولة السعودية في أراض محدودة.

من جلاء المصريين حتى عودة فيصـل:

لم يتمكن الأمير خالد من البقاء في دست الحكم بعد جلاء قـوات خورشـيد من أواسـط الجزيـرة إلا عامـاً

واحداً. وعندما استسلم محمد علي في عام 1840، أبدى الباب العالي ادعاءه في نجد متحججاً بأن الذي احتلها كان والياً للسلطان العثماني، ولذا يجب اعتبار خالد تابعاً للعثمانيين. وعلى أي حال، هذا ما قاله المؤرخ التركي المعروف جودت(1). إلا أن مواقع خالد كانت تضعف وتتدهور. فقد كان مكروهاً من قبل الجميع بوصفه صنيعة للمصريين. وخلال فترة نفيه إلى مصر تكونت لديه فكرة ما عن التعليم الأوروبي، الأمر الذي أضر به في نجد، ولم يخدمه على ما يبدو. وكان قد انهمك في الملذات مما ألحق ضرراً كبيراً بسمعته. أما الجنود المصريون المتبقون فقد انخرطوا في الابتزاز ولم يكونوا يستلمون رواتبهم(2). وبدأت النزاعات القبلية الإقطاعية من جديد.

وعندما توجه خالد إلى خورشيد باشا في آب (أغسطس) 1841 لتوديعه رفع راية الانتفاضة أحد أقربائه البعيدين وهو عبد الله بن ثنيان، أبن حفيد مؤسس الأسرة السعودية والممثل الوحيد لفرع آل ثنيان الذي حكم نجد في فترة ما. وكان أبن ثنيان قد فر في السابق إلى قبيلة المنتفق في جنوب العراق ثم ظهر في نجد وحظي بتأييد حاكم الحريق تركي الهزائي الحليف السابق للإمام فيصل وآل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك قبائل سبيع وعجمان وآل مرة. وفي الخريف سحب خالد قواته إلى المنطقة الشرقية أما طلباً للنجاة وأما أملاً في استجماع القوى. ولكنه لم نعد بعد ذلك إلى الرياض مطلقاً.

وبعد خروج خالد فرض أبن ثنيان سيطرته على نجد. وكانت لديه في البداية بضع مئات فقط من الأتباع، ولكن عددهم ازداد كثيراً فيما بعد. وفي أواخر عام 1841 استولى أبن ثنيان على الرياض. وبعد أن وافقت الحامية المصرية في القلعة على الجلاء تحررت نجد بالكامل من القوات الأجنبية. ويبدو أن الحاميات المصرية الأخرى قد تفرقت. فنحن لا نعرف عنها شيئاً بعد الآن(3).

حاول أبن ثنيان تعزيز مركزه كأمير للرياض، ولكن سلطته لم تشمل في الواقع القصيم وجبل شمر والمنطقة الشرقية. وقد وجه حملته الأولى إلى الأحساء عندما كان خالد ما يزال موجوداً فيها مع فصيل من المرتزقة المصريين. ومني خالد بهزيمة ففر إلى البحرين ثم إلى الكويت، ومن هناك إلى الحجاز حيث أقام وأخذ يستلم راتباً من محمد علي(4).

وأرسل أمير نجد إلى الهفوف عمر بن عفيصان الذي تمكن بالتدريج من فرض سيطرة النجديين على هذه المنطقة واستطاع أن ينتزع العقير من البحرانيين.

كانت أساليب أبن ثنيان قاسية، وربما كانت موروثة عن الاحتلال المصري. فقد كان كثيراً ما يفتك بخصومه، مثل آل سديري الذين عارضوه، وذلك خلافاً لتقاليد الجزيرة العربية التي تنص على العفو عند المقدرة. وكان الأهالي يكرهونه لأنه حاول على ما يبدو أن يجمع المزيد من الأموال بشكل زكاة من البلد المدقع. وكان المؤرخ الشمري ضاري بن

الرشيد يعتبره رجلاً شجاعاً ولكنه أراق دماء كثيرة وقتل كثيراً من المؤمنين. كان الناس يكرهونه ويحبون فيصل(5).

هرب فيصل بن تركي من مصر في عام 1843 بعد أن كان أسيراً فيها منذ عام 1838. ويعتقد بعض المؤرخين أن عباس باشا حفيد محمد علي ساعده على الفرار. والأغلب أن محمد علي وورثته أدركوا أن وجود أمارة مستقلة في أواسط الجزيرة العربية يجعلها خصماً للإمبراطورية العثمانية(6).

ووصل فيصل إلى جبل شمر حيث استقبله عبد الله آل رشيد وأخواه عبيد بالترحاب بوصفه صديقاً قديماً. كانت سلطة عبد الله قد شملت كثيراً من القبائل غير الشمرية. "كان جميع البدو من القصيم حتى حوران، ومن بلاد ابن سعود في شرقي نجد حتى جبال الحجاز، خاضعين وملزمين بالاعتراف بسلطة ابن رشيد حيث يدفعون له الزكاة"(7). وعندما اقتضت الحاجة الاختيار بين السيطرة المصرية والتبعية لفيصل اختار عبد الله التبعية، ولا سيما أن فيصل كان صديقه الشخصي، الأمر الذي يعتبر عاملاً سياسياً ليس بقليل الأهمية في ظروف الجزيرة. وعرض حاكم حائل على الأمير فيصل رجالاً ودواباً ونقوداً، وعبأ ابن ثنيان أنصاره ولكن أفراد عساكره سرعان ما بدأوا يفرون.

ومما أعاق خطط فيصل العداء بين أهالي جبل شمر و القصيم، وخصوصاً بين أهالي جبل شمر ومدينة بريدة. وكان متوقعاً إن حاكم بريدة سيضمر

العداء لفيصل لأن أبن رشيد صار من أنصاره. إلا إن مدينة عنيزة ربطت مصيرها بمنافسة أبن ثنيان.

وانتقلت نجد بالتدريج إلى جانب فيصل. في البداية انتقلت القصيم، ثم سدير والوشم. وفر أبن ثنيان إلى الرياض وحظي فيصل بتأييد قبائل سبيع والسهول والعجمان وكذلك مطير. وفي صيف 1843، سقطت الرياض وتم القبض على أبن ثنيان وتوفي في السجن في تموز (يوليو) من العام نفسه، ويعتقد المؤرخ ضاري بن الرشيد إن حرس السجن أعدموا الأمير المخلوع، فقد كان بينهم أشخاص قتل الأمير أقاربهم في حينه. وعندما سلم فيصل منافسه إلى هذا الحرس كان قد حكم عليه بالموت بهذه الطريقة(8).

وبعثت الإمارة النجدية من جديد بعد تسع سنوات من الفوضى والصراع الداخلي والاحتلال الأجنبي. وصار فيصل سيداً في دياره من جديد لمدة تقرب من عشرين عاماً. كانت القوى المركزية تعمل بسرعة كبيرة على توحيد مناطق أواسط الجزيرة وشرقيها كلما ظهرا شخصية قوية وانعدام التدخل الخارجي المباشر.

ومما لا ريب فيه إن فيصل كان حاكماً قوياً. وكانت لديه خبرة الحياة في مصر الأكثر تطوراً وخبرة الحكم في ظروف الجزيرة العربية والقدرة على الجمع بين الشدة واللين والاستعداد للمساومة مع الإصرار. وكانت الصلات المتزايدة مع المصريين والأتراك والإنجليز قد حملت أمير الرياض على إبداء المزيد من الاعتبار للعالم الخارجي.

بعث إمــارة الســعوديين في الريــاض

نشـأت الدولـة السـعودية الجديـدة على مسـاحة من الأراضـي أقـل من أراضـي أمـارة الدرعيـة. وكـانت الحركة الانفصالية قوية فيها رغم الاستقرار المتزايـد. ويقـول فيلـبي سـرعان مـا اسـتأنفت نجـد في عهـد فيصل "سير الأمور الطـبيعي المعتـاد، ولكن ذلـك لم يكن على الإطلاق مرادفـاً للحيـاة في سـلام ووئـام وازدهار، لتلك الأمور التي كانت على الـدوام ظـواهر نادرة أو تتخللها ظواهر أخرى في البادية"(9).

كانت المهمـة الأولى للأمـير بعـد السـيطرة على المنـاطق الوسـطى في نجـد اسـتعادة المنطقـة الشرقية. وفي خريـف 1843، حاصـر مدينـة الـدمام التي يسيطر عليها البحرينيون. وفي تلك الأثناء نشب في جزر البحرين نـزاع داخـل الأسـرة الحاكمـة وفـر الحـاكم السـابق إلى القسـم القـاري واسـتقر في الدمام، وفي الوقت نفسه سـدد فيصـل الضـربة إلى قبائل المناصير وآل مرة وبـني هـاجر الـتي سـاعدت على تموين القلعة.

وفي آذار (مـارس) 1844، استسـلمت حاميـة البحـرين. واسـتولت العسـاكر النجديـة على غنـائم كبـيرة. وبـدلاً من البحرينـيين تـرك أمـير الريـاض في القلعة حامية نجدية من مائـة شـخص. ووافـق حـاكم البحرين الجديد محمد بن خليفة على استئناف تسديد الإتـاوات السـنوية للريـاض وتسـديد الـديون مقابـل تصفية منافسه. وهكذا بدأ فيصـل مرحلـة جديـدة من حكمه حيث دمر قوات البحرانيين التي لم تكن كبيرة

ولكنها كانت تقض مضجعه، واستأنف سيطرته على جزر البحرين(10).

واندلعت في المنطقة الشرقية انتفاضات مرتبطة بالصراع بين قبيلتي بني خالد و العجمان. كان بدو العجمان يسلكون الطريق المعتاد لنزوح قبائل الجزيرة. من الجنوب إلى الشمال أو من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكانوا قد نزحوا من نجران ضعفاء مشتتين. ولم تكن لدى النازحين الجدد مراعٍ خاصة بهم، فصاروا يعتمدون على القبائل الأخرى حيث تحولوا إلى زبائن لها غير متكافئين. بيد أن الأمير التركي أخذ يدعمهم وهيأ لهم إمكانية الإقامة في المنطقة الشرقية، وهي منطقة عائدة تقليدياً لبني خالد، ويبدو أن من أهداف هذه الإقامة إيجاد قوة توازن لمواجهة بني خالد ووجهائهم الذين كانوا يتمردون على الرياض بين الحين والآخر، وكانوا ينافسون أمراءها في وقت ما.

وصار العجمان أكثر قوة وجسارة. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1845، هجم عليهم فيصل بعساكر كبيرة، وفي عام 1846 دمرهم عن بكرة أبيهم. وحضر صغار شيوخ العجمان وحلفاؤهم من سبيع إلى الإمام فيصل وأعلنوا عن خضوعهم له. وطوال خمسة عشر عاماً لم يسمع أحد شيئاً عن العجمان(11).

وبعد أن فرض فيصل سيطرته على المنطقة الشرقية انشغل بالجنوب، بالافلاج ووادي الدواسر. ففي عام 1845، أرسل قواته إلى الافلاج لِإخماد القلاقل هناك(12). وعندما كان أمير الرياض مشغولاً

بإخماد حركة العجمان وإحلال النظام في المناطق الجنوبية من نجد اندلع من جديد العداء القديم بين القصيم وجبل شمر. وسدد عبيد ضربة شديدة إلى فصيل من عنيزة ونظم عبيد آل رشيد شعراً بخصوص انتصاره. وفيما بعد، عندما زار الجزيرة شارلز دوتي، وهو من أعظم الرحالة الإنجليز، سمع ذلك الشعر تتناقله الألسن(13). كانت قصيدة عبيد افتخاراً عادياً بالنصر. فهو يتبجح بكونه قد قتل 90 من الأعداء حتى تعبت يده من حمل السيف وتخثر دم الأعداء على كُمه. وواجه أبن رشيد صعوبة كبيرة في تهدئة فيصل الذي استشاط غضباً بسبب الحرب بين أتباعه. وبعث حاكم جبل شمر إلى أمير الرياض رسالة توضيحية منظومة، يقال أنها أثرت في فيصل تأثيراً حسناً(14).

وطالما كان عبد الله بن رشيد على قيد الحياة ظلت العلاقات ودية بين حائل والرياض. واعتبر عبد الله نفسه تابعاً لفيصل، ولكنه احتفظ باستقلالية واسعة. وبالإضافة إلى الصداقة التي تربط بين الأميرين فقد ربطت بينهما صلة القربى، إذ تزوج عبد الله الابن الأكبر لفيصل من ابنة عبد الله بن رشيد، بينما تزوج طلال أبن حاكم حائل من ابنة فيصل(15). وكان عبيد، شقيق حاكم حائل، يقضي كل سنة شهرين أو ثلاثة في الرياض حيث يحل ضيفاً على فيصل. وقد توسعت منطقة جبل شمر إلى الشمال. ففي عام 1838، مثلاً، انضمت إليها منطقة الجوف وهي واحة كبيرة تقع على بعد 350 كيلومتراً تقريباً شمال غربي حائل.

وفي أيار (مايو). حزيران (يونيو) 1837، توفي عبد الله وحل محله ابنه طلال البالغ الخامسة والعشرين من العمر، وبعث إلى الرياض إبلاً وخيلاً بمثابة هدية تعبر عن استمرار تبعيته للحكومة المركزية(16).

مشكلة القصيم: الصراع مع العجمان.

لم يتمكن فيصل من فرض سيطرته بصورة تامة على القصيم. وكانت هذه المنطقة، كما تفيد حسابات يوبير الخاصة بالسبعينات، تضم حوالي 20 مدينة وقرية. وكان في بريدة التي تعيش بالأساس على تجارة الإبل والنقل بالقوافل حوالي 10 آلاف نسمة(17). وقبل ستينات القرن التاسع عشر حكمها أكبر إقطاعيي المنطقة. آل عليان. وكان عدد سكان عنيزة، حسب معطيات يوبير، 18 _ 20 ألفاً. وكان يعيش حوالي ألف شخص آخرين في القُرى المحيطة بها(18). وكان أمراء الأسرة الإقطاعية التي حكمت عنيزة، آل زامل، شأنهم شأن سائر الأمراء، ينتمون إلى وجهاء البدو الذين استقروا وتحولوا إلى حضر، ولكن سلطتهم على العكس، كانت مُقيدة كثيراً. ونعت الرحالة عنيزة بأنها "جمهورية مدنية"، ونعتوا أميرها بأنه "أول المتكافئين"، وقالوا عنه أيضاً أنه بمثابة "رئيس جمهورية منتخب"(19).

وكان القول الفصل في شؤون عنيزة يعود للأثرياء من أهاليها الذين يقدمون إلى المقطوعة جملاً أو جملين مع اثنين أو أربعة من الهجانة ويدفعون بدلاً دائمياً للصرف على الحرس والعبيد وتسديد أجور الرعاة وتكاليف الضيافة العامة. وكانوا

يشــاركون مــع الأعيــان والوجهــاء الإقطــاعيين في تصــريف شـؤون عنـيزة عن طريـق مجلس الأمـارة(20). ويصـــادف أن تتـــوتر العلاقـــات بين الوجهـــاء الإقطاعيين والتجار وبين فقراء المدينـة، الأمـر الـذي تدل عليـه بصـورة غـير مباشـرة ملاحظـة دوتي: "... الكثير من الفقراء يعارضون زامـل بغضـب مكشـوف يلومونه وهو صبور حكيم"(21).

وفي عام 1846ـ1847، عندما غزا شريف مكـة نجد أبدى أهـالي القصـيم اسـتعدادهم للتعـاون معـه(22). وبعـد انسـحاب الحجـازيين غيّـر أمـير الريـاض حكـام المـدن الرئيسـية. إلا أن شـتاء وربيـع 1848ـ 1849 تصرما في إخماد انتفاضة جديدة في القصيم. فالوجهاء المحليون لم يتعرفوا بالأمراء الـذين عينتهم السلطة المركزيـة، إذ كـانوا يؤيـدون هـذا الفـرع من العوائـل الحاكمـة سـابقاً أو ذاك. وكـان القتـل يعقب الخيانــات، الخيانــة تعقب فــترات الســلم، وكــانت المبايعــة تعقب العصــيان المتكــرر، ولكن المنطقــة ظلت غير خاضعة.

وكان أمير بريدة عبد العزيز آل عليان هو الزعيم المعترف به للمنطقة. وقد نحـاه فيصـل عـدة مـرات ولكنه كان يعيَّنه من جديد كل مرة. وغدا عبـد العزيـز حاكماً لبريده من جديد في مطلع عـام 1851. ويبـدو أن أمـير الريـاض لم يتمكن من الحصـول على تأييـد وجهاء القصيم ولم يستغن عن المساومة مع زعيمهـا المعترف به(23).

وفي السنوات الثلاث اللاحقة انصب اهتمام أمير الرياض على غزوات مختلف القبائل. ففي أيار(مـايو)

1854، تمردت عنـيزة من جديـد. ولم يكن وجهاؤهـا، وخصوصـاً آل زامـل راضـيين عن حكم جلـوي عامـل الأمـير فيصـل، في القصـيم. ويقـول دوتي أن حـاكم القصيم هـذا كـان ينهب السـكان ويسـتأثر بـأموالهم(24). وبدأ التمرد.

وكـانت مشـاركة الفقـراء في هـذا التمـرد قـد أضفت عليه صـبغة جديـدة. فقـد هب ضـد مضـايقات أمير الريـاض القسـم الأكـثر فقـراً من السـكان، في حين لم يؤيـد التجـار الأثريـاء المتمـردين. وعلى أثـر جلوى فر من عنيزة الشيخ عبد اللـه أبـو بطين الـذي كان قاضياً لهـذه المدينـة مـدة طويلـة وأخلص الـولاء للرياض. وصار عبـد اللـه بن يحـيى آل زامـل الملقب سليم أميراً لعنيزة.

وفي أواخر 1855، انتهى التمرد صلحاً. واضـطر فيصل إلى تنحية حاكم المنطقـة الـذي عينـه بنفسـه، بينمـا ظـل زعيم المتمـردين عبـد اللـه بن يحـيى في منصبه(25).

وفي أواسـط الخمسـينات هطلت أمطـار غزيـرة وكـان المحصـول جيـداً فهبطت الأسـعار. إلا أن وبـاء الكوليرا تفشى في نجد آنذاك.

كان الوباء قد بدأ في الهند ونقل الحجـاج عـدواه إلى مكـة في عـام 1846، وانتشـر منهـا في أوروبـا وأمريكا.

وفي عام 1860، واجه أمير الرياض تمرداً جديداً من العجمان الذين صاروا أكثر جسارة. وأرسل الأمير قوات كبيرة بقيادة أبنـه عبـد اللـه إلى الشـرق، حيث نشـبت على مسـافة ثلاثين كيلومـترا تقريبـاً جنـوبي

مدينة الكـويت في 9 نيسـان (إبريـل) 1860 معركـة جديرة بالتقليد البدوية الجاهلية. فقد أجلسوا الفتيـات من قبيلـة العجمـان وبنـات أو قريبـات الشـيوخ في هوادج خاصـة على سـبعة جمـال. وأسـبلت سـبع من أجمل بنات عوائل الوجهاء شعورهن وارتـدين أفضـل ملابسهن وظهـرن في مقدمـة البـدو يطلقن صـيحات الحرب. وكان المحاربون متحمسين إلى أقصـى حـد، لأنهم يرون بأم العين أنهم سيحاربون، فيما يحاربون، من أجـل سـلامة بنـاتهم الحسـناوات اللـواتي يمثلن شرف القبيلة. وكـانت المعركـة دمويـة لأن العجمـان واجهوا قوات من أبناء المدن والحضر الأكـثر تنظيمـاً وانضـباطاً وهي قـوات عززهـا محـاربون من قبائـل سبيع والسهول وقحطان ومطير. وقُتـل حـوالي 700 من العجمان ففروا تاركين الفتيات والجمال وكـل مـا يملكون. واختبأ في الكويت من ظل على قيد الحياة. وعمت البهجة والاحتفـالات بهـذا الحـاث في الريـاض وكذلك في البصرة والزبير اللتين تضررتا من غـزوات العجمان وأرسلتا بعد النصر هدايا ثمينة إلى عبد الله(26).

إلا أن النصـر الحقيقي كـان بعيـداً. فالعجمـان احتفظوا بقـوات كثـيرة وتحـالفوا مـع قبيلـة المنتفـق القوية في جنوب العراق. وسرعان ما بدأت القبيلتان غزو أطراف البصرة والزبير والكويت.

وأعلن فيصل الجهاد. ونشبت معركة الجهراء في 27 آذار (مارس) 1861، وتم من جديد دحر العجمان والمنتفق. وحاصر النجديون خصـومهم ودفعـوهم إلى مياه الخليج، وعندما ارتفع المد ابتلعت الميـاه 1500

محارب ممن لم يكونوا مطلعين على هـذا النـوع من الأخطـار. وأثـار النصـر موجـة جديـدة من الفـرح في العـــراق وفي نجـــد على حـــد ســـواء(27). إلا أن انتصارات عبد الله الدموية على العجمـان قـد تـركت لعشرات السنين حقداً عليـه في هـذه القبيلـة، الأمـر الذي كان فيما بعد من الأسباب التي حرمته عرشه.

وبعد النصر شـرقاً توجـه عبـد اللـه إلى القصـيم. وقرر عبد لعزيـز أمـير بريـدة الهـرب خشـية مواجهـة مخاطر أكبر، فتوجه إلى عنيزة ومنها إلى مكة. إلا أن فصيلاً أرسله عبد الله بن فيصل اختطف عبـد العزيـز في الطريق وقتله مع أبنه. واختطف أبناً آخـر لحـاكم بريدة ممن كانوا قد شاركوا في حملة عبد اللــه على العجمان وقتل في السجن(28).

وعلى الرغم من الانتصارين الكبـيرين في 1860 ـ 1861 فقـد واجهت إمـارة فيصـل خطـراً جديـداً. وكان مبعثه هذه المرة أيضـاً هـو القصـيم، وخصوصـاً عنـيزة، كـان أهـالي عنـيزة قـد نعتـوا تمـردهم على الريـاض في 1854 ـ 1855 بـالحرب الأولى، أمـا العمليات الحربية التي بـدأت في 1862 فقـد نعتوهـا بالحرب الثانية.

ظهـر محـاربون من عنـيزة في ضـواحي بريـدة، ونشـبت صـدامات في المنطقـة كلهـا. وأعلن فيصـل الجهاد من جديد. ونشبت معركـة كـبرى في أطـراف عنـيزة في 8 كـانون الأول (ديسـمبر) 1862. وذكـر دوتي تفاصـيل تلـك المعركـة(29). سـاعدت النسـاء رجال عنيزة بتزويدهم بالماء وحمـل الجـرحى. وكـان رجال عنيزة مسلحين ببنادق الفتائـل. وقاتـل محـاربو

أمير الرياض أساساً بالرماح والسيوف. وفي معمعان المعركة هطلت الأمطار فتعطلت بنادق فصيل رجال عنيزة فاندحروا وأبيدوا عن بكرة أبيهم تقريباً. وقتل منهم حوالي 200 شخص. وكانت عساكر أمير الرياض حوالي ألف محارب. ويتضح من ذلك نطاق العمليات الحربية.

واضطر أهالي عنيزة إلى الاحتماء بأسوار مدينتهم. وفي بداية عام 1863 استلمت عساكر أمير الرياض قرب عنيزة إمدادات من جبل شمر والمنطقة الشرقية. وكانت لدى قوات الحصار عدة مدافع. وطلب رجال عنيزة الصلح(30). ولما كان أمير الرياض عاجزاً عن تدمير عنيزة وافق من جديد على العفو عن أهالي المدينة وإبقاء حكامهم السابقين(31).

علاقات نجد مع الحجاز والحكومة العثمانية في عهد فيصل. كانت علاقات نجد مع الحجاز معقدة دوماً. وظل الباشوات العثمانيون في جدة والمدينة وشريف مكة يدعون بحق التدخل في شؤون أواسط الجزيرة. وفي عام 1846 شن الشريف محمد بن عون حملة على نجد متحججاً برفض فيصل دفع الإتاوات للباب العالي. وقد جرت العادة على أن يدفع أمير الرياض 10 آلاف ريال، وربما كان ذلك من شروط "فراره" من مصر(32). والحجة الأخرى لحملة الشريف هي القلاقل في القصيم التي جعلت حاكم مكة يأمل في الحصول على مساعدة فعالة في هذه المنطقة(33).

كانت عساكر محمد بن عـون يتكـون من حـوالي ألفي شخص، وهم بالأساس من البدو. ومعهم فصـيل صغير من القوات التركية النظامية. وفي ربيع 1847 وصل الشـريف إلى القصـيم دون أن يواجـه مقاومـة في الطريق. إلا أن فيصل كان يستعد بهمـة للحـرب. وكـانت القـوى متعادلـة تقريبـاً، فكـان الطرفـان يتحاشـيان الاشـتباك في معركـة. وأرسـل فيصـل "هديـة" إلى محمـد بن عـون، وهي في الواقـع إتـاوة لمرة واحدة بمبلغ 10 آلاف ريال ومعها خيـول وإبـل(34). ويبدو أن الاتفـاق ينص من جديـد على دفـع 10 آلاف ريـال سـنوياً، ولكن من الصـعب القـول بكيفيـة تنفيذه. وفي عام 1854 ـ 1855 أثناء القلاقل في الحجاز تخلف فيصل عن إرسال الجزية(35).

حاولت السلطات العثمانية أن تحقـق في عسـير واليمن ما لم يتمكن مـوالي مصـر من تحقيقـه. وفي نيسان (إبريل) 1849، قامت القوات التركيـة بـإنزال من السفن الحربية في الحديدة. ووصل إلى الحديدة أيضـاً فصـيل بقيـادة شـريف مكـة محمـد بن عـون. ووافـق إمـام اليمن على وجـود حاميـة عثمانيـة في صـنعاء ودفـع الإتـاوات إلا أن الأتـراك انهزمـوا في عسير واليمن عام 1851 ـ 1852.

وعزز شريف مكة مواقعـه وأقـام علاقـات طيبـة مع قبائل عسير ومع قبيلة حرب الحجازية، كمـا أقـام ارتباطـاً مـع عبـاس باشـا والي مصـر. إلا أن هـذا السلوك بالذات أثار ارتياب السلطات العثمانية. وفي عام 1852، وصل إلى والي جدة أمر بنفي الشـريف محمـد بن عـون وأبنيـه الأكـبرين إلى العاصـمة

العثمانية. وأمكن القيام بذلك بخديعة غادرة. وعين المدعو عبد المطلب شريفاً لمكة(36).

اجتاحت الحجاز في الخمسينات قلاقل خطيرة كان من أسبابها تأخر دفع رواتب الجنود الأتراك سنة كاملة. وفي 1855 _ 1856 فقد الأتراك مؤقتاً السيطرة على مكة وتعين عليهم أن يبذلوا جهوداً كبيرة لاستعادة سلطتهم هناك بإعادة أبن عون الذي ورث أبنه عبد الله منصبه بعد عامين. وطرد أهالي عسير الحاميات العثمانية. ولم يتمكن الأتراك من إرسال القوات بانتظام إلى سواحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر واحتلال عسير من جديد في عام 1871 إلا بعد شق قناة السويس عام 1869(37).

في عام 1858، قتل في جدة نائب القنصل البريطاني ونائب القنصل الفرنسي وأربعة عشر من الرعايا المسيحيين، ونهبت منازلهم. وفر الذين ظلوا على قيد الحياة إلى الفرقاطة البريطانية "سايكلوبس" التي قصفت المدينة وقامت بإنزال فصيل بريطاني غير كبير. وبحضور الإنجليز قطعت رقاب 11 شخصاً، ثم جرى إعدام مدير الشرطة ورئيس الحضرميين والقائم مقام(38).

ومع أن أمارة الرياض، آنذاك، كانت في الواقع مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية التزم فيصل بقدر كبير من الحذر وسعى إلى تحاشي الصدام مع الأتراك. لم يقم غزوات على الشام والحجاز والعراق. وفي عام 1855 وعام 1860 أكد فيصل في مراسلاته مع الإنجليز بشأن الأوضاع في الخليج بأنه يعتبر نفسه تابعاً للباب العالي(39). وكان هذا

التأكيـد نافعـاً لـه في علاقاتـه مـع الإنجلـيز. وكـان الموظفـون العثمـانيون، عنـدما تقتضـي مصـالحهم، يتحـدثون أيضـاً عن السـيادة العثمانيـة في أواسـط الجزيرة.

التناقضـــات بين أمـــارة الريـــاض وبريطانيـــا في منطقـــة الخليج: كتب ج. لوريمير عن السياسة البريطانيـة إزاء أمـارة الريـاض يقـول "إنهـا عـدم التـدخل في إمـارات السـاحل والمقاومة المعتدلة في سلطنة عمان والمعارضـة بلا هـوادة في البحـرين" . وهـو يـرى أن هـذه السياسـة مبعثها "هجمات الوهـابيين العدوانيـة المتواصـلة على طول خط الساحل"(40).

إلا أن أمير الرياض كان يعتبر المناطق السـاحلية ملكاً له. فقد تحدث الأمير فيصل عن دولتـه إلى بيلي وقـال لـه مـا فحـواه: إنهـا تشـمل أراضـي الجزيـرة العربيـة من الكـويت عـبر القطيـف ورأس الخيمـة وعمان ورأس الحد وكـل مـا يقـع وراء ذلـك. هـذا مـا وهبنا الله(41). وأضاف فيما بعد: مسـقط تابعـة لنـا. وقد أخذناها بقوة السلاح(42). ويرى أمير الرياض أن الإنجليز عندما يفرضون حمايتهم على حكام السـاحل إنما يتدخلون فيما لا يعنيهم(43). ولكن فيصل يعـرف قوة بريطانيا.

ظلت العلاقة بين فيصـل وحكـام الكـويت وديـة(44). إلا أن حرباً طويلة الأمـد كـانت قائمـة بين نجـد والبحرين.

ولم تسفر الصدامات الجديدة بين أمارة الريـاض والبحرين في عـام 1845 _ 1846 عن انتصـار لِأي

من الطرفين. ولم يستمر الصلح طـويلاً. ففي خريـف 1850 اندلعت الحرب من جديد بين نجـد والبحـرين. واحتلت عساكر فيصـل قطـر. وحظي أمـير الريـاض، بـدعم من فـرع انقلب على عائلـة حكـام البحـرين، الأمر الذي ساعده في تكوين أسـطول لـه والتحضـير لإنـزال على جـزر البحـرين. إلا أن عمـارة بريطانيـة أرسلت آنذاك للدفاع عن البحـرين، فأنقـذت حاكمهـا من الهزيمة. واضطر فيصل إلى الاتفاق بشأن الصلح مـع البحرانـيين، ولكنـه تمكن من جعلهم يـدفعون الإتاوات والديون السـابقة. كمـا إنـه نصـب في قلعـة الدمام منافسي حكام البحرين(45).

وفي عام 1859، عند ما تهيـأ النجـديون للهجـوم من جديـد على البحـرين أبلـغ المقيم البريطـاني في منطقـة الخليج، الكـابتن جـونس، الأمـير فيصـل بـأن الحكومة البريطانية تعتبر البحـرين "إمـارة مسـتقلة" وهي مستعدة للدفاع عنها دون أي هجمات(46).

وفي عام 1861، فرض الكـابتن جـونس بمـدافع العمـارة البريطانيـة على شـيخ البحـرين اتفاقيـة كالاتفاقيـات الـتي اضـطرت الإمـارات الصـغيرة على ساحل الصلح البحري أن تقبل بها في السـابق. وغـدا البحرين محمية بريطانية ولم تعـد تتعـرض لادعـاءات الحكام السعوديين. صـحيح أنهـا ظلت تـدفع الإتـاوات لأمير الرياض لقاء ممتلكاتها في قطـر.

وفي العـام نفسـه، حـاول الإنجلـيز إن يخلصـوا أنفسـهم من التبـدلات غـير المتوقعـة في العائلـة الحاكمة البحرانية وبعثوا إنذاراً لفيصل يطالبونـه فيـه بطـرد منـافس حـاكم البحـرين من الـدمام.وقصـفت

العمـارة البريطانيـة الـدمام دون إن تنتظـر وصـول الجـواب. وفـر من القلعـة محمـد بن عبـد اللـه آل خليفة(47).

وفي عـام 1867، نشـبت من جديـد معركـة بين عساكر أمير المنطقـة الشـرقية والبحرانـيين.ويقـول النبهاني،مؤرخ البحرين، إن تلك كانت آخر معركة في البحرين لأن الإنجليز وصلوا بعد ذلك.

وكانت عمان أيضاً موضع تنـافس بين النجـديين والإنجليز. وبعد أن عـاد فيصـل إلى دسـت الحكم في عـام 1845 سـرعان مـا أرسـل إلى الـبريمي قـواتٍ بقيـادة سـعد بن مطلـق. وكـان هـذا العقيـد حاكمـاً للبحرين حوالي ثلاثين عاماً وخدم عند تـركي ثم عنـد أبنه فيصل في العهد الأول من حكمه، وعند خورشـيد باشا وخالـد ثم عنـد فيصـل من جديـد، وكـان مطلعـاً إطلاعـاً ممتـازاً على شـؤون عمـان. وطلب الشـيوخ المحليون النجدة من الإنجلـيز، إلا أن هـؤلاء كـانوا مـا يزالون يتحاشون التدخل المباشر في شؤون البر.

وعلى أثر وصـول سـعد بن مطلـق إلى الـبريمي طـالب عـدداً من الحكـام المحلـيين بـدفع الإتـاوات، ومنهم سلطان مسقط وحاكم الصحار. وعـزز مطلبـه بإرسـال فصـيل إلى مسـقط. إلا أن الإنجلـيز أخـذوا يمارسون الـدوريات عنـد سـاحل الباطنـة، فانسـحب سعد بن مطلق ووافق على استلام جزية سـنوية من مسقط مقدارها 7 آلاف ريال.

وفي عــام 1848، تمكن حــاكم أبــو ظــبي من الاســتيلاء على الــبريمي. إلا أن منافســيه من دبي والشارجة ساعدوا أبن مطلق على العودة بعد بضـعة

أشـــهر. ثم نحـــاه فيصـــل من منصـــبه عـــام 1850 وسرعان ما توفي.

وفي آذار (مـــارس) 1850، عنـــدما تقلصـــت الحامية النجدية في البريمي إلى 50 شخصاً، استولى حاكم أبـوا ظـبي على الـبريمي من جديـد. وفي عـام 1853 وصلت إلى هنا عسـاكر بقيـادة عبـد اللـه، أبن الإمام فيصل. وأسرع شيوخ العشائر وحكـام إمـارات الساحل للأعـراب عن خضـوعهم للريـاض. فقـد كـان نفوذها كبيراً آنذاك، إلا أن المعتمد البريطاني الكـابتن كمبيل تمكن من مقابلة الحكـام المحلـيين وإرغـامهم على توقيـــع "معاهـــدة الصـــلح الدائميـــة". ووصـــلت عســـاكر النجـــديين إلى مســـقط فأنقـــذتها العمـــارة البريطانية من جديد، إلا أن حاكمي الصحار ومســقط التزما بدفع 12 ألف ريال سنوياً إلى الرياض.

وفي كـانون الأول (ديسـمبر) 1853، غـادر عبـد الله واحة البريمي بعد أن عين أحمد السديري حاكماً لها، وظل هـذا الأخـير في منصـبه حـتى عـام 1857. ورغم التبعيـــة للإنجلـــيز ظلت مســـقط والصـــحار وإمارات الخليج تدفع الإتاوات لإمـارات الريـاض. ولم تكن الأراضي الـتي يشـرف عليهـا النجـديون محـددة بدقـة، فهي تتقلص تـارة وتتسـع تـارة أخـرى، مـع أن لديهم أحياناً عمال جبايـة الزكـاة في قسـم كـبير من أراضـي عمـان. وورث منصـب أحمـد السـديري أبنـه تـركي الـذي ظـل حاكمـاً للـبريمي من 1857 حـتى 1869(48).

النظام الاجتمـاعي السياسـي والحيـاة الاقتصادية في الدولـة السـعودية الثانيـة.

كان أمير الرياض، مثلما في الدولة السعودية الأولى، إماماً للمسلمين، أي أنه قائد عام وحاكم أعلى وكذلك رئيس السلطة التنفيذية. وكان يبت شخصياً في أهم مسائل السياسة الداخلية والخارجية والقضايا المالية والحربية ويتخذ القرارات بشأن الغزوات أو الصلح ويشرف بنفسه على تنفيذها ويراقب استقبال وإرسال الممثلين الدبلوماسيين واستلام وإرسال الرسائل الرسمية، ويمارس الشؤون المتعلقة بالحلفاء والأتباع والجيران والقبائل البدوية.

ولم يكن بلاطه كبيراً، كما لم يكن مثقلاً بالرسميات وبالجهاز البيروقراطي. وفي أهم المسائل كان الأمير يتشاور مع أقرب أقربائه الذين يعتبر ولاءهم له أسمى من المصالح المحلية. ولعبت عائلة آل الشيخ كذلك دوراً هاماً مع أن أحداً منها لم يبلغ منزلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه(49).

وكان توزيع المناصب المربحة والرفيعة قد ساعد على تلبية المطالب المتعارضة لإفراد العائلة. وأعلن فيصل إن عبد الله وريثه وأشركه في الشؤون الحربية وفي حكم الرياض والمناطق الوسطى. ومنح فيصل ابنه الثاني سعود المنافس لعبد الله استقلالاً كبيراً في حكم المناطق الجنوبية. وسلمت إلى محمد، الابن الثالث، المناطق الواقعة شمالي العاصمة. ومال محمد إلى عبد الله في خلافه مع سعود. وكان الابن الأصغر عبد الرحمن الذي كان سيغدو فيما بعد أب مؤسس الدولة السعودية الجديدة قد ولد في عام 1850 وكان آنذاك صغير

السن لا يصلح لوظيفة مستقلة(50). إلا إن تقسيم الإمارة بين أبناء فيصل ساعدهم على كسب أنصار في مناطقهم، الأمر الذي هيأ أساساً للنزاعات المرتقبة التي أدت إلى تمزيق الدولة السعودية الثانية.

وتدهورت صحة فيصل في السنوات الأخيرة من حياته. فعندما كان في مصر أُصيب بالرمد، وربما بالتراخوما، وغدا أعمى كليا عندما قام العقيد ل. بيلي ممثل الإدارة الإنكلوهندية بزيارته الثانية إلى الرياض. وكان فيصل آنذاك في حوالي السبعين من العمر فلم يتمكن من تصريف شؤون دولته بنشاط فسلم زمام الأمور إلى عبد الله. وكتب ر. ويندر يقول "إن عائلة السعوديين أفرزت في اللحظات الحاسمة أقوى الأشخاص الذين يتمتعون بالفطنة وقوة الطباع والذين تمكنوا من السيطرة على مختلف العناصر الانفصالية في مملكتهم الشاسعة واستطاعوا أن يؤمنوا العدالة الصارمة"(51). وكان من هؤلاء الرجال الأشداء فيصل بن تركي ورغم موقف الإنجليز المعادي لإمارة السعوديين أعترف المقيم البريطاني ل. بيلي قائلاً: "ما كان بوسعي إلا أن ألاحظ إن الأمير فيصل، في رأي الجميع، كان حاكماً عادلاً صارماً وموفقاً إلى أقصى حد في قمع العادات الوحشية للقبائل. وكان يريد أن يغرس بينها عادات أكثر تنظيماً ويوجه اهتمامها إلى الزراعة والتجارة. وكان يخيل لي أنه لا أحد يحب الأمير، ولكن الجميع معجبون به. وكانوا يتحدثون عنه برهبة اختلط فيها الاحترام بالكراهية على نحو طريف"(52).

وبعد اللقاء الأول مـع فيصـل رسـم بيلي صـورته على النحو التالي: "وجدت الإمـام جالسـاً في الـركن الأبعد للغرفة على سجادة صغيرة جذابة متكئاً بظهره إلى تكية ثقيلة ...وعندما اقتربت منـه نهض بصـعوبة. أخـذ يـدي وتلمسـها.كـان ضـريراً، إلا أن محيـاه رائـع بتقاسيم معتدلة وتعلوه مسحة من الهدوء والصــرامة والاطمئنان. كان يبدو قي أكثر من السبعين، وملابسه فاخرة تنم عن ذوق رفيـع. وعلى كوفيتـه عمامـة من حريـر أخضـر. نـبرات صـوته عذبـة وكلماتـه هادئـة موزونة كانت هيئته تدل على الاعتزاز بـالنفس وتكـاد تتسم بالرقة. ولكن المرء يشعر بأنه يمكن أن يكــون قاسياً دون رحمة"(53).

إن درجة السيطرة المركزية القائمة في مختلف مناطق وأقاليم الدولة السعودية الثانيـة، شـأنها شـأن الدولة السـعودية الأولى، تختلـف من منطقـة لأخـرى وتتقلص كلمـا ابتعـدت المسـافة عن الريـاض. ويعـود دور للوضع الداخلي في هذه المنطقة أو تلك ولوزنهـا النسبي وللمعتقدات الدينيـة عنـد أهلهـا. وكـان حـاكم الريــاض يعين الأمــراء وكــذلك علمــاء الــدين قي المنطقة الوسطى.

وكانت من أسباب القلاقل قي القصيم محـاولات أمير الرياض لتقويـة سـلطته هنـاك. وقـد أضـطر إلى تـرك أبنـاء الوجهـاء المحلـيين في أمـاكنهم.وكـانت العلاقات مع جبل شمر معتدلة إلى حد مدهش، وذلك لأن الريــاض لم تحــاول بســط ســيطرتها بصــورة مباشـرة على جبـل شـمر واكتفت بالتبعيـة الاسـمية. وكانت هناك علاقـات وديـة بين الأسـر الحاكمـة وقـد

عززهـا الـتزاوج بينهـا. وكـانت الأُسـر بحاجـة إلى مساعدة بعضها بعضاً عسكرياً.
وكـان أمـراء الهفـوف يعينـون دومـاً من بين النجـديين.ولم يكن سـكان المنطقـة الشـرقية متعاطفين كثيراً مع الرياض والوهـابيين، إلا أن أهميـة هذه المنطقة كبيرة لدرجة جعلت أمير الـبريمي يـرى ضرورة الاحتفاظ بحاميات دائمية هناك.
وكانت للنجديين حامية في البريمي، كما عين لها أمـير من الريـاض. إلا أن مجموعـة واحـات الـبريمي احتفظت بسـمات المنطقـة الجبهويـة أكـثر من الهفوف.
وكمـا كـان الحـال في الأزمـان السـالفة ظـل الاحتفـاظ بالرهـائن في العاصـمة وسـيلة لإرغـام المناطق والقبائل على الولاء.وعندما دعا فيصل بيلي لزيارة السجن قال له إنـه سـيرى هنـاك الآن حـوالي سبعين من شيوخ العشائر(54).
وكانت القبائـل البدويـة على درجـات متباينـة من التبعية لأمير الرياض، إلا أن فيصل لم يتمكن قط من السيطرة عليها بالشـكل الـذي كـان في زمن الدولـة السعودية الأولى. فقد شهدت سـنوات حكمـه الكثـير من التمردات البدوية المتواصلة.
وكانت الوهابية في الدولـة السـعودية الثانيـة قـد فقدت جزئيـاً طابعهـا المتعصـب المتشـدد. ويبـدو أن الخبرة الشخصية التي اكتسبها فيصـل في مصـر قـد أوحت إليه إن المصـريين والحكومـة العثمانيـة أقـوى بكثير من نجد وإن استفزازهم بإبداء مظاهر التعصب

الديني يعني جلب الهلاك لنجد.إلا أن المشاعر الدينية كانت تشتد في بعض الأحيان.

كان التنظيم العسكري لإمارة الرياض في عهد فيصل مثلما كان في عهد السعوديين الأوائل. فقد كان على كل مدينة أو قبيلة أن تقدم في حالة الاستدعاء عدداً معيناً من المقاتلين والدواب. وكانت تلك الأرقام تدوّن في سجلات تعتبر كذلك أساساً لجباية الزكاة. وعندما يصدر الأمير أمراً بالتعبئة يخبر الحكام المحليين بعدد المحاربين الذين يحتاج إليهم، بينما يتحمل هؤلاء الحكام مسئولية جمعهم وتموينهم. ويشمل الاستدعاء عادة نصف العدد الإلزامي للمحاربين وفي الحالات الاستثنائية تستدعي كل القوات طبعاً. وكان المحاربون يأتون مع سلاحهم الخاص وماشيتهم. وكانت الحكومة، من الناحية النظرية، تقدم العتاد اللازم.وكان الفرسان أكبر شأناً، لذا كانوا يتمتعون بالامتيازات.

كانت كل قبيلة أو مدينة تشكل في عساكر أمير الرياض وحدة خاصة لها رايتها.

وعندما تنتهي الحملة الحربية يجري حل العساكر كلها. ولا تستلم المتطوعة رواتب منتظمة، إلا أن أربعة أخماس الغنائم تقسم بين المحاربين. حصة للمشاة أو الهجانة وحصتان للفرسان. ويحال إلى بيت المال خمس الغنيمة. ولدى الأمير فيصل من الحرس الشخصي مكون من حوالي 200 عبد ومعتوق، كانوا عند الاقتضاء يمارسون وظيفة الشرطة.وكان السكان الحضر يشكلون نواة عساكر نجد(55).

كـانت لـدى النجـديين بضـعة مـدافع، ولكن من المشكوك فيه أنهم اسـتخدموها إلا في حـالات نـادرة جداً. ولم يتخذ فيصل خطوات جدية لتشكيل أسطول حـربي. فبـدلاً من ذلـك كـان يعـول على شـبه الأتبـاع كالبحرين. وبديهي أن حكـام السـواحل كـانوا يجـدون الاعتذار للتملص من تنفيـذ مطالبـه. زد على ذلـك أن على المعاهدات الـتي فرضـها الإنجلـيز عليهم قيـدت إمكانيات العمل بالاشتراك مع الرياض(56).

ولم تكن الضرائب في عهد فيصل لتختلـف عنهـا في ظـــل الدولـــة الســعودية الأولى.. كـــان الـــزراع يـدفعون زكـاة الحبـوب فقـط والثمـار القابلـة للكيـل والحفظ: 10/% من محاصيل الأراضي الديمية و 5% من محاصيل الأراضي السيحية. وكان البـدو يـدفعون زكاة الماشـية في حـدود 2.5ـ5% من قيمـة الـذهب والفضــة، وكــذلك النسـبة نفسـها من قيمــة بضــائع التجـار. ويمكن أن يعفى من الزكـاة الـذين يحصـلون على دخـــل ســـنوي أقـــل من الحـــد المعين. إلا أن ضرائب إضافية تطبق في حالة الحرب(57).

وكما كانت الحال سـابقاً تتـوارد على بيت المـال مكـوس الحج وإتـاوات مسـقط والبحـرين والإمـارات الأخرى وعائدات ممتلكات حاكم الرياض.

ولا يمكن حسـاب المـداخيل العامـة للدولـة على وجه التدقيق. وقدم العقيد بيلي أثناء زيارتـه للريـاض جـرداً تقريبيـاً للسـكان والمـداخيل والعسـاكر. وتفيـد حساباته أن سكان نجد والأحساء، والمقصود على مـا يبـدو الحضــر فقــط، بلغــوا 115 ألــف نســمة، وأن المداخيل 692 ألف ريال وأن عدد المحاربين 7900)

58). أما البدو فقد حدد عددهم الإجمالي بـ 20 ألفاً ومداخيلهم بـ 114 ألف ريال. وهكذا بلغت مداخيل الدولة، في رأي بيلي، 806 آلاف ريال. وهو يضيف أليها إتاوات مسقط وجبل شمر والبحرين والأقاليم الأخرى، وكذلك مليوني ريال تجبى من الحجاج(59). وربما كانت هناك مبالغة في أرقام العائدات، بينما قد يكون عدد الحضر والبدو أكثر من الرقم المذكور. وحتى بيلي أخذ في الحسبان الذكور الراشدين فقط.

وقدر بلغريف المداخيل العامة للدولة بما يعادل 160 ألف جنيه إسترليني(60).

والمعلومات المتوافرة عن نفقات الدولة السعودية الثانية أقل من تلك. وإذا أهملنا نفقات أسرة الأمير وبلاطه فأن نصف النفقات، على ما يبدو، يصرف على الأغراض الحربية، بينما يخصص الباقي للشؤون الاجتماعية ـ صيانة الآبار والمساجد وكذلك معونات المرضى والعجزة ورواتب الموظفين الذين تعينهم الحكومة المركزية ورجال الدين والمعونات المقدمة إلى الشيوخ المحليين وأمراء الأقاليم(61).

وكان قسم كبير من الزكاة يسدد عيناً، ولكنه يدفع نقداً في بعض المناطق.

وكانت العملة الرئيسية هي الريال الذهبي (ريال ماريا تيريزا)، ومع ذلك استخدم في التداول الشلن الإنجليزي والنقود العثمانية والفارسية الذهبية والفضية. وفي المنطقة الشرقية غالباً ما كانت تستخدم النقود الهندية. وفي منطقة سواحل الخليج استخدم ما يسمى بالنقود الطويلة، وهي قطع نقدية

معدنية مستطيلة تشبه الأبزيم النسوي وعليها كتابة عربية. كانوا يصكونها من النحاس ويضيفون أليها قليلاً من الفضة. وكانت هناك نقود طويلة فضية(62).

وفي عهد فيصل صار تصدير الخيول العربية الأصيلة بابا لعائدات ثابتة. وكانت خيول جبل شمر تصدى عبر الكويت، أما الخيول الأخرى فتصدر عبر القطيف والعقير. وفي عام 1862، بيع عن طريق الكويت 600 من الخيول العربية بسعر متوسط قدره 150 ريال للرأس الواحد. وأرسل عباس باشا من مصر عدة بعثات لشراء الخيول. وكان الرحالتان الأوربيان المعروفان فالين وغوارماني قد زارا الجزيرة العربية بحجة شراء الخيول. إلا أن عدد الخيول المتبقية في عام 1864 كان قليلاً جداً، واتضح أن الخيول التي أرسلها فيصل إلى الأستانة سيئة للغاية مما أثار استياء الباب العالي الذي منع تصدير الخيول طوال أربعة أعوام. ولم يكن بالإمكان تطبيق هذا المنع عملياً(62).

وقبل اكتشاف البترول كان صيد اللؤلؤ هو العمل الرئيسي لسكان سواحل الخليج. إلا إن الأحساء أقل شأناً في صيد اللؤلؤ من البحرين وإمارات الصلح البحري وقطر. وكان لؤلؤ الخليج يرسل إلى بومباي، ومن هناك يباع إلى أوربا. ونجد عند لوريمير وصفاً ضافياً لصيد اللؤلؤ مع قواعده الاجتماعية والمالية الثابتة. ومع أن ما كتبه لوريمير يخص عام 1906 إلا أن اللوحة التي رسمها من المستبعد أن تكون قد تغيرت منذ ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر.

ولئن كان قد مارس صيد اللؤلؤ في سواحل إمارات الصلح البحري 22 ألف شخص، وفي قطر 13ألف شخص وفي البحرين 18ألف شخص وفي الكويت 9200، ففي واحة القطيف مارسه حوالي 3400شخص فقط(64).

***

تمكنت الدولة السعودية الثانية من الانبعاث والنهوض بسبب توقف التدخل الخارجي في شؤون نجد. وكانت مصلحة قسم كبير من وجهاء وأعيان نجد وتجارها وصناعها وزراعها في التوحيد وتأييد الفقهاء الوهابيين وارتفاع منزلة آل سعود قد مكنت فيصل من بسط سيطرة الرياض على قسم كبير من أواسط الجزيرة وشرقيها. إلا أن علائم الضعف والخوف، وأحياناً عجز السلطة المركزية، والنزعة لانفصالية لدى الإقطاعيين ونزوات القبائل البدوية كانت واضحة لدرجة كبيرة لا تجعل أحداً من المعاصرين يتوقع لإمارة الرياض عمراً مديداً. وكان إقليم جبل شمر القوي حليفاً أكثر من كونه تابعاً طيعاً. ودافعت القصيم عن استقلاليتها في تمردات متكررة. وكانت القبائل البدوية تتحدى فيصل المرة.بعد المرة. وخيم ظل الإمبراطورية البريطانية من جهة الخليج وبحر العرب، وكانت قد ابتلعت في الواقع الإمارات الصغيرة على سواحل شبه الجزيرة. وأضيف إلى ذلك كله تعمق الخلافات والانقسام داخل أسرة أمير الرياض.

الفصل الثامن

سقوط إمارة الرياض

ونهوض إمارة جبل شمر 1865 _ 1902)

الانقسام في عائلة الأمراء. توفي فيصل بن تركي في كانون الأول (ديسمبر) 1865. وفي الحال بدأ الصراع من أجل السلطة بين أبنائه. وتسلم مقاليد الحكم ولي العهد عبد الله الذي حظي بتأييد سكان العارض وكذلك أخيه الأصغر محمد. وكان أخوه _ سعود _ منافساً له. وأخذ الإنجليز الذين لهم مصلحة قي إضعاف إمارة الرياض يشجعون مطامع سعود. كان عبد الله يسعى في إمارته الضعيفة غير المستقرة إلى تقوية المركزية فأثار بذلك استياء الوجهاء والأعيان في الأطراف(1).

ويقول بلغريف إن عبد الله كان رجلاً نشيطاً شجاعاً، ولكنه كان صارماً قاسياً، الأمر الذي يروق لسكان المدن المحافظين. أما سعود فكان صريحاً سخياً يحب الفخفخة، الأمر الذي يروق للبدو(2). إن فيلبي منفق مع أقوال بلغريف هذه بالخطوط العريضة(3).

كانت أم سعود و إحدى زوجاته من قبيلة العجمان الذين يكرهون عبد الله وصاروا من اخلص حلفاء سعود. أما قحطان فقد أيدوا عبد الله(4).

وكان أول ما فعله عبد الله بعد أن تولى الحكم هو قضايا عمان وليس الصراع مع أخيه، فهذا الصراع

سيأتي وقته. قبيل وفاة فيصل كان أبن قيس حاكم الرستاق في عمان، وهو من أبناء فرع جانبي للعائلة الحاكمة في مسقط، قد ثار على قريبه ثويني سلطان مسقط وطلب المساعدة من تركي آل سديري حاكم البريمي.وتم في أواخر عام 1864 طرد قوات ثويني بمساعدة فيصل تركي آل سديري. وأنتهز حاكم الرياض فيصل هذه الفرصة فحاول إرغام سلطان مسقط على دفع إتاوة له مقدارها 40 ألف ريال بدلاً من 12 ألفاً، وعزز طلبه هذا بإرسال قوات إلى هناك(5). إلا إن ثويني وافق، بنصيحة من الإنجليز، على دفع 12 ألفاً فقط. وفي العام نفسه استولى على مدينة صور ثوار أيدهم فيصل من النجديين بقيادة عبد العزيز بن مطلق، شقيق سعد بن مطلق الشهير. بديهي أن المدينة تعرضت للنهب وكان بين المتضررين تجار هنود ورعايا بريطانيون. وعجز ثويني عن طرد النجديين فدفع لهم 10 آلاف ريال، ثم 6آلاف أخرى.

وأخذ الإنجليز يساعدون ثويني وبعثوا باحتجاج إلى الرياض. ووافق عبد الله الذي أمسك بزمام الحكم في الإمارة على إطلاق سراح جميع الأسرى الذين تم القبض عليهم في صور وإعادة الأملاك ولكنه لم يقل شيئاً بخصوص التعويضات(6).

وأوصى بيلي السلطات البريطانية في الهند بمساعدة سلطان مسقط(7).وسرعان ما أرسل إليه المدافع. وتلقى أمير الرياض في الوقت نفسه إنذارا يطالب بتقديم الاعتذار والوعد بعدم تكرار مثل هذه الأعمال في المستقبل ودفع التعويضات، وإلا

فالإنجليز يهددون بتدمير قلاع الأمير على الساحل والاستيلاء على سفنه. وانتقل الإنجليز من التهديدات إلى الأفعال. فقد اطلعت السفينة الحربية البريطانية "هاي فلاير" النار على عجمان التي كانت مرفأ للنجديين على ساحل عمان في الخليج. وفي بداية شباط (فبراير) 1866، دمرت القلعة في القطيف وعدة سفن صغيرة في مرفئها وبعد محاولة فاشلة لإنزال قوات في الدمام أطلقت "هاي فلاير" النار عليها. ثم قصفت السفينة البريطانية صور المتمرد ودمرت فيها زوارق السكان. إلا أن السلطان ثويني قتل آنذاك على يد أبنه سالم، الأمر الذي خلق المصاعب أمام المناورات السياسية للإنجليز(8).

وبدأت مراسلات بين عبد الله والمعتمد البريطاني بيلي. وسعى أمير الرياض إلى الحيلولة دون تدهور العلاقات وإلى تأمين اعتراف الإنجليز به حاكماً للإمارة وإبعاد الدسائس البريطانية المحتملة وتوجيهها صوب سعود، ولذلك اتفق عن طريق ممثله مع بيلي بشأن التسوية(9).

كان عبد الله يدرك أن الإنجليز ضده، لذا لعب لعبة الضعيف فحاول أن يجد في الأتراك عوناً له على الإنجليز، الأمر الذي كلفه غالياً في آخر المطاف.

وفي تلك الأثناء استجمع سعود القوات في مناطق جنوب نجد للصراع في سبيل عرش الرياض. وعزز عبد الله عاصمته(10)، وعبأ سكان المدن وبدو نجد ووجههم ضد أخيه المتمرد. وبعد أن أصيب سعود بجراح ثخينة فر من ساحة المعركة إلى بدو آل مرة،

ونكل أمير الرياض بأنصار سعود وعاقب القبائل والواحات المتمردة في وادي الدواسر.

وبعد أن عالج سعود جراحه تعدى أخاه عبد الله من جديد بعد أربعة أعوام.

استمرار النزاعات: في أواخر الستينات نشب في البحرين من جديد صراع داخل الأسرة الحاكمة، وأسفر هذا الصراع عن فرار أحد أفراد العائلة ولجوئه إلى السعوديين وشن غزوات متبادلة وَتدَخل الإنجليز الذين الذين لم يسمحوا لأمير الرياض هذه المرة أيضاً بأن يبسط نفوذه على البحرين(11).

اجتاحت القلاقل عمان بعد مقتل ثويني. وكان عهد حكم سالم الذي قتل أباه قصيراً. فقد انتهى بتمرد جديد قام به عزان بن قيس من الرستاق الذي استولى على مسقط في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 1868. وقد رفع راية الإباضية المحافظة. واستمرت السلطة الجديدة في ساحل عمان حتى عام 1871 فقط، ولكنها ظلت باقية عشرات السنين في المناطق الداخلية.

وفي عام 1869، قتل أمير البريمي تركي آل سديري في الشارجة عندما حاول التدخل في النزاع المحلي. وفي حزيران (يونيو) 1869، تمكنت القبائل المحلية بعد الاتفاق مع عزان من الاستيلاء على البريمي بمساعدته. وقد رفعت تلك القبائل رايات الإباضية وتوجهت ضد الوهابيين الذين تعتبرهم زنادقة(12).

في تلك الآونة اعترف الإنجليز بأن البريمي جزء من الدولة السعودية، وقد كتب المندوب البريطاني في مسقط المقدم ديزبرو في آب (أغسطس) 1869 يقول: "إن عزان، حسب تقديراتي، قد استولى على البريمي ظلماً وعدواناً وبلا مبرر. ولا بد له من توقع انتقام الوهابيين"(13).

لم يكتف عزان بالاستيلاء على البريمي، بل رفض دفع الإتاوة للرياض. وكان رد فعل عبد الله حازماً، إذ كتب إلى عزان بأنه ينوي التوجه نحوه بعشرين ألف محارب(14). وفي تلك الأثناء كان سعود قد تحالف مع عزان. ونشأ ضد عبد الله ائتلاف بين سلطان مسقط الجديد عزان وحاكم أبو ظبي وسعود بن فيصل. وحول شقيق عبد الله أن يقوم بهجوم على قطر، ولكنه هزم والتجأ إلى البحرين. وظهر تصور بأن الإنجليز يقفون من وراء ظهر سعود، وربما لم يكونوا يقدمون له مساعدة مباشرة، ولكنهم، على أي حال، لم يعترضوا على أعماله(15).

استمرار نهوض جبل شمر. في آذار (مارس) 1868، انتحر حاكم حائل طلال آل رشيد، الأمر الذي يعتبر من أندر الظواهر في شبه الجزيرة. وأشار المؤرخ ابن عيسى إلى ذلك الحادث قائلاً أن طلال اختل عقله فانتحر(16).

ومع أن أمير حائل حكم المنطقة الواسعة بصورة مستقلة تقريباً، فإنه لم يعلن القطيعة أبداً مع فيصل وابنه عبد الله، بل كان يقدم لهما مساعدة عسكرية كبيرة. وكانت وفاة طلال قد هيأت الإمكانية لِإعادة النظر في العلاقات المتبادلة بين حكام حائل

والرياض، وخصوصاً عندما توفي بعد عام واحد عبيد بن علي عم طلال العجوز والمتنفذ في الوقت نفسه. كان عبيد من أنصار التعاون مع آل سعود. وقد نعته بلغريف بالتعصب(17) أما في رأي آن بلانت فهو "البطل الرئيسي لتقاليد شمر"(18)، وهو شجاع كريم سخي. وكان تقدير دوتي لعبيد رفيعاً أيضاً، حيث اعتبره عقيداً وشاعراً تتناقل الألسن قصائده(19).

كان طلال قد فرض سيطرته على خيبر وتيماء الواقعتين شمالي المدينة المنورة. ومع أن حاكم حائل كان يتصرف بصورة مستقلة بقدر كاف، فمن المشكوك فيه أنه كان يستطيع أن يجمع قوات شديدة البأس تكفي لتحدي حاكم الرياض.

كان أمير شمر يتميز بالتسامح الديني وقد سمح للشيعة واليهود بأن يقيموا ويتاجروا في حائل، وكان يجبي منهم ضرائب غير قليلة(20). وكتب بلغريف "إن التجار من البصرة ومشهد ـ علي وواسط والباعة من المدينة وحتى من اليمن كانوا يستقرون في سوق حائل الجديد بعد عروض مغرية. وقدم طلال لبعض منهم مقاولات رسمية، وهي نافعة لهم وله بقدر واحد. ومنح البعض الآخر امتيازات وتسهيلات، وكان يولي الجميع الدعم والحماية"(21). وبالأموال الواردة إلى بيت المال من الغزوات والحج والتجارة أنجز طلال قلعة بارزان وانشأ حول العاصمة سوراً ارتفاعه سبعة أمتار، وبنى حي السوق ومسجداً كبيراً وكثيراً من الآبار العامة(22).

وإذا كان الدين في جبل شمر لا يلعب دور القـوة التوحيديــة الأولى فــأن التعاضــد القبلي أدى هــذه الوظيفـة. وحـتى الحضـر في حائـل والمـدن الأخـرى كانوا يعتبرون أنفسهم من أبناء شمر بالدرجة الأولى، و "موحــدين" بالدرجــة الثانيــة. لقــد لعب البــدو في أمارة جبل شمر دوراً أكبر مما في أمارة الريـاض. إلا أن سيطرة قبيلة واحدة كانت تؤمن استقرار السلطة في منطقة محدودة، ولكنها كانت عائقاً أمـام توسـيع إمارة جبل شـمر، لأنهـا تثـير حفيظـة القبائـل القويـة الأخرى.

كان طلال يدفع الإتاوات لفيصل وعبد الله بشكل خيول وحصة من الضريبة المفروضـة في حائـل على الحجــاج الفــرس وحصــة من الغنــائم. إلا أن نفــوذ الرياض في أواسط الجزيرة أخذ يضعف، بينما صارت الراية الخضـراء الحمـراء لِإمـارة جبـل شـمر ترتفـع. وكتب فالين بحق منذ عهد عبد الله بن الرشيد: "إنني اعتبر أهـالي شـمر دون ريب من أنشـط القبائـل في الجزيــرة حاليــاً. وإن ســلطتهم ونفــوذهم يشــملان جيرانهم أكثر فأكثر من عام لآخر(23).

وورث متعب شقيق طلال العرش. وبعـد عشـرة أشـهر قُتـل متعب في مجلسـه بيـد بنـدر الابن البكـر لطلال، وصار بنـدر أمـيراً، ولكنـه ظهـر لديـة منـافس خطـر هـو عمـه محمـد بن عبـد اللـه آل رشـيد، الابن الثالث لمؤسس السلاة. وقد قتل هـذا بنـدر في عـام 1874، مع علمه بأن الثأر ينتظره وأخذ الأمير الجديد يلاحق إخوان بنـدر الخمسـة فـانتقم من أربعـة منهم. واعترفت جبل شمر بـالأمير الجديـد. ومـع أن حكمـه

بدأ بالانتقام الدموي من منافسيه، فأنه دشن عهداً من الازدهار والسلطة القوية في الأمارة(24). وكتب فيلبي يقول "لم تكن الحكومة فعالة أبدا مثلما كانت في عهده"(25). وتعتبر كتابات ضاري بن رشيد التي استخدمها ويندير على نطاق واسع أهم مرجع في تاريخ آل الرشيد منذ وفاة طلال حتى استيلاء محمد على السلطة.

وخلال أمد طويل لم تخرج أمارة آل الرشيد عن إطار جبل شمر وأقرب الواحات إليها ـ خيبر وتيماء والجوف. وقدر الرحالة عدد السكان الخاضعين لحائل في أواخر القرن التاسع عشر (قبل ضمها إلى نجد) ما بين 20 و 50 ألف نسمة من الحضر، ومثل هذا العدد تقريباً من البدو. وتفيد معطيات أخرى أن عدد البدو يمكن أن يكن ضعف عدد الحضر(26).

كان حاكم جبل شمر يلقب بالأمير أو شيخ المشايخ، أي أنه ظل زعيماً لاتحاد قبائل شمر التي يعتمد عليها(27). وكان آل رشيد يحكمون بمساعدة أقربائهم ومفارز خدمهم الشخصيين. وفي ظل الصراع المتواصل تقريباً داخل الأسرة الحاكمة وعدم الثقة بالأقرباء كان الأمير يعتمد أكثر فأكثر على مفارز الخدم والمرتزقة المصريين والأتراك. وتفيد معطيات فالين أن مفرزة الأمير تتكون من 200 شخص تقريبا(28)، ويذكر رحالة الستينات ـ الثمانينات من القرن التاسع عشر الرقم 500 ـ 600. ومهم 20 شخصاً يشكلون حرس الأمير الأكثر إخلاصاً، وحوالي 200 شخص كانوا في حائل أما الباقون فيرافقون التجار والحجاج وجماعات جباة

الزكاة ويـؤدون حسـب الـدور الخدمـة في الحاميـات في المناطق الملحقة بالأمارة.

وكان بين أفراد مفارز الأمير محاربون بسـطاء و "رجال شيخ المشـايخ". وهـذا المصـطلح يطلـق على كبـار "أفـراد المفـرزة وكـذلك على المقـربين إلى الأمير، وعمومـاً على كل من يتمتع بثقـة خاصـة لديـه. والكثيرون منهم متحـدرون من العبيـد. وكـان "رجـال الشـيخ" يمثلـون كبـار المـوظفين وقـادة مفرزتـه والقائمين على أمور القصر وحكام ممتلكـات الأمـير(29). وبعـد أن تطـورت الأمـارة صـاروا يترأسـون مختلـف أصـعدة جهـاز إدارة الدولـة. واعتبـاراً من سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر كان بين أكـثر المتنفـذين في الأمـارة، كمـا يقـول الرحالـة، صـاحب المضـايف في القصـر وصـاحب بيت المـال والكـاتب الأول وحامل الراية والجليس ووزير آل الرشيد(30).

كـان أمـراء جبـل شـمر ملـتزمين بتقاليـد كـرم الضيافة التي يرمز أليها القدر النحاسي الضخم الـذي يحملـه بصـعوبة أربعـة من الرجـال الأشـداء. وفي ثمانينات القرن التاسع عشـر كـان القصـر يستضـيف يوميـاً 150 ـ 200 شـخص، ويصـل هـذا العـدد إلى 1000 شخص أثناء مرور القوافل الكبيرة(31).

ومع تطور نظام الدولة طبقت الشـريعة باتسـاع متزايد، مما ضيق على العـرف والعـادات. وهـذا أمـر أشار أليه الرحالة(32). وكان من بين العقوبات قطـع الأيدي ومصـادرة الأمـوال على العصـيان ضـد الأمـير والسـجن على السـرقة وعلى رفض دفـع الزكـاة، والجلـد بالعصـي على الضـرب والإصـابة بجـراح،

والغرامـات الماليـة(33). واسـتخدم مقـر آل رشـيد السابق بمثابة سجن، إلا أن الرهائن والسجناء الـذين يتمتعـون بمنزلـة رفيعـة صـاروا منـذ سـتينات القـرن التاسع عشـر يحتجـزون في مضـيف القصـر الجديـد(34). وكان لحائل عمالهـا المباشـرون في الأطـراف، ولكنهم في الغالب كانوا من الوجهاء المحليين. وظـل شيوخ جميع قبائل البدو يحكمونها كالسابق.

ونظراً لقلة التزام وإخلاص الهجانة البدو أخــذ آل الرشــيد يعتمــدون أكــثر لأكــثر على ســكان المــدن والواحات وعلى حـرس من العبيـد. وقـدر غوارمـاني الحد الأقصر لعساكر جبـل شـمر في سـتينات القـرن التاسع عشر بــ6.5 آلاف شـخص، وإذا أصـيف أليهـا محـاربو المنـاطق الملحقـة يبلـغ هـذا العـدد 9 آلاف(35). ويقول نولـدي أن الأمـراء في التسـعينات كـان بوسـعهم أن يقـدموا 40_ ألـف محـارب(35). وكـان العساكر يمتطون ظهور الجمال، بينمـا كـان الوجهـاء يركبون الخيل. أما الأسلحة فكانت الرماح والسيوف، وأحياناً السلاح الناري. كما كـانت هنـاك عـدة مـدافع(37).

وفي عهد محمد الرشيد (1871 ـ 1897) بلغت أمارة جبـل شـمر أوج ازدهارهـا. ففي السـبعينات تم الاستيلاء على العال وقرى في وادي السـرحان حـتى حــدود وادي حــوران. وكـان اسـتمرار ركـود أمـارة الرياض والتحالف مع البـاب العـالي قـد مكنـا محمـد من بسط نفـوذه على مـدن القصـيم في البدايـة، ثم في عام 1884 على نجد كلها.

وما كان بإمكان أمارة جبل شمر أن تنهض إلا بتضعضع أمارة الرياض ذات الكثافة السكانية الأكبر والتي تمتلك قدرة عسكرية كبيرة دون شك. كانت حروب السعوديين في مطلع القرن وغزوات المصريين الفتاكة والنزاع القبلي المضني قد شملت جبل شمر بقدر أقل من أواسط نجد. واستفاد عدد من الحكام المحنكين من هذه الظروف الملائمة بالنسبة لهم فجعلوا من حائل لوقت قصير سيدة لأواسط الجزيرة كلها.

سقوط أمارة الرياض. استيلاء الأتراك على الأحساء. في خريف 1870 عقد سعود بن فيصل من جديد تحالفا مع قبائل العجمان وآل مرة ودخل العقير واستولى على الأحساء. وأرسل عبد الله أخاه محمد على رأس عساكر لاستعادة السيطرة على الأحساء وعاصمته الهفوف. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1870 نشبت في البادية معركة الجودة. وفي اللحظة الحاسمة التزم بدو سبيع الذين جاءوا مع محمد جانب سعود فحقق هذا نصراً تماماً. وتم القبض على محمد بن فيصل وزج به في سجن القطيف حيث ظل حتى أطلق الأتراك سراحه. وأعلن الإقليم الشرقي كله البيعة لسعود(38). وهذا ما أربك أمير الرياض عبد الله بن فيصل الذي يواجه الهزيمة وادي ذلك إلى ازدياد تدهور الأوضاع في إمارته. وفي تلك الأثناء حل جفاف مرعب، مما أدى، طبعاً، إلى قلاقل وفتن جديدة(39).

وفي نيسان ـ أيار (إبريل ـ مـايو) 1871 تحـرك سعود، أخيراً، نحـو الريـاض. وعنـدما دخـل العاصـمة نهبت عساكره البدوية هـذه المدينـة وسـكانها لدرجـة جعلت الجميـع يحقـدون عليـه. وانـدلعت النزاعـات القبلية في نجد من جديد. وأشـار أبن عيسـى إلى أن السـلطة الجديـدة كـانت ضـعيفة فتشوشـت الأمـور لدرجـة أكـبر وتـدهورت الأوضـاع بسـبب المجاعـة وارتفاع الأسعار، وصار الناس يـأكلون جيـف الحمـير، ومات الكثيرون بسبب الجوع، بعدما، تركوا يواجهـون المـوت والمصـائب والنهب والقتـل والفسـاد(40). ولكنه ينبغي، كما يرى ر. ويندير، إن نأخذ في الاعتبار أن أبن عيسى كان من أنصار عبد الله.

وواجهت الأمـارة المحتضـرة خطـراً جديـداً. فـأن والي بغـداد مـدحت باشـا، وهـو حـاكم عثمـاني كبـير معـروف ومن أنصـار السياسـة النشـيطة، قـد قـرر الاسـتفادة من الموقـف بإضـافة أراضٍ جديـدة إلى الإمبراطوريـة العثمانيـة الـتي تقلصـت أراضـيها. وأسـفرت أعمالـه في شـرقي الجزيـرة العربيـة عن نشوب أزمة دبلوماسية بين لندن والأستانة(41).

وأدعى مدحت باشا بأن السيادة العثمانية تشمل نجد وبإن عبد الله بن فيصل كـان مجـرد قـائم مقـام للأتراك. وكانت الحجة للتدخل هي "اسـتعادة النظـام ونجده القائم مقام المـذكور ضـد شـقيقه العاصـي"(42).

وأرسل الأتـراك أسـطولهم لغـزو الأحسـاء، وقـد حصلوا من حـاكم الكـويت على حـوالي 300 سـفينة أخرى. وكانت القوات النظامية مكونة من أربعة آلاف

شـخص، من المشـاة بالأسـاس، وكـذلك الفرسـان والمدفعية. وأرسلت قبائل المنتفـق عن طريـق الـبر حـوالي ثالثـة آلاف شـخص. وفي أيـار (مـايو) 1871 نزلت القـوات التركيـة في رأس تنـورة وزحفت نحـو القطيـف دون أن تواجـه مقاومـة. وبعـد معـارك غـير كبـيرة احتـل الأتـراك المـدن والقلاع الرئيسـية في الإقليم كله. وهكذا فقـد الأخـوات السـعوديان الإقليم الشرقي بسبب العـداء العـائلي. وفي الـوقت نفسـه تقريباً فقد السعوديون واحات الـبريمي. وفي حريـف العام نفسه زار مدحت باشا الأحسـاء، ولكن محاولـة غزو الرياض أخفقت.

واستمر الصراع داخـل أسـرة آل سـعود. وظهـر عبد الله في الأراضي المحتلـة من قبـل الأتـراك، في حين طرد سعود من الرياض مؤقتاً، وقد طـرده عمـه عبد اللـه بن تـركي شـقيق الأمـير فيصـل. واسـتجمع سـعود حلفـاءه من العجمـان وآل مـرة وأخـذ يهـاجم الحاميات التركية، ولكن دون جدوى(43).

وفي أواخر 1871 ومطلع عـام 1872 عـاد عبـد الله من جديد إلى الرياض، إلا أن الوضـع في الأمـارة كان ميئوساً منه. فالمجاعة مسـتمرة، وكـان النـاس، كما يقول أبن عيسى، يأكلون الجيف والجلـود وأوراق الشجر(44). وحاول الأخوان أن يتعاونا ضـد الأتـراك، ولكن دون جدوى.

وفي آذار (مارس) 1873، عاد سعود مجدداً إلى الريـاض. واسـتمرت المعـارك سـجالاً بين الأخـوين، واقـترنت، كالعـادة، بـالنهب والقتـل. ونظـراً لأن عبـد

الله بن فيصل أخذ يعتمد على الأتراك زاد الإنجليز من دعمهم لسعود حتى أنهم أرسلوا أغذية له(45).

وفي منتصف السبعينات ظهر على المسرح عبد الرحمن الابن الرابع للأمير فيصل. كان قد ولد في عام 1850 على وجه التقريب. ويعتقد ر. ويندير أن عبد الرحمن يؤيد سعود، بينما يتصور فيلبي أن عبد الرحمن التزم جانب عبد الله(46). ولا يستبعد أنه كان متذبذباً في اختيار الأخوين الأكبر.

وفي آذار (مارس) 1874، تخلى الأتراك عن حكم الأحساء مباشرة لكي يقللوا النفقات. وصار زعيم بني خالد وهو من آل عريعر أداة لتنفيذ سياستهم. وكان ناصر باشا بن سعدون والي البصرة التي تشكلت إدارياً من جديد وزعيم قبيلة المنتفق قد عينه متصرفاً. وتم سحب القوات النظامية التركية واستبدلت بمفرزة شرطة عثمانية.

وتزعم عبد الرحمن بن فيصل في عام 1874 انتفاضة على الأتراك في الإقليم الشرقي. والتحق به قسم من قبائل العجمان وآل مرة وبدو آخرون. وأنزل ناصر باشا بن سعدون في العقير 2400 جندي من القوات النظامية مزودين بأربعة مدافع فتم دحر الثائرين. والتجأ عبد الرحمن إلى سعود في الرياض. وتعرضت الهفوف لنهب من الغالبين استمر ثلاثة أيام. وترك ناصر باشا الإقليم في شباط (فبراير) 1875 بعد أن عين متصرفاً فيه(47).

وكانت سلطة سعود في نجد متضعضعة. ففي أواخر عهده لم تعد جبل شمر والقصيم تخضعان له. وصارت الرياض مركزاً لإمارة صغيرة مقطعة الأشلاء

في أواسط الجزيرة. وانقطعت العائدات المنتظمة. ولما كان سعود يعتمد على بدو العجمان فأن سكان الواحات والمدن لم يكونوا راضين عنه.

وفي كانون الثاني (يناير) 1875 توفي سعود، وربما كانت وفاته بسبب الجدري، مع أن معطيات أخرى تفيد بأنه مات مسموماً(48).

وصار عبد الرحمن بن فيصل حاكماً للرياض: وبدأ يخوض القتال ضد أشقائه الأكبر وضد حلفائهم من البدو. وفي تلك الأثناء ثار عليه في العاصمة نفسها أولاد أخيه سعود الذي حل محله. وتوجه عبد الرحمن، خوفاً من أبناء أخيه، إلى عبد الله، فقرر الأخوة الثالثة تشكيل جبهة موحدة بزعامة عبد الله ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع. ثم فر أولاد سعود واحتفظوا بحلفائهم في إقليم الخرج وفي الأحساء.

ودخل عبد الله الرياض من جديد. وخلال السنوات الإحدى عشرة التي مرت على وفاة فيصل تبدلت السلطة في المدينة للمرة الثامنة(49).

وأورد فيلبي الجدول الزمني التالي للحكم في الرياض بعد وفاة فيصل(50):

عبد الله بن فيصل من 2 ديسمبر 1865 حتى 9 إبريل 1871.

سعود بن فيصل من 10 إبريل 1871 حتى 15 أغسطس 1871.

عبد الله بن تركي من 15 أغسطس 1871 حتى 15 أكتوبر 1871.

عبد اللـه بن فيصـل من 15 أكتـوبر 1871 حـتى 16 يناير 1873.

سـعود بن فيصـل من 15 ينـاير 1873 حـتى 16 يناير 1875.

عبد الرحمن بن فيصل من 26 يناير 1875 حـتى 28 يناير 1876.

أولاد سعود بن فيصل من 28 ينـاير 1876 حـتى 31 مارس 1876.

عبد الله بن فيصل من 31 مارس 1876.

وفي عـام 1878 قـامت انتفاضـة جديـدة ضـد الأتـراك في الإقليم الشـرقي، ولكنهـا أُخمـدت بعـد انتصاراتها الأولى(51).

وكتب دوتي يقول: "الريـاض وضـواحيها هي كـل مـا تبقى من ممتلكـات الوهـابيين. وغـدت الريـاض أمارة صغيرة ضعيفة مثل بريدة. إن المدينـة الكبـيرة المبنية من الطوف والتي كانت في السـابق عاصـمة للأواسـط الجزيـرة غارقـة في الصـمت. ومضـيفها الفسـيح مهجـور (قصـر الأمـير الوهـابي المبـني من الطوف أوسع من القصـر ي حائـل). خـدم بن سـعود يغادرون نجمه الـذاوي ويتوجهـون... إلى العمـل عنـد محمد بن رشيد. ولا يخضع أحـد من البـدو للوهـابيين. القرى الكبيرة في شرقي نجد طردت جامعي الزكـاة التابعين لعبد الله"(52).

وفي عـام 1880 ولـد لعبـد الـرحمن وهـو الابن الرابع لفيصل، طفل سماه عبـد العزيـز، وأمـه سـارة ابنـة أحمـد السـديري(53). وعنـدما بلـغ عبـد العزيـز السابعة من العمر عهدوا بتربيته إلى معلم هو قاضي

الرياض.. إلا أن الصبي كان مهتما باللعب بالسيف والبندقية أكثر من اهتمامه بالدروس الدينية، مع أنه تمكن من قراءة القرآن في الحادية عشرة من العمر. وفي الرابعة عشرة عندما كان أبوه يقيم في المهجر في الكويت بدأ عبد العزيز، ملك العربية السعودية فيما بعد، دراسة الفقه والعلوم الدينية الأخرى بصورة جادة تحت أشراف عبد الله بن عبد اللطيف الذي أصبح فيما بعد القاضي الأول للرياض ومفتيها. كانت الأشهر التي قضتها أسرة عبد الرحمن في التجوال بين قبائل آل مرة قد هيأت للأمير الشاب إمكانية التضلع في العادات والأخلاق البدوية وأساليب وحيل العمليات الحربية للبدو الرحل. وأخذ عبد العزيز، بصحبة أبية أو لوحده، يتردد على مجالس شيخ الكويت ويطلع على تشابكات السياسة في الجزيرة العربية وعلى قرارات الأمير القضائية. وكانت الحالة المادية لعبد الرحمن بن فيصل في المهجر مزرية حتى أنه لم يتمكن من تزويج أبنه الأكبر إلا بمعونة الأصدقاء. وفي هذه الظروف اختمرت أحلام عبد العزيز الطموح إلى استعادة كرامة العائلة وممتلكات آل سعود وأمجادهم وثرواتهم(54).

نهوض أمارة جبل شمر بعد سقوط أمارة السعوديين. أخذت الواحات والمناطق وقبائل البدو تنفصل الواحدة تلو الأخرى عن الرياض وتنتقل طوعاً أو كرهاً إلى حماية آل الرشيد وتدفع الإتاوات لهم .ولم توفق محاولات عبد الله لأبعاد

قبضة آل الرشيد الثقيلة. وكان محمد أبن الرشيد يلعب مع أمير الرياض لعبة القط والفأر.

واشتد التنافس في القصيم بين الأسرة الحاكمة سابقاً في بريدة آل عليان وبين الحكام الجدد من آل مهنا الذين أيدتهم حائل. وكان توزيع القوى على النحو التالي: الرياض تتعاون مع عنيزة وتعتمد على تأييد عتيبة ومطير، أما حائل فهي تؤيد بريدة وتتعاون مع قبيلة حرب(55).

وفي تلك الأثناء حاول أولاد سعود بن فيصل أن يتحدوا أبن الرشيد. فجمعوا قسماً من قبائل عتيبة وبعض سكان واحات العارض، ولكنهم اندحروا(56). إلا أن أمارة عبد الله الصغيرة كانت تتمزق مزقاً(57).

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1887، استولى أولاد سعود بن فيصل على الرياض والعارض وأسروا أمير الرياض. وتمكن الأمير قبل ذلك بقليل من طلب النجدة من حاكم حائل الذي لم يتردد في قطف الثورة الناضجة. وكان طلب عبد الله حجة بيد محمد بن الرشيد "لإنقاذه" ولبسط سلطة آل الرشيد على كل ممتلكاته. وتوجه أبن الرشيد إلى الرياض على رأس قوات كبيرة، ففر أولاد سعود إلى الخرج. وأطلق أمير جبل شمر سراح عبد الله من السجن ونقلة إلى العاصمة حائل "حفاظاً على سلامته"، وترك واحداً من أكثر القادة العسكريين إخلاصاً، وهو سالم آل سبهان الذي لا يعرف الرحمة، أميراً للرياض(58).

كان عبد العزيز الذي صار فيما بعد ملكاً للعربية السعودية يرى أن هناك ثلاثة أسباب لسقوط عمه الأمير عبد الله: "لم يستقم الأمر لعبد الله لثلاث أسباب: "أولا ـ وجود أبناء أخيه في الخرج يحرضون القبائل عليه، ثانياً _ مناصرته لآل عليان أمراء القصيم السابقين على أعدائهم آل مهنّا الأمراء الحاكمين في ذلك الحين. وكان هذا جهلاً من عبد الله في وقت ضعفه ليس من الحكمة أن يتحزب لبيت مغلوب فيضعضع نفوذه في القصيم. ثالثاً _ ظهور محمد بن الرشيد الطامع بحكم نجد. فقد تحالف مع آل أبي الخيل... وكانوا كلهم يداً واحدة على ابن سعود"(59).

وانتهى وجود دولة السعوديين الثانية رسمياً في أواخر عام 1887.

وفي آب (أغسطس) من العام التالي تمكن حاكم الرياض سالم آل سبهان من اللحاق بأولاد سعود. ويتضح النطاق الفعلي لقواتهم من عدد أفراد فصيل شمر اللحاق بأولاد سعود. ويتضح النطاق الفعلي لقواتهم من عدد أفراد فصيل شمر الذي طاردهم ـ 35 شخصاً لا غير. وقد قتل ثلاثة من أولاد سعود، وقتل الرابع قبل ذلك، أما الخامس فقد فر إلى حائل أملاً في العفو من ابن الرشيد. وتقول رواية أخرى أن الابن الأخير لسعود كان أسيراً فخرياً في حائل(60).

في شتاء 1889/ـ 1890، قام الشمريون بغزوة وصلوا فيها إلى الحجاز. وعندما عاد ابن الرشيد إلى العاصمة علم بأن ضيفه الأسير عبد الله بن فيصل

مـريض وأن حالتـه خطـرة. فسـمح لـه بـالعودة إلى الرياض مع أخيه عبد الرحمن بن فيصل. عاد عبد الله إلى عاصـمته الخاليـة وتـوفي في تشـرين الثـاني (نوفمبر) 1889(16). وقبل 24 عاماً من ذلك، عندما تربـع على العـرش، كـانت أمـارة الريـاض تمتـد ممن جبل شمر حـتى المنـاطق الداخليـة في عمـان، ومن الخليج حتى الحجاز وحدود اليمن. وعندما تـوفي وهـو تابع لحائل لم يكن عنده غير منطقة العارض وسـيادة اسميه على الوشـم وسـدير. وكـان ثلث تلـك الفـترة تقريباً هارباً مشرداً، بينما كان آخرون يحكمون الدولة المتداعية. ونعته فيلبي بالحاكم "غـير القـدير". إلا أن مجمـل الملابسـات غـير الملائمـة، وليس الضـعف الشخصـي، هي الأسـباب الحاسـمة في هلاك دولـة السعوديين(62).

وصار عبد الرحمن أميراً للريـاض. وقـد اصـطدم في عـام 1890 مـع حاكمهـا الشـمري سـالم وأعلن الانتفاضة عليه. وحاصرت قوات أبن الرشيد الرياض، إلا أن المدينة كانت آنذاك قد تعـززت كثـيراً. وأخفـق الحصار، فعقـد الطرفـان هدنـة. وظـل عبـد الـرحمن حاكمـاً للريـاض وبعض المنـاطق المجـاورة لهـا ولكن بصفة تابع في الواقع لمحمد بن الرشيد(63).

وفي تلك الأثناء فضـل أهـالي عنـيزة وبريـدة في القصيم التحالف مع عبد الرحمن ضد جبل شـمر بعـد أن تأكد لهم أن سـلطة الشـمريين تتقـوى عليهم وأن الضرائب تزداد والامتيازات تتقلص.

وفي أواخـر عـام 1890، تشـكل إئتلاف واسـع نسبياً للعناصر المناهضـة لآل الرشـيد من بين أهـالي

القصيم وأنصار عبد الرحمن وقبائل مطير. وجمع أبن الرشيد كل قواته، بما فيها وحدات من قبائل شمر وكذلك من حلفائها من بدو الظفير وحرب والمنتفق. وكتب أ. موسيل يقول أن أبن الرشيد "بعث 40 رسولاً على أربعين ناقة موشحة بستائر سوداء إلى مختلف أفخاذ وبطون شمر التي خيمت آنذاك بين كربلاء والبصرة. وكان يراد للستائر السوداء أن تبين بوضوح لجميع رعايا الأمير محمد بأن عارا أسود سيلطخهم إذا لم يهبوا فوراً لنجدة زعيمهم"(64). ونشبت معركة كبيرة هي وقعة المليدة في القصيم اقتتلت فيها من الجانبين آلاف عديدة من المحاربين. وربما كانت تلك أكبر معركة منذ الغزو المصري.

واستمر القتال سجالاً طوال شهر. إلا أن عبد الرحمن، لسبب ما، لم يهب لنجدة حلفائه وتركهم وحيدين في مواجهة الشمريين.، وأخيرا، في كانون الثاني (يناير) 1891، لجأ محمد بن الرشيد إلى الحيلة متظاهراً بالانسحاب، ولكنه نظم بعد ذلك هجوماً مضاداً مباغتاً. جمع بضعة آلاف من الجمال في الوسط وحركها إلى الأمام بعد أن أطلق النار على القصيميين. وتقدم المشاة من وراء الجمال. وسدد الهجانه والفرسان في وقت واحد ضربات من الجناحين. وفقد القصيميون ما بين 600 و 1200 شخص، وفر الكثيرون إلى الكويت والعراق والشام(65). وعزز أبن رشيد لعشر سنوات تقريباً مواقعه كحاكم بلا منازع لأواسط الجزيرة.

وعندما بلغ عبد الرحمن بن فيصل نبأ هزيمة حلفائه فر إلى البادية. وبعد تجوال طويل استقرت

عائلتـــه في عـــام 1893 في الكـــويت تحت حمايـــة شيخها محمد الصباح. وخصصت الحكومـة العثمانيـة لعبـد الـرحمن معاشـاً متواضـعاً بسـتين لـيرة ذهبيـة شهرياً(66). وانتقلت السلطة كاملة في الريـاض إلى عجلان وهو من عبيد محمـد بن الرشـيد. وتم تقسـيم نجد إلى عدة مناطق خاضعة لجبل شمر.

وغـدا حـاكم جبـل شـمر سـيداً لبلـد مسـتنزف مخرب، ومحـروم من منفـذ إلى البحـر. وكتب جميـع الرحالـة الـذين زاروا أواسـط الجزيـرة في النصـف الثاني من القرن التاسع عشـر عن البسـاتين الذابلـة والنخيل الميتة والآبار التي اجتاحتهـا الرمـال والقـرى الموات. ولم تكن الدولة الخـائرة قـادرة على حمايـة الواحات من البدو. ونزح آلاف النـاس إلى العـراق أو سواحل الخليج.

وتضـــررت التجـــارة. وكتب أمين الريحـــاني عن الأحـوال العصـيبة الـتي واجههـا التجـار آنـذاك(67). وأسـفرت مخـاطر نقـل البضـائع بطـرق القوافـل التجاريـة عن تذبـذب في الأسـعار ونسـفت العلائـق الاقتصادية وأدت إلى إفلاس الصناع والتجار.

وفي العقـد الأخـير من القـرن التاسـع عشـر لم تحل دون الانتفاضات إلا القوة العسكرية لدى محمـد بن الرشـيد. ولكن القلاقـل بـدأت على أثـر وفاتـه، وأخمـدها بوحشـية الأمـير الجديـد لجبـل شـمر عبـد العزيز بن الرشيد. فقد نهب المدن والقرى بلا رحمـة وخنقها بالغرامات الحربية. ولكنه تورط في صراع مع الكويت فعجـز عن السـيطرة على النزاعـات القبليـة الإقطاعية التي تصاعدت في كل مكان وعن الحيلولة

دون نهب البدو للواحات. وقال موسيل: "كان الحضر جميعاً يحنون إلى سلطة قوية تحمي أموالهم وحياتهم"(68).

آل الرشيد في أواخر القرن التاسع عشر. يقول المؤرخ خالد الفرج: "اعتمد محمد العبد الله الرشيد في تشييد إمارته على سياسة "فرق تسد" واتكأ على قوة عشيرته "شمر" وهي من كبريات القبائل المشهورة بالفروسية والشجاعة... وخص الأتراك بكثير من المجاملة والمسايرة لأن طرفي طريق الحجاج الذي يقوم آل رشيد على إيراده، وهما العراق والحرمان، في أيديهم، حتى أنه اعترف بخضوعه للسلطان عبد الحميد. وتعددت منه الرسل والهدايا إلى "الباب العالي" وحاز على النياشين الرفيعة وقبل المعتمدين المندوبين من الحكومة العثمانية. فصارت تعتمد عليه، وتعده من أكبر المخلصين لها، وتراه الوسيلة الفعالة التي قضت على آل سعود ومحت إمارتهم من الوجود، فأغدقوا عليه العطاء وخصوه بالمساعدات والتعضيد. وكان على الأجمال رجل وقته، إلى أن توفي سنة 1315 هـ (1897م) مريضاً بات الجنب، عقيماً لم يخلف ولداً"(69).

وورث الحكم عنه أبن أخته عبد العزيز المتعب الذي كان في حوالي الثلاثين من العمر، وكان محارباً باسلاً ومغامراً، ينساق للغضب والاستعجال في اتخاذ القرارات. كان يجيد استخدام السيف أكثر مما يجيد السياسة، وكان يفعل قبل أن يفكر(70). وفي غضون عشر سنوات بدد القسم الأكبر من الإرث

الذي خلفه لـه خالـه الجبـار.ولم تسـتطع أمـارة جبـل شمر أن تلعب دور الدولة الموحـدة المسـتقرة. فهي تستند إلى قبيلة شمر، لذا اعتبرها سائر السكان أداة سـيطرة اتحـاد قبلي واحـد على القبائـل الأخـرى وليست سلطة لعموم الجزيرة العربية تتجـاوز الأطـر القبيلة. وفي أواخر القرن التاسع عشـر وقعت إمـارة جبل شمر في تبعية متزايـدة للإمبراطوريـة العثمانيـة فغـدت وسـيلة لنقـل النفـوذ العثمـاني إلى شـبه الجزيرة، ولذلك فـأن تـذمر واسـتياء أعـرب الجزيـرة من حكم الأتـراك شـملا أمـراء حائـل أيضـاً. وكـانت بريطانيـا قـد عـززت مواقعهـا على سـاحل الخليج وأعاقت محاولات الأتراك لاستعادة مواقعهم، وأخذت تؤيد منافسـي أمـارة جبـل شـمر. وأخـيراً، بعـد وفـاة محمد الرشيد، لم تتمكن العائلة الحاكمة الغارقـة في النزاعات من ترشيح أي حاكم بمنزلة عبـد العزيـز بن عبد الـرحمن مؤسـس العربيـة السـعودية المـرتقب. وكانت كل هذه العوامل التي أضيفت أليها فيمـا بعـد المشـاركة في الحـرب العالميـة الأولى إلى جـانب الأتراك قد أسفرت عن غروب وسـقوط أمـارة جبـل شمر القوية.

تنـافس الـدول على حـوض الخليج في مطلـع القـرن العشـرين والوضـع في الجزيـرة العربيـة. لقـد بين تـاريخ الـدولتين السعوديتين الأولى والثانية بوضوح مذ تشـابك مصـير الجزيرة العربيـة مـع التطـور العـام للوضـع في هـذه المنطقة من العالم. فـإن مسـتقبل الكيانـات الدوليـة في الجزيـرة حـدده ليس فقـط تناسـب القـوى في

البادية، وأحياناً ليس تناسب القوى فيها بالذات، بل كذلك القرارات المتخذة في لندن واسطنبول والقاهرة وبرلين وكذلك بطرسبورغ وباريس.

كانت بريطانيا أقوى دولة استعمارية في أواخر القرن التاسع عشر فقد استولت، بعد شق قناة السويس عام 1869، على مصر عام 1882 وسعت إلى السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على الجزيرة العربية كلها. وكانت الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية في الهند قد شدت أليها بشكل أوثق سلطنة عمان وإمارات ساحل الصلح البحري وقطر والبحرين. وكان قد جاء دور الكويت التي كانت رسمياً تحت السيادة العثمانية.

ومع أن الخليج العربي كان من الناحية النظرية ممراً مائياً دولياً، فقد غدا عملياً بحيرة بريطانية. لقد كانت المواصلات البرقية الإمبراطورية تمر عبر الخليج العربي إلى الهند واستراليا. وكانت حصة بريطانيا العظمى والهند البريطانية في صادرات بلدان الخليج 40% وفي وارداتها 63:%. وكانت جميع البضائع تقريباً تصدر وتستورد من هناك على سفن تحمل العلم البريطاني(71) كما أن الأسطول البحري الحربي البريطاني كان يسيطر على الخليج والمحيط الهندي.

وكان المندوب البريطاني السامي في منطقة الخليج يسمى "بالمعتمد السياسي لصاحب الجلالة في الخليج الفارسي والقنصل العام في فارس وخوزستان". وعلى حد تعبير نائب الملك في الهند كيرزون فقد كان "ملكاً غير متوج للخليج الفارسي"(

72). وعلى الساحل العربي من الخليج كان لبريطانيا معتمدون سياسيون خاضعون لها في مسقط والكويت والبحرين. وكان المعتمد السياسي مسئولاً أمام الحكومة البريطانية الهندية، وكقنصل عام، كان خاضعاً للسفير البريطاني في طهران.

لقد طرحت السياسة البريطانية في الخليج العربي مهمة مزدوجة هي السيطرة على طرق المواصلات البحرية وغيرها من الطرق المؤدية إلى الهند وإحلال "الوئام البريطاني" (pax britannica) في الخليج والذي يقصد به سيادة المصالح التجارية البريطانية وعدم السماح بدخول دول أخرى أليه.

وفي أواخر القرن التاسع عشر شمل تناحر الدول الكبرى وتوسعها الاستعماري حوض الخليج. وكانت الإمبراطورية الألمانية تبحث بشكل مسعور خصوصاً عن مكان لها تحت الشمس. وكانت حكومة غليوم الثاني التي أعلنت بأنها "حامية الإسلام" قد أخذت تتقارب أكثر فأكثر مع حكومة السلطان العثماني وتعزز بنشاط مواقعها الاقتصادية والسياسة والعسكرية في الإمبراطورية العثمانية. واعتباراً من أواخر الثمانينات ظهرت فكرة مد سكة حديد اسطنبول _ بغداد وإيصالها إلى الخليج بغية التغلغل إلى هذه المنطقة بدون الطرق البحرية التي تسيطر عليها بريطانيا. وفي عام 1899 حصل الألمان على امتياز أولى لمد السكة المذكورة مع إيصالها إلى الكويت. وظهر خطر نشوء خط استراتيجي مباشر

بين برلين والخليج، الأمر الذي يهدد السيطرة البريطانية في الخليج والجزيرة العربية والشرق الأوسط كله. وفي غرب الجزيرة كان الألمان يساعدون الأتراك في مد سكة حديد الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة المنورة.

وكانت بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر تعتبر روسيا القيصرية التي تحالفت مع فرنسا منافساً خطراً أيضاً في هذه المنطقة. ونوقش في بطرسبورغ بصورة جدية مشروع الحصول على امتياز لمد سكة حديد عبر القفقاس إلى الخليج. وليس من قبيل الصدفة أن السلطات البريطانية في الهند اعتبرت زيارات السفن الحربية الروسية والفرنسية إلى موانئ الخليج "لعرض العلم" ومحاولاتها للعثور على مكان لمحطة فحمية تحدياً مباشراً(73).

واشتدت التناقضات الإنكلوفرنسية بشأن مسقط التي حاول الفرنسيون في 1899 أن ينشئوا محطة للفحم فيها. وفي عام 1903، قامت السفن الروسية والفرنسية بزيارة مشتركة لموانئ الخليج والجزيرة العربية(74).

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ تغيير في السياسة البريطانية التقليدية إزاء الإمبراطورية العثمانية. ففي السابق كانت لندن تسعى إلى الحفاظ على وحدة تلك الإمبراطورية العثمانية. ففي السابق كانت لندن تسعى إلى الحفاظ على وحدة بلك الإمبراطورية مؤملة في إخضاعها بالكامل واستخدامها في الصراع ضد روسيا. إلا أن مركز ثقل

المصالح البريطانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وفي الشرق الأوسط انتقل تدريجياً من القسطنطينية إلى مصر وبلاد الرافدين. ولعب ازدياد النفوذ الألماني في الإمبراطورية العثمانية دوراً غير ضئيل في تغيير تلك السياسة. وأخذ سولزبري الذي صار من جديد رئيساً لوزراء بريطانيا عام 1859 يتحدث عن اقتسام الإمبراطورية العثمانية. وكان المقصود أن تكون الجزيرة العربية وحوض دجلة والفرات، شأن مصر والسودان، منطقة للسيطرة البريطانية. وفي سياق هذه الخطط كانت لندن تعتبر الاحتفاظ بالسيطرة على الخليج من أكبر المهمات.

وفي عام 1903 زار أسطول بريطاني يحمل علم كيرزون نائب الملك في الهند موانئ الخليج العربي. وكان ذلك أكبر أسطول أجنبي في مياه الخليج منذ عهد العمارة البرتغالية البوكيركا عام 1515. ودافع كيرزون في خطبه عن المواقع البريطانية بالأسلوب الملازم للعصر الاستعماري عصر "نير الإنسان الأبيض".

ومع أن ركود الإمبراطورية العثمانية استمر في أواخر القرن التاسع عشر إلا أن مواقعها في الجزيرة العربية تعززت بعض الشيء بسبب تقوية وتحسين الجيش وتطور المواصلات. وكان الأتراك، بعد الإنجليز، أهم عامل في شؤون الجزيرة.

وكان افتتاح قناة السويس قد غير بصورة جوهرية مكانة الأتراك في غربي الجزيرة. فلئن كانت تصل إلى هنا في السابق طوابير من الجنود المتعبين بعد مسير طويل عبر البادية وكان مجرد إرسالهم

يكلف غاليا، فقد صار الجنود يرسلون بحراً عن طريق القناة. وفي سبعينات القرن التاسع عشر استطاع الأتراك أن يحتلوا اليمن وعسير من جديد(75).

بديهي أن والي جدة وشريف مكة كانا في نزاع دائم فيما بينهما. وكانت العلاقات بين عون، والي جدة وحاكم مكة، الذي تسنم هذا المنصب اعتباراً من عام 1882 قد تأزمت في الثمانينات. فقد بدأ الوالي بأداء أعمال عامة فحسن تزويد جدة بالمياه وأعاد بناء ترعة زبيدة وأنشأ مبنى جديداً لحاكمية المدينة كما أنشأ عنابر ومباني للخفراء. وسمح الوالي العثماني لعون بأداء وظائفه القضائية ولكن فقط في المسائل المرتبطة بعشيرته والبدو والأشخاص من غير الأتراك والذين ولدوا في مكة نفسها. وأخذ الأتراك يشرفون على طرق القوافل ويقومون بحملات على قبيلة حرب بدون موافقة شريف مكة. وتقلصت عائدات عون من الرسوم الجمركية. وعند ذاك انتقل شريف مكة وقسم من أبرز أفراد عائلته مع الوجهاء والتجار ومفتي الشافعيين والعلماء الآخرين إلى المدينة المنورة احتجاجاً على تصرفات الوالي حتى تمكنوا من إقناع السلطان بتنحيته(76).

وكان الوالي الجديد جمال باشا أكثر حذراً من سابقه. وازداد نفوذ شريف مكة بعض الشيء، إلا أن الصدام استمر بينه وبين الباشا. وتردى موقف العرب من الأتراك. وتعد وفاة عون في عام 1905، بسلم منصب الشرفة على صنيعة الأتراك. وفي تلك الفترة

اندلعت ثورة تركيا الفتاة، فنحي جمال باشا بوصفه من أنصار السابق. وبعد فترة قصيرة من الغموض في الموقف عين لمنصب الشرافة في خريف 1809 الزعيم المرتقب للانتفاضة العربية الحسين بن علي الذي كان أسيراً فخرياً في الأستانة منذ عام 1893 مع أولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل(77).

وفي عام 1908 نفسه افتتحت في الحجاز سكة حديد معان ـ مدينة المنورة. وأدى مد هذه السكة إلى تحسن كبير في المواقع العسكرية الإستراتيجية للأتراك في غربي الجزيرة.

إلا أن الإمبراطورية العثمانية في شرقي الجزيرة لم تتمكن من تعزيز مواقعها بسبب مقاومة بريطانيا وبسبب تصاعد الميول المعادية للأتراك عند عرب الجزيرة.

وسعت الكويت التي غدت في أواخر القرن التاسع عشر مرفأً رئيسياً لباطن الجزيرة ومركزاً تجارياً مزدهراً إلى التقليل من تبعيتها للأتراك، وهي تبعية شكلية أصلاً. وأخذ شيخ الكويت محمد الصباح يتدخل على نحو نشيط في الصراع داخل الجزيرة، حيث كانت إمارة جبل شمر التابعة للعثمانيين بشكل خطراً فعلياً علية، ولذلك وفر الحماية لعبد الرحمن بن فيصل الذي يدعي بأحقيته في عرش الرياض. واحتفظ هذا الأمير الذي فر من الرياض بعلاقات مع واحات وقبائل أواسط الجزيرة فشجع الميول المناهضة للشمريين هناك.

وفي عام 1896 قتل محمد الصباح وأخوه بيد أخيهما الثالث مبارك الذي غدا شيخاً للمدينة ولقبائل

أطرافها(78). وصار هذا الحاكم الجديد للكويت يمارس طوال عشرين عاماً تقريباً تأثيراً غير قليل على الأحداث في الجزيرة.

وكانت قبيلة المنتفق القوية وعلى رأسها فخذ آل سعدون في جنوب العراق عاملاً له شأنه في السياسة في أواسط الجزيرة. إلا أن المنتفق كانوا يعتبرون البادية مجرد جهة لغزوات النهب.

وفي تلك الأثناء كانت الحكومة البريطانية مشغولة البال بالخطط الألمانية التركية لاستعادة الكويت ووضعها تحت السيطرة العثمانية المباشرة وتأمين منفذ سكة حديد برلين بغداد إلى البحر(79). وحاول الأتراك مراراً الاستيلاء على الكويت ونفي الشيخ مبارك إلى اسطنبول. ولأن مبارك يدرك ذلك كان يطلب الحماية من الإنجليز الذين كان في الماضي يتحاشى التعاون الوثيق معهم.

وفرضوا عليه معاهدة سرية غدت الكويت بموجبها محمية بريطانية. ووقعت في 23 كانون الثاني (يناير) 1899. والتزم الشيخ، فيما التزم، بعدم تقديم امتيازات لأحد ما عدا بريطانيا(80). وعادت بخفي حنين البعثة الألمانية التي وصلت إلى الكويت في العام التالي للحصول على حق إيصال سكة حديد بغداد إلى الكويت(81).

وصار الإنجليز يشعرون بالقلق من إمارة حائل بوصفها تابعة مخلصة للأتراك. وكان السعي إلى إضعاف هذه الأمارة إحدى مهمات السياسة البريطانية في شبه الجزيرة، مع أن ذلك لم يكن يستبعد في بعض الحالات استخدام الإنجليز إمارة

حائل لأغراضهم. وأخذوا يؤيدون خصوم الأتراك وجبل شمر في الجزيرة العربية، الأمر الذي كان له تأثير هام، إن لم نقل حاسم، على نجاح عودة آل سعود إلى السلطة في نجد.

الفصل التاسع

بعث أمارة الرياض

في مطلع القرن العشرين (1902 _ 1914)

في مطلع القرن العشرين نشأ في الجزيرة العربية من جديد وضع ملائم لبعث إمارة الرياض. فأن سلطة حائل كانت قائمة على القوة العسكرية لقبيلة شمر وحلفائها وعلى مساعدة الأتراك، ولكن تأييدها من جانب سكان نجد كان يتقلص باطراد. وأخذت بريطانيا تتدخل في شؤون الجزيرة سعياً منها إلى إضعاف اعتماد الإمارات المحلية فيها على الباب العالي وإخضاعها للحماية البريطانية في آخر المطاف. وغدت عائلة آل سعود التي استقرت في الكويت مركز جذب طبيعياً لجميع النجديين المتذمرين من حكم آل رشيد.

استيلاء الأمير الشاب عبد العزيز على الرياض والسيطرة على المناطق المجاورة لها. في خريف 1900، تزعم عبد الرحمن بن فيصل غزوة موفقة على أحد بطون قحطان ووصل إلى مناطق السدير. وبعد أن عاد إلى

الكـويت أخـذ يسـتعد لحملات عسـكرية أكـثر جديـة واتساعاً على نجد(1).

واستناداً للسياسة العامة الموجهة ضد آل رشـيد تحالف شيخ الكويت مع زعيم المنتفق سـعدون باشـا أبو عجيمي(2).

وفي أواخـر 1900 _ أوائـل 1901، جمـع حـاكم الكويت عساكره المكونـة من البـدو والحضـر وتوجـه إلى القصيم. والتحق به عبـد الـرحمن وبعض الأمـراء السـعوديين الآخـرين الـذين انضـوت تحت رايتهم أقسام من قبائل العجمان ومطير(2). وكتب آداموف قنصـل روسـيا في البصـرة: "حقـق الجيش الكويـتي نصراً وتمكن من الاستيلاء على الرياض نفسـها، ومن هنـاك تحـرك مبـارك ظـافراً نحـو حائـل عاصـمة آل رشـيد"(4). ويبـدو أن مبـارك بـالغ في التبـاهي بانتصـاراته الأولى. وتمكن عبـد العزيـز بن متعب من الحصول على أسـلحة إضـافية من الأتـراك فعبـأ كـل قواته(5) فدحر الكويتيين وحلفاءهم في شباط _ آذار (فـبراير _ مـارس) 1901 على مقربـة من واحـة الصريف(6).

وفي تلـك الأثنـاء حـاول عبـد العزيـز بن عبـد الرحمن أن يستولي على حصن المسمك في عاصمة أجـداده الريـاض. وتمكن فصـيله مـع الكويتـيين من اقتحـام المدينـة، إلا أن الحـاكم الشـمري عجلان بن محمـد تمركـز في الحصـن وتحمـل الحصـار. وعنـدما علم عبـد العزيـز بنتيجـة معركـة الصـريف عجـل في العودة إلى الكويت.

كانت بريطانيا تشجع أعمال الكويت وحلفائها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ويعتقد قنصل روسيا في البصرة آداموف أن بريطانيا التي لها مصلحة في إضعاف جبل شمر كانت تقف من وراء مبارك. واشترى شيخ الكويت كميات كبيرة من بنادق "مارتيني" الإنجليزية في البحرين(7).

وأخذت السلطات العثمانية في العراق تحشد قواتها العسكرية لتسدد ضربة إلى الكويت بحجة "إحلال النظام"، ولكنها لم تتجرأ على القيام بذلك خشية الصدام مع الإنجليز(8). وبنتيجة صراع معقد تمكنت الدبلوماسية العثمانية بدعم من برلين من الاتفاق في أيلول (سبتمبر) 1901 على الاحتفاظ بالوضع القائم في الكويت ودرء احتلال القوات البريطانية لهذه المشيخة(9). وكانت روسيا في بداية القرن العشرين، كما جاء في توجيه سري إلى آداموف قنصلها في البصرة، كانت تسعى كذلك إلى الإبقاء على الوضع القائم في حوض الخليج كما هو(10).

وبعد الاتفاق مع الأتراك هجم حاكم حائل على المشيخة التي أصابها الضعف بعد هزيمة الصريف. وحاصر أبن متعب موقع الجهراء على ساحل الخليج. إلا أن الإنجليز بعثوا سفينة حربية أطلقت النار على معسكر الشمريين. وأخذت الأسلحة الإنجليزية تتوارد على المشيخة، بينما أحتج القائم بالأعمال البريطاني في اسطنبول في لقاء مع السلطان على أعمال الشمريين. وبعد أسبوعين أو ثلاثة من حصار ميئوس منه عاد أبن متعب إلى حائل بأمر من السلطان.

وأقنع عد العزيز أباه بأن يسمح له مرة أخرى أن يجرب حظه في الرياض. فتوجه في حملة على رأس أربعين محارباً فقط كما تفيد أغلبية المراجع، وكان بينهم شقيقه محمد بن عبد الرحمن وابن عمه عبد الله بن جلوي. وفي تشرين الثاني ـ كانون الأول (نوفمبر ـ ديسمبر) 1901، توجهوا عبر الأحساء نحو الجنوب إلى الربع الخالي. وفي الطريق اجتذب هذا الفصيل محاربين من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول. وتحول الفصيل إلى قوات من عدة آلاف شخص. وأخذ عبد العزيز يغزو بهذه القوات القبائل المعادية وقرى نجد التي ظلت موالية لآل الرشيد.

وعندما علم أبن متعب بأعماله بعث برسائل إلى السلطات العثمانية في بغداد والبصرة طالباً أبعاد عبد العزيز عن الأحساء. وعلم البدو بذلك فتركوا الأمير الشاب خشية بطش الأتراك. فظل عبد العزيز مع جماعته الأولى التي لا يتجاوز عددها الأربعين شخصاً. وأدرك عبد الرحمن أن أعمال أبنه تتحول إلى مغامرة خطرة فطلب منه العودة إلى الكويت والتخلي عن خطة الاستيلاء على الرياض. وأرغمت السلطات التركية في الأحساء فصيله على ترك المنطقة. وقضى عبد العزيز شهر رمضان في واحة يبرين(11).

يبدو أن أبن متعب لم يعر اهتماماً كبيراً لهجمات الأمير الشاب، مما أفاد هذا الأخير. وقرر عبد العزيز المجازفة مرة أخرى رغم ممانعة أبيه. وفي 12 كانون الثاني (يناير) 1902، ظهر في أطراف عاصمة السعوديين السابقة.

وبعد أن أخذ قسطاً من الراحة في واحة صغيرة ترك فيها جماعة من أفراده مع الإبل والخيل وأوصاهم بالفرار إذا لم يعد في الفجر. أما الباقون فتوجهوا إلى أسوار المدينة. وفي ظلام الليل اجتاز المحاربون وعلى رأسهم عبد العزيز سور المدينة في منطقة "الشيمسية"، وتركوا احتياطاً عشرة رجال وتوجهوا إلى صاحبهم جويسر الذي كان يعيش قرب منزل الحاكم الشمري عجلان بن محمد. كان عجلان متزوجاً من إحدى نساء الرياض وكان يعودها نهاراً، ويفضّل قضاء الليل مع الحامية التي يوجد فيها زهاء 80 شخصاً في حصن المسمك. أطعم جويسر عبد العزيز ورجاله ثم تسللوا إلى منزل زوجة عجلان. لم يجدوا عجلان فيه، ولكنهم حبسوا زوجته وامرأة أخرى في إحدى الغرف. واستدعى عبد العزيز شقيقه محمد مع الرجال العشرة الذين تركهم وراء سور المدينة. واجتمع الفصيل كله في منزل عجلان. وقالت زوجته أنه يمكن أن يأتي أليها بعد صلاة الصبح فقرروا الانتظار. وبلغ التوتر أوجه عند هذه الجماعة الصغيرة التي كانت تشعر تماماً بالصبغة المغامرة لأعمالها.

حل صباح 15 كانون الثاني (يناير) 1902. وأخيراً ظهر من بوابة الحصن عجلان مع حرس غير كبير. فأطلق عبد العزيز ورجاله النار وهرعوا إلى عجلان. حاول الشمريون الهرب. وفي اللحظة الأخيرة فقط قتل عبد الله بن جلوي عجلان حاول الشمريون الهرب. وفي اللحظة الأخيرة فقط قتل عبد الله بن جلوي عجلان عند باب الحصن.

لقد استفاد رجال عبد العزيز من عنصر المباغتة فانتقموا من الحامية الشمرية الموجودة في الحصن، ثم قتلوا من كان في المدينة. وأطلق سراح عشرين من الشمريين بكلمة شرف بعد أن اعتصموا في البرج. وكانت خسائر الأمير الشاب هي قتيلان وثلاثة جرحى لا غير. وكان انتصاره الرائع غير المتوقع قد خلب ألباب أهالي نجد بالطبع، وفيما بعد صار الشعراء والرواة يتغنون به في روايات وقصائد كثيرة(12).

وأقسم أهل الرياض يمين الولاء لعبد العزيز الذي بدأ على الفور بتحصين أسوار المدينة. وعندما علم ابن متعب بنبأ سقوط الرياض استولى عليه الهياج وأقسم بأن يثأر من أعدائه التقليديين. ونزح من الفرات الأوسط إلى حائل ليجمع العساكر ويتوجه إلى الرياض، إلا أن الاستعدادات استغرقت عدة أشهر(13).

وفي تلك الأثناء وصلت إمدادات إلى عبد العزيز من الكويت ـ سبعون مقاتلاً وعلى رأسهم أخوه سعد. وتمكن الشاب من القيام بحملة على الجنوب واحتلال الخرج قبل وصول الشمريين.

وفي أيار (مايو) 1902 وصل أبوه عبد الرحمن إلى الرياض. ويجمع المؤرخون العرب والأوربيون على أن الأب والابن كانا يفهمان بعضاً جيداً، وكانت الثقة بينهما قد ساعدت على استقرار الدولة الجديدة. فالأمير العجوز كان، كما يبدو، يقدر قابليات أبنه تقديراً واقعياً. وعندما جمع عبد العزيز العلماء ووجهاء الرياض وطالبهم بأداء يمين الولاء لأبيه رفض

عبد الرحمن هذا التكـريم وأعلن إن أبنـه هـو الأمـير. وصـار عبـد العزيـز حاكمـاً للريـاض وهـو في الثانيـة والعشرين. وظل أبـوه مستشـاراً رئيسـياً لـه وإمامـاً للمسلمين(14).

أثبت جسـارة عبـد العزيـز في الاسـتيلاء على الرياض أنـه يتحلى بخصـال الشـيخ والأمـير: البسـالة والمهـارة في القيـادة والموفقيـة. وأثبتت الأحـداث اللاحقة أن عبد العزيز كان شخصـية بـارزة دون ريب بمقاييس الجزيرة العربية. وهذا مـا أجمـع عليـه كـال المؤرخين والرحالة من عرب وأوربـيين. فقـد تمـرس عبـد العزيـز في المنفى وتضـلع في أخلاق البـدو وعاداتهم ونقاط ضعفهم وقوتهم، وكـان يجيـد التحكم فيما عرفه عن البدو. وإلى جانب ذلك كان يدرك بـأن عليه أن يعتمد بالأساس على سكان يجد الحضر، لـذا أولاهم عنايـة دائمـة. وكـان يـدرك قـوة الـدين فأقـام علاقات طيبة مع علمائه منذ البداية.

جرت العادة في المطبوعات الأوروبية، والعربيـة جزئياً، على تسمية مؤسس الدولة السعودية الحديثـة باسم أسـرته: أبن سـعود. لـذا سـوف نسـتخدم نحن أيضاً هذا الاسم في بعض الأحيان.

وقد تركت لنـا المسـتعربة الإنجليزيـة هـير تـرودا بيل في كتابهـا "الحـرب العربيـة" صـورة أدبيـة لعبـد العزيز، مع أنها تخص فترة متـأخرة من حياتـه: "يـداه نحيفتـان بأصـابع رقيقـة، وتلـك سـمة منتشـرة بين القبائل العربيـة الأصـيلة. ورغم طـول قامتـه وعـرض منكبيه يـدل مظهـره على التعب، ولكنـه تعب أقـرب إلى الارتخـاء العـربي وليس صـفة فرديـة. إنـه تعب

شـعب عريـق منطـو على نفسـه عبـأ قـواه الحيويـة لدرجه كبيرة ولم يغـترف من الطاقـة إلا أقلهـا خـارج حـدود بلاده الـوعرة. إن حركاتـه المتأنيـة وابتسـامته الطيبـة البطيئـة وعنينـه اللـتين تتطلعـان بفطنـة من تحت حـاجبين ثقيلين ـ كـل ذلـك يضـيف إلى خصـاله جاذبيـة، ولا يتفـق مـع المفهـوم الغـربي للشخصـية النشيطة. ومع ذلك تشـير الأحـاديث عنـه إلى تحملـه البدني النادر حتى في الجزيرة العربية ذات الظروف الصـعبة"(15). ونحن نـترك "الارتخـاء العـربي" و "الانطـواء على النفس" على ذمـة المسـتعربة الملتزمـة بالمدرسـة الاسـتعمارية البريطانيـة، ولكننـا نشيد بتقييمها الرفيع عموماً لشخصية أمير الرياض.

انتهـز عبـد العزيـز فرصـة الهـدوء الـتي هيأهـا الشمريون فسدد ضربات في جميع الاتجاهات محاولاً أن يؤمن حـول الريـاض على الأقـل الحـد الأدنى من الأراضي لتكون لديـة القـدرة العسـكرية والاقتصـادية اللازمة لمواصلة الحرب.

وخلال تلك الفـترة أثـارت الأحـداث في الجزيـرة العربية اهتمام لنـدن وبـرلين وبطرسـبورغ فضـلاً عن اسـطنبول. ومارسـت الدبلوماسـية الألمانيـة ضـغطاً على السلطان العثماني بغية توفير منفذ أمين لسـكة حديد بغداد إلى الخليج. وكان حاكم حائل الذي حـاول استعادة السيطرة على جنوب نجـد واثقـاً من الـدعم التركي. إلا أن بريطانيا كانت من وراء ظهـر خصـومه الكويتيين، والسعوديين في التطبيق العملي(16).

وفي تمـوز ـ آب (يوليـو _ أغسـطس) 1902 تمكن أمـير شـمر من مهاجمـة الريـاض وقـام في

الطريق بغزوات على القبائل والواحات المعادية له. وتدل هجماته على واحات الوشم والمحمل والقصيم على أن سكان هذه المناطق كانوا ضده(17).

بدأ أبن سعود يجمع المتطوعين من سكان مدن العارض وبدو الدواسر وآل مرة. ولم يتمكن الشمريون من الاستيلاء على العاصمة الرياض رأساً لأنها صارت جيدة التحصين. لذا فضل أبن متعب عدم اقتحام المدينة وراح يقوم بحملات حولها وخصوصاً على الخرج. واستمرت الصدامات والمناوشات بين الطرفين في أيلول (سبتمبر) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) 1902 إلا أن الوباء الذي تفشى بين الشمريين حسم الأمر لصالح عبد العزيز. واضطر أبن متعب على الانسحاب نحو الشمال(18).

وبعد أن عاد أبن متعب من حملته الفاشلة على الرياض قام بغزوات جديدة. وظل كالسابق يعتبر مبارك حاكم الكويت، عدوه الرئيسي فقرر أن يسدد الضربة إليه. وفي هذه المرة هب عبد العزيز مع عدة آلاف من رجاله لنجدة الكويتيين في كانون الثاني ـ شباط (يناير ـ فبراير) 1903. وهجم الكويتيون بقيادة جابر والنجديون بقيادة أبن سعود ومن ألتحق بهما من قائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول وبني هاجر وبني خالد والعوازم على بدو مطير الذين كانوا موالين لآل الرشيد. وقتل في المعارك أحد زعماء مطير وهو عماش آل دويش وأبنه(19). وكانت نتيجة المعركة غامضة. وهذا ما يستفاد من تقرير قنصل روسيا في البصرة، حيث كتب عن

هزيمة الحلفاء الكويتيين والسعوديين على أيدي مطير(20).

وفي تلك الفترة زار عبد الرحمن بن فيصل الكويت وتقابل مع قنصل روسيا في بوشهر(21). إلا أن تلك الخطورة أخذت على الأكثر لتهديد الإنجليز بغية إرغامهم على تقديم المساعدة لأمير الرياض، وليس لإقامة اتصالات سياسية فعلية مع روسيا. وفي ربيع 1903 حاول الشمريون للمرة الأخيرة الاستيلاء على الرياض، إلا أنهم انهزموا أمام حاميتها بقيادة عبد الرحمن، أبي عبد العزيز.

كانت أولى انتصارات عبد العزيز تعني بعث نواة أمارة الرياض بدعم نشيط من الكويتيين، وبدعم غير مباشر من الإنجليز.

التقدم نحو القصيم. في كانون الثاني (يناير) 1903 تقابل ممثل أبن سعود مع المعتمد السياسي البريطاني في البحرين وطلب منه الحيلولة دون إنزال القوات التركية في حالة استيلاء أمير الرياض على الأحساء. ولم يحصل أبن سعود على جواب محدد، إلا أن الإدارة الإنكلوهندية صارت تراقب أكثر فأكثر نشاط عبد العزيز بعين الرضا(22). وبتبريك منها تعزز التحالف بين حاكم الكويت مبارك وأمير الرياض عبد العزيز وشيخ المنتفق سعدون ضد جبل شمر. وفي آذار (مارس) عقدوا اجتماعاً في الكويت واتفقوا على الأعمال المشتركة(23).

وفي عـام 1903 صـار الشـمريون يفلتـون أكـثر فـأكثر السـيطرة على المنـاطق الواقعـة جنـوبي القصيم(24).

وفي تلك الأثناء حدثت تغيرات جديـة في الوضـع الدولي. فقد نشطت بريطانيا هجومها على منافسـيها الألمـان والـروس في حـوض الخليج. وفي تشـرين الثاني _ كانون الأول (نوفمبر _ ديسمبر) 1903، زار نـائب الملـك البريطـاني في الهنـد كـيرزون بلـدان الخليج بصحبة عمارة حربية وبفخفخة كبـيرة. وكـانت الحرب النجدية الشمرية جزءاً من الصراع بين الدول الكبرى من أجل النفوذ في حوض الخليج.

وفي مطلـع عـام 1904، زحفت قـوات أمـير الريـاض بسـرعة نحـو القصـيم. وفي آذار (مـارس) 1904 على وجه التقريب اقتحم الفصيل الذي أرسله مدينـة عنـيزة حيث قتـل القائـد العسـكري الشـمري فهيِّد السبهان في سوقها الكبير(25).

ولكن المدينـة لم تكن قـد احتلت بعـد. وفي المعركة التي نشـبت قـرب عنـيزة دحـر عبـد العزيـز قـوات الشـمريين الـتي قادهـا ماجـد بن حمـود(26). وشـارك في المعركـة إلى جـانب الشـمريين بعض أقارب عبد العزيز من أبناء أخواته وأحفاد عمه سعود بن فيصل الذي ادعى بعرش الريـاض. وعـرفهم عبـد العزيـز ونعتهم "بـالعرايف"، وهـذا المصـطلح يطلقـه البدو عادة على إبلهم الـتي يسـتولي عليهـا العـدو ثم تستعاد في حملة مضادة. وكان أبن سعود، بما يلازمه من تسـامح تقليـدي، وعلى الأصـح مرونـة كبـيرة وبصيرة نافـذة وقـدرة على تجريـد الأعـداء الـذين لم

يعودوا خطرين من سلاحهم، كان قد عفا عن أقاربه هؤلاء بلا قيد أو شرط واقترح عليهم أما البقاء معه وأما الانضمام إلى آل الرشيد. وفي تلك الآونة قبلوا اقتراحه بالتصالح والتعاون والضيافة، ولكنهم بعد حين صاروا مجدداً من أخطر أعدائه(72).

وعين أبن سعود أحج أبناء الوجهاء أميرا لعنيزة، وهو عبد العزيز آل سليم الذي عاد من منفاه في الكويت مع أتباعه المسلحين.

وتعد سقوط عنيزة بعث أهالي بريدة وفداً إلى أبن سعود طالبين السماح لهم بمهاجمة الحصن في مدينتهم، والذي تمركزت فيه حامية من الشمريين. إن الاستيلاء على عنيزة اقنع أهالي بريدة بأن الأحداث في تلك اللحظة تتطور لصالح أمير الرياض. زد على ذلك أن آل مهنا (وهم من أبرز بطون بريدة الذين كانوا في السابق في المهجر الكويتي) قد وصلوا إلى عنيزة مع فصيل غير كبير، منتظرين فرصة استلام مقاليد السلطة مجدداً(28).

وكان الطريق إلى بريدة مفتوحاً، فبعث أبن سعود إلى المدينة فصيلاً بقيادة صالح آل مهنا أبا الخيل. وفيما بعد، عندما دخل عبد العزيز بريدة أقسم له سكانها يمين الولاء. وسلمت الحاتمية الشمرية المكونة من 150 شخصاً الحصن في حزيران (يونيو)1904، بعد أن وافق أبن سعود على السماح لهم جميعاً مع أسلحتهم بالذهاب إلى حائل(29).

وباحتلال عنيزة وبريدة شملت سلطة أبن سعود المنطقة الممتدة من الرياض حتى القصيم عبر

الوشم. إلا أن أبن متعب تمكن من إقناع الأتراك بـأن يقـدموا لـه مساعدة أكبر. وعنـدما علمـوا بـأن عبـد العزيز ضم القصيم إلى إمارته شعروا بـالقلق وبعثـوا إلى نجـد فصـيلاً قوامـه ألفـاً جنـدي مـع ستة مـدافع بقيادة العقيد حسن شكري(30).

وفي حزيـران (يونيـو) 1904، نصـب أبن متعب معسكراً في قصيبة ـ في منتصف الطريق تقريباً بين حائل وبريدة، وهناك استقبل الحاميـة الشـمرية الـتي سمح لها أبن سعود بمغادرة بريدة(31).

وقبيـل العمليـات الحربيـة الحاسـمة بعث حسـن شكري برسالة إلى عبد العزيز عندما كان هذا الأخـير مـا يـزال في عنـيزة وحـذره من العـواقب الوخيمـة للعمليـات الحربيـة ضـد حـاكم حائـل. وكتب العقيـد الـتركي يقـول: "إن جلالـة الخليفـة الأعظم بلغـه اضطراب الفتنة في بلاد نجد، وأن يداً أجنبيـة محركـة لهـا . لهـذا السـبب بعثـني إليكم حقنـاً للـدماء ولمنـع التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين". ثم تشكى كاتب الرسالة من تعاون عبد العزيز مع مبارك الذي يتعاون مع بريطانيا الدولـة الأجنبيـة الكـافرة. واقـترح بلهجـة متعاليـة على عبـد العزيـز بـأن يعـرض شـكاواه على السـلطات العثمانيـة وليس على مبـارك الـذي أعلن العصيان على الخليفة. وأشار شكري إلى أنـه حليـف ليس فقط لآل الرشـيد، بـل ولجميـع الـذين ينشـدون المعونة والدعم من الإمبراطورية العثمانية، وقال إنه إذا رغب أبن سعود أيضاً في هذه المساعدة فبوسعه أن يتمتع بالنعم نفسها التي يتمتع بهـا آل الرشـيد من الحكومة العثمانية(32).

شعر حاكم الرياض بـالقلق، ولكنـه كـان متصـلباً في موقفه. ورد على تلك الرسالة بجـواب جـاء فيـه: "وأمـــا الآن، فلا نقبـــل لكم نصـــيحة ولا نعـــترف لكم بسيادة، والأحسن أنك ترجع من هذا المكـان إذا كنت لا تود سفك الـدماء. فـأن تعـديت مكانـك هـذا، مقبلاً ألينا، فلا شك أننـا نعاملـك معاملـة المعتـدين علينـا... فـأن كنت حـراً منصـفاً فلا يخفـاك أن سـبب عـدم إطاعتي هو عدم ثقتي بكم... وخلاصة القـول أن كـل العمال الذين رأينا أنهم خـائنون منـافقون. فلا طاعـة لكم علينـا، بـل نـراكم كسـائر الـدول الأجنبيـة". ثم يستشــهد عبـد العزيــز بالوضــع في اليمن والبصــرة والحجاز وبسلوك الأتراك هناك لتوضيح أعماله. وأعاد إلى الأذهـان نهب سـلطات الحجـاز للحجـاج أمـام الكعبة. وحذر الأمير في ختام رسـالته العقيـد بأنـه إذا تحـرك الأتـراك نحـو المنطقـة الخاضـعة لـه فأنـه سيعاملهم معاملة المعتدين(33).

وفي صيف 1904 حاول أبن سعود الاعتماد على الإنجلـيز في صـراعه ضـد الأتـراك وصـنيعتهم فأقـام اتصالات مع الميجر بيرسي كوكس الذي كان قد صار قبـل حين معتمـدا سياسـيا لبريطانيـا في منطقـة الخليج. وقبـل ذلـك كـان كـوكس مسـاعداً للمعتمـد البريطاني في الصومال خلال الفترة من 1892 حتى 1901 وقنصـلاً في مسـقط للفـترة من 1901 حـتى 1904. وقـدر لـه أن يلعب دوراً هامـاً في العلاقـات الإنكلو سعودية حتى إحالتـه على التعاقـد في 1923. وبإشرافه عمل المستعربون المعروفون ولسن وبيـل وفيلبي. وكـانوا يمثلـون جيـل المـوظفين والمخـبرين

والعسكريين الاستعماريين البريطانيين الذي يعتبر كيبلنغ أميراً لهم. وكانوا يعتقدون، بهذا القدر أو ذاك من الإخلاص؛ بأنهم يتحملون "عبء الإنسان الأبيض" عندما يدافعون عن المصالح الاستعمارية البريطانية، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يقومون بدراسات عميقة، وكانوا، على سبيل المثال، مطلعين جيداً على شؤون الجزيرة العربية.

لقد اعتبرت بريطانيا ظهور القوات التركية في نجد خرقاً لاتفاقية1901 بشأن المحافظة على الأوضاع القائمة. وبعثت لندن إلى الباب العالي احتجاجاً شديد اللهجة(34).

وبعد أن رأى العثمانيون وأبن متعب استحالة إقناع عبد العزيز بالرضوخ لمطالبهم قرروا البدء بالعمليات الحربية. كان لدى الأتراك حوالي ألفين من المشاة أو ثماني كتائب (11 كتيبة حسب رواية أخرى) من القوات النظامية وستة مدافع خفيفة وكمية كبيرة من النقود والذخيرة والأسلحة والأغذية. وبالإضافة إلى الشمريين التحق بقوات جبل شمر أبناء قبيلتي هتيم وحرب، وكذلك سكان حائل. وعندما علم عبد العزيز باقتراب العدو قرر مواجهتهم في معركة مكشوفة. وخرجت من بريدة نحو الغرب قواته مكونة من أبناء الرياض والقصيم والخرج وقبائل مطير. على هذا النحو نشأ الموقف قبيل معركتي الشنانة والبكيرية اللتين اتسمتا بأهمية كبيرة لتقرير مستقبل أواسط الجزيرة كأهمية استيلاء عبد العزيز على الرياض(35).

الصراع مع الأتراك والشمريين من أجل القصيم (1904 ـ 1906):ـ لم يكن موقعة البكيرية معركة فاصلة واحدة بل سلسلة من الصدمات الكبيرة والصغيرة. حدثت الموقعة في أواسط تموز (يوليو) 1904 على وجه التقريب. وتؤكد مراجع الجزيرة أن عدد القتلى من القوات النظامية التركية بلغ ما بين ألف وألف وخمسمائة شخص، ومن حائل 300 ـ 500 شخص، أما القوات السعودية فقد فقدت حوالي 1000 شخص، يبدو أن هذه الأرقام مبالغ فبها جداً، وعلى أي حال فهي تشمل الخسائر بسبب وباء الكوليرا والقيظ والأمراض. ومن شهود العيان على هذه المعركة المؤرخ ضاري بن فهيِّد بن الرشيد الذي أكد أن متعب فقد مائة محارب، بينما فقد عبد العزيز مائتين(36). وهكذا اتسع نطاق الصدمات والصراع لأن احتلال الرياض مثلاً، أسفر عن مقتل بضعة أشخاص لا غير. وفي معركة البكيرية أصيب عبد العزيز بجراح ثخينة كاد يفقد حياته بسببها (37).

إلا أن المعركة أخذت تتحول لصالح أمير الرياض. ويفيد لوريمير بأن أحد القادة العسكريين الأتراك قتل، كما قتل عدد كبير من الجنود(38). واستولى أبن جلوي على كل المدافع التركية وأخذ كثيراً من الأسرى. وانهمك أبن متعب في نهب قرى القصيم وترك كل مؤنه ومعداته الثقيلة تحت حراسة مفرزة صغيرة عند البكيرية. وعندما سمع باقتراب قوات عبد العزيز التي استلمت إمدادات أرسل على الفور قسماً من قواته لنجدة مفرزة الحراسة، ولكن

بعد فوات الأوان. فقد استولى عبد العزيز على كل مستودعاته وعلى مدينة البكيرة(39).

وتوجه ابن متعب إلى منطقة الرس والشنانة في القسم الغربي من القصيم، فوصلها في آب (أغسطس) من العام نفسه مؤملاً، على ما يبدو، في الحصول على مساعدة الأتراك من الحجاز. إلا أن مدينة الرس التي كانت خاضعة له في السابق قررت هذه المرة الانضمام إلى أمير الرياض، لذا نصب الشمريون معسكرهم في الشنانة. ووصل إلى المنطقة نفسها عبد العزيز مع قواته الأساسية، إلى أن كلا الخصمين لم يدخلا في قتال، وربما كان ذلك بسبب حر الصيف. وتفشي وباء الكوليرا في معسكر ابن متعب، بينما أخذ البدو من كلا الطرفين يتفرقون لأنهم لم يجدوا الغنائم المنشودة. وظلت عند ابن متعب وحدات تركية من العراق وأفراد من جبل شمر فقط، كما ظل في المعسكر السعودي أبناء المدن المخلصين لعبد العزيز. وفي أواخر أيلول (سبتمبر) نشبت بين الطرفين معركة قرب الشنانة، فر الأتراك بنتيجتها مع الشمريين. وفقدوا بضع عشرات من الأشخاص فقط، لكن السعوديين المنتصرين فازوا بكل أعتدة معسكر العدو جماله وأغنامه وأغذيته وأسلحته وعدة صناديق مليئة بالنقود الذهبية(40).

كان انتصار عبد العزيز هاماً بخاصة لأنه أحرزه ضد عدة كتائب من القوات التركية النظامية. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن القوات التركية كانت تعاني

من فرار أفرادها وأنها تقاتل في ظروف غير معروفة لها وغير ملائمة إطلاقاً، في معمعان قيظ فضيع.

إلا أن دحر الأتراك بدأ لعبد العزيز انتصاراً خطراً جداً، فبعث إلى والي البصرة رسالة طلب فيها معونة مالية معتبراً نفسه من أتباع الباب العالي(41) ومحاولاً أبعاد خطر حملة تركية جديدة. وبعد أن استلمت السلطات العثمانية في وادي الرافدين تأكيدات عبد العزيز بولائه للسلطان جهزت رغم ذلك قوات من السماوة إلى نجد بثلاثة آلاف شخص مع المدفعية بقيادة أحمد فيضي باشا من الفيلق الذي يتواجد مقره في بغداد. وبالمناسبة فأن فيضي باشا كان مهتماً بثرائه الشخصي أكثر من اهتمامه بنجاح الحملة، فأشترى بثمن بخس دواب نقل لا تصلح لشيء ولم يتمكن من تأمين نقل المقاتلين والذخيرة إلى أعماق الجزيرة في الوقت اللازم(42). وقد بدأت حملته في كانون الثاني (يناير) 1905. وفي مدينة الزبير، شمالي الكويت، جرى لقاء بين والي البصرة أحمد مخلص باشا وعبد الرحمن، والد عبد العزيز، ومبارك شيخ الكويت. واطلع والي البصرة الوفد السعودي بأن الباب العالي عين عبد الرحمن قائم مقاماً وقرر بأن القصيم يجب أن تكون منطقة محايدة عازلة بين آل الرشيد وآل سعود. وطلب الأتراك أن يسمح لهم بإبقاء حامية في بريدة وأخرى في عنيزة لضمان حياد القصيم. ولجأ عبد الرحمن إلى تكتيك التملص فوعد بطرح هذه الاقتراحات على بساط البحث أمام أهالي نجد(43). إلا إن قوات فيضي باشا التركية كانت قد زحفت نحو أواسط نجد،

وقد أسرع لنجدتها من المدينة المنورة 750 شخصاً مع بطارية للمدفعية الميدانية بقيادة صدقي باشا.

كان أبن متعب متألماً لازدياد تبعيته للأتراك وسرعان ما أختلف مع أحمد فيضي باشا وترك حماته الأقوياء أكثر من اللزوم(44).

وتضعضعت مواقع عبد العزيز بشدة نتيجة لتصرف أمير بريدة صالح بن حسن آل مهنا. فقد حاول التخلص من آل الرشيد ومن السعوديين معاً وفضل الخضوع والتبعية للإمبراطورية العثمانية. وفي نيسان (إبريل) 1905 دخل الأتراك بريدة، وبعد بضعة أيام احتلوا عنيزة. وأقيمت في كلتا المدينتين حاميتان تركيتان رفع عليهما العلم العثماني وتعالى نشيد "الحميدية" وصار أسم السلطان العثماني يذكر في صلاة الجمعة(45).

وقسمت نجد إلى وحدات إدارية تبعاً للممارسات التركية المعتادة. وصارت بريدة قضاء يحكمه صالح الحسن بن مهنا. وأصبحت بريدة وعنيزة تابعتين إدارياً لولاية البصرة. واعتبر جنوب نجد قضاء أيضاً، بينما صار عبد العزيز بمثابة القائم مقام ومركزه في الرياض، وهو خاضع رسمياً للبصرة(46).

في تلك اللحظة كان أبن سعود يدرك أن القوة ليست إلى جانبه، وخوفاً من الاستفزازات أمر فصائله بعدم القيام بأي أعمال عدائية ضد الأتراك. وتقابل أمير الرياض ووالده مع فيضي باشا الذي كرر مطلب الإبقاء على الحاميتين التركيتين في بريدة وعنيزة حتى يتم عقد الصلح بين آل الرشيد والسعوديين مع اعتبار القصيم منطقة محايدة عازلة.

إلا أن عبــد العزيــز وأبــاه تملصــا من قبــول هــذه الالتزامات(47).

كان اهتمام الأتـراك آنـذاك منصباً على الأحـداث في اليمن. فــالقوات العثمانيــة عجــزت عن إخمــاد حركة الإمام يحيى بن حميد الـدين في صـنعاء. وقـرر الأتراك إرسال أحمد فيضي باشا من نجـد إلى اليمن. وسلم قيادة القـوات في القصـيم إلى صـدقي باشـا. وفي نيســان (إبريــل) 1905، على وجــه التقــريب، انتهت المفاوضات بين عبد العزيز والأتراك بلا نتيجـة(48).

لقد واجه الأتراك في نجد صعوبات كبيرة بسـبب قلــة الأغذيــة وكــثرة الأمــراض وشــيوع الفــرار بين الجنـود. ولم تتمكن الحاميـات العثمانيـة في القصـيم من إحلال الاســتقرار. وكــانت الأفخــاذ والبطــون الإقطاعيـة المحليـة تعتقـد بأنـه تهيـأ ت لهـا فرسـه للانفصال عن آل الرشـيد وعن السـعوديين، فحـاولت إحراز مزيد من الاستقلال، وعمل بنشـاط كـبير بهـذا الخصــوص حــاكم بريــدة صــالح الحســن بن مهنــا. واسـتأنف الشـمريون غـزواتهم على القصـيم، وصـار أهالي القصيم يتعـاطفون من جديـد مـع السـعوديين، ووصلت المساعدة لابن سعود من جهة غير متوقعــة. فقـد انضـمت أليـه مطـير مـع زعيمهـا البـارز فيصـل الدويش الذي تزعم حركة الأخوان فيما بعد(49).

وفي 13 نيســان (إبريــل) 1906، نشــبت في القصيم معركـة بين السـعوديين والشـمريين شـهدها المـؤرخ الشـمري ضـاري بن فهيـد بن الرشـيد. ففي الفجر هـاجم السـعوديون معسـكر أبن متعب بعـد أن

قصفوه بالمدافع أولاً. وأخذ حاكم حائل يتراكض بين محاربيه بغية إحلال النظام. وهرع إلى راية آل رشيد التي وقعت في أيدي محاربين من العاض متوهماً أنهم من أفراده. فناداهم باللهجة الشمرية فعرفوه وأردوه قتيلاً في الحال. وفر الشمريون مذعورين. تلك هي نهاية أبن متعب الذي كان قائداً عسكرياً شجاعاً ولكنه كان زعيماً سياسياً غير موفق. وقد دشن مقتله فترة من عدم الاستقرار في جبل شمر.

ونحى أمير الرياض حاكم بريدة صالح الحسن من منصبه وزج به مع إخوانه في سجن في الرياض. وبعد فترة قُتل صالح أثناء محاولة للهرب. وعُين لمنصب الأمير أبن عمه محمد العبد الله أبا الخيل (50).

وسرعان ما اتفق عبد العزيز مع أمير حائل الجديد متعب على اقتسام أواسط الجزيرة. فقد سلمت إلى أمير حائل الأراضي والقبائل الواقعة شمالي القصيم، بينما صارت لأبن سعود القصيم والأراضي الواقعة جنوبيها(51).

إلا أن القوات التركية كانت ما تزال موجودة في القصيم، علماً بأنها متعاطفة مع آل رشيد أكثر. ومنح الباب العالي متعب معونة بمبلغ 200 ليرة تركية شهرياً بالإضافة إلى الأغذية، أما عبد العزيز فقد استلم 90 ليرة تركية فقط شهرياً(52).

وفي تلك الفترة هبطت مطير ضد أمير الرياض بعد أن حرضها عليه الأتراك. ودحر عبد العزيز هؤلاء البدو وتوجه نحو بريدة التي يرابط فيها فصيل تركي (53).

في صـيف 1905 عين سـامي باشـا الفـاروقي قائداً للقوات التركية في نجد بـدلا من صـدقي باشـا. ولكنه لم يصل إلى القصيم على رأس فصـيل مشـاة من 500 شخص إلا في تمـوز (يوليـو) 1906. ويبـدو أنــه التقى بعبـد العزيــز في آب (أغسـطس) 1906 وحاولا الاتفاق. فتظاهر عبد العزيز بالغضب وانصرف بعد أن خاطب سامي باشا بكلمـات تعتـبر من أفضـع الإهانات في الجزيرة العربية: "لولا أنك ضـيف عنـدنا لما تركناك تتحرك من مكانك"(54).

وحل شهر رمضـان فصـادف ذلـك شـهر تشـرين الأمـل (أكتـوبر) 1906 وتـأجلت العمليـات الحربيـة. واقـترح أبن سـعود على سـامي باشـا أن يختـار أحـد أمور ثلاثة فأما أن يقرب القوات التركية من الرياض، مما يجعلها تحت رحمة أمير الرياض، وأمـا أن يخـرج القوات والعتاد من نجد وأما أن يستعد للمعركة(55).

كـان الأتـراك مـرابطين في الجزيـرة أكـثر من عامين ونصف وكـانوا يعـانون من الجـوع، ويشـعرون حـتى بنقص التبـغ. وتهـرأت بـزاتهم، وكـان العـرب يشـكلون قسـماً كبـيراً من الجنـود، ولكنهم يكرهـون أواسـط الجزيـرة العربيـة لدرجـة أنهم سـموها بنت الشـيطان. وكـان جنـود كثـيرون يـبيعون أسـلحتهم واعتـدتهم لأهـالي القصـيم كي يطعمـوا أنفسـهم. وانتشـرت الأمـراض وسـاد الفـرار من الجيش. وفي هذه الظروف لم يكن أمام سـامي باشـا مخـرج غـير الجلاء(56).

وفي أواخر تشـرين الأول (أكتـوبر) 1906، على وجـه التقـريب، تـرك سـامي باشـا معسـكره المعـزز

على مقربـــــة من بريـــــدة وتوجـــــه إلى المدينـــــة المنورة.وفي تشرين الثاني (نوفمبر) بدأ بالجلاء أيضاً الأتراك الذين كانوا قد وصـلوا من العـراق (وعـددهم 800 شخص تقريباً مع مدافعهم). فقد بلغـوا الكـويت ونقلوا منها إلى البصرة(57).

وتفيـد تقـديرات لوريمـير أن حـوالي أربعـة آلاف وخمســمائة جنــدي عثمــاني أُرســلوا إلى أواســط الجزيــرة في 1904ـ1905. ولم يعــد إلى المدينــة المنـورة والعـراق إلا ألـف منهم. وفقـد الأتـراك 3,5 آلاف شخص بسبب الفرار والأمراض والمعارك(58). وكانت تلك هزيمـة ماحقـة. ولم يتمكن الأتـراك حـتى من الإحتفاظ بسيطرة صورية على القصيم059).

ترسخ سلطة الرياض في جنوب نجـد و القصيم (1906_1912).

في 29 كانون الأول (ديسمبر) 1906، قتل أمـير حائل الجديد متعب الرشيد (الذي حكم أقل من عام) مـع ثلاثـة من إخوانـه على أيـدي سـلطان وسـعود وفيصل أبناء حمـود الرشـيد. ولم يتخلص من المـوت إلا الصـبي شـقيق الأمـير متعب الأصـغر الـذي أنقـذه خاله من آل سبهان وأرسله إلى المدينة المنورة التي كـانت تحت السـيطرة العثمانيـة. وصـارت المعونـات التي يقدمها البـاب العـالي إلى آل الرشـيد تصـل إلى المدينة المنورة مباشرة، وكان ذلك دليلاً على موقف الأتراك السلبي من مغتصبي السلطة في حائل(60).

أخذت إمارة آل الرشيد تزداد ضـعفاً. وراح شـيخ قبيلة الرولة نوري الشعلان يدعي بإمارة الجوف بعـد أن وسـع ديـرة قبيلتـه في أراضـي جنـوب سـورية

وشـــرقي الأردن حاليـــاً. واســـتفاد الســـعوديين من القلاقل في جبل شمر ليجتـذبوا إلى القصـيم قوافـل الحجــاج القادمــة من العــراق وبلاد فــارس. وأشــتد الصراع بين حكام حائل، وحدثت تبـدلات سـريعة بين الأشخاص الممسكين بزمام الأمور فيهـا. وحـل محـل سعود بن حمود سعود بن عبد العزيز الرشيد الصـغير السن الذي أعاده إلى حائـل في عـام 1909 أخوالـه من أسرة آل سبهان القوية. وظل أبناء هـذه الأسـوة يمثلون السلطة الفعليـة في الإمـارة. وحـتى سـقوط إمارة جبل شمر في عام 1921 أسـتلم زمـام الحكم فيها حوالي عشرة من الأمراء أو الأوصياء.

ولم تتمكن إمارة جبل شمر الـتي غـدت ضـعيفة من الاســتفادة من التوقــف المــؤقت في التوســع السعودي مع أن القصـيم كـانت مضـطربة. وانفصـل عن أمير الرياض فيصل الدويش وسائر زعماء مطـير إذ دخلوا في تحالف سري مع حاكم بريدة عبد الله أبا الخيل.

وفي نيسان ـ أيـار (إبريـل_مـايو) 1907 نشـبت قـرب مدينـة المجمعـة في سـدير معركـة بين مطـير وقوات أبن سعود المكونة بالأساس من قبيلة عتيبــة. واندحرت مطير. وأصيب فيصـل الـدويش بجـراح في هذه المعركة فطلب الصلح وأعرب عن خضوعه لأبن سعود. كان كالسـابق زعيمـاً لقبيلـة قويـة، وفي تلـك الأزمان العصيبة كـان أبن سـعود بحاجـة إلى أصـدقاء أحيـاء أكـثر من حاجتـه إلى أعـداء مـوتى، لـذا تقبـل تأكيداته بالولاء(61).

وفي آب _ أيلول (أغسطس _سبتمبر) 1907، ظهر سلطان بن حمود في القصيم حيث أنضم أليه أهالي بريدة بزعامة أبي الخيل، وكذلك قسم من مطير. وعندما علم عبد العزيز بغارة سلطان جمع قوات من قحطان وعتيبة وسبيع والسهول وانضمت أليه قوات من العارض. وخلال المعارك اللاحقة في أيلول 1907، دحر عبد العزيز مطير وزعيمها فيصل من جديد. ونشبت المعركة الحاسمة عند الطرفية على بعد بضع عشرات من الكيلومترات شمالي عنيزة. وقاتل ضد عبد العزيز الشمريون وأهالي بريدة وكذلك مطير. وتعتبر معركة الطرفية من معارك عبد العزيز الحاسمة ضد أعدائه. ويعتبرها المؤرخون السعوديين انتصاراً. إلا إن أمير الرياض لم يتمكن من الاستيلاء على بريدة واكتفى بنهب أطرافها. وبعد واقعة الطرفية أنسحب الشمريون إلى حائل، كما تراجع فيصل الدويش، إلى البادية(62).

كانت الكتلة الموالية للسعوديين في بريدة تتقوى. وعندما أقترب أبن سعود مع قواته من المدينة في أيار (مايو) 1908 فتح له أنصاره بوابتها. والتجأ أبا الخيل والمحاربون المخلصون له إلى الحصن. ولكنهم طلبوا الصلح بعد أن أدركوا بأن لا أمل لهم في فك الحصار. وأرتحل أبا الخيل إلى الكويت ومنها إلى العراق. وعين أحمد بن محمد السديري أميراً لبريدة. وهو يمثل فخذاً مرتبطاً بالسعوديين من زمان.

وفي تلك الأثناء قتل سلطان بن حمود في حائل في كانون الثاني (يناير) 1908. وتزعم الإمارة سعود بن حمود(63).

وفي تشرين الأول _تشرين الثاني (أكتوبر_نوفمبر) 1908 جرت في الحجاز أحداث هامة. فقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى استبدال شريف مكة علي بن عبد الله بالشريف الحسين بن علي. وكان الحسين قد عاد إلى مكة وهو يداري رغبة خفية في أن يكون ملكاً للعرب أو أن يغدو، على أي حال، عاملاً جدياً في سياسة الجزيرة العربية.

وفي عام 1908 بدأ جفاف مرعب في أواسط نجد أستمر عدة سنوات كما يقول فيلبي(64). ويتعارض قوله هذا مع ما كتبه بعض المؤرخين العرب. وعلى أي حال، ربما كانت الأمطار تهطل في مناطق أخرى، أما الجفاف فقد أصاب أواسط نجد بالذات(65). وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين من سكان أواسط الجزيرة كانوا يعتقدون بأن الجفاف في أراضي عبد العزيز كان إشارة مباشرة إلى الغضب الإلهي عليه. وكتب موسيل إن الكارثة الطبيعية ساعدت على التشوش العام في إمارة الرياض. إلا أن أمطاراً غزيرة سقطت في جبل شمر فتركت بعض القبائل عبد العزيز ونزحت إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة إمارة حائل(66).

كان تدهور الزراعة وازدياد المجاعة وخراب البدو كل ذلك شدد من عدم الاستقرار عموماً وضعضع سلطة عبد العزيز التي لم تكن قد توطدت بعد. وكان من دلائل عدم الاستقرار في الإمارة

التمرد الذي حدث ضد أبن سعود في منطقة الحريق حيث قتل الأمير الهزاني على يد منافسيه من العائلة نفسها. وحدث ذلك، على ما يبدو، في شباط _ نيسان (فبراير _إبريل) 1909، واجتاحت القلاقل المنطقة كلها، وتمكن عبد العزيز من إعادة النظام بشق الأنفس.

ولم تصبح منزلة أمير الرياض في ممتلكاته نفسها راسخة تماماً. فقد أفاده عدم وجود خصوم أقوياء، إلا إن الاتجاهات اللامركزية والنزاعات القبلية الإقطاعية كانت تضعضع السلطة المركزية أحياناً.

وفي الوقت الذي كان فيه أمير الرياض مشغولاً بالشؤون الداخلية أخذ يهدده من الغرب الحسين شريف مكة الهمام. حرضته الحكومة العثمانية دوماً على العمل ضد نجد.

ولم ينس عبد العزيز إنه محاط من الغرب والشمال والشرق بممتلكات عثمانية أو بأتباع للأتراك معادين له، وكانت غزواته الجسورة البعيدة تدل على إمكانية بعث الدولة الوهابية في حدودها الشاسعة السابقة، الأمر الذي كان يثير قلق الأتراك وحكام الجزيرة المعتمدين على بريطانيا وعلى الإمبراطورية العثمانية سواء بسواء.

وفي عام 1910، استمرت العمليات الحربية على نطاق غير كبير ضد أبناء عم عبد العزيز الثلاثة الذين سماهم "بالعريف". ولم تسفر تلك العمليات عن نتائج جدية، ولكنها كانت من عناصر عدم الاستقرار الداخلي الناجم عن تباطؤ توسع أمارة الرياض وعن الجفاف الفظيع.

وفي آذار ـ نيسان (مارس_إبريل) 1910، لبى عبد العزيز دعوة شيخ الكويت لمحاربة المنتفق وقائدهم سعدون باشا الذين كانوا آنذاك متحالفين مع الشمريين ضد الكويتيين. وفي حزيران (يونيو) 1910، دحر سعدون باشا القوات السعودية الكويتية الموحدة فاستولت المنتفق على غنائم كبيرة.

كانت العلاقات المتبادلة بين جبل شمر والسلطات العثمانية في الحجاز تتطور بصورة مضطربة. وفي حزيران 1910، طرد زامل آل سبهان الفصيل التركي من واحة تيماء. إلا إن نوري بن شعلان استولى على الجوف في عام 1909 وأحتفظ بها لبعض الوقت وضغط بذلك على جبل شمر من الشمال والشمال الشرقي. ويبدو أن نوري بن شعلان وعبد العزيز قد أقام تعاوناً متيناً جداً ضد العدو المشترك.

وحول الشريف حسين خلال عامين من حكمه أن يثبت ولاءه للباب العالي فقام بحملة على عسير، في حين كان الأتراك مشغولين بإخماد انتفاضة الإمام يحيى في اليمن. واستولى على إقليم عسير لأجل الأتراك وعاد إلى مكة عبر واحات بيشة ورانية وتربة الواقعة على حدود نجد وفرض سيطرته عليها.

وفي أواخر صيف 1910، جمع الشريف متطوعة من البدو ودخل نجد. وفي الطريق تمكن بالصدفة أن يأخذ سعد شقيق عبد العزيز أسيراً. ولم يكن الحسين يتوقع حرباً كبيرة، ولم تكن قواته كافية. وصار المدعو خالد بن لؤي وسيطاً بين أمير الرياض وشريف مكة، وتعين عليه فيما بعد أن يلعب دوراً

هامــاً في اســتيلاء النجــديين على الحجــاز. وبعــد المفاوضـات وعـد عبـد العزيـز بـأن يـدفع للسـلطان العثماني ستة آلاف ريال سنوياً ويؤكد سيادة الأتــراك رسمياً على نجد. وبعد ذلك أطلق سـراح سـعد وعـاد الحسين إلى مكة.

وبعـد عقـد الصـلح مـع شـريف مكـة توجـه عبـد العزيـز إلى الحريـق من جديـد لإخمـاد التمـرد الـذي تزعمه هذه المرة أحد "العرايـف". وقـد أعـدم جميـع أفـراد آل هـزان الـذين شـاركوا في العصـيان. إلا أن عبد العزيز عفا عن مدبر التمرد وهو قريبه سـعود بن عبد الله بن سعود. وظل هـذا يخدمـه بـإخلاص مـدى الحياة. وفر باقي "العرايف" إلى الحجاز حيث منحهم الشريف حق اللجوء.

في بداية عـام 1911، طلب منـه شـيخ الكـويت مبارك أن يوجه ضربة إلى عدوهم المشـترك ـ قبيلـة الظفـير. ولكنـه في الـوقت نفسـه أخـبر شـيخ هـذه القبيلة ابن سويط باقتراب قوات عبـد العزيـز وحـرم غزوته من عنصر المباغتة. إلا أن شيخ الظفـير هـرب بعــد أن اخـــبر ابن ســعود بــأن مبـــارك يلعب على الحبلين. كان حاكم الكـويت يفـرق بين قضـيتين همـا مساعدة آل سـعود الضـعفاء ضـد أمـارة جبـل شـمر القوية وبعث أمارة الرياض التي تحولت بســرعة إلى القوة الرئيسية في أواسط الجزيـرة. ورغم التنـافس الشديد ظل مبارك يخاطب ابن سـعود كالسـابق "يـا ولدي". وكان عبد العزيز يجيبه "يا والدي".

وفي عــــام 1910، زار المعتمـــــد السياســــي البريطاني الكابتن شكسـبير عبـد العزيـز. وأفـاد بـأن

أمير حائل والأمام يحيى وحاكم عسير تكاتبوا من أجل تدبير تمرد على الأتراك. كان عبد العزيز يريد طرد الأتراك من الأحساء وكان ينشد معونة الإنجليز في ذلك. وفي عام 1911، كانت الحكومة العثمانية ما تزال تسمي حاكم حائل "بأمير نجد". بينما كان الإنجليز يخاطبون عبد العزيز في مكاتباتهم "بالشيخ عبد العزيز أبن الشيخ عبد الرحمن آل سعود".

كان الإقليم الشرقي يجلب دوماً انتباه حكام الرياض. ولم يكن الأمر يقتصر على اعتبارهم له ضيعة شرعية لهم. فأن واحات الأحساء الغنية والمداخيل الجمركية كان بوسعها أن تعزز الحالة المالية للسعوديين. وكان أمير الرياض بحاجة إلي منفذ على البحر. وكان الوضع في الأحساء ملائماً للخطط عبد العزيز، لأن السكان المحليين يكرهون الأتراك. إلا أن أبن سعود كان يدرك من خبرة الحياة في الكويت أن الإنجليز هم القوة الرئيسية في الخليج.

زار أبن سعود الكويت في عام 1911 وأجرى مباحثات ودية مع المعتمد البريطاني واتفق معه على التعاون. وتخلى حاكم الرياض عن كل الادعاءات في مسقط وعمان، وتقرر أن يسيطر على الأحساء والقطيف وجزيرة دارين ومرفأ العقير وأن يحول الإنجليز دون تدخل أي دولة من جهة البحر. ومقابل ذلك كان يتعين على أبن سعود أن يعترف بالحماية البريطانية على إمارته وأن لا يدخل في حرب بدون موافقة الحكومة البريطانية. ولم توقع هذه الاتفاقية رسمياً، ولكنها كانت تستجيب لطابع المباحثات

السابقة ولنهج بريطانيا في عدم إعاقة عبد العزيز عن الاستيلاء على الأحساء، وللأحكام العامة في معاهدة 1915 المرتقبة. كانت بريطانيا في تلك الفترة تعتبر أمارة الرياض محمية فعلية أو محمية محتملة في إطار مجال نفوذها في حوض الخليج.

وفي عام 1911، بدأت في عسير انتفاضة ضد الأتراك تزعمها محمد بن على الادريسي. وأرسل أليه عبد العزيز مساعدة عسكرية معينة. وأدت مشاعر أهل عسير الدينية القديمة وتعاطفهم مع الوهابيين إلى تقوية التحالف بينهما.

وفي مطلع عام 1912، حاول الباب العالي، وهو منهمك بالحرب في أوروبا، أن يحصل على تأييد من أقاليمه البعيدة في الجزيرة العربية أو التأكد من وقوفها على الحياد. وبعث إلى عبد العزيز وفداً أثار مسألة إرسال قوات نجدية لدعم الحامية التركية في الأحساء. وأدرك أبن سعود أن الأحساء ستقع في القريب العاجل بيده كثمرة ناضجة.

وعندما منيب الحكومة العثمانية بهزيمة في البلقان حاولت بإصرار أن تجعل من عبد العزيز حليفاً لها في الجزيرة. ووصل وفد تركي إلى الرياض كي يستشيره ويستمع إلى آرائه وشكاواه. ورد عبد العزيز على والي البصرة سليمان شفيق باشا بهذا الخصوص قائلاً: "إنكم لم تحسنوا إلى العرب، ولا عاملتموهم في الأقل بالعدل. وأنا أعلم أن استشارتكم إياي هي وسيلة استطلاع، لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي. وهاكم رأيي،ولكم أن تؤولوه كما تشاءون: إنكم المسئولون عما في العرب من

شقاق. فقد اكتفيتم بأن تحكموا وما تمكنتم حتى من ذلك. وقد فاتكم أن الرأي مسؤول عن رعيته. وفاتكم إن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والإحسان. وفاتكم أن العرب لا ينامون على ضيم ولا يبالون إذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم". وفي الوقت نفسه اقترح عبد العزيز عقد مؤتمر للزعماء العرب في مدينة محايدة لتتهيأ لهم إمكانية الأعراب عن آرائهم. واقترح بأن يعيد الأتراك النظر في مواقفهم من العرب لأجل إيجاد شكل أكثر ملاءمة للحكم مشاركة العرب.واقترح أمير الرياض بأن توجد في إطار الإمبراطورية العثمانية عدة دول عربية أو دولة عربية موحدة بزعامة أحد الحكام أو وحدات سياسية منفردة بزعامة حكام محليين يعملون بشكل ولاة عثمانيين يتمتعون بالحكم الذاتي. وكانت اقتراحات أمير الرياض متعارضة جداً مع سياسة زعماء تركيا الفتاة التي حال ضعفها العسكري والسياسي دون الرد بحملة حربية على مقترحات عبد العزيز الجسورة.

وفي أواخر ربيع وأوائل الصيف، قام الحسين، شريف مكة، بحملة أخرى على نجد بعد أن جمع المطوعين من بدو عتيبة، بينما هجم محمد شقيق أمام الرياض على بدو عتيبة الخاضعين للحسين. وتوترت العلاقات بين الحاكمين إلى أقصى حد. ومنع الشريف النجديين من أداء حج عام 1912 . وألب مخبرو الحسين سكان القصيم على الرياض، حتى أن حاكم القصيم أبن جلوي أعدم عدداً من أهاليه. وتلقى عبد العزيز حقاً ضربة شديدة، إلا أن كراهية

النجـديين اتجهت بالدرجـة الأولى ضـد شـريف مكـة. وهكـذا نشـأ أسـاس الـنزاع الـذي سـينتهي فيمـا بعـد باستيلاء النجديين على الحجاز.

نشـوء حركـة الأخـوان. لم يكن لـدى عبـد العزيز سند متين وواسع بالقـدر الكـافي في أواسـط الجزيـرة رغم نجاحاتـه الأولى. فلم يكن يتمتـع بـدعم الدعوة الدينية السياسية التي رصت صفوف السكان وجعلتهم يلتفون حول آل سعود في عهد أجداده. كان آل سعود مرتبطين بفكـرة دينيـة بـاركت النضـال من أجـل المركزيـة لصـالح الأمـير والوجهـاء الحـاكمين وباركت الغزوات تحت راية "الإسلام الحقيقي".

وفي تلك الأثناء ظهرت في نجد حركـة الأخـوان. ومن المسـتبعد أن يكـون عبـد العزيـز من واضـعي فكـرة الأخـوان أو من مؤسسـي هـذه الحركـة. فـإن المؤسسين الروحيين للحركة هم قاضي الرياض عبـد الله بن محمد بن عبد اللطيف من آل الشيخ وقاضـي الأحساء الشيخ عيسى والمدعو عبد الكريم المغـربي الـذي وصـل إلى الجزيـرة العربيـة في أواخـر القـرن التاسع عشـر واسـتقر في منطقـة صـارت فيمـا بعـد هجرة الأرطاوية.

وبالإضــافة إلى الالــتزام الصــارم بــالفرائض الأساسية الخمس في الإسلام كان الأخوان مطـالبين بالإخلاص "لإخـوانهم" في الـدعوة وبالخضـوع للإمـام ومساعدة بعضهم بعضاً بكل الوسائل، وعدم التعامـل مـع الأوروبـيين ومـع سـكان البلـدان الـتي يـديرها الأوروبيون.

ولا أحد يعرف التاريخ الدقيق لنشوء بلدة الأرطاوية الأولى، إلا أنها ظهرت، على ما يبدو، في النصف الأول من عام 1913. وفي الأول من آذار (مارس) 1929 كتبت جريدة "أم القرى" لسان حال السعوديين التي تأسست بعد ضم الحجاز. أن كانون الثاني (يناير) 1913 هو تاريخ نشوء أول هجرة.

نشأت أولى "هجر" الإخوان حول مجموعة الآبار في الوادي ذي المراعي الجيدة والأشجار الكثيرة. ويقع هذا الوادي على طريق القوافل من الكويت إلى القصيم في منطقة دير مطير التي هي من أقوى قبائل أواسط الجزيرة وأكثرها اعتزازاً بنفسها.

وباع قسم من مطير طوعا بعض أبلهم ومعدات الخيام الضرورية لنمط الحياة البدوي. واستقروا في منطقة الأرطاوية وأخذوا يبنون المنازل بعد أن عزموا على ممارسة الزراعة وحدها ودراسة التوحيد. وانضم إلى مطير العريمات وهم فخذ من حرب قاموا بقسم كبير من البناء في الهجر لأنهم يمتلكون المهارات اللازمة في الصنائع والبناء والزراعة خلافاً لسائر البدو.

وتحول التعاضد القبلي التقليدي إلى تعاضد بين الأخوان. فإذا فقد أحد أملاكه بسبب غزوة أو بسبب هلاك الماشية فأن الأخوان يجمعون له التبرعات.

ونشأت هجر كثيرة على أثر الأرطاوية. فقد أنشأت عتيبة هجرة في "الغطغط" وقد دمرت فيما بعد. وفي عام 1918 ظهر عدد كبير من هذه الهجر في أرجاء نجد كافة. ولئن كان عدد هجر الأخوان 52 هجرة في الجزيرة كلها في عام 1920، فقد ازداد

في عام 1923 إلى 72، وفي 1929 بلغ 120 هجرة تقريباً. وكتبت "أم القرى" في عام 1929 أن عنزة أسست 7 هجر وشمر 16 وحرب 22 ومطير 12 وعتيبة 15 وسبيع 3 والسهول 3 وقحطان 8 والدواسر 4 وبنو خالد 2 والعجمان 14 والعوازم 2 وبنو هاجر 4 وآل مرة 4 وهتيم 3 والظفير 1. ولكنه حتى في أوج حركة الأخوان لم يستقر في الهجر إلا عشر أو، في أفضل الأحوال، خمس البدو الرحل.

وكان الجفاف ومصاعب الحياة البدوية، أي الضرورة الاقتصادية، من الدوافع التي جعلت البدو يستقرون ويتحولون إلى حضر. وكان نزوحهم إلى الشمال محدوداَ بسبب عدم رغبتهم في الاعتماد على أهواء الأتراك ومن بعدهم الإنجليز.

وقد شجع ابن سعود عملية استقرار البدو وساعد الأخوان بالنقود والحبوب والأدوات الزراعية ومواد بناء المساجد والمدارس والهجر، كما بعث المطاوعة لتعليمهم. وبالإضافة إلى ذلك زود المحاربين بالسلاح والذخيرة للدفاع عن الدين.

وكان أمراء حجر يستلمون من عبد العزيز معونة نقدية ويتمتعون بحسن ضيافته. وكانت أسماء الأمراء تسجل في سجلات خاصة، وكان مقدار المعونة يحدد تبعاً لخدماتهم وعدد أتباعهم. وكان الأخوان المحاربون يتلقون مكافأة سنوية بعد تسجل أسماؤهم في سجلات ديوان ابن سعود.

إن الشرط الرسمي للانتماء إلى الهجرة هو التخلي عن عادات والتزامات نمط الحياة العشائري. إلا أن هذا الشرط لم يكن يطبق عملياً، فصار

الإسكان في الهجر يجري في الغالب على أساس قبلي. وصارت هجر الأخوان في الواقع مقرات لشيوخ أكبر القبائل. وأخفقت محاولة أبن سعود لحرمان القائل من زعمائها التقليديين بواسطة فرق الأخوان. وقد استقر زعيم عتيبة في الغطغط، وسكن زعيم حرب في دخنة وسكن أبن جبريل وأبن ثنيان زعيماً شمر في الاجفر.

كان الحماس الديني لدى الأخوان يستهدف طاعة الله ويخدم بالطبع أولياءه في الأرض. وكان من المنتظر الثواب على جهودهم الدينية والدنيوية، كما في السابق عن طريق غنائم الحرب ولكن ليس بشكل غزو بعض القبائل لبعضها الأخر أو النهب في الطرقات، بل في الجهاد ضد المشركين. واقترنت الضرورة الاقتصادية والاجتماعية لاستقرار البدو والانتقال إلى الزراعة بالتفاني الديني والحاجات العسكرية، إلا أن هذه المهمات يمكن أن تتعارض، ولذا دمرت بعض القرى ـ "الهجر". بديهي أن من المستبعد توقع تخلص البدو بسرعة من عاداتهم البدوية السابقة وتحولهم إلى زراع جيدين. ففي غالب الأحيان لم يكن الحماس الديني يكفيهم لأمد طويل من العمل في الحقول، لذا كانوا يرغبون في القتال من أجل التوحيد أكثر مما يرغبون في الزراعة.

وظلت باقية في قرى الهجر بعض الفوارق الطائفية بين القبائل "الرفيعة" التي تقدم المزارعين المقاتلين وبين القبائل "الوضيعة" التي كان يتعين عليها ممارسة الصنائع والبناء وتأمين مستلزمات

القرى الجديدة. وبالفعل فأن العريمات التي استقرت مع مطير في الأرطاوية هي فخذ "وضيع" من قبيلة حرب التي تعتبر من أنبل القبائل في الجزيرة العربية.

وغالباً ما كان الصُناع و الباعة من الأشخاص الذين لا تشغلهم الأعمال الحربية، وكان يتعين عليهم أن يصنعوا حدوات الجياد والسلاح والأدوات الزراعية ويصلحوها. وعندما تبدأ الحرب كانوا يبقون في القرى.

أما المطاوعة فكانوا يمثلون الفئة الأوطأ من علماء الدين والفقهاء الذين يجري أعدادهم في الرياض ومراكز أخرى. وكان هؤلاء المطاوعة في الواقع يؤدون في القرى دور دعاة ومخبري السلطة المركزية المتمثلة في علماء الرياض والأمير شخصياً . وفي أكبر الهجر كان عبد العزيز يعين قضاة من آل الشيخ عادة.

وكان سكان الهجر الملزمون بالخدمة العسكرية يقسمون إلى ثلاث فئات تضم الأولى الأشخاص الذين في حالة تأهب واستعداد دائم للقتال والذين يلبون نداء الجهاد حالاً. وتضم الفئة الثانية الاحتياطية. أما الفئة الثالثة فتتكون من الذين يظلون في القرى عندما تنشب الحرب، ولكن يمكن بقرار من العلماء أن يجندوا في جيش الأمير في الحالات الاستثنائية. وكان سكان الهجر يؤدون الخدمة العسكرية مع إبلهم وسلاحهم وأغذيتهم. وكانت بعض الهجر فقط، وهي الواقعة في أواسط نجد تستلم معونة من بيت المال للأغراض الحربية عندما تقدم عساكرها.

كان البدو الذين استوطنوا الهجر يعتقدون بأنهم انتقلوا من الجاهلية واعتنقوا الإسلام الحقيقي. وكانوا ينهمكون في نشر معتقداتهم بحماس كبير، حتى إنهم كانوا يضربون البدو والحضر الذين لا ينضمون إليهم و يعتبرونهم من الكفرة. ولأن البدو كانوا في السابق بالفعل لا يعرفون من الإسلام إلا القليل، فإن هذا الانتقال وكذلك استبدال العرف القبلي بالشريعة، قد اتسما بطابع مأساوي لدرجة ما. فقد أشار موسيل، مثلاً، إلى اشتداد المشاعر الدينية بين الرولة الذين شاركوا في فرق الإخوان. وعلى أي حال فأن الكثيرين من البدو صاروا يحفظون عن ظهر قلب سورة أو سورتين من القرآن.

من المعروف إن المتدينين الجدد أكثر حزماً وتعصباً في أداء الفرائض الدينية من المتدينين القدامى. ولذلك فإن البدو الذين لم يعرفوا الإسلام سابقاً أو الذين يعرفون عنه القليل جداً صاروا يؤدون فرائضه كالصلات الخمس بحماس شديد وأخذوا يضربون بالعصي من يتنصل عن أدائها. ولكي يميز الإخوان أنفسهم عن سائر المسلمين الذين اعتبروهم "مشركين" صاروا يرتدون عمامة بيضاء بدلاً من الكوفية العادية، كما أخذوا يحلقون شواربهم ويقصرون لحاهم، ويصبغونها بالحناء أحياناً. وقصروا دشداشتهم حتى بالكاد صارت تغطي الركبتين. ومنع الإخوان الموسيقى أيا كانت، ماعدا طبول الحرب، ولم يشربوا القهوة لأنها لم تكن معروفة في زمن النبي، وتحاشوا التدخين كما يتحاشون السم. وكان تعاطي الكحول محرماً بالطبع، وكذلك الحرير

والنقوش الذهبية على الألبسة الرجالية. وصبت اللعنات على القمار وقراء الفال والألعاب السحرية، ونشير هنا إلى الطبع التعادلي للكثير من محظورات الإخوان الدينية و المعاشية، وكان ذلك شكلاً لاحتجاج بسطاء أبناء الشعب على "أبهة" الطبقات الحاكمة (حسب مقاييس الجزيرة العربية).

وكان الإخوان يطلقون نعت "المشركين" على جميع اللذين لا يؤيدونهم من أهالي المدن والواحات والبدو. وباسم تجديد الدين قامت فرق الإخوان بقساوات كثيرة مع إن تعصبهم قوى القدرة الحربية لقوات أبن سعود. ويعتقد ديكسون أن نظام الفروسية البدوي تضعضع في الفترة بين 1913و 1930 بسبب حركة الإخوان.

وأكد مؤلفون كثيرون أن أبن سعود نفسه لم يكن متعصباً قط. وقد أنتفع من حركة الأخوان واستخدمها متجاوزاً بمهارة مطالبها المتطرفة. وأبان الحرب العالمية الأولى وافق أبن سعود على الحماية البريطانية واستلم معونات شهرية من الحكومة البريطانية وأدعى بأن ذلك مجرد جزية كالتي كان المسيحيون يدفعونها للخلفاء الأوائل ولكنه حتى في المرحلة الأولى من مراحل حركة الإخوان لم يكن أبن سعود يثق بهم حتى النهاية، وذلك بحكم مُنحدرهم البدوي وبحكم الإفراط في انتشار السمات التعادلية في حركة الإخوان من وجهة نظر الإقطاعي الكبير. وفي حاشية أمير الرياض كان قريبه ونصيره عبد الله بن جلوي من أشد معارضي الإخوان.

ضم الأحساء. عندما علم عبد العزيز بهزيمة الأتراك في حرب البلقان أخذ يستعد لحملة على الأحساء. وفي مطلع عام 1913، وصل إلى القصيم وأعلن التعبئة العامة.

وفي تلك الأثناء كان الإخوان من ضمن قواته، ولكنهم لا يشكلون الأغلبية.وبعد أن جمع حضر نجد والبدو المنضمين إليه توجه إلى الأحساء. وقبل أن يبدأ هذه الحملة تقابل مع الضابط الإنجليزي ليتشمان، ولعله أخبره بخطة الهجوم على الأتراك.

كان سكان الأحساء الذين أرهقهم ابتزاز الأتراك وظلمهم ينظرون إلى النجديين كمنقذين لهم. ومنذ عام 1903، كتب قنصل روسيا في البصرة أن المتصرف العثماني في الأحساء "جعل سكان هذا السنجق العرب في حالة إرهاق بالغ بسبب تعنته وطيشه".

وكتبت القنصلية الروسية في البصرة "أن سلطة الأتراك على الأحساء كانت وهمية. وقد انتهت تقريباً خارج حدود المدن..

وفي بداية أيار (مايو) جمع أبن سعود حوالي 8 آلاف من الأعراب المسلحين جيداً وأقتحم الأحساء بغتة وقام بهجوم على الهفوف. ولم يجد صعوبة كبيرة في احتلال المدينة".

بدأ الهجوم على المدينة في الليل بواسطة جذوع النخيل والحبال والسلالم المجهزة مسبقاً. وسرعان ما سقطت المدينة وكذلك حصن الكوت، ما عدا مسجد إبراهيم باشا في داخل الحصن. والتجأ

المتصرف وقسم من حاميته إلى المسجد. وكان مجموع الأتراك في الهفوف آنذاك 1200 شخص.

وقرر المتصرف أن يضع السلاح. وتم إخلاء الحامية تحت حراسة مفرزة قادها أحمد بن ثنيان، وهو من أقرباء عبد العزيز الابعدين. ثم استولى النجديون على القطيف. و صار الإقليم الشرقي تحت سلطة أبن سعود. وكتبت القنصلية الروسية في البصرة " من المحتمل تماماً أن يكون ذلك كله قد حدث ليس بدون علم الإنجليز، وربما ليس بدون نصائحهم، فأن دسائسهم بين الشيوخ العرب معروفة جيداً".

ولم يضيع حاكم الرياض الوقت فأخذ "يروض" الشيعة المعادين تقليدياً للسعوديين. وعين عبد العزيز عبد الله بن جلوي حاكماً للاحساء، وأخذ هذا ينكل بنشطاء الشيعة دون رحمة وخصوصاً في القطيف.

كانت عائدات الإقليم في عهد الإدارة العثمانية تعادل 37 ألف ليرة سنوياً، بينما بلغت نفقات الحاميات والإدارة 52 ألفاً. إلا إن عائدات الأحساء، كما يعتقد القنصل الروسي في البصرة، يمكن زيادتها، وهذا ما عزم عليه عبد العزيز. فقد طرد التجار الأجانب من الأحساء و القطيف وفرض ضريبة بنسبة 8% على كل الواردات التي تصل إلى الإقليم الشرقي من جهة البحر وأجتث عبد الله بن جلوي بيد من حديد النهب على طرق القوافل فاستطاع التجار أن يتجولوا في الإقليم بأمان نسبياً.

لقد انتزعت إمارة الرياض من الإمبراطورية العثمانية إقليماً غنياً نسبياً من أقاليم الجزيرة العربية وحصلت على منفذ إلى الخليج من الكويت حتى قطر. إن أهمية الأحساء بالنسبة لإمارة الرياض تفوق التقدير. فالأراضي التي كان السعوديون يسيطرون عليها حتى ذلك الحين كانت خالية من أي موارد طبيعية. وكان محصول التمور في حدودها بالكاد يكفي لسد حاجة الحضر والبدو. ولم تكن الحبوب كافية، وكانت الإمارة بحاجة إلى استيرادها. وكان السكان الحضر يعتمدون كلياً على استيراد الأقمشة. وكانت القوات بحاجة إلى مشتريات السلاح من الخارج. وقد أمن الاستيلاء على إقليم الأحساء والحصول على منفذ إلى الخليج قوة حيوية للدولة السعودية واستمرار تطورها.

ولم تقف بريطانيا التي تؤمل في تحويل الدولة السعودية إلى محمية لها في آخر المطاف حجر عثرة أمام طرد الحامية التركية من الأحساء. وقد قام المندوب البريطاني في البحرين بزيارة مجاملة لعبد العزيز في مرفأ العقير بعد سقوط الأحساء. وفي أواخر عام 1913، زار الرياض المعتمد السياسي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير الذي كان قد تقابل مع ابن سعود سابقاً. وقد ناقش مع أمير الرياض هذه المرة الوضع العام فقط لأنه لم يكن يتمتع بصلاحيات أخرى.

بيد أن بريطانيا كانت تلعب على الحبلين. ففي حزيران (يونيو) 1913، وقعت بين السفير العثماني إبراهيم حقي باشا ووزير الخارجية البريطاني أدورد

غـــراي اتفاقيـــة رســـم الحـــدود بين ممتلكـــات الإمبراطوريـة العثمانية والمحميـات البريطانيـة على السـاحل العــربي من الخليج _ الكــويت والبحــرين وإمـارات سـاحل الصـلح البحـري. وكـانت كـل هـذه الأراضي مرتبطة على نحو ما بالأحسـاء التي لم يـرد لها ذكر في الاتفاقية. وهذا يفترض رسمياً إنهـا كـانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

وفي آذار (مـــارس)1914، وافقت بريطانيـــا والإمبراطورية العثمانيـة على اقتسـام شـبه الجزيـرة العربيـة. ونصـت شـروط المعاهـدة على أن تعتمـد الحـدود بين ممتلكـات كلتـا الـدولتين بشـكل خـط مستقيم من شـبه جزيـرة قطـر عـبر بـوادي أواسـط الجزيـرة العربيـة حـتى الحـدود بين محميـة عـدن واليمن. وكان كـل مـا يقـع شـمالي هـذا الخـط ملكـاً للعثمانيين، بما في ذلك نجد فضلاً عن الأحساء، وكـل مـا يقـع جنوبـه يعتـبر من الأراضـي البريطانيـة. وبالمناسبة فقد فقدت هذه المعاهـدة قيمتهـا بانـدلاع الحرب العالمية الأولى.

وبعد سـقوط الأحسـاء جـرت مباحثـات بين عبـد العزيـز وممثلي السـلطات العثمانيـة. ولم تكن لـدى الباب العالي القوى والنقود اللازمـة لاسـتعادة الإقليم المفقود. وكـان كـل مـا يريـده الأتـراك هـو "الحفـاظ على مــاء الوجــه". وكتبت القنصـلية الروسـية في البصرة في 27 أيار (مايو) 1914، "إن إرسال فيلق عمليات إلى الأحساء في الوقت الحاضـر غـير ممكن إطلاقاً بالنسبة للأتـراك، فليس لـديهم العـدد الكـافي من الجنود لا في بغـداد ولا في الصـرة. زد على ذلـك

إن الحكومة البريطانية التي تتابع ببـالغ الاهتمـام كـل ما يجري في الأحساء ستحاول... إعاقـة الأتـراك عن ترسيخ أقدامهم من جديد على سواحل الخليج"

وقـد وافـق أمـير الريـاض شـفوياً، كمـا يقـول فيليـبي، على الاعـتراف بسـيادة السـلطان العثمـاني على أراضيه مقابل الأسلحة والنقود التركية.

ويؤكد الباحث الأمريكي ترولير بصورة قاطعة إنه تم توقيع معاهدة عثمانية سعودية رسمية في 15 أيار (مايو) 1914 نصت، فيما نصت، على " إن ولاية نجد يجب أن تبقى تحت حكم عبد العزيز باشـا آل سـعود طـول حياتـه بمـوجب فرمـان سـلطاني. وبعـد وفاتـه ينتقـل الحكم إلى أبنائـه وأحفـاده بفرمـان سـلطاني بشـرط أن يبقى الأمـير مواليـاً للحكومـة العثمانيـة ولأجـداده". ونصـت المـادة 7على أن يرفـع العلم التركي فوق كل دوائـر الدولـة وكـذلك فـوق السـفن العائـدة لولايـة نجـد. وجـاء في المـادة 9 "إن الـوالي (الحاكم أو القائـد) المـذكور لا يحـق لـه التـدخل في الشؤون الخارجية ولا عقد المعاهدات الدولية ولا منح الامتيـازات للأجـانب". ونصـت المـادة 12 على إن حاكم نجـد يجب أن يحـارب إلى جـانب الإمبراطوريـة العثمانية.

ويعتقد فيليـبي إن عبـد العزيـز صـار، مـع انـدلاع الحـرب العالميـة الأولى، في حـل من "التعهـد الشفوي" للأتـراك. وعلى أي حـال فـأن سـلوك أمـير نجـد منـذ بدايـة العمليـات الحربيـة كشـف عن عـدم تقديره لتعهداتـه أمـام السـلطان العثمـاني وعن قلـة المرتكزات التي كان بوسع الأتراك استخدامها لحمله

على العمل في صالحهم. وأكدت مذكرة حكومة العربية السعودية إنه لا توجد في الارشيفات السعودية أي وثيقة تشير إلى توقيع الاتفاقية السعودية التركية. إن عدم وجود مثل هذه الوثيقة في الارشيفات السعودية، إن لم تكن موجودة فعلاً، فلا يدل على شيء. فبدلاً من الاتفاقية التحريرية يمكن أن يوجد اتفاق شفوي ينفذه الطرفان إذا كان في صالحهما. وعلى أي حال فقد قدم ترولير النص الكامل للمعاهدة التركية النجدية مع إن توقيع عبد العزيز غير موجود عليه بالفعل.

وكان المسئولون في الأستانة يدركون بأنهم فقدوا السيطرة الفعلية على نجد والأحساء رغم المعاهدة مع بريطانيا بشأن اقتسام الجزيرة العربية ورغم تعهدات ابن سعود الشفوية بولائه للسلطان. ولذلك أخذت السلطات العثمانية تعمل على تقوية جبل شمر، حيث وعدوها، مثلاً، بتقديم 10 آلاف بندقية وأغذية ونقود. واقتنع عبد العزيز مرة أخرى بأن الأستانة تعول على حائل وإن الخطر التركي المحتمل على إمارة الرياض ما يزال قائماً.

الفصل العاشر

نجد والحجاز أبان الحرب العالمية الأولى (1914 _ 1918)

قبيل الحرب العالمية الأولى ازداد نفوذ ألمانيا في الإمبراطورية العثمانية لدرجة كبيرة. فبعد تردد

قصير علق ثلاثي تركيا الفتاة الآمال على برلين ودخل الحرب ضد بلدان الوفاق. وبنتيجة مغامرة القيادة التركية بلغت الأزمة السياسية داخل الإمبراطورية العثمانية نقطة حرجة فطرح سكان أغلب الأقاليم غير التركية، وبالدرجة الأولى البلدان العربية ، مطلب تقرير المصير. إلا أن دول الوفاق كانت تعتبر الإمبراطورية المحتضرة كلها غنيمة استعمارية لها، وتعتبر القوميين العرب حلفاء مؤقتين خاضعين.

استمرت المعارك الدموية في الشرق الأدنى زهاء أربعة أعوام. وانجرت إليها بدرجات مختلفة جميع بلدان شبه الجزيرة العربية تقريباً، مع أن الجزيرة كانت مسرحاً لعمليات حربية من الدرجة الثالثة بمقاييس الحرب العالمية.

منذ بداية العمليات الحربية ضد الإمبراطورية العثمانية كانت المهمتان الفوريتان لبريطانيا هما مواصلة السيطرة على مصر وقناة السويس والبحر الأحمر، وكذلك الاستيلاء على رأس جسر في شط العرب _ مصب دجلة والفرات لتأمين حماية حقول البترول في إيران من الهجوم التركي الألماني المحتمل. وقد أمَّن حل المهمة الأولى وجود القوات البريطانية في مصر وسيطرتها على مشارف القناة من جهة سيناء، إما حل المهمة الثانية فأمنه إنزال فيلق الحملات في وادي الرافدين. وفي عدن جرى تعزيز الحامية وإرسال إمدادات من القوات الإنكلوهندية بغية احتفاظ بريطانيا بالمرفأ الإستراتيجي الهام، مع عدم التورط في عمليات

حربية نشيطة ضد القوات العثمانية التي اقتحمت اليمن الجنوبي.

ومن بين جميع حكام شبه الجزيرة العربية حظي شريف مكة الحسين بأكبر الاهتمام لدى الحلفاء الذين علقوا عليه آمالاً تحققت فيما بعد بقدر ما. فقد كان الحسين بوصفه من العائلة الهاشمية المتحدرة من قريش من أكبر المتنفذين في العالم الإسلامي. وكان يعتبر من أحفاد النبي وسادن الحرمين الذي عين في هذا المنصب بفرمان من السلطان العثماني. كان الإنجليز يخشون من أن دعوة السلطان العثماني للجهاد ضد المسيحيين، وبالتالي ضد الإنجليز والفرنسيين يمكن أن تؤثر على مصر والهند وشمال أفريقيا والمستعمرات الأخرى التي يقطنها المسلمون. وكان الحلفاء يعتقدون بأن تأييد الحسين لدعوة الجهاد من شأنه أن يقوي تأثيرها. صحيح أن دعوة السلطان كان لها صدى محدود، واتضح أن المخاوف بشأن تأثيرها كان مبالغاً فيها.

وخلال العامين الأولين من العمليات الحربية في وادي الرافدين منيت القوات الإنكلوهندية بعدة هزائم على يد القوات التركية التي كان فيها عدد غير قليل من العرب. وفي هليبولي حيث اندحرت قوات الحلفاء أيضاً كان في الفرق التركية عرب من رعايا الإمبراطورية العثمانية. ولذلك كان تشجع الحركة القومية العربية ذات الصبغة الدينية يستجيب في تلك الأثناء للمصالح البريطانية والفرنسية.

إمارة نجد والحرب العالمية الأولى. والمعاهدة الإنكلونجدية.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، بعث أمير الرياض عبد العزيز رسائل إلى الشريف حسين، وسعود بن صالح، في حائل، والشيخ مبارك الصباح في الكويت. واقترح عليهم عقد لقاء للحكام العرب، للحيلولة دون جر العرب إلى العمليات الحربية، وتوقيع معاهدة مع الدول الكبرى، لضمان تقرير المصير للدول العربية. ولم تكن مصالح مختلف الأمراء العرب متوافقة آنذاك، لذا تعذر وضع منهاج مشترك فقد رد حاكم حائل بأنه سيقاتل ضد الذين يقاتلون الأتراك، وسيتصالح مع الذين يتصالحون معهم.

ووصل إلى نجد، مع بلاد الرافدين، مبعوث السلطات العثمانية، طالب النقيب، الذي تقابل مع عبد العزيز في بريدة، ولكن مهمته أخفقت لأن القوات البريطانية احتلت البصرة آنذاك. وتوجه من المدينة المنورة، في الوقت نفسه، وفد تركي آخر ومعه دليل، من الوزن الثقيل، على رغبة السلطات العثمانية في استمالة عبد العزيز إلى جانبها. فقد حمل الوفد 10 آلاف ليرة ذهباً. وحاول أحد أعضاء هذا الوفد، وهو مؤرخ الحجاز والجزيرة العربية محمود شكري الآلوسي، إقناع عبد العزيز بتأييد الأتراك. وتملص عبد العزيز عن تقديم أي وعود قائلاً إنه عاجز عن مقاومة الإنجليز، ولكنه وعد بعدم إعاقة تجار نجد عن تزويد الجيش التركي بالأغذية. وطوال الحرب كلها كانت القوافل التركية المحملة بالسلاح والذخيرة تجتاز أراضيه من الشام إلى عسير واليمن.

إلا أن الإنجليز، رغم اعتمادهم على الحسين، ما كان بوسعهم أن يتجاهلوا أمير نجد. ففي تلك الفترة كانت ممتلكات عبد العزيز تنبسط من الكويت وجبل شمّر حتى حدود صحراء الربع الخالي، ومن الخليج حتى الحجاز. وكانوا يريدون من عبد العزيز شيئاً واحداً هو أن يشل صنيعة الأتراك أمير حائل الذي يهدد جناح الجيش البريطاني، في جنوب وادي الرافدين.

وعندما بدأت العمليات الحربية في الشرق الأدنى، استدعى المعتمد البريطاني في حوض الخليج كوكس مخبره الموهوب الكابتن شكسبير من إجازته وأرسله إلي نجد. وحالما وصل شكسبير إلى الرياض، أصر على أن يبدأ الأمير النجدي العمليات الحربية ضد الشمريين. وفي بداية كانون الثاني (يناير) 1925، توجه عبد العزيز نحو الشمال، على رأس قوات بألف وخمسمائة شخص، أغلبهم من سكان واحات العارض. وفيما بعد انضم أليه محاربون من مطير والعجمان وسبيع والسهول. وتوجه للقائه سعود بن صالح حاكم حائل، وكان معه، هو الآخر، ألف وخمسمائة شخص تقريباً. (حتى ذلك الحين قتل زامل السبهان). ويصعب اعتبار هذه الأرقام صحيحة، ولكنها تبين، على وجه التقريب، نطاق العمليات.

وكانت عند عبد العزيز عدة مدافع يقود بطاريتها الكابتن شكسبير، مع إن روايات أخرى تقول إن شكسبير كان مجرد مراقب. ويبدو إن أبن سعود ما كان يريد لإنجليزي أصلاً، ناهيك عن أنه إنجليزي رفض ارتداء الزي العربي، أن يتواجد ضمن قواته في

وقت انتشر فيه أكثر فأكثر تعصب الإخوان. وحاول الأمير إقناع المبعوث البريطاني أن يبقى في الزلفى، ولكن هذا الأخير أصر على المشاركة في الحملة، وربما كان يعتقد بأن القضية تمس شرفه، أو ربما كان ذلك لأجل التأكد من نوايا عبد العزيز والحيلولة دون تنصله عن القتال.

وفي أواخر كانون الثاني (يناير) 1951، تصادمت قوات الطرفين قرب بئر جراب شمالي الزلفى. وبدأت معركة استمرت عدة أيام. وتفيد بعض المعطيات إن الشخص الوحيد الذي قتل هو الكابتن شكسبير، وتفيد وعطيات أخرى إن الطرفين فقدا مائة شخص لكل منهما. وكان محاربو عبد العزيز المتأثرون بميول الإخوان تأثراً شديداً يطلقون صيحاتهم الحربية. أما الشمريون الذين يشكلون أساس قوات حاكم حائل فقد كانوا يقاتلون وسط صيحات قبيلتهم الحربية التي تطلقها فتيات حسناوات جالسات على الإبل بشعور مسترسلة. وهذه الوقائع ذات دلالة ليس فقط لأنها تشكل مشهداً صغيراً من حرب نشبت في أوربا واستخدمت فيها المدفعية والغازات السامة والطائرات ثم الدبابات. فبالنسبة للجزيرة العربية تجدر الإشارة إلى أن واقع انتقاء صيحات الحرب يبين اختلاف قاعدتي الأميرين: القاعدة القبلية لجبل شمر والقاعدة العربية العامة المستندة إلى التوحيد الوهابي عند الإخوان لإمارة نجد كان الشمريون يستنهضون بعضهم بعضاً بصيحات جد قبيلتهم، أما المحاربون

السعوديون فكانوا يستعينون بالجنة الموعودة في حالة الممات.

وانتهت المعركة بتعادل الطرفين. إلا أنها جعلت أمير الرياض طول عامين أو ثلاثة يرفض الدخول في حرب كبيرة.

تمكن شكسبير من أجراء مباحثات سياسية مع عبد العزيز. فوضعا مسودة معاهدة ألتزم الإنجليز بموجبها بضمان مواقع أمير الرياض في نجد والأحساء وحمايته من الهجمات بضمان مواقع أمير من جهة البحر والبر إذا ألتزم بمساعدة الحلفاء. وتخلى الإنجليز عن سياستهم القديمة لعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية. وألزمت المعاهدة أبن سعود بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية. وتبُين الدراسة التي أجراها ترولير لوثائق الارشيفات الإنجليزية إن عبد العزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية في الجزيرة العربية. فبعد مقارنة النص الأولي للمعاهدة الذي اقترحه الإنجليز مع التعديلات، تأكد ترولير من أن جميع اعتراضات أمير نجد تهدف إلى تقوية استقلاليته وتقليل تحكم بريطانيا بسياسته.

وعندما كان أبن سعود يتباحث مع شكسبير وصل إلى نجد مبعوثون أتراك كانوا ما يزالون يؤملون في اجتذاب الأمام للمشاركة في الجهاد ضد الكفرة.

وفي 26 كانون الأول (ديسمبر) 1915، وقع بيرسي كوكس مع عبد العزيز المعاهدة في جزيرة

دارين المقابلة للقطيف. ولذا سميت المعاهدة دارين أو معاهدة القطيف. وصادق على المعاهدة نائب ملك بريطانيا وحاكم الهند في تموز (يوليو) 1916. وقبيل توقيع المعاهدة بين بيرسي كوكس وعبد العزيز قدم الإنجليز، كما يقول فيلبي، هدية إلى أمير الرياض هي ألف بندقية و 20 ألف جنيه استرليني وسمحوا له بشراء ذخيرة حربية في البحرين.

واعترفت الحكومة البريطانية بأن سيادة عبد العزيز تشمل "نجد والأحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافئ التابعة لهذه المقاطعات" والتزمت "بحماية مصالحه ومصالح بلادة" بعد مشاورات مناسبة. ونصت المادة الثالثة من المعاهدة على ما يلي: " وأكد المادة الرابعة أن أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن الأراضي أو جزء منها ولا أن يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأي شكل ولا أن يقدمها على سبيل الامتياز إلى أي دولة أجنبية أخرى أو لأي أحد من رعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وتقول المادة السادسة: "يتعهد أبن سعود كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودين تحت حماية إنجلترا والذين لهم معاهدات معها". ولم يرد في المعاهدة شيئاً عن الحدود الغربية لنجد. وهكذا فرضت هذه المعاهدة في الواقع الحماية البريطانية على نجد وتوابعها. وصارت هذه المعاهدة جزءاً من **شبكة النفوذ البريطاني** التي أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من

الشرق الأدنى، وعلى أي حال، على الجزيرة العربيــة كلها بعد الحرب العالمية الأولى. وفيما بعـد، واعتبـاراً من عـــام 1916، اســـتلمت نجـــد، مقابـــل توقيـــع المعاهـــدة، معويـــة شـــهرية بمبلـــغ 5 آلاف جنيـــه إســـترليني، مـــع إرســـاليات معينـــة من الرشاشـــات والبنادق.

انتفاضـة العجمـان. كـان العجمـان طـوال خمســـين عامـــاً تقريبـــاً من أصـــعب القبائـــل على السـعوديين، وقـد خضـعوا للحكومـة المركزيـة على مضض. وعلى أثر معركة جـراب نهب العجمـان بعض القبائل التي كانت خاضعة لحاكم الكـويت. وقـد بعث حاكم الكويت رسالة إلى عبد العزيز يطلب فيهـا منـه معاقبة العجمان. وكانت تلـك هي الحجـة المنشـودة. إلا أن أمير الرياض ما كان يثق بحاكم الكـويت وكـان يخشـى أن تغـير الكـويت موقفهـا أثنـاء حملتـه على العجمان وتغدو ملجأ لهم.

وفي صـيف 1915، بوجـه عبـد العزيـز، قبـل أن يوقع الاتفاقيـة مـع الإنجليـز، إلى الأحسـاء على رأس فصـيل من 300 شـخص. وانضـم أليـه متطوعـون محليون. ولحق بالعجمان في أيار _ حزيـران (مـايو _ يونيو) 1915 عند جبل كـنزان، إلا أن العجمـان كـانوا مستعدين للمعركة فواجهوه بمقاومـة شـديدة. وفقـد النجديون حوالي 300 شخص بمن فيهم سعد شـقيق الأمير عبد العزيز، ثم أن الأمير نفسه جـرح في هـذه المعركة. وبعد هذا الاخفاق اضطر إلى الانسحاب إلى واحات الأحساء. وكـان الوضـع خطـيراً لدرجـة جعلتـه يلتجئ إلى حصن الكوت في الهفوف. وأخذ العجمـان

ينهبـون الواحـات المجـاورة وظلـوا يحاصـرون عبـد العزيز حولي ستة أشهر، حتى أيلول _ تشـرين الأول (سـبتمبر _ أكتـوبر) 1915. وسـاعدهم بعض الأمـراء المحليين و "العرايف".

ولم يسفر عن نتيجة عاجلة طلب المسـاعدة من شـيخ الكـويت. وبعـد تكـرار الطلب بعث مبـارك أبنـه سالم مـع مـائتي من المحـاربين لنجـدة عبـد العزيـز. وفي بداية العام التالي صـار عبـد العزيـز قـادراً على مغـادرة الهفـوف والبـدء بـالهجوم على العجمـان. وسرعان ما اختلف عبد العزيـز مـع سـالم بن مبـارك فعاد هـذا الأخـير إلى الكـويت. ووصـل العجمـان إلى الكـويت يلاحقهم أبن سـعود الـذي صـدقت شـكوكه. فقد التجأت هذه القبيلة إلى مبارك الذي آواهـا. وفي بداية كانون الثاني (يناير) 1916 توفي مبـارك وصـار شيخاً للكويت أبنه جابر الذي كانت له علاقـات طيبـة مع عبد العزيز منذ عهـد الغـزوات المشـتركة. وطـرد الشيخ الجديد العجمان من أراضي إمارتـه. فتحسـنت العلاقـات بين نجـد والكـويت لفـترة مـا. ولكن جـابر تـوفي في عـام 1917 فصـار أخـوه سـالم شـيخاً للكويت، وهو ضد أبن سعود.

وفي عـام 1916، وصـل سـعود بن صـالح من حائل على رأس قوات إلى القصيم وحـاول الاسـتيلاء على بريـدة ليسـتعيد سـيطرته على الأقـاليم، ولكنـه مني بالهزيمة. فـأن أمـارة جبـل شـمر كـانت تتـدهور رغم دعم العثمانيين.

انتفاضة الحجازيين ضد الأتراك. تنـاولت المطبوعات السوفييتية والغربية والعربية بشكل جيـد

موضوع الانتفاضة العربية بقيادة الشريف حسين ضد الإمبراطورية العثمانية والملابسات المرتبطة بتقسيم الإمبراطورية العثمانية وحنث الإنجليز بالوعود والالتزامات التي أخذوها على عاتقهم. لذا نكتفي هنا بسرد الأحداث بالخطوط العريضة مركزين على نجد التي نشأت فيها نواة المملكة العربية السعودية.

إن الاهتمام بلانتفاضة العربية ضد الأتراك في المطبوعات الغربية التاريخية والأدبية كبير إلى حد الإفراط، وذلك بالارتباط بشخصية الكولونيل لورنس الذي وصل من القاهرة بمثابة ضابط ارتباط إلى شريف مكة في تشرين الأول (أكتوبر) 1916. وبعد انتزاع مدن صغيرة من الأتراك على ساحل البحر الأحمر توجهت فصائل البدو إلى شمال الحجاز لتستولي على ميناء العقبة. وفي معركة هامة على مشارف العقبة، حيث حسم الأمر زعيم بدوي شجاع ماهر، كان لورنس في حالة جنونية يطلق النار بصورة عشوائية فقتل ناقته بإطلاقة في رأسها وسقط مغشياً عليه. ودحر البدو الفصيل التركي الصغير الذي سد عليهم الطريق إلى العقبة واستولى على المدينة. ثم اقتصرت عمليات الجيوش العربية على محاربة الأتراك شرقي نهر الأردن وعلى عمليات التفجير على السكة الحديدية والتي شارك فيها لورنس بنشاط. بديهي إن انتفاضة العرب ساعدت على انتصار الحلفاء وحقنت دماء الجنود البريطانيين. إلا أن العرب ضحوا بحياتهم في الواقع لكي يقتسم المستعمرون فيما بعد البلدان العربية. وكان لورنس يعرف هذه الحقيقة ومع ذلك دفع عرب

الجزيرة إلى الموت. وكتب لورنس يقـول: " بمـا أني لم أكن أحمق نهائيـاً فقـد رأيت إنـه إذا انتصـرنا نحن في الحـرب فـأن وعودنـا للعـرب سـتكون حـبراً على ورق. ولـو كنت مستشـاراً نزيهـاً لبعثت رجـالي إلى ديارهم ولما سمحت لهم بالمجازفة بحياتهم من أجـل هـذه القضـية. إلا أن الحماسـة العربيـة كـانت أداتنـا الرئيسية لنكسـب الحـرب في الشـرق. لـذلك أكـدتُ لهم إن إنجلـترا سـتبقى على العهـد نصـاً وروحـاً... ولكنـني، بـالطبع، كنت على الـدوام أشـعر بـالمرارة والخجل".

وتجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن اهتمام الحلفاء بشريف مكـة في الحـرب العالميـة الأولى كـان أكـثر بكثـير من اهتمـامهم بـأمير نجـد. وفي المنطقـة بين معان واليمن كان هناك حوالي أربع فرق تركيـة تقيـد الانتفاضة العربية.

كانت سياسة الشـريف حسـين مرتبطـة بنهـوض حركـة التحـرر الوطـني في المنـاطق العربيـة من الإمبراطورية العثمانية. وفي مطلع القـرن العشـرين ظهرت في الإمبراطورية العثمانية مختلف الجمعيـات والمنظمـات للـدفاع عن حقـوق العـرب . وكـان الكثـيرون من القومـيين العـرب في بدايـة القـرن العشـرين يتصـورون بسـذاجة إن بريطانيـا وفرنسـا يمكن أن تساعدا بنزاهـة العـرب في التحـرر من نـير الأتراك. وقـد خـابت آمـالهم بمـرارة، كمـا إن البعض منهم دفعوا حياتهم ثمناً لقصر نظرهم.

وقد تسلح أنصار تركيا الفتاة بالفكرة التركية القومية الشوفينية وأخذوا يتهمون العرب بالعمل لصالح الأجنبي.

وفي حزيران (يونيو) 1913، عُقد المؤتمر العربي في باريس حيث نوقشت حقوق العرب في الإمبراطورية العثمانية. وأصر المشاركون فيه، وأغلبهم من السوريين، على ضرورة الإصلاحات بموجب المبادئ اللامركزية. وكان أنصار تركيا الفتاة قلقين من حركة التحرر الوطني العربية فلجأوا إلى التنكيل. ومع إن الحكومة العثمانية أصدرت في (أغسطس) 1913 مرسوماً نص، فيما نص، على توسيع حقوق هيئات السلطة المحلية والتدريس باللغة العربية في الولايات التي يشكل العرب أغلبية سكانها، فأن كل هذه الإصلاحات ظلت حبراً على ورق.

وعندما أعلنت الحكومة العثمانية الجهاد في بداية الحرب حاولت أن تشرك شريف مكة به. وتواردت عليه الوسائل طالبة منه أن يعلن تأييده للجهاد. وكان الحسين يتملص من الجواب متحججاً بضعف مواقعه أمام ضربات الإنجليز وبخطر المجاعة في حالة محاصرة سواحل الحجاز. وفي البرقيات التي أرسلت إلى وزير الحربية التركي أنور باشا الذي كان في الواقع بمثابة رئيس الحكومة طالب حاكم مكة بالاعتراف باستقلال الحجاز والعفو عن القوميين العرب المسجونين. وما كان بوسع الحكومة التركية أن تلبي هذه المطالب.

وقبل بداية الحرب أقام حاكم مكة علاقات مع الإنجليز عن طريق القاهرة. وكان عبد الله أبن الشريف حسين، وهو عضو في المجلس العثماني، قد تقابل مرتين مع المندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كيتشنير (في 1913 وفي بداية 1914).

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عين اللورد كيتشنير وزيراً للحربية، وشغل هنري مكماهون منصبه في مصر. وفي كانون الثاني (يناير) 1915، بدأ ستورش سكرتير الشؤون الشرقية لدى المندوب السامي البريطاني في مصر وكلايتون مدير المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة بوضع خطة انتفاضة العرب إلى جانب دول الوفاق. وفي منتصف تشرين الأول (أكتوبر) وصل رسول من ستورس إلى مكة للاتصال بعبد الله. وبدأت مراسلات بين الشريف حسين والمندوب السامي البريطاني في مصر.

وفي تلك الأثناء كان القوميون العرب وخصوصاً من جمعيتي "الفتاة" و " العهد" يستعدون للانتفاضة في منطقتي سورية والعراق اللتين اجتاحتهما القلاقل المناوئة للأتراك. وطرحوا شرطاً للتعاون مع الإنجليز هو اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربية التي يجب أن تمتد حدودها عبر مرسين واطنة واورفا وماردين في الشمال، ولا يستثنى من "البلدان العربية" إلا عدن في الجنوب. ونص برنامجهم على توقيع اتفاقية دفاعية بين بريطانيا والدول العربية المستقلة المرتقبة وتقديم امتيازات اقتصادية

لبريطانيا واعترفوا بشريف مكة زعيماً للقوميين العرب.

وفي عام 1915 و1916، كشفت السلطات العثمانية في سورية تنظيمات عربية سرية وقبضت على زعمائها وأعدمتهم على مرأى من فيصل الذي كان عام 1916 في دمشق بمثابة أسير عند الأتراك في الواقع. ويبدو إن الأتراك عرفوا بصلتها مع فيصل، ولكنهم فضلوا عدم المساس به آنذاك. وفي عام 1916 جرى تدمير منظمات القوميين العرب في العراق. وأخذ أنصار تركيا الفتاة ينقلون إلى الجبهة الأوربية قواتهم التي فيها كثير من العرب، وصاروا يرسلون إلى البلدان العربية وحدات تركية خالصة.

استأنف الشريف حسين المباحثات مع الإنجليز في عام 1915. وفي تلك الأثناء كانت الحرب بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في الشرق الأدنى تجري بصورة غير موفقة. فقد أخفقت العمليات الهجومية في هليبولي وسيناء. وكان الأتراك يهددون عدن من اليمن. وكانت حالة فيلق العمليات في العراق صعبة. وعلق الحلفاء أهمية أكبر على انتفاضة العرب التي كان يتعين عليها أن تساعد جهود الحلفاء الحربية في الشرق الأدنى.

وجرى تبديل الرسائل بين الحسين ومكماهون، مما أسفر عن مجادلات شديدة. ففي الرسالة المؤرخة في 14 تموز (يوليو) 1915 طالب حاكم مكة بأن تعترف بريطانيا باستقلال البلدان العربية وتوافق على إعلان الخلافة العربية. وأشار إلى أن

الحكومة العربية تلتزم بأن تقـدم لبريطانيـا امتيـازات اقتصـــادية. ووردت في الرســـالة شـــروط التحـــالف العسكري وإلغـاء نظـام الاستسـلام ومسـائل أخـرى. وتتضح من نص الرسالة رغبة الحسين في أن يـتزعم بمساعدة الإنجليز الدولة العربية المسـتقلة الـتي من شأنها أن تضم جميع المحميات العربيـة (وقسـماً من الممتلكات الكرديـة والتركيـة الصـرف للإمبراطوريـة العثمانيــة) وكــذلك محميــات بريطانيــا في الجزيــرة العربية ما عدا مستعمرة عدن.

وكتب مكماهون في رســالته بتــاريخ 24 تشــرين الأول (أكتـــوبر) 1915 "لا يمكن القـــول أن منـــاطق ميرســـين والاســكندرونة وقســماً من ســورية الواقــع غـــربي منـــاطق دمشـــق وحمص وحلب هي منـــاطق عربيـــة صـــرف لـــذا يجب أن تســـتثنى من التحديـــد المقـترح وبشـرط هـذا التعـديل وبـدون إلحـاق ضـرر بالمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض الزعماء العرب نقبـل هـذا التحديـد. أمـا بخصـوص المنـاطق الواقعـة داخل الحدود المقترحـة والـتي تسـتطيع بريطانيـا أن تعمل فيها بحرية دون إلحاق ضرر بحليفها فرنسا فأنا مخول بإعطـائكم الالتزامـات التاليـة باسـم الحكومـة البريطانية...1) إن بريطانيا مسـتعدة، بشـرط إجـراء التعديلات المذكورة أعلاه، للاعتراف باستقلال العرب وحمايتـه في جميـع المنـاطق الواقعـة داخـل الحـدود المقترحة من قبل شـريف مكـة. 2) تضـمن بريطانيـا حماية العتبات المقدسة من أي عـدوان خـالجي...3) يفترض أن العرب قررا طلب النصح والمسـاعدة من بريطانيـــا وحـــدها وأن المستشـــارين والمـــوظفين

الأوروبيين الذين سيحتاجهم إيجاد نظام صائب للإدارة سيكونون من البريطانيين. 4) فيما يخص ولايتي بغداد والبصرة فأن العرب يعترفون بأن المصالح والمواقع البريطانية فيهما تتطلب إجراءات إدارية خاصة لحماية هاتين المنطقتين من العدوان الأجنبي".

إن التزامات بريطانيا للشريف حسين تحتمل معنيين وقد قيدت مطالب حاكم مكة الذي قضى عشرات السنين في جو الأستانة المشحون بالنشاط السياسي، جعلته يدرك تماما الحدود الحقيقية والمكنون الفعلي للوعود البريطانية، ولكن حتى أكثر التفسيرات تقييداً للرسالة البريطانية بدت له كافية لضمان مكانته المرتقبة كملك للعرب وكافية لإعلان الانتفاضة على الأتراك. فقد فسر الالتزامات البريطانية في بياناته العامة وفي مراسلاته مع الإنجليز وفي ميدان الدعاية تفسيراً موسعاً واعتبرها حاوية على الاعتراف باستقلال العرب برئاسته شخصياً كملك لهم، وربما كان يؤمل في انتزاع أمور من الإنجليز بالقوة أكثر مما وعدوا به.

ولكن حتى التفسير الحذر لرسالة مكماهون لم يكن الشريف وحاشيته من التصور بأن جميع وعود لندن كانت خداعاً وتضليلاً، وأن المفاوضات جارية بشأن التقسيم الاستعماري للبلدان العربية، تلك المفاوضات التي انتهت بمعاهدة سايكس ـ بيكو. فقد وقعت تلك المعاهدة قبل بضعة أسابيع من اندلاع الانتفاضة وشطبت التزامات مكماهون.

وعشية الانتفاضة حذر حاكم مكة ابنه فيصل فتمكن من التملص من الرقابة التركية مع موكب صغير.

وأعلن الحسين الاستقلال في 5 حزيران (يونيو) 1916، وفي 10 حزيران بدأ الانتفاضة خوفاً من ضربة وقائية يسددها الأتراك. وفي تموز (يوليو) استسلمت الحامية التركية في مكة، وتم بالتدريج الاستيلاء على سائر الدن الكبيرة في الحجاز، ما عدا المدينة المنورة التي يصل أليها فرع من سكة حديد الشام. وظهرت في جدة بعثتا اتصال بريطانية برئاسة الكولونيل ويلسون وفرنسية برئاسة بريمون.

وفي أواخر تشرين الأول (أكتوبر) 1916، أعلن الشريف حسين أنه ملك البلدان العربية. إلا أن أحداً خارج الحجاز لم يعترف بالحسين ملكاً لجميع العرب. وفي كانون الثاني (يناير) 1917، أبلغت الحكومتان البريطانية والفرنسية الحسين بأنهما تعترفان به "ملكاً على الحجاز".

وفي أواخر عام 1916، انضوى تحت لواء الحسين في الحجاز 30 ـ 40 ألف محارب، ولكنه لم يكن لديهم غير 10 آلاف بندقية. وفي البداية أوكلت مهمة تنظيم العمليات الحربية لعزيز المصري وهو ضابط من مصر، ثم لجعفر العسكري غدا فيما بعد رئيساً لوزراء في العراق عدة مرات. إلا أن الحسين وقادته العسكريين فضلوا الأساليب التقليدية لخوض العمليات الحربية على نصائح الضباط المتدربين في الجيوش النظامية.

وفي بداية عام 1917، أحتل الأسطول البريطاني وفصيل حجازي بقيادة فيصل آخر موضع للأتراك على ساحل الحجاز وهو الوجه. وفي مطلع تموز (يوليو) 1917، استولى الثائرون العرب على العقبة. واجتذبت النقود الإنجليزية التي وزعها الحسين وأبناؤه على البدو عدداً متزايداً من الأنصار للانتفاضة.

وعلى أطراف البادية، في أراضي الأردن حالياً، بدأت القوات العربية زحفها نحو دمشق، الأمر الذي سهل عملية الجيش البريطاني التي قادها اللنبي في فلسطين. واقتربت نهاية الإمبراطورية العثمانية. وأخذ العرب يفرون من القوات التركية.

وعندما نشرت روسيا السوفييتية بعد ثورة أكتوبر المعاهدات القيصرية السرية (ومن ضمن ما نشر معاهدة سايكس ـ بيكو بشأن تقسيم الأقطار العربية)، سلم الأتراك إلى الشريف حسين نص هذه المعاهدة. فاتصل الحسين بالإنجليز طالبا رأيهم في صحة هذه المعاهدة فاستلم منهم "تأكيدات صادقة" بأن هذه المعاهدة مزورة. وصدق الشريف حسين الإنجليز أو تظاهر بأنه يصدقهم وواصل العماليات الحربية ضد الأتراك. وكان ذلك يعني أن الدماء العربية تراق في الواقع لإغراض ضد العرب. إلا أن حكومة الحجاز كانت معتمدة كلياً على المساعدات العسكرية والمالية والغذائية من الإنجليز وكانت لا تتمتع بحرية العمل.

وفي المرحلة الختامية من الحرب وبعدها غدا واضحاً أن الإنجليز لا ينوون تنفيذ الوعود المائعة التي

قـدموها للحسـين والقومـيين العـرب، بـل راحـوا بعمقون المشكلة بالتقسيم السافر للأراضـي العربيـة وبوعد بلفور الصـادر في 2 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1917 بشأن تأسيس "موطن" لليهود في فلسـطين. وتـأزمت العلاقـات بين الحسـين والإنجلـيز. إلا أن بريطانيـا ثبتت "مصـالحها الخاصـة" في الجزيـرة العربية من خلال مؤتمر صلح فرساي.

وفي 30 أيلول (سـبتمبر) 1918، دخلت جماعـة من المحاربين من قبيلة عنزة إلى دمشق وجالت في ساحتها الرئيسية حاملة العلم العربي. وبعد يوم كامل دخلت وحدات اللنبي الإنجليزية المدينة وصـار فيصـل ملكاً مؤقتاً لسورية حيث تشكلت حكومة عربية. لكن الفرنسـيين طـردوا فيصـل من دمشـق بعـد عـامين واغرقوا الحركة التحررية لعرب سورية بالدماء.

عبد العزيز وانتفاضة الحجـاز. بعـد بدايـة الانتفاضة المناهضة للأتراك في الحجاز كانت المهمـة الرئيسـية للحكومـة البريطانيـة في شـبة الجزيـرة العربيـة هي حث عبـد العزيـز على الانضـمام إلى الشريف حسين، أو على الأقل، الحيلولة دون اشتداد التناقضـات بينهمـا. إلا أن عبـد العزيـز لم يكن منـذ البدايـة يثـق بالشـريف حسـين. وعنـدما علم أمـير الرياض من بيرسي كوكس بنبأ الانتفاضة في الحجـاز في حزيران (يونيو) 1916 أعرب عن مخاوفه من أن رغبة الحسين في قيادة العرب يمكن أن تخلق وضعاً غير مقبول إطلاقاً بالنسبة له.

وبعـد بدايـة انتفاضـة الحسـين كـان النجـديون يساعدون الأتـراك تـارة ويسـاعدون الحجـازيين تـارة

أخـــرى، كمـــا يقـــول المـــؤرخ الـــزركلي المـــوالي للسعوديين.

وكتب موسيل يقول أن فصائل عبد العزيز قامت بغـزوات على القبائـل الخاضـعة للشـريف حسـين وخصوصاً في المنـاطق الحدوديـة. وأقـام أبن سـعود صـلات مـع الـوالي العثمـاني والقائـد العـام للقـوات التركيـة في أطـراف المدينـة المنـورة. وفي أواخـر أيلول (سبتمبر) 1917، توجه وفد نجدي إلى دمشـق لمناقشة مختلف القضايا مع السلطات العثمانية، مـع أن عبـد العزيـز نفسـه زار الإنجلـيز في البصـرة في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر).

ويبـدو أن عبـد العزيـز أحس بالجهـة ذات الكفـة الراجحـة، فصـادر 700 جمـل اشـتراها أحـد التجـار الأثريـاء لأجـل الأتـراك وسـلمها إلى الإنجلـيز في الكـويت. ولاحـظ الشـريف حسـين أن الجهـود البريطانية عـاجزة عن وقـف منافسـة النجـدي فبعث رسولاً إلى عبد العزيز يحمل ذهباً ودعوة للعمـل ضـد العدو المشترك (ضد الأتراك).

وبعـد انـدلاع الانتفاضـة في الحجـاز بـدأت إمـارة جبل شمر تستلم من الأتراك أسـلحة. وعنـدما أدراك عبـد العزيـز أن القـدرة العسـكرية لحائـل بُعثت من جديد أخذ يسعى إلى تحسين العلاقـات مـع الشـريف حسـين، إلا أن السـبب الرئيسـي في تغـير موقفـه العدائي من الحجاز هو الضغط البريطاني.

وفي 20 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1916، عقـد بيرسـي كـوكس في الكـويت اجتماعـاً حضـره عبـد العزيز وشيخ الكـويت جـابر وشـيخ المحمـرة خزعـل

وامتدح أبن سعود أعمال الشريف حسين وأكد على ضرورة تعاون جميع العرب المخلصين معه للدفاع عن القضية العربية. ولكن الأمير، كما هي العادة، لم يعد بتقديم دعم ملموس. واقنع الإنجليز الحسين بإرسال برقية تحية إلى الحاضرين في اجتماع الكويت.

وقرر عبد العزيز أثناء هذا الاجتماع التزام جانب بريطانيا كلياً. واستلم، آنذاك، مع شيح الكويت جابر الوسام البريطاني. وعند ذلك قدم عبد العزيز إلى الإنجليز بصورة تظاهرية الـ 700 جمل التي كانت مخصصة للأتراك.

وبعد اجتماع الكويت زار أبن سعود البصرة حيث استعرض الإنجليز أمامه الأسلحة الحديثة ورأى الطائرات لأول مرة. ولم يبد الأمير إعجابه الشديد فهو قليل الكلام، ولكن الآليات الحديثة، كما هو المفروض، قد تركت لديه انطباعا" عميقاً. وفي تلك الفترة تم الاتفاق على المعونة الشهرية لأمير الرياض بمبلغ 5 آلاف جنيه إسترليني.

وبالإضافة إلى المعونة المالية عرض بيرسي كوكس على أمير نجد 4 رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع ذخيرتها، ورداً على ذلك وعد عبد العزيز بتجنيد 4 آلاف شخص ضد حائل.

ومع ذلك تأكد الإنجليز من عدم إمكان دفع أمير الرياض إلى العمليات المباشرة ضد جبل شمر، وكانوا يؤملون، على الأقل، في أن ترغمه المعاهدة الموقعة معه على فرض الحصار على الأتراك في الحجاز وسورية. إلا أن أمير الرياض،شأنه شأن

الحكام الآخرين، لم يعيقوا حتى نهاية الحرب التهريب الذي كانت ترد عائدات منه إلى الخزينة. وذات مرة نقلت قافلة من 3 آلاف جمل بضائع إلى الحجاز فظهرت بسبب ذلك تعقيدات في علاقات أبن سعود مع الإنجليز.

وعندما أعلن الشريف حسين أنه ملك العرب أعرب أمير الرياض عن احتجاجه وطالب برسم الحدود بين نجد والحجاز والاتفاق على عائدية بدو الحدود.

واعتباراً من عام 1917، حاول بيرس كوكس أن يصرف أنظار أبن سعود عن أعمال الحلفاء في الحجاز، وظل يحرضه على مهاجمة إمارة جبل شمر التي كانت تقلق القوات الإنكلوهندية في وادي الرافدين من جهة الجناح. (وفي تلك السنة صار بيرسي كوكس معتمداً مدنياً لبريطانيا في بغداد لدى فيلق العمليات الإنكلوهندي). وحاول الإنجليز من جديد أن يوقفوا التهريب عبر بوادي الجزيرة ولكن دون جدوى. وكان سيل البضائع يجري كذلك من العراق الذي ترابط فيه قواتهم، ومن موانئ الخليج، بما فيها الكويت. ثم كانت القوافل تتجه إلى القصيم أو جبل شمر، ومن هناك إلى المدينة المنورة أو دمشق.

وفي خريف 1917، كانت فصائل الحسين تقاتل بفتور. فطالب المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر وينهايت بممارسة ضغط أشد على أبن سعود لجعله يقوم بعمليات أنشط ضد جبل شمر. وتوجه ستورس مبعوث وينهايت إلى بغداد حيث

نــاقش الموقــف مــع بيرســي كــوكس. وعنــدما زار ستورس الرياض أصيب بضـربة شـمس فأضـطر إلى مغــادرة الجزيــرة العربيــة. وفي تشــرين الثــاني (نوفمبر) 1917، نـزل ممثلـو بيرسـي كـوكس وعلى رأسهم الكولونيـل هـاملتون في العقيـر وتوجهـوا إلى الرياض ليناقشوا الوضع مع الأمير في أواخر الشهر.

وكان في هذه البعثـة فيلـبي الـذي غـدا من أكـبر دارسي الجزيرة العربية وربـط حياتـه فيمـا بعـد بعبـد العزيز والعربية السعودية. وغدا مندوباً دائماً لبريطانيا عند أمير الرياض وكتب فيلبي نفسه إن مهمته كـانت دفــع عبــد العزيــز لشــن الحملــة على جبــل شــمر والحيلولة دون تأزم العلاقات مع الحجاز والعثور على حــل لمشــكلة العجمــان. ووعــد عبــد العزيــز ببــدء العمليات النشيطة إذا قدموا له السلاح.

ولكن الإنجليز في نيسـان (إبريـل) 1918 عنـدما تم احتلال القدس، لم يعودوا بحاجة إلى تصفية إمارة جبل شمر، بل صاروا يرفضون إرسال ما طلبه فيلبي في كانون الأول (ديسمبر) 1917، فخابت آمـال عبـد العزيز.

وفي 5 آب (أغســطس) 1918، بــدأت الحملــة على جبل شمر، وشارك فيها فيلـبي الـذي كتب عنهـا بحثـاً مفصـلاً. وفي أيلـول (سـبتمبر) 1918، تحـرك الإخــوان رافعين رايــاتهم نحــو حائــل. وكــان عنــد النجديين حوالي 5 آلاف شخص. وفي تلك الأثناء تأزم الوضع على الحدود مع الحجاز بسبب واحـة الخرمـة. وعقد الحسين صلحاً مع حائل وأقلـق ذلـك كلـه أمـير نجد. وعندما كان الشـمريون على وشـك الاستسـلام

قرر الإنجليز إن انتصار أبن سعود في حائل سيثير رد فعل سلبياً عند الحسين فأمروا الحملة بأن تعود. واستشاط عبد العزيز غضباً. إلا أن هذه الحملة عادت عليه بغنيمة كبيرة هي ألف وخمسمائة جمل وآلاف الأغنام و10 آلاف خرطوشة. ولكنه أدرك إن الإنجليز لم تعد لهم مصلحة في أعماله ضد حائل ناهيك عن احتلاله جبل شمر.

وأثناء حصار الهاشميين للمدينة المنورة الذي استمر من آذار (مارس) 1917 حتى تشرين الأول (أكتوبر) 1918 حدث في معسكر عبد الله بن الحسين خلاف بين أحد شيوخ عتيبة وبين أمير واحة الخرمة الشريف خالد بن منصور بن لؤي. وتعرض هذا الأخير لإهانة أثارت غضبه.

وفي خريف 1917 أدت مجموعة كبيرة من النجديين فريضة الحج، وقابلهم الحسين بالتكريم. وأصر النجديون على تعين حدود رسمية بين الدولتين. ولكن الملك حسين تملص من الجواب وربما أنتهز خالد فرصة الحج ليجري اتصالات مع النجديين ويتبنى "التوحيد" الوهابي. وقد لاحظ الحسين ذلك. وبعد فترة قصيرة طرد خالد من الخرمة القاضي الذي بعثه شريف مكة. وعندما طلب الشريف من خالد أن يحضر لتوضيح هذا التصرف رفض خالد الحضور وقد أحس بأن حياته في خطر.

وفي عام 1918، بعث الملك حسين فصيلاً للاستيلاء على الخرمة، إلا أن عبد العزيز تمكن آنذاك من إرسال الإخوان لنجدة خالد، لذا دمروا بجهود متضافرة القوات التي جاءت من مكة عن بكرة أبيها.

وكان ذلك تحدياً سافراً للشريف حسين. إلا إن خالد قد تقوى آنذاك وأخذ يقوم بغارات على المناطق الخاضعة للحسين. وكانت المدينة المنورة ما تزال في أيدي الأتراك، وكان في الواقع ذلك العمل تعاوناً مع الأتراك . وأخيراً استسلمت حامية المدينة المنورة في تشرين الثاني (نوفمبر)1918، وانتهت الحرب العالمية الأولى بالنسبة للجزيرة العربية.

وجرت الأحداث لاحقاً في تربة والخرمة الواقعتين بين الحجاز ونجد وكان في تربة حوالي ثلاثة آلاف نسمة، وعدد من الأشراف يمتلكون كثيراً من أرضها. كانت هذه الواحة تعتبر بوابة الطائف من جهة نجد. أما الخرمة فكان فيها حوالي 5 آلاف نسمة بعضهم من قبيلة سبيع وبعضهم من العبيد والمعتوقين. كما كانت فيها بضع عشرات من الأشراف.

الأحداث في اليمن وعسير. بعد استسلام الإمبراطورية العثمانية ظلت في الجزيرة العربية خمس دول مستقلة في الواقع هي الحجاز ونجد وجبل شمر وعسير واليمن. وكان مستقبلها مرتبطة بالصراع فيما بينها حيث ينتصر الأقوى، وهو إمارة نجد، وكذلك بسياسة بريطانيا.وكتب اللورد ميلنر وزير المستعمرات البريطاني في 16 أيار (مايو) 1919 يقول "كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدأً أساسياً دائماً في سياستنا الشرقية. ولكن ما نعنيه بذلك هو إن الجزيرة العربية رغم أنها ستكون مستقلة بحد ذاتها، فأنها ستبقى خارج نطاق

الدسائس السياسية الأوربية وداخل مجال النفوذ البريطاني، وبعبارة أخرى فأن ذلك يعني أن حكامها المستقلين لن تكون لديهم معاهدات أجنبية مع أحد سِوانا".

ولكن قبل أن نعود إلى الأحداث الأساسية في السياسة في الجزيرة العربية والتي صارت تعتمد أكثر فأكثر على التنافس بين نجد والحجاز ووجود بريطانيا كمحكم بينهما يتعين أن نتناول الوضع في اليمن وعسير.

ظل إمام اليمن في الحرب العالمية الأولى موالياً للأتراك، ومن أسباب ذلك عدم رغبته في الوقوع في تبعية للإنجليز وكذلك مخاوفه من الأمير محمد الإدريسي الذي بسط سيطرته على جنوب عسير. وكان الإدريسي ضد الأتراك فقد وقع معاهدة مع المعتمد البريطاني في عدن في أيار (مايو) 1915. وحاول على رأس قوات من 12 ألف محارب أن يستولي على اللحية ولكن دون جدوى. إلا أنه تمكن من الاستيلاء على قسم كبير من شمال تهامة، أما اللحية فقد استولى عليها الأسطول البريطاني بواسطة فصيل من أبناء عسير في مطلع عام 1917. وظل الحسن آل عايض شيخ القسم الشمالي من عسير (وعاصمته أبها) حتى حزيران (يونيو) 1916 محايداً ولكنه بدأ عمليات حربية محدودة ضد الأتراك فيما بعد.

وفي معرض تقييم الوضع في جنوب الجزيرة العربية في أواخر الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، نشير إلى أن اليمن وعسير كانتا مشغولتين

بشؤونهما الداخلية فلم تمارسا تأثيراً يذكر على نتيجة الصراع بين نجد والحجاز.

معركة تربة. كان الحلفاء المنتصرون يتصارعون في المؤتمرات السلمية من أجل الانتداب والامتيازات في الشرق الأدنى دون أن يهتموا بكيفية تطور الأحداث في شبه الجزيرة العربية. وكانت الموجه المرعبة من "الحمى الاسبانيولية" في شتاء 1918 _ 1919 قد حصدت ضحايا في الجزيرة العربية أكثر ممن قتلوا في العمليات الحربية. وكان من بين الضحايا تركي الابن البكر لعبد العزيز واثنان من أبنائه الآخرين وكذلك زوجته الكبرى جوهرة. إلا أن هذا الوباء لم يحل دون نشوب نزاع جديد على الحدود بين نجد والحجاز.

وأرسل الملك حسين شاكر بن زيد على رأس فصيل من 1200 بدوي و 500 من مشاة القوات النظامية للاستيلاء على الخرمة: ولكن قواته منيت بالهزيمة تلو الهزيمة. وفي مطلع عام 1919، أرسل حاكم مكة قوات أبنه عبد الله البالغ عددها 8 آلاف لاحتلال الخرمة. وفي تلك اللحظة لم يكن واضحاً هل أن الصدام بين الحجاز ونجد نافع للإنجليز. إلا أن سلوك الملك حسين واستياءه من السياسة البريطانية وتذكيره للإنجليز. بأنهم خرقوا التزاماتهم وادعاءه بلقب ملك العرب كافة، لعل ذلك كله هو ما دفع لندن للتفكير بإيقاف الشريف عند حده. صحيح أن الإنجليز قد لا يكونون يعرفون آنذاك القدرة القتالية الفعلية للنجديين. فقد كتب فيلبي أن جميع الحاضرين تقريباً في اجتماع عقده اللورد كيرزون

في آذار (مـارس) 1919، أعربـوا عن رأيهم بهزيمـة الوهـابيون لا محالـة، وتقـرر آنـذاك تأييـد ادعـاءات الحجاز بواحة الخرمة.

وفي أواخر أيار (مايو) 1919، استولى عبـد اللـه على واحة تربة وسمح لجنوده بنهبها. وفي تلك الأثناء اجتمعت على مقربـة من تربـة وحـدات الأخـوان من الغطغط بقيادة سلطان بن بجاد وفصيل محاربين من قحطان بقيادة حمود بن عمر.

ووصل إلى تلك البقعة خالد بن لؤي من الخرمه. وتفيد المعطيـات النجديـة أنـه كـان لـديهم حـوالي 4 آلاف شخص. وتحدث رسل عبد العزيـز الـذين عـادوا من تربة عن حـوادث فضـيعة للنهب والقتـل والعنـف قام بها جيش عبد الله، وزعمـوا أن عبـد اللـه تباهى بأنه سيبدأ صيام رمضان في الرياض وسـيحتفل بعيـد الفطر في الأحساء.

وهجم الأخوان على قوات عبد اللـه ليلاً من ثلاث جهات وأبادوها عن بكرة أبيها. واعترف عبد اللـه بـأن ثلاثة فقط ظلوا على قيـد الحيـاة من الـ 500 جنـدي النظـامي الـذين كـانوا عنـده، ولم يسـلم إلا 150 شخصاً من الـ 850 حجازياً الذين كانوا معـه. ووقعت في أيـدي الأخـوان جميـع الأسـلحة والـذخيرة تقريبـاً. ومع أن الأخوان شاركوا سابقاً في بعض غزوات عبـد العزيز فإن هذه المعركة كانت أول اختبار في عمليـة قتالية جدية. وبينت المعركة أن لـدى أمـير نجـد قـوة قادرة على القتال.

ونشأ وضع خطير بالنسبة للحجازيين.

وصل عبد العزيز إلى تربة في بداية تموز (يوليو) 1919 مع إمدادات كبيرة من 12 ألف شخص، مع أن هذا الرقم كان مبالغاً فيه على ما يبدو، ولكن رسولاً وصل من جدة في 4 تموز 1919 يحمل رسالة من المعتمد البريطاني: "أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا إلى نجد حالما يصل إلى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود، وإذا أبيتم الرجوع بعد الإطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبيننا ملغية وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية".. وطلب الإنجليز من عبد العزيز أن لا يتحرك نحو الطائف.

وعندما استلم أمير الرياض هذا الإنذار أدرك بأنه تمادى كثيراً، فعاد إلى الرياض في الحال. وأمر الأخوان بأن يغادروا الواحات في هذه المنطقة واستبدلهم بفصيل وصل من منطقة حائل، كما أعاد أمير تربة السابق إلى منصبه.

وعزز الإنجليز إنذارهم بإرسال طائرات وجنود إلى جدة. وكانوا آنذاك يعتقدون، على ما يبدو، بأن الملك حسين قد تلقى درساً وما كانوا ينوون إطلاق العنان لأمير نجد الذي يصعب عليهم ضبط تصرفاته.

ولقد خضع أبن سعود لمطالب الإنجليز، ولكن دحر الحجازيين السهل نسبياً بين له مدى القوة التي يمتلكها، ولذا صار يعتقد بأن الحجاز سيكون ملكاً له في آخر المطاف. ويمكن اعتبار معركة تربة نهاية

التـاريخ الحـديث وبدايـة التـاريخ المعاصـر للجزيـرة العربية.

بعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الأولى ظلت نجـد مجـرد دولـة من عـدة دولـة في الجزيـرة العربيـة. وظلت قائمة أمارة جبل شمر، وكـانت الكـويت تحت الحمايـة البريطانيـة، ولم تكن عسـير قـد ضُـمت إلى نجد بعد. وكانت الحجاز تدعي بالتهام الجزيرة العربية كلهـا مـع أنهـا لا تمتلـك القـوة اللازمـة لـذلك. وعلى أشـــلاء الإمبراطوريـــة العثمانيـــة وزعت الـــدول الاسـتعمارية الأوربيـة أراضـي الإنتـداب فيمـا بينهـا. وكتب لويد جورج يقول: "إن أحداً ما لا ينـوي إرسـال قوات أجنبيـة لاحتلال جـزء مـا من الجزيـرة العربيـة. فهي بلد فقير جداً لا يستحق أن تحتله دولة ضـارية". ولم يتبـادر إلى ذهن أحـد أن في هـذا البلـد يمكن أن توجد أحتياطيات خيالية من البترول.

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبتأثير نسبي من ثورة أكتوبر في روسيا، شهد العديد من البلدان العربية حركات التحرر الوطني من مختلف التلاوين. ورغم تنوع القوى التي شاركت في تلك الحركات فقد كانت موجهة ضد الأنظمة الاستعمارية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا وضد التقسيم الإمبريالي للبلدان العربية ونظام الانتداب الذي ابتدعته عصبة الأمم، وكانت انتفاضات 1919 و 1921 في مصر و 1918 ـ 1920 في العراق والحركة الجماهيرية الشعبية المناهضة للاستعمار في 1918 ـ 1924 في سورية ولبنان والانتفاضة السورية في 1925 _ 1927 والانتفاضة في عدن

عام 1919 ـ كل تلك الأحداث كان لها تأثير مباشر وغير مباشر على الجزيرة العربية. وغدا واضحاً أن زمان النظام الاستعماري بأشكاله القديمة قد ولى بالتدريج.

الجزء الثاني

الفصل الحادي عشر

توحيد أراضي الجزيرة من حول نجد (1918 _ 1926)

أصبح وضع أمارة نجد بعد الحرب العالمية الأولى أكثر تعقيداً مما كان عليه عشية نشوبها. فلئن كان بوسع أمير الرياض قبل الحرب أن يستثمر التناقضات بين الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى، فأن الإنجليز غدوا بعد الحرب القوة الفعلية الوحيدة في المنطقة. وتيقن عبد العزيز من ذلك حينما منعوه من مهاجمة الحجاز وجبل شمر. ولكن بريطانيا، من جهة أخرى، تحاشت التدخل مباشرة في شؤون شبه الجزيرة العربية وسعت إلى التملص من الاتفاق على حكامها.

العلاقات بين نجد والكويت. أحدث ارتفاع شأن إمارة نجد قلقاً لدى حاكم الكويت، الذي شعر بخطر مباشر يهدده بفعل انضمام عشيرة مطير التي كانت الكويت هدفاً تقليدياً لهجماتها إلى حركة الإخوان. وتحت ستار حماية دعوة " التوحيد" ونشرها، اعتبر مطير أن من حقهم نهب الكويت، بلد " المشركين" المتعاون مع الإنجليز.

في عام 1915، ساعد الكويتيون قبيلة العجمان على تفادي الهلاك بإيوائهم أبناء هذه القبيلة. وانصاع العجمان آنذاك عبد العزيز خلافاً لإرادتهم. فقد احتوتهم حركة الإخوان، ولكن عبد العزيز كان يعتزم تقسيم العشيرة إلى زهاء عشرين هجرة صغيرة مبعثرة في المناطق الداخلية من نجد وعلى الرغم من أن العجمان لم يعارضوا حركة الإخوان، فأنهم رفضوا رفضاً قاطعاً الإقامة في مناطق مبعثرة خارج ديارهم في منطقة الأحساء.

وكان تدهور العلاقات بين الإنجليز والكويتيين عوناً غير منتظر للنجديين. إذ أكتشف الإنجليز إن تموين الأتراك في الشام كان يجري جزئياً، عن طريق الكويت ويحصل شيخها سالم على دخل من التهريب(2).

وقد كان حاكم الكويت سالم على علم بالاتفاقية البريطانية ـ التركية لعام 1913 التي ترسم حدود الكويت في منطقة جبل منيف(3). ولكنه لم يعرف بأن المعاهدة البريطانية النجدية لعام 1915 لم ترسم حدود الكويت(4). (كان يدعي بجزء كبير من الأحساء).

وقد أقام عبد العزيز هجر إخوانية على حدود الكويت، ولكن ضمن جدود ديرة مطير، فاحتج الشيخ سالم وجرى اشتباك بين الكويتيين والإخوان الذين كانوا بإمرة فيصل الدويش، وانتهى بهزيمة الكويتيين(5).

وإزاء الخطر الداهم سأل الشيخ سالم الإنجليز أن يعينوه، ولكن هؤلاء طالبوا بأن يوافق الطرفان المتخاصمان سلفاً على حكم الإنجليز كقضاة(6).

وفي أيلول (سبتمبر) عام 1920، وافق الأمراء على مطالب الإنجليز، ولكن الاشتباكات استمرت. وعندها طلب الكويتيون النجدة من قبائل شمر، فوصلت قوة من حائل. أوعز ابن سعود لفيصل الدويش بالتحرك نحو الكويت. وفي أيلول (سبتمبر) عام 1920، وصل إخوانيون من قبيلة مطير يقارب عددهم الأربعة آلاف إلى مكان يبعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الكويت(7). وفي الشهر نفسه أجرى بيرسي كوكس مفاوضات مع عبد العزيز في العقير(8). في محاولة لحل نزاعات الحدود حلاً يرضي الإنجليز. ولكن فيصل هاجم في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1920، في موقع قرب الجهراء، القوات الكويتية الشمرية وهزمها، رغم تكبده خسائر كبيرة. واحتمى الشيخ سالم بقصر له قرب الجهراء ودخل مفاوضات لكسب الوقت، وفي الوقت نفسه طلب النجدة من الإنجليز. وفي الشهر نفسه قرر الإنجليز إغاثته فأرسلوا سفناً إلى سواحل الكويت وهددوا بالتدخل في النزاع إلى جانب الكويت، مما اضطر فيصل إلى الانسحاب(9).

في أواخر شباط (فبراير) عام 1921 باغتت المنية الشيخ سالم. وقد وقع اختيار أعيان الكويت، الذين انهكتهم حرب هم في غنى عنها، على أحمد بن جابر الصباح، وهو الابن الأكبر للشيخ جابر بن مبارك الصباح الراحل. وكان أحمد ذا شعبية ويؤيد التوصل

إلى حل مقبول مع أمير الرياض(10). وفي تلك الأثناء كان يجري مفاوضات مع أبن سعود في نجد.

أدرك عبد العزيز أن الإنجليز لن يتنازلوا له عن الكويت. وفي ذلك الحين كان اهتمامه منصرفاً إلى الحملة المرتقبة على حائل، وإمكانية إحكام سيطرته على جبل شمر بأسره.

إلحاق جبل شمر. خلال العامين المنصرمين بلغت النزاعات بين آل سبهان وآل رشيد درجة الغليان. وفي عام 1919، فرَّ سعود آل سبهان إلى الزبير، فانتقل منصب الوزير الذي كان يشغله إلى المدعو عقاب بن عدل الذي شرع يبحث عن واصلة بعبد العزيز(11). وفي أواخر آذار (مارس) عام 1920 لقي أمير شمر سعود بن عبد العزيز مصرعه على يد أبن عمه عبد الله بن طلال الذي قتله فيما بعد أحد خدام سعود. وبالتالي آلت الأمارة إلى عبد الله بن متعب بن عبد العزيز(12).

تلقى أمير نجد معلومات تفيد بوجود كثير من أنصار أسرة شريف مكة في حاشية آل رشيد، وصار خطر اتحاد خصوم آل سعود القدامى خطراً فعلياً في الظروف التي كان أبانها الإنجليز يعدون فيصل لتولي عرش العراق(13). في آذار ـ نيسان (مارس ـ إبريل) عام 1921، وأثر عقد الصلح مع ممثل الكويت، قرر عبد العزيز تجهيز حملة على حائل. وفي تلك الأثناء نكبت المناطق الوسطى من الجزيرة مرة أخرى في الجفاف الشديد وارتفعت الأسعار، مما زاد من مصاعب جبل شمر(14).

في نيسان ـ أيار (إبريل _ مايو) عام 1921، ألحقت فصائل بن سعود الهزيمة بقبائل شمر وأصبحت عند جدران حائل، فبدأ حصار مديد. قرر حاكم جبل شمر عبد الله بن متعب بن عبد العزيز الاحتماء وراء جدران حائل المنيعة، ولكن حينما أوشكت المئونة في المدينة على النفاد، أرسل وفداً للتفاوض وكان مستعداً للقبول بأن تقتصر أمارة جبل شمر على مدينة حائل وأراضي قبيلة شمر، ولكن أبن سعود الذي شعر بقوته، طالب بالاستسلام الكامل(15).

استمرت الاشتباكات بين الطرفين طوال عدة أشهر، دونما نتائج تذكر. ورغم أن سكان حائل تمكنوا من الحصول على قدر من المئونة يكفي لمقاومة الحصار، إلا إن الصراع الداخلي في المدينة استمر مستعراً. وقد خلع أعيان حائل عبد الله بن متعب ونصبوا مكانه محمد بن طلال (شقيق عبد الله بن طلال) بعد إطلاق سراحه من السجن، واستجار عبد اله بن متعب بأمير الرياض. وحتى ذلك الحين لم يسفر الحصار عن شيء.

في تلك الأثناء، وضع ونستون تشرشل في اجتماع بالقاهرة بنية الشرق الأوسط لفترة ما بعد الحرب. قرر الإنجليز تنصيب فيصل، أبن الشريف حسين، ملكاً على العراق، وسرعان ما توج. كما قرروا إسناد إمارة شرقي الأردن لعبد الله. وأدرك أبن سعود إن عليه الإسراع، وإلا فإن جبل شمر سوف يفلت منه. قبل بدء الحملة الجديدة على حائل عقد عبد العزيز مجلساً لأعيان وشيوخ القبائل وعلماء

الدين حيث تقرر أن يخلع على الأمـير لقب "سـلطان نجد والأراضي الملحقة" لرفع الهيبة الدولية للبلد.

في آب (أغسطس) عام 1921، عاد عبد العزيـز إلى مواقع قرب حائـل على رأس قـوة مؤلفـة، وفـق بعض المصـادر، من زهـاء عشـرة آلاف شـخص من ضـمنهم الاخوانيـون بزعامـة فيصـل الـدويش(16). أصـبحت أوضـاع المحاصـرين ميئوسـاً منهـا، وبعـد شهرين من الحصار أوفد أعيان المدينة أحد أفـراد آل سـبهان للتفـاوض ثم اتفقـوا على الاستسـلام.وفي الوقت المحدد شرعت أبواب حائل أمـام قـوات عبـد العزيـز. لاذ أبن طلال بالقلعـة وأرسـل نـداء اسـتغاثة إلى السـلطات البريطانيـة في العـراق وإلى الملـك فيصـل، ولكن النجـدة لم تصـل وبعـد فـترة استسـلم بشرط أن تصان حياتـه. أقـام أبن طلال في الريـاض أسيراً مكرماً وزوج أبنتـه لأبن سـعود. وقـد لقي آخـر أمير مستقبل لحائل مصرعه في الرياض على يد أحد عبيده عام 1954(17).

في الأول من تشـرين الثـاني (نوفمـبر) عـام 1921 لم يعـد هنـاك وجـود لإمـارة جبـل شـمر المستقلة. وفي الثاني من الشـهر بـايع سـكان حائـل عبد العزيز الذي جعل من إبراهيم السبهان والياً على المنطقة الجديدة في سـلطنته. وقـد حـرّم أمـير نجـد السلب في المدينة، وزود الجياع ببعض المؤن. وكـان الشـيعة أكـثر من يخشـى على حيـاتهم، ولكن أبن سـعود أصـدر إيعـازاً خاصـاً يكفـل لهم الحمايـة(18). ويجـدر بالـذكر إن الإخـوان لم يوافقـوا على تسـامح

أميرهم وانتقدوه علانية لغضه النظر عن "المشركين"(19).

بسقوط جبل شمر أضحت كل المناطق الوسطى من الجزيرة تحت سيطرة أمير الرياض وأصبحت نجد والمنطقة الملحقة بها القوة الرئيسية في شبه الجزيرة العربية. ولم يقو جبل شمر على الصمود إزاء ضغط الجار الجنوبي الأقوى الذي استلهم جنده شعارات المذهب الوهابي بعد انبعاثه. لقد اعتمده جبل شمر، في الأساس، على قبيلة كبيرة واحدة ولم يصبح نواة لدولة موحدة في الجزيرة العربية، وضعفت مواقعه إزاء المنافس القوي الحازم بسبب الحزازات الداخلية وغياب الزعيم القوي. وقد ربط حكام جبل شمر مصيرهم بالإمبراطورية العثمانية، في حين أن الحركة القومية لعرب الجزيرة كانت ذات طابع مناهض للأتراك بوضوح. وفي تلك الأثناء لم تكن بريطانيا تعتبر إلحاق الجزء الشمالي من وسط الجزيرة بنجد خطراً كبيراً على مصالحها في العراق وشرقي الأردن، وآثرت أن تبقى بمعزل عن الأحداث هناك، على الرغم من إن تعزيز مواقع نجد حملها هموماً غير قليلة.

بداية النزاعات والاشتباكات الحدودية بين نجد والعراق وشرقي الأردن . بعد الاستيلاء على جبل شمر جابهت إمارة نجد ثلاث دول معادية لها يحكمها أفراد الأسرة الهاشمية، وتحد نجد من الغرب والشمال.

لم ترسم الحدود بين جبل شمر وبين العراق وشرقي الأردن. وعلاوة على ذلك فإن مسألة الحدود

البريـــة الثابتـــة كـــانت جديـــدة نوعـــاً مـــا على حكـــام الجزيرة. وكان ابن سـعود يـرى أن كـل قبائـل شـمر وعنزة تابعة له، لذا فإن رعاياه متواجدون في مناطق بعيدة يعتبرها الإنجلـيز جـزءاً من العـراق. أضـف إلى ذلـــك إن بعض قبائـــل شـــمر وغيرهـــا من القبائـــل الرافضة لمطامع السعوديين فد ارتحلت إلى العراق(20). وفيمـــا بعـــد كتب غلـــوب باشـــا قائـــد الجيش (الفيلق) العربي في الأردن: "لم تكن هناك حدود في أواسـط الجزيـرة. ولم تحـاول الإدارة في بغـداد قـط إحكـام سـيطرتها في الصـحراء لمسـافة تزيـد عن ميلين أو ثلاثة من الفرات... وكانت حيـاة العديـد من القبائل نفسـها مرتهنـة بحقهـا في التنقـل بحريـة في المنـــاطق الواقعـــة ضـــمن الحـــدود الحاليـــة للعـــراق وسورية. وتصرفت القبائـل السـورية والعراقيـة على النحو نفسه. لذا فإن رسم حـدود ثابتـة بـدأ لهـا أمـراً خطراً"(21).

أدت الخلافـــات والاشـــتباكات بين القبائـــل إلى تفاقم النزاعـات بين العـراق ونجـد وفي خريـف عـام 1921، عين المدعو يوسف بن سعدون قائـداً لفيلـق الجمالة العـراقي المشـكل حـديثاً. وكـان لهـذا عـداء شخصي مع شيخ قبيلة الظفيرحمود بن سويط الـــذي فر إلى الرياض مستجيراً بعبد العزيز وعاد بعـد فـترة من الـــزمن مـــع جبـــاة الزكـــاة الـــذين أوفـــدهم أمـــير الرياض. والتحقت بحمـود مجموعـة من الأخـوان من مطـــير برئاســـة فيصـــل الـــدويش، فهـــاجموا ســـوية معسكرة يوسف في آذار (مارس) عام 1922 وأبادوا غالبيـــة جنـــده، فأرســـل الإنجلـــيز طـــائراتهم لنجـــدة

العراقيين. عند ذاك سرحت الحكومة العراقية فيلق الجمالة وأقالت قائده يوسف بن سعدون الذي ساءه الأمر فهرب إلى الرياض حيث عرض خدماته على عبد العزيز(22).

في ربيع 1922، التقى ممثلون عن عبد العزيز ببيرسي كوكس في المحمرة، وأصر الإنجليز على إقامة حدود ثابتة بين العراق ونجد، وطالب الوفد النجدي برسم الحدود اعتماداً على تقسيم الديار التقليدي للبدو الرحل، وفي الخامس من أيار (مايو) عام 1922، وقعت معاهدة المحمرة التي جعلت قبائل ا لمنتفق والظفير والعمارات التي هي فخذ من قبيلة عنزة التابعة للعراق، بينما جعلت قبائل شمر تابعة لنجد. غير أن عيد العزيز رفض إبرام الوثيقة بحجة إن الظفير بزعامة حمود بن سويط احتموا به ورفضوا الانصياع للعراق(23).

في حزيران (يونيو) عام 1922 شرع الإخوان يتحركون باتجاه الشمال الغربي نحو شرق الأردن. وبعد الاستيلاء على واحة الجوف في تموز (يوليو) من العام نفسه اشتبكوا من دوريات تابعة لإمارة شرقي الأردن وأثر ذلك استولوا على واحتي تيماء وتبوك وأرغموا سكانها على إخراج الزكاة للرياض(24). وبعد ذلك زحف الإخوان على وادي السرحان الذي كان في السابق جزءاً من جبل شمر، وسرعان ما هاجموا واحة بني شاكر، مما جعلهم على مقربة من عمان، عاصمة شرقي الأردن(25). وفي الوقت نفسه دنا النجديون من حدود سورية الواقعة تحت

الانتـداب الفرنسـي، وأخـذوا يهـددون بقطـع ممـر الارتباط المباشر بين الممتلكات البريطانية.

وفي ذلك الحين كان الإنجلـيز يدرسـون مسـألة مد خط للسكك الحديـد بين فلسـطين والعـراق عـبر هذا الممر بالذات.

رأى بيرسـي كـوكس إن من الضـروري العمـل على وضع حدود ثابتة، وأتفق على عقد لقاء شخصـي مع أمير نجد. وفي 21 تشرين الثـاني (نوفمـبر) عـام 1922، بدأ كوكس وعبد العزيز مفاوضات اسـتغرقت ستة أيام في العقير. وأسفرت المفاوضات عن وضـع بروتوكولات (ملاحق) العقـير الـتي وقعت في الثـاني من كـانون الأول (ديسـمبر) عـام 1922، وألحقت بمعاهدة المحمرة. وكان هـذا يعـني نوعـاً من النجـاح للدبلوماسـية البريطانيـة الـتي أرغمت سـلطان نجـد على الاعتراف بحدود العراق الخاضع للانتداب(26).

رسم البروتوكول الأول الحدود بين العراق ونجـد وأسس المنطقة المحايدة التي يحق للقبائل العراقية النجديـة أن تـرعى أغنامهـا فيهـا. ومنحت القبائـل النجدية التي كانت تسـتخدم بعض الآبـار في أراضـي العـراق الحـق في مواصـلة اسـتخدامها بشـرط ألا تسـتثمر مصـادر المـاء في منطقـة الحـدود لأغـراض حربية. ولذا فـإن هـذه الاتفاقيـة راعت حـدود الـديرة التقليدية لمختلف القبائل.

نص البروتوكول الثـاني على إن لأي قبيلـة تـروم أن تكون تحت رعاية حكومة أخرى الحق في ذلك.

وإلى جانب رسم الحدود بين نجـد والعـراق وقـع عبـد العزيـز ومنـدوبون عن الكـويت اتفاقيـة حـول

الحـدود، ضـمنت بـدورها منطقـة محايـدة للبـدو من الطرفين، لاستخدامها لأغراض رعي الأغنام(27).

إن مفاوضات العقير بحد ذاتها حرية بـأن نتوقـف عنـدها بشـيء من التفصـيل. وهـاكم مـا كتبـه أحـد المشركين فيها وهو ديكسـون: "في اليـوم السـادس قال السير بيرسي... لكلا الطـرفين أن الوتـيرة الـتي تجري عليها المفاوضات لن تفضي إلى تسوية شـيء طـوال سـنة. وفي لقـاء خـاص اقتصـر على بيرسـي كوكس وأبن سـعود لم يطـق كـوكس صـبراً على مـا سماه بموقف أبن سعود الصبياني من فكـرة الحـدود القبليـة. ولم يكن السـير بيرسـي يجيـد العربيـة كمـا ينبغي، فتوليت الترجمـة. كـان أمـراً غريبـاً أن يُلاحـظ المرء كيف يوبخ المنـدوب السـامي لصـاحب الجلالـة سلطان نجد وكأنه تلميذ مشاكس. قـال كـوكس لأبن سعود بصرامة، إنـه هـو (كـوكس) الـذي يقـرر شـكل الحدود وامتدادها العام... كاد عبد العزيز ينهـار تمامـاً وقال بتأثر أن السير بيرسي بمثابة أبيه وأمـه اللـذين أنجباه ورفعاه من الحضيض إلى مقامه الحـالي، وإنـه مستعد للتنازل عن نصـف مملكتـه، بـل عن المملكـة كلها إذا أمر السير بيرسي".

أثر ذلك أخذ كوكس قلماً أحمر ورسم بحذر على خارطـة الجزيـرة الحـدود من الخليج العـربي إلى شرقي الأردن. وفي مسـاء اليـوم نفسـه، كمـا يقـول ديكسون، جاءت "التتمة المدهشـة". "فقـد طلب أبن سعود مقابلة السير بيرسـي على انفـراد. اصـطحبني السير بيرسي، وكان أبن سعود يقـف بمفـرده وسـط سرداقه الكبير الـذي كـان مضـيفاً. بـدأ مغتمـاً للغايـة

وقال متوجعاً: "يا صديقي، لقد حرمتموني نصف مملكتي. الأفضل أن تأخذوها كلها وتسمحوا لي بالاستقالة". وظل هذا الرجل القوي الضخم البنيان المتسامي بأساة، واقفاً ثم انحدرت من مآقيه الدموع على حين غرة. تأثر السير بيرسي غاية الأثر وأخذ يده وأنشأ ينتحب هو الآخر. انحدرت الدموع على خديه. لم يحضر أحد، سوانا نحن الثلاثة. هذا المشهد وأنا أنقل بدقة ما رأيت. لم تستمر الزوبعة العاطفية أمداً طويلاً. قال السير بيرسي وهو ما يزال يمسك بيد أبن سعود: "يا طويل العمر، أنا أعرف بدقة حقيقة مشاعرك، لذا فأنني أعطيك ثلثي أراضي الكويت. لا اعرف كيف سيكون وقع هذه الضربة على أبن الصباح"(28).

ومهما كان من أمر لا يجب أن يغيب عن بالنا أن عبد العزيز وكوكس كانا ممثلين جيدين، ورغم أن كل الأوراق الرابحة كانت في يد كوكس لأن بريطانيا بالذات هي التي تملي إرادتها في الجزيرة، فأن عبد العزيز تمكن من تحقيق الكثير من مطالبه. ففي تلك الفترة بالذات كان أبن سعود يعتزم تجهيز حملة على غرب الجزيرة، وصار بوسع كوكس أن يلمح إليه بأن بريطانيا سوف تتغاضى عن استيلائه على الحجاز(29).

لم يتم التوصل إلى اتفاق حول الحدود مع شرقي الأردن. وفي مستهل عام 1923 شنت مجموعة صغيرة من الإخوان هجوماً جديداً على شرقي الأردن. أسر المهاجمون وأعدم أحد عشر منهم في عمان(30). وفي تلك الأثناء استمرت

تصفية الحسابات بين القبائل القاطنة على الحدود بين العراق ونجد، والتي جرى في العقير تقرير مصيرها دون مشاركتها. تمكن يوسف بن سعدون من تعبئة مجموعة من الإخوان لمهاجمة خصومه من قبيلة الظفير، ولكن عبد العزيز حينما علم بذلك أرسل قوة لمعاقبته. عندئذٍ هرب يوسف وأنصاره (ومن بينهم الإخوان) وطلب اللجوء من الحكومة العراقية(31).

عند تقييم السياسة البريطانية في هذه المنطقة في بداية العشرينات، لا يمكن الزعم بأن إيصال التناحر بين نجد والعراق والأردن إلى حد القطيعة كان من مصلحة لندن. فقد آثر الإنجليز أن يستثمروا بهدوء ممتلكاتهم الجديدة. وعلاوة على ذلك فإنهم قدموا منحاً كبيرة لجميع حكام المنطقة، ولم يتوقفوا عن تقديمها إلا في 31 آذار (مارس) عام 1924 (32).

في كانون الأول (ديسمبر) عام 1923 عقد في الكويت، بمبادرة بريطانية، مؤتمر حضره ممثلون عن شرقي الأردن والعراق ونجد، للقيام بمحاولة تسوية القضايا المتنازع عليها، ولكن الأطراف لم تتفق على شيء. واستمرت غزوات القبائل عبر الحدود المرسومة شكلياً، وفي آذار (مارس)1924، أوعز عبد العزيز إلى فيصل الدويش بمعاقبة القبائل التي شنت هجمات على نجد من جهة العراق. استؤنف مؤتمر الكويت في آذار (مارس) عام 1924 واستمر حتى شهر نيسان (إبريل) دون أي نتيجة(33).

في أواسط آب (أغسطس) اتجهت قوة كبيرة من الإخوان نحو عمان عبر وادي السرحان، ومرت بمحاذاة حصن القاف الذي شيده الإنجليز منذ أمد قريب، ولكن حامية الحصن لم تكن لديها وسيلة للاتصال لذا فأن ظهورهم على بعد بضعة كيلومترات من عمان كان مفاجئاً. استخدم الإنجليز الطائرات والمدرعات ووحدات الفيلق العربي فأبعدوا الإخوان وكبدوهم خسائر كبيرة(34).

بيد أن الحجاز أخذت تستأثر باهتمام متزايد من لدن أمير نجد عند حلول صيف 1924.

منذ سنوات عديدة وعيون النجديين تتطلع بشوق إلى الحرمين، بينما كان زعماؤهم يحصون العوائد التي يمكن أن يدرها عليهم الحجاج ورسوم الجمارك في جدة وأقترن الحماس والتعصب الديني بمخططات الغزو التي أعدتها الأرستقراطية الحاكمة في نجد. ظلت العلاقات بين نجد والحجاز في أقصى درجات التوتر بعد معركة تربة. وحينما جهز عبد العزيز قوة مسلحة للاستيلاء على مدينة أبها في شمال عسير في أيار (مايو) 1920، منع الحسين النجديين من دخول الحجاز لأداء فريضة الحج في آب _ أيلول (أغسطس _ سبتمبر) عام 1920. ورفع النجديون ظلامة إلى بيرسي كوكس بوصفه حكماً، ونزولاً عند إصرار الإنجليز سمح الحسين لهم بأداء الفريضة في العام التالي، ولكنه حدد عدد الحجاج خوفاً من تقاطر عدد كبير من الأخوان على الحجاز. وعند حلول عام 1923، كان النجديون قد ثبتوا أقدامهم في عسير، فتزايدت مخوف الحسين.

الاستيلاء على شمال عسير. ابتداء من عام 1871 وحتى الحرب العالمية الأولى كان الأتراك يمارسون إدارة عسير بشكل مباشر، إذ كان يوجد متصرف تركي إلى جانب أمير من فخذ آل عايد. وعندما نشبت الحرب انسحب الأتراك من عسير وأصبح الأمير حسن بن علي آل عائض مستقلاً في الواقع. ولكن الكثير من القبائل، مثل قحطان وزهران وغامد، وقفت ضده وارتحلت إلى عمق الجزيرة، وفي الوقت نفسه أرسلت وفداً لمبايعة عبد العزيز. وقد أوفد أمير الرياض ستة من العلماء ليهدوا أبناء عسير إلى رسالة "التوحيد"(35).

كانت غالبية سكان عسير من أتباع المذهب الشافعي، ولكن على الرغم من ذلك فإنهم كانوا منذ أزمان دولة السعوديين الأولى يميلون إلى المذهب الوهابي، ولم تنقطع صلاتهم بنجد(36). وقد استقبل عبد العزيز موفدي القبائل وبعث برسالة إلى الأمير حسن يطالب فيها باحترام حقوقهم. وطالب حسن من جانبه بالا يتدخل عبد العزيز في الشؤون الداخلية لعسير. وفي أيار (مايو) عام 1920، ظهرت في جبال عسير قوه قوامها ثلاثة آلاف شخص مؤلفة من سكان العارض وبدو قحطان، بقيادة عبد العزيز بن ساعد بن جلوي، وانضم أليها بعض السكان المحليين. وقد هزم الأمير حسن في موقع قرب العاصمة أبها، واحتل بن جلوي أراضي تمتد حتى المنطقة الواقعة تحت سيطرة محمد الأدريسي. ونظراً لعدم توفر القوى لبسط سيطرة مباشرة على الأمارة، فأن عبد العزيز نقل الأمير حسن وابن عمه محمد إلى

الرياض، وبعد أشهر أعادهما إلى أبها كعاملين من الرياض. استمر الصراع الداخلي في عسير، وأخيراً تولى الأمارة المدعو فهد العقيلي، ولكن حسن تمكن من تدبير عصيان ضده واستولى على أبها بعد حصار دام عدة أيام. وقد ساعده الشريف حسين في الوقوف ضد صنائع النجديين(37).

بعد سقوط حائل جهز عبد العزيز قوة قوامها زهاء ستة آلاف شخص أسند قيادتها الاسمية إلى أبنه الصبي فيصل، بينما تولى القيادة الفعلية أبن لؤي. غادرت القوة الرياض في حزيران ـ تموز (يونيو ـ يوليو) 1922، وفي الطريق التحق بها قرابة أربعة آلاف بدوي من قحطان وزهران وشهران. وبعد الاستيلاء على واحة بيشة في أيلول ـ تشرين الأول (سبتمبر ـ أكتوبر) عام 1922 شارف فيصل مدينة أبها واستولى عليها دون قتال، وفر حسن بن عائض إلى الجبال. وقد اخفقت محاولة ملك الحجاز لنجدته، وهزم الأخوان الحملة الحجازية. وبعد الاستيلاء على هذا الجزء من عسير، ولى فيصل أمارة أبها لسعد بن عفيصان وأبقى معه حامية وعاد إلى الرياض في أوائل عام 1923(38)، وسرعان ما توفي أبن عفيصان فولي الأمارة بعده عبد العزيز بن إبراهيم. وبعد فترة من الزمن استسلم حسن ووجّه إلى الرياض حيث عاش مكرماً(39). ولذا باءت بالفشل محاولة آل عائض لإنشاء أمارة مستقلة في شمال عسير.

الاستيلاء على الحجاز. عند حلول عام 1923، غدا واضحاً أن الاصطدام بين الملك حسين

والنجديين بات وشيكاً. وتزايد في الحجاز الاستياء من سلطة الملك، إذ أن الفساد والرشوة استشريا وأخذ جهاز الدولة يتآكل بفعلهما. وعند جباية الخراج المعتاد من الحجاج عمد الحسين إلى زيادة الزكاة لتعزيز قواته المسلحة واستاءت القبائل من محاولته إرسال قوات لجباية الضرائب، والتجأ الكثير من المستاءين إلى نجد. وظل الملك حسين يعتبر عسير من ممتلكاته، وفي نيسان (إبريل) عام 1923، حاصرت قوة من الحجاز مدينة أبها ولكن دون طائل(40).

يشير حافظ وهبة إلى أن عبد العزيز قرر غزو الحجاز عام 1923، غير أنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية، فإن سلطان نجد لم ينس أنها هي التي أرغمته على سحب قواته بعد معركة تربة، وحذرته من التقدم في الحجاز(41). وبديهي أن أبن سعود كان على علم بالاستياء من نظام الحسين في الحجاز وكان ذلك من العوامل التي دفعته إلى التحرك. وفي الوقت نفسه بدأت حزازات بين الحسين والحجاج الوافدين من الهند ومصر بسبب سوء الخدمات الطبية(42).

ساءت العلاقات بين الإنجليز والملك الحسين الذي رفض إبرام معاهدة فرساي احتجاجاً على تسليم سورية للفرنسيين ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني. وفي عام 1921 وفد لورانس يحمل إلى الحسين عرضاً بعقد معاهدة بين بريطانيا والحجاز، يحصل بمقتضاها الملك على إعانات من بريطانيا ونعقد معها معاهدة عسكرية، وفي المقابل يعترف بأن لها مصالح خاصة في الحجاز. وأكد

الحسين على أنه لا يمكن أن يسود فلسطين السـلام ما دام العرب يتهيبون من أن الهدف الأخير للصـهاينة يتمثـل في إقامـة دولـة يهوديـة في فلسـطين على حساب مصـالحهم القوميـة. وقـد رفض ملـك الحجـاز توقيع المعاهدة وأهاب برئيس الـوزراء البريطـاني أن ينفذ الوعود التي قطعها أثناء الحرب ولكنه لم يحصل على جواب(43).

وقد تـراجعت هـذه الخلافـات إلى المقـام الثـاني بعد أن أعلن الشـريف حسـين نفسـه خليفـة في آذار (مارس) عام 1924 (أثر إلغاء الخلافة في تركيا التي صـارت جمهوريـة). وكـان الحسـين يأمـل من وراء إعلانه الخلافة تعزيز سـلطته وتأكيـد مطامعـه في أن يكون أميراً لكل العرب، أو على الأقـل المقيمين إلى الشرق من السـويس. ولئن كـانت هـذه الخطـوة قـد قـوبلت بالاسـتياء في مصـر حيث كـان الملـك فـؤاد يطمع في الخلافـة، وفي أوسـاط المسـلمين بجنـوب آسيا، فإنها اعتبرت في نجد تحـدياً لمشـاعر الأخـوان الدينيـة وسياسـة السـلطان أبن سـعود. وعلاوة على ذلك فقد أزمّ هذا القرار العلاقات بين الملـك حسـين والبريطانيين الذين خافوا من فقدان سـيطرتهم على ملك الحجاز الذي كانوا يعتبرونه خصـماً محتملا يقـف عائقاً دون أحكام سيطرتهم الاستعمارية على الشرق الأوسط.

في تمـوز (يوليـو) 1924، افتتحت في جـدة قنصلية عامة سوفييتية مما أثار حنق البريطانيين.

ولا يجدر أن ننسى وجود معاهدة شـكلية عقـدت بين بريطانيا ونجد عـام 1915 حـول الحمايـة. وأدرك

سلطان نجد أن بريطانيا سوف تقف، على الأرجح، هذه المرة على الحياد في حالة قيام نزاع بينه وبين الحجاز(44).

في تموز (يوليو) 1924، جمع عبد العزيز قادة الأخوان الذين وفدوا إلى الرياض بمناسبة عيد الأضحى ليعرض عليهم مسألة غزو الحجاز فلقي عرضه صدى إيجابياً في نفوس(45). وقد أراد الأخوان أن يجاهدوا في سبيل "تطهير" بيت الله، ولكي يغنموا الأموال أجراً لجهادهم.

قرر عبد العزيز أن ينزل ضربته الأولى بالطائف، قرب مكة. وفي 5 أيلول (سبتمبر) عام 1924، دخل الأخوان الطائف ومكثوا فيها ينتظرون أوامر عبد العزيز. وكان قوام قوات عبد العزيز مقاتلون من هجرة الغطغط بإمرة سلطان بن بجاد ومن هجر أخرى لعتيبة وقحطان وقبائل أخرى، وانضمت أليها قوة من الخرمة بقيادة أبن لؤي. وقد استولى الأخوان على خزين الذخائر العسكرية في الطائف، واستبيحت المدينة لمدة ثلاثة أيام، ففر الكثير من أبنائها وسقط الباقون صرعى بيد الأخوان. وقد روعت الحجاز للأمر(46). وفي 22 أيلول (سبتمبر) أصدر عبد العزيز أمراً حذّر فيه بشدة من العودة إلى البطش وقطع عهداً بالحفاظ على أموال أهل الحجاز ودمائهم(47). وثمة معطيات تفيد بأن أربعمائة رجل وامرأة وطفل قد قتلوا في الطائف(48).

وقد حاول علي بن الحسين تجميع قوات في الهدة ووقف زحف الأخوان على مكة ولكنه منيَّ بهزيمة أخرى في خاتمة المطاف(49).

اصبح وضع الحسين ميئوساً منه، فاجتمع أعيان الحجاز، ومنهم أشراف مكة وعلماء الدين وكبار التجار، في جدة وقرروا خلع الحسين في محاولة لترضية أبن سعود. وبعد أخذ ورد وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده علي الذي نصب ملكاً على الحجاز في 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1924. وشكل وجهاء الحجاز مجلساً (حزباً) وطنياً، وهو شيء أشبه بالبرلمان، وصارت الحجاز بمثابة "مملكة دستورية". وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع أمتعته إلى جدة، وفي أواسط تشرين الأول (أكتوبر) غادر إلى العقبة ومنها نقله الإنجليز إلى قبرص(50).

لم تتحقق الآمال المعقودة على ترضية أبن سعود. وبعد برهة دنا الأخوان من مكة، واضطر على الانسحاب إلى جدة على رأس قوة من 400 فرد. وفي أواسط تشرين الأول (أكتوبر) عام 1924 دخل الأخوان مكة وبنادقهم منكسة إلى أسفل. وتجدر الإشارة إلى أن نية عبد العزيز في التريث وعدم دخول مكة حتى يستبين فعل البريطانيين، قد صارت طيّ النسيان بعد إحراز النصر الأول. بيد أن سلطان جدة آثر المكوث في الرياض، كي يحمل الأخوان مسئولية غزو الحجاز إذا ما تدخل البرطانيون. وعلى الرغم من نهب الكثير من بيوت أشراف مكة بعد استيلاء الأخوان عليها، فإن المدينة لم تشهد حمامات دم. وقد نصب الشريف بن لؤي أميراً لمكة وظل أبن بجاد في الطائف(51).

كان أعيان جدة ومكة يأملون، بتنصيبهم علي ملكاً، بالتخلص من الغسو النجدي، لأن الكثيرين منهم

اعتقدوا بأن خلاف سلطان نجد مع الملك حسين هو سبب المشاكل. غير أن السلطان أراد طرد الأسرة الهاشمية بأسرها من الحجاز ولم يوافق على عقد الصلح بشروط أخرى(52).

حاول أعضاء المجلس الحجازي إجراء مفاوضات، ولكن أبن سعود أصر على وجوب مغادرة علي الحجاز. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1924 عاد وجهاء الحجاز إلى جدة وطلبوا من علي التنازل عن العرش. وبدأت مفاوضات بين أنصار علي وخصومه اضطر على أثرها المجلس إلى إعلان حله، وفي كانون الأول (ديسمبر) 1924 اعتُقل الكثير من خصوم علي(53).

تجدر الإشارة إلى أن معتمدي الدول الأجنبية في جدة بعثوا إلى خالد بن لؤي رسالة يشيرون فيها إلى التزام حكوماتهم بالحياد ويطالبون ضمان حقوق رعاياهم وممتلكاتهم في جدة في حالة استمرار الحرب. ووعد خالد بأن يكفل الأخوان أمن الرعايا الأجانب(54). وفي أواخر تشرين الأول أكتوبر) غادر عبد العزيز الرياض على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل واستغرق طريقه إلى مكة ثلاثة أسابيع، وذلك لخشيته من تدخل البريطانيين في النزاع. ولكن حينما وصلت كتب من قناصل الدول الأجنبية تعلن الحياد التام، أدرك عبد العزيز أن الحجاز قد وضع تحت تصرفه(55).

في 5 كانون الأول (ديسمبر) 1924، دخل عبد العزيز مكة، وفي الثالث عشر من الشهر نفسه نشرت جريدة "أم القرى" الرسمية التي بدأت

بالصــدور بلاغــه الــذي اســتعرض فيــه برنامجــه في الحجاز. وجاء فيه: "1 . سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدســة من الأعــداء أنفســهم الــذين مقتهم العــالم الإســلامي في مشــارق الأرض ومغاربهــا بمــا اقــترفوه من الآثــام في هــذه الــديار المباركــة. 2. سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا للمسلمين كافة في ســائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إســلامي عــام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكــام الله في هــذه البلاد المطهــرة.3. إن مصــدر التشــريع والأحكام لا يكــون إلا من كتــاب اللــه، وممــا جــاء عن رسول الله عليه الصلاة والســلام أو مــا أقــره علمــاء الإسلام الأعلام بطريق القيــاس.4. كــل من كــان من العلمــاء في هــذه الــديار أو من مــوظفي الحــرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل..."(56).

في فترة مكوث علي في جدة أجــرى أبن ســعود في كانون الأول (ديسمبر) 1924 انتخابــات في مكــة كــان الغــرض المعلن منهــا تكــوين نوعــاً من الإرادة الذاتية، ولكن الهــدف الحقيقي هــو اســتمالة الوجهــاء والتجار المحليين. وقــد انتخب مجلس شــورى قوامــه 11 عضواً برئاسة الشــيخ عبــد القــادر الشــيبي وعين حافظ وهبة حاكماً مدنياً لمكة(57).

ســرعان مــا حصــل أبن ســعود على تأكيــد جديــد لحياد الدول الأجنبية من قناصــلها، وكــان هــذا أهم مــا يصــبوا إليــه. وعنــدما ألقت طــائرة أرســلها علي بن الحســين مناشــير فــرق مكــة يعلن فيهــا الملــك عن

اعتزامه استرداد المدينـة، قـرر عبـد العزيـز أن أوان العمل قد حان(58). وفي الخامس من كانون الثـاني (يناير) 1925، دنت من جدة قوة إخوانية وبدأ حصـار دام زهـاء عـام (59). حصـن على المدينـة وأحاطهـا بحقول ألغام. ووصل إلى المدينة بضع مجموعات من المســلمين الســوريين والفلســطينيين واليمنــيين، جندتهم الأسرة الهاشمية فينا يبـدو(60). ويقـدر خـير الدين الـزركلي تعـداد القـوات السـعودية بـ 5 ـ 6 آلاف مقاتــل معظمهم من عتيبــة وبعض من مطــير وكذلك من قبيلتي غامـد وزهـران الحجـازيتين. وكـان لدى علي زهاء 500 مقاتل حجازي وبضـع مئـات من الفلسطينيين والمصريين واليمنيين والسـوريين. وفي المدينـة كـان هنـاك 200 بـدوي ومـا يزيـد على 300 مقاتـل من فلسـطين وشـرقي الأردن و زهـاء 250 يمنياً، وكان في ينبـع حـوالي 300 من عتبـة وعقيـل، وبضع مئات أخرى في سائر المناطق. بيـد أن الجيش الســعودي تنــاقص في خلال الحصــار لأن البــدو لا يطيقون البقاء أمداً طويلاً عند الساحل القائظ(61).

ولم يحصل علي بن الحسين على عون يذكر من العراق وشرقي الأردن، وفي هذا الخصوص أشار عبد الحميـد الخطيب في كتابـه "الإمـام العـادل" إلى أن الإنجلـيز تصـرفوا وكـأنهم يريـدون أن يضـمنوا لأبن سعود النصر(62). وقد وافق عبـد اللـه أمـير شـرقي الأردن على أن يتولى الإنجليز نقل أبيـه الحسـين من العقبة خوفاً من غزو قوات أبن سـعود بحجـة وجـوده فيها. وفي أيـار (مـايو) 1925 وصـل الملـك السـابق إلى السويس حيث كان في استقباله معتمـد الحجـاز

في القاهرة عبد الملك الخطيب وأخـوه عبـد الحميـد الخطيب. وقال لهمـا الحسـين إن الإنجلـيز هم الـذين نفوه وخانوه لرفضه الاعتراف بوعـد بلفـور وتمسـكه بحق العرب في دولة مستقلة(63).

وفي مطلـع عـام 1925، حـاول منـدوبون عن جمعيـة الخلاف الهنديـة وعـدد من القناصـل الأجـانب التوسـط بين علي وعبـد العزيـز. وفي شـهر نيسـان (إبريل) من العام نفسه عقد لقـاء بين وزيـر خارجيـة حكومة جدة وعبد العزيز ولكنه لم يسـفر عن نتيجـة(64).

في حزيران (يونيو) رفع الحصار عن جدة بسـبب القيظ، وفي آب (أغسطس) توجـه علي إلى الإنجلـيز بطلب آخر يناشدهم فيه التدخل ولكنهم رفضوا.

وقـد أشـار البريطـاني جيلـبرت كلايتـون الأمين العام السـابق للحكومـة في فلسـطين، في ملاحظـة دونهـا بـدفتر مذكراتـه في أواسـط تشـرين الأول (أكتوبر) أثناء مـروره بجـدة، أشـار إلى أن علي كـان منهاراً معنوياً وجسدياً . وأعرب كلايتون عن استغرابه من إحجام عبد العزيـز عن الاسـتيلاء على جـدة الـتي تعاني من الجوع ويبـدو إن سـلطان نجـد آثـر الـتريث حتى تستسلم له المدينة حقناً للدماء(65).

أبـان غـزو الحجـاز وبعـد إحكـام السـيطرة عليـه اسـتمرت الغـزوات على أراضـي العـراق. كمـا عـبر الإخوان وادي سرحان ووصـلوا إلى الحـدود السـورية وقطعـوا شـرقي الأردن عن العـراق، ممـا جعـل الممتلكـات البريطانيـة في الشـرق الأوسـط عرضـة للتقسيم(66). وبعد أن احتل عبد العزيز مكة بمباركة

غير معلنة من قبل الإنجليز، أدرك أن عليه وضـع حـد لمطامعه في الشمال.

كان ذلك عشية عقد اتفاقيات لوكـارنو، في وقت تـأزمت أبانـه العلاقـات البريطانيـة الفرنسـية بسـبب قضية الموصـل، واهـتزت مواقـع بريطانيـا بفعـل مـد الحركة القومية في فلسـطين. لـذا لم تشـأ بريطانيـا التدخل في النزاع بين نجد والحجاز تدخلاً صريحاً.

في تشـرين الأول (أكتـوبر) عـام 1925، وصـل الكولونيل كلايتون إلى مقر عبـد العزيـز في الحجـاز. وأظهر أبن سعود ثانية إنه سياسي مرن ووافـق على إعطاء تنازلات في الشمال مقابـل اعـتراف بريطانيـا الفعلي بضـمه الحجـاز. وتمخضـت المفاوضـات عن اتفاقيتي بحرة وحدّة اللـتين وقعتـا في 1 و2 تشـرين الثـــاني (نوفمـــبر) 1925. وتخص الاتفاقيـــة الأولى العراق ونجد وتنص على إن غزو العشائر القاطنة في أراضي أي من الدولتين على أراضـي الدولـة الأخـرى يعتبر اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه من قبل الحكومة التابعة لها. ونصت الاتفاقية على تأليف محكمة خاصة من ممثلين الحكومتين للنظر في تفاصيل أي تعد يقع من وراء حدود الدولتين. كما أشارت الاتفاقية إلى إن من حق العشيرة عبـور الحـدود لـرعي الماشـية بعـد إستحصال رخصة بذلك.

أما اتفاقية حـدّة فقـد ثبتت للمـرة الأولى عمليـاً الحـدود بين نجـد وشـرقي الأردن، وتنـازل بموجبهـا سلطان نجد لشرقي الأردن عن الممـر الـذي يربطـه بـالعراق. وتضـمنت اتفاقيـة حـدّة نصوصـاً مماثلـة لاتفاقيـة بحـرة حـول غـزو الأراضـي وتـأليف محكمـة

للنظـــر في الـــدعاوى المتعلقـــة بـــذلك، وعن رخص الـرعي، كمـا حظـرت الاتفاقيـة الدعايـة الدينيـة على أراضـي البلـد الآخـر. ومن الواضـح إن هـذا البنـد لـه علاقة بالتبشير بالدعوة الاخوانية(67).

وهكذا أقيمت الحدود مـع الكـويت والعـراق ومـع شـــرق الأردن فعليـــاً، رغم أن نزاعـــات الحـــدود استفحلت بعد برهة وجيزة.

حينما بلغ ملك الحجاز نبأ اتفـاقيتي بحـرة وحـدّة، بينمـا رفض كلايتـون مسـاندته، أدرك إن أيـام حكمـه معدودة. وقرر علي بن الحسين الاستسلام بعد تيقنـه من إن أخويـــه في العـــراق والأردن حريصـــان على الاحتفاظ بعرشيهما أكثر من حرصهما على مؤازرتـه. وفي 16 كانون الأول (ديسـمبر) أوفـد على القنصـل البريطـاني للتبـاحث في شـروط الاستسـلام مـع أبن سعود، وقد استسلمت جدة في 22 من الشهر نفسه وغادر علي بن الحسين، وفي اليوم التالي دخـل عبـد العزيز المدينة(68).

في مطلـع شـباط (فـبراير) 1925، حينمـا كـان حصـار جـدة في أولـه، أرسـل عبـد العزيـز قـوة من الإخـوان بـإمرة فيصـل الـدويش إلى المدينـة، ولكن السلطان حـذر بشـدة من دخـول المدينـة بـدون أذن منه، خوفاً من تعرض قبر النبي للأذى، وعندما لم يعد سـكان المدينـة قـادرين على الصـمود أمـام الحصـار كتبـوا إلى عبـد العزيـز يعربـون عن مـوافقتهم على تسـليم المدينـة ولكن لأحـد أنجالـه وليس للإخـوان، فأرسل عبد العزيز أبنه محمد إلى هنـاك في تشـرين الأول (أكتوبر). وفي هذه الأثناء استلم أهالي المدينـة

برقية من علي تعد بالنجدة، فـأجلوا الاستسـلام(69). وفي الشهر التالي أصبح وضع المدينة حرجاً ولم يبـق أمـل في النجـدة، فقـرر أعيانهـا الاستسـلام، وفي 6 كـانون الأول (ديسـمبر) 1925 دخـل محمـد المدينـة وصلى في المسجد النبوي.

عشية سقوط جدة أبلغ أشـراف مكـة وعلماؤهـا وأعيان جدة عبد العزيز عن استعدادهم لمبايعته ملكاً على الحجاز. وفي 11 كانون الأول (ديسـمبر) 1925 اجتمع النـاس عنـد بـاب الصـفا من المسـجد الحـرام بمكة وتلي نص البيعة، وأطلقت المدفعية مائة طلقة. وتقبل عبد العزيز البيعة من أشراف مكة ثم الوجهـاء والأعيان وأركان المحكمة الشرعية فالأئمة والخطبـاء وأعضـــاء المجلس البلـــدي، ثم أهـــل المدينـــة، ثم المطوفون والزمازمة وسدنة وخدم الكعبة، ثم سـائر أهل المدينة ومكة(70).

وأصبح عبد العزيز يُعرف بملك الحجـاز وسـلطان نجد وملحقاتها.

وفي 16 شباط (فبراير) 1926، اعـترف الاتحـاد السوفييتي رسمياً بحكومة الحجـاز. وسـلمت مـذكرة إلى ابن سـعود جـاء فيهـا "... إن حكومـة اتحــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، انطلاقاً من مبـدأ حق الشـعوب في تقريـر مصـيرها، ونظـراً لاحترامهـا العميق لإرادة شعب الحجاز المعبر عنها في مبايعتكم ملكـاً، تعـترف بكم ملكـاً للحجـاز وسـلطان لنجـد وملحقاتها. وفي ضوء ذلك تعتبر الحكومة السـوفييتية نفسـها في حالـة علاقـات دبلوماسـية طبيعيـة مـع حكومة جلالتكم".

وأعرب الملك في مذكرة جوابية عن الشكر والاستعداد التام لمعاملة الحكومة السوفييتية ورعاياها بما يليق بالدولة الصديقة(71).

وأعقب اعتراف الاتحاد السوفييتي بابن سعود اعتراف دول أخرى.

بايع وجهاء الحجاز سلطان نجد وهم يخشون تسلط "بدو نجد" على الحجاز الأكثر تطوراً، فحاولوا الاحتفاظ بحقوق واسعة. وقد شكل 56 من ممثلي الأرستقراطية المحلية والعلماء والتجار "مجلساً تأسيسياً" قرر أن الحجاز يجب أن يظل مستقلاً عن نجد في الشؤون الخارجية والداخلية ولا يجمع بين مملكتي الحجاز ونجد إلا شخص الملك، وتشكل في الحجاز حكومة إسلامية ويشرع دستور يستمد أحكامه من القرآن والسنة. واقترح "المجلس التأسيسي" صياغة أشكال البناء الداخلي والأحكام الإدارية وفقاً للظروف المحلية. وخشي بعض الحجازيين من أن يكون ابن سعود ما زال واقعاً تحت تأثير المعاهدة المعقودة مع بريطانيا عام 1915 والتي تجعله تحت الحماية البريطانية، الأمر الذي يتناقض مع توقهم إلى الاستقلال(72).

وحاول وجهاء الحجاز تحديد سلطة الملك، غير أن تناسب القوى كان لصالح ابن سعود. وفي عام 1926 شكلت، وفق مرسوم ملكي، المجالس الاستشارية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف، وصار لها فيما بعد طابع بلدي، ومن ثم شكل مجلس شورى يضم 13 شخصاً(72).

كانت الخطـوة التاليـة تتمثـل في الحصـول على اعـتراف بسـلطة أبن سـعود على الحجـاز من لـدن الدول الإسـلامية، وأن كـانت هـذه مسـألة وقت ليس إلا.

وبعد استيلاء النجـديين على الحجـاز وصـلت إلى نجـد بعثـة إسـلامية من الهنـد طـالبت بـأن تتـولى الأشـراف على الأمـاكن المقدسـة لجنـة تمثـل جميـع البلـدان الإسـلامية. مكثت البعثـة فـترة قصـيرة ولم يطق أبن سعود صـبراً فهيـأ بـاخرة تنقلهـا إلى الهنـد (74).

في عام 1926، قرر أبن سعود الـدعوة لمـؤتمر إسـلامي ينعقـد في شـهر حزيـران (يونيـو) بعـد أداء فريضـة الحج، لكي يضـفي المزيـد من "الشـرعية" على توليه الحجاز. ووجه ملك الحجاز الجديـد رسـائل إلى عاهلي مصـر وأفغانسـتان وإلى الـرئيس الـتركي وشـاه إيـران وملـك العـراق وأمـير جمهوريـة الريـف وإمام اليمن يحيى وسائر الحكومات الإسـلامية، وإلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القـدس ورئيس جمعيـة الخلافـة في بومبـاي، يعاهـدهم فيهـا بأنـه سيرعى الأماكن المقدسة ويعمل على تهيئـه ظـروف أفضل للحجاج.

اجتمع في المـؤتمر الإسـلامي بمكـة 69 منـدوباً عن المنظمـات الإسـلامية في الهنـد ومصـر والاتحـاد السـوفييتي وجـاوا وفلسـطين ولبنـان وسـوريا والسودان ونجد والحجاز وعسير وأفغانسـتان واليمن ومصر وغيرها. ولم يبق عبد العزيـز لـدى المـؤتمرين شـكاً في أنـه سـيد الحجـاز ولن يسـمح بالتـدخل في

شؤونه. وقد استاء البعض وغادروا المؤتمر ولكنهم لم يتمكنوا، بطبيعة الحال، من تغيير شيء.أما المتبقون فقد أقروا بالأمر الواقع(75).

وقد أدلى المفتي رضا الدين سحر الدينوف رئيس وفد مسلمي روسيا وتركستان، رئيس الدائرة الدينية المركزية للمسلمين، بتصريح لمراسل وكالة تاس تحدث فيه عن اعتراف المؤتمرين بابن سعود "حامياً للحرمين". ودعا المؤتمرون إلى إعادة العقبة ومعان إلى الحجاز، ولذا أيدوا عملياً الملك الجديد(76).

لقد أصبح النقاش حول تولي حماية البقاع المقدسة أمراً عقيماً بفعل عوامل عديدة تتمثل في انتصار القوات النجدية وموقف الحياد والتغاضي من قبل بريطانيا التي اختارت أهون الشرين أثناء غزو ابن سعود للحجاز وضحّت بالحسين، والسياسة الذكية للملك الجديد الذي جمع بين التشدد والمرونة.

جاء في رسالة صادرة عن القنصلية العامة السوفييتية في جدة عام 1929: "إن الاستيلاء على الحجاز وعائداته من الحج والجمارك وما شاكلها (العائد السنوي من الحج وحده يصل إلى مليوني جنيه إسترليني) يتيح لابن سعود إمكانية استثمار كل هذه الموارد الضخمة للحصول على منفعة سياسية كبيرة في نجد (إعانة المستوطنين الجدد ودفع مخصصات لشيوخ العشائر البدوية)... والتجار الذين يمثلون القوة الرئيسية في الحجاز يميلون إلى الإمبراطورية البريطانية ويدعون إلى الاتفاق مع الإنجليز. البدو مستاؤون: فهم يدفعون زكاة مقدارها

2.5 بالمائـة، والغـزوات ممنوعـة، وحـرمهم اسـتيراد السـيارات من مـداخيلهم، وليس ثمـة إعانـات من السـلطان، كمـا أن الاسـتياء سـائد في أوسـط المطـوفين الـذين كـانوا ينهبـون الحجـاج، لأن الدولـة تنظم الحج وتستولي على عوائده"(77).

أحدق بعبد العزيز الخطـر، ولكنـه لم يكن خطـراً خارجياً، بل داخلياً مصدره الأخوان إياهم الذين ألحقوا الحجاز بممتلكات السلطان.

الفصل الثاني عشر

توطد المركزية الإقطاعية وحركة الأخوان

(1926 _ 1934)

الوضع في الحجاز. واجهت أبن سعود، بعد غزوه الحجاز، ضرورة إدارة بلد بلغ من التطور شأناً يفوق بكثير شأن نجد. بل حتى الأحساء أيضاً. فقد تكون الجهاز الإداري البيروقراطي في الحجاز وفقاً للمعايير العثمانية، وكان أرقى الأجهزة في الجزيرة. وعلى عهد الملك حسين صدرت حتى ميزانية تتضمن شرحاً للنفقات، على الرغم من أنه لم يجر التقيد بها، بطبيعة الحال. كما ظهرت هناك النواة الأولى لجيش نظامي، وافتتحت مدارس ثانوية. وصدرت صحيفة رسمية هي "القبلة" تنم كتابتها عن دراية بالعالم الخارجي، وغالباً ما كانت تولي اهتماماً كبيراً للأحداث في أوربا، وتنشر أنباء عن الأشغال العمومية مثل توسيع شبكة الهاتف وتنظيف الشوارع.

وقد استقر رأي عبد العزيز على إبقاء الهيكل الإداري الذي أقامه الحسين وأبنه علي كما هو، على أن يوظفه لخدمته(1).

وكان على أبن سعود أن يوفق بين علماء الدين في نجد والحجاز ويحمل علماء مكة على التنازل لعلماء الرياض. وفي محاولة لإزالة الاشكالات عقد علماء الرياض سلسلة من الاجتماعات مع زملائهم

المكيين، زعموا بعدها إنه لا توجد خلافـات جديـة بين الطرفين.

وقـد اسـتمرت بعض الأشـغال العموميـة الـتي تولتهـا شـركات أجنبيـة وبـدأت بتنفيـذها على عهـد الحسين(2).

عنـد غـزو الحجـاز كـان أبن سـعود يـدرك أهميـة التلفون والراديو لتعزيـز سـلطته، وأهميـة السـيارات للأغــراض الاقتصــادية والعســكرية. غــير أن البــدو والعلماء السـلفيين كـانوا يعتـبرون التلفـون والراديـو منكراً من عمل الشيطان. وقد حلّ هذا الأشكال بعـد أن تليت عــبر التلفــون، ثم من الراديــو آيــات من القران(3).

كما اعتبر الإخوان السـيارة من بـدع المشـركين، إن لم تكن من عمـل الشـيطان. وقـد أحـرقت أول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة، وكاد سـائقها يلقى المصير نفسـه. ولم تكن الطـائرة أوفـر حظـاً. إلا أن احتياجـات المجتمـع العمليـة كـانت أقـوى من الجهـل والتحجر الذهني، لذا فـأن السـيارة والراديـو التلفـون أخــذت تنتشــر على نطــاق متســع في مملكــة أبن سعود. وبعد عقدين أو ثلاثة أخذ علماء الدين أنفسهم يمتطون الطـائرات(4). إلا أن الحظـر ظـل مفروضـاً على الحاكي والسينماء وعلى الرغم من منع اسـتيراد هاتين الآلتين فأنهما انتشرتا في البيوت الخاصة(5).

أدرك الملك أن عليه إقامة اعتبار لمصالح وجهـاء الحجــاز. وعنــدما عين أبنــه فيصــل نائبــاً للملــك في الحجـاز 0آب _أغسـطس 1926) أصـدر في الـوقت نفسه "التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية" بمثابة

" دستور". وقد حددت وضع نائب الملك ومجلس الشورى والهيئات الإدارية(6).

كان مجلس الشورى المؤلف عقب إعلان "الدستور" يضم كلاً من الأمير فيصل بوصفه نائباً للملك وأربعة مستشارين وستة من وجهاء الحجاز. ولا شك في أن كل أعضاء المجلس من ممثلي الأرستقراطية الحجازية لم يكونوا من قبل مناصرين للحسين أو أبنه علي، حتى وإن كانوا قد محضوهما التأييد فقد تخلوا عنهما. وفي عامي 1924 و 1925، كانت توجد في مكة جمعيات لها وظائف استشارية تضم الوجهاء وعلماء الدين والتجار، وكان بوسعها أن تطمح إلى الاستقلالية وترفع مطالب إلى الملك. ولكن أياً من أعضاء هذه الجمعيات لم يعين في مجلس الشورى عام 1926، لذا فمن المنطقي الافتراض بأن نشاطها قد أثار انزعاج أبن سعود(7).

إن البون شاسع بين الجمعيات الأولى وبين مجلس الشورى المؤلف من أعضاء لا صوت لهم. لذا أحكم عبد العزيز سيطرته على الحجاز دون منازع، واعترف به ملكاً على الحجاز داخل البلد وفي العالم الإسلامي كله، كما لم يكن بحاجة إلى ما يجمّل به واجهة حكمه. وعلاوة على ذلك يبدو أن عبد العزيز أحس بأن "دستور" الحجاز قد يصبح قدوة يطمح إليها أهل نجد، لذا قام بـ "وأد الوليد".

في الأعوام التالية صار لحكومة فيصل في الحجاز طبع حكومات الشرق الأوسط البيروقراطية بشكلها البدائي، ولكنها كانت بعيدة عن الحكم الملكي الدستوري واعتمدت هذه البيروقراطية على

الحجازيين المتفوقين على النجديين من حيث مستوى التطور، رغم إنها عملت تحت إشراف الأمير فيصل ومستشاريه المقربين.

وفي الوقت الذي حاول عبد العزيز ومجموعة من مستشاريه المتنورين إلى هذا الحد أو ذاك توظيف الجهاز الإداري في الحجاز لمصلحته، كان الإخوان قد عقدوا العزم على "تطهير" الحجاز من "البدع المنكرة" وهدم القباب التي اعتبروها مخالفة للإسلام. ويذهب حافظ وهبة إلى أن حماس الإخوان الجهلة للوهابية كان أكبر ما ابتليت به هذه الدعوة الإصلاحية على حد قوله(8). وقد واجه عبد العزيز، أثر غزوه الحجاز مشكلة التعاون مع الإخوان.

إذ إن الإخوان أزالوا في مكة الشاهد المقام عند موضع ولادة النبي وهدموا منزلي خديجة وأبي بكر(9). وأشار فلبي الذي حضر موسم الحج 1931 إلى هدم كل الأضرحة والقباب في الحجاز وذكر إن ذلك سيجعل الأجيال القادمة تنسى الوقائع التاريخية المرتبطة بهذه الأماكن(10). وإلى جانب الدافع الأخلاقي الديني، تأصل لدى الإخوان العداء البدوي لكل ما يبجله ويستأنس به الحضر في مدن الحجاز الذين اعتبروهم متنكرين للإسلام. ولما احتل الإخوان الطائف ومكة أخذوا يهشمون المرايا ويستخدمون أطر الأبواب والنوافذ كوقود للنار(11). وعلى الرغم من أن هذا واحد من طباع الغزاة المعتادة، فإنه كان تعبيراً عن حقد البدو الدفين على "ترف" المدن. وقد اقترنت نزعة "الاخوة" لدى الإخوان بالتعصب الديني والعادات البدوية.

في عام 1924، أمر خالد بن لؤي بـإحراق كميـة كبيرة من التبوغ العائدة ملكيتهـا لمسـتوردين مكـيين أثرياء فشكوه لعبد العزيـز الـذي ألغى الأمـر الصـادر عن أبن لؤي ولكنه حرم استيراد التبغ مستقبلاً.

وفيما بعد سمح ثانية باستيراد التبغ. ولكن استمر إيقاع العقوبة بالمدخن(12).

حينمـا أقصـى خالـد بن لـؤي عن منصـب حـاكم مكة، عقب سقوط جـدة في كـانون الأول (ديسـمبر) 1925، كان هذا يعني تصميم عبـد العزيـز على عـدم إبقاء المناصب الإدارية الهامـة في الحجـاز بيـد قـادة الإخوان. وقبل ذلـك، في أيلـول (سـبتمبر) من العـام نفسه، حظر رسمياً في مكـة حمـل الأسـلحة الناريـة لتقييد تحركات الإخوان(13).

كـان عبـد العزيـز يخشـى تعـدي الإخـوان على الحجـاج المسـلمين، وبالفعـل فقـد جرحـوا عـدداً من الحجاج مما أثار احتجـاج القناصـل الأجـانب، وحـاولوا قتـل عـدد من المسـلمين العـاملين في القنصـليات الأجنبية(14). وسـعى الملـك لتوجيـه طاقـة الإخـوان نحـو غـزو المـدن والمـوانئ الواقعـة بين جـدة وخليج العقبـة، ولكن سـرعان مـا أصـبح الحجـاز كلـه تحت سيطرته فلم يعد لجنوده عمل يؤدونه.

في مطلع موسم الحج صيف 1926، وصل مكـة المحمل المصري تصحبه الموسـيقى، وعنـد اقترابـه سمع الإخوان الـذين كـانوا بـدون سـلاح وليس عليهم سوى الإحـرام، الموسـيقى لأول مـرة فـاعتبروا ذلـك ضرباً من الزندقة واستبد بهم الغضـب فهبـوا ليمنعـوا تقدم الجمل الذي يقل المحمـل. وهنـا أعطى ضـابط

مصـري أمـراً بـإطلاق النـار فقتـل زهـاء 25 شخصـاً. وعلى الفور أرسل عبـد العزيـز الـذي كـان قريبـاً من المكان ولديه فيصـل وسـعود لتهدئـة ثـائرة الإخـوان. وأمـر الملـك باحتجـاز الضـابط المصـري ومنعـه من مرافقة الحجـاج علاوة على منـع المحمـل من دخـول مكة(15). ولكنه لم يقدم على إيقـاع عقوبـة شـديدة نظراً لانعقاد المؤتمر الإسلامي في مكة آنـذاك(16). وقـد انقطعت العلاقـات مـع مصـر أثـر ذلـك. غـير أن الإخوان ظلوا أمداً طويلاً يلومون عبد العزيـز لأنـه لم يعـاقب "المشـركين" المصـريين على قتلهم 25 من الإخـوان، وفيمـا بعـد تـذرع كـل من فيصـل الـدويش وسلطان بن بجاد بهذا الحادث معتبرينه السبب الأول للخلاف مع الملك(17). وأكـدا على إن أبن سـعود لم يسـمح للإخـوان بهـدم المحمـل فحسـب، بـل بسـط حمايته على "الصنم".

شـرع الملـك بتطـبيق مـا يـدعو إليـه المـذهب الوهابي بصرامة، وذلك لغرضـين أولهمـا كسـب رضـا الإخوان وثانيهما تعزيز هيبته وسلطته. فـأن المنقطـع عن الصلاة يعاقب بالحبس مدة تراوح من 24 سـاعة إلى عشرة أيام وبغرامة. ومن يتعاطى الخمـر يحبس لمـدة شـهر ويـدفع غرامـة، وإذا مـا عادوهـا فيحبس لمدة قد تصل إلى سنتين. والعقاب الصارم يطال كل من يصنع الخمر أو يبيعهـا. وقـد حظـر التـدخين ولكن لم يرد ذكر للمتاجرة به.

وأقترن هـذا التقيـد الصـارم بالوهابيـة بممارسـة العنـف والتنكيـل بالخصـوم السياسـيين لآل سـعود. ويتعرض كل من يشارك في اجتماع الغرض منه نشر

"الأفكار المنكرة" و "الأخبار الكاذبة" و "الأراجيف"، وكل من يشارك في اجتماعات مناوئة لسياسة الحكومة، يتعرض لعقوبة الحبس لمدة تراوح بين سنتين وخمس سنوات، أو الطرد من مملكة الحجاز. وكان ينبغي إستحصال رخصة من السلطات لعقد أي اجتماع حتى وإن كان لأغراض خيرية(18).

غير أن التقيد الشديد بالأحكام الشرعية لم يدم أمداً طويلاً. فبعد مغادرة الإخوان الحجاز خففت القيود المفروضة على المدخنين وصار بوسع الراغبين الحصول حتى على الخمر، ولم يعد أحد يهتم بطول الشارب.

أراد عبد العزيز أن يؤكد حرصه على نقاء الدين، ويحد في الوقت نفسه من تعسف الإخوان، فأسس صيف 1926 جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت إشراف عالمين من آل الشيخ (19). وأمر أبن سعود الإخوان بأن يبلغوا الجماعة بكل منكر يرونه على ألا ينزلوا العقاب بالناس وفق هواهم.

وبالتدريج تحولت الجماعة إلى ما يشبه الشرطة الدينية، وفيما بعد وضعت هيئات الأمر بالمعروف التابعة للجماعة تحت إشراف مديرية الشرطة. وعهدت إلى الهيئات القضايا المتعلقة بالغش والخداع في الأعمال التجارية والامتناع عن إخراج الزكاة والإفطار العلني والخروج عن أصول الحج وسفك الدماء وتعاطي أو بيع الخمر(20). وعند صيف 1928، كانت الهيئات تساهم بنشاط في اجتماعات الحكومة وتشدد من رقابتها على أهالي الحجاز(21).

وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جـديرة بـأن تشـمل سائر أنحاء البلاد، فأسس في الريـاض مديريـة الأمـر بـالمعروف في صـيف 1929، حينمـا بلغت انتفاضـة الإخوان ذروتها(22).

وقد ندد القيمون على الجماعة بالرئيس الـتركي مصطفى كمال (أتاتورك) والملك الأفغاني أمان اللـه بسـبب مـا أجريـاه من إصـلاحات.وقـال توريـاكولوف القنصـل العـام السـوفييتي في جـدة: "يصـعب على المرء أن يتوقع موقفاً آخر إزاء كمال باشا وأمان الله من بلـد يقـوم وجـوده ذاتـه على حسـاب الحـرمين ويشكل كـل "ابتـداع" خطـراً يهـدد المصـالح الماديـة للأغلبية"(23).

صــارت هيئــات الأمــر بــالمعروف أداة انــتزع بواسـطتها من الإخـوان حـق مراقبـة تمسـك النـاس بأصـول الـدين. وقـدمت الديمقراطيـة العشـائرية، بشـكلها الـديني المتعصـب، قربانـاً لجهـاز الحكم في دولة إقطاعية مركزية.

كانت تصرفات الإخوان تبدو للوافـدين الأوربـيين وللمتعلمين من مستشاري الملك نوعاً من "الغلو في التعصب" وحتى "الوحشية"، غير أنها مـع ذلـك كـانت تنم عن سعي الجماهير الواسـعة من عـرب الجزيـرة إلى الحيــاة البسـيطة الـتي دعت إليهــا الوهابيــة. وتمسـكت الجمـاهير بالـدعوة إلى المسـاواة الـتي تضمنتها الوهابية، وحاولت تحيق مثلها عملياً وفـق مـا ترتئيــه. وقــد اصــطدمت طموحــات الإخــوان وممارساتهم بالمصالح الفعلية لعلية الإقطـاعيين. لـذا فأن تسمية هبات الإخوان بأنها "رجعية سـافرة" تبـدو

مغالاة في أبرز جانب واحد، بل حتى غير صائبة، فقد كانوا "رجعيين" بالقدر نفسه الذي كانت عليه "رجعية" المشاركين في الانتفاضات الفلاحية في عصر الإقطاع بأوربا، بكل ما شهدته من بطش ويأس.

وعندما خابت آمال الإخوان وعادوا من الحجاز إلى هجرهم وقبائلهم في وسط الجزيرة، غدا واضحاً أن اشتباكهم مع دولة أبن سعود الإقطاعية المركزية بات وشيكاً.

المرحلة الأولى لانتفاضة الإخوان:

بلغت العلاقات بين السلطة الإقطاعية المركزية والإخوان درجة الغليان بسبب تعاون عبد العزيز مع الإنجليز عند رسم الحدود مع الكويت والعراق والأردن، وبسبب سياسته في الحجاز. فقد اعتبر الإخوان أن غبناً أصابهم عند توزيع الغنائم في الحجاز، كما أن موافقة عبد العزيز على منع الغزوات على أراضي الكويت والعراق والأردن حرمهم من إمكانية تحسين أوضاعهم المادية عن طريق سلب "المشركين". وفي ظروف تعمق أزمة تربية الإبل وتخلف الزراعة في الهجر، كان الغزو المتستر بذرائع دينية يبدو للإخوان مخرجاً طبيعياً يدفع عنهم غائلة الفقر والجوع(24). وأدى تسامح عبد العزيز مع الشيعة في الأحساء و القطيف إلى زيادة الطين بلة(25).

من تناقضات حركة الإخوان أن قادتها كانوا من شيوخ العشائر الإقطاعيين الطامحين إلى أن يصبحوا حكاماً إقطاعيين مستقلين. ولذا صارت حركة

الإخـوان "الديمقراطيـة" من حيث تركيبها وعـدد من مطالبهـا، أداة لخدمـة النزعـة الانفصـالية الإقطاعيـة العشـائرية. وكـان من أبـرز قـادة الإخـوان القائـد العسكري والمقاتل الجسور، شيخ قبيلة مطير فيصل الدويش الذي عاد بعـد سـقوط جـدة في أواخـر عـام 1925 إلى مقره في الارطاوية مستاء استياء شديداً من عبـد العزيـز، إذ إنـه لم ينصـب حاكمـاً للمدينـة المنورة كما كان يأمل(26). وأضيف إلى ذلك التناحر بين مطير وآل سعود الـذي خفت بعض الشـيء قبـل عـام 1925. يقـول المـؤرخ خالـد الفـرج "إذا راجعنا تاريخ نجد وجدنا قبائل مطير دائماً في صفوف أعـداء آل سـعود. وهم أول من تلقى طوسـون باشـا في الحجاز، ونقل حملته إلى القصيم. وانضموا إلى حملة إبراهيم باشا في الدرعية، وقاتلوا في صفوفه... وهم الذين هللوا لمقدم خورشيد باشا، وجاؤوا معه إلى أن ضربهم أبن سعود في وقعة جولبن فكسر شوكتهم". وحتى بعـد انضـمام فيصـل الـدويش إلى أبن سـعود، فـأن 150 رجلاً مسـلحاً كـانوا يصحبونه كلمـا يقـدم الرياض. وكان الملك، كما يقول حافظ وهبة، "يعتبره صديقاً قـديماً وقائـداً من عظـام قـواده. وإذا جلس لا يجلس إلا في جوار الملك... وإذا استأذن في الرجوع إلى الارطاويـة قـدم للملـك قائمـة تبتـدئ من حبـال الآبـار.. إلى السـلاح والجـواري، ومـا بين ذلـك من ملابس له ولأولاده وزوجاته"(27).

وكـان من المعارضـين لأبن سـعود ضـيدان بن حثلين شيخ العجمان وهم من أشد وأقـدم خصـوم آل سعود ولم يقهروا وينضموا إلى حركة الإخوان إلا منذ

عهد قصير، وكذلك شيخ عتيبة سلطان بن حميد بن بجاد رغم أن عبد العزيز بن سعود هو الذي ساعده على أن يكون شيخاً. وقد آمل أبن بجاد أن ينصب حاكماً للطائف ولكن كان للملك رأي آخر(28). وقد كانت عتيبة أقوى وأكبر قبائل وسط الجزيرة بعد عنزة. وفيما بعد أنضم إلى الحركة المناوئة لأبن سعود واحد من مشايخ الرولة. ولذا فإن القبائل القاطنة إلى الشرق والشمال والغرب والجنوب الغربي من الرياض صارت معادية للسلطة المركزية. ومن المهم الإشارة إلى إننا لا نجد في معسكر المعادين لعبد العزيز ممثلي القبيلة الأكثر بأساً وقوة وهي عنزة (باستثناء فخذ الرولة) وكذلك آل حرب، والقسم الأكبر من شمر. أي أن انتفاضة البدو لم تكن شاملة الأمر الذي أنقذ النظام الملكي.

في مطلع عام 1926 اجتمع فيصل الدويش وأبن حثلين وأبن بجاد في الغطغط وأعدوا قائمة بمآخذهم على عبد العزيز، وصارت هذه القائمة أساساً للتهم التي وجهت للملك في الاجتماع العام الذي عقده زعماء الإخوان من مطير وعتيبة و العجمان في تشرين الثاني _كانون الأول (نوفمبر _ديسمبر)1926 في الارطاوية. وقد وجهت للملك سبع تهم:

1) سفرة أبنه سعود إلى مصر (أثر حادث المحمل).

2) سفرة أبنه فيصل إلى لندن (في آب (أغسطس) 1926 لتفاوض مع الإنجليز)، الأمر الذي يعني التعاون مع بلد الشرك.

3) استخدام التلغراف والتلفون والسيارة في أراض إسلامية. وكانت هذه النقطة خليطاً من الاحتجاج الشعبي على تعزيز السلطة المركزية والعصبية البدوية.

4) فرض رسوم جمركية على مسلمي نجد، وكان هذا في الواقع احتجاجاً على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب التي تجبى مركزياً.

5) منح قبائل الأردن والعراق حق الوعي في أراضي المسلمين _ وهذا انعكاس للصراع بين القبائل في سبيل الحصول على المراعي.

6) حظر المتجارة مع الكويت. فلو كان سكان الكويت كفاراً فإن على عبد العزيز إعلان الجهاد ضدهم، وأن كانوا مسلمين فلا يجدر به الوقوف ضد المتاجرة معهم.

7) التسامح مع الخوارج (الشيعة) في الأحساء والقطيف. فقد أراد الأخوان لعبد العزيز أما أن يهديهم إلى الإسلام أو يقتلهم(29).

شعر عبد العزيز أن استياء الأخوان قد يتخذ طابع انتفاضة صريحة، فغادر الحجاز على عجل وعاد إلى الرياض في كانون الثاني (يناير) 1927. وفي أواخر هذا الشهر دعا إلى العاصمة زهاء ثلاثة آلاف من الأخوان، وفي هذا الاجتماع قدم فيصل الدرويش وابن بجاد وغيرهما من زعماء الأخوان المنشقين بودهم السبعة. لم تكن الانتفاضة قد اتخذت طابعاً صريحاً بعد، لذا أخذ أبن سعود يبحث عن حل وسط فوافق على تقليص الضرائب ولكنه رفض نبذ

اللاسلكي والسيارة. بل أنه اقنع الحاضـرين بمبايعتـه ملكاً لنجد والحجاز فاصبح لقبـه "ملـك الحجـاز ونجـد وملحقاتها"(30)

في شباط (فبراير) 1927، أصدر علماء الريـاض الذين أقلقتهم مطالب الإخوان فتـوى اشـتهرت فيمـا بعد. وقد وقعها 15 عالماً الأمر الذي يـدل على مـدى تعقد الوضع. وتظاهر العلماء بأن موقفهم محايـد إزاء التلغراف، ولكنهم نصحوا الإمام بهدم مسجد الحمـزة وإرغـام الشـيعة على دخـول الإسـلام أو طـردهم من البلــد. (نــذكر بــأن الوهــابيين لا يعتــبرون الشــيعة مسلمين). وطالب العلماء الملك بمنع شـيعة العـراق من الرعي في أراضي المسـلمين). كمـا طـالبوا بـأن يعيــد الملــك الضــرائب المســتوفاة خلافــاً للشــرع، ولكنهم أشــاروا في الــوقت نفســه إلى أن فــرض ضرائب غير شرعية ليس سـبباً كافيـاً لتصـديع وحـدة المسـلمين. كمـا أكـدوا على أن الإمـام هـو الشـخص الوحيد الذي يمكنه إعلان الجهاد(31).

في مطلــع نيســان (إبريــل) 1927، قــرر عبــد العزيز أن يعقد اجتماعاً آخر لشـيوخ القبائـل وزعمـاء الإخوان، فوفد إلى الريـاض مـا يزيـد على ثلاثـة آلاف من الإخوان، ولم يحضـر أبن بجـاد. وفي هـذه المـرة حاول عبد العزيز عزل فيصل الـدويش الـذي اعتـبره خصمه الرئيسي. ويبدو أن عبد العزيز تمكن في هـذا اللقـاء من اسـتمالة فخـذ من مطـير وجعلـه معاديـاً لفيصل(32).

لكن الحركــة المعارضــة لأبن ســعود لم تقتصــر على الإخوان. ففي صـيف 1927، اكتشـفت مـؤامرة

تهدف إلى اغتيال سعود بن عبـد العزيـز في الريـاض وعبـــد اللـــه بن جلـــوى في الأحســـاء. وزعم أن بين المتآمرين شقيق عبد العزيز محمد وأبنه (أبن محمد) خالد(33).

لم يجرؤ فيصل على تحـدي الملـك جهاراً، فأخـذ يستعد لشن غزوات على العراق وكان يأمل من وراء ذلـك توزيـع الغنـائم على أتباعـه وحمـل الملـك على مسـاندته أو، بخلاف ذلـك، البرهنـة على إنـه لم يعـد مجاهداً في سبيل اللـه(34). ظـل الملـك يـترقب، إذ إن "الحذر كان دوماً السمة المميزة لعبـد العزيـز بن سعود _كما يقول غلوب ـ وكان واثقاً من قدرته على هزيمـة خصـومه من أمـراء الجزيـرة، ولكنـه لم يكن مسـتعداً لخـوض معـارك حربيـة ضـد بريطانيـا. أمـا الإخوان فقد كانوا مستعدين لإيراد أقوال عبد العزيــز السـابقة كحجـة ضـده. واعتـبروا العراقـيين خـوارج وأعـداء اللـه وقـالوا أن أرواحهم وممتلكـاتهم مباحـة للإخوان باعتبـارهم المؤمـنين بالـدين الحـق. غـير أن عبد العزيز كان مثالاً للحذر والتبصّر ولئن أيد العصبية فقد كـان ذلـك لغـرض وحيـد وهـو اسـتخدامها كـأداة لبلوغ مآربه، بينمـا لم يكن هـو نفسـه متعصـباً قـط"(35).

على الرغم من أن وضع أبن سعود في المملكـة صار مهزوزاً فأن الدبلوماسـية البريطانيـة ظلت تـرى فيه القوة الفعلية الوحيدة في الجزيـرة، القـوة الـتي تعتزم التعاون معهـا. وتخلت بريطانيـا عن آمالهـا في فرض أو إبقاء الحماية على الحجاز ونجـد وملحقاتهـا. وكانت مملكة الجزيـرة المتراميـة الأطـراف والقليلـة

السكان محاطة بمستعمرات أو محميات أو بلدان تابعة للندن. وقدر الإنجليز أن المملكة، حتى وإن ظلت مستقلة، ليس بوسعها اتخاذ أي خطوات تضر بالمصالح البريطانية.

في أيار (مايو) 1927، أجرى المندوب البريطاني كلايتون مفاوضات مع عبد العزيز في جدة، وفي العشرين من الشهر عقدت "معاهدة الصداقة وحسن تفاهم". وقد ألغت هذه المعاهدة النافذة لمدة سبعة أعوام، اتفاقية عام 1915 واعترفت "بالاستقلال التام والمطلق" لممتلكات ابن سعود. ومن الناحية الشكلية لم تنص المعاهدة على أي امتيازات خاصة لبريطانيا، ولكن ابن سعود التزم بالاعتراف بأن لها (أي بريطانيا) علاقات خاصة مع الخليج ومحميات عدن. ولم يعترف الملك بإلحاق العقبة ومعان بشرق الأردن، إلا أنه التزم بمراعاة الأمر الواقع لحين رسم الحدود بين الحجاز وشرق الأردن، إلا أنه التزم بمراعاة الأمر الواقع لحين رسم الحدود بين الحجاز وشرق الأردن بشكل نهائي(36). وكانت المعاهدة نجاحاً هاماً للدبلوماسية السعودية وقننت استقلال الدولة الجديدة.

وسرعان ما أعطى الإنجليز الإخوان ذريعة لغزو أراضي العراق.ففي أيلول (سبتمبر) 1927، أرسلت مجموعة من الشرطة العراقية إلى آبار البضية الواقعة على الأراضي العراقية على مقربة من الحدود لبناء مخفر هناك. وقد احتج عبد العزيز استناداً إلى اتفاقية المحمرة والبروتوكول رقم واحد الموقع في العقير. وردت الحكومة العراقية بأن

البضـية تقـع داخـل بعـد 80 ميلاً عن الحـدود، وإن المخفـــر للشـــرطة وليس للجيش، في حين أن النجديين لم يكونوا يفرقون بين الشـرطي والجنـدي(37). ولم يأبه الإنجليـز باحتجاجـات أبن سـعود الـذي طالب بإزالة المخفر، وذلك تحت ضغط الإخوان.

في ليلـة السـادس من تشـرين الثـاني(نوفمـبر) 1927، أبـاد مطـير كـل رجـال الشـرطة العراقـيين باستثناء واحد. وتدخلت إلى جانب العـراق الطـائرات البريطانيـة الـتي ألقت قنابلهـا على البـدو(38). وفي مطلع كانون الأول (ديسـمبر) هـاجم 300 من مطـير أراضي الكـويت إلى الشـمال الشـرقي من الجهـراء. وفي 13 من الشهر نفسه طلب أبن الصباح مسـاندة الطـائرات البريطانيـة لمجابهـة الغـزوات. ولكن أبن سعود كـان قبـل ذلـك قـد أبلـغ الحكومـتين العراقيـة والكويتية بـأن هـذه الغـزوات تجـري خلافـاً لأوامـره(39). وفي 16 كانون الأول، أعيد بنـاء مخفـر البضـية وربطت فيـه فصـيلة من الجيش العـراقي(40). ومن كانون الأول (ديسـمبر) 1927 اسـتخدمت الطـائرات البريطانية على نطاق واسع ضد الإخـوان، ولكن كـان من الصعب في الصحراء تمييز الإخـوان عن غـيرهم، فـأدت الغـارات إلى مصـرع سـكان مسـالمين. وقـد استمرت غزوات الإخوان حتى شباط (فبراير).

وقد قال غلوب الذي عاصر تلك الأحداث وشارك فيها: "عـام 1927 لم يعـد أبن سـعود مسـيطراً على الوضــع ســيطرة تامــة. فقــد أغــترّ الإخــوان، أثــر انتصاراتهم في الحجاز، بقوتهم وزعمـوا أن سـيوفهم هي التي أعلت كلمة أبن سعود. وأدرك الإخـوان أنهم

عماد جيش الملك الذي لم يكن لديه قوات نظامية لضبطهم. وكانت الانتفاضة الصريحة ضد أبن سعود صعبة، فهو الإمام ويحظى بتعاطف أهل نجد. ولكنهم اعتبروا أن من الواجب المقدس محاربة الشيعة العراقيين، لأنهم خوارج ولكنهم تحت حماية الإنجليز. وأتهم أبن سعود بالتسامح بالدين ورفض محاربة أعداء الله. ولم يكن النجديون، رغم مساندتهم لأبن سعود، مستعدين لاستخدام القوة بهدف منع الإخوان من شن الغزوات على العراق التي تعني الاصطدام ببريطانيا. كما لم يكن بوسع أبن سعود أن يعترف للدول الأخرى بأنه لا يسيطر على رعاياه، وفي الوقت نفسه فأن الادعاء بأنه سيطر تماماً عليهم كان ليعني تحمل مسئولية غزوات الإخوان. وقد أعطاه بناء مخفر البضية ذريعة لاتهام العراق بالعدوان. وهكذا أصبح العراق بمثابة العدو المشترك لأبن سعود والإخوان(41). وفي هذا الظرف آثر ملك الحجاز ونجد الاستمرار في تريثه. وفي (مارس) 1928، عاد مطير إلى هجرهم بعد غزوات موفقة(42).

في كانون الثاني (يناير) 1928، التقى حافظ وهبة بالمندوب البريطاني هنري دوبس في الكويت، بعد أن حذر الإنجليز أبن سعود من أن الطيران سوف يستخدم بكل ضرورة ضد الإخوان إذا لم يوقف الملك الغزوات. ولكن الإنجليز استمروا في تزويد الملك بالذخائر. وفي آذار (1928) أعلن ناطق باسم الحكومة البريطانية في مجلس العموم أن

بلاده أعطت خلال الأشـــهر الأخـــيرة ثلاث مـــرات ترخيصاً بتصدير الذخيرة إلى أبن سعود(43).

في مطلع نيسان (إبريل) 1928 عقد في بريـدة لقاء آخر مع الإخوان، ولكن فيصل الدويش وأبن بجاد لم يحضـرا إلى المدينـة، بينمـا رفض عبـد العزيـز الالتقاء بهمـا في الباديـة. ووعـد الملـك الإخـوان بأنـه سـيجري مفاوضـات مـع الإنجلـيز ويحتج على إقامـة المخفر(44).

في أيار (مايو) 1928، جرت مفاوضات بين عبـد العزيز والمندوب البريطاني كلايتون، ولكنها لم تسفر عن شـيء، كمـا لم يتمخض عن نتيجـة اللقـاء الآخـر الذي عقد في آب (أغسطس) من العام نفسـه. وقـد أحس الإنجليز بـأن عبـد العزيـز أخـذ يفقـد السـيطرة التامة على البلد. وأدرك الطرفان إنه لم يتبق لـديهما سوى ستة أشهر يحـل بعـدها موسـم الـرعي الجديـد الذي تعـود فيـه منـاطق الحـدود إلى حالـة الفوضـى(45).

أمضى عبـد العزيـز صـيف عـام 1928، كلـه في مكـة يشـن هجمـات إعلاميـة ضـد العـراق، يبـدو أن الغرض منها إقنـاع الإخـوان بتمسـكه بأصـول الـدين. ويقول فيلبي "إن أبن سعود شعر بالحاجـة إلى الحـد من تعصـب أتباعـه. وكـان يعـرف أن الحــرب مــع العـراق، مـع القـوات البريطانيـة تعـني كارثـة، فقـرر تحاشيها بأي ثمن. ولكنه كـان يحس أيضـاً أن الغليـان في البادية بلغ حد تحديه لتسـامحه مـع المشـركين"(46).

وضع كبار زعماء الانتفاضة الاخوانية خطط اقتسام ممتلكات أبن سعود. فقد أستقر الرأي على أن يكون فيصل الدويش حاكماً لنجد وأبن بجاد للحجاز وتعطى الأحساء لأبن حثلين. ووعد نداء بن نهير، وهو من أبناء أحد أفخاذ شمر، بتنصيبه حاكماً للحائل إذا ما أنضم إلى قادة الإخوان ولكنه آثر التريث وظل وفياً لأبن سعود(47).

في أيلول (سبتمبر) 1928، عاد الملك إلى الرياض ووجد أن بعضاً من أفخاذ العجمان قد اتحد مع فيصل وأبن بجاد. أخذ الملك يعمل على عقد الجمعية العمومية للحضر والإخوان وحدد شهر تشرين الأول (أكتوبر) موعداً لها ولكن الجمعية لم تنعقد إلا في 6 كانون الأول (ديسمبر) 1928(48). حضر الجمعية العمومية زعماء الإخوان وشيوخ العشائر وأشراف المدن وعلماء الدين، وتجاوز العدد الإجمالي للحاضرين ومرافقيهم الـ 800 شخص، وتغيب عن الجمعية فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وأبن حثلين، ولكن فيصل أوفد أبنه عزيز لحضورها. تحدث عبد العزيز في الحاضرين طويلاً وعدد منجزاته ومنها توحيد الجزيرة وإقامة صرح السلام. ثم لجأ إلى حركة مسرحية باقتراحه التنازل عن العرش شريط أن يبايع المجتمعون واحد من آل سعود ملكاً، وقال إنه سوف يساعد من يختارونه. وتحدث عبد العزيز عن مفاوضاته مع الإنجليز وقال إن غزوات فيصل الدويش هي سبب تعنتهم.

فعلت الحركة المسرحية فعلها في الحاضرين، وخصوصاً سكان الحواضر وواحات نجد، الركيزة

التقليدية لآل سعود، والذين كانوا يعرفون حق المعرفة ما قد يعنيه بالنسبة لهم غياب عبد العزيز وانتصار فيصل الدويش وأبن بجاد. ووسط صياح "لا نريد بك بديلاً" أعرب كل الحاضرين عملياً عن تأييدهم لسياسته و "إنكارهم" لزعماء الإخوان الثلاثة(49). ومن الواضح أن المجتمعين كانوا يدركون أن أبن سعود لا يتنازل عن العرش طائعاً، وإنه كان قد بلغ من القوة والذكاء حداً كبيراً وأصبح مستعداً لمحاربة الإخوان. وتيقن أعيان الحواضر من ضرورة محاربة الإخوان، وقد لعب دوراً في ذلك السعي لحماية مصالحهم في مواجهة البدو الثائرين، إلى جانب نفور الحضر من البدو(50). غير أن الصعوبة تمثلت في أن حركة الإخوان اتخذت طابعاً دينياً وزعم قادتها الثلاثة أنهم حماة الدين الحقيقيون وأن عبد العزيز يقدم مصالحه الشخصية على الإسلام ويتعاون مع الإنجليز الكفار(51).

ومع بداية موسم الرعي غدا واضحاً أن الحرب الأهلية قائمة لا محال، رغم أن قبائل كثيرة اتخذت موقف التريث. وعوضاً عن الوقوف جهاراً ضد عبد العزيز آثر زعماء الإخوان الثلاثة شن غزوات على العراق لكي لا يتهموا بالعصيان.

هاجم بن بجاد قرية الجميمة على الحدود مع العراق، وقتل كثيراً من التجار بينهم عدد من أهالي نجد، ثم هاجم شمر. وقد جعل الإخوان أكبر القبائل وهي عنزة وقبيلة حرب الحجازية تتألبان ضدهم. وحصل أبن سعود الذي كان قبل شهر مهتز الثقة بنفسه، على دعم من البدو

والحضر في نجد. وأبدى فيصل الدويش كياسة سياسية أكثر من أبن بجاد فأقتصر على مهاجمة العراقيين متظاهراً بأنه من رعايا الملك الأوفياء ولم يقطع الأواصر معه بشكل لا رجعة فيه، كما إن الخلافات بينه وبين أبن بجاد تزايدت. وبعد مذبحة الجميمة وصل أبن سعود إلى القصيم حيث جهز حملة من المتطوعين النجديين الذين التحقوا بقواته عن طيب خاطر لأن المزارعين والتجار لم يشعروا بالأمان طالما استمر الإخوان البدو في نهبهم وتقتيلهم. وسار في ركب أبن سعود فخذ من العتيبية على رأسه عبد الرحمن بن ربيعان منافس أبن بجاد ومشاري بن بصيص من مطير ودليم بن براك من هتيم وعدد كبير من قبيلة حرب وكل شمر نجد تقريباً وجزء كبير من قبيلة الظفير وجزء من عنزة الحجاز، وكذلك ولد سليمان وغيرهم وصار حضر نجد العمود الفقري لقوات الملك(52).

في مطلع آذار (مارس) 1929، بدأ أبن سعود حملته، وكان أبن بجاد وفيصل عند آبار السِّبْلة(53).

جرت سلسلة من المفاوضات، وزار فيصل الدويش معسكر عبد العزيز ثم عاد إلى جماعته(54). وفي اليوم الثاني، في 31 آذار (مارس) 1929، نشبت معركة السبلة. فقد حشد أبن سعود في الوسط مشاة من أهالي نجد، وجعل إخوانه وأبناءه على رأس مجموعات وبدأ الهجوم؛ وكان المتطوعين من البدو على الميمنة والميسرة. خسر الإخوان المعركة وأصيب فيصل الدويش بجرح بالغ في بطنه، وتقدم سعود بن عبد العزيز على رأس

مجموعة من أهالي الرياض وحرس الملك. ليكمل الانتصارات. وتحمل حضر نجد العبء الأساسي في المعركة(55).

هرب فيصل الجريح إلى الارطاوية وأوفد نساءه إلى الملك لكي يطلبن منه الرأفة والعفو. وحينما علم عبد العزيز بأن فيصل أصيب بجرح شديد لان وعفا. وبعث بطبيبه الخاص إلى فيصل. ويبدو أن الغرض لم يكن المداواة فقط، بل معرفة مدى خطورة الإصابة. وعلى أي حال فقد أدرك عبد العزيز أن فيصل لم يعد له وجود كمنافس له(56).

أما أبن بجاد فقد عاد بعد المعركة إلى الغطغط. وبعث إليه الملك رسالة يطلب منه فيها أن يستسلم هو وشيوخ القبائل الذين شاركوا في الانتفاضة. وقد انصاع أبن بجاد فحُبس وسواه من زعماء الانتفاضة في سجن الأحساء وهناك قضوا نحبهم. وأمر عبد العزيز بتجريد هجرة الغطغط من السلاح وهدم بيوتها. ومازالت أنقاضها قائمة حتى اليوم(57).

اعتقد الملك أن انتفاضة الأخوان قد قمعت، فقصد المدينة ثم مكة للحج في أيار ـ حزيران (مايو ـ يونيو) 1929

المرحلة الثانية من الانتفاضة. غير أن فيصل الدويِّش ظل على قيد الحياة ولم تحبط عزائمه، فعاد إلى تدبير غزوات ضد العراق.

وفي تلك الأثناء، كان أبن جلوي قد قرر معاقبة العجمان(58). ورغم عدم اشتراك ضيدان بن حثلين وقبيلته في معركة سبلة، إلا أن أبن جلوي اعتبر تصرفات العجمان السابقة حجة كافية لضربهم.

وأوفد عبد لله بن جلوي أبنه فهد لأسر ضيدان بن حثلين بالقرب من هجرته في الصرار. وقام فهد باستدراج ضيدان إلى لقاء في البادية حيث أسره. وحينما اكتشف الأخوان من جماعة أبن حثلين أن زعيمهم لم يعد، طوقوا فوراً معسكر فهد الذي أمر بقتل ضيدان وخمسة من صحبه وتلت ذلك معركة قتل أبانها فهد، بينما انضم إلى المتمردين نايف بن حثلين وهو من أقارب ضيدان وكان سابقا من المعارضين للإخوان. وأدرك زعماء هجرة الصرار أن عبد الله بن جلوي سيعمل فور سماعه بمقتل أبنه على مهاجمتهم، لذا لّموا ماشيتهم وحوائجهم ونزحوا إلى الشمال(59). ويقول ديكسون أن الغدر بضيدان ألب بدو المناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ضد عبد العزيز رغم أنه لم يكن مسئولاً عن ذلك(60). وعاد جمع كبير من العجمان الذين هجرا أراضي الكويت بضغط من الإنجليز، إلى الأحساء وانضموا إلى أفراد قبيلتهم.

بيد أن حلول الصيف وضع حداً للمعارك الكبرى، وكان العجمان قد تمكنوا من الحصول على بعض العون من الكويت حيث اشتروا مؤناً وذخائر في أسواقها. واحتج عبد العزيز فيما بعد لأن الإنجليز تغاضوا عن هذه المشتريات(61). ولكن كان في العراق والكويت من يتعاطف مع الثائرين لذا لم يكن بوسع الإنجليز السيطرة على كل الأمور. وازدادت قناعة الإنجليز من أن تحقيق أهدافهم في الكويت والعراق والأردن يتطلب منهم أن يساعدوا أبن سعود في قمع انتفاضة الأخوان وتوطيد نظامه.

انضم فيصل الدويِّش الذي قرر أن يرفع راية الانتفاضة مجدداً، إلى العجمان، وفي منتصف تموز (يوليو) عمل وإياهم على قطع الطريق بين الرياض والهفوف. وقطعت عتيبة سبل الاتصال بين الحجاز ونجد. وفي البدء كان العجمان يرومون مهاجمة القطيف والمدن الساحلية في الأحساء ولكن العوازم اعترضوا طريقهم. هاجم العجمان العوازم لسلبهم ولكنهم ردوا على أعقابهم. وكانت تلك هزيمة نكراء مني بها العجمان ومطير لأن العوازم يعتبرون من "مجهولي النسب" أو الهتمان.

دارت في البلد رحى حرب أهلية، وصار جامعو الخراج عرضة للقتال في كل مكان. ولم تعد طرق القوافل في الحجاز ونجد والأحساء آمنة(62).

عاد الملك إلى الرياض في تموز (يوليو) 1929 ومعه 200 سيارة لاستخدامها ضد المنتفضين. واتفق في الحجاز على شراء أربع طائرات وخطط لإقامة شبكة من محطات الإذاعة في البلد. ولم يرس طلب إقامة الإذاعات على شركة ماركوني إلا في أواخر عام 1930، أما الطائرات فقد وصلت إلى سواحل الأحساء في نهاية عام 1929 حيث انتفت الحاجة لاستخدامها ضد البدو(63).

في أيلول (سبتمبر) قرر أبن سعود القضاء على الثائرين. ودعا أمراء القطيف والأحساء و القصيم وحائل إلى تزويده بالرجال والمال والسلاح، واستنفر أهالي نجد من بدو وحضر، كما حصل على مؤازرة الهجر التي لم تنضم إلى فيصل الدويش.

أنـزلت ضـربة قويـة لفيصـل الـدويش في أيلـول (سـبتمبر)، حينمـا ألحقت قـوة يترأسـها أبن مسـاعد، الهزيمة بقوات مطير بقيادة الشاب عزيـز بن فيصـل الدويش الذي قتل هو ونخبة من مطير في المعركـة(64).

وبعد بضعة أيام مني الـدويش بهزيمـة أخـرى، إذ إن فخذاً من عتيبة له علاقـة بـالإخوان هـزم من قبـل فخذ آخر من القبيلة نفسها ظل مخلصـاً لعبـد العزيـز وساندته وحدة بقيادة أبن لؤي من الخرمة(65).

انتهى أمر الانتفاضة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1929، هـرب فيصـل إلى الكـويت آملاً في الحصـول على حق اللجوء له ولرجاله ولإبقاء أفراد عائلته هناك وأخـذ وعـد من الإنجلـيز بعـدم قصـف مطـير. ولكن الإنجلـيز ظلـوا يسـوفون ولم يعملـوا أي ضـمانات. وكثرت حالات عبور الإخـوان الحـدود مـع العـراق في مجموعات غير منظمـة هربـاً من أبن سـعود. وكـانت القوات العراقية محتشدة إلى الشـمال من الكـويت، وقامت المصفحات البريطانية بطرد الإخوان ليعـودوا إلى الأراضي السعودية(66).

وفي تشـرين الأول (أكتـوبر) 1929، أعلن عبـد العزيـز أن كـل من اشـترك في "الفتنـة" يؤخـذ مالـه وجميع ما لديـه من إبـل وخيـل وسـلاح، وإن كـل من مالأ المنتفضين تؤخذ منه الذلول والفـرس والبنـادق، على أن يقسـم كـل مـا ينـتزع من المنتفضـين على المشاركين في المعارك إلى جانب الملك. وأمـر بـأن كـــل هجـــرة "غلب الفســاد على أهلهــا يطـــردون

منهـا...ولا يسـمح لفريـق منهم بالاجتمـاع في مكـان واحد"(67).

في كانون الأول (ديسمبر) عام 1929 جمع عبـد العزيـز قـوة من حضـر العـارض والوشـم و القصـيم وبعض الأفخاذ الموالية لـه من مطيـة وعتيبـة وحـرب ووحدات من قبائـل سـبيع وقحطـان والدواسـر، وبـدأ بمطاردة فيصـل. وجـرت اشـتباكات أدت إلى هزيمـة الإخــوان، وفي أواخــر الشــهر نفســه بعث فيصــل الـدويش رسـالة إلى عبـد العزيـز يطلب فيهـا العفـو والأمان. ورد الملك بأن فيصـل لم يعـد لـه الحـق في العفو. غير أن المكاتبات استمرت بين الجانبين(68). وفي الـوقت نفسـه بعث فيصـل رسـالتين إلى ملـك العراق وإلى الكابتن البريطاني غلوب يزعم فيها بـأن مطـير من رعايـا العـراق المخلصـين. ولكن الإنجلـيز كـانوا يميلـون إلى القضـاء على الإخـوان. وفي نهايـة كانون الأول، أصبحت فلول قوات الدويش محصــورة بين قــوات عبــد العزيــز والقــوات البريطانيــة على الحدود بين نجد والعراق والكويت. وكانت قوات عبـد العزيز ومدرعاته أكثر بكثير من المتمردين(69).

في إحدى المعارك هزم آل حرب نفراً من مطير ففر هؤلاء إلى الكـويت(70). وحينمـا نمـا الخـبر إلى فيصـل عـبر في مطلـع كـانون الثـاني 1930 حـدود إمارة الكويت. وحالما علم عبد العزيز بذلك كتب إلى المقيم البريطـاني في الكـويت ديكسـون يحتج على السـماح للإخـوان بالالتجـاء إلى الكـويت والعـراق والأردن. وفي اليوم التالي تلقى تعهداً بأن المتمردين سوف يُطردون(71).

ولكن لا يستبعد أن السلطات البريطانية والعراقية والكويتية كانت تريد الإبقاء على زعماء الإخوان كأداة في يدها للضغط على أبن سعود.

استسلم فيصل الدويش وسواه من زعماء الإخوان إلى السلطات البريطانية في العاشر من كانون الثاني (يناير) 1930، فنُقلوا بالطائرات إلى البصرة حيث وضعوا على متن بارجة بريطانية في شط العرب(72). وبعد يومين طالب عبد العزيز بتسليم زعماء الإخوان. وكان ملك العراق فيصل يدعو إلى منح حق اللجوء للإخوان ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه في الرأي. وصل إلى معسكر أبن سعود وفد بريطاني وجرت مفاوضات تم بعدها التوصل إلى اتفاق حول تسليم زعماء الإخوان للملك. ووعد بالإبقاء على حياتهم، ومنع الغزوات على العراق والكويت. كما أن عبد العزيز تعهد بتعويض العراق والكويت عما ألحق بهما من أضرار ودفع عشرة آلاف جنيه تعويضاً عن الخسائر التي سببتها غزوات الإخوان، وإن يعين في أي وقت مندوبين إلى المحكمة المشتركة وفقاً لاتفاقية بحرة(73).

في 27 كانون الثاني (يناير)، نقل زعماء الإخوان الثلاثة إلى مخيم عبد العزيز حيث استقبل الملك عدوه اللدود المهزوم باللوم. ورفض فيصل الاعتراف بأنه ارتكب معصية أو خطأ. وقد بقل المعتقلون إلى سجن الرياض(74)، وتوفي فيصل في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) 1931 في السجن. وظل حتى الرمق الأخير ثابت الجنان ومات وهو يقسم بمحاسبة

عبد العزيز في يوم القيامة(75). وهكـذا انتهت حيـاة فيصل الدويش، واحـد من أبـرز زعمـاء البـدو، ولعلـه آخر وأكـبر ممثلي عهـد انصـرم، وسـرعان مـا تـوفي البــاقون من زعمــاء الإخــوان في الســجن، ولعــل السجانين قد "أعانوهم" في ذلك(76).

في كانون الثاني (ينـاير) 1930، انتهت انتفاضـة الإخوان عملياً. ولذا انهـزمت وتلاشـت حـركتهم الـتي لعبت دوراً هامــاً في تعزيـــز ســـلطة أبن ســـعود وغزواته.وتوقفت حتى عملية تحضـر البـدو وانتقـالهم إلى الزراعة(77). وكانت للدولة الإقطاعية المركزيـة الغلبـة على الحركـة الشـعبية للبـدو الـذين قـاوموا، بشــكل غريــزي، تشــديد الاضــطهاد ووقفــوا ضــد التطلعات الإقطاعية الانفصالية لزعمائهم(78).

أصبح بـدو الجزيـرة ولعقـود طويلـة تحت وحمـة السلطات المركزيـة.ولكن لا يسـتطيع أحـد أن يجـزم ويحدد بثقـة الجـانب الـذي سـيلتزمه البـدو في حالـة الصراعات المحتملة مستقبلاً.

في 20 شباط (فبراير) 1930 وصل عبد العزيــز إلى رأس تنورة، واستقبل على متن بارجـة بريطانيـة حيث التقى بالمندوب السامي البريطاني في العـراق همفرز والملك فيصـل. وخلال اللقـاء الـذي دام ثلاثـة أيام تبادل العاهلان العتاب، ولكن المصالح المشـتركة كـانت لهـا الغلبـة في آخـر الأمـر، فاتفقـا على عقـد معاهدة للصـداقة وحسـن الجـوار وقعت بعـد أسـابيع بإلحاح من بريطانيين. وإلى بضع سنوات خلت كانت الأسرتان المالكتان تتحاربان في الحجاز الذي اعتـبره الهاشــميون ملكــاً متوارثــاً لهم. ولم تنس أســرة

الشريف قط فقدانها مكة والمدينة والهزائم المنكرة التي ألحقها بها أبن سعود. بيد أن متطلبات السياسة الواقعية كانت الأقوى. وقرر العاهلان تبادل الاعتراف بينهما كملكين للدولتين وتبادل المبعوثين الدبلوماسيين واحترام كل طرف لحقوق العشائر والأراضي المشمولة بسيادة الطرف الآخر(79).

بدأ أن النظام السعودي قد أنجز بنجاح حل مشاكله الخارجية والداخلية، وصار بوسعه الخلود إلى عهد من الاستقرار النسبي. وكان على أبن سعود أن يمر، قبل حلول هذا العهد، باختبارين جديدين هما الحركات المسلحة في الحجاز وعسير والحرب مع اليمن، وأن لم يشكلا خطراً على سلطته.

التحركات المسلحة ضد أبن سعود في الحجاز وعسير. أثار نظام أبن سعود الذي فرض بقوه السلاح في الحجاز استياء شطر من أعيان المنطقة. وحافظ أعيان كثيرون وخصوصاً من عائلة الشريف على صلاتهم بأشقاء علي وهو آخر ملك هاشمي. ولم ينس عبد الله بن الحسين عاهل الأردن قط هزيمته على يد الأخوان في معركة تربة. وقد أثارت غيظه معاهدة الصداقة بين ملك العراق فيصل وعبد العزيز، وعلى الرغم من الوجود البريطاني في شرق الأردن واعتراف بريطانيا الواضح بالنظام السعودي، فقد قرر عبد الله مساعدة العناصر المعارضة في الحجاز وتزويدها بالمال والسلاح.

بدأ أن وضع الاستياء العام الذي عم الحجاز في أواخر العشرينات كان في صالح المعارضين. وتعرضت نجد والحجاز لجفاف خلال عامين متتاليين.

وأدت الحرب الأهلية بين الأخـوان ونظـام أبن سـعود إلى دمار شامل وزعزعت الاقتصاد. وأحـدثت الأزمـة الاقتصـادية العالميـة لأعـوام 1929 _ 1933 آثـاراً موجعـة في الجزيـرة. فقـد هبـط تصـدير المواشـي والجلـــود والتمـــور، ولم يكن ثمـــة مـــال لتغطيـــة اسـتيرادات المـواد الغذائيـة، وتقلص عـدد الحجـاج بشـكل مأسـاوي (من 191 ألفـاً عـام 1926 إلى 29 ألفــاً عــام 1932)(80).وخــوت الخزانــة.وشــرع الموظفون الذين لم تدفع رواتبهم لعدة أشهر بفرض إتاوات على السكان وتوقف دفع المخصصات لشيوخ العديد من القبائل. وبدأ الجوع يجتاح البلد(81).

غـير أن الوضـع الاقتصـادي المـزري واسـتياء السـكان لم يكونـا كـافيين بحـد ذاتهمـا لكي تحـرز الحركـات المناوئـة للسـعوديين داخـل البلاد نجاحـات تذكر. وكان قد أنشأت في مصـر، بعيـد سـقوط جـدة رابطة الـدفاع عن الحجـاز ومن قادتهـا عبـد الـرؤوف الصـبان والشـقيقان الـدباغ. وكـان الـنزاع بين ملـك مصر فؤاد وأبن سعود قـد دفـع المصـريين إلى تأييـد هـذه المنظم المهجريـة(82). في أواخـر العشـرينات أسـس المعارضـون الحجـازيون، بتشـجيع من الملـك عبد الله، حزب الأحرار الحجازي لطـرد النجـديين من الحجاز وإقامة دولة مسـتقلة. وتـزعم الحـزب طـاهر الدباغ الـذي كـان في زمن الملـك سـكراتيراً للحـزب الوطـني الحجـازي. وكـان بين قـادة الحـزب الجديـد الشريف شاكر والشريف خالد وحسـين الـدباغ وعلي الــدباغ ومحمــد أمين. وحــاول الأحــرار الحجــازيون تأسـيس فــروع للحــزب في مختلــف مــدن العــالم

العـربي. وتوجـه حسـين الـدباغ إلى القـاهرة مـزوداً بمبلغ كبير من المال، حيث أقام صلة بحامد بن سالم أبن رفادة الملقب بالأعور وهو من شـيوخ قبيلـة بلي الـتي غـادر عـدد من أفرادهـا الحجـاز إلى مصـر بعـد التحركات المناهضة لآل سعود عام 1929(83).

وجرت مساع لإيجاد أنصـار في جنـوب الجزيـرة، فــزار حســين الــدباغ عــدن حيث التقى بعــدد من الأدارسة القاطنين في المهجر. وكان يأمـل أن تـؤازر العمليات المسلحة في الشمال بانتفاضة في عسـير، تليها انتفاضـة شـاملة في الحجـاز. ولمـا عـاد حسـين الدباغ إلى القـاهرة أكـد لأبن رفـادة أن الاسـتياء يعم الجنوب وأن الناس هناك في انتظار إشارة البدء.

في أواسط أيار (مـايو) 1932 ، عـبر أبن رفـادة وقبيلتـه الحـدود المصـرية قـرب العقبـة حيث زوده سعود الدباغ بالمئونة. وسـرعان مـا ظهـر أبن رفـادة ومسلحوه في شمال الحجاز(84).

ويبدو أن نشاطات "أحرار الحجاز" لم تكن خافية على أبن سعود. فما أن علم بظهـور قـوة أبن رفـادة حتى أمر في حزيـران (يونيـو) 1932 باعتقـال جميـع المعارضين في مكـة فـوراً، وكـان بينهم عـدد من آل الـدباغ، وحظـر نشـاط كـل الأحـزاب السياسـية في الحجاز(85).

وفي الوقت نفسـه، أرسـل عبـد العزيـز وحـدات محمولـة بالسـيارات إلى ضـبا والبـدع لتطويـق أبن رفادة. وتـولت القـوات البريطانيـة إغلاق الحـدود بين شرق الأردن والسـعودية ووصـلت إلى العقبـة بـاخرة

بريطانية للحيلولة دون مرور المؤن والذخائر إلى الحجاز. وأغلق عبد العزيز الحدود من جهته(86).

لم يحصل أبن رفادة ومسلحوه من قبيلة بلي على دعم السكان فاحتموا بجبل شار على بعد 50 كيلو متراً من ضبا. واستدرجهم عبد العزيز من هناك بعد أن أوعز إلى أعيان ضبا بأن يبعثوا رسالة إلى أبن رفادة يعربون فيها عن استعدادهم للانضمام إلى حركته. فنزل زعيم البلي من الجبل ووقع في الكمين وطوقت وحدته وبعد معركة قصيرة دمرت تماماً. وفي هذه المرة استخدم عبد العزيز السيارات والمصفحات على نطاق أوسع مما كان أثناء قمع انتفاضة الأخوان(87).

لذا منيت مغامرة أبن رفادة و "أحرار الحجاز" بالهزيمة قبل أن تبدأ حركة أنصارهم المسلحة في عسير.

نصت المعاهدة المعقودة مع أبن سعود عام 1920 على احتفاظ محمد الادريسي بالسيادة على جنوب عسير وجزء من تهامة اليمن. ولكن الوضع أخذ يتغير بشكل جذري بعد الاستيلاء على الحجاز. ففي ظل الدولة السعودية القوية تحول "استقلال" إمارة الادارسة إلى مسألة شكلية صرف. واستغل إمام اليمن يحيى انشغال النجديين في عمليات بالحجاز، فضم إلى ممتلكاته الحديدة وجزءاً من تهامة في نيسان (إبريل) 1925، مما أدى إلى تأزم العلاقات بين أبن سعود ويحيى.

وبعد الاستيلاء على الحديدة تقدمت قوات أحمد بن يحيى نحو الشمال مهددة مراكز عسير الأساسية

وهي جيزان وصبيا وأبو عريش. وكان من الواضح أن الإمام يحيى يعتزم إلحاق جنوب عسير كله باليمن.

انتابت أمير عسير الجديد، الحسن الادريسي، مخاوف من اليمنيين، فعقد في 21 تشرين الأول (أكتوبر) 1926 معاهدة حول الحماية السعودية لإمارته، وتخلى الأدارسة عن الاستقلال في السياسة الخارجية ولكنهم احتفظوا باستقلال ذاتي في الشؤون الداخلية. وكانت تلك بداية النزاع السعودي اليمني. سحب يحيى قواته المرابطة بالقرب من جيزان وصبيا، وفي حزيران (يونيو) 1927، وصل صنعاء وفد سعودي للتفاوض. وأصر يحيى على أن عسير جزء من اليمن اقتطعه الادارسة "الغاصبون والطارئون" فيما مضى. وسعى السعوديون للبرهنة على أن هذه المنطقة لا ترتبط باليمن وطالبوا باستعادة جزء كبير من أراضي عسير التي احتلها الجيش اليمني عام 1925، وصولاً إلى باجل.

لم يكن اليمن مستعداً لتوسيع شقة الخلاف. فقد كانت حدوده الجنوبية تشهد اشتباكات متواصلة مع قوات بريطانيا ومحمياتها. وفي عام 1928 قصفت الطائرات البريطانية عدداً من المدن اليمنية.

في 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1930، فرض أبن سعود على الحسن الأدريسي معاهدة جديدة حولت سلطة الأمير إلى مسألة شكلية صرف. ونصت المعاهدة على أن السلطة بكاملها ستنتقل إلى أبن سعود بعد وفاة الحسن. وعند ذاك شرع الأدارسة بإقامة اتصالات سرية مع الإمام يحيى و "أحرار الحجاز".

شهد عاما 1931و1932 نزاعات مسلحة على الحدود السعودية اليمنية(88).

كان حسين الدباغ قد وصل إلى مدينة اللحية الساحلية عام 1930 مندوباً عن حزب الأحرار الحجازي، واتفق مع الحسن على القيام بعمليات مشتركة، وبدأ تزويد أمير عسير بالمؤن والذخائر. وفي عام 1932، حاول التحرر من الحماية السعودية.

بدأت الانتفاضة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1932، وبعد بضعة أيام دمرت قوات الحسن ففر إلى صبيا وجاء في تقرير للقنصلية السوفيتية في جدة "إن الحركة في الجنوب قد هيئت من قبل المنظمة نفسها التي وجهت نشاطات أبن رفادة صيف 1932، والتي عملت بإيعاز من عمان (شرقي الأردن)... وكان نشاط المنظمة، كما في حالة هجوم أبن رفادة على الحجاز، يهدف إلى إقامة اتصال مع سواحل عسير وإذكاء الدعاية المناوئة للسعوديين وإرسال موفودين إلى "بعض البلدان الأوربية" لشراء الأسلحة ونقل المؤن والذخائر إلى سواحل عسير بالقوارب الشراعية... وبعد بدء الانتفاضة وصل إلى جيزان قارب شراعي وعلى متنه علي الدباغ وعبد العزيز اليماني، وجلبا كمية من الأرز والطحين والتمر... ولكن بعد ثلاثة أيام من الحادث وصلت إلى جيزان وحدة حكومية ألقت القبض على اليماني. وحاول علي الدباغ الهروب على متن القارب الشراعي... وفيما بعد تلقت السلطات إبلاغاً بأن علي الدباغ غرق في البحر"(89).

أثر ذلك بقليل احتلت قوة سعودية بإمرة خالد بن لؤي وعبد العزيز بن مساعد عسير بأكملها. وحاول الادارسة والقبائل الموالية لهم المقاومة في الجبال، ولكنهم فروا فيما بعد إلى اليمن وطالب عبد العزيز بتسليم المتمردين ولكن الإمام يحيى اشترط لذلك أن يعد الملك بالعفو عنهم. وفي أيار (مايو) 1933، عاد عدد من الادارسة إلى مكة حيث ظلوا تحت المراقبة ويتقاضون مرتبات(90). وأصبح حاكم عسير يعين من قبل الرياض.

منذ صيف 1932، أصبح واضحاً أن النظام السعودي توطد وتحول إلى السيد غير المنازع في كل الأراضي الشاسعة لمملكة الحجاز ونجد وملحقاتها. وما السهولة التي تم بها قمع الانتفاضات في شمال الحجاز ومن ثم في عسير، سوى تأكيد على ذلك.

في 18 أيلول (سبتمبر) عام 1932، أصدر أبن سعود في الرياض الأمر الملكي بنظام "توحيد المملكة" التي تقرر أن تعرف من ذلك الحين باسم المملكة العربية السعودية. ويشير النظام إلى أن هذا التحويل لن يكون له أي أثر على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية التي تبقى على قيمتها ومفعولها، شأنها الأنظمة والتعليمات والأوامر السابقة (الزركلي 565). ويلزم النظام مجلس الوكلاء (الوزراء) الذي شكل في كانون الأول (ديسمبر) 1931 بوضع النظام الأساسي للمملكة ونظام توارث العرش(91). وفي عام 1933، عين عبد العزيز أبنه سعود ولياً للعهد(92).

ظـل أبن سـعود متمسـكاً بتكتيكـه المعتـاد في العفـو عن الخصـوم الـذين كفـوا عن محاربتـه في الـوقت المناسـب وشـراء المعارضـة، وأعلن عـام 1935 العفو العـام. وفي الـوقت نفسـه حـل "حـزب الأحـــرار الحجـــازي" نفســـه. وعـــاد كثـــيرون إلى السـعودية، فأصـبح طـاهر الـدباغ مـديراً للمعـارف والشيخ الصبان عضواً في مجلس الشورى(93).

الحرب السعودية اليمنية(94): ثمة أمور كثيرة كانت تجمع بين الحـاكمين السـعودي واليمـني. فإن كلاً منهما تزعم في نفس الـوقت تقريبـاً حركـة توحيـد بلـده. وكـل منهمـا حـارب الأتـراك وتمكن من الحصول على الاستقلال بعد الحرب العالميـة الأولى. وشـعر كلاهمـا بضـغط الإمبرياليـة البريطانيـة. ولكن الصـــراع على عســـير أدى بهمـــا إلى الاشـــتباك العسكري.

في نيسان (إبريل) 1933، وأثنـاء قمـع انتفاضـة القبائـل المناوئـة للإمـام في شـمال اليمن، اسـتولى الأمير أحمد على نجران بحجـة أن عشـيرة يـام الـتي تعتـبر فخـذاً من قبيلتـه همـدان اليمنيـة قـد سـاعدت المتمـردين. وفشـلت المفاوضـات الـتي أجراهـا وفـد سعودي في صنعاء لتسوية الـنزاع. وقـام الإيطـاليون بتحريض الإمام ووعده بالمساعدة، وذلك سـعياً منهم لتعزيز نفـوذهم في اليمن، كمـا حرضـه البريطـانيون الذين كانت لهم مصلحة في صرف اهتمام يحـيى عن محمياتهم في عدن.

عاود اليمنيون الهجوم في تشرين الأول (أكتوبر) 1933، واحتلـوا بـدر. وبـدأ الادارسـة يستنهضـون

أنصـــارهم من قبائــل عســير ضــد أبن ســعود. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) أمر أبن سعود بتعزيز القوات على الحـدود ووجـه إنـذاراً إلى يحـيى بوجـوب الجلاء عن الأراضــي المحتلــة وإعــادة الحــدود إلى ســابق عهدها وتسليم الادارسة.

وخشـية من ضـربة سـعودية قـدم الأمـام يحـيى تنازلات جزئية لبريطانيا لحماية حدوده الجنوبية. وفي شــباط (فــبراير) 1934، وقــع الحــاكم العســكري البريطاني في عدن ريلي معاهـدة في صـنعاء "حـول الصداقة والتعاون المتبادل". فسرها البريطانيون فيما بعـد على أنهـا تعـني موافقـة الأمـام على السـيطرة البريطانية في جنوب الجزيرة.

في أواخر شباط (فـبراير) وأوائـل آذار (مـارس) عـام 1934، عقـد في أبهـا لقـاء جديـد بين منـدوبي المملكـتين. وقـرر أبن سـعود التخفيـف من مطالبـه وعــرض أن تكــون منطقــة نجــران المتنــازع عليهــا محايدة. وبمـا أن يحـيى لم يعـط جوابـاً محـدداً، فـإن السعوديين بدأوا الهجوم.

كانت السعودية متهيئة للحرب أفضـل من اليمن. إذ كانت قد حصلت على قرض من شركة "سـتاندارد أويــل أوف كاليفورنيــا" وتمكنت من شــراء الســلاح. وظهرت لديها أول وحدات الجيش النظامي.

شـن السـعوديون هجـومهم بطـابورين: بمحـاذاة تهامة وفي الجبـال. وتمكن طـابور بـإمرة سـعود من الاستيلاء على نجران بسرعة، ولكن تقدمه تباطـأ في الجبال حيث كانت كل قرية قلعة حصينة.

وتقدمت قوة بإمرة فيصل في تهامة وفي الثاني من أيار (مايو) استولت على الحديدة دون أن تخوض معركة. وظهرت بعض الوحدات السعودية قرب تعز. ورفض أبن سعود اقتراح أبنه فيصل بالزحف على صنعاء. وقد أعاقت وعورة المنطقة تقدم السعوديين الذين لم يعتادوا خوض معارك في الجبال. أضف إلى ذلك إن سفناً بريطانية وفرنسية وإيطالية اقتربت من الحديدة، وأنزل الإيطاليون المؤيدون للإمام قوة في الحديدة. وأدرك السعوديون أنه لن يسمح لهم بإلحاق الحديدة ناهيك عن اليمن كله(95). وقرر أبن سعود الاكتفاء بالقليل.

في 15 أيار (مايو)1934، وقع الأمير فيصل وعبد الله الوزير، وهو من أقرب مساعدي الإمام، الهدنة واتفقا على شروط معاهدة الصلح. وفي العشرين من الشهر نفسه وقعا بالأحرف الأولى في الطائف على "معاهدة الصداقة الإسلامية والأخوة العربية". وأبرمت المعاهدة في اليمن والسعودية.وفي 23 حزيران (يونيو)، نشرت الصحف الرسمية في مكة وصنعاء وفي القاهرة ودمشق في وقت واحد نص المعاهدة. تضمنت المعاهدة 23 مادة وعهد تحكيم. وحددت مدة المعاهدة بعشرين سنة قابلة للتمديد. وأشارت المعاهدة إلى أن الشعبين السعودي واليمني هما من أمة واحدة، ونصت على إقامة علاقات سلمية وودية بين البلدين واعتراف كل منهما باستقلال الآخر وسيادته. وتخلى الإمام عن ادعاءاته بأراضي إمارة الادارسة، وفي المقابل تنسحب القوات السعودية من الأراضي التي احتلتها.

وتقرر تدقيق رسم الحدود. وألزم الإمام بدفع مائة ألف جنيه إسترليني ذهبي كتعويضات وأنجز رسم الحدود عام 1936.

بدأت العلاقات بين البلدين تأخذ مجراها الطبيعي، رغم أن ثلاثة حجاج يمنيين حاولوا في العام التالي قتل عبد العزيز بالخناجر في مكة لعقد المعاهدة. وقد أصيب الأمير سعود الذي حما أبيه بجسده بجرح في ظهره وكتفه وقتل الحراس الأشخاص الذين قاموا بالهجوم.

بعد حرب 1934، صارت العلاقات بين آل سعود وبيت حميد الدين ذات طابع ودي، وبدأ التعاون السياسي بين العاهلين السعودي واليمني.

الفصل الثالث عشر

البنية الاجتماعية السياسية للمملكة العربية

السعودية أثر قيامها

شغلت المملكة العربية السعودية الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية وشملت عدداً من الكيانات الإقطاعية القبلية التي كانت تربطها علاقات تبعية متفاوتة بالإمبراطورية العثمانية. وكان قيام الدولة المركزية يستجيب لمصالح الصفوة وشيوخ العشائر عموماً، وكذلك التجار ومعظم أهالي البلاد، إذ يوفر مستلزمات الأمن ويدفع ويلات النزاعات القبلية.

إلا أن مجيء الدولة المركزية اقترن بتزايد الضرائب وتضخم الجهاز العسكري البيروقراطي وتقييد الحريات "الديمقراطية" البدوية.

وقد أتخذ آل سعود من التبشير بالإصلاح الديني على الطريقة الوهابية ركيزة وراية في صراعهم من أجل توحيد أراضي نجد بزعامة الرياض. وفي حقبة تاريخية حرجة تزعم حركة الانبعاث الجديد لإمارة نجد زعيم ورجل دولة وقائد عسكري يعتبر فذاً في الإطار المحلي، ألا وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن (بن سعود).

وكان ينبغي أن تتوفر ظروف خارجية ملائمة ووضع دولي مناسب، لكي يصبح الطموح إلى المركزية وقيام الدولة المستقلة في نجد أمراً واقعاً، ولكي تتمكن هذه الدولة من ضم بعض المقاطعات

المجاورة. وقد ساعد على نجاح أبن سعود في المرحلة الأولى دعم بريطانيا له في كفاحه ضد الإمبراطورية العثمانية وولاتها، وانهيار هذه الإمبراطورية نتيجة للحرب العالمية الأولى، كما ساعده بعد ذلك عجز بريطانيا التي أخذ الوهن يدب في اقتصادها، عن فرض سيطرة مباشرة على جزء كبير من الجزيرة العربية التي بدت للبريطانيين باهظة الثمن ومثقلة.

إن الباحث الموضوعي الذي يتعامل مع الوقائع لا يجد تغيرات جديرة بالاهتمام في مستوى تطور قوى الإنتاج في مجتمع الجزيرة خلال الثلث الأول من القرن العشرين بالمقارنة مع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بل يمكن الافتراض بأن الدمار الاقتصادي الذي أحدثته الحروب والانتفاضات المتتالية، بالإضافة إلى الأزمة المتفاقمة في تربية الإبل، قد أديا إلى انتكاس اقتصادي. وعند متابعة عملية نشوء العربية السعودية في القرن العشرين لا نجد فيها طبقات أو فئات أو شرائح جديدة تختلف مبدئياً من حيث طباعها وموقعها في المجتمع عن القوى الاجتماعية التي كونت الدولة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر تحت لواء الوهابية. بعد الحرب العالمية الأولى طرحت في عدد من البلدان العربية _ مصر، سوريا، فلسطين، العراق، الجزائر، المغرب ـ مسألة نيل الاستقلال الوطني للسير في طريق تطور مستقل يرتهن طابعه بتناسب القوى بين العناصر الإقطاعية والبرجوازية وبمستوى الاقتصاد ودرجة "التحديث" ونشوء عناصر الطبقة

المتوسطة العصرية ونمو الطبقة العاملـة. وفي هـذه الأثنـــاء لم تكن في العربيـــة الســـعودية المســـتقلة سياسـياً حـتى لجنـة العلاقـات الرأسـمالية، بـل إن الدولة تكونت على أساس إقطـاعي قبلي بـدائي في مجتمـع قروسـطي من حيث الجـوهر. ولكن العربيـة السعودية لم تكن البتـة معزولـة عن العـالم المحيـط بها، لـذا كـان من المتعـذر أن يبقى تركيبهـا الـداخلي بمنأى عن التأثيرات الخارجية. وقد تجسد ذلك ســواء في الأدوات الفنيـة لإقامـة الدولـة المركزيـة والإدارة (اللاسـلكي، التلفـون، الطـيران، السـيارات) أو في الإشـــكال التنظيميـــة: اســتحداث الجيش النظــامي والوزارات والمـديريات والنظـام المدرسـي. غـير أن التصـــادم بين المؤسســـات الاجتماعيـــة السياســـية التقليدية النابعة من مجتمع العربية السـعودية نفسـه والمناسـبة للإقطـاع الشـرق أوسـطي، وبين نزعـات التحديث المستقدمة من الخارج، لم يخل بالاسـتقرار الاجتمـاعي السياسـي في الدولـة خلال العقـد الأول ويعزى ذلك، في المقام الأول، إلى الضـعف المطلـق والنسـبي لنزعـة التحـديث الوافـدة من بلـدان شـرق أوسطية أكثر تطوراً بمراحل. كما يعـزى إلى الهيمنـة التامة للبـنى التقليديـة. ولم يبـدأ التغـير الجـذري في الوضع إلا في أواخر الأربعينات حينمـا أخـل "انفجـار" العوائد النفطية بالتوازن الاجتماعي القديم في البلد.

إن تســمية البلــد نفســها ـ المملكــة العربيــة السعودية ـ تعني أنها واقعة تحت سيطرة آل سـعود. ويرمز لون علم الدولة الأخضر إلى الجنة، وهو اللـون الأثير لدى النبي محمد. وقد نقشت على العلم عبـارة

"لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورسم سيف أبيض يرمز إلى الجهاد.

سلطة الملك، العلاقات بين الصفوة الإقطاعية العشائرية وعلماء الدين. إن تغير ألقاب الحاكم السعودي هو انعكاس لما حدث من تغيرات في سلطته السياسية. ونعيد إلى الأذهان إن الأتراك كانوا يخاطبون أبن سعود بعبارة "حاكم نجد والقائد عبد العزيز باشا" بينما يخاطبه الإنجليز بعبارة "الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود". وفي عام 1921 بايعه الأمراء والشيوخ وعلماء الدين سلطاناً لنجد وملحقاتها وأصبح يلقب بصاحب الجلالة في المكاتبات الرسمية. وفي عام 1926، أصبح "ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها"(1) وبعد عام "ملك الحجاز ونجد وملحقاتها"، ومن 22 أيلول (سبتمبر) 1932، ملك العربية السعودية. ولكن هذه الألقاب جميعاً كانت في المرحلة الأولى للاستهلاك الخارجي أساساً، ولتعزيز الهيبة الدولية للبلد وحاكمه.

أما داخل البلد فقد ظل أبن سعود بالنسبة للحضر أميراً، أي حاكماً إقطاعياً، لنجد والأراضي التي فتحها، لذا كان تحول لقبه إلى "سلطان" و "ملك" أمراً طبيعياً بالنسبة لهم. هذا بينما اعتبره البدو "شيخ المشايخ".

وقد أراد آل سعود تعزيز مكانتهم "كشيوخ للمشايخ" فأكدوا نسبهم إلى قبيلة عنزة وهي أكبر قبائل الجزيرة وأشدها بأساً. وتمكن عبد العزيز من السيطرة على البدو الكثيري العدد والصعبي القياد في السابق، وذلك باستخدامه الحاذق لارستقراطية

القبائل والجمع بين أساليب الضغط والتنكيل وبين توزيع الهبات وإغداق العطايا على الأعيان.

خلعت على سلطة السعوديين المسوح الأبوية _الديمقراطية. فقد كان بإمكان أفقر البدو مخاطبة الملك بكل بساطة وبدون ألقاب. وكان عبد العزيز يحب أن يسمي أبن فيصل تذكيراً بجده، أو أبن مقرن تذكيراً بواحد من أسلافه واصل الفخذ السعودي، أو أخا نورا، وهي أخته الكبرى التي كنّ لها الحب والاحترام.

ثمة مثال أعلى للعربي القح أبن الجزيرة. أنه مثال البدوي الذي تضفي عليه مسحة رومانسية في مجتمع الجزيرة وفي بعض البلدان العربية الأخرى: فهو محارب شجاع، يسهر على حماية الإسلام وسموح مع المغلوب، علاوة على أنه رجل فحل. وقد تعمد أبن سعود أن يخلع على نفسه هذه الصفات طلباً للهيبة والجاه(2).

لكن "ديمقراطية" و "أبوية" الملك لم تخدم كل من أدرك الموقع الحقيقي للملك الشديد البأس في نظام الدولة المركزية.

لقب عبد العزيز، شأن أسلافه، بالإمام. ولم يكن يعني أن يؤم المصلين فحسب، بل يعني أيضاً زعامته لجميع "الموحدين" المناهضين "للمشركين" من مسلمي البلدان الأخرى. ورغم انحسار روح العصبية لدى الجماهير بعد فشل انتفاضة الإخوان، فإن إتباع الإمام بوصفه الزعيم الديني كان عامل توحيد للمجتمع وقد جعل من الدين هالة تضفى على أعلى سلطة في الدولة.

لقد كان رئيس دولة "الموحدين" في الوقت نفسه قائدهم العام الذي يستنهضهم ضد "المشركين". وأدى عبد العزيز هذه المهمة بنجاح أثناء حروبه الاغتصابية.

حذا عبد العزيز حذو أسلافه في اتخاذ التقاليد الإسلامية، وبخاصة تعاليم أبن تيمية، مصادر يستمد منها الحجج لتدعيم السلطة المركزية. وكان أبن تيمية يرى أن المجتمع المثالي هو الذي يكون الرأي المطاع لفئتين: العلماء المتمسكين بالشريعة والأمراء الحائزين على السلطة السياسية اللازمة لتطبيق أحكام الشرع(3).

ويجب على رعايا الأمير إطاعته دون قيد أو شرط(4). والأمير هو المشرف على التطبيق السليم لأحكام الشرع التي تشمل المسلمين كافة، وهو الذي يتولى تنفيذ الأحكام القضائية ويقوم بعمل الخير والإشراف على الأشغال وتوفير الأمن للرعية وضمان عمل الخدمات العامة بشكل طبيعي، وهو أخيراً الجهة التي تصدر عنها التوجيهات الاجتماعية والاقتصادية التي تكفل لكل فرد العزة في إطار الشرعية وطبقاً لموقعه في المجتمع(5).

يتشاور الأمير مع العلماء في إدارة أعماله، لكن من حق الأمراء التصرف وفق ما تمليه عليه ضمائرهم(6). والأمير ملزم بالتمسك بأحكام الكتاب والسنة وفقاً لتفسيرات العلماء. وهذا يوفر للعلماء وسائل هامة، وإن كانت محددة، للتأثير والرقابة. ومن الناحية النظرية فإن الأمراء أحرار في تصرفاتهم في كل ما لا يتعلق بالدين، ولكن من

الناحية العملية يتخلل الإسلام كل ميادين الحياة في السعودية. لذا يلعب العلماء في المجتمع الوهابي دوراً هاماً ومما يزيد هيبتهم أن الكبار منهم ينتسبون إلى آل الشيخ الذين تصاهروا مع آل سعود منذ أمد طويل.

أبان الأزمة التي سببتها عصبية الإخوان عامي 1914 ـ 1915، أصدر عبد العزيز مرسوماً، وأصدر العلماء فتوى، يدينان تعصب الإخوان ومغالاتهم(7). غير أن علاقات ابن سعود بالعلماء شهدت فترات تأزم. وحسبنا التذكير بأن العلماء وقفوا ضد استخدام التلغراف واللاسلكي(8). وعلى أي حال فقد كانت الغلبة لإدارة عبد العزيز عند حصول نزعات حول قضايا كبرى ومبدئية. فذات مرة عارض العلماء زواج عربي غير وهابي على فتاة من إحدى عوائل الرياض العريقة، ولكن عبد العزيز لم يحفل برأيهم بل طرد ثلاثين عالماً من نجد(9). ولعل النزاع حول هذه المسألة كان مجرد حجة اتخذها الحاكم للتخلص من علماء لا يستأنس بهم.

وكان يطلب من كل فرد في البلد إطاعة الأمير وإسداءه النصح عند الاقتضاء(10). وفي عام 1950، قال فيصل في خطاب ألقاه عند افتتاح مجلس الشورى أن "واجب الرعية هو مساعدة الجهات المنوط بها أمر التنفيذ، لتسهيل مهمات السير بحسب الأوامر والتوجيهات التي توجه إليهم"(11).

كان عبد العزيز يتظاهر دوماً باحترام العلماء ولهم في مجلسه كلمة مسموعة، كما إنه كان يستمع إلى نصحهم.

وقد أظهر العلماء سلطتهم حينما قرر أبن سعود الاحتفال بالذكرى الخمسين لجلوسه على العرش. ورد العلماء بأن الإسلام لا يعرف عيداً من هذا القبيل فوافق الملك على رأيهم. وفي بعض الحالات كان عبد العزيز يتعامل مع ملاحظات العلماء بروح النكتة. قد روي أنه كان يتمشى في قصره بالرياض وعليه ثوب طويل يمس الأرض، فدخل عليه أحد العلماء وقال "الله يا عبد العزيز! لقد دخلك الكبر وصرت تجر ذيلك وراءك". التفت عبد العزيز إلى الخدم في الحال قائلاً "هاتوا المقص". فلما جاؤوا به أعطاه إلى الشيخ وقال "قص ما تراه مخالفاً للدين!"(12).

كتب فيلبي عام 1918 يقول إن عدد العلماء ستة في الرياض وثلاثة في القصيم وثلاثة في الأحساء وهناك عالم واحد في كل من مناطق نجد الأخرى، ويقرب عددهم الإجمالي من العشرين(13). ويبدو إنه يقصد كبار العلماء فقط. وعلى أي حال فإن عددهم في العاصمة كان يتغير من عام لعام.

كان العلماء في السعودية يعتبرون متضلعين في الفقه والشرع بفضل عمق إيمانهم وانكبابهم على الدراسة. ومن الطبيعي أن العلماء ينتسبون في العادة إلى قبائل "كريمة المحتد" أو من السادة، الذين يعتبرون من سبط النبي. إلا أن أكثر علماء السعودية هيبة وثقة هم أفراد آل الشيخ، وعلى الرغم من إنهم ليسوا من السادة. وكانت تربط آل الشيخ صلات قربى مع عبد العزيز تعود إلى زمن عبد العزيز الأول وأبن عبد الوهاب. وكان الملك فيصل

الذي قتل عام 1975 أبناً لعبد العزيز من زوجة من آل الشيخ.

حينما حان الوقت لإجراء تحديث ولو جزئي في الدولة الإقطاعية وقف العلماء وقفة حازمة ضد التغيير، وما برحوا متمسكين بموقفهم حتى يومنا هذا. وفي حزيران (يونيو) 1930، احتج العلماء الذين اجتمعوا بمكة على إدراج مواد مثل الجغرافيا واللغات الأجنبية والتخطيط الهندسي في برنامج مديرية المعارف المؤسسة حديثاً. وزعموا أن التخطيط الهندسي هو تصوير بكل حال، أما اللغات فاعتبروها وسيلة لمعرفة الأفكار الدينية للمشركين، وأثارت الجغرافيا نقمتهم لقولها بكروية الأرض. بيد أن عبد العزيز تجاهل احتجاجاتهم(14). وفي حالات أخرى وقف علماء الرياض إلى جانب عبد العزيز مناهضين لتعصب الأخوان.

في مطلع الخمسينات تكون نوع من السلم الوظيفي بين علماء الدين. فقد اعتبر مفتي الديار السعودية بمثابة رئيس للعلماء. وحظي بهيبة خاصة رئيس جماعة الأمر بالمعروف في الرياض وقاضي القضاة في مكة وقاضي الدلم وقاضيا المحكمة الشرعية في الرياض وعضو لجنة الأمر بالمعروف في الرياض(15).

لعب عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وهو فقيه وخطيب شهير من آل الشيخ دوراً هاماً في إرساء الركيزة الدينية للدولة المركزية. وقد درس في المدينة وتونس والقاهرة وطاف المغرب وأسبانيا والهند وأفغانستان وإيران والعراق. وقد انضم إلى آل

سعود أبان فترة نفيهم في الكويت وتتلمذ عليه عبد العزيز. وظل عبد الله حتى وفاته عام 1925 زعيماً لا ينافس لآل الشيخ(16). ويقول فيلبي أنه كان يلقي خطب الجمعة في مسجد الشيخ عبد الله بحي العلماء في الرياض ومواعظ في المسجد الجامع بالرياض، كما أنه كان قاضي القضاة في العاصمة(17).

أدى قيام المملكة العربية السعودية وتوطد استقلالها وانبعاث بعض المؤسسات الاجتماعية السياسية الإسلامية إلى استثارة الاهتمام بالوهابية من جديد خارج حدود المملكة. ففي مصر وجدت مجموعة محمد رشيد رضا التي كانت مجلة "المنار" أساساً لها، وجدت في الوهابية آراء مماثلة لما يدعو أليه. فقد كانت هذه المجموعة تدعو إلى "تحديث" المجتمع الإسلامي بالاستفادة من منجزات الحضارة الغربية (الأوروبية، الرأسمالية) وتطالب من جهة أخرى بالعودة غير المشروطة إلى القيم الإسلامية وبعث الأفكار والمؤسسات التي كانت قائمة في صدر الإسلام، واعتمادها في كل مناحي الحياة. وقد هيأت مجموعة رضا التربة لانتشار أفكار حسن البنا مؤسس حركة "الأخوان المسلمين". وألف رضا نفسه عدة كتب يثني فيها على الوهابية. وفي داخل مصر كان يمكن اعتبار ذلك تعبيراً عن الميول المعارضة للملك فؤاد، لأن العلاقات بين مصر والسعودية ظلت مقطوعة حتى عام 1936 بسبب حادث المحمل.

تنظيم سلطة الدولة والإدارة في نجد.

في معرض الحديث عن أوضاع نجد والحجاز في الدولة الموحدة قال فؤاد حمزة: "أما من الوجهة الحقوقية والقانونية فأن كلاً من الحجاز ونجد كان مملكة مستقلة عن الأخرى لا تجتمع بينهما إلا رابطة العرش المشتركة وشخص الجالس على هذا العرش"(18). ومن جهة أخرى أشار المؤلف إلى أنه لم تكن بين المملكتين حدود مرسومة ولا رسوم، ولهما سياسة خارجية موحدة، ناهيك عن القوات المسلحة الموحدة وهي بيت القصيد. وفي فترة 15 ــ 20 عاماً الأولى كانت الفروق في الإدارة بين شقّي المملكة ملموسة، ولكنها تضاءلت بالتدريج. وكانت السلطة الفعلية كلها في يد الملك أبن سعود وحاشيته.

قام البلاط الملكي في الرياض بوظائف الحكومة في البلد كله وفي الوقت نفسه كان يؤدي وظائف حكومة نجد. ويفصل الزركلي الوثيق المعرفة بالبلاط تركيبه على النحو التالي(19):

1- المجلس الخاص وكان الملك يسمي أعضاءه بالجماعة أو "الربع". وكان هؤلاء يعقدون، برئاسة الملك، اجتماعين في اليوم: قبل الغداء وفي المساء. ويحضر المجلس شقيق عبد العزيز الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وولي العهد سعود ونائب ملك الحجاز فيصل، أن كان متواجداً في الرياض. ثم كان يحضره الوزراء والمستشارون وكبار

العلماء وسائر الوزراء والسفراء السعوديين المتواجدين في الرياض. وقد يضم المجلس أمراء المناطق وشيوخ القبائل.

2- الشعبة السياسية واختصاصها الشؤون الخارجية.
3- الديوان الملكي واختصاصه الشؤون الداخلية.
4- شعبة الشفرة والبرقيات.
5- شعبة البادية واختصاصها داخلية نجد.
6- شعبة المحاسبات والعطايا.
7- شعبة الوفود والضيافة. واختصاصها السهر على راحة الوفود والأشراف على القصور الملكية المخصصة لضيوف الملك. وكان الوافدون يقسمون إلى ثلاث فئات: كبار الضيوف، ووفود الحضر، ووفود البلاد.
8- الخاصة الملكية واختصاصها ما يتعلق بشؤون القصر الملكي.
9- شعبة أهل الجهاد واختصاصها النظر في شؤون الجند غير النظامي.
10- شعبة الخزينة الخاصة.
11- شعبة المخازن الخاصة (المستودعات).
12- شعبة الحاشية.
13- شعبة الخيل.

14- شعبة الإبل واختصاصها النظر في أبل "الخاصة الملكية".

15- شعبة السيارات.

16- شعبة الإذاعة التي أُسست بعد ظهور اللاسلكي في البلد، وكانت تتولى أيضاً الإنصات بالعربية واللغات الأجنبية وتعد نشرات موجزة للملك.

17- شعبة الحرس الملكي.

18- الشعبة الصحية واختصاصها طبابة القصر الملكي.

ويتطابق وصف الزركلي للبلاط الملكي مع ما أورد نالينو عموماً(20)، ولكن هذا أدرج ضمن سلسلة وظائف الديوان الملكي شؤون الحجاز وعسير والأحساء، وذكر شعبتي الزكاة والخزانة العامة اللتين ألغيتا شكلياً بتأسيس وزارة المالية، وشعبة التلاوات والمؤذنين التي لم يذكرها الزركلي. ولكن لا يعتقد أن هناك تعارضاً بين المؤلفين. فالأرجح أن شعب البلاط الملكي كان يمكن أن تظهر وتختفي وتدمج، يعلو شأنها أو تصبح ثانوية تبعاً لوزن مسؤوليها وعمق صلتهم بالملك. ولم تكن توجد أي قواعد مكتوبة أو أحكام مدونة تثبت بنية البلاط الملكي،وظلت الكلمة الفصل في كل القضايا للملك(21).

أما بالنسبة للمحافظات الرئيسية فإن الملك كان يعين أمراءها للفترة التي يرتئيها. ولم توجد في الثلاثينات قوانين أو أصول للإدارة المحلية في نجد وملحقاتها. وكان أمراء التقسيمات الإدارية الأصغر

يعينون من قبل حكام المقاطعات، ولكن بوسع الملك التدخل في اختيارهم. وفي البدء كان البلد، باستثناء الحجاز، مقسماً كما يقول فؤاد حمزة(22). إلى خمس مقاطعات كبرى هي نجد التي ضمت إليها العارض والمناطق المجاورة، و القصيم وجبل شمر والأحساء (حيث يحكم آل جلوي) وعسير. ومن الناحية العملية فصلت عن جبل شمر مقاطعة وادي سرحان، بينما قسمت عسير إلى عسير وعاصمتها أبها وتهامة ونجران(23).

وأسندت إلى سلطات المحافظات مهمة الإشراف على قبائل البدو. ويذكر ماكاي فرودا إن قبائل عتيبة وجزءاً من مطير والدواسر وقحطان وسبيع كانت تابعة لحاكم العارض، وإن العجمان وبني هاجر وبني خالد والحوازم والمناصير وآل مرة وجزءاً آخر من مطير تابعة لحاكم الأحساء، وجعلت شمر وشرارات وجزءاً ثالث من مطير تحت إشراف أمير جبل شمر(24). وتجدر الإشارة إلى أن قبيلة مطير المتمردة على آل سعود قسمت إلى ثلاثة أقسام.

لم يقنن الحكم الذاتي للمنطقة الشرقية بمراسم خاصة، ولكن في أواخر الثلاثينات كان قد تم هناك استحداث مؤسسات بيروقراطية خاضعة لأبن جلوي، وجعل أقارب بن جلوي حكاماً لأهم الواحات وشكلت في الهفوف مديريات الشرطة والمالية والجمارك وخفر السواحل وفرع لمديرية المعادن في جدة(25).

إدارة الحجاز. أقام أبن سعود في الحجاز نظاماً معقداً للسلطة والإدارة. ففي آب (أغسطس)

1926، أصدر الملك وثيقة تعرف باسم "التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية" وهي تسمى أحياناً "الدستور". وتنص الوثيقة على أن "المملكة... مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً لا يقبل التجزئة ولا الانفصال بوجه من الوجوه" وإن الحجاز "دولة ملكية شورية إسلامية مستقلة في داخليتها وخارجيتها" وإن "مكة المكرمة عاصمة الدولة الحجازية". وإن "إدارة المملكة بيد صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وهو مقيد بأحكام الشرع".

ونصت الوثيقة على أن يعين الملك في الحجاز نائباً عاماً (نائب الملك) له ورؤساء الشعب الذين يكونون تابعين لنائب الملك الذي يتبع بدوره الملك(26). ونصت الوثيقة على أن تتولى تصريف شؤون الدولة الحجازية ست شعب أساسية:

1) الشرع
2) الداخلية
3) الخارجية
4) المالية
5) المعارف
6) الجيش.

وأكدت مادة خاصة على أن الشؤون الحربية وكل ما يتصل بها من وظائف خاضعة لإشراف الملك(27).

كما نصت الوثيقة على تأسيس مجلس شورى يضم نائب الملك ومستشاريه وستة من أشراف الحجاز يعينهم الملك. كما تشير الوثيقة إلى وجود نية لإنشاء مجالس إدارية في المدن الرئيسية تمنح

صلاحيات البلـديات، ولكن قراراتهـا لا تسـرى إلا بعـد مصـادقة الملـك. وتقـرر أيضـاً إنشـاء مجـالس في الوحدات الإدارية الصغيرة(28).

بدا لابن سـعود أن بعض "التعليمـات الأساسـية" تتناقض وسلطته المطلقة. لذا فإن المواد 28 ـ 37 المتعلقــة بمجلس الشــورى والمجــالس المحليــة تجوهلت بعـد مضـي عـام، في حين أن المـواد 43 ـ 45 حـول تشـكيل هيئـات لهـا حـق الإشـراف على نفقات الخزانة لم تطبق قط وقد بطل مفعولها فيمـا بعد.

ثمة خاصية جوهريـة لــ "دسـتور" الحجـاز تتمثـل في الغياب التام للأحكام المتعلقـة بـالحقوق الفرديـة والعامة، وكذلك الأحكام التي تحـد من سـلطة الملـك المقيد بأحكام الشرع فقط(29).

ويقــول الــزركلي الــذي درس النشــاط العملي لهيئات السلطة في الحجاز،إن مجلس الشـورى كـان يعالج القضايا المتعلقة بميزانية دوائر الدولة والبلدية، ويتولى إعطـاء الـرخص للشـروع في عمـل مشـاريع اقتصادية وعمرانية، ويسن القـوانين والأنظمـة، ويبت في اسـتخدام المـوظفين المحلـيين والأجـانب، ومنـذ عام 1932، أضيفت إلى اختصاصاته العنايـة بشـؤون الحجاج(30).

ويشـــير الـــزركلي إلى أن صـــلاحيات المجلس تشـريعية واستشـارية، وكـان بوسـعه أن يلفت نظـر الحكومــة (يقصــد بــذلك مجلس الــوكلاء _ مجلس الوزراء _ الذي شـكل في الحجـاز) إلى أي خطـأ في

تطبيق القوانين والأنظمـة، وإقـرار أو نقض أو تعـديل مشاريع الحكومة(31).

وفي تموز (يوليـو) 1928، صـدر مرسـوم ملكي يقضي بتشكيل مجلس شـورى للحجـاز ونجـد سـوية، ولكن هـذا المرسـوم لم يطبـق(32). كمـا لم تصـدر قـــرارات تقصـــر صـــلاحيات مجلس الشـــورى على الحجاز، أو تقضي بشمول سائر أرجـاء المملكـة بهـا. وقـــد أنجـــز المجلس حـــتى عـــام 1950 مئـــات من الأنظمـة والتعليمـات حـول مختلـف القضـايا لتحديـد وضع الهيئـات الحكوميـة والعامـة والقضـاء الشـرعي والصحة والبرق والبريد والتلفـون. وفي الواقـع طبـق العديـــد من أنظمـــة وتعليمـــات مجلس الشـــورى الحجازي في سائر أرجاء البلد(33).

قبـل الاسـتيلاء على الحجـاز كـانت الروابـط بين نجد والعالم الخارجي تجري بأكملها تقريباً عن طريق الخليج. وتـولى الملـك المكاتبـات ومتابعـة الاتصـالات وكان يعطي الإيعازات لمندوبيه في المفاوضات. وبعد ضـــم الحجـــاز تعقـــدت الروابـــط الدوليـــة للمملكـــة الجديدة. وكان في جـدة عـدد من القناصـل الأجـانب الدائمين. كما أن وفود الحجاج كان يضـع أمـام حـاكم الحجاز عدداً من القضايا الحساسة. لذا ظهر منذ عام 1925، شـــيء أشـــبه بمديريـــة الشـــؤون الخارجيـــة وترأسها يوسف ياسين السوري المولـد الـذي كـرس نفسه لخدمـة أين سـعود. وقـد شـارك مـع المصـري حافظ وهبة في مفاوضات بحـرة وحـدة عـام 1925، وشارك في بعثات دبلوماسـية أخـرى فيمـا بعـد وقـد تـرأس في مكـة تحريـر صـحيفة "أم القـرى" وتـولى

رئاسة الدائرة السياسية لـدى الـديوان الملكي. وفي عام 1930، أصدر أبن سعود مرسوماً بتشكيل وزارة الخارجية التي أسندت لابنه الثاني فيصل نائب الملـك في الحجاز(34).

أقامت العربية السعودية علاقات دبلوماسـية مـع الاتحـاد السـوفيتي في 16 شـباط (فـبراير) 1926، وفي الأول من آذار (مـارس) 1926 مـع بريطانيـا العظمى وفي الشـهر نفسـه مـع هولنـدة وفرنسـا وتركيا،وفي عام 1928 مـع ألمانيـا وفي عـام 1929 مع إيران وبولندة، وفي 1931 مع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفي 1932 مـع إيطاليـا وفي 1936 (بعـد وفاة الملك فؤاد) مع مصر. وكان في السعودية عـام 1950 سـفارتان أمريكيـة وبريطـاني، أمـا الـدول الأخرى فقد تمثلت ببعثات دبلوماسـية(35). وغـادرت البعثـة السـوفييتية جـدة في 1937/1938، ولكن العلاقات الدبلوماسية بين البلـدين لم تقطـع رسـمياً، وظلت مجمدة عقوداً طويلة من السنين.

تولى كل شؤون الخزانة في إمارة الرياض خلال الحقبة الأولى شخص يدعى عبـد اللـه السـليمان ولم يكن لديه ملاك خـاص من المسـاعدين. وأنشـئت في كـل بلـدة إدارة لجبايـة الزكـاة مسـتقلة عن غيرهـا ومحاسبة أمام الأمير والملك. وقـد كـانت على غـرار هيئـات الضـرائب في الـدولتين السـعوديتين الأولى والثانية. وأسست في مكة عام 1927 مديرية المالية وترأسها عبـد اللـه السـليمان نفسـه(36). ومن عـام 1929 جعلت المديريـة وكالـة، أي صـارت وزارة عملياً. وفي عـام 1932 قـرر الملـك تحويـل الوكالـة

إلى وزارة المالية ذات الصلاحيات الواسعة وأسندت إلى عبد الله السليمان إياه(37). واضطلعت الهيئة الجديدة بصلاحيات وزارة الاقتصاد. وربطت بالوزارة إدارات التموين والحج والزراعة والأشغال العامة والسيارات. كما كان من صلاحيات الوزارة توقيع عقود الامتياز لاستخراج الذهب والنفط، وشكلت إدارة المعادن والنفط تابعة لها. وعمل سوريون ولبنانيون ومصريون وعراقيون كخبراء في الوزارة.

استمر توسع الوزارة وبلغ عدد العاملين فيها عام 1949 زهاء 5400 شخص(38).

يعود تاريخ مجلس الوزراء في الحجاز برئاسة فيصل نائب الملك، إلى كانون الثاني (ينـاير) 1932 (39) حينما شكل مجلس الوكلاء بصلاحيات مماثلة لصلاحيات مجلس الوزراء، ولكنها غير مطابقة لها كلياً. وقد ضم المجلس الرئيس، أي نائب الملك ووكلاء الخارجية والمالية والداخلية وأعضاء مجلس الشورى.

وكانت وزارة الداخلية تضم إدارات الصحة والمعارف والبرق والبريد والتلفون واللاسلكي والقضاء والحربية ومديرية الأوقاف والكعبة و البلديات والثروة المائية والمحاجر الصحية وخفر السواحل والشرطة العامة(40).

تأسست في مكة عام 1925 "إدارة الأمن العام" التي عرفت فيما بعد باسم "مديرية الشرطة العامة". وقد شكلت شرطة حماية الأخلاق وشعب التفتيش والمحاسبة ومراقبة الأجانب. وشمل نشاط إدارة الأمن العام كل أنحاء العربية السعودية،

وأنشئت إدارات وتشكيلات لها في كل مدينة كبيرة. وفي مطلع الأربعينات أنشئت في مكة مدرسة للشرطة(41).

كان لنائب الملك (فيصل) ديوان بمكة يضم مكتباً خاصاً للمكاتبات السرية والخاصة، ومكتباً لتلقي المعلومات والأوراق الرسمية، ومكتب اللجنة الدائمة لمجلس الوكلاء، وشعبة الخيل وشعبة البادية وشعبة الجيش ـ الإبل ـ وشعبة السيارات(42).

إن كلمة "وزير" ليست غريبة عن النجديين، ولكنها خلافاً للعالم الخارجي، تعني لديهم "السكرتير". فحتى الآونة الأخيرة كان لكل أمير وزير، ولدى كبار الأمراء عدة وزراء يتولون الحسابات والمراسلات وغيرها من الشؤون، لذا فإن كلمة "وزير" بمفهومها الأوربي والعام تنطبق أكثر على مسؤولي إدارات الديوان الملكي الذين تولوا تصريف الشؤون العامة بإشراف الملك(43).

منذ عام 1925 أنشئت مصلحة الصحة العامة التي أخذت صلاحياتها ووظائفها بالاتساع. وبعد مرور بضع سنوات أنشئت إدارات للصحة في كبريات المناطق(44).

عام 1931 أنشئت مديرية خفر السواحل ومركزها جدة وأوكلت إليها شؤون الموانئ وخفر السواحل ومكافحة التهريب وتنظيم الملاحة(45).

عام 1926 أنشئت بلدية مكة بميزانية خاصة. وسن لها نظام خاص عام 1929 (عدل عام 1938)(46).

عند حلول عام 1934، كان الحجاز قد قسم إلى 14 محافظة، وخضع أمراء كل منها لوزير الداخلية شكلياً ولنائب الملك (فيصل) عملياً(47). وأوكل إلى المحافظين الاهتمام بشؤون البدو(48). حينما أصدر أبن سعود في 18 أيلول (سبتمبر)1932، مرسوماً "حول توحيد أجزاء المملكة العربية" أصبحت هذه المملكة كلاّ واحداً من حيث التسمية وسلطة الملك المركزية، ولكنها لم تغد واحدة من حيث التركيب الإداري. فقد أشارت المادة الخامسة من المرسوم إلى أن تشكيلات الحكومة الحاضرة في الحجاز ونجد وملحقاتها تظل على حالها مؤقتاً إلى أن يتم وضع تشكيلات جديدة للمملكة كلها على أساس التوحيد الجديد. وكلف مجلس الوزراء الحجازي بأن يشرع فوراً في إعداد النظام الأساسي (الدستور) للمملكة ونظام تشكيلات الحكومة(49). ولم ينجز ذلك قط. وظلت الفوارق الإدارية بين الحجاز ونجد قائمة لفترة طويلة ولم تزل بشكل نهائي حتى الوقت الحاضر.

مهما تعقد الجهاز الإداري البيروقراطي في العربية السعودية، فأن كل القرارات الأساسية تتخذ من قتل الملك وحاشيته. لذا فإن المقربين للعاهل كان لهم القدر الأكبر من السطوة في الدولة. ويقول فيلبي "إن الأشخاص الذين كان أبن سعود ينتقيهم للمناصب الإدارية في مملكته ظلوا في مناصبهم حتى نهاية حياته عملياً. وكان ذلك تعبيراً عن سمة محددة في مزاج الملك: العزوف عن الاختلاط مع الغرباء، وإن كان متستراً بالضيافة الرائعة والاهتمام الودي الخالص بالضيف. وكان يؤثر أن يرى دوماً من

حوله، ليلاً ونهاراً، سنة إثـر سـنة، نفس الأشـخاص أو أفراد العائلة أو الإداريين أو الخـدم أو رفـاق السـلاح. فهو لا يستطيع أن يصبح على سجيته بشكل كامل إلا معهم. وكان بوسعه أن يثق بهؤلاء الأشخاص لمعرفته بهم عن كثب، ولعلمـه بمزايـاهم ونواقصـهم. وكـان يغدق على هـؤلاء بلا حـدود، كلمـا تزايـدت مـوارده"(50).

فعلى سبيل المثال لم يستقل عبد الله السليمان من منصـبه كمسـؤول عن الماليـة إلا بعـد وفـاة عبـد العزيز وتولى محمد سرور الصبان مسؤولية المالية.

وكـان من بين مستشـاري أبن سـعود شـخص يدعى عبـد اللـه الـدملوجي، وهـو عـراقي من مدينـة الموصـل، اسـتقدمه أبن سـعود عـام 1915 بصـفة مستشار طبي وطبيب. ولإلمامه بالفرنسية أوكل إليه اسـتقبال الضـيوف الأجـانب في ديـوان أبن سـعود بالريـاض. وبعـد الاسـتيلاء على الحجـاز عين ممثلاً شخصياً للملك في جدة، ثم صار نائباً لوزير الخارجيـة (وكان فيصل الولد الثـاني لأبن سـعود وزيـراً آنـذاك) وظـل يشـغل هـذا المنصـب حـتى سـنة 1930. وقـد خلفه فؤاد حمزة، وهـو فلسـطيني، وعمـل في وزارة الخارجية حـتى وفاتـه. وعمـل مـع أبن سـعود حافـظ وهبة ويوسف ياسين. وحافـظ وهبـة مصـري احتجـزه البريطانيون فترة من الوقت في مالطا بسـبب ثـورة 1919 في مصـر. وصـار مـديراً للمعـارف ثم ممثلاً للسعودية لدى الكرسي البابوي، ثم سفيراً في لندن(51). أما يوسـف ياسـين، وهـو سـوري من اللاذقيـة، فقد عمل سكرتيراً سياسياً للملك وتـرقى حـتى صـار

وزيـــراً للدولـــة. وتـــولى الإشـــراف على المراســـلات الدبلوماسية مع الممثليات السعودية في الخارج. هذا وكـــان قـــد وصـــل إلى الجزيـــرة في 1923/1924 وحظي بإعجاب أبن سعود(52).

في بداية حكمه كان أبن سعود يتحاشـى إشـراك أبنائه وسائر أفراد عائلته في قيادة الشؤون الإداريـة. ولم يستثن من ذلـك سـوى أكـبر أبنائـه وهمـا سـعود وفيصل اللذان عينا نائبين لـه في نجـد والحجـاز على التوالي. ولم ينس أبن سـعود المصـير المفجـع الـذي آلت إليـه الدولـة في زمن جـده فيصـل، الـذي قتـل بسبب التنافس بين أبنائه. وبمرور الوقت زال التقليد المـذكور وأصبح أفـراد العائلـة المالكـة يتبـوأون أهم المناصب في جهاز الدولة.

الشـــرع والوهابيـــة. إن الإســـلام بتفســـيره الوهابي هو الأيديولوجيا التي اعتمدت في السـعودية. إن الإقرار بوجود إله واحد (الله) وملك ومذهب ديني واحد (الحنبلي)، تطلب وجود نظام قـانوني وقضـائي واحد. ولم تكن تلك مهمـة سـهلة في مجتمـع متبـاين يضم فئات وشرائح اجتماعية مختلفة (البـدو والحضـر على أقل تقدير) ظلت طـوال قـرون تعتمـد مـدارس فقهية مختلفة، وتطلب تنفيذها إيجاد حلول وسط.

عنـد ابتـداء القـرن العشـرين عـادت العـادات والعرف لتبوء مكان الصدارة إلى جانب الشرع الـذي حاول الوهابيون تطبيق أحكامـه في قبائـل البـدو في القـرن الثـامن عشـر ومسـتهل التاسـع عشـر(53). وكانت الممارسات القضائية تختلف من قبيلة لأخرى. فقد كان لدى البدو، كما يذكر الزركلي، نظام قضائي

يشبه المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف والتميـيز(54). وكان القضاء قائماً على الاستشـهاد بالسـوابق الـتي يجب أن يكـون قـد مضـى عليهـا، في بعض الأحيان، ما يقل عن خمس سنوات كما لـدى الرولـة(55).

من البـديهي أن يحـدث صـدام بين النظـامين القضائيين بظهـور الدولـة الإقطاعيـة المركزيـة الـتي طبقت أحكام الشريعة وكان لديها جهاز قسري لإنفاذ القـرارات القضـائية. فـالعرف، مثلاً، ينص على منح المطـارد حـق اللجـوء بشـروط معينـة، ولكن الدولـة المركزية لم تعترف بهذا الحق. والبدو يعتـبرون بعض الأعمال جريمة إذا اقترفت داخل القبيلة، مثـل النهب أو القتل، في حين أنهم يعتبرونهـا بطولـه وبسـالة إذا ارتكبت خـارج القبيلـة، في حين أن هـذا يتنـاقص مـع احتياجات الدولة وسياستها، ونشأت مشـاكل بسـبب الغزو والبت في أمـر الماشـية الـتي تغنم أبانـه(56). كما ظلت معلقة مسائل الثأر الذي حـاولت الحكومـة باستمرار تحديد مداه(57).

منذ عام 1924 تقريباً بدأ اتخـاذ خطـوات عمليـة للحـد من نفـوذ "العارفـة" في القبائـل وبـدأ تعـيين المطـاوعين والقضـاة. وأنـزلت ضـربة بامتيـازات العوارف ولكن لم تجـر في السـنوات الأولى محاولـة لاستبدالهم بالقضـاة. وأخـذ بأحكـام العـرف والشـرع على قـدم المسـاواة في القبائـل، وجـرى تحديـد الوظائف بينهما مؤقتاً. واستمر العوارف في الاهتـداء بـالعرف في القضـايا الـتي تقـع ضـمن أحكامـه كالعلاقـات بين القبائـل، أما قضـايا مثـل الإرث فقـد

كـانت تنظـر من قبـل القضـاة على أسـاس الشـرع(58). ومن المهم الإشـــارة إلى أن حركـــة الإخـــوان سرّعت في عملية إحلال القضاة محل العوارف.

آثر حكام المقاطعـات السـعوديون عـدم التـدخل في القضايا العشائرية الداخليـة. فعلى سـبيل المثـال تضـمن كتـاب "مـذكرة الحكومـة السـعودية" ثلاثين قـراراً إجرائيـاً قضـائياً وكلهـا تتعلـق بالعلاقـات بين القبائــل وإعـــادة الممتلكـــات المغتصـــبة وخصوصـــاً الماشية(59).

وجرى تدريجياً فصل الوظـائف القضـائية للحـاكم (المحافظ) والقاضي. فأوكلت إلى القضاة المنازعات الشخصـية والقضـايا التجاريـة والشـرعية والأحـوال الشخصـية والإرث. أمـا الأمـراء فقـد تولـوا قضـايا النزاعـات بين القبائـل وجبايـة الضـرائب والتجنيـد والمشاكل الإدارية، ويكـون الأمـير بمثابـة قـاض عنـد معالجة هذه الأمـور(60). ولكن الشـرع خـول الأمـير النظر في منازعـات لا علاقـة لهـا بـالأمور العسـكرية والإدارية والمالية.

إن الصراع من أجل تثبيت أحكام الشرع بصيغتها الحنبلية لتحل محل العرف العشائري لم يكن العقبـة الوحيدة في طريق إقامة نظم قضائي وقانوني موحد في البلد. فبعد قيام الدولـة السـعودية ظـل المـذهب الحنبلي سائداً في نجد بينما كـان المـذهب الشـافعي هو السائد في الحجـاز، في حين أن المـذهب الحنفي كـــان الســـائد في المـــدن المرتبطـــة بالســـلطات العثمانيـة(61). وكـانت الإدارة العثمانيـة تعين،عـادة، أربعـة قضـاة، واحـد من كـل مـذهب، رغم إعطـاء

الأولوية للمـذهب الحنفي. ويشـير البـاحث الأمـريكي وايـدل إلى أن المدرسـة الحنفيـة في القضـاء ظلت قائمـة طـوال عقـود في المراكـز الإداريـة العثمانيـة السابقة بالأحساء مثل الهفوف(62).

بعد إلحـاق الأحسـاء واجهت الحكومـة المركزيـة مشكلة الأقلية الدينية _ الشـيعية. ولاتوجـد أرقـام عن عدد الشيعة في بدايـة القـرن ولكن تقـديرات وايـدل لعام 1955 تفيد بـأن عـددهم بلـغ في الأحسـاء 130 ألفاً(63). وقدر حافظ وهبة عدد الحضر في الأحسـاء في الثلاثينات بزهاء تسعين ألفاً، قـال إن سـتين ألفـاً منهم شـيعة(64). وهـذا لا يختلـف كثـيراً عن رقم الباحث الأمريكي الذي ربما يكون أدخل في حسـاباته شـبه الرحـل. وبالإضـافة إلى ذلـك شـهدت المنطقـة الشرقية زيادة كبيرة في عدد السـكان أثـر اكتشـاف النفط. ويقول وايدل أن نسبة الشيعة إلى السـنة في واحات الأحساء هي 45 إلى 55 أو 40 إلى 60(65). ومنظراً لأن الشيعة غالباً ما كانوا يخفـون معتقـداتهم الدينيـة، فمن المحتمـل أن عـددهم في المحافظـة الشرقية كان أكبر مما ذكر الباحثون.

يقول هلريسون أن السنة (وهابيين) كانوا الأقلية في الأحساء وهم من الحكام والتجار والمزارعين. أما الغالبية، من صيادي اللؤلؤ والحرفيين والفلاحين، فهم الشـيعة(66). وأشـار وايـدل أيضـاً إلى أن غالبيـة الحرفين كانوا من الشـيعة أيضـاً(67). وكـان مجتمـع المنطقـة الشـرقية ينطـوي على تناقضـات اجتماعيـة خطيرة مبرقعة بغلاف ديني.

كما سكنت مجموعات شيعية صغيرة في مكة والمدينة، وقطن عسير ممثلو إحدى الفرق الشيعية وهي الزيدية.

وكان في الحجاز أعضاء من مختلف الفرق الصوفية: السنوسيون والادارسة والقادريون والبكتاشيون، ولكن هذه الفرق انحسرت بفعل ضغوط الوهابية التي رفضت الصوفية من حيث المبدأ(68).

كانت أوضاع الشيعة صعبة في دولة إسلامية سنية "خالصة". وفي عام 1927، أصدر العلماء الوهابيون، بضغط من الإخوان فتوى تطالب عبد العزيز بمنع الشيعة من أداء الصلاة في الأماكن العامة والدعاء لأهل بيت النبي والاحتفال بذكرى وفاة النبي وأهل بيته وزيارة كربلاء والنجف، وإرغامهم على أداء الصلوات الخمس في الجوامع. ورأى العلماء أن على الشيعة أن يدرسوا "دين الله" على كتاب محمد عبد الوهاب "الأصول الثلاثة"(69). ودعت الفتوى إلى هدم الأضرحة الشيعية(70). ولكن عبد العزيز رأى أن هذه المطالب متطرفة ورفض تلبيتها. غير أن الوهابيين اعتبروا شيعة المنطقة الشرقية "كفاراً" ومن "أهل الذمة"(71).

صدرت عامي 1926و1927 أوامر ملكية أنشئ بموجبها نظام قضائي موحد للدولة وأصبح القضاء قائماً على أساس الفقه الحنبلي. وأصدر الملك أمراً ألزم القضاة بأن يتقيدوا بستة مراجع أساسية هي: "الإقناع" للشيخ موسى الحجازي، و "كشف القناع عن متن الإقناع" لمنصور البهوتي الحنبلي و "منتهى

الإرادات" للفتـــــوحي و "شـــــرح منتهى الارادات" لمنصور البهوتي و "المغني" للشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة و "الشرح الكبير" للشـيخ عبـد الـرحمن بن أبي عمر بن قدامة، ويبـدو أن اعتمـاد الفقـه الحنبلي واجه مصاعب في الحجاز وعسير والأحساء.

ولم يحدث الإصلاح القضـائي تغيـيرات تـذكر في نجد، إلا أنه جرى في الريـاض وبعض المـدن الكبـيرة الأخرى فصل محاكم البدو والحضر(72).

بعد إعادة تنظيم القضاء في الحجـاز عـام 1927 أسست ثلاثة أنواع من المحاكم(73).

المحاكم المسـتعجلة والمؤلفـة من قـاض واحـد، واختصاصها النظر في القضايا المدنية التي لا يتجـاوز المطلـوب فيهـا ثلاثين جنيهـاً إسـترلينياً، وفي قضـايا الجنح والجنايـات الـتي لا تصـل إلى حـد القطـع أو القتل. ويرى القانوني العربي صبحي المحمصـاني أن في ذلـك عـودة إلى الشـرع بصـيغته الكلاسـيكية لأن القضـايا المدنيـة سـابقاً كـانت مفصـولة عن الجنح والجنايات(74).

المحاكم الكبرى وتضـم قاضـياً ونـائبين لـه، وهي تنظـر في القضـايا الـتي لا تـدخل ضـمن اختصـاص المحاكم المستعجلة، بما فيها الجرائم التي تسـتوجب القطـع أو القتـل، ولكن لابـد من صـدور إجمـاع كـل القضاة عند إصدار القرار بهذا الشأن.

هيئـة المراقبـة القضـائية في مكـة، وهي بمثابـة محاكم الاستئناف، وتتـألف من مـدير وأربعـة أعضـاء. وتولي المدير الإشراف على سائر المحاكم والقضـاة في الحجـاز، وكـان بمثابـة وسـيط بين الحكومـة

والمحاكم. وتكتسب الأحكام درجتها القطعية عند تأييدها من قبل الهيئة خلال عشرين يوماً (عشرة أيام وفق مصادر أخرى) من مصادرها(75). أما الأحكام التي تنقضها الهيئة فتعاد إلى المحاكم التي أصدرتها لإعادة النظر فيها. وذكر الزركلي أن تركيب الهيئة تعقد فيما بعد وزادت عدد القضايا التي تنظر فيها.

كانت في الحجاز المحاكم التالية: في مكة اثنتان من المحاكم المستعجلة ومحكمة كبرى وهيئة للمراقبة القضائية، وفي المدينة محكمة مستعجلة ومحكمة كبرى، وفي جدة محكمة مستعجلة(76). وفي عام 1932 أنشئت في مكة محكمة مستعجلة لقضايا البدو(77).

ونظراً لطابع مكة الدولي فقد ظلت فيها المدارس الفقهية الأربع، على الرغم من أن الحنبلة كانت السائدة بطبيعة الحال(78).

وكانت رواتب القضاة من أموال الزكاة، ولكن المدعي يدفع رسوم خدمة تستوفي لصالح الخزانة(79).

في عام 1927 أسست في الحجاز أول دوائر كتاب العدل التي كانت تتولى تسجيل الوثائق القانونية باستثناء ما يتعلق بالأوقاف(80).

وفي عام 1926، أي قبل الإصلاح القضائي أسس في جدة المجلس التجاري المؤلف من رئيس وخمسة أعضاء من ذوي الخبرة في الشؤون التجارية للنظر في المنازعات بين التجار والصيارفة والوكلاء وأصحاب الحوانيت، والبت في القضايا المتعلقة بتصريف العملة ودفع الحسابات التجارية عبر البنوك،

النظر في المنازعات بين التجار وأصحاب السفن في حالة فقدان الأمتعة أو اصطدام السفن أو تعرضها للهجوم، وفي الخلافات الناشئة عن تحرير العقود أو اتفاقات الأسعار. وفيما بعد أخذت هذه المحكمة تعمل وفق "نظام التجارة" لعام 1931 الذي وضع على غرار نظام الإمبراطورية العثمانية، واستثنيت منه القضايا الخاضعة لأحكام الشرع(81).

ومن المهمات التي أنيطت بالمحاكم الشرعية في شبه الجزيرة خلال فترة العشرينات والثلاثينات، محاولة قطع دابر الثأر بفرض دية عن دم القتيل وحمل أهله على قبولها. وحددت مبالغ معينة عن كل نوع من التشويه الجسدي(82). وكما كان الحال أبان الدولة السعودية الأولى، كانت تلك محاولة تهدف إلى إضعاف النزاعات بين العشائر والتقليل من احتمالات التجارب فيما بينها. وبعد صدور قرار قضائي كان أهل القتيل يرغمون على الإعلان عن عفوهم عن القاتل(83). هذا علماً بأن الأفخاذ الأرستقراطية، بما فيها آل سعود، استمرت ترفض الدية وترى أن الدم لا يغسله إلا الدم.

فيما يخص السرقة وقطع يد السارق، تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه العقوبات تطبق أقل كثيراً مما قد يبدو لغير المطلع، وذلك لوجود عدد من التقييدات. فيجب أن تكون السرقة مثبتة والسارق بالغاً سن الرشد وفي كامل قواه العقلية وقد عمل بمحض إرادته. وينبغي أن يكون المسروق ذا قيمة إذ أن الماء والخمر والآلات الموسيقية والصور وكتب الفقه لا تعتبر ذات قيمة. ويجب ألا تقل قيمة

المسروق عن ثلاثة دراهم. كما أن السارق يجب أن يكون قد سرق من محل يحفظ فيه عادة مغلقاً بمفاتيح. وإذا ما كسر سارق القفل وقام آخر بالسرقة، فلا تقطع يد أي منهما. ولا تحتسب سرقة الأقارب. وينبغي أن يكون هناك شاهدان على واقعة السرقة. ويلغي قطع اليد في سنوات الجوع أو الغلاء(84).

ويعتبر الزنى جريمة بحق الأسرة والأخلاق العامة، ويرجم الزاني والزانية(85).

كان الجلد عقوبة تعاطي الخمر(86). كما حددت الممارسات القضائية جملة من العقوبات الصارمة عن نهب القوافل(87).

الواردات والنفقات. كان خمس غنائم الغزوات، التي يحالفها التوفيق دخلاً لخزانة الدولة. ولكن خلافاً للدولة السعودية الأولى كانت تمر في إمارة نجد، ومن ثم في مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، سنوات عديدة دونما غزوات تذكر، وأخذت الغزوات نفسها تكلف مبالغ طائلة وحتى إذا كانت موفقة، فإن الغنائم لا تسد النفقات كل مرة. لذا فإن مداخيل الدولة أخذت تعتمد أكثر فأكثر على جباية الضرائب بانتظام، وأهمها الزكاة.

إن الصلاة بين المؤمن وربه، في حين أن الزكاة، هي بمثابة دليل على الولاء للحاكم الذي "ينفذ مشيئة الله"(88). لذا فالزكاة ليست مجرد فرض من الفرائض الدينية، بل هي أيضاً دليل ولاء للحاكم.

في أيلول (سبتمبر) 1925، أصدر ابن سعود مرسوماً يحدد مقادير الزكاة وطرق جبايتها.

ونص المرسوم على أن الزكاة لا تستوفي عن الدواب المستخدمة للأغراض الحربية وللنقل. وكانت الزكاة تستوفى عن الإبل إذا زاد عددها على خمسة، وعن الأغنام إذا زاد عددها على الأربعين، وعن الأبقار إذا زاد عددها على 30(89). وتدفع الزكاة عن كل محصول الحبوب والفواكه التي يمكن قياسها وحفظها كالتمر والزبيب واللوز والفستق والجوز، ولا تستوفى عن سائر أنواع الفواكه أو الخضروات. وتستوفى الزكاة عن الأراضي المروية بنسبة 5% من المحصول وعن أراضي الديم بنسبة 10%. تستوفي عن الفضة بنسبة 2.5% من قيمتها وعن الذهب بنسبة2.5 بالمائة وترتفع النسبة إلى 5% ابتداء من وزن معين. ويستوفى عن الرأسمال التجاري وريعه 2.5%(90).

وكلف أمراء المقاطعات بالأشراف على استيفاء الزكاة(91). وفي زمن عبد العزيز كان جباة الزكاة ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين، تعمل إحداها في المدن والواحات، وتستوفي الأخرى الزكاة من البدو. وكان العاملون ضمن الفئة الأولى يحصلون على نسب من المجموع العام المستوفى، بينما عينت للعاملين ضمن الفئة الثانية رواتب محددة. ومن الناحية الشكلية كان مقرراً أن تجبى الزكاة في نهاية كل عام هجري، ولكن من الناحية العملية كانت الجباية تجري في موسم معين، حتى وإن لم يتطابق مع نهاية العام الهجري. ففي المقاطعة الشرقية كانت الزكاة تجبى في الربيع أو الصيف. وكان جباة الزكاة يعرفون الطرق التي تسلكها القبائل وأماكن

تجمعها فيقصدونها(92). وعندما كانت حركة الأخـوان في ذروتها تولى المطاوعة جبايـة الزكـاة في الهجـر(93)، وكـانوا يمثلـون الإمـام _ الأمـير في ذلـك. وفي بعض الأحيـان كـان أفـراد آل الشـيخ يشـرفون على جباية الزكاة إلى جانب المطاوعة(94).

إن جباة الزكاة كـانوا عيـون الحكومـة بين البـدو وركـائز لهيبـة السـلطة المركزيـة ولكنهم كـانوا يتجاوزون صلاحيتهم، وقد اعترف عبد العزيـز لفيلـبي ذات مرة، أنه لا يحصل إلا على ثلث الضرائب(95).

وكما كان الحـال إبـان الدولـة السـعودية الأولى، فقـد ألغيت في إمـارة الريـاض الخـوة الـتي تـدفعها القبائل الضعيفة للقوية . ولكن ديكسون أشار إلى أن الخوة كانت تدفع بأشكال أخرى(96).

ثمـة مسـألة كـبرى مختلـف عليهـا وصـارت لهـا أهمية عملية إبان النزاع على الحـدود مـع العـراق ثم أثناء الخلاف على واحة البريمي ومفادها: هل أن أداء الزكاة من قبل القبائل يعتبر اعترافاً بسـيادة حكومـة الرياض، وبالتالي الدولة السعودية، على أراضي هـذه القبائـل؟ وأجـاب فقهـاء الريـاض على هـذا السـؤال بالإيجـاب، في حين أعطى الفقهـاء ، من مختلـف المدارس الإسلامية، والأوربيون تفسيرات متباينة.

فقـد رأى ديكسـون المعتمـد البريطـاني في الكـويت والبـاحث في قضـايا الجزيـرة إن لـرئيس الدولة الحق في أن يجند أثناء الحـرب كـل من يـدفع لـه الزكـاة لكي يقـاتلوا تحت لوائـه، ولـه أن يصـادر ماشية من لا ينصاع له. ووفقـاً للعـرف الوهـابي فـإن القبيلـة إذا لم تـؤد أو لم تتمكن من أداء الزكـاة

لحاكمها الشرعي فأن بوسع الحاكم أن أ) يصادر ممتلكاتها ب) يتخلى عن مسؤولية حمايتها من سائر القبائل الخاضعة له ج) لا يؤازرها عند تعرضها لغزو أعداء خارجيين. أما إذا كانت القبيلة تؤدي الزكاة فأن الحاكم أو رئيس الدولة ملزم بحماية هذه القبيلة من العدوان الداخلي أو الخارجي وليس لرئيس الدولة الحق في جباية الزكاة من قبيلة لا تأتمر بأمره ولكنها ترعى ماشيتها في أراضي دولته ولا تعتزم المكوث إلا فترة قصيرة تعود بعدها إلى أراضيها وتؤدي الزكاة لحاكمها الشرعي. ويقول ديكسون إن هذا قانون قديم ومحكم في الجزيرة ويفهمه الجميع(97). ويذهب مؤلف "مذكرة الحكومة السعودية" إلى أن رأي ديكسون هذا يمكن أن يكون مدخلاً لفهم الجوانب السياسية لأداء الزكاة ابتداء من القرن الثامن عشر(98).

بعد الاستيلاء على المنطقة الشرقية فرضت رسوم جمركية مقدارها 8%، وإن كان فيلبي قد أشار إلى أن رسوم الدخان وصلت إلى 20%(99). وفرضت الجزية على الشيعة والمسيحيين واليهود في الأحساء(100).

وأثر الاستيلاء على الحجاز ظهرت ضريبة جديدة تستوفى من الحجاج وكانت ترفد خزانة الدولة بعوائد كبيرة. ولكن الدولة ظلت فقيرة إلى حد كبير، ومن أدلة ذلك أن عوائدها الإجمالية من الضرائب عام 1927 بلغت 1,5مليون جنيه إسترليني(101).

جرت المحاولة الأولى لوضع ميزانية السعودية عام 1929، ولكن وضعها لم يتم إلا عام 1934.

ولأول مـرة قـامت الـدوائر الرسـمية للدولـة بوضـع مشـاريع للنفقـات وقـدمتها إلى وزارة الماليـة. ثم أحيلت المشاريع إلى المجلس الشـورى الـذي أحالهـا بدوره إلى مجلس الوكلاء (الـوزراء). وبـديهي أنـه لم يجر التقيـد بالميزانيـة، ولكن من المهم الإشـارة إلى ضآلتها، إذ إن باب النفقات بلغ 14 مليون ريال (كـان الجنيه الإسترليني الواحد يعادل ثمانية ريالات تقريباً)، وبلغ باب الواردات مقداراً مماثلاً(102).

يـذكر الـزركلي أنـه وقـع على تقريـر لـوزارة الخارجية المصرية عن واردات الدولـة السـعودية في أواخـر الثلاثينـات. ويشـير التقريـر إلى أن المـوارد الرئيسـية تتلخص في رسـوم الحج والعوائـد من البـترول والـذهب والزكـاة. ولم تتجـاوز الميزانيـة مليوني جنيه مصري سنوياً(103).

وكـانت الضـرائب المسـتوفاة تـذهب إلى بيت المال، أما النفقات فإن للجيش حصة الأسد منها. كما كـانت تـدفع مخصصـات لأرامـل وأيتـام الشـهداء والجـرحى والمرضـى. ومن بيت المـال أيضـاً جـرى الإنفـاق على العلمـاء والمـدارس وتنشـئة الجيـل والموظفين(104).

وأشار حافظ وهبة في معرض حديثه على حكـام الجزيرة إلى أنهم يعتبرون أيديهم مطلقـة في خزانـة الدولة. وقال عن إمارة الرياض أن "ما يـدخل خزانـة الحـاكم يصـرف منـه على حاجاتـه الشخصـية وعلى العطايا التي يجود بهـا على الوافـدين. أمـا المـدارس والصـحة ووسـائل تنظيـف البلـد وتجميلهـا فأنـه، مـع

استثناء الحجاز، نجد الأهالي والحكام مشتركين في عدم الشعور بالحاجة إليها"...(105).

وكان في الرياض جيش من الفقراء يعيله الملك. وكان ما يراوح بين الألف والألفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم. وعلاوة على ذلك كان في العاصمة زهاء مائة من عوائل الأسرى تكلف عبد العزيز بنفقات بيوتها وخيلها وإبلها وثيابها وجواريها وعبيدها(106). ويذكر حافظ وهبة أن عدد الضيوف الدائمين لا يقل عن خمسمائة وقد يبلغ عشرة آلاف(107).

وكان بدو كثيرون يجتازون مئات الكيلومترات للحصول على هبة من الملك. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الهبة غدت بمثابة واجب مفروض على الحاكم. وكل إعرابي يمنحهُ عبد العزيز منحة، كبيرة أم صغيرة، نقداً أو كسوة أو مؤونة، تصبح في نظره، كما يقول الزركلي، "حقاً" له واجباً كل عام. وإذا نقص النقد ريالاً أو الكسوة غترة أو المؤونة بعض الشيء طالب به وألح، وإذا منعت عنه المنحة غضب.

كما كان الحال في عهد السعوديين الأوائل، صارت الضيافة لدى أبن سعود الوسيلة المركزية لإعادة توزيع الواردات على الصفوة من المجتمع. وإن من تدول دولتهم من شيوخ القبائل وأمراء الحواضر كانوا يحلون "ضيوفاً تحت المراقبة". أما إطعام الفقراء منحهم بعض العطايا فإنهما كان يؤديان وظيفة "حلقة الوصل الوتيرة" بين المالكين والمعدمين، ويعززان سمعة الملك كعاهل سخي مضياف و "أب للشعب" وشيخ "ديمقراطي".

عند حلول الثلاثينات كانت **القوات المسلحة في العربية السعودية** قد شهدت تطورا ملحوظاً. شكلت قوات حاكم الرياض في الأعوام الأولى التي أعقبت قيام الإمارة على غرار ما كان يجري في زمن أجداده. فقد كتب سليمان الدخيل عام 1913 يقول ما معناه: "متى أراد الحاكم أن يغزو استنفر قومه، فنفر معه الكبير والصغير. اللهم إلا ذاك الهرم العاجز، أو ذاك الصغير الضعيف أو من كان يعنى بالفلاحة والزراعة. وإذا كان في البيت الواحد أخَوان يذهب أحدهما ويبقى الثاني. وكذلك قل عن ابني العم أو أبني الخال، فأن أحدهما ينفر للقتال والآخر يبقى عوناً لأهل البيت. والأمير في إبان الحرب لا يقوم بشيء من المؤن أو الذخائر الحربية. لأن كل من يخرج للغزاة مكلف بأعباء نفسه، من اتخاذ الأسلحة اللازمة والمتاع وكل ما يضمن له القتال مدة من الزمن. فإذا طالت المدة، فالحاكم يجدد له الخيل والركاب والأسلحة إذا تلف منها شيء. وهو يمدهم بالأطعمة"(108).

وجاء في جريدة "أم القرى" إن "كل فرد في نجد محارب بطبيعته، يحمل السلاح منذ نشأته، ويتمرن عليه، فإذا دعي تقلد بندقيته وركب ناقته ومضى إلى المعركة وكل نجدي من سن الثالثة عشرة إلى السبعين صالح للقتال... ولم يكن في نجد ثكنات عسكرية، لأن بلاد نجد كلها... تؤلف ثكنة تضم الرجال جميعاً..."(109).

ويذكر مؤلفو كتاب "الجزيرة العربية في عهد أبن سعود" إن القوات المسلحة النجدية كانت

تنقسم إلى أربع أصناف 1) أهل العارض 2) الحضر 3) الإخوان 4) البدو(110).

وأمتاز من بين "أهل العارض" الحرس الملكي الذي تولى حماية الملك والأمراء من أفراد الأسرة المالكة، ومنتسبو الحرس الملكي لا يفارقون السلاح حتى أثناء نومهم. ومن أهل العارض أيضاً موظفو الحكومة (باستثناء الأجانب) الذين كانوا يستنفرون عند الضرورة، و "جيش الجهاد" المسلح. والحرس الملكي أيضا من "جيش الجهاد" لكنهم يختلفون عن سواهم بملازمتهم للملك أو الأمراء. وكان في ديوان الملك دائرة خاصة للجهاد مسؤولة عن هؤلاء الجند وسلاحهم ومؤونتهم.

أما فئة الحضر فتضم سكان الحواضر والمدن النجدية. وهم يشكلون أثناء المعركة الميسرة والميمنة، في حين إن "أهل العارض" يقاتلون في الوسط . وكانت درجات الاستنفار أربعاً.

الدرجة الأولى: عندهما يسود السلام فترة طويلة وليس ثمة خطر حرب، فإن كل حاضرة ملزمة باستنفار عدد من الرجال بأسلحتهم ومؤنهم لمدة أربعة أشهر سنوياً. وإذا لم تكن حاجة لهم فإن أهل الحضارة يدفعون لبيت المال مبلغاً معادلاً لكلفة إعالة الجند.

الدرجة الثانية: تجرد كل حضارة عدداً من المقاتلين مع مؤنهم للمشاركة في الحملات العسكرية الصغيرة. وتوفر لهم الخزانة السلاح والذخائر، أما إذا استمر بقاؤهم في الخدمة

العسكرية أكثر من أربعة أشهر فإن الخزانة تتولى تزويدهم بالمؤن للمدة المتبقية.

الدرجة الثالثة: بغية خوض حملات عسكرية طويلة الأمد أو صعبة يعلن الجهاد الأصغر فتلزم المدن والقرى بمضاعفة عدد الجند المستنفرين.

الدرجة الرابعة: في الظروف الطارئة، وإذا تعرضت الدولة للخطر، يستنفر الحاكم كل رجل قادر على حمل السلاح.

وخلافاً لسكان الحواضر فإن كل رجل قادر على حمل السلاح من هجر الإخوان كان يشارك في الحروب والحملات الحربية.

وكانت لكل وحدة رايتها، وللقائد العام رايته الخاصة وموقعه عادة في الوسط، ولكل منها صيحة حرب خاصة بها يتعرف بواسطتها كل من أفراد على الآخر، وصيحة حرب مشتركة للقوات السعودية كلها.

كان الحرس الملكي و "جيش الجهاد" في وضع متميز عن سواهما، ولهما الأفضلية في التموين والتسليح، ويزودان بالخيول الملكية. وأذا كان منتسبو هاتين المؤسستين مسجلين في قوائم مديرية الديون الملكي فإنهم يتقاضون مرتباً، وفي الحالات الأخرى يحصلون على هبات ومخصصات(111).

وكان لدى الملك مجموعة من الحرس الشخصيين الذين يتم انتقاؤهم خصيصاً. وإذا سار عبد العزيز راجلاً فإن حارساً يتبعه كظله مسلحاً ببندقية ومسدس وخنجر، ويقف خلفه في كل المجالس. ولا يصلي الحارس مع الجماعة حين يكون في المسجد، وإنما يستمر واقفاً يراقب كل حركة حوله. وجرى

عبد العزيز في هذه العادة على سنن أسلافه، منذ أن قتل الإمام عبد العزيز الأول في مسجد الدرعية عـام 1803(112).

ومن البـــديهي أن تنظيم القـــوات لم يكن على المســتوى المبــالغ فيــه الــذي أورده كــاتب "شــبه الجزيرة في عهد أبن سعود". فحسبنا تـذكر الحملات العسكرية لأمير الرياض، الـذي صـار سـلطاناً وملكـاً، وتبـاين تـركيب قواتـه المسـلحة وكـون الأغلبيـة فيهـا كـانت تـارة لحضـر وتـارة للبـدو والإخـوان. ولكن من المؤكـد أن العـارض والمنـاطق المجـاورة لهـا كـانت الركيزة الرئيسية للقوات المسلحة والمصـدر الـدائم الذي يمده بالمقاتلين الأشداء.

ذكرت صحيفة "أم القرى" إن "الجيش الذي كان يعتمد عليـه الملـك عبـد العزيـز في فجـر حياتـه، هـو جيش الجهاد الذي كان مكوناً من حاضـرة أهـل نجـد، مضـافا إليـه جيش "الإخـوان" الـذي كـان مكونـاً من القبائل البدوية الرحالة التي وضع لها نظـام "الهجـر" وأنزلهـا من الباديـة إلى الحضـارة، وأصـبحت هجرهـا كثكنات عسكرية.وظل هذا سائداً إلى عام 1348هـ (1930م) حين رأى الملك مجاراة تطور التسلح فـأمر بتكـوين إدارة للأمـور العسـكرية، فكـان ذلـك إذانـاً بغرس النواة للجيش النظامي"(113).

كانت فكرة تأسيس جيش نظامي قد راودت أبن سعود قبل هـذا التـاريخ. فقـد شـاهد القـوات الإنجلـو هنديـة المسـلحة في العـراق إبـان الحـرب العالميـة الأولى، وكـان قبـل لـك قـد حـارب ضـد الوحـدات

النظامية المسلحة التركية، فتأكدت لديه أفضليات القوات الحديثة المنضبطة والمدربة.

وبعد استسلام جدة عرض عبد العزيز على كل ضباط الجيش الهاشمي الانتقال إلى الخدمة لديه، فعين عدداً منهم في شرطة مكة أولاً، ثم أخذ يشكل من بينهم أولى الوحدات النظامية. واستقدم الملك ضباطاً من سوريا والعراق للعمل في الدائرة العسكرية(114).

شهدت جدة عام 1930 أول استعراض عسكري شارك في ثلاثة أفواج: من المدفعية والرشاشات والمشاة، وهي نواة الجيش النظامي.

ونظم الجيش على شكل كتائب وألوية، ووزع على خمس مناطق عسكرية وتم توحيد الزي العسكري وشارات الرتب، وافتتحت في الطائف مدرسة عسكرية. وفي عام 1935 أسست وكالة (وزارة) الدفاع ومقرها في الطائف ومديرية الأمور العسكرية. وفي عام 1938 ألغيت المديرية وفي العام التالي شكلت "رياسة الأركان الحربية". وفي عام 1946 أنشئت "وزارة الدفاع"(115).

إن أهمية الطيران، العسكري والمدني، لبلد مترامي الأطراف وقليل السكان، كانت واضحة للعيان، لذا أرسل عام 1931 إلى إيطاليا عشرة شبان سعوديين لتعلن الطيران، وبعد عودتهم تم شراء عدد من الطائرات. وفي زمن الحرب أشترى الملك خمس طائرات أمريكية من طراز "داكوتا" ثم تسعاً أخر. وبدأت أولى الرحلات الجوية داخل السعودية، ثم إلى مصر وسوريا ولبنان. وأنشئت في

الطائف مدرسة للطيران. واستقبل عبد العزيز نفسه الطائرات لأول مرة في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1945 بالقرب من الطائف(116).

أدرك الملك بسرعة أهمية اللاسلكي للعمليات الحربية وحفظ الأمن فأنشئت أربع مدارس لتعلين الهاتف اللاسلكي في مكة وجدة والمدينة والرياض، وأرسل بعض خريجيها إلى بريطانيا وبلدان أخرى لمواصلة الدراسة. وخلال عهد عبد العزيز أنشئ في المملكة ستون مركزاً لاسلكياً ثابتاً، منها ثلاثة مراكز رئيسية في جدة والرياض والظهران(117).

وتجدر الإشارة إلى أنه إلى جانب الجيش النظامي في السعودية كان يوجد "جيش الجهاد" و "جيش الهجانة" المكون من البدو "الأقحاح" المخلصين للملك. ويرجع تركيب القوات المسلحة على هذا النحو إلى طابع ومستوى تطور مجتمع الجزيرة، ولكنه في الوقت نفسه كان عاملاً يقلل من خطر الانقلاب العسكري.

التعليم والتربية الدينية. أثر انهيار دولة آل سعود في وسط الجزيرة في أواخر القرن التاسع عشر، بدأ تدهور التعليم الديني التقليدي، ونقل قسم كبير من مكتبات الرياض إلى القصيم وحائل. وسافر نفر قليل إلى الخارج لغرض الدراسة. ولم يكن في وسط الجزيرة كله مدرسة واحدة، على الرغم من وجود بعض الحلقات الدراسية الخاصة في مساجد عدد من المدن. كما إن البعض كانوا يعلمون التلاميذ القرءة والكتابة في منازلهم مقابل أجر(118).

وقد افتتحت مدرسة دينية في العاصمة أثر عودة عبد الله الشيخ إليها(119). وأخذ الكثيرون من كبار علماء الدين يقيمون مدارس منزلية(120). وبديهي أن التركيز جرى على حفظ القرآن وتعليم أصول الفقه الحنبلي لكي يتمكن الدارس من أن يصبح قاضياً(121). كما كانت تقرأ في مجالس أمير الرياض الأحاديث النبوية وتاريخ الطبري أو السيرة النبوية(122).

وأشار حافظ وهبة إلى أن أمراء الجزيرة نادراً ما كانوا يهتمون بتعليم أبنائهم، واعتبر بعضهم التعليم شيئاً لا يليق بمقامهم(123). وتغبرت هذه الآراء مع تطور حركة الإخوان حينما صارت تلاوة القرآن تحظى بتأييد من الأوساط العليا وبتأييد الإخوان أنفسهم.

حينما استولى النجديون على الحجاز وجدوا أن نظام التعليم فيه أرقى بكثير فقد كان عدد القادرين على القراءة في وسط الجزيرة ضئيلاً للغاية، في حين إنه كانت تصدر في الحجاز صحيفة وتوجد عدة مدارس مماثلة للمدارس التركية؟، علاوة على المكتبات الخاصة الكبيرة نوعاً ما وبدأ أبان الحكم العثماني في أواخر القرن التاسع عشر، إصدار صحيفة "الحجاز" (صدرت حتى عام 1909،باللغتين العربية والتركية). وأسست في مكة مطبعة أهلية(124). وكانت توجد مدرسة حكومية تدرس باللغة التركية ومدرستان دينيتان أهليتان(125). وبعد ثورة تركيا الفتاة عام 1908 افتتحت مدرستان أهليتان واحدة بجدة والأخرى بمكة(126).

أثر إقامة سلطة الشريف حسين المستقلة شهد الحجاز نوعاً من النهضة في مجال التعليم، رغم أن المؤلفين السعوديين المعاصرين لا يميلون إلى الإقرار بذلك. وانقسمت المدارس في عهد الحكم الهاشمي إلى قسمين: الأميرية والأهلية. كما أسست مدرسة عسكرية وما يشبه المعهد الزراعي. وكانت غالبية المدارس في مكة(127). وفي عهد الحسين بدأ صدور صحيفة "القبلة" التي نشرت مواد كثيرة عن جهود الحسين في مجال التعليم. واستمر صدورها من عام 1915 إلى عام 1924. كما صدرت لفترة قصيرة مجلة يعدها طلبة المعهد الزراعي(128). وفي الأشهر الأخيرة لحكم الملك علي صدرت في جدة نشرة "بريد الحجاز"(129).

أعجب عبد العزيز بنظام التعليم في الحجاز، فأسس عام 1926 "إدارة المعارف العامة" التي شرعت باستخدام المدرسين من الخارج. وفي العام نفسه أسس في الرياض والمناطق المتاخمة لها 12 مدرسة حكومية وأهلية (بلغت ميزانيتها زهاء ستة آلاف جنيه في عام 1928_1929 و23 ألفاً في عام 1929_1930). وفي الثلاثينات أنشئت مدارس جديدة في كبريات مدن الحجاز وفي الرياض، ثم في حائل وبريدة وعنيزة والقطيف والجبيل(130).

وحتى الخمسينات كان زهاء 22 ساعة من مجموع 28 ساعة دراسية في المدارس الابتدائية مكرسة للمواد الدينية. وحتى في السنة المنتهية من المدارسة الثانوية كانت هذه المواد تشكل 25% من الحصص(131).

وعلى الرغم من مقاومة علماء الدين فقد أيد عبد العزيز إدراج مواد مثل الرسم الهندسي واللغة الأجنبية والجغرافيا في المناهج المدرسية(132). ولكن علماء الدين تمكنوا من إحكام رقابتهم على إدارة المعارف، وذلك من خلال نظام تعيين المعلمين والمطاوعة. ولم تطبع، عادة، في مطابع مكة إلا الكتب الدينية.

وأنشئت في المنطقة الشرقية مدارس شيعية شبه علنية أنفقت عليها الطوائف الشيعية(133).

وابتداء من كانون الأول (ديسمبر) عام 1924،بدأ في مكة صدور جريدة أسبوعية شبه رسمية هي "أم القرى" وهي المرجع الأساسي للبلاغات الحكومية الرسمية. وقامت الجريدة بنشر أخبار تنقلات الملك وخطبه ونصوص المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد مع الدول الأجنبية، وأخبار الحياة الأدبية. وبمرور الزمن تقلص حجم الجريدة واقتصرت على البلاغات والإعلانات الرسمية.

وفي عام 1932 صدرت في مكة أيضاً جريدة "صوت الحجاز" الأسبوعية التي دامت سبعة أعوام. وحلت محلها صحيفة "البلاد السعودية" التي أصبحت عام 1953 أول جريدة أسبوعية في البلد. وصدرت في المدينة عام 1938 جريدة "المدينة المنورة". وصدرت مجلات بشكل غير منتظم في مكة. أما بالنسبة لنجد فإن أول ما صدر هي مجلة "اليمامة" الأسبوعية التي بدأت بالصدور عام 1953 في الرياض. ولم يكن للصحافة السعودية تأثير يذكر على تكوين الرأي العام وتطور الأحداث(134).

لم تتوفر لدينا معلومات موثوقة عن نظام التعليم السعودي قبل الخمسينات.ويذكر الزركلي أنه في عام 1950 كان هناك زهاء 50 مدرسة قروية (ألفا طالب) و 90 مدرسة ابتدائية (13 ألفا) و عشر مدارس ثانوية (600 طالب). ولذا بلغ العدد الإجمالي للطلاب زهاء 16 ألفاً(135).

***

عند دراسة إصلاحات أبن سعود نتوصل، حتماً، إلى استنتاج مؤداه أن سعيه لبناء سلطة الدولة وإدارة شؤونها وفقاً للقيم السائدة في صدر الإسلام كان أكثر تطابقاً مع مستوى التطور الاجتماعي للمملكة من "البدع" المأخوذة عن "المشركين" ("الكفار"). فعقارب الساعة في شبه الجزيرة العربية كانت في موضع مغاير لما هي عليه في البلدان الأكثر تطوراً في الشرق الأوسط. ولكن أبن سعود نفسه بوصفه من حكام الإقطاع المبكر، ومذاهب "الإسلام الخالص المجدد" التي ظهرت في شبه الجزيرة المتخلفة، قد ولدا بعد بضعة قرون مما ينبغي. فإن مجتمع العربية السعودية ما كان بوسعه أن يصمد أمام الأفكار الجديدة الكاسحة للنظام القديم، حتى لو لم تهدم البنية الاجتماعية السابقة بفعل تدفق النفط، ومن ثم أمواله. وخير مثال على ذلك مصير اليمن في الستينات. فإن البنى الاجتماعية التقليدية تغدوا في العالم المعاصر مترابط بعضه ببعض عاجزة عن البقاء في مواجهة ضغوط العالم الخارجي الجاري عبر روابط السوق وعبر تسرب الأفكار وعبر المحاولات الرامية لتغير ولو جزء من

المجتمع (القوات المسلحة مثلا) لصد الخطر الخارجي.

وقد غدت العربية السعودية عرضة لتأثير خارجي عات. فقد شاءت الجغرافية والجيولوجيا والتاريخ أن تصبح السعودية أكبر منتج للنفط. وإن صناعة استخراج النفط نفسها والفروع المرتبطة بها، والأهم من هذا وذاك عوائد النفط الأسطورية التي سيطرت عليها الصفوة السياسية، هذا العوامل جميعا أثرت في البنى الاجتماعية التقليدية للبلد تأثيرا بالغا جعلها تتهدم وتتبدل.

الفصل الرابع عشر

امتيازات النفط

كان الحج مصدر رئيسي لعائدات المملكة، لذا فإن تقلص عدد الحجاج بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية جعل المالية السعودية في حالة يرثى لها. وقد أقامت الحكومة محطات الإذاعة وحسنت إسالة المياه في جدة واشترت سيارات، فبلغ إجمالي ديونها 300 ـ 400 ألف جنيه إسترليني، عن تسديد ديونها، ولم تفلح محاولاتها للحصول على قروض جديد(1).

في هذه الأثناء أستغل فيلبي صلاته الشخصية بالملك فأقنعه أن يلتقي بالمليونير الأمريكي كراين الذي كان يقدم بجولة في البلدان العربية بحجة سعيه إلى القيام بأعمال البر والإحسان. ويبدو أنه كان على صلة بشركات البترول الأمريكية ويعمل على جس

النبض تمهيداً لتوغلها في منطقة جديدة عليها تماماً. ورافق كراين بصفة مترجم في جولته ج. انطونيوس الذي ألف فيما بعد كتاب "يقظة العرب". كما أوفد المليونير الأمريكي الخبير الجيولوجي تويتشيل إلى السعودية تحت ستار التنقيب عن الماء(2).

في ربيع 1932، اكتشف تويتشيل ترسبات نفطية واعدة في منطقة الظهران، فعاد إلى الولايات المتحدة ليحيط شركات البترول علماً بذلك(3).

بدأت تباشير عهد جديد في تاريخ العربية السعودية، عهد سيحدث في مجتمعها تأثيراً لا يمكن مقارنته من حيث أبعاده إلا بتأثير الإسلام. غير إن القوى المحركة لهذه التحولات كانت خارج الجزيرة العربية، إذ إن أصلها يعود إلى تحول اقتصاد القرن العشرين إلى وقود جديد هو النفط الذي بدأ البحث عنه في كل بلدان العالم.

الشركات الأمريكية في الشرق الأوسط في العشرينات. قبل عام 1920 كانت الشركات الأمريكية أما غير مكترثة بالاحتياطات النفطية خارج بلدها أو تمنى باخفاقات في محاولاتها للحصول على امتيازات في النصف الشرقي من العالم بسبب قيود السياسة الوطنية والاستعمارية للدول الأوربية وشركات النفط الخاصة. ولكن الشركات الأمريكية أخذت تهتم اهتماماً كبيراً بعد عام 1920 بالرواسب النفطية في الخارج، بدافع مخاوف ذات طابع مزدوج فهي تخشى نضوب النفط في الولايات المتحدة من جهة وتخاف إحكام السيطرة الإنكو_هولندية على موارد النفط العالمية

من جهـة أخـرى. ولكن السـبب الرئيسـي هـو أن الشـركات المـذكورة لم تشـأ أن تظـل بمنـأى عن استثمار حقول النفـط الـرخيص الموجـود في مواقـع قريبة من الأسواق الهامة(4).

عـام 1920 قـال فـيريش الـذي صـار فيمـا بعـد رئيساً لشـركة "سـتاندارد أويـل أوف نيوجرسـي" إن النفط يوشك على النضوب في تكساس وأوكلاهومـا. وفي العـام نفسـه تنبـأ وايت، كبـير خـبراء الإدارة الجيولوجيـة في الولايـات المتحـدة، بـأن احتياطـات النفط الأمريكي سوف تنضـب خلال 18 عامـاً. وبهـذا الصدد أبدت مديرية الأسطول البحري الحربي قلقهـا لأن الخبراء زعموا على أن الولايـات المتحـدة تقليص استهلاك النفط أو الشروع باستيراده. وحذر السناتور هنري كابوت لوج الكونغرس من أن "بريطانيـا آخـذة في السيطرة على صادرات النفط في العالم"(5).

وليس من المعـروف مـا إذا كـانت الشـركات مقتنعة فعلاً بأن احتياطات النفط الأمريكيـة محـدودة إلى هذه الدرجة، أو إن ذلك كان ذريعة لجر الحكومـة الأمريكية إلى المساهمة النشـيطة في عمليـة توسـع الشـركات خـارج البلاد. إن أسـاليب الضـغط على الحكومـة وغسـل دمـاغ الـرأي العـام خدمـة لمصـالح الشركات الكبرى متقنة في الولايات المتحدة إلى حد كبير، لذا فمن الأرجح أن السبب الثاني هو الـذي أدى إلى انتشار المزاعم المذكورة.

خشيت الاحتكـارات الأمريكيـة من أن تكـون قـد تخلفت عن عملية اقتسام "كعكة" النفط في الشرق الأوسط. ووضـعت وزارة الداخليـة سياسـة لمسـاندة

الشركات الأمريكية في صراعها من أجل الحصول على امتيازات في الخارج، ولحث كل الدوائر والوكالات الأمريكية على مساعدتها. وكان مصير الإمبراطورية العثمانية موضع بحث في مؤتمر السلام بسان ريمو في نيسان (إبريل) 1920، حيث اتفقت لندن وباريس على اقتسام نفط العراق. وتدخلت الحكومة الأمريكية من أجل الحصول على حصة لشركاتها النفطية، وأخذت تتحدث عن "تمييز" تتعرض له الولايات المتحدة في العمليات التجارية على أراضي ألمانيا وحليفاتها وتطالب بسياسة "الانفتاح".

ولما حاولت حكومة أتاتورك إثارة قضية لواء الموصل وارتباطه بالعراق، توفرت للولايات المتحدة فرصة ممارسة تخويف حلفائها بتأييد مطالب تركيا. لذا تم عام 1921 _ 1922 الاتفاق على إعطاء الأمريكان 20_25% من أسهم شركة النفط المزمع إقامتها. وفي عام 1921، وبعد أن قرر مجلس عصبة الأمم ضم الموصل إلى العراق قدمت الحكومة العراقية امتيازاً لمدة 75 سنة لشركة "تركيش بتروليوم" ولكن حينما بدأ استخراج النفط في الموصل عام 1927 لم يكن الأمريكان قد حصلوا على حصتهم بعد. وفي تموز (يوليو) 1928 تم أخيراً التوصل إلى اتفاق عرف فيما بعد "باتفاقية الخط الأحمر" وبموجب هذا الاتفاق كانت ملكية "تركيش بتروليوم" (منذ عام 1929 "ايراك بتروليوم" أو "شركة نفط العراق") موزعة في الأساس بين الشركة الإنجلو فارسية للبترول (صارت فيما بعد

الشـــركة البريطانيـــة الإيرانيـــة ومن ثم "بيريـــتيش بـــتروليوم") و "رويـــال دوتش شـــيل" البريطانيـــة الهولنديـة وشـركة النفـط الفرنسـية و "نيراسـترن ديفلوبمنت" التي تضـم "سـتاندارد اويـل" "سـوكوني موبيل" فيما بعد) ومنحت 5% من الأسهم لكالوسـت غولبنكيان، وهو أحد مؤسسي شركة النفـط التركيـة(6).

توغلت الشركات الأمريكية في "إراك بـتروليوم" على الرغم من أن دورها كـان ثانويـاً. ولكن "اتفاقيـة الخط الأحمر" وضعت قيوداً كبيرة على حرية تصرف الشـــركات، إذ إن المســاهمين في "شـــركة نفـــط العراق" التزموا بأن تكون الامتيـازات الـتي يحصـلون عليهـا في أراضـي الإمبراطوريـة العثمانيـة السـابقة بذات النسـب المعتمـدة في العـراق. ونـذكر أن نجـد والأحساء كانتا عشية الحرب العالمية الأولى تعتـبران شكلياً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

الحصـول على الامتيـازات السـعودية.

كـانت شـركة "سـتاندارد اويـل أوف كاليفورنيـا" (سوكال) من شركات البترول الأمريكية الـتي قـامت بعد الحرب العالمية الأولى بمحـاولات جـادة للإسـهام في عملية استخراج النفط خارج الولايات المتحدة.

ولكن كمـا ارتبـط مصـير "ايـراك بـتروليوم" بشخص غولبنكيان، فأن البحث عن النفـط وامتيازاتـه في عـدد من بلـدان الجزيـرة العربيـة ارتبـط باسـم الميجـر النيوزيلانـدي الـدؤوب فرانـك هـولمس. فقـد وصل إلى البحرين في العشـرينات بحجـة المشـاركة في البحث عن المـاء. وفي عـام 1922 قصـد نجـد

للتفاوض مع عبد العزيز نيابة عن شركة "استرن اند جنرال سنديكات" البريطانية. وقد وافق أبن سعود على منح الشركة امتيازاً في 30 ألف ميل مربع في الأحساء. وطبقاً للاتفاقية التزم أصحاب الامتياز بدفع ألفي جنيه إسترليني سنوياً لقاء حق الاستثمار. وفي عام 1925 حصل هولمس على امتياز آخر في البحرين(7).

كان المسؤولون عن شركة "سنديكت" أناساً لا تعوزهم روح المغامرة. إذ لم يكن لدى الشركة رأسمال كاف، وأملت أن تثير اهتمام شركات النفط البريطانية بالامتيازات، ولكن هذه كانت واثقة من أنها ليست بحاجة إلى وسيط. ولما لم يجد هولمس دعماً توقف عن تسديد الأقساط بعد دفع أربعة آلاف جنيه إسترليني فألغى عام 1928 الامتياز في أراضٍ توجد فيها أغنى احتياطات النفط في العالم(8).

أما الامتياز في البحرين الذي منح لمدة سنتين فلم يلغ لأن "سنديكات" تمكنت من تمديده. وبعد أن أخفقت "سنديكات" في محاولات استمالة شركات النفط البريطانية اتصلت بشركة "غالف أويل" الأمريكية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1927 بعث "غالف" جيولوجياً لدراسة أراضي البحرين ووضع خارطة جيولوجية، وأثر ذلك قرر الأمريكان أن المسألة تستحق المجازفة، فاشتروا الامتياز من "سنديكات".

غير أن "غالف" واجهت تعقيدات، إذ إنها كانت آنذاك مرتبطة بشركة "تركيش بتروليوم"، و "اتفاقية الخط الأحمر" سارية المفعول على البحرين. عند

ذاك تقلت "غـــالف" في كـــانون الأول (ديســـمبر) 1928 حقوقهـــا المشـــتراة من "ســـندبكات" إلى سوكال(9).

إن عـــدم اهتمـــام شـــركات النفـــط البريطانيـــة بالامتيازات في البحرين والجزيرة العربيـة يعـزى إلى اعتقادهـا بأنـه لا وجـود للنفـط هنـاك، لـذا لم تعـتزم المجازفـة. فقـد كـان اسـتخراج النفـط في العـراق وإيـران يتم من طبقـات جيولوجيـة غـير الطبقـات الموجـودة في البحـرين والجزيـرة العربيـة. ولم يتم العثور على النفط في طبقات مماثلة بجزيرة القشـم عنـد سـواحل إيـران، فـاعتبر البريطـانيون البحـرين والجزيـرة العربيـة منـاطق غـير واعـدة. ولكن تـاريخ الصناعة النفطيـة يعـرف حـالات عـثر فيهـا المنقبـون الجدد على النفط في مواقع أهملتها شـركات سـابقة لاعتبارات جيولوجية.

عارضت بريطانيا وجود شركة نفـط أمريكيـة في الخليج. وقد التزم حكام البحرين، حسب اتفاقية عـام 1914، بعد منح امتيـازات في أراضـيه والامتنـاع عن قبول عروض أي كان دون موافقة بريطانيـا. حينـذاك تحـايلت سـوكال على القيـود الشـكلية البريطانيـة وأسســـت في آب (أغســطس) عــام 1930 شـــركة "بحرين بتروليوم" وسجلتها في كندا، أي أنهـا جعلتهـا شركة بريطانية من الناحية الشكلية. وفي هذه الأثناء قـام اثنـان من مـوظفي سـوكال همـا دافيس (صـار رئيســاً لمجلس إدارة أرامكـــو فيمـــا بعـــد) وتـــايلور بدراســة البحـرين في ربيـع 1930 وأوصـيا بـإجراء أعمال الحفر(10).

أثارت الطبقات الجيولوجية في البحرين الحاوية على دلائل تشير إلى وجود نفط، اهتمام سوكال بالجزيرة العربية المجاورة. وقد تم اكتشاف النفط في البحرين بعد عامين، وفي حزيران (يونيو) 1932. عندها قررت سوكال الاتصال مباشرة، أي دون وساطة هولمس، بالملك السعودي، وعرفت أن الحكومة البريطانية في الهند أوصت "سنديكات" بالإحجام عن خدمة مصالح "غالف" أو سوكال في العربية السعودية.

في عام 1930، طلب ممثلو سوكال من المندوب السعودي في لندن السماح لجيولوجييهم بزيارة الأحساء ولكن الملك رفض الاستجابة للطلب. وفي هذه الأثناء كان "الجيولوجي المستقل" تويتشيل قد قام بجولة في شرق المملكة بناء على طلب من المليونير كراين وأوصى بالسعي للحصول على امتياز. وقد أجرت سوكال اتصالات مع تويتشيل(11).

وفي مطلع عام 1933، وصل هاملتون، مندوب سوكال، إلى جدة وساعده في المفاوضات تويتشيل الذي درس مصادر المياه والمعادن في الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه وصل إلى جدة لونغريغ مندوباً عن "إيراك بتروليوم" وهولمس عن "سنديكات". وطالب المندوب السعودي في المفاوضات بأن يدفع صاحب الامتياز المقبل مائة ألف جنيه ذهبي عند توقيع الاتفاقية. خرجت "سنديكات" تواً من اللعبة، وعرضت "شركة نفط العراق" عشرة آلاف جنيه إسترليني كحد أقصى

لعـدم ثقتهـا بوجـود النفـط في السـعودية، فكسـبت سوكال الامتياز مقابل خمسين ألف جنيه(12).

من أسـباب فـوز الأمريكـان في الصـراع على الامتياز أنه لم يكن لهم ماضٍ إمبراطوري في الشرق الأوسط. فـإن أبن سـعود المحـاط من كـل الجـوانب بالمستعمرات والبلدان التابعة لبريطانيا كان مرغمـاً على التظاهر دوماً بالصداقة معها، ولكنه على الـرغم من ذلك لم يكن يثق بها ولم يشـأ أن يسـمح لشـركة بريطانية بدخول بلاده(13).

جرت المفاوضات في جو كـئيب بالنسـبة لرجـال الأعمال الأمريكـان، سـببه أزمـة 1929. وبعـد إعـداد كـل بنـود الاتفاقيـة بين سـوكال والعربيـة السـعودية. أعلنت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في 20 نيسـان (إبريـل) حظـراً على تصـدير الـذهب ثم تخلت عن استخدام الذهب كمعيار. حينذاك عمدت الشـركة إلى شراء الـذهب في سـوق العملـة البريطـاني. وأخـيراً وقـع الاتفاقيـة في 29 أيـار (مـايو) 1933 عبـد اللـه السليمان وزير المالية السعودي وهـاملتون ممثلاً عن "ستاندارد أويل أوف كاليفورنيـا". وأبـرمت الحكومـة السعودية هذه الاتفاقية بمرسـوم ملكي صـادر في 7 تمـوز (يوليـو) 1933 وسـرى مفعولهـا منـذ 14/7/ 1933.

في تشرين الثـاني (نوفمـبر) 1933، منح امتيـاز لفـرع سـوكال يحمـل أسـم "كاليفونيـا _ أريبيـان ستاندارد أويـل كومبـاني"، وعـدل الاسـم في كـانون الثـاني (ينـاير) 1944 إلى "أراب أمريكـان أويـل كومباني" (أرامكو).

في عام 1936، كـانت لسـوكال قـدرات إنتاجيـة ضخمة في النصف الشرقي من العالم، يقابلها ضعف في شـبكة وسـائط النقـل والعلاقـات التجاريـة. ومن جهـة أخـرى طـورت "تكسـاس كومبـاني" (تكسـكو حالياً) شبكة واسعة لتوزيع النفط ولكنها كانت بحاجـة إلى مـادة التسـويق نفسـها. لـذا وحـدت الشـركتان مصـالحهما في منطقـة متراميـة الأطـراف تمتـد من مصر إلى جـزر هـاواي.وحصـلت تكسـكو على نصـف أسهم شركات النفط العاملة في السعودية(14).

بعد مضي فـترة قصـيرة على منح امتيـاز النفـط حصـلت المجموعـة الإنجلـو _ أمريكيـة على امتيـاز لاسـتثمار مكـامن الـذهب. وبـدأ اسـتخراج المعـدن الثمين في مهـد الـذهب ولكن احتياطاتـه نفـذت عـام 1953. لقد كان في جبال الحجاز الكثـير من الـذهب لكن يبـدو أن كميـات كبـيرة منـه قـد اسـتخرجت في زمن سليمان الحكيم وإبان حكم الخلفـاء العباسـيين، لذا فإن استثمار مناجم الذهب أصبح غـير مـربح بعـد فترة قصيرة من بدئه(15).

منحت اتفاقيـة الامتيـاز شـركة سـوكال "حقـاً اسـتثنائياً لمـدة سـتين عامـاً لإجـراء أعمـال البحث والتنقيب والحفر والاستخراج والتكرير والإنتاج والنقل والبيع والتصدير" للنفـط ومشـتقاته وإقامـة الوسـائل اللازمة لإدامة هذه العمليـة. ومنحت الشـركة حقوقـاً اسـتثنائية في أرض مسـاحتها 400 ألـف ميـل مربـع تكـاد تشـتمل كـل الجـزء الشـرقي من العربيـة السـعودية. ونصـت الاتفاقيـة على أن تتمتـع سـوكال بـ"حق الأفضلية" في الحصول على امتيازات إضـافية

في سائر مناطق الجزء الشرقي من السعودية، وكذلك الحقوق الأخرى التي قد تحصل عليها الحكومة في المنطقة المحايدة إلى الجنوب من الكويت.

ومقابل هذا الامتياز وافقت الشركة على تنفيذ الشروط التالية:

1. منح العربية السعودية قرضاً مقداره 30 ألف جنيه ذهبي أو ما يعادلها. ومنح قرض إضافي قدره 20 ألف جنيه ذهبي بعد 18 شهراً إذا ظلت الاتفاقية سارية المفعول.
2. دفع 5 آلاف جنيه ذهبي مقدماً كل سنة لحين اكتشاف النفط بكميات تجارية.
3. بعد اكتشاف النفط بكميات تجارية تدفع الشركة فورا بدل إيجار قدره 5 آلاف جنيه وتدفع مثلها بعد سنة. وتدفع المبالغ من بدل الإيجار التخميني. تبدأ الشركة بإعادة المناطق التي لا تعتزم استثمارها.
4. بعد اكتشاف النفط تحصل الحكومة على بدل إيجار قدره أربعة شلنات ذهبية أو ما يعادلها عن كل طن من النفط. تلتزم الشركة بأن تقدم للحكومة سنوياً ودون مقابل كمية من النفط لإنتاج البنزين والكيروسين.
5. تُشيد الشركة مصنعاً لتكرير النفط بعد اكتشافه وتزود العربية السعودية مجاناً بمائتي ألف غالون أمريكي من البنزين ومائة ألف غالون أمريكي من الكيروسين (يعادل الغالون الأمريكي 3.78 لتر).

ووافقت الحكومة من جانبها على إعفاء الشركة ومؤسساتها من كل الضرائب المباشرة والرسوم الجمركية وما إلى ذلك(16).

لا شك إن شروط الاتفاقية كانت كسباً كبيراً للشركة وغبناً للعربية السعودية، ولكنها انعكاس لتناسب القوى بين الطرفين آنذاك. فحينما عقدت الحكومة السعودية الاتفاقية لم تكن لديها أي خبرة في شؤون النفط، إلى جانب حاجتها الماسة إلى المال. وكان الشغل الشاغل للحكومة هو الحصول على مكاسب مالية بشكل ريع وبدلات إيجار وقروض.

إن بند الاتفاقية الذي ينص على إعفاء الشركة من "كل الضرائب المباشرة وغير المباشرة" قد حرم المملكة من مصدر هائل للعائدات ومنح الشركة إمكانيات ضخمة للحصول على أرباح من الرأسمال المستثمر. ويجدر بالذكر إن الشركات العاملة في البلدان الأخرى كانت دوماً تدفع الضرائب.

بدء الاستخراج. كانت الشركة على عجلة من أمرها. فوصل أول جيولوجيين إلى الجبيل في أيلول (سبتمبر) 1933، أي بعد مرور أقل من أربعة أشهر على توقيع اتفاقية الامتياز.

وفي 28 أيلول (سبتمبر) اكتشف دلائل تشير إلى وجود طبقة نفطية. وقد بدأ بعد بضعة أشهر استخدام الشاحنات بعد أن كان الجيولوجيون يستخدمون الجمال. وكانت الشركة تنقل كل المعدات وجزءاً كبيراً من المواد الغذائية من

الولايات المتحدة عبر ميناء الخبر. وفي أواخر عام 1933، بلغ عدد خبراء النفط الأمريكان في السعودية ثمانية أشخاص.

في عام 1935، عثر الجيولوجيون على طبقة واعدة وبدأوا الحفر، ولكن البئر الأولى لم تثبت إلا وجود قرائن عن توفر النفط وقليل من الغاز. أما أول كميات تجارية من النفط فقد اكتشفت عام 1938. وفي شهر أيلول (سبتمبر) 1938، بدأ نقل كميات قليلة من النفط الخام إلى مصنع التكرير في البحرين العائد لشركة "بحرين بتروليوم". وبعد ذلك وقع الاختيار على رأس تنورة لاستخدامه كميناء لتصدير النفط.

وفي عام 1939، زار الملك وحاشيته منطقة استخراج النفط في الظهران حيث أقيم مخيم من 350 خيمة. واستمرت احتفالات الأعيان السعوديين ببدء استخراج النفط عدة أيام، وفي الأول من أيار (مايو) 1939 غادرت السواحل السعودية أول ناقلة محملة بالوقود السائل.

حينما بدأت الحرب العالمية الثانية كان الجيولوجيون قد أنجزوا عمليات التنقيب الأولى في 175 ألف ميل مربع والتنقيب التفصيلي في 50 ألف ميل مربع. أما التنقيب الزلزالي والحفر فقد جريا في مساحات أصغر. ولما توقفت الأعمال بسبب الحرب كان الجيولوجيون الأمريكان قد أدركوا أنهم اكتشفوا مكامن نفط أسطورية، ولكنهم لم يحددوا بعد مقاديرها بشكل كامل. هذا وكانت الشركة قد حفرت عام

1934 بـئراً في الجـوف فوجـدتها خاليـة تمامـاً، واعتبرت المنطقة عقيمة(17).

بعد اكتشاف النفـط وافقت الحكومـة السـعودية على توسيع مساحة الامتياز الأولية في المنـاطق الجنوبيـة والشـمالية من شـرقي الجزيـرة، ومنح الشـركة حـق اسـتثمار الحصـة السـعودية في المنطقـــة المحايـــدة بين العـــراق والكـــويت والمملكـــة الســعودية. وأدى ذلــك إلى توســيع المساحة التي يتمتع فيها صاحب الامتياز بحقـوق استثنائية إلى نحـو 496 ألـف ميـل مربـع، منهـا 484 ألـف ميـل مربـع على اليابسـة و 11 ألفـاً على الجوف القاري في الخليج. وكـانت مسـاحة الأراضـي المشـمولة بالامتيـاز تعـادل مسـاحة ولايات أريزونا ونيو مكسيكو وتكساس مجتمعـة. ومنحت الشـركة حقوقـاً واسـعة في المنطقـة الواقعـــة إلى الغـــرب من منطقـــة الحقـــوق الاستثنائية(18).

منح الامتيـاز الجديـد لمـدة سـتين عامـاً ومـددت فترة الاتفاق الأولى لست سـنوات ومقابـل هـذه الامتيازات الإضافية التزمت الشركة بأن:

1. تعيد مناطق الامتياز الني لا تعـتزم اسـتثمارها بعد غلقها لمدة عشرة سنوات.

2. تدفع فوراً 140 ألف جنيـه ذهـبي ومائـة ألـف جنيه أخرى بعد اكتشاف النفط بكميات تجارية.

3. تخصـص ريعـاً سـنوياً مقـداره 20 ألـف جنيـه ذهـبي مقابـل المنطقـة الإضـافية، على أن تـدفع لحين اكتشاف النفط بكميات تجارية.

4. تزيد إنتاج البنزين المقدم مجاناً للحكومة السعودية لكي تصل إلى 1,3 مليون غالون.
لقد ازداد استخراج النفط في العربية السعودية بالشكل التالي(19).

استخراج النفط في العربية السعودية

من 1938 حتى 1986، بملايين البراميل

السنة	أرامكو	"غيتي اويل"	أرابيان أويل كومباني	المجموع
1938	0.5	—	—	0.5
1939	3.9	—	—	3.9
1940	5.1	—	—	5.1
1941	4.3	—	—	4.3
1942	4.5	—	—	4.5
1943	4.9	—	—	4.9
1944	7.8	—	—	7.8
1945	21.3	—	—	21.3
1946	59.9	—	—	59.9
1947	89.9	—	—	89.9
1948	142.9	—	—	142.9
1949	147.0	—	—	174.0
1950	199.5	—	—	199.5
1951	278	—	—	278
1952	301.9	—	—	301.9
1953	308.3	—	—	308.3
1954	347.8	—	—	350.8

السنة	أرامكو	"غيتي أويل"	"أرابنان أول كومباني"	المجموع
195	352.2	4.4	–	356.6
5	360.9	5.8	–	366.7
195	362.1	11.6	–	373.7
6	370.5	14.7	–	385.2
195	399,8	21.2	–	421.0
7	456.5	24.9	–	481.4
195	508.3	28.7	3.8	540.8
8	555.1	33.7	11.0	599.8
195	594.6	33.1	24.1	651.8
919	628.1	34.4	31.8	694.3
60	739.1	32.6	33.1	804.8
196	873.3	30.2	46.5	950.0
1	948.1	25.1	50.6	1023.
196	1035.8	23.2	55.0	8
2	1092.4	22.7	58.8	1114.
196	1295.3	28.3	62.7	0
3	1641.6	33.7	65.5	1173.
196	2098.9	28.3	75.0	9
4	2677.4	23.4	71.9	1386.
196	2491.8	31.2	59.5	3
5	2952.3	29.4	56.3	1740.
196	3376.4	30.2	72.6	8
6	3525.3	28.5	70	2202.
196				2
7				2772.
196				7
8				2582.

5 3038 3479. 2 3623. 8				196 9 197 0 197 1 197 2 197 3 197 5 197 8 197 9 198 0

السنة	أرامكو	"غيتي أويل"	"أربيان أويل كومباني"	المجموع
1981	3512.7	27.1	40.1	3579.9
1982	2309.4	23.6	33.4	2366.4
1983	1596.6	60,3[1]		1656.9
1984	1435.5	57.4		1492.9
1985	1110	48.8		1158.8
1986	1711.8	34.4		1746.2

منذ أواخر الثلاثينات، دشنت العربية السعودية عصرا جديدا هو عصر النفط على الرغم من أن البلد لم يتحسس تأثيره بشكل ملموس إلا في أواخر الأربعينات.

[1] معطيات وزارة النفط والثروة المعدنية.
راجع جون بريسلي دليل في الاقتصاد السعودي. لندن, 1989ص, 51

الفصل الخامس عشر

العربية السعودية والحرب العالمية الثانية

(1948 _ 1939)

خلافاً لما حصل في الحرب العالمية الأولى، ظلت الجزيرة العربية بمنأى عن عمليات الحرب العالمية الثانية.بيد أن المملكة العربية السعودية تحسست تأثيرات الحرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

كانت ألمانيا الهتلرية تأمل في الوصول إلى إيران وأفغانستان والهند واحتلال رأس جسر لمهاجمة الاتحاد السوفييتي، وذلك مروراً بالبلدان العربية وتركيا، واستأثرت منطقة الشرقين الأوسط والأدنى باهتمام الاستراتيجيين الفاشست لما تزخر به من ثروات نفطية.

ووضع النازيون في حساباتهم السياسية الميول المعادي لبريطانيا في بلدان الشرق الأوسط والناجمة عن سياستها الاستعمارية. فأخذت ألمانيا الهتلرية تصور نفسها "صديقاً للعرب" وتعلن عن تأييدها لتطلعاتهم القومية. وجرت الدعاية في بلدان الشرقين الأوسط والأدنى تحت شعار "انتصار بلدان المحور يحرر بلدان الشرق الأوسط من نير البريطاني"ـ وفي الوقت نفسه قام الألمان بعمليات تجسس وتخريب في البلدان العربية.

كانت نشاطات ألمانيا تهدد سيطرة بريطانيا على بلدان العالم العربي وتضعف مواقعها الاستراتيجية العالمية وتعوق إستنفار الموارد البشرية والخامات في هذه البلدان لاستخدامها في الحرب. وكما بينت الأحداث فإن خطر الاحتلال الألماني للشرقين الأوسط والأدنى كان خطراً حقيقياً، ولم يدرءه عن البلدان العربية الواقعة إلى الشرق من ليبيا إلا نقل القوات الألماني لمهاجمة الاتحاد السوفييتي(1).

حياد العربية السعودية. إثر ابتداء الحرب العالمية الثانية أعلنت العربية السعودية الحياد رغم أن أبن سعود أرسل قوات إلى الحدود مع العراق والكويت وشرق الأردن. وكان حياده ذا طابع موال لبريطانيا، الأمر الذي يعزى إلى تبعية مملكته لها في أمور كثيرة. ففي ذلك الحين كانت العربية السعودية تتاجر أساساً مع البلدان التابعة للإمبراطورية البريطانية أو الدائرة في فلكها. فقد كانت الهند البريطانية المصدر الرئيسي للحبوب إلى المملكة، بينما يصل غالبية الحجاج من بلدان إسلامية تابعة لبريطانيا، إضافة إلى ارتباط النقد السعودي بالجنيه الإسترليني. وكانت العربية السعودية محاطة بمحميات وقواعد عسكرية بريطانية، والأسطول البريطاني يسيطر على البحر الأحمر والخليج.

أحكم عبد العزيز سيطرته على الوضع الداخلي في البلد، على الرغم من أن ذلك لم يحل وقوع اضطرابات عشائرية بين الحين والحين. وفي عامي 1939_1940 هاجر من السعودية إلى العراق عدد

من بدو شمر. ويبدو أن الحكومة العراقية قد شجعت شيوخهم أملاً في استخدام قبائل شمر لتحقيق مآربها(2).

غير أن ابن سعود تعرض لضغط من بلدان "المحور" أيضاً. وطالب عدد من مستشاريه بتوسيع الصلات من إيطاليا وألمانية. وبعد احتلال القوات الإيطالية إثيوبيا ظهرت قطع من الأسطول الإيطالي في البحر الأحمر. وكان لإيطاليا بعض النفوذ في اليمن المعادي لبريطانيا تقليدياً. وكانت السعودية قد عقدت معاهدتي صداقة وأقامت علاقات دبلوماسية وقنصلية مع ألمانيا عام 1929 ثم مع إيطاليا عام 1932(3).

في أواخر عام 1939 ومطلع عام 1940، تمكنت ألمانيا، بواسطة إيطاليا، من الحصول على موافقة السعودية على قبول أوراق اعتماد "الدبلوماسي" غروبا الذي كان واحداً من مسؤولي المخابرات الهتلرية في الشرق الأوسط. وكان غروبا حتى خريف 1939 سفيراً لألمانيا في العراق، وطرد من هناك لاشتراكه في محاولة تنظيم تمرد، ثم عمل ملحقاً في السفارة الألمانية بأنقرة(4).

طلب الإنكليز (ولا شك أنهم كانوا على علم بنشاطات غروبا) من ابن سعود رفض أوراق اعتماده. وفي ذلك الظرف كان الملك يخشى إثارة نقمة أي من الطرفين، ولكنه رضخ أخيراً للضغوط البريطانية(5).

تغير قرار الحكومة السعودية بفعل انتصارات ألمانيا الفاشية على جبهات القتال، فسمح لغروبا

بالقـدوم إلى جـدة بمعيـة بعثـة كبـيرة، فبـدأ هنـاك نشـاطه المحمـوم. ونشـطت الدعايـة الألمانيـة، الموجهة ضد الإنجلـيز أساسـاً ، في أوسـاط الحجـاج، وبدأ المبعوث الألمـاني بتشـكيل مجموعـات تخريبيـة ضـم إليهـا المسـتائين من الملـك وزودهم بالمـال والسلاح.

بعـد الاسـتيلاء على يوغوسـلافيا واليونـان، ومن ضـمنه جزيـرة كـريت، بـدأت ألمانيـة النازيـة تشـق الطريق نحو الشرق الأوسط، وخصوصاً نحـو العـراق وسوريا. وفي ربيـع 1941، جـرى في العـراق انقلاب معاد لبريطانيا وطلب قادتـه مسـاندة أبن سـعود(6). إلا إنه رفض متذرعاً بأن ذلك سيكون خيانة لبريطانيـا التي تربطه وإياها علاقـات وديـة(7). وقـد بعث إليـه هتلر رسالة شخصية عرض فيها العمل ضـد بريطانيـا ووعده مقابل ذلك بـ "عرش كل العرب". ورفض عبد العزيز عرض هتلـر واسـتدعى من سويسـرا السـفير السعودي فؤاد حمزة الذي عمل على دفعـه للتعـاون مع دول "المحور" ونقل إليه رسالة هتلر(8).

دبر عملاء غروبا سلسلة من أعمال التخريب في السعودية، تم عدد منها في حقـول النفـط بالأحسـاء، فأرسـل البريطـانيون إلى السـعودية سـرباً من الطائرات يحمل معدات لإخماد الحريق(9).

في أواخـر أيـار (مـايو) 1941، احتلت القـوات البريطانية مواقع هامـة اسـتراتيجيا في العـراق، وفي الفـترة نفسـها ألحقت القـوات البريطانيـة والثـوار الإثيوبيـون الهزيمـة بجيش الاحتلال الإيطـالي في إثيوبيـا. وفي تمـوز (يوليـو) 1941 احتلت القـوات

المسلحة البريطانية وقوات فرنسا الحرة سوريا وطردت من هناك إدارة فيشي.

هكذا طرأت تغيرات ملحوظة على الوضع في الشرق الأوسط. وقد كانت القيادة الهتلرية منشغلة بالأعداد للحرب ضد الاتحاد السوفييتي ولم تتمكن من جرد قوات كافية لا نزال ضربة بالمواقع البريطانية في الشرق الأوسط.

نوقشت في بريطانيا، التي حافظت على سيطرتها في هذه المنطقة، مسألة إدخال قوات بريطانية إلى المراكز الهامة استراتيجيا في السعودية، على غرار ما تم في العراق وسوريا. بيد أن الحكومة البريطانية كانت مرغمة على أن تحسب حساب الولايات المتحدة لأن للاحتكارات الأمريكية مصالح في المملكة أضف إلى ذلك أن احتلال بلد مترامي الأطراف يسود فيه النفور من الأجانب قد يجابه بصعوبات كثيرة.

وتحاشياً لوقوع استفزازات على الحدود مع العراق وشرق الأردن(10) سحب أبن سعود قواته إلى عمق بلاده(11). وسرعان ما فسخ معاهدة الصداقة مع ألمانيا، وفي أيلول (سبتمبر) 1941، طرد المبعوث غروبا من البلد(12)..وكانت العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا قد قطعت منذ عام 1940.

طلب رشيد عالي الكيلاني زعيم الانقلاب في العراق اللجوء إلى السعودية، فحل ضيفاً مكرماً وعلى الرغم من مطالبة الإنجليز بتسليمه لأن المحكمة العسكرية العراقية أصدرت حكماً بإعدامه(13).

وعلى الرغم من أن أراضـي العربيـة السـعودية لم تصـبح مسـرحاً للمعـارك، فـإن اقتصـاد البلـد نـاء بأعبـاء الحـرب. فقـد اسـتنزفت القـوات المسـتنفرة عوائـد الدولـة، وأدى تغيب الرجـال فـترة طويلـة إلى الإضرار بالزراعة. أصـبح البلـد في وضـع مـالي مـزر، وبلغ العجـز في الميزانيـة عـام 1941 مقـدار 1150 ألف جنيـه إسـترليني، وهبطت عوائـد الحج. فبعـد أن كان عدد الحجاج عشية الحرب يراوح بين 50 و 100 ألـف، ويعـود على الخزينـة بـ 5ـ6 ملايين دولار، فـإن عددهم تقلص في زمن الحـرب إلى 20 ـ 30 ألفـاً. وتزايدت أسعار السـلع المسـتوردة، بينمـا لم تحصـل زيادة في استخراج النفط في بداية الحرب.

طالب أبن سعود الشركات صـاحبة الامتيـاز بـأن تسـلفه على حسـاب الريـع مبلـغ سـتة ملايين دولار سنوياً. وخشية إلغاء الامتيازات ومنحهـا للبريطـانيين، التزمت الشركة الأمريكية بتزويـد العربيـة السـعودية بقــرض مقــداره ثلاثــة ملايين دولار، على أن يــزداد مستقبلاً إلى ستة ملايين. بل إن الشركة أبقت مبـالغ المـدفوعات عن الامتيـاز على وضـعها السـابق، في ظرف كان من المزمع إبانه تقليص استخراج النفط.

أبقت بريطانية العربية السعودية مرتبطـة بتبعيـة ماليــة، وذلــك بتزويــدها بالســلع والعملات الذهبيــة والفضية للتداول(14).

وبغيـة تقييـد نشـاط شـركة النفـط الأمريكيـة، استغلت بريطانيا مركز تموين الشرق الأوسـط الـذي تولى قبل عـام 1942 تزويـد القـوات في الشـرقيين الأوسـط والأدنى بمشـتقات النفـط، والأشـراف على

توزيع المواد الغذائية على بلدان المنطقة. وتولى البريطانيون تسويق نفط إيران والعراق، ولكنهم في الوقت نفسه قيدوا تسويق نفط السعودية لجيوش الحلفاء. وعلاوة على ذلك أحكموا سيطرتهم على كل صادرات الأغذية إلى المملكة.

أثار تزايد النفوذ الاقتصادي لبريطانيا في العربية السعودية قلق شركات النفط الأمريكية؛ فقررت الحكومة الأمريكية تقديم عون غير مباشر لأبن سعود، إذ أنها قدمت لبريطانيا قرضاً بـ 425 مليون دولار وطالبت بأن تمنح العربية السعودية جزءاً من هذه الأموال. وقد أبلغ ممثلو شركة النفط أبن سعود بذلك(15). ولكن الملك كان مرتبطاً بالدرجة الأولى بمن يقدم له العون المباشر. وخشية استمرار توطد مواقع بريطانيا في العربية السعودية أصرت الاحتكارات النفطية الأمريكية على أن تزود الحكومة الأمريكية المملكة بمساعدة مباشرة.

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كانت الحكومة الأمريكية تعتبر الشرقين الأوسط والأدنى دائرة نفوذ أوربية، وبريطانيا بالدرجة الأولى. ولم يكن لدى الإدارة الأمريكية الكثير من الوسائل السياسية الفعلية لدعم الشركات الأمريكية الخاصة، بما فيها شركات النفط، في هذه المنطقة من العالم(16). وعشية الحرب، عام 1939، لم تكن حصة الأمريكان من استخراج النفط في الشرق الأوسط تربو على 10%(17).

خلال سنوات الحرب طرأت تغييرات عميقة أساسية على الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

ووضعت الولايات المتحدة نصب عينها مهمـة الحلـول محل بريطانيا كدولة مهيمنة في المنطقـة لاعتبـارات عديـدة أهمهـا الاحتياطـات النفطيـة. فقـد تغـير دور النفـط وتحـول من سـلعة تجاريـة في الأسـاس إلى سلعة استراتيجية ذات أهمية من الدرجة الأولى(18).

في الثـامن من شـباط (فـبراير) 1943، تلقى وزيـر الداخليـة الأمـريكي هارولـد إيكيس مـذكرة من "اسـتاندارد أويـل أوف كاليفورنيـا" تضـمنت الأفكـار التالية: "يتزايـد القلـق بصـدد التنـامي السـريع لنفـوذ بريطانيا الاقتصادي في العربيـة السـعودية، لأن ذلـك يمكن أن يحـدث تـأثيرات جوهريـة في نشـاط الأمريكان بعد الحرب. ولو قدمت الحكومة الأمريكيـة معونـة مباشـرة للحكومـة السـعودية، عوضـاً عن المعونة غير مباشـرة الـتي نقـدوها حاليـاً عن طريـق البريطانيين، لوضع حداً لـذلك ولأعطي ضـمانة معينـة بأن احتياطات النفـط في العربيـة السـعودية سـتبقى تحت سيطرة الأمريكان. وبوسـع الحكومـة الأمريكيـة تقديم معونة مباشرة للحكومة السـعودية، وخصوصـاً عن طريق برنامج الإعارة والتأجير"(19).

في 18 شـباط (فـبراير) 1943، أي بعـد مـرور عشـرة أيـام على رفـع المـذكرة، أوعـز روزفلت إلى نائب وزير الخارجية سـتينيوس المسـؤول آنـذاك عن برنامج الإعـارة والتـأجير "بتنظيم مسـاعدة للحكومـة السعودية وفق برنامج الإعارة والتأجير" وأكد الرئيس إن الـدفاع عن السـعودية "لـه أهميـة حيويـة مسـألة الـدفاع عن الولايـات المتحـدة" على الـرغم من أن المملكـة لم تكن مشـاركة في الحـرب لا شـكلياً ولا

فعلياً(20). وفي عام 1948، قـدرت اللجنـة الخاصـة التي شكلها مجلس الشيوخ للنظر في برنامج الـدفاع الوطــني، حجم المســاعدة الــتي قــدمتها الولايــات المتحدة للعربية السعودية خلال الحـرب، عن طريـق برنامج الإعـارة والتـأجير والصـادرات الأخـرى بتسـعة وتسعين مليون دولار.

عنـد حلـول عـام 1943، بـدأ اسـتخراج النفـط يتزايد من جديد بعد أن كان قد انخفض بسـبب إغلاق أســواق أوروبــا الغربيــة والقيــود الــتي وضــعها البريطانيون. وتعزى الزيـادة إلى ارتفـاع الطلب على النفط من قبل جيوش الحلفاء في مسـارح العمليـات الحربيـة بالمحيـط الهـادي والبحـر الأبيض المتوسـط، وإلى توقف صادرات النفط من بورما واندونيسيا بعـد استيلاء اليابان عليهما. وتـولغت كركـة أراكمـو تزويـد الحكومــة الأمريكيــة بمشــتقات النفــط للأغــراض الحربيـة، وبلـغ اسـتخراج النفـط في السـعودية عـام 1943 مقدار 4,9 مليون برميل، وازداد إلى أكثر من عشرة أضعاف عام 1946(21).

في آذار (مـــــارس) 1942، عينت الولايـــــات المتحدة قائماً بالأعمال في جدة، بعد أن كان السفير الأمريكي في القـاهرة معتمـداً في السـعودية إضـافة لوظيفته.

وفي ربيــع 1943، وصــل الجــنرال هــارلي إلى الســعودية منــدوباً عن روزفلت لاستيضــاح مواقــع شركات النفـط الأمريكيـة هنـاك. وفي تشـرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه قام ولي العهد سعود بزيادة رسمية إلى واشنطن وأمضـى في الولايـات المتحـدة

شهرا كاملا. وفي السنة نفسها زار الأمير فيصل وأخوه خالد الولايات المتحدة وقابلا روزفلت وأعضاء الإدارة ومجلسي الشيوخ والنواب في الكونغرس الأمريكي(22).

في ذلك الحين قدرت أرامكو احتياطات النفط في السعودية بعشرين ألف مليون برميل، أي ما يعادل كل الاحتياطات المكتشفة في الولايات المتحدة(23). وكان ذلك أقوى حجة تعتمدها شركات النفط لحفز الحكومة الأمريكية على دعم مصالحها.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1943، أعدت مجموعة من الجيولوجيين الأمريكان تقريرا بعد جولة في الشرق الأوسط، جاء فيه أن مركز استخراج النفط سوف يتحول من حوض خليج المكسيك والبحر الكاريبي إلى منطقة الشرق الأوسط(24). وذكر الخبراء أن تقديراتهم تفيد بأن أكبر احتياطات النفط في العلم موجودة في حوض الرافدين والخليج العربي. وكان إنتاج النفط في هذه المنطقة أقل كلفة مما هو في أي مكان في العالم.

في عام 1943، تمكنت شركة أرامكو من الحصول على تخصيصات مالية لبناء مصنع لتكرير النفط في رأس تنورة بسعة خمسين ألف برميل يومياً، وبدأ المصنع العمل في أيلول (سبتمبر) 1945. وفي آذار (مارس) 1945، مُد خط لأنابيب النفط إلى البحرين حيث يوجد مصنع كبير للتكرير (25).

في كـانون الأول (ديسـمبر) 1943، زار العربيـة السـعودية الجـنرال رويس، القائـد العـام للقـوات المسلحة الأمريكية في الشرق الأوسط، واتفـق على بناء مطارات حربية في الظهـران والدوكـة. وقـد بـدأ بنـاء قاعـدة الظهـران الجويـة عـام 1944 وأنجـز 1946. ووصلت إلى العربية السعودية بعثة عسـكرية أمريكيـة تـولت، إلى جـانب مجموعـة المـدربين البريطـانيين الـذين اسـتدعاهم أبن سـعود، لتـدريب الجيش السـعودي. وخلال سـنوات الحـرب زودت الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية بالأسلحة والمعدات العسكرية وفـق برنـامج الإعـارة والتـأجير (26).

لقـاء أبن سـعود وروزفلت(27). أظهـرت لقاء روزفلت والملك عبد العزيز أهمية الموقـع الـذي احتلته السعودية في السياسة الأمريكيـة في الشـرق الأوسـط. فقـد أقـام الـرئيس الأمـريكي في طريـق عودته إلى الولايات المتحدة بعـد مـؤتمر يالطا صـلة شخصية بزعيم واحـدة من الـدول الـتي كـانت تعتـبر تقليدياً ضمن دائرة المصالح الإمبراطورية البريطانية. وأحيـط لقـاء روزفلت وأبن سـعود بسـرية تامـة، وخصوصاً بالنسبة للبريطـانيين الـذين لم يعلمـوا عنـه شيئاً إلا في اللحظة الأخيرة.

اسـتقل أبن سـعود وحاشـيته البارجـة الأمريكيـة "مـورفي" من جـدة إلى قنـاة السـويس حيث كـان الرئيس روزفلت بانتظاره على متن الطراد الأمريكي "كوينسي" في البحيرات المرة.

أُقيم للملك سرادق على ظهر البارجة وكانوا يذبحون له شاة كل يوم، وفي ساعات النهار يعرضون عليه أفلاماً تسجيلية عن عمليات القوات الأمريكية.

جرى لقاء روزفلت وأبن سعود في 14 شباط (فبراير) 1945، وحاول الرئيس الأمريكي الحصول على موافقة الملك على مشروع إسكان اليهود في فلسطين، قائلاً أنهم ضحايا للنازية، فرد الملك بما معناه: لتتحمل ألمانيا مسؤولية هذه الجرائم. ولما كان الألمان قد آذوا اليهود، فليعاقب المذنب. ولماذا يجب أن يحمل العرب جريرة آثام ارتكبها آخرون؟ ولم تفلح محاولات روزفلت لحمل أبن سعود على تغيير موقفه.

في الخامس من نيسان (إبريل) بعث روزفلت رسالة إلى أبن سعود وعد فيها بالامتناع عن الإقدام على أي عمل قد يكون معادياً للعرب. كما أنه التزم بأن الحكومة الأمريكية لن تغير نهجها السياسي الأساسي في فلسطين إلى بعد مشاورات تمهيدية شاملة مع اليهود والعرب على حد سواء(28).

وأكد أبن سعود في لقائه مع روزفلت موافقته على أن السفن البريطانية والأمريكية حرة في استخدام الموانئ السعودية على الخليج، كما وافق على إقامة قاعدة جوية ضخمة. ولكنه اشترط أبان ذلك إلا تتعرض السعودية في أي حال من الأحوال إلى الاحتلال، كما جرى في مصر وسوريا والعراق وإيران، وإلا يقتطع أي جزء من أراضيها. وفيما يخص المناطق التي يحتاجها الجيش الأمريكي فإنها تعار

لفترة لا تتجاوز الخمس سنوات. كما طلب أبن سعود بأن تحصل الحكومة السعودية على جزء من السلاح الخفيف المخزون في إيران، وفي مقابل ذلك تعهد أبن سعود بإعلان الحرب على دولة "المحور"(29).

طلب الملك من الرئيس الأمريكي مديد الصداقة له ودعم استقلاله، وحصل على وعود بهذا الخصوص. ويرى أيدي أبن سعود أعتبر هذا اللقاء ضمانة تقيه من المحاولات التي قد تقوم بها بريطانيا للنيل من استقلاله.

أما بالنسبة لموضوع النفط فقد أكد أبن سعود لروزفلت، أن الامتيازات الأمريكية باقية على حالها، ووافق على بناء خط لأنابيب النفط عبر الجزيرة العربية يربط منطقة الأحساء بسواحل البحر الأبيض المتوسط.

أثر مغادرة روزفلت عقد رئيس الوزراء البريطاني شرشل لقاء مع أبن سعود في مصر للحد من نفوذ الأمريكان، ولكن اللقاء لم يسفر عن جديد. ولم يكن بوسع لقاء مثل هذا أن يحول دون خروج المملكة السعودية من دائرة النفوذ البريطاني بدعم من الولايات المتحدة. فقد استغلت واشنطن عدم ثقة آل سعود ببريطانيا لتعزيز مواقع الولايات المتحدة في المملكة.

في آذار (مارس) 1945، أعلنت العربية السعودية الحرب على دول "المحور" مما أتاح لها إمكانية الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة(30).

ولكن تجدر الإشارة إلى أن تركيا وإيران ومصر كانت في فترة ما بعد الحرب (أواخر الأربعينات

وبداية الخمسينات) تحتل الموقع الأول في مجال المصالح العسكرية والاستراتيجية لواشنطن في الشرقيين الأدنى والأوسط. وظلت بلدان الخليج العربية أو على الأقل البلدان الواقعة على بر الجزيرة العربية في المقام الثاني. وتولت بريطانيا الحفاظ على مصالح الغرب العسكرية والاستراتيجية في الخليج وفي الجزيرة العربية.

في عام 1945 كان التناسب بين الرساميل الأمريكية والبريطانية والفرنسية في الصناعة النفطية كالتالي: شركة النفط البريطانية العراقية تسيطر على 27.750 مليار برميل من احتياطات النفط و "رويال داتش شيل" 2.750ميليار و "غالف أويل" 5 مليارات و "ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا" وتكساس أويل" 20 مليارا و"ستاندرد أويل أوف نيوجرسي" و "سوكوني واكوم أويل" 2.750 مليار و "فرانسيز دي بترول" 2.750 مليار. وقدرت الاحتياطات الإجمالية بـ 61 مليار برميل(31). وكانت الشركات ذات الرأسمال البريطاني والبريطاني - الهولندي تستخرج القسم الأكبر من النفط آنذاك. ولكن الوضع بدأ يتغير تغيراً جذرياً نظراً لتزايد إنتاج النفط بسرعة في العربية السعودية حيث اكتشف المزيد من الحقول الجديدة، ونتيجة للأزمة الإيرانية في بداية الخمسينات التي أضعفت إلى حد كبير مواقع الرأسمال البريطاني في المجال النفطي.

الفصل السادس عشر

الوضع الداخلي في المملكة وسياستها الخارجية

(1958 _ 1945)

إن المـؤرخ الـذي يعكـف على دراسـة العربيـة السعودية في فترة ما بعد الحرب يواجه عقبـة كـأداء تتمثـل في شـحة المعلومـات عن حقيقيـة الوضـع السياسي في البلد، مـع وجـود فيض من المعلومـات حولـه في مقـالات الصـحف والمجلات والمعطيـات الإحصـائية والكتب المتزلفـة، بـل وتوجـد حـتى بعض الدراسات الاجتماعية. وجرى الصراع السياسي داخل الصـفوة الحاكمـة بين مختلـف التكتلات من الفخـذ السـعودي المتشـعب هـذا علمـاً بـأن أفـرد العائلـة، باسـتثناء حـالات نـادرة للغايـة، لا يسـمحون بتسـرب معلومات حول الطبيعة الفعلية للصدامات والتغـيرات في قمـة السـلم السـعودي. ولم يتـوفر تصـور عن الوضع في العائلة المالكة إلا بعد احتدام الصراع على السـلطة بين الملـك وولي العهـد في فـترة 1958 _ 1964 و "انتفاضة الأمـراء الأحـرار" الـتي جـرت في إطار هذا الصـراع. وفيمـا يخص نشـاطات المعارضـة بمختلف أشكالها، فعل الرغم من أنها أثارت مخـاوف الطبقة الحاكمة، فقد كانت ضعيفة ومشتتة (باسـتثناء التحركـــات العماليـــة عـــامي 1953 و 1964) وإن

قمعت دون صعوبة تـذكر. وأن المعلومـات المتـوفرة عن نشــاط المعارضــة كــانت شــحيحة ومتقطعــة ومتناقضة.

إن جــزءاً كبـيراً ممــا نعرفـه عن تـاريخ العربيـة السـعودية ينحصـر في علاقاتهـا مـع شـركات النفـط وصلاتها الدوليـة وسياسـتها الخارجيـة. ويبـدو أن ثمـة مسوغات لذلك. فإن التصاعد الحـاد للصـراع الـدولي في منطقـة الشـرق الأوسـط بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وانخـراط العربيـة السـعودية في الصـراع إلى جـانب هـذا الطـرف أو ذاك، ومـا طـرأ على حركـة التحرر الوطني من مـد وجـزر، والترابـط بين مصـائر البلدان العربية، هـذه العوامـل جميعـاً زادت من وزن أهمية السياسة في العملية التاريخية.

وقد تأثرت السياسية الداخلية والخارجية للعربيـة بعامل جديد، هـو عامـل النفـط. وخلال بضع سـنوات تحــولت المملكــة الصــحراوية إلى واحــد من أكــبر مصدري الوقود السائل، وفي السبعينات صارت أكـبر مصدر على الإطلاق.

العلاقات مع شركات النفـط. عنـد انتهـاء عام 1945 كانت أرامكو قـد اكتشـفت أربعـة حقـول ضــخمة للنفــط _ في الــدمام وأبــو حدريــة وبقيــق والقطيــف. وفي أيــار (مــايو) 1951 اكتشــف أكــبر مستودع في العالم في السفانية بالجرف القاري في الخليج. وأكبر حقـل نفطي على اليابسـة في العـالم، وهو حقل غاوار الذي يبلغ طوله زهـاء 240 كيلومـتراً وعرضــه 35 كيلومــتراً، وقــد اكتشــف في مســتهل الخمســينات. وبالإضــافة إلى ذلــك افــترض الخــبراء

وجـــود مســتودعات جديــد من الوقــود الســائل في الطبقات الجيولوجية الفريدة بالعربية السعودية(1).

جرى توسيع في ميناء تصدير النفط برأس تنورة وبـدأ اسـتخدامه في كـانون الأول (ديسـمبر) 1945 بسعة قدرها 50 ألف برميل يومياً. وازدادت تـدريجياً قـدرة مصـنع تكريـر النفـط في رأس التنـورة وبلغت في أواســط الســتينات 15 مليــون طن ســنوياً، ثم تضاعفت. وشيد مصـنعان آخـران لتكريـر النفـط في جدة والرياض(2).

بعد الحرب العالمية الثانية أدى تحول مؤسسـات إنتـاج الطاقـة في البلـدان الرأسـمالية إلى اسـتخدام الوقود السائل وكثرة عدد السيارات وتطور الكيمياء، إلى تزايد لم يسبق لـه مثيـل في الإقبـال عن النفـط وخصوصـاً في النصـف الشـرقي من العـالم. وأخـذت مناطق عديدة من العالم كانت متخلفـة عن الولايـات المتحـدة في اسـتخدام النفـط تعمـل بوتـائر سـريعة على اللحـاق بهـا. ولئن كـان الطلب على النفـط قـد ازداد خلال ربع القرن الـذي أعقب الحـرب لأكـثر من 2.5 مــرة في الولايــات المتحــدة، فــإن الزيــادة في سائر أنحاء العالم ربت على 8 مرات، وبلغت الزيـادة أسرع وتائرهـا في اليابـان وأوربـا الغربيـة، وأصـبحت منطقـة الشـرقين الأدنى والأوسـط أكـبر منتج لهـذه المادة الخام عام 1965، حينما بلغ الاسـتخراج هنـاك زهـاء 8.5 مليـون برميـل يوميـاً، أي أكـثر من إنتـاج الولايات المتحدة(3).

أخذت صناعة تكرير النفط تنتقل شيئاً فشيئاً إلى مراكز الاستهلاك. فأن نقـل النفـط الخـام أرخص من

نقـــل مشـــتقاته الجـــاهزة، علاوة على أن بوســـع المستورد أن يشتري منه كميات أكبر، كما جـرت في مراكـز الصـناعة الاسـتفادة من نفايـات التكريـر على نحـــو واســـع. وأضــيفت إلى الحســـابات الاقتصـــادية اعتبــارات سياســية هامــة: فقــد خشــيت الشــركات (وخصوصــاً بعــد محاولــة تــأميم النفــط الإيــراني في مستهل الخمسينات) من إنشاء مصانع ضخمة لتكرير النفط في البلدان النامية.

إبــان ســنوات الحــرب خمن المســاهمون في أرامكو أن خط الأنابيب بين العربية السعودية والبحـر الأبيض المتوسط يمكن أن يقلص نفقات نقل النفــط إلى أوروبـا بنسـبة تـراوح من ثلث إلى نصـف كلفـة استخدام الناقلات. وتقرر مد خط للأنابيب بقطــر 30 بوصــة (762) من منطقــة بقيــق النفطيــة بالعربيــة السعودية إلى السواحل اللبنانية قـرب مدينـة صـيدا، بطــول إجمــالي قــدره 1712 كيلومــتراً وبســعة 15 مليـــون طن ســـنوياً على أن تـــزداد الســـعة إلى 25 مليون طن(4).

في تموز (يوليو) 1945، أسس المسـاهمون في أرامكو شركة التابلاين "شركة خط أنابيب نفط البلاد العربية السعودية". وعنـدما كـانت أعمـال مـد الخـط في اوجها عمل فيها 16 ألف شخص واسـتخدم زهـاء 3 آلاف ماكنة مختلفة(5).

ولكن إذا كانت الشـركات والحكومـة البريطانيـة عـاجزة عن عرقلـة زيـادة اسـتخراج النفـط من قبـل أرامكـو، فإنهـا حـاولت إعاقـة وصـول خـط الأنـابيب الأمريكي إلى سواحل البحـر الأبيض المتوسـط، لأنـه

سوف يتيح للأمريكان نقل النفط إلى أوروبا الغربية بسرعة وبكلفة زهيدة. وبمد الخط يفقد البريطانيون جزءاً من العوائد التي سيحصلون عليها لقاء نقل النفط في ناقلاتهم بالإضافة إلى رسوم نقل النفط عبر قناة السويس.

كان الصراع السياسي في سوريا ولبنان والعراق في فترة ما بعد الحرب مرتبطاً ، ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بالتنافس النفطي بين بريطانيا والولايات المتحدة، بما في ذلك ما يتعلق بعد خط الأنابيب.

أيد أبن سعود الحكومة التي استلمت زمام الحكم في سوريا إثر الانقلاب العسكري في آذار (مارس) 1949 بقيادة حسني الزعيم المترابط بالولايات المتحدة، ومنحه، قرضاً قدره ستة ملايين دولار. وقد عارض حسني الزعيم مشروعي "سوريا الكبرى" و "الهلال الخصيب" اللذين كان وراءهما البريطانيون ودعا إليهما عبد الله أمير شرق الأردن، وأبرم حسني الزعيم الاتفاقية الموقعة سابقاً حول مد خط الأنابيب عبر أراضي سوريا.

غير أن حكومة جديدة شكلت في سوريا برئاسة سامي الحناوي أثر الانقلاب العسكري الثاني في آب (أغسطس) 1949، وأخذت تتبع سياسة موالية لبريطانيا وأبطلت الاتفاقية خط الأنابيب وباركت فكرة "سوريا الكبرى".

وجاء أديب الشيشكلي الذي قام بانقلاب آخر في كانون الأول (ديسمبر) 1949 ليعيد لشركات النفط الأمريكية مواقعها وأجاز مد خط الأنابيب. ولجأ

الدكتور الشيشكلي إلى السعودية بعد انهيار نظامه في شباط (فبراير) 1954.

عام 1950 أنجز مد خط الأنابيب التابلاين الذي بلغت كلفته 230 مليون دولار وبدأ العمل(6).

أدى التطور السريع للصناعة النفطية في العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية إلى وصول شركتي سوكال وتكسكو إلى قناعة بأنهما لا تمتلكان الأموال الكافية لاستثمار المكامن الهائلة في البلد، ومد خط الأنابيب وتوفير أسواق لمثل هذه الكمية الضخمة من النفط. لذا قررت الشركتان التعاون مع "ستاندارد أويل أوف نيوجرسي" و "موبيل أويل". ووقعت اتفاقية إسهام هاتين الشركتين مع أرامكو في أواخر علم 1946 وظلت الاحتكارات البريطانية طوال سنتين تعارض هذه الاتفاقية لأن "ستاندارد أويل" و "موبيل أويل" وقعتا من قبل "اتفاقية الخط الأحمر". في تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 تجاهلت الشركتان الأمريكيتان معارضة "شركة النفط العراقية البريطانية" و "رويال داتش شيل" وإنظمتا إلى أرامكو، ولذا أصبحت "اتفاقية الخط الأحمر " في عداد الأموات.

منذ عام 1948، صارت أسهم أرامكو موزعة على النحو التالي: سوكال 30%، تكسكو30%، "ستاندارد أويل أوف نيوجرسي" 30% و "موبيل أويل" 10%(7).

وفي عام 1948، تخلت أرامكو عن حقوق الامتياز في المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت مقابل الحصول على الجزء السعودي في

الجرف القاري بالأحساء. ومن أسباب ذلك إنه تم آنذاك عقد اتفاقية امتياز في المنطقة المذكورة بين شركة "أمريكان أنديبندنت أويل" ("امين أويل") وحكومة الكويت وفق شروط أفضل بكثير مما نصت عليه الاتفاقية بين أرامكو والسعودية. وقد آثرت أرامكو الانسحاب من المنطقة المحايدة خشية أن تؤدي بها موافقتها على المطالب الكويتية إلى زيادة مدفوعاتها للعربية السعودية عن الامتياز الأساسي. ولكن الأهم هو اكتشاف حقول نفطية ضخمة في الجرف القاري العائد للسعودية(8).

في تشرين الأول (أكتوبر) 1948، وقعت اتفاقية جديدة حول بدل الإيجار عن استخراج النفط في الجرف. ووافقت أرامكو على دفع بدل إيجار مماثل لما نصت عليه اتفاقية الامتياز الأولية، يضاف إليه خمسة سنتات أمريكية لقاء كل برميل يستخرج من الجرف القاري. وتعهدت أرامكو أن يكون الحد الأدنى لبدل الإيجار السنوي عن العمليات في الجوف القاري مليوني دولار تدفع مقدماً.

ووافقت على تحديد فترة مدتها 22 سنة تعيد خلالها بالتدريج القطاعات التي لا تعتزم مواصلة التنقيب فيها من "منطقة الحقوق الخاصة" المعطاة لها(9).

كانت الأرباح المتوفرة من استغلال احتياطات النفط في حوض الخليج أرباحاً طائلة إلى حد دفع إلى المنطقة "أطرافاً خارجية" مستعدة للحصول على امتياز بشروط أفضل بكثير مما تقدمه الشركات السابقة للحكومات المحلية. وكان بين هذه

الأطراف شـركات أمريكيـة مسـتقلة لا يمكن تجاهـل ثقلها. فقد كانت متفوقة كثـيراً من حيث الموجـودات والرأسـمال المتـداول على كبريـات شـركات أوروبـا الغربيــة واليابــان. وبظهــور "الأطــراف الخارجيــة" أدركت الحكومـة السـعودية مـدى مـا كـانت أرامكـو تحجبه عنها من أمـوال، فتعـزز موقـف الحكومـة في التفاوض بشـأن إعـادة النظـر في اتفاقيـات الامتيـاز(10).

في عام 1949، منح امتياز في منطقة المحايـدة لمــدة سـتين عامــاً إلى "باسـيفيك ويسـتون أويــل كوربريشين"ـ (بدل اسمها قيما بعـد إلى "غيـتي أويـل كومبــاني") وذلــك على حســاب حصــة العربيــة السعودية. ومقابل حق التنقيب والاسـتثمار في أرض مساحتها ألفـا ميـل مربـع، بمـا فيهـا الجـرف القـاري لمسـافة تمتـد سـتة أميـال عن السـاحل، وافقت الشركة على:

دفـع 5.9 مليـون دولار مقـدماً ومنح بـدل إيجـار قـدره 55 سـنتاً عن كـل برميـل من النفـط الخـام و 12.5% من عوائـد تسـويق الغـاز، ومشـتقاته ودفـع سلفة مقدارها مليون دولار كمقدم عن بـدل الإيجـار. وإذا كان بدل الإيجار المستحق الكامل أقـل من هـذا المبلغ فإن الحكومة غير ملزمة بإعادة القسط الأول(11).

عـام 1953، تـدفقت نـافورة النفـط الأولى في المنطقة المحايدة ونقلت أول كمية من النفط الخـام عام 1954. وشـرعت "امين أويـل"، "وغيـتي أويـل"ـ

باستخراج النفط كل في حقولها وضخه عـبر أنابيبها وموانئها ومستودعاتها(12).

وقعت في كانون الأول (ديسمبر) 1957 اتفاقيـة مـع شـركة "جابـان بـتروليوم ترايـدنغ كومبـاني أوف طوكيو" اليابانية التي قامت بتأسيس "شـركة النفـط العربيــة" ومنحت هــذه الشــركة حقــاً اســتثنائياً في التنقيب لمدة لا تتجاوز السـنتين في الجـرف القـاري للمنطقـة المحايـدة خـارج حـدود السـتة أميـال عن السـاحل. وفي حـال اكتشـاف النفـط تمنح الشـركة امتيازاً لمدة 44 سنة. وقد بدأ الحفر عـام 1959 وتم استخراج الدفعات الأولى من النفط في كانون الثاني (يناير) 1960.

وتعهدت الشـركة بـدفع 1.5 مليـون دولار سـنوياً لحين اكتشـاف كميـات تجاريـة من النفـط، ومليـون دولار إضــافي ســنوياً بعــد اكتشــافه على أن تــدفع المبالغ الإضـافية عن كـل الفـترة الممتـدة من توقيـع الاتفاقية وحتى اكتشاف النفط.

وتقرر أن الحـد الأدنى لبـدل الإيجـار 2.5 مليـون دولار ووافقت الشركة على دفع ضريبة دخل عن كل العمليات داخل السعودية وخارجها، بمـا في ذلـك عن بيــع النفــط الخــام وتكريــره ونقلــه وتصــديره إلى الأسواق. وفي كل الأحوال تقرر إلا تقـل المـدفوعات عن 56% من عائدات الشـركة، وزيـدت النسـبة إلى 57% عام 1963(13).

منحت شركات إيطاليـة حـق التنقيب عن النفـط في ســواحل البحــر الأحمــر. وفي عــام 1965 منح امتيــاز لشــركة "أوكســيراب" الفرنســية ونصــت

الاتفاقية على أن للعربيـة السـعودية حـق المسـاهمة الفعالـة في كـل عمليـات هـذه الشـركة. وفيمـا بعـد عقدت شركة بترومين السعودية اتفاقيـة للتنقيب عن النفط في الربع الخالي مع "أجيب" (فرع شركة إيني الإيطالية) وشركة "فيليبس". وفي عـام 1967 نقلت "بترومين" حـق التنقيب على سـواحل البحـر الأحمـر لمجموعـــة تتـــألف من "ناتومـــاس أنترناشـــنال كوربريشـين" و "سـينكلر أرابيـان أويـل كومبـاني" والشـــركة الحكوميـــة الباكســتانية. وقـــد تغـــيرت المجموعـة فيمـا بعـد، ولكن البحث عن النفـط في الربع الخالي وعلى سـواحل البحـر الأحمـر لم يسـفر عن شيء(14).

منـذ أواخـر الأربعينـات وبعـد أن تحسـن إطلاع الحكومـة السـعودية على الشـؤون الماليـة وإدراكهـا لضـخامة عوائـد أرامكـو من اسـتثمار ثـروات البلـد النفطية، أخـذت تطـالب بتوزيـع الأربـاح بشـكل أكـثر إنصافاً. وكان السعوديون قد سـمعوا بـالتوفيق الـذي حـالف فـنزويلا الـتي تمكنت من زيـادة عوائـدها من الامتيـاز زيـادة كبـيرة، فعقـدوا مـع "غيـتي أويـل كومباني" اتفاقية بشروط أفضل بكثير من اتفـاقيتهم مع أرامكو.

عام 1950 صدر في 4 تشرين الثـاني (نوفمـبر) و 27 كانون الأول (ديسمبر) مرسومان ملكياً فرضت بموجبهـا ضـريبة الـدخل على الأربـاح الصـافية لكـل الشركات الأجنبية العاملة في السعودية. وقد احتجت أرامكـو ولكن إجحـاف الاتفاقيـة الأوليـة كـان باديـاً للعيان. ففي السعودية كان صاحب الأرض والحكومـة

شخصـية معنويـة واحـدة، في حين أن الشـركات في البلدان الأخرى، ومن ضمنها الولايات المتحدة، كـانت ملزمــة بــأن تـدفع الريــع لمالــك الأرض والضــريبة للحكومة.

بعــد مفاوضــات مضــنية عقــدت في 30 كـانون الأول (ديســمبر) 1950 اتفاقيــة جديــدة تنص على فــرض ضــريبة عن المــداخيل المستحصــلة من بيــع النفط. ووافقت أرامكو على دفع الضـريبة بشـرط إلا يتجــاوز الحجم الإجمــالي لكــل الضــرائب والإيجــار والمــدفوعات الأخــرى للحكومــة 50% من العائــد الإجمالي لأرامكو، على أن يحدد هذا العائد بعد حسم كلفة العمليات بما فيها الخسائر وضـرائب الـدخل أن كانت تدفع لأي بلد أخر. والتزمت الشركة بـأن تقـدم للدولة السعودية مجاناً 2.6 مليون غالون من البنزين و 200 ألـف غـالون من الكيروسسـين و 7500 طن من الإسفلت.

كـان ذلـك إنجـازاً هامـاً، وأدى إلى جعـل عوائـد السـعودية من النفــط تصــل عــام 1957 إلى زهــاء ضــعف مــا كــانت عليــه عــام 1950. ولكن مــوطن الضعف في هذه الاتفاقيـة أن العوائـد احتسـبت على أساس الدخل الإجمالي لأرامكو. وكان الغبن الواضـح متمثلاً في تناقص ما يدفع للعربية السعودية في حالة فـرض ضـرائب على الشـركة في دولـة أخـرى. وقـد أُلغي هذا البند في 13 شباط (فبراير) 1952 (15).

على الــرغم من زيــادة المــدفوعات للحكومــة السعودية، فإن الاحتكـارات ظلت تحصـل على أربـاح طائلة بفعل الكلفة الزهيدة للغايـة لاسـتخراج النفـط

ورخص الأيدي العاملة. فقد كان النفط المستخرج في السعودية يكلف أرامكو مبلغاً يقل عشر مرات تقريباً عن كلفة النفط المستخرج من الولايات المتحدة وخمس مرات أرخص من نفط فنزويلا. وبلغت الأرباح الصافية لأرامكو بعد حسم المدفوعات والضرائب للحكومة السعودية 2.8 مليار دولار في فترة 1952 _ 1963 أي بمعدل57.6% من الرأسمال المستثمر وبلغت النسبة81.5 % عام 1961. أما في الولايات المتحدة فأن الربح الصافي يعادل 10 ـ 12% من الرأسمال المستثمر(16).

في آذار (مارس) 1963، وافقت التابلاين على زيادة سعر كل برميل ينقل إلى صيدا، وأن يكون لهذا الأجراء مفعول رجعي منذ 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1953، كما وافقت على دفع ضرائب دخل عن الربح الإضافي(17).

أعلن في شباط (فبراير) 1954 أن الحكومة السعودية منحت مالك الأسطول التجاري ايوناني أرسطو طاليس أوناسيس الحق في أن ينقل بحراً من العربية السعودية كل النفط باستثناء ما ينقل على السفن العائدة، أ) للشركات صاحبة الامتياز،ب) لشركاتها الأصلية أو لفروعها،ج) لمشتري النفط. وأشارت الاتفاقية إلى أن النية متجهة لتأسيس شركة نقل مختلطة يمتلكها أوناسيس والحكومة السعودية. وقد نددت بريطانيا بهذه الخطوة تنديداً شديداً، ووصفتها الغرفة البحرية البريطانية بأنها "أوقح مثال على الاستخفاف بالعلم" و "تدخل فظ في القانون التجاري المتعارف عليه". كما أن ناطقاً بلسان وزارة

الخارجيـــة الأمريكيـــة احتج على الاتفاقيـــة. ونظمت شـركات النفـط مقاطعـة لسـفن أوناسـيس في كـل أنحاء العالم، وبعد بضعة أشهر من الصـراع استسـلم أوناسيس وتخلى عن العقد(18).

من بداية الأربعينات، وخصوصاً في الخمســينات، أخذ مسؤولو أرامكو يـدركون أن الظـروف المناسـبة لاستغلال حقول النفط السعودية قد تتعـرض للخطـر إذا لم يضمن نظام مستقر صديق لأمريكـا في البلـد(19). ولم تكن جهود الشركة أرامكو ووسائل الضغط الــتي بحوزتهــا كافيــة لإبقــاء المملكــة في الفلــك الأمــريكي، لــذا كــان ينبغي تحريــك ماكنــة الــدول الأمريكيــة بكــل دوائرهــا السياســية والدبلوماســية والاقتصـادية والإعلاميـة _ الدعائيـة العسـكرية. وأخـذ دور العربيـة السـعودية يتعـاظم باسـتمرار في قائمـة أولويات السياسة الخارجية الأمريكية.

السنوات الأخيرة من حياة عبد العزيـز. بدايـة حكم سـعود. في أخــر سـنوات حيـاة أبن سـعود أخـذت إدارتـه لشـؤون المملكـة تسـوء شـيئاً فشيئاً. فإن مؤسس الدولة الإقطاعية المركزيـة كـان وليد عصر ولى زمانه، وليد المجتمع القبلي، ولم يكن ليفهم التغيرات أو يتقبلها.

وبفضـل الزيـادة السـريعة في اسـتخراج النفـط وتعـديل اتفاقيـات الامتيـاز، ازدادت عوائـد السـعودية في السـنوات الأولى الـتي أعقبت الحـرب عشـرات المـرات. وعلى الـرغم من ذلـك فقـد ظلت المملكـة بمثابة ضيعة إقطاعية عائلية كبيرة، ويعتقد الحكام أن

عوائـــدها يجب أن تنفـــق، في المقـــام الأول، على احتياجات العائلة المالكة.

وبعــد أن ســافر أفــراد العائلــة الســعودية في الأربعينـات والخمسـينات إلى الخـارج واطلعـوا على ظـروف حيـاة الطبقـات الحاكمـة في أوروبـا الغربيـة والولايــات المتحــدة، تــاقت أنفســهم إلى الأبهــة المعقولة وغير المعقولة. واقـترن ذلـك بـالعجز التـام عن التوفيق بين النفقـات والمـداخيل، والعـزوف عن حسـاب المـال وهـو أمـر تتمـيز بـه الأرسـتقراطية الإقطاعية القبلية، علاوة على السـخاء _ وهـو خصـلة بشــرية إيجابيــة تحــولت عنــدهم إلى نقيضـها حينمـا صـارت إسـرافاً لم يسـبق لـه مثيـل في التـاريخ ببلـد تشـكل غالبيتـه سـكان شـبه جيـاع يرزحـون في لجـة الفقر والأمراض.

لقد بـدأ تصـاعد مجنـون في الإنفـاق على البلاط والفخفخــة، وكــثرت الأمثلــة على إســراف العائلــة المالكة وورد ذكرهـا في العديـد من الكتب والمجلات والصحف بحيث لم يعد ثمة داع للاستفاضة فيها.

تقاطر على الرياض شذاذ الآفاق والنصــابون من جميع أنحاء الشرق الأوسط. ورســت الصـفقات على كـل من يـدفع رشـوة أكـبر. واستشـرى الفسـاد في البلاط الملكي وجهاز الموظفين وبلغـا مـدى مروعـاً. ومنذ ذلك الحين بدأت الأمـوال تتسـرب من المملكـة لإيـــداعها في الخـــارج. وكـــان التجـــار والمقـــاولون الجشعون يخدعون الحكام ويبيعون السلع والخـدمات بأسـعار تزيـد خمس أو عشـر أو عشـرين مـرة عن سعرها الحقيقي. ولكن عنـدما لا يوجـد مـا يكفي من

المال كانت العائلة المالكة لا تكلف نفسها من عناء سوى الامتناع عن سداد الديون(20).

وأصبح الوضع الشاذ وخطره على النظام جلياً لعدد من أفراد العائلة الحاكمة البعيدي النظر. ولكن إجراءات الملك الرامية لـ "تحديث" الدولة كانت ذات طابع شكلي وسطحي بحت.

وفي أواخر أيامه فحسب، في تشرين الأول (أكتوبر) 1953، أصدر ابن سعود مرسوماً حول إعادة تنظيم مجلس الوزراء الذي أصبحت وظائفه لا تقتصر على الحجاز بل تشمل، شكلياً وفعلياً، البلاد كلها. ولكن مجلس الوزراء الجديد لم يشرع بمزاولة أعماله إلا بعد وفاة ابن سعود(21). كان عبد العزيز في شبابه وكهولته إنساناً قوياً وشجاعاً، رويت فيه الأساطير. ونقل الزركلي عن طبيب ابن سعود الخاص رشاد فرعون الذي صار وزيراً للصحة وواحداً من أغنى أغنياء البلد، أسطورة تقول أن عبد العزيز أصيب في إحدى المعارك بجرح في بطنه. وقد عرض فرعون عليه أن يحقنه بالمخدر (البنج) فأخذ عبد العزيز المبضع وشق موضع الإصابة وأخرج الرصاصتين وأمر بخياطة الجرح(22).

كان عبد العزيز يعاني من آلام بسبب جرح في ساقه وقد تزايدت مع تقدمه في العمر. ولم يكن بوسعه ثني إحدى ركبته إذ أن ذلك يسبب له آلاما مبرحة، ولا يستطيع أن يخلد للنوم إلا بعد أن تفرك ركبته ساعة أو أكثر. وقد أهداه الرئيس الأمريكي روزفلت كرسياً متحركاً هو نسخة طبق الأصل من كرسيه. وأعجب ابن سعود أيما إعجاب بالكرسي ولم

يعد يفارقه. ويبدو أن ذلك عجل في وفاته لأنه لم يعد يتحرك فترهل(23).

كان اكثر ما يخشاه أبن سعود هو حدوث تنافس بين ولديه الأكبر سناً. فطلب منهما قبيل وفاته أن يقسما على إلا يتقاتلا. وكان يذكر ما حل بأبية وأعمامه بعد وفاة جدة فيصل ويخاف أن يؤدي الشقاق داخل العائلة إلى تقسيم المملكة(34).

توفي عبد العزيز في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1953 في الطائف. وأقسم زهاء مائه أمير اجتمعا عند جثمانه يمين الولاء لسعود الذي بايعوه ملكاً ولفيصل كولي للعهد. ونقل جثمان أبن سعود جواً إلى الرياض حيث دفن وفق التقاليد الوهابية المعتادة دون شاهد أو تابوت أو ضريح. ويصعب تمييز مقبرته عن سواها، وهي تقع إلى جوار مقابر سائر أفراد العائلة ومنهم أحب أخواته نورا. ولذا ظل الوهابيون الذين هدموا القباب وشواهد القبور أوفياء لأنفسهم(25).

في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر 1953، أكد العاهل الجديد سعود تعيين شقيقه فيصل نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية، واحتفظ لنفسه برئاسة الحكومة(26).

يقول الزركلي أن عبد العزيز حينما توفي كان عدد الأحياء من أبنائه 34 ولداً وبلغ العدد الإجمالي لأبنائه وأحفاده وحفيداته _ عدا أبناء بناته _ 160، ويزيد العدد على ثلاثمائة إذا أضفنا ذرية بناته. وكان قد عقد خلال حياته عشرات الزيجات(27).

كان ولي العهد سعود المولـود عـام 1902 الابن الثاني لعبد العزيز بعد تركي الذي توفي شـاباً بسـبب إصـــابته بـــالأنفلونزا. وأم ســـعود من آل عريعـــر الأرستقراطيين وهم شيوخ بنو خالد، وقد توفيت عـام 1969، أي بعد وفـاة أبنهـا. وولـد فيصـل عـام 1906 من الزوجة الثالثـة لعبـد العزيـز وهي من آل الشـيخ. وقد جرى بين الأخوين غير الشقيقين تنافس مسـتمر لم ينقطع حتى وفاة والـدهما على الـرغم من اليمين الذي أقسماه له(28).

كـان لسـعود 40 ولـداً وهـو عـدد مقـارب لعـدد اخوته، أما غريمه فيصل فلم يكن له غير ثمانيـة أولاد بعث خمسة منهم للدراسة في المدارس والجامعـات الأمريكيـة وواحـد إلى أوكسـفورد وآخـر إلى كليـة ساندهيرست العسكرية الملكية البريطانية(29).

في آذار (مـــارس) 1954 أدلى ســـعود في أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسي الأول بصـفته ملكاً. وقـد أعلن عن تمسـكه بأهـداف الـدين وعزمـه على مواصلة سياسة والده وأساليب حكمه. وقال إن هدفه الأول هو تثبيت أصول الدين والشرع. وذكـر أن من مهمـات حكومتـه تعزيـز الجيش ومكافحـة الفقـر والجوع والمرض وتحسين الخدمات الطبية وتأسـيس وزارات للمعـارف والزراعـة والمواصـلات. وتضـمن خطاب العرش الذي ألقاه سعود فقرات صارت فيمـا بعد سمة ملازمة لكل التصريحات السياسية الحكومة السعودية: التأكيد على الالـتزام بالتقاليـد ومراعاتهـا، وفي الـوقت نفسـه الإشـارة إلى الرغبـة في إجـراء تحديث وتطوير في الجهاز الحكومي(30).

أسست في العربية السعودية ثماني وزارات: الداخلية، الدفاع والطيران، المواصلات، المعارف، المالية والاقتصاد الوطني، الصحة، التجارة والزراعة، الخارجية، ونجد بين الوزراء عدداً من الأشخاص الذين ستظل أسماؤهم تتردد طويلاً في الحياة السياسية بالبلد: فهد بن عبد العزيز (وزير المعارف)، سلطان بن عبد العزيز (وزير المواصلات)، رشاد فرعون (وزير الصحة). غير أن الملك كان يتدخل باستمرار في أعمال أخيه ويقيد سلطته(31). وفي أواخر الخمسينات بلغ الصراع الخفي بينهما حداً جعل الناس يتحدثون عن "ازدواجية السلطة" في المملكة.

الحركة العمالية. في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات لاحت في العربية السعودية البوادر الأولى التي تشير إلى أن قوى اجتماعية جديدة لم يعهدها البلد من قبل قط أخذت تظهر على المسرح السياسي، وإن نزاعات اجتماعية لم يسبق لها مثيل آخذة في التطور. ولأول مرة طرحت الطبقة العاملة مطالبها.

جرى أول إضراب لعمال أرامكو، العمال الأجانب في الأساس، عام 1945. وقدمت الإدارة تنازلات وقتية، إذ ضمنت أن يكون العمل لمدة 8.5 ساعات يومياً وستة أيام في الأسبوع، وإن تعطي إجازة سنوية مدفوعة الأجر لمدة أسبوعين. ولكن الأجانب المضربين سرحوا فيما بعد. وفي أواخر الأربعينات شهدت حقول النفط إضرابات عمالية جديدة(32).

إزاء هذا الوضع أصدرت الحكومة السعودية في تشرين الأول (أكتوبر) 1947، قانون عمل استخدمت عند وضعه التشريعات المصرية. وحدد أسبوع العمل بستة أيام ويوم العمل بثماني ساعات في مؤسسة يزيد عدد العمال المأجورين فيها على العشرة.

شكل عمال أرامكو عام 1952 لجنة بمثابة نقابة، وفي العام التالي بدأوا كفاحهم بحزم. فقد طالبوا بضمان حق التنظيم النقابي وزيادة الأجور وقطع دابر التمييز العنصري وتوفير مساكن جديدة للعمال ودفع أجور النقل واعتماد للغة العربية في الأساس. وامتنعت إدارة أرامكو عن تنفيذ هذه المطالب، وأيدتها عملياً اللجنة الملكية الخاصة، واعتقل 12 عضواً من اللجنة العمالية. وفي 17 تشرين الأول (أكتوبر) بدأ إضراب شارك فيه زهاء عشرين ألفاً من العمال العرب في أرامكو، وأعرب سكان المنطقة الشرقية عن تعاطفهم مع المضربين. إذ أن الموقف من الأمريكان وثرائهم ونمط حياتهم كان موقفاً سلبياً أو عدائياً.

أعلنت الأحكام العرفية في حقول النفط، ونقل إلى المنطقة الشرقية بضعة آلاف من الجنود ولكنهم، شأن رجال الشرطة المحليين لم يتحمسوا لتنفيذ الأوامر القاضية بالتحرك ضد المضربين.

بلغ الوضع درجة من الخطورة حملت إدارة أرامكو على التفاوض مع اللجنة العمالية والقبول بالكثير من مطالب المضربين: زيادة الأجور بنسبة 12 ـ 20% وتزويد العمال بملابس العمل والغذاء

وتوفير وسائط النقل ومنحهم درجات تأهيلية أعلى. وأطلق سراح المعتقلين من أعضاء اللجنة وأعيدوا إلى أعمالهم، ولكن العمال لم يحصلوا على حق التنظيم النقابي. وقد انتهى الإضراب في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)(33).

بدا أن الإضراب يعني بداية مرحلة جديدة نوعياً في الحركة العمالية بالعربية السعودية. وبالفعل استمرت في السنوات الثلاث التالية المفاوضات بين ممثلي العمال والشركات، وتولت لجنة ملكية خاصة النظر في النزاع. ولكن السعي للحيلولة دون وجود حركة عمالية منظمة كان القاسم المشترك بالنسبة للسلطات السعودية والشركات.

شكلت أرامكو ما يسمى بـ " لجان الاتصال"، وكلفت شكلياً بدراسة مطالب العمال لتفادي النزاعات. أما في الواقع فإن هذه اللجان كانت تبحث عن "العناصر المريبة" وتلاحق النشطاء من العمال(14).

وفي عام 1956، حينما أدت الأحداث الثورية في مصر إلى تعاظم الحركة المناهضة للغرب في سائر البلدان العربية، أصبحت المنطقة الشرقية المركز الطبيعي للتحركات الجماهيرية. وعندما وصل الملك سعود إلى الظهران في 9 تموز (يوليو) 1956 استقبلته مظاهرة جماهيرية ترفع شعارات مناهضة للإمبريالية وطالب المتظاهرون بإجلاء القاعدة الأمريكية. وسلمت إلى الملك مطالب العمال وهي: الاعتراف رسمياً باللجنة التي انتخبوها وزيادة علاوة غلاء المعيشة وزيادة الأجور وتقليص يوم العمل

ووقف التسريح الكيفي ومساواة العمال المحليين والأمريكان في الحقوق وإلغاء التميز العنصري وإصدار قانون يكفل حقوق عمال أرامكو ويحمي كرامتهم(35).

وبعد مرور يومين، في الحادي عشر من تموز (يوليو)، أصدر الملك مرسوماً يمنع كل الإضرابات والمظاهرات ويوقع على المخالف عقوبة الحبس لمدة لا تتجاوز الثلاث سنوات. بدأت حملة اعتقال وتعذيب العمال النشطاء وفق قوائم أعدتها الأجهزة الخاصة لأرامكو. وفي 17 تموز (يوليو) أعلنت اللجنة المركزية للعمال العرب الإضراب العام. وكان من بين المطالب التي طرحتها الطليعة الواعية من العمال: سن الدستور وإجازة الأحزاب السياسية والتنظيمات الوطنية وتقنين حق التنظيم النقابي وإلغاء المرسوم الملكي حول حظر الإضرابات وإيقاف تدخل أرامكو في شؤون البلد الداخلية وإجلاء القاعد الأمريكية من الظهران وإطلاق سراح المعتقلين كافة. ولكن من المستبعد أن تكون جماهير العمال في الأحساء قد بلغت آنذاك مستوى عالياً من الوعي البروليتاري والسياسي يؤهلها للدفاع عن مثل هذه المطالب لذا فإن الإضراب القصير لم يعطل عمل حقول النفط. واستخدم في عمليات قمع العمال بدو من هجر الإخوان والحرس الشخصي لأمير المنطقة الشرقية المكون من العبيد والمعتوقين. وقد اعتقل مئات الأشخاص وعذبوا وصدرت أحكام بالحبس لمدد مختلفة والطرد من البلاد(36).

بعد مرسوم الحظر الصادر عام 1956، جرى الإضراب الأول في عام 1958 حينما توقف السواق العاملين لدى أحد المقاولين عن العمل احتجاجاً على الساعات الإضافية(37).

ولكن من المهم الإشارة إلى الاضطرابات العمالية عام 1956 كانت آخر تحرك كبير تقوم به البروليتاريا السعودية من الخمسينات حتى التسعينات.

تأزم الوضع الداخلي في أواسط النصف الثاني من الخمسينات. لم يكن سعود يتمتع بالهيبة وقوة الشخصية اللتين كانتا سمة عبد العزيز، ولكنه كان يحاكي والده في نواقصه إلى حد كبير بحيث بدأ نسخة كاريكاتورية عنه. فقد واصل العيش في عالم يمت إلى ماضي الجزيرة وله حريم كثير العدد وبلاط قوامه خمسة آلاف شخص، وكان يبذر المال معتبرا عوائد البلد ملكه الخاص ولا يقر بوجود فرق بين كثرة المال ولا محدوديته(38).

وكان طرد فيلبي من القرائن التي توضح الجو السائد في البلاد عقب وفاة عبد العزيز. فبعد وفاة أبن سعود أخذ فيلبي، الذي كان يعتبره بطلاً، يتحدث جهاراً عن الفساد المستشري في البلاط والمملكة مما أثار نقمة سعود. ولكن ما أن غادر فيلبي البد حتى وجد جمهوراً كبيراً ومنبراً لانتقاد النظام. فاختار الملك أهون الشرين وسمح له بالعودة لكي يقضي آخر سنوات حياته في موطنه الثاني(39).

أخذت الرشوة تنخر في جهاز الدولة من أعلاه إلى أدناه. وجاء في كتاب "جحيم الحكم السعودي"

الصادر عن ممثلي المعارضة الديمقراطية الثورية، أن حاكم المنطقة الشرقية حصل على ثلاثين ألف ريال مقابل إطلاق سراح مقاولين كبار حكم عليهم بالسجن سنة واحدة والضرب لتعاطيهم الخمرة(40).

وزاول الكثير من أفراد العائلة المالكة وأمراء المحافظات عمليات نقدية غير مشروعة. فقد استغل حاكم المنطقة الشرقية سلطته وأرغم البنوك على بيعه النقد الأجنبي وفق السعر الرسمي (الدولار الواحد = 3.75 ريال) ومن ثم قام ببيع الدولار الواحد في السوق السوداء مقابل ستة ريالات أو أكثر(41).

خلال فترة 15 _ 20 سنة الأولى من "عصر النفط" أدت الزيادة الكبيرة في عائدات النخبة الحاكمة إلى زيادة الطلب على العمال العبيد. وعلى الرغم من أن الرق كان إلى حد ما ذا طابع أبوي، فإن العبيد غالباً ما كانوا يتعرضون لاستغلال بشع ومعاملة قاسية في أحوال كثيرة. ولكن ظلت قائمة عادة عتق العبيد حينما يكون السيد في النزع الأخير لأن الإسلام يعتبر ذلك مغفرة للذنوب.

وفي الخمسينات استمرت في السعودية تجارة العبد وأسواق الرقيق، وكان غالبية العبيد من الصومال وإثيوبيا والسودان والمستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا، علاوة على بلوجستان.

لم تتأثر تجارة الرقيق في السعودية كثيراً بالكفاح الدولي ضد هذه الآفة. وكانت الحكومة السعودية قد أعلنت عام 1936 أن استيراد العبيد أو استعباد الحر أمر غير مشروع ويعاقب المخالف

بالحبس لمدة لا تتجاوز السنة. ولكن تجارة الرقيق استمرت عملياً وكان العبيد ينقلون إلى السعودية في الغالب أثناء موسم الحج كحجاج(42).

أدى انتشار الفساد بين الفئة الحاكمة وعدم التمسك بالزهد ولو شكلياً، والترف في الملبس وأبهة القصور والسيارات، إلى إثارة النقمة ليس في أواسط جماهير فحسب بل ولدى بعض العلماء من الحريصين على التقاليد الوهابية، وخصوصاً الذين لم يرتقوا إلى قمة السلم الديني. واعتبر هؤلاء أن اعتماد عناصر "تحديث" وأن كانت سطحية، وأنماط الحياة الجديدة "بدعة" مرفوضة. وتعارضت أفكارهم مع آراء مجموعة العلماء المقربة من البلاط.

في معرض الحديث عن علماء الدين "الرسميين" يقول فيلبي :" يبدو أن العلماء المسؤولين عن الأخلاق والسلوك في البلد قد تخلوا عن رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معتبرينها مهمة عقيمة. ألم تُكم أفواههم بالذهب؟... يحصل العلماء على مبالغ طائلة مخصصة للإنفاق على الفقراء والمحتاجين وما إلى ذلك من أعمال الخير". ولم يقدم أي كشف بالحساب من قبل هؤلاء "الأطهار المنزهين"... "ولا توجد أي وصولات ممن يتلقون العون... وهناك فرص سانحة لنهب أموال الدولة، فحتى علماء الدين الوهابيون بشر قبل كان شيء"(43).

في مطلع الخمسينات، وخصوصاً بعد الثورة المصرية عام 1952 وتحت تأثيرها، ظهرت براعم تنظيم سري معارض للنظام وهو مكون من قوميين

مناهضين للغرب (الإمبريالية) يدين بأفكار ذات صبغة اشتراكية معتدلة. وكانت أول مجموعة شكلت بفعل الإضراب العمالي عام 1953 هي جبهة الإصلاح الوطني التي أسسها باب سعوديون من منتسبي القوات المسلحة والموظفين والمستخدمين في أرامكو الذين حصلوا على نصيب من التعليم. وأعلنت الجبهة أن أهدافها هي: 1) تحرير البلاد الناجز من الهيمنة الإمبريالية ومن التسلط الاقتصادي لأرامكو وشركات النفط الأخرى. 2) اعتماد دستور يكفل الانتخاب البرلماني ويضمن حرية النشر والتجمع وإجازة الأحزاب والنقابات وحرية التظاهر والإضراب. 3) تطوير الصناعة الوطنية وتوفير البذور والأسمدة والآلات الزراعية للفلاحين بأسعار منخفضة. 4) إلغاء الرق. 5) إعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النفط وتعديلها بشكل يضمن حق استثمار ثروات البلد بشكل يكفل تقدمه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. 6) مكافحة الأمية وتأسيس مدارس البنات وتوسيع التعليم العالي والمهني. واعتبرت جبهة الإصلاح الوطني نشاطها جزءاً من الكفاح التحرري الذي تخوضه الشعوب العربية الإمبريالية وفي سبيل التعاون والوحدة على أساس حر ديمقراطي. وعلى صعيد ضد السياسة الخارجية دعت الجبهة إلى تعزيز العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع البلدان العربية وإقامة علاقات اقتصادية مع الدول الاشتراكية، وأتباع سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي ومناهضة المذاهب والأحلاف الإمبريالية(44).

وفي عام 1956 أعلنت الحكومة السعودية عن تصفية جبهة الإصلاح الوطني، واعتقل عدد من أعضائها، علاوة على 56 شاباً عرفوا بـ
أفكارهم الديمقراطية. وصار عمل الجبهة في الداخل صعباً للغاية، ولكن أعضاءها واصلوا التبشير بآرائهم في مصر وسوريا ولبنان وفي المحافل الدولية(45).

كان من أنشط العاملين على تنظيم جبهة الإصلاح الوطني الملازم عبد الرحمن الشمراني الذي عمل بين مجموعة من الضباط الشباب في الجيش النظامي. وسجن الشمراني مع أربعة ضباط آخرين بتهمة التآمر ضد النظام القائم، ثم أعدم. وأهدي كتاب "جحيم الحكم السعودي" للذكراه(46).

وتحت تأثير إذاعة القاهرة وجدت الميول المناوئة للحكومة تربة خصبة بين جزء من الضباط وفئة من المثقفين الناشئة والطلاب وتلاميذ المدارس.

كانت صحيفتا "الفجر الجديد" و "أخبار الظهران" تنشران مقالات تنتقد الحكومة علناً أو بشكل غير مباشر. وقد أعتقل صاحب امتياز "الفجر الجديد" ورئيس تحريرها يوسف الشيخ يعقوب والصحفي أحمد الشيخ يعقوب، وأغلقت الصحيفة. كما أعتقل رئيس تحرير "أخبار الظهران" عبد الكريم جهيمان وجلد قبل إيداعه السجن(47).

في عام 1956، أسست لأول مرة في تاريخ يجد منظمة تلاميذ المدارس في مدن عنيزة وبريدة وشقراء والرس. وكان من مطالبها الأساسية حل جماعة الأمر بالمعروف التي شكلت في العشرينات

وصارت "بؤرة عفن تشكل خطراً على الأطفال الطامحين إلى العلم". وطالب التلاميذ بتوحيد أساليب وبرامج التدريس وجعلها على غرار النظام المتبع في مصر وسوريا، وتأسيس معاهد عليا في البلد. وجرت في بريدة اشتباكات بين التلاميذ والمتعصبين من جماعة الأمر بالمعروف والشرطة، أعتقل أثرها عشرات الأشخاص وجلدوا(48).

خشيت الحكومة أن يؤدي تطور التعليم والدراسة في الخارج إلى ظهور "أفكار هدامة" في البلد فقررت منع الدراسة في الخارج. وفي نيسان (إبريل) 1955 أصدر الملك مرسوماً يقضي باستدعاء كل الطلبة السعوديين الدارسين في الخارج وحرمان المخالف الجنسية السعودية. واستثنى المرسوم طلبة المعاهد العليا الذين يدرسون الهندسة والحقوق والطب(49). وكان القرار منافياً لاحتياجات البلد إلى حد بحيث أنه أصبح باطل المفعول عملياً بعد سنوات(50).

وفي محاولة لمنع الأفكار الجديدة لجأت الحكومة وعلماء الدين إلى سلاح مجرب، وهو التعصب الديني، فانتعشت في البلد جماعة الأمر بالمعروف وانهي عن المنكر وازدادت المبالغ المخصصة لها(51).

استخلص آل سعود من ثورة 1952 في مصر التي جرت بشكل انقلاب عسكري، استنتاجاً مفاده أن ثمة خطراً على النظام يكمن في الميول الثورية في الجيش النظامي، وعلى وجه التحديد بين الضباط الذين يتأثرون بالأفكار القومية المناهضة للإمبريالية

والحكم الملكي. وكان قد جرى بعد الحرب التركيز على بناء الجيش النظامي، وأُبقيت الكتيبة التي كانت قد أُرسلت لمحاربة إسرائيل عام 1948 في مصر لإعدادها عسكرياً. وتولت البعثتان الأمريكية والبريطانية، ومن ثم البعثة المصرية، تدريب الجيش النظامي(52).

وفي الخمسينات توصل الملك وحاشيته إلى استنتاج مؤداه أن عصبية الإخوان الآخذة في الخمود لم تعد تشكل خطراً على النظام، بل إنها موجهة ضد "البدع" وإغراءات "الحضارة العصرية". لذا أخذت السلطات تولي اهتماماً كبيراً للمجندين من البدو.

أصبح البدو المجندون يسمون الحرس الوطني أو "الجيش الأبيض". وجهز الحرس الوطني بالأسلحة الحديثة وصار المنتسبون إليه _المجاهدون_ يتقاضون رواتب عالية. رابطت غالبية وحدات الحرس الوطني قرب المدن الكبيرة وخصوصاً قرب حقول النفط. وفي عام 1957 كان يوجد من الحرس الوطني 10 آلاف في الحجاز و5 آلاف في الأحساء و5 آلاف في الشمال. ويقع مقر قيادة الحرس الوطني في الرياض، وهناك مدارس في الحجاز ونجد لإعداد الآمرين والفنيين(53).

يورد الباحث الفرنسي المختص بشؤون الشرق الأوسط بويربي في كتابه "شبه الجزيرة العربية" مضمون الإيعاز الخاص الصادر عام 1957 بعنوان "الإخوان ينافسون الجيش". وجاء في الإيعاز أن الدولة السعودية سوف تواصل إيلاء الاهتمام لبناء جيش نظامي كبير، غير أنها مع ذلك الإنفاق على

وحدات أفرادها من البدو فقط. ويبقى تنظيم الإخوان القوة الأساسية للجيش بسبب طابعها الديني ووفائها للأسرة المالكة. وتكمن خاصية تنظيم الإخوان في القدرة على تعبئة جيش قوامه مائة ألف مقاتل خلال فترة قصيرة جداً(54).

ولكن أتضح أن الإجراءات التي اقتصرت على تعزيز القوات المسلحة لم تكن من الفعالية بالقدر الكافي لتوطيد النظام. فقد كان البلد على حافة إفلاس اقتصادي. وأدى تبذير آل سعود والبلاط الملكي ونهب أموال الدولة على أوسع نطاق، إلى أن ديون العربية السعودية للبنوك الأجنبية وحدها بلغت عام 1958 زهاء 120 مليون دولار.وبلغت ديون خزانة الدولة للبنوك المحلية والتجار ورجال الأعمال والمقاولين مئات ملايين الريالات. وطوال عدة أشهر لم يتقاض الموظفون رواتبهم فاضطروا إلى الاستلاف أو الاختلاس(55).

في عامي 1956 ـ 1957، تقلصت إلى حد كبير المدفوعات عن حقوق الامتياز بسبب إغلاق الأسواق الأوربية أمام النفط السعودي وبدء انخفاض "الأسعار القياسية". وأدى تقلص استيراد السلع، ومن ضمنها الأغذية، إلى تزايد الأسعار داخل البلد. وقاد الغلاء وتقلص تدفق العملة من الخارج إلى التضخم والمضاربة بالنقد، وبسبب عدم توفر العملة اللازمة لشراء السلع الضرورية والمعدات في الخارج صار الكثير من المقاولين والتجار السعوديين على حافة الإفلاس، وساعد ذلك على انتشار الاستياء في أوساطهم.

وقد حاول بعضهم إقامة صلات مع البلدان الاشتراكية. ففي عام 1957 أشترى التاجر السعودي العياسي كمية كبيرة من الأسمنت السوفييتي. وزار بعض رجال أعمال تشيكوسلوفاكيا حيث اتفقوا على شراء معدات مصنع للسكر وسلع صناعية ومواد غذائية. إلا أن أرامكو رفضت التعاون مع التجار ورجال الأعمال الذين يتعاملون مع الدول الاشتراكية ومنعت استخدام الأسمنت السوفييتي في مشاريع البناء التي أرسلتها على مقاولين محليين وهددت المخالف بفسخ عقد المقاولة. وضغطت الحكومة الأمريكية على الملك فمنع التعامل التجاري مع البلدان الاشتراكية(56).

أحدثت السياسة الداخلية للحكومة السعودية استياء بين أوسع فئات السكان وبدأت تتكون في البلد عناصر وضع ثوري.

كان كل من الطبقة الحاكمة والمعارضة يضع في حساباته عاملاً آخر بالغ الخطورة ذا أهمية بالنسبة لمصير النظام، ونعني التأثير الثوري الذي يمارسه الوضع السياسي في الشرق الأوسط على الأوضاع في العربية السعودية.

الاتجاهات الأساسية للسياسة الخارجية. نشر الزركلي وثيقة سرية هامة تحدد السياسة الخارجية للعربية السعودية في النصف الثاني من الأربعينات والنصف الأول من الخمسينات، ونعني بتلك الوثيقة التعليمات السرية التي تلقاها ولي العهد سعود قبيل زيارته إلى الولايات المتحدة عام 1947.

وأشـارت التعليمـات إلى "وجـود مصـالح عديـدة ومشـــاعر بأهـــداف عامـــة" تربـــط بين الســـعودية والولايات المتحدة الأمريكية، وثبتت هـذه الأفكـار في رسالة رسمية إلى الرئيس ترومان. وطلب من الأمير سعود أن يؤكد للـرئيس الأمـريكي ولأعضـاء حكومتـه تصـميم السـعودية "على اتخـاذ جميـع التـدابير الـتي تكفـل حسـن العلاقـات وتنميـة الصـداقة والمصـالح الاقتصادية والأدبيـة للجـانبين". كمـا طلب أبن سـعود من ولـده أن ينقـل للأمريكـان "أننـا قـد نظرنـا بعين الرضـــاء والاطمئنـــان إلى تـــرك الولايـــات المتحـــدة سياسة العزل والانقطاع التي كـانت تسـير عليهـا في الماضي، وعلقنا الآمال الجسام على دخولهـا معـترك سياســـة الشـــرقين الأدنى والأوســـط". وبالنســـبة لبريطانيا أراد أبن سعود أن يقـوم ولي العهـد بإفهـام تورمان ورجال حكومته "أننا، منذ نشأتنا، كنا ولا نزال أصـــدقاء وأوفيـــاء لبريطانيـــا بـــالرغم من ... حصـــول مشكلات ومتاعب عديدة.خَبَرنا الإنجلـيز وهم خَبَرونـا، وعرفنـــاهم وهم عرفونـــا" لـــذا فـــإن التفـــاهم بين الطـــرفين كـــان ســـهلاً على الـــرغم من أن بريطانيـــا اتخـــذت "مواقـــف ســـلبية أو غـــير وديـــة في بعض الأحيان" إزاء السعودية.

وجاء في التعليمات "إن بريطانيـا كـانت حريصـة على الاحتفاظ بمنطقة الشرق الأوسط، ضمن دائـرة النفـوذ السياســي والاقتصــادي البريطــاني. غــير أن دخـــول أمريكـــا بنشـــاطها الملمـــوس، أثـــار مخـــاوف الإنجلـيز. ومن ثم بـدأنا نشـعر بـانحرافهم عنـا إلى خصـومنا" وأشـارت التعليمـات إلى "عـدول بريطانيـا

عن سياسة التوازن بيننا وبين خصومنا، وشروعها في تقويتهم بصورة مباشرة وغير مباشرة".

وطلب من سعود التأكيد على ضرورة التفاهم مع الولايات المتحدة، وألمحت التعليمات إلى أن "التفاهم مع أمريكا أمر ضروري. وهو ما نرجو أن نعلم من الآن المدى الذي توافق أمريكا على السير فيه".

يتعلق البند السابع من التعليمات بموقف السعودية من الاتحاد السوفييتي، الذي يشكل في رأي القيادة السعودية "خطراً غير مباشر" على المملكة بسبب "العلاقات القوية" بين الشيوعية والصهيونية و "الدعاية الروسية" التي تقوم بها الكنيسة الأرثونكسية. وجاء في الوثيقة "أننا نناهض الصهيونية والشيوعية، ولا نرى أن تتخذ الكنيسة الأرثونكسية وسيلة للدعاية الروسية في البلاد العربية".

أما البند الثامن فيتناول الصهيونية وذكر "نحن مسلمون عرب، قبل كل شيء، واليهود أعداء ديننا منذ ظهور الإسلام" ولكننا "الإسلام لا يقر مبدأ العنصرية... ونحن لسنا عنصريين. ولسنا نقاوم اليهود لأنهم يهود، ولكننا نقاوم السياسة التي يدعو إليها بعض اليهود. أي الصهيونيون. السياسية الغاشمة. وأسباب مقاومتنا لها عديدة ونذكر أهمها:

1) الصهيونية غاشمة ظالمة وتقوم على مبدأ جائر

2) إنها تتظاهر بأنها قائمة على أساس تخليص اليهود المضطهدين. وكيف يجوز معالجة اضطهاد

باضطهاد آخر؟ أو رفع الحيف بإيقاع حيف آخر أشد منه؟

3) لأنها مناقضة للمصالح السياسية القائمة في البلاد العربية.

4) لأنها تهدد البلاد العربية من الوجهتين الحربية والاستراتيجية".

يخص البند التاسع من التعليمات الرئيس الأمريكي. "بالمسألة الأولى التي نراها هي ضرورة تجرد السياسة الأمريكية عن التأثر بالعوامل اليهودية المحلية وتحررها من سيطرة الدعاية الصهيونية. والمسألة الثانية نرى ضرورة الفصل بين قضية اللاجئين المضطهدين والصهيونية السياسية، للأسباب الآتية:

1) إن فلسطين لا يمكنها استيعاب جميع اللاجئين من اليهود فهي إذن ليست بحل الموضوع.

2) لا يجوز إرغام بلاد ما على قبول اللاجئين إليها بدون إرادتها.

3) ليس من العدل أن ترفض الولايات المتحدة قبول اللاجئين إليها، بينما هي تصر على ضرورة فرضهم على فلسطين.

4) إن قضية المائة ألف لاجئ ليست في الحقيقة مسألة إنسانية ولكنها ستار لتبرير إيجاد أكثرية يهودية في فلسطين.

5) ليس من الحق ولا من العدل أو الإنصاف، أن تسمح الحكومة الأمريكية لرعاياها من اليهود بأن تكون لهم سياسة مزدوجة، كأنهم رعايا دولتين منفصلتين. فيجب أن يكون إخلاصهم للولايات

المتحــدة فقــط، لا أن يكونــوا مواطــنين أمريكــيين وصهيونيين في نفس الوقت".
وكانت السعودية بحاجة إلى الرساميل الأمريكيـة لأغراض التنمية، فقدم لها قرض قيمته عشرة ملايين دولار، بيـد أنهـا كـانت تـروم الحصـول على 25ـ30 مليـون دولار أخـرى لمـد خـط السـكك الحديـد من الخليج إلى الرياض.
إن التعليمات الـتي نشـرها الـزركلي(57) وثيقـة فريـدة لم ينشـر مـا يماثلهـا. فقـد حـددت الحكومـة السعودية فيها بوضـوح تـام أن بريطانيـا هي خصـمها السياسي الخارجي. وطوال سنوات عديدة تزعم عبد العزيز دولة تقـع في دائـرة النفـوذ البريطـاني التـام، وســارت العربيــة الســعودية في فلــك السياســة الخارجيــة البريطانيــة، وعلى الــرغم من اســتقلالها شكلياً. وبظهور منافس قوي لبريطانيـا، هـو الولايـات المتحــدة، تمكنت الســعودية من إضــعاف، ثم قطــع أواصــر التبعيــة الــتي ترابطهــا بلنــدن وســاد العائلــة الســعودية الحاكمــة رأي مفــاده إن الاعتمــاد على الولايات المتحدة **لا يجب أن** يؤدي إلى بسط هيمنة استعمارية أمريكية.
على الصــعيد العــربي ظلت العائلــة الهاشــمية الحاكمة في شرق الأردن والعراق والتي تقف وراءها بريطانيـا الخصـم الخطـر لآل سـعود. وكـانت خطتـا "سـوريا الكـبرى" و "الهلال الخصـيب" اللتـان جـرى إعــدادهما في العاصــمتين الهاشــميتين خطــراً يهــدد العربية السعودية(58). وظلت المحميـات البريطانيـة تطــوق المملكــة بنصــف دائــرة في شــبه الجزيــرة

العربية التي تعتبرها الرياض مجالاً لنفوذها. وكان عبد العزيز يتسم بقدر كاف من الحذر منعه من تحدي بريطانيا مباشرة، ولكنه حاول الارتكاز على الولايات المتحدة للوقوف ضدها.

إن النزعة المناوئة لبريطانيا في السياسة الخارجية للعربية السعودية في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات قد أدت بها إلى عقد تحالفات ومناورات سياسية غير متوقعة. ويجب إلا يغرب عن البال أن حركة التحرير الوطني في البلدان العربية ذات الصبغة القومية آنذاك، كانت مناوئة لبريطانيا بالدرجة الأولى. وفي البداية لم يكن زعماء الحركة يعتبرون الولايات المتحدة عدوهم الرئيسي. (كان ذلك قبل سنوات من أزمة السويس وانهيار العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 والذي كان يعني أفول الاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط). لذا فإن مصالح الصفوة الحاكمة في الدولة السعودية تطابقت وقتياً مع أهداف النضال التحرري الوطني لبلدان عربية أخرى رغم كونه ذا طابع اجتماعي مختلف.

وكانت معاداة الشيوعية متماشية مع فكر الفئة السعودية الحاكمة. ويبدو أن مستشاري ابن سعود هم الذين صاغوا معاداة الشيوعية بالشكل الذي اعتمد في المملكة (الشيوعية المرتبطة بالصهيونية، والتي تستخدم علاوة على ذلك الكنيسة الأرثونكسية كأداة للتغلغل). ومن المؤكد أن واحداً من أولئك المستشارين كان فؤاد حمزة، ذلك الشخص الذي كان هتلر قد عرض من خلاله على ابن سعود "عرش

حـاكم العـرب" مقابـل التعـاون مـع ألمانيـا النازيـة ومحاربـة بريطانيـا. وظلت المسـحة النازيـة لهـذه المنطلقـات الإيديولوجيـة طاغيـة على السياسـة الخارجيـة للعربيـة السـعودية سـنوات طويلـة. وعلى الـرغم من أن مصـلحة الدولـة لكـل من الاتحـاد السوفييتي والعربيـة السـعودية لم تكن متضـاربة في قضايا كبيرة، بل غالباً ما كانت تتطابق، فإن الارتيـاب البالغ بموسكو حال دون الزعمـاء السـعوديين، ودون البـدء حـتى بحـوار شـكلي لإقامـة أبسـط الصـلات الدبلوماسـية مـع الاتحـاد السـوفييتي، ممـا أضـعف المواقع السعودية في السياسة الخارجية.

اتخـذت العربيـة السـعودية موقفـاً ثابتـاً، قـولاً وتصـريحاً، إزاء القضـية الفلسـطينية. فقـد كـان أبن سـعود قـد أشـار منـذ عـام 1937 في حديثـه مـع ديكسون إلى اعتقاده بأن الهدف النهائي للصهاينة هو الاسـتيلاء ليس على فلسـطين فقـط، بـل على أرض تمتـد حـتى المدينـة المنـورة، وفي الشـرق يـأملون بسط هيمنتهم على أراض تمتـد إلى الخليج العـربي (59). وحاول الصهاينة مـراراً التوصـل إلى اتفـاق مـع الملك. ومن هذه المحاولات العرض الذي نقله فيلـبي من وايزمـان (رئيس إسـرائيل فيمـا بعـد) إلى أبن سعود عام 1940. إذ إن الصـهاينة اسـتغلوا مصـاعب أبن سعود المالية فعرضوا عليه عشرين مليـون جنيـه إسـترليني مقابـل تخليـه عن موقفـه إزاء القضـية الفلسطينية والقبول بإسكان كل عرب فلسـطين في الجزيرة العربية. وقد رفض أبن سعود هذا المشروع (60).

إن ما ورد في التعليمات الموجهة إلى سعود من تقييمات للنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة والسياسة الصهيونية في فلسطين هي واقعية في بعضها ومبالغ في بعضها الآخر. وبعد أن أخل ترومان بالوعد الذي قطعه روزفلت بعدم انتهاج سياسة معادية للعرب حيال القضية الفلسطينية، نشأت تعقيدات بين واشنطن والرياض إزاء هذه القضية، بيد أن عبد العزيز ومن تلاه من ملوك يتعاملون مع القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني بشكل براغماتي بحت، واضعين في المقام الأول المصالح الملموسة للعائلة السعودية الحاكمة التي ازدادت روابطها بالولايات المتحدة متانة.

منذ السنوات الأولى التي أعقبت الحرب تعقدت علاقات الولايات المتحدة مع العربية السعودية بسبب الدعم الأمريكي للمطامع الصهيونية في فلسطين، ولسياسة إسرائيل الخارجية فيما بعد. ففي تشرين الأول (أكتوبر) 1945 قال الرئيس ترومان في حديثه مع رؤساء البعثات الدبلوماسية الأمريكية في البلدان العربية الذين أبدوا تخوفهم من ميل واشنطن الواضح إلى جانب الصهاينة، قال "أنا آسف جداً، ولكن ينبغي علي أن أحسب حساب مئات الآلاف من المقيمين في بلدي الذين لهم مصلحة في انتصار الصهيونية. وليس بين ناخبيّ مئات الآلاف من العرب"(61). إن هذه الكلمات الصلفة يمكن أن تكون ديباجة لأي تصريح صادر عن أي رئيس أمريكي بخصوص النزاع في الشرق الأوسط.

واصلت العربية السعودية في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب السعي للحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية أمريكية وحصلت عليها بالفعل. وقدم أول قرض للمملكة، خارج إطار برنامج الإعارة والتأجير، وفي نيسان (إبريل) 1945، وكان قدره خمسة ملايين دولار خصصت لتمويل شراء سلع من الولايات المتحدة. وقدم القرض الثاني في آب (أغسطس) 1946 وكان عبارة عن عشرة ملايين دولار لمدة عشر سنوات (بفائدة سنوية قدرها 3%) لشراء مواد غذائية ومعدات زراعية من الولايات المتحدة. وفي السنة نفسها قدم القرض الثالث وقدره 25 مليون دولار لشراء منتجات زراعية. وحصلت السعودية على عشرة ملايين دولار نقداً لإعادة تجهيز ميناء جدة وكهربة مدينة جدة. وقدمت كل هذه القروض من قبل بنك التصدير والاستيراد الأمريكي(62).

وعلاوة على ذلك حصلت السعودية في أيار (مايو) 1946 على قرض من الوكالة الأمريكية لتصفية فائض المعدات العسكرية الأمريكية في الخارج قدره مليوني دولار كسلفة تجارية لشراء معدات عسكرية(63).

عند حلول عام 1951، كان قد أنجز مد خط للسكك الحديد بين الدمام والرياض بمساعدة أمريكية. وطبقاً للنقطة الرابعة من "برنامج ترومان" التزمت الولايات المتحدة منذ عام 1952 بمساعدة العربية السعودية في تطوير الزراعة والمواصلات والثروات الطبيعية. واقتصرت هذه "المساعدة"

عملياً على الدراسات وكانت مخصصاتها ضئيلة (1.7 مليون دولار وفق مصادر سعودية). أضف إلى ذلك إن جزءاً من كبيرا الأموال كان مخصصاً للإنفاق على البعثة الأمريكية نفسها. ونظراً لذلك قررت العربية السعودية عام 1954 الكف عن التعاون مع الولايات المتحدة وفق النقطة الرابعة، وتذرعت شكلياً بأن إسرائيل تحصل على مبالغ أكبر بكثير وفق البرنامج نفسه(64).

كانت القاعدة الجوية في الظهران، التي أنجز بناؤها عام 1946 الركيزة العسكرية الأساسية للولايات المتحدة في السعودية. وقد مدد عقد إيجار القاعدة لمدة خمس سنوات حسب اتفاقية وقعت في 28 حزيران (يونيو) 1951، وتعهدت الولايات المتحدة مقابل ذلك بتجهيز الجيش السعودي بطائرات ودبابات حديثة ونص ملحق خاص بالاتفاقية على أن يتولى خبراء أمريكان تدريب الطيارين السعوديين.

أصبحت الظهران مقراً للمستشارين الأمريكان الذين وصلوا إلى السعودية عام 1952، وتولوا إعداد القوات الجوية السعودية في جدة والطائف. وكان اتساع نشاط الخبراء العسكريين الأمريكان يعني إزاحة البريطانيين الذين تولوا تدريب الجنود السعوديين منذ عام 1947(65).

العلاقات مع بريطانيا، أزمة البريمي.

لم ترسم الحدود بين العربية السعودية والمحميات البريطانية _ قطر وإمارات ساحل الصلح البحري وعمان ومحميات عدن (جمهورية اليمن الديمقراطية

الشـعبية فيمـا بعـد) ـ ومـع اليمن في منطقـة الربـع الخالي، وكانت الحـدود موضـع الخلافـات، واكتسـبت المسـألة حـدة في أواخـر الثلاثينـات، وخصوصـاً في الأربعينات عنـدما بـدأ البحث عن النفـط في منـاطق شاسعة من شبه الجزيرة العربيـة. وأصـبحت عائديـة هذه الأراضي الصـحراوية أو تلـك، والـتي لم تكن لهـا من قبل قيمة اقتصادية، مثار النزعات بسبب احتمال وجود النفط فيها.

وفي أواخـــر الأربعينـــات جـــرى بين الســـعودية وبريطانيا صـراع ضـار على واحـات الـبريمي. وادعت ملكيـة الواحـات كـل من إمـارة أبـو ظـبي وسـلطنة مســقط اللــتين كانتــا تحت الحمايـــة البريطانيـــة، والمملكة العربية السعودية.

بلغت مساحة البريمي، حيث توجد تسـعة مراكـز مأهولـة، زهـاء ألـف كيلومـتر مربـع وكـانت المنطقـة تعتبر تقليدياً مركز تقاطع طرق القوافل المتجهة إلى الجنوب الشرقي من شبه الجزيـرة العربيـة، وألحقت بالدولـــة الســـعودية الأولى عـــام 1795. واعتـــبرت السـعوديون الـبريمي جـزءاً من المنطقـة الشـرقية وقالوا أن هيمنتهم على الواحات استمرت 155 سنة. وطعنت بريطانيـا بهـذه الادعـاءات معلنـة أن فـترة السيطرة السعودية لم تكن إلا لمحة عابرة في تاريخ الـبريمي، وأن المنطقـة تعـود لابـو ظـبي وسـلطان مسقط.

يقــول الــزركلي "امتــدت أنــوف المنقــبين عن النفط، تشم رائحتـه في بعض أراضـي الـبريمي. ولم يـر عبـد العزيـز بأسـاً في أن يقـوم بعض مهندسـي

شركة الزيت العربية الأمريكية بالتنقيب". وكان ذلك عام 1949(66).

طالبت الحكومة البريطانية، نيابة عن أبو ظبي ومسقط، بوقف التنقيب في "أراض لم يتفق على عائديتها". فقرر عبد العزيز ألا يصعد الأزمة وأمر باستدعاء الباحثين عن النفط من هذه الأراضي وتأجيل الأعمال لحين الاتفاق على تدقيق الحدود. غادر جيولوجيو أرامكو وبدأ تبادل سيل من المذكرات بين الحكومتين البريطانية والسعودية.

غير أن جيولوجيي C. P. I. B.("بريتيش بتروليوم" فيما بعد) بدؤوا عام 1950 التنقيب في بعض الجزر التي تعتبرها السعودية ملكاً لها. ومن ثم بدؤوا البحث عن النفط في أراض "لم يتفق" على عائديتها حسب قول البريطانيين.

في 21 أيار (مايو) 1951، احتجت الحكومة السعودية، وفي الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) 1950 رد السفير البريطاني في جدة بأن حكومته ترى أن ادعاء الحكومة السعودية بهذه الأراضي ليس له أساس(67).

عقد في آب (أغسطس) 1951 لقاء في لندن بين وفد سعودي برئاسة وزير الخارجية فيصل ووفد بريطاني برئاسة وزير الخارجية موريسون. وتقرر عقد مؤتمر خاص يشارك فيه ممثلون عن الإمارات المعنية ويترأسه مندوب بريطاني وممثل عن الملك عبد العزيز للاتفاق على الحدود. واتفق الطرفان على وقف أعمال التنقيب الجيولوجي وتحركات

القوات المسلحة في المنطقة المتنازع عليها لحين إنجاز المؤتمر(68).

في أواخر كانون الثاني (يناير) وفي شباط (فبراير) 1952 عقد المؤتمر في الدمام ولكنه لم يتمخض عن نتائج(69).

بدأ تدهور العلاقات السعودية ـ البريطانية يشمل مجالات لا علاقة لها بالخلاف على الأراضي. ففي سنة 1951، توقف عمل البعثة العسكرية البريطانية في السعودية. وكانت مجموعة صغيرة من المستشارين العسكريين البريطانيين قد أرسلت إلى السعودية أثناء الحرب العالمية الثانية ولكن عملها لم يؤد إلى نتائج تذكر فاستدعيت قبل انتهاء الحرب. وفي سنة 1947، استأنفت البعثة العسكرية البريطانية عملها لتتولى تدريب عشرة آلاف بدوي للعمل في وحدات شكلت على غرار الفيلق العربي بشرق الأردن. وأرسل للدراسة في الكليات العسكرية البريطانية نفر قليل من الضباط السعوديين غالبيتهم من أبناء الملك وأقربائه. وتوقف هذا التعاون بسبب النزاع على البريمي. وابتداء من سنة 1952 أخذ الأمريكان على عاتقهم إعداد الكوادر العسكرية السعودية، بعد أن توطدت مواقعهم الاقتصادية في البلد(70).

بُعيد إخفاق مؤتمر الدمام وصل إلى البريمي وكيل سياسي بريطاني "لأداء وظائفه الإدارية".

وتلقى حاكم الأحساء إيعاز من عبد العزيز بتشكيل بعثة مدنية وإرسالها إلى البريمي، وترأس البعثة تركي بن عطيشان الذي عين رئيساً إدارياً لها،

وانتقــــل في مطلــــع أيلــــول (ســــبتمبر) 1952 إلى البريمي ونزل في حماسا.
وللتــو توجــه الوكيــل السياســي البريطــاني من الشــارجة إلى الــبريمي على رأس وحــدة عســكرية، وتوقــف على بعــد أربعــة كيلومــترات من الســعوديين وبدأت الطائرات البريطانية تحوم فــوق حماســا على ارتفــاع منخفض، وطــالب البريطــانيون أبن ســعود باستدعاء بعثة أبن عطيشان(71).
في 10 تشــرين الأول (أكتــوبر) 1952، عــرض الســفير الأمــريكي في جــدة التوســط بين الطــرفين واقترح أن يحجمــا عن الأعمــال الاســتفزازية ويلازمــا مواقعهما في الــبريمي ويســتأنفا المفاوضــات. وكــان هذا الاقتراح في صالح أرامكو لأنــه يبقى للســعوديين نصف الحقوق في البريمي على أقل تقــدير. واقــترح عبد العزيز أجراء استفتاء بين ســكان الواحــات ولكن البريطانيين رفضوا الاقتراح(72).
عــاد الجيولوجيــون البريطــانيون إلى منطقــة الــبريمي عــام 1953، ولكن عبــد العزيــز تهيب من إعطاء إذن للأمريكان بالبحث عن النفط لعــدم رغبتــه في تعميق النزاع مع بريطانيــا. وحينمــا تــوفي الملــك في تشــرين الثــاني (نوفمــبر) 1953 كــان تــركي ين عطيشــان مــازال في موقعــه محاصــراً، بينمــا واصــل البريطانيون البحث عن النفط بوتائر حثيثة(73).
في تمــوز (يوليــو) 1954، وقــع منــدوبون عن الســعودية وبريطانيــا اتفاقيــة في نيس حــول رفــع الخلاف إلى هيئة تحكيم بدأت أعمالها في جــنيف في مطلع عام 1955. وفي شهر أيلول (سبتمبر) 1955،

استقال ممثل بريطانيا في المحكمة لإدراكه أن قرارها لن يكون في صالح بلاده(74).

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1955 دخلت إلى البريمي وحدات من أبو ظبي ومسقط بقيادة ضباط بريطانيين. وبعد مقاومة رمزية استسلم رجال الشرطة السعوديون، فأعيدوا إلى وطنهم عبر أبو ظبي والبحرين. وزعم البريطانيون أنه ليس لهم دخل في احتلال الواحة، بل إن القوات المسلحة لأبو ظبي ومسقط هي التي احتلتها. وأكدت الحكومة السعودية إنه لا توجد خلافات بينها وبين أبو ظبي أو مسقط، بل ثمة خلافات بينها وبين الحكومة البريطانية، واحتجت وطالبت بسحب القوات البريطانية، ثم رفعت شكوى ضد بريطانيا إلى مجلس الأمن للأمم المتحدة(75).

التزمت الواليات المتحدة في هذه المسألة الجانب السعودي ولكنها عملت كوسيط خوفاً من تفاقم النزاع وأقنعت الحكومة السعودية بسحب احتجاجها المرفوع إلى هيئة الأمم المتحدة واستئناف المفاوضات مع بريطانيا. وفي أيار (مايو) 1956، وصل إلى جدة وكيل وزارة الخارجية البريطانية وعقد سلسلة من الاجتماعات مع فيصل، ثم واصل السفير البريطاني في جدة التفاوض من بعده. ولكن السعودية قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا في 9 تشرين الثاني (نوفمبر) 1956، وحظرت تصدير النفط إليها بسبب اشتراكها في العدوان الثلاثي على مصر(76).

بعد إعلان استقلال الكويت في حزيـران (يونيـو) 1961، واجهت هـذه الإمـارة خطـر غزوهـا من قبـل العراق. وقد ساندت السعودية الكويت وألفت نفسها في جانب واحد من المتاريس مع بريطانيـا. وأرسـلت إلى الكـويت قـوات سـعودية وبريطانيـة ظلت هنـاك حتى كـانون الثـاني (ينـاير) 1963. وفي عـام 1964 اقتسـمت السـعودية والكـويت إدارة المنطقـة المحايـدة، ولكنهمـا حافظتـا على الاتفاقيـة السـابقة القاضية بتقاسم الموارد النفطية مناصفة(77).

أخذت التناقضـات السـعودية البريطانيـة تنحسـر تدريجياً تحت ضغط مصـالح الطـرفين المشـتركة في محاربة الحركة في الشرق الأوسـط عامـة والجزيـرة العربيـة خاصـة. وفي أيلـول (سـبتمبر) 1962، التقى الأمير فيصل في دورة هيئة الأمم المتحـدة بـنيويورك مع وزيـر الخارجيـة البريطـاني واتفقـا على اسـتئناف العلاقات الدبلوماسية وإجراء مفاوضات جديدة حـول الـبريمي. وفي تمـوز (يوليـو) 1963، عـاد السـفير السعودي إلى لندن.

في الخمسـينات كـانت أحـداث عمـان قـد زادت من تعقيد العلاقات السعودية البريطانيـة. قـد أخـذت الرياض تساند أعداءها السابقين من الإباضيين الـذين حاولوا تأسيس دولة مستقلة في عمـان وخاضـوا من عـام 1954 وحـتى عـام 1959 كفاحـاً مسـلحاً ضـد البريطـانيين وقـوات سـلطان مسـقط. وبعـد هزيمـة إمامـة عمـان عـام 1959 التجـأ قادتهـا إلى العربيـة السعودية(78).

سياسة المملكة في الشرق الأوسط

شارك مندوب عن السعودية في المفاوضات التي جرت بمصر عام 1943 حول تأسيس منظمة إقليمية للبلدان العربية. ووقع ولي العهد سعود وثائق تأسيس جامعة الدول العربية في القاهرة عام 1945.

لقد أيدت بريطانيا تأسيس هذه المنظمة الإقليمية آملة استخدامها كأداة للإبقاء على نفوذها في الشرق الأوسط، ولكنها عجزت فيما بعد عن وقف العمليات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع المناوئ لبريطانيا، كما عجزت عن شل حركة التحرر الوطني في البلدان العربية.

لم تسنح لابن سعود الفرصة للعب دور قيادي في الجامعة العربية، لذا كان موقفة إزاءها متحفظا في المرحلة الأولى. وقد أخافة تأثير الأسرة الهاشمية المعادية له على المنظمة، كما أنه لم يكن مرتاحاً لمطامع مصر في الزعامة. لذا اشترطت الرياض لانضمامها إلى الجامعة الحفاظ على وحدة أراضي واستقلال سوريا ولبنان معتبرة إياهما المعادل للأسرة الهاشمية، كما اشترطت ضمان الحدود القائمة بين البلدان العربية.

في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب أعتبر سعود الأسرة الهاشمية ألد خصم له. ومن الطبيعي أن يقف أبن سعود ضد مشاريع إقامة إمبراطورية هاشمية تضم العراق وسوريا ولبيان وفلسطين وشرق الأردن باسم "الهلال الخصيب" أو إمبراطورية أصغر باسم "سوريا الكبرى". كما كانت القاهرة تنظر بعين الريبة إلى مثل هذه المشاريع.

ظل عبد الله، أمير شرق الأردن، يأمل في استعادة سلطة عائلة الشريف في الحجاز. وفي عام 1947، رتب ما يدعى بمؤتمر الحجاز الذي أيد الكتل المناوئة للسعوديين في الحجاز. ورداً على ذلك هددت الحكومة السعودية بأن تثير مجددا مسألة منطقتي العقبة ومعان المتنازع عليهما واللتين كانتا تعتبرهما جزءاً من الحجاز. وتخلى عبد الله مؤقتاً عن مشاريع إقامة "سوريا الكبرى" بحجة ضرورة اتخاذ موقف عربي موحد حيال القضية الفلسطينية وأوقف الدعاية المناوئة للسعوديين في الحجاز(79).

خلال فترة الانتداب في فلسطين قامت الحكومة البريطانية بإنشاء "وطن قومي لليهود" هناك.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1946، دعا الرئيس ترومان إلى تأييد الصهاينة في فلسطين والسماح بدخول مائة ألف يهودي إلى البلد دون مشاورات مع الدول العربية. ورداً على ذلك بعث ابن سعود رسالة إلى ترومان جاء فيها : "لقد دهشت للإذاعات الأخيرة التي نسبت تصريحاً لفخامتكم بدعوى تأييد اليهود في فلسطين وتأييد هجرتهم إليها بما يؤثر على الوضعية الحاضرة فيها خلافاً للتعهدات السابقة"(80).

وعندما أحيلت المسألة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة (1947) كانت العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين قد تأزمت إلى أقصى حد، ولكن الدول العربية نفسها لم تجتمع على رأي حيال فلسطين. فقد كانت شرق الأردن تريد ضم فلسطين، بينما عارضت هذه المطامع السعودية

ومصـر وغيرهمـا من أعضـاء الجامعـة العربيـة. كمـا جوبهت مشاريع الأمير عبـد اللـه بمقاومـة فعالـة من الولايات المتحدة الأمريكية.

في 29 أيـار (مـايو) 1947، اتخـذت الجمعيـة العامـة لهيئـة الأمم المتحـدة قـراراً بإلغـاء الانتـداب البريطـاني في فلسـطين وتقسـيمها إلى دولـتين مسـتقلتين. وأدى قيـام دولـة إسـرائيل في جـزء من الأراضي الفلسـطينية والحـروب الإسـرائيلية العربيـة الأولى إلى خلـق وضـع جديـد من حيث المبـدأ في المنطقة.

لم تشارك السعودية عملياً في حـرب فلسـطين. فقد أقتصر أبن سعود على إرسال كتيبة عملت ضمن قوام الجيش المصري.

وفي حزيران (يونيو)1948، قام عبد الله بزيـارة للرياض تكللت بصلح شكلي مـع أبن سـعود، غـير أن الخلافات بينهما بعيدة عن التسوية(81).

أدت هزيمة الـدول العربيـة في حـرب فلسـطين إلى تفـاقم التناقضـات بين أعضـاء الجامعـة العربيـة. واقترحت الحكومتان السعودية والمصرية طرد شرق الأردن من الجامعـة بسـبب مشـاريعها الراميـة إلى إلحـاق شـرق فلسـطين، والـتي اعتبرتهـا الحكومتـان الخطوة الأولى في طريـق إنشـاء "سـوريا الكـبرى". غير أن الجامعة لم تتصرف بشكل حازم، فتجـرأ عبـد الله وألحق رسمياً في كانون الأول (ديسـمبر) 1949 الجزء العربي من فلسطين بشرق الأردن(82). وفي 20 تموز (يوليو) عـام 1950، قتـل الملـك عبـد اللـه

فخلفه أبنه طلال الذي سرعان ما أُصيب بلوثة عقلية فتبوأ العرش حسين بن طلال (83).

تــراوحت العلاقــات بين الســعودية ومصــر من التحــالف الوثيــق إلى القطيعــة التامــة والمواجهــة العسكرية. فبعد الاشتباكات الخطيرة التي جــرت بين الحجــاج المصــريين والإخــوان عــام 1926، رفضــت الحكومة المصرية الاعتراف بسـلطة أبن سـعود على الحجاز وقد استثار الملك فؤاد نقمة عبد العزيز حينما حــاول أن يصــبح خليفــة. ولم تســتأنف العلاقــات الدبلوماســية بين البلــدين إلا بعــد وفــاة فــؤاد عــام 1936.

بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة تحسـنت العلاقـات المصــرية السـعودية بشـكل ملمـوس. وبعـد زيارتـه الرسمية إلى مصر عام 1946، منح أبن سعود الملك فاروق عوناً سنوياً قدره زهاء مليون جنيه إســترليني. ووصل إلى السعودية معلمون وفـنيون ومستشـارون مصــريون وأرسـلت بعثـة عسـكرية مصـرية لتـدريب الجيش السعودي(84).

أكد الملك سعود في خطاب العرش، الذي ألقـاه في آذار (مـارس) 1954، على ضـرورة التعـاون مـع البلـدان العـربي في إطـار الجامعـة العربيـة وطبقـاً لميثاقها ومعاهدة الدفاع المشترك. ودعـا الملـك إلى تعزيز العلاقات مع الـدول الإسـلامية ووعـد بمواصـلة إتباع سياسة مناوئة لإسـرائيل وأعلن عن الرغبـة في تحسين العلاقات مع الدول كافة. غـير أنـه أشـار إلى وجود قضايا معلقة بين العربية السعودية "والحكومـة البريطانية الصديقة"(85).

إن الـدعوة إلى تعـاون البلـدان العربيـة والوعيـد التقليـدي الموجـه لإسـرائيل والمسـحة المناوئـة لبريطانيا في السياسـة السـعودية، قـد هيـأت جميعـاً التربة للتقارب مع مصر. واتخذ الملـك سـعود موقفـاً واقعيـاً من التغـيرات الثوريـة في مصـر واعـترف بالنظام الجديـد. وكـان أول رئيس دولـة عربيـة يـزور القـاهرة بعـد ثـورة 23 يوليـو، والتقى أثنـاء زيارتـه الرسمية إلى مصر في آذار (مارس) 1954، بـرئيس الدولة محمد نجيب وبجمال عبد الناصر(86).

في مطلـع آب (أغسـطس) 1954، انتهـز عبـد الناصر وجوده في السعودية لأداء فريضة الحج وعقد مفاوضـات مـع الملـك سـعود الـذي أيـد جهـود مصـر الموجهة ضد حلف بغداد الذي جرى تشكيله آنذاك.

أثـار انضـمام العـراق وبغـداد إلى حلـف بغـداد ارتياب العربيـة السـعودية بهـذا الحلـف، لـذا تقـاربت وقتياً مع مصر وسـوريا واليمن. وزعم أن السـعودية، شأن مصر كان لها ضلع في الاضطرابات الـتي هـزت الأردن شـتاء 1955/1956،وأدت إلى طـرد الفيلـق العربي غلوب باشا ورفض الأردن الانضمام إلى حلف بغداد(87).

لقد سعى الرئيس عبد الناصـر إلى عقـد اتفاقيـة عسكرية ثنائية مع سائر البلدان العربية لتكون نقيضاً ومعادلاً لحلف بغداد. ووقع ميثاق الدفاع المشترك مع سـوريا في آذار (مـارس) 1955، وأعلنت السـعودية عن تأييدها للميثاق المصري السوري بعد زيـارة وفـد سورة إلى الرياض. وفي تشـرين الأول (أكتـوبر) من العام نفسه، عقدت السعودية معاهدة عسكرية ثنائية

مع مصر. وشكل مجلس أعلى يضم وزراء الخارجية والدفاع في البلدين، إلى جانب مجلس عسكري وقيادة عسكرية مشتركة. وعقدت المعاهدة لمدة خمس سنوات على أن تمدد تلقائياً إذا لم يعلن أي من الطرفين عن إبطال مفعولها.

في مطلع عام1956، رفضت الحكومات العربية الانضمام إلى ميثاق الدفاع المشترك للشرق الأوسط الذي دعت إليه لندن وواشنطن(88).

وفي آذار (مارس 1956، وصل الملك سعود إلى القاهرة لمقابلة الرئيس عبد الناصر، كما وصل إلى هناك الرئيس السوري شكري القوتلي، وتقرر عقد ميثاق للتعاون والاخوة. ونسقت الدول الثلاث ذات الأنظمة المختلفة والمصالح المتناقضة سياستها على أساس معاد للإمبريالية. ففي أواسط الخمسينات اجتاحت المنطقة موجة الحركة القومية والنزعات المعادية للغرب. ولبريطانيا بالدرجة الأولى في العالم العربي. وفي 20 نيسان (إبريل) 1956، وصل إمام اليمن أحمد إلى جدة حيث التقى بسعود وعبد الناصر. وفي اليوم التالي، وقعوا اتفاقية الدفاع المشترك(89).

يعزى تحالف سعود مع عبد الناصر إلى إن الحكومة المصرية احجمت لحين تأميم قناة السويس عن معاداة الولايات المتحدة بشكل فعال. وكانت السياسة المصرية موجهة ضد البريطانيين وأنصارهم الهاشميين في العالم العربي. وكان ذلك متفقاً مع النهج السياسي للرياض والنزاعات التقليدية المناوئة لبريطانيا في صنعاء(90).

وأبان حرب السويس عام 1956، أيدت الرياض القاهرة وأعلنت عن استعدادها لمساعدة مصر عسكرياً وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا. وأوقفت عملياً ضخ النفط إلى هذين البلدين وأعانت مصر بمبالغ كبيرة من المال(91).

ولكن مع توثق التعاون بين السعودية ومصر تزايد القلق الذي يثيره هذا التعاون في الأسرة الحاكمة وفي أوساط العلماء المتنفذين. وأخذت الدعاية الإذاعية المصرية تؤثر في بعض فئات السكان في السعودية، والتي كانت ميولها المعادية للغرب وللإمبريالية تقترن بالميول المناوئة للملكية. وأثار تعاظم شعبية الرئيس عبد الناصر في السعودية قلق الملك وحاشيته. ويذكر بعض المؤلفين إنه كانت قد اكتشفت في أيار (مايو) 1955 مؤامرة لإسقاط نظام الحكم في السعودية أعد لها ضباط سبق لهم أن دربوا في مصر. وزعم أن لعدد من المستشارين العسكريين المصريين ضلعاً في المؤامرة(92). وكانت الاضطرابات والإضرابات العمالية في الظهران ما زالت ماثلة في ذاكرة الملك والأمراء. ولوحظت أيضاً دلائل الغليان الثوري في الأردن والعراق. وإضافة إلى ذلك، كان إيقاف ضخ النفط إلى بريطانيا وفرنسا ضربة لخزانات الدولة،وبالتالي لخزانات الأمراء الخاصة، مما جعلهم يفكرون فيما إذا كان هناك ما يستحق تقديم هذه " التضحيات" بسبب مصر. وأخيراً فإن واشنطن التي اعتبرت القاهرة خصمها العربي الأول في الشرق الأوسط، عملت على تأليب الرياض ضدها.

بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر أخذت واشنطن تبحث عن طرق وأساليب جديدة لإخماد موجة حركة التحرر الوطني والحيلولة دون توطد التعاون بين عدد من البلدان العربية والاتحاد السوفييتي. ونتيجة لذلك البحث ظهر "مبدأ إيزنهاور" في كانون الثاني (يناير) 1957، الذي زعم بأن هزيمة بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي أدت إلى ظهور "فراغ" مزعوم في الشرق الأوسط. وجاء في "مبدأ إيزنهاور" أن "القوات المسلحة الأمريكية سوف تستخدم للدفاع عن وحدة أراضي واستقلال البلدان التي تحتاج إلى مساعدة لمواجهة العدوان من قبل أي بلد تسيطر عليه الشيوعية الدولية". وطالب الرئيس الأمريكي إيزنهاور أبان ذلك بتخويله صلاحية استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الخارج دون إجراء مشاورات تمهيدية مع الكونغرس. وفي الواقع كان المقصود من ذلك اعتزام الولايات المتحدة بسط هيمنتها على الشرق الأوسط بقوة السلاح أن اقتضى الأمر، ولكن مع الاعتماد على الأنظمة الصديقة لواشنطن. وفي 9 آذار (مارس) 1957، وقع الرئيس الأمريكي برنامج السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط الذي حظي بتأييد الكونغرس. وطبق "مبدأ إيزنهاور" عملياً بعد سنة، إذ أنزل مشاة البحرية الأمريكية في لبنان(93).

أملت واشنطن في تأييد العربية السعودية لتنفيذ سياستها في الشرق الأوسط، نظراً لارتباط المملكة اقتصادياً بالولايات المتحدة، ولما تتمتع به نفوذ في

العالم الإسلامي. ودعا إيزنهاور الملك سعود لزيارة الولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) 1957.

في هذه الأثناء عمت عدداً من البلدان العربية نشاطات مناوئة "لمبدأ إيزنهاور". وعرج الملك سعود وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة على القاهرة حيث التقى بالرئيسين المصري والسوري وملك الأردن. وصدر بيان مشترك يعتبر مبدأ إيزنهاور برنامجاً لاستعباد الشعوب التي انخرطت مؤخراً في طريق التطور المستقل. ورفض المجتمعون نظرية "ملء الفراغ" الأمريكية وأعلنوا أن بلدانهم لن تتحول أبدا إلى ميدان لنفوذ أي دولة أجنبية. وكلف الملك سعود بنقل هذه الأفكار إلى الرئيس إيزنهاور (94).

ولكن الملك سعود تصرف على نحو آخر في الولايات المتحدة. فقد تم خلال المفاوضات الرسمية الاتفاق على تزويد السعودية بمعدات للقوات الجوية والبرية والبحرية، وتدريب طياريها وتوفير الفنيين لقواتها المسلحة ومنحها قرضاً قدره 25 مليون دولار. ووعدت الولايات المتحدة بتقديم قرض للسعودية لتعمير ميناء الدمام. كما تقرر مضاعفة تعداد الجيش النظامي السعودية الذي بلغ عدد منتسبيه آنذاك 15 ألفاً. ووعد سعود بتمديد فترة تأجير قاعدة الظهران الجوية لمدة خمس سنوات، والسعي لإقناع البلدان العربية الأخرى بالقبول بـ "مبدأ أيزنهاور"(95).

ولكن الملك سعود اكتشف بعد عودته إلى الشرق الأوسط اشتداد المعارضة لـ "مبدأ ايزنهاور"

في المنطقة، بما في ذلك داخل المملكة نفسها. وكانت سمعة عبد الناصر عالية إلى درجة بحيث لا يمكن تجاهل رأيه(96). وفي 24 ـ 27 شباط (فبراير) 1957، عقد في القاهرة اجتماع جديد لرؤساء الدول في كل من مصر وسوريا والسعودية والأردن حاول خلاله سعود أن يدافع عن "مبدأ ايزنهاور". ولكن الملك أضطر، إزاء ضغط الرئيسين عبد الناصر والقوتلي والرأي العام السعودي، إلى التخلي عن تأييده للمبدأ المذكور والانضمام إلى الدول التي رفضته مجدداً وأعلنت أن العرب أنفسهم يجب أن يتولوا الدفاع عن أنفسهم خدمة لأمنهم الحقيقي وخارج إطار التحالفات الأجنبية(97).

ولكن موقف السعودية هذا كان بمثابة مناورة تكتيكية لتهدئة الرأي العام في المملكة وسائر بلدان الشرق الأوسط ولتفادي مواجهة مع مصر تهدد النظام السعودي بالخطر. وصار واضحاً لكل من القاهرة والرياض أن التطابق المؤقت في المصالح قد انتهى. وكان سعود قد التقى في الولايات المتحدة، وبوساطة أمريكية، مع ولي العهد العراقي عبد الإله(98)، إذ أن العداء العائلي السابق بني آل سعود والأسرة الهاشمية أنحسر إلى المقام الثاني إزاء مصلحتهما المشتركة في الاستمرار بالحكم في ظروف الغليان الثوري المتصاعد بالشرق الأوسط.

في نيسان (إبريل) 1957، أقال الملك حسين سليمان النابلسي المتجهة إلى اليسار(99). وقدم سعود للملك حسين مساعدة عسكرية وسياسية: فقد وضع تحت أمرته لواءي الحرس الوطني

السعودي المرابطين في الأردن منذ العدوان الثلاثي على مصر. وحولت الحكومة السعودية للعاهل الأردني قسطها من المعونة السنوية البالغ 30 مليون دولار والذي كان قد تم الاتفاق عليه بين مصر وسوريا والسعودية عام 1956 للتعويض عن "المساعدة" البريطانية، هذا في حين أن مصر وسوريا رفضتا دفع قسطيهما(100). وشهد الشرق الأوسط استقطابا للقوى وصارت القاهرة والرياض على طرفي نقيض.

بعد مرور فترة قصيرة على إقالة حكومة النابلسي، قام الملك حسين بزيارة الرياض، الأمر الذي كان يعني استمرار التقارب بين العائلتين المالكتين المتعاديتين سابقاً. وبضغط أمريكي أخذ الملك سعود يميل إلى فكرة تأسيس اتحاد بين الملوك الثلاثة في السعودية والأردن والعراق لتعزيز مواقع القوى المحافظة. وفي عام 1957، زار سعود العراق ولكن الزيارة لم تسفر عن قيام تحالف رسمي(101). فإن سعود لم يجرؤ على التنصل جهاراً من مصر وسوريا خشية حدوث عواقب جدية تهدد عرشه. وآثر أن يؤكد في التصريحات الرسمية التزامه بمبدأ الحياد الإيجابي ومقررات مؤتمر القاهرة.

في آذار (مارس)1957، اعتقلت في السعودية مجموعة من الفلسطينيين بحوزتهم متفجرات، وزعم أن الحكومة المصرية أرسلتهم لنسف قصر "الناصرية" في الرياض. ورد المصريون بأن المجموعة أُفدت بالاتفاق مع السعوديين للقيام

بعمليات ضد حكم نوري السعيد في العراق. تدهورت العلاقات السعودية المصرية تدهوراً خطيراً، ولم يـؤد قـدوم وفـد مصـري إلى تخفيـف حـدة التـوتر(102). شنت في السعودية حملة دعائيـة تنسـب "للشـيوعية الدوليـة" كـل مظهـر من مظـاهر النضـال التحـرري الوطـني. وأكـد بلاغ مشـترك صـدر ربيـع 1957 أثـر الزيـارة الـتي قـام بهـا إلى السـعودية ريتشـاردس المسـاعد الخـاص للـرئيس لتنفيـذ برنـامج مسـاعدة بلدان الشرقيين الأوسـط والأدنى، أكـد على ضـرورة مجابهة "النشاط الشيوعي"(103).

وفي شباط (فـبراير) 1958، انبثقت الجمهوريـة العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا، وشـجعت واشـنطن ولنـدن قيـام الاتحـاد العـربي بين العـراق والأردن ليكـون معـادلاً للجمهوريـة العربيـة المتحـدة، وأخـذتا تسـعيان لحمـل بلـدان عربيـة أخـرى على الانضـمام إليـه. ولكن الحكومـة السـعودية اعتـبرت الاتحـاد المـذكور إحيـاء للخطـر الهاشـمي ورفضـت الانتماء إلية، وأعلنت عن حيادها إزاء الاتحـاد العـربي والجمهورية العربية المتحدة.

دب البرود في العلاقات السعودية الأردنيـة، وفي 8 نيسـان (إبريـل) 1958، تـوقفت الريـاض عن دفـع المعونات لعمـان والمنصـوص عليهـا في اتفاقيـة 19 كانون الثـاني (ينـاير) 1957. ورداً على ذلـك، طـالب الملك حسين بسحب القوات السعودية من الأراضـي الأردنية، فعادت إلى الوطن في أيار (مايو)(104).

وعلى الرغم من ذلك، فقـد اعتـبر الملـك سـعود الجمهوريـة العربيـة المتحـدة الخطـر الأساسـي على

عرشه، فقد كانت إصلاحات عبد الناصر تمارس تأثيراً قوياً على الـرأي العـام في السـعودية، حيث تزايـدت شعبية الرئيس المصري. وخشية الدخول في مجابهـة صريحة مع الجمهورية العربيـة المتحـدة، قـرر سـعود اللجوء إلى التآمر للإطاحة بعبد الناصر.

الفصل السابع عشر

أزمة السلطة وانحسارها المؤقت (1958 _ 1973)

دور السعودية الجديد

الصراع على السلطة بين سعود وفيصل.
المرحلة الأولى: فيصل يستولي على السلطة (آذار (مارس) 1958 _ كانون الأول (ديسمبر) 1960). أثر انبثاق الجمهورية العربية المتحدة اتهم الملك سعود علناً بالتآمر لاغتيال الرئيس عبد الناصر. فقد ذكر عبد الحميد السراج، المدير السابق للمباحث السورية أنه قد عرض عليه مبلغ مليون جنيه إسترليني مقابل إرسال طائرة مقاتلة سورية، لإسقاط طائرة كان على متنها عبد الناصر. ونشرت الصحف صوراً لثلاثة صكوك محولة من الرياض إلى بنك في بيروت وقيمتها مليونا جنيه إسترليني تقريبا.

في معرض الحديث عن احتمال لجوء الملك إلى مثل هذه الأساليب في السياسية الخارجية ذكر باحثون أمريكان في كتابهم "العربية السعودية: السكان والمجتمع والثقافة" إن الرشوة والقتل، سلاح يكاد يكون معترف به في الشرق الأوسط.(1)

بلغت شعبية الرئيس عبد الناصر مدى كبيراً بحيث أن نبأ المؤامرة السعودية الهادفة إلى اغتياله أدى إلى تأزم الوضع داخل العربية السعودية نفسها،

مما أثار قلقاً بالغاً لدى آل سعود وكبار علماء الـدين(2). واتفق أنه في هذا الوقت بالذات كان البلد يعاني من أزمة مالية فادحة بسبب إفراط الملـك وحاشـيته بتبذير الأموال وانخفـاض عوائـد النفـط. وقبـل فـترة قصـيرة من ذلـك جـرت اضـطرابات عماليـة في المنطقـة الشـرقية كمـا بـدت إمـارات التـذمر بين أوساط الموظفين والمثقفين وبعض الضباط.

يمكن تكـوين انطبـاع عن ميـول ومطـالب المستائين من خلال رسالة ناصر السـعيد إلى الملـك سـعود الـتي نشـرت عـام 1958(3). وكـان كـاتب الرسالة من الزعماء العماليين في المنطقة الشرقية وصار بعدئذ قائـداً لاتحـاد شـعب الجزيـرة. وفي عـام 1953 اعتقـل مـع مجموعـة من الزعمـاء العمـاليين الآخرين، وأطلـق سـراحه بعـد الإضـراب ثم نفي إلى الحائل. وعند زيارة سعود إلى جبل شمر عام 1953، طالبه السعيد علنـاً بسـن الدسـتور وإجـراء انتخابـات نيابيـة وإلغـاء مجلس الشـورى ومنح حريـة التنظيم النقابي. ورضوخاً لمطالب العمـال أعيـد السـعيد إلى عملـه في أرامكـو، ولكنـه اضـطر إلى الهـرب من السـعودية عـام 1956 لكيلا يتعـرض للتصـفية الجسدية. وعلاوة على المطالب المذكورة آنفـاً، أورد السـعيد في رسـالته عـدداً من مطـالب العمـال الاقتصادية ودعا إلى منح حريات ديمقراطيـة واسـعة، بينها حرية التظـاهر والإضـراب والصـحافة والمعتقـد، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وإلغاء العقوبـات الهمجية مثـل قطـع اليـد، والاعـتراف بحريـة الشـيعة ومساواتهم مع الآخرين، وإزالة القاعدة الأمريكية في

الظهران وحظر الرق وتحديد نفـوذ آل الشـيخ وإلغـاء جماعة الأمر بالمعروف ووقف نشاط الهيئات الخاصة الأمريكية والمراكز الدعائية لأرامكو.

ودفعا لما هو أعظم أخذ جزء كبير من آل سـعود وكبار العلماء يميلـون إلى ضـرورة أجـراء انقلاب في القصر يتسلم أثره ولي العهد فيصل السلطة الفعلية.

تحصـن سـعود في قصـر "الناصـرية" بالريـاض محاطا بالحرس الوطني والحراس الشخصيين، وكان فيصل في البادية يتفاوض مع شيوخ البدو(4).

طـالب فيصـل بمنحـه السـلطة كاملـة كـرئيس للحكومة وبعدم تـدخل الملـك في شـؤون الحكومـة. ولما لم يحصل على رد استقال(5).

يقول بروشين أن "العائلة المالكة الكثـيرة العـدد كانت دائماً غير متجانسـة: إذ يتفـاوت أفرادهـا تفاوتـاً كبـيراً من حيث المركـز الاجتمـاعي والأمـوال الـتي يحصلون عليها من خزانـة الدولـة. غـير أن الحـزازات داخل العائلة لم تتحول إلى عداء سافر أبان حياة أبن سـعود. فقـد كـان الأمـراء يخـافون أبن سـعود لأن بوسعه حرمانهم من المخصصات كما فعل مراراً مـع المتمـردين. وبعـد وفـاة أبن سـعود انفـرطت العائلـة المالكة وصارت كتلاً متباينة.(6)

جمـع ولي العهـد فيصـل، وهـو سياسـي محنـك وذكي، جمـع من حولـه أنصـاره المسـتائين من تزايـد نفوذ أبناء سعود في البلاط. ودأب على تكوين انطباع بأن الملك غير مؤهـل لمهمتـه. وحـاول فيصـل الـذي تربطه علاقات قديمة ووثيقة بالأمريكان التظاهر بأنـه

من أنصار الإصلاحات والتقارب مع الرئيس عبد الناصر، وبدأ يعد خفية لانقلاب في القصر.

وفي 24 آذار (مارس) 1958، قامت مجموعة من الأمراء على رأسها فهد بن عبد العزيز بتقديم إنذار إلى الملك يطالب فيه بتسليم السلطة إلى فيصل. كما طالب الأمراء بحماية بيت المال من النهب وتنحية مستشاري الملك الضالعين في محاولة اغتيال عبد الناصر، ومنح أشقاء الملك حقوقاً مماثلة لحقوق أبنائه.

حاول سعود الاستنجاد بالأمريكان ولكنه لم يلق منهم العون، كما أنه لم يجد ركيزة في الجيش لأن غالبية آل سعود كانوا ضد الملك. فاضطر في مثل هذه الظروف إلى قبول إنذار الأمراء(7).

وصدر في 23 آذار (مارس) 1958، مرسوم ملكي يمنح رئيس الوزراء "المسئولية التامة للإشراف على تنفيذ جميع السلطات الإدارية فيما يتعلق بالشؤون الداخلية والخارجية والشؤون المالية". كما أصبح فيصل القائد العام للقوات المسلحة السعودية(8).

إن التنكر السياسي الذي قام به ولي العهد بادعائه أنه قومي ومن أنصار الإصلاحات كان متقناً إلى حد بحيث أن رد الفعل الأول لوسائل الأعلام الغربية على أحداث السعودية كان سلبياً. فقد كتبت "نيويورك هيرلد تريبيون" في 25 آذار (مارس) 1958 تقول "أن هذه الخطوة تمثل ضربة موجعة بمواقع الغرب في الشرق الأوسط". ومن المحتمل أن هذا التقييم كان تضليلاً متعمداً. فبعد بعض الوقت

صرح وزير الخارجية الأمريكي دالاس بأن تسلم حكومة فيصل مقاليد السلطة يدل "على أن الأحداث تسير في مجرى طبيعي" وأنه "لن يحدث تغيرات في العلاقات السعودية الأمريكية"(9).

لقد انطلت نوايا فيصل ليس على وسائل الأعلام الغربية وحدها، إذ أن ممثلي المعارضة علقوا عليه بعض الآمال. فقد أصدرت جبهة الإصلاح الوطني في العربية السعودية نداء في دمشق وجهته إلى فيصل(10) وضمنته مقترحات مماثلة لتلك التي وردت في "رسالة" ناصر السعيد إلى الملك سعود. هكذا كانت أوهام ممثلي "الفئات الوسطى" السعودية من المثقفين وصغار الموظفين والضباط.

في نيسان (إبريل) قررت قيادة جبهة الإصلاح الوطني أن تؤسس، اعتمادا على تنظيمها، منظمة جديدة باسم جبهة التحرير الوطني في السعودية. وسرعان ما رفضت هذه المنظمة المعارضة تأييد فيصل ونددت بأعماله(11).

وفي 18 نيسان (إبريل) ألقى فيصل خطاباً من الإذاعة كرسه للسياسة الخارجية. وأعرب عن الرغبة في إقامة علاقات الصداقة مع كل دولة لا تعادي الحكومة السعودية وتؤمن بالحياد الإيجابي ولا تنتمي لأي كتلة عسكرية (ويبدو أن المقصود هو حلف بغداد).

أدخل المرسوم الملكي الصادر في 11 أيار (مايو) 1958، وفصل بين صلاحيات المجلس وصلاحيات الملك. فقد منح رئيس مجلس الوزراء السلطة الإدارية، ولكن السلطة السياسية ظلت

للملـــك. وطـــرح المرســـوم مهمـــة تنظيم الماليـــة ومكافحـــة الرشـــوة والفســـاد. وحظـــر على أعضـــاء مجلس الـــوزراء تـــولي أي وظيفـــة جديـــدة داخـــل الحكومـــة أو خارجهـــا دون استحصـــال موافقـــة رئيس الوزراء. كما حظر عليهم تملك أموال الدولـــة بصـــورة مباشـــرة أو غـــير مباشـــرة، وأن يكونـــوا أعضـــاء في مجالس إدارة الشركات التجارية(12).

انتمت العربيـــة الســـعودية إلى صـــندوق النقـــد الـــدولي عـــام 1957، وبنـــاء على توصـــية خـــبراء الصـــندوق، أقـــر فيصـــل في حزيـــران (يونيـــو) 1958، برنامجاً للاستقرار المالي. ونص البرنـــامج على خفض نفقـــات الدولـــة إلى مســـتوى وارداتهـــا وإجـــراء إصـــلاح للنظام النقدي وقصر الاستيراد على المـــواد الغذائيـــة والمنسوجات والأدوية. كما تقرر وقـــف أعمـــال البنـــاء في عدد من القصور الملكية ومنع استيراد الســـيارات لمدة سنة. وقلصـــت الحكومـــة إلى حـــد كبـــير الإنفـــاق على التنمية الاقتصـــادية والتعليم والصـــحة. وفي عـــام 1959 تـــوقفت الدولـــة عن تخصـــيص أمـــوال لتنميـــة الصناعة والزراعة(13).

خفضت قيمة الريـــال الســـعودي، فأصـــبح الـــدولار الواحد يعـــادل 4.5 ريـــال مقابـــل 3.75 في الماضـــي. واعتمدت الحكومة النقود الورقيـــة المغطـــاة بالـــذهب والعملـــة الأجنبيـــة القابلـــة للتحويـــل، لتعـــوض بهـــا عن "وصـــولات الحجـــاج" والنقـــود الذهبيـــة الـــتي ســـحبت تـــدريجياً من التـــداول. وقُسِّـــم الريـــال الجديـــد إلى عشرين فلساً عوضاً عن 22 (14).

عند حلول عام 1960 كان احتياطي الذهب والعملة الصعبة قد ازداد عدة أضعاف. وبفضل تحسن ميزان المدفوعات تمكنت الحكومة أن تلغي في مطلع عام 1960 أهم التقييدات المفروضة على الاستيراد وتحويل العملة وتصدير الرساميل إلى الخارج(15). غير أن سياسة التقشف أدت إلى سفتور النشاط التجاري وتعطيل الأعمال العامة وازدياد حاد في البطالة. وتكبدت البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والمقاولون الخسائر.

لم يلق الملك سعود سلاحه، بتنازله عن السلطة الفعلية لولي العهد. فقد احتفظ الملك بعلاقات طيبة مع الأرستقراطية العشائرية وجزء من علماء الدين، وظل يؤكد على وفائه للتقاليد ويوزع العطايا بسخاء. وزار سعود مصر في صيف 1959 محاولاً أن يدفع عن نفسه شبهات العداء لعبد الناصر(16).

أمضى سعود عام 1960 بأكمله متنقلاً في أرجاء البلد، وكان أحياناً يتغيب عن العاصمة عدة أسابيع، ويقيم الولائم لشيوخ البدو ويجزل لهم العطاء. وطبقاً لعادات "الحكام الكرماء العادلين" كان سعود يدفع ديون الفقراء فينقذهم من الحبس، ويعطي المرضى مالاً بتداوي. وكان الملك يلتقي علماء الدين باستمرار ويشارك في غسل الكعبة عشية موسم الحج. وقام سعود، بين حين وآخر، بالتبرع بأموال لتعمير وبناء مساجد داخل السعودية وخارجها، ويوزع باسمه أموالا لإنشاء إسالة المياه في البلدات وشق الطرق وما إلى ذلك(17).

وظل الملك وأبناؤه يسطرون على مبالغ طائلة من المال. فإن أبن الملك أو أخاه، إذا لم يكن يتبوأ منصباً رسمياً، يحصل من بيت المال على عشرة ملايين ريال سنويا أن كان متزوجاً، ومليونين أن كان أعزب. أما سائر الأمراء فقد كانت مخصصاتهم تتحدد طبقاً لدرجة قرابتهم من الملك(18).

كان الأمر الحاسم في الصراع بين سعود وفيصل، ظهور مجموعة من الأمراء السعوديين الشباب المتأثرين بالأفكار الناصرية والداعين إلى الإصلاحات. وأقام سعود صلات بهم ووعد، بصيغ حذرة، بمؤازرتهم. وتحاشى الملك التعهد بالتزامات محددة، لأنه لم يكن من أنصار الإصلاح ولخشيته من نفور علماء الدين. وقد ألمح الأمير نواف بن عبد العزيز في تصريح له بالقاهرة في أيار (مايو) 1960 إلى وجود ميل لإقامة أول جمعية دستورية وإعداد أول دستور للدولة وتأسيس محكمة عليا ولجنة عليا للتخطيط(19). وكان هذا تعبيرا عن رأي مجموعة الأمراء الشباب الذي كان أبرزهم طلال بن عبد العزيز.

كان طلال واحداً من الأخوة الصغار لسعود، وثمة ذرية كاملة من الأمراء تبعده عن الأمل في أن يأتي دوره ليكون ملكاً. لذا فقد شرع انطلاقاً من طموحاته الشخصية _ وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد _ يبشر بفكرة الحكم الدستوري أملاً في الاقتراب من السلطة عن طريق الإصلاحات. وفي حزيران (يونيو) 1960 اقترح طلال إقامة نظام ملكي دستوري،

فرفض فيصل الاقتراح وأبعد عنه طلال وجماعته (20).

في آب (أغسطس) وكطلع أيلول (سبتمبر) عرض الأمراء الشباب مشروع الدستور على الملك، فرفضه باعتباره متطرفاً ولكنه حاول الاحتفاظ بصلاته مع المجموعة(21).

وفي أيار (مايو) 1960، اعتزم فيصل التوجه إلى أوروبا للعلاج وعَّين الأمير فهد بن عبد العزيز وكيلا له، ولكن سعود رفض المصادقة على هذا التعيين. وقد أيد عدد من الأمراء فيصل بينما وقف عدد آخر، وبينهم طلال ونواف، إلى جانب الملك. ولم يجرؤ فيصل على مغادرة البلد.

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1960، أخذ سعود يطالب فيصل بإحاطته علماً بجلسات الحكومة، وعدم تعيين أمراء للمناطق والمدن والبلدات وقضاة إلا بموافقته، وبأن يمتنع عن نشر الميزانية دون مصادقته عليها، كما طالب بزيادة نفقات البلاط وان تدفع لأولاده الصغار مخصصاتهم كاملة.

في 18 كانون الأول (ديسمبر) قدم فيصل للملك مسودة مرسوم ملكي حول الميزانية، فرفض الملك توقيعه بحجة أنه لا يحتوي على تفاصيل. وفي مساء اليوم نفسه رفع فيصل رسالة احتجاج إلى الملك اعتبرها سعود طلب استقالة(22).

المرحلة الثانية: سعود يعود إلى السلطة (كانون الأول 1960 آذار 1962).

في 21 كانون الأول ديسمبر) وافق سعود على "استقالة" فيصل، وبالتالي حكومته، وتولى رئاسة

الحكومـــة وعين وزراء جـــدداً. وضـــمت الحكومـــة الأميرين طلال بن عبد العزيز ومحمد بن سعود الذين أسندت أليهما على التـوالي وزارتـا الماليـة والـدفاع. وكان محمد يعتبر واحداً من أبناء سـعود الـذين تعقـد عليهم آمال كبار ووليا محتملاً للعهد. وعين أحد أنصار طلال وهو عبد المحسن وزيراً للداخلية بينما عين بدر وزيراً للمواصلات. وأسـندت وزارة النفـط والمعـادن إلى الوجـه القـومي المعـروف الشـيخ عبـد اللـه الطريقي. ولأول مرة في تاريخ البلد استلم أشـخاص لا ينتسبون إلى العائلة المالكة غالبية الحقـائب ـ وأن لم تكن أساسية _ في الوزارة (6 من 11) (23).

أن عودة الملـك سـعود إلى السـلطة في كـانون الأول (ديسمبر) 1960 كانت تعني الانبعاث المـؤقت للميول المناوئة للغرب الـتي كـانت سـائدة في فـترة 1954 ـ_ 1956. وقـد اقـترنت شـكوك سـعود إزاء الأمريكان بالنزعـة القوميـة "للأمـراء الأحـرار". وفي آذار (مـارس) 1961، أعلمت السـعودية الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بأنهـا لن تجـدد اتفاقيـة القاعـدة الجوية في الظهران التي كان سـينتهي مفعولهـا بعـد سنة. وأعلن الملك سعود أن السبب الرئيسـي لـذلك هـو مسـاعدة الولايـات المتحـدة لإسـرائيل. وفي 2 نيسـان (إبريـل) 1962 سـلمت الولايـات المتحـدة قاعدة الظهران إلى الحكومـة السـعودية، ولـذا صـار لـدى هـذه الحكومـة واحـد من أكـبر المطـارات في العالم. هذا علماً بأن العسكريين الأمريكان عادوا إلى القاعدة بعد ستة أشهر تقريباً أثر أحداث اليمن(24).

في 25 كـانون الأول (ديسـمبر) 1960، أعلنت إذاعـة مكـة أن مجلس الـوزراء وافـق على تشـكيل مجلس وطـني منتخب جزئيـاً، وقـرر وضـع مسـودة الدستور. ولكن الإذاعـة عـادت بعـد ثلاثـة أيـام لتنفي الخبر. وكان من الواضح
أن الملك سـعود لا يعـتزم التنـازل لحلفائـه المؤقـتين من الأمراء الشـباب. ولكن تلميحـات إلى الإصـلاحات أخذت تظهر في الصحافة السعودية(25).
نشـرت "الجريـدة" اللبنانيـة نص "مسـودة الدسـتور" المؤلفـة من مـائتي مـادة والـتي وضـعها حقوقيـون مصـريون بتكليـف من طلال وزملائـه من مجموعة الأمـراء الشـباب. ويبـدو أن هـذه المسـودة سـربت إلى الخـارج عن قصـد. ولكن مـدير الإذاعـة والصحافة السعودي نفى الخبر الزاعم بأن الملك هـو الذي عرض مسودة الدستور(26).
تكـونت داخـل الأسـرة السـعودية الحاكمـة ثلاثـة مراكز متصارعة على السلطة.فقد كان الملك سـعود يستند إلى مجموعة من الأمراء وبعض شيوخ القبائل، بينمـا يحظى فيصـل بمسـاندة مجموعـة أخـرى من الأمـراء والكثـير من علمـاء الـدين وتجـار الحجـاز المتنفـذين، أمـا المركـز الثـالث فقـد تزعمـه طلال المتمتـع بتأييـد فئـة المثقفين الناشـئة من خـريجين الجامعات الأجنبية وعدد من الموظفين (27).
ظـل الصـراع داخـل الأسـرة المالكـة السـمة الرئيسـية للحيـاة السياسـية في البلـد طيلـة عـام 1961. وكـان الانتقـال من معسـكر إلى آخـر أمـراً طبيعياً. فإن عبد الله بن عبد الرحمن وعددا آخـر من

إخوان الملك وأعمامه سرعان ما انتقلوا إلى جانب فيصل. ومن مجموعة "الأمراء الأحرار" أنضم طلال وبدر وعبد المحسن إلى مجلس الوزراء وعين فواز حاكماً للرياض. واستقال نواف من منصب وزير الداخلية وظل محايداً، وسرعان ما عين رئيس للديوان الملكي(28).

أسس الملك لجنة عليا للتخطيط وأصبح طلال أول رئيس لها. وكان من الواضح أن طلال يرمي إلى تعزيز سلطته مما نفّر منه أبناء سعود وأقرباءه المقربين(29).

تزايدت البطالة في البلد عام 1961. وحاول طلال تنفيذ أشغال عامة لزيادة العمالة، ولكن الاعتمادات لم تكن كافية، وكانت تنهب الأموال المتعمدة(30).

في الثامن من حزيران (يونيو)، أسست وزارة العمل والشؤون الاجتماعية وحاولت أن تحظر الإضافي وتحد من تشغيل الوافدين(31).

في 25 تموز (يوليو) صدر مرسوم ملكي بتأسيس المجلس الأعلى للدفاع برئاسة الملك ويتألف من وزير الدفاع والطيران (نائباً للرئيس) والمفتش العام للجيش ورئيس الأركان ووزراء الداخلية، والمالية والاقتصاد، والمواصلات، والخارجية، وحدد المرسوم مهمة المجلس بوضع سياسة دفاعية طويلة الأمد للجيش السعودي(32).

نظراً لتنامي المعارضة صدر إيعاز خاص لحماية النظام الملكي نص على أن تكون عقوبة الجرائم المرتكبة ضد الأسرى المالكة والدول الإعدام أو

السجن المؤبد. وصارت عقوبة الإعدام تهدد كل من يحاول تغيير النظام الملكي أو يتطاول على أمن الدولة أو يسعى لشق القوات المسلحة(33).

ركزت مجموعة فيصل هجومها على طلال متحاشية المساس بالملك. وأخذ الذين يناصرون فيصل سراً أو علانية يوحون للملك بأن التجديدات سوف تؤدي به إلى الهلاك وحذره من الوزراء الجدد. وفي الوقت نفسه عمل أنصار فيصل على عرقلة إجراءات "الأمراء الأحرار". وكان الأمراء المحافظون من آل سعود وكبار الموظفين يتحالفون في نشاطاتهم مع الأوساط الدينية التي خشيت من أن تؤدي الإصلاحات إلى الانتقاص من دور علماء الدين في البلد.

بدأ الهجوم رجال الدين وعلى رأسهم مفتي الديار السعودية، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ورئيس جماعة الأمر بالمعروف، الشيخ عمر بن حسن. فقد وجه المفتي رسالة إلى الملك يذكر فيها بحقه في الإطلاع على كل قوانين الحكومة وإيعازاتها قبل تطبيقها للبت فيما إذا كانت مطابقة لأحكام الشرع. وقال المفتي أنه لا يوافق على قانون العمل لمخالفته روح الإسلام. وذكر مثلاً أن العامل الذي يصاب بعاهة أثناء العمل يجب أن يحصل فقط على تعويض عن اليوم الذي أصيب أثناءه، لأن الإصابة قضاء وقدراً. وخلافاً لرأي طلال وزير المالية، وافق سعود على رأي المفتي لتهدئة علماء الدين. وسرعان ما طلبت جماعة الأمر بالمعروف بغلق استديوهات التصوير في الرياض، واقترح الملك على

الحكومة الخضوع لهذا المطلب. وكان تنفيذ هذا الإيعاز يعني الانهيار التام لهيبة الحكومة، لذا أقدمت على حل وسط بأن أمرت برفع اليافطات عن الاستديوهات وإزالة واجهاتها الزجاجية(34).

جوبهت محاولات طلال لتنظيم المالية بمقاومة سعود ورجال حاشيته الذين لم يعودوا إلى السلطة لتقييد جشعهم. ويقول طلال في مذكراته أن الملك شارك في المضاربة بالأراضي مما أضر بمالية الدولة، وكانت له حصة من المقاولات الحكومية، وحصل على مبالغ طائلة بإيصالات مزيفة مستخدماً موظفي وزارة المالية. ورفض سعود اقتراح طلال بتأميم شركة الكهرباء الأهلية في الرياض للحصول على واردات إضافية. واستغلت جماعة فيصل هذه المحاولة لتأليب الأوساط التجارية ضد طلال وسائر " الأمراء الأحرار" وبث إشاعات تزعم أن طلال يعتزم تأميم المؤسسات الصناعية والشركات التجارية(35).

حاول الملك التوصل إلى حل وسط مع فيصل والتضحية بطلال. وأصدر في 11 أيلول (سبتمبر) مرسوماً أقال فيه طلال وبدر وعبد المحسن من الوزارة. وفي 16 من الشهر نفسه عين الأمير نواف بن عبد العزيز، الذي كان يعتبر محايداً، وزيراً للمالية والاقتصاد الوطني، وأسندت المناصب الأخرى إلى أبناء سعود(36).

تدخل عامل آخر في الصراع بين الأخوان، وهو صحة الملك. فقد ساءت إلى حد بحيث نقل سعود فاقداً الوعي في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) إلى

المستشفى الأمريكي بقاعدة الظهران، ثم أضطر للسفر إلى الولايات المتحدة للعلاج(37). وقد يكون للأمريكان ضلع في ترحيله، لأن لهم مصلحة في إبعاد الملك الذي لا يرتضونه عن البلد. وقبيل مغادرة البلد، ونزولاً عند إلحاح كبار أفراد العائلة المالكة أبن سعود في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) فيصل وصياً. واستغل فيصل غياب سعود للقضاء على خصومه(38).

في آذار (مارس) 1962، اضطر الملك بسبب تدهور صحته إلى تعين فيصل رسمياً رئيساً للحكومة. وطالب فيصل بإقصاء الطريقي من مجلس الوزراء، فوافق سعود. تهللت أرامكو لهذه الخطوة إذ أنها كانت تعتبر وزير النفط، كما يقول طلال، عدوّها الأول. وكانت أرامكو، في التقارير المرفوعة إلى الحكومة السعودية تندد بنشاط الطريقي وتتهمه بـ "الشيوعية"(39). وهكذا عاد فيصل ليستلم السلطة الفعلية بعد خمسة عشر شهراً من أبعاده عن رئاسة الحكومة. وهكذا احتدم الصراع من جديد.

أمضى سعود بقية السنة في الولايات المتحدة حيث أجريت له سلسلة عمليات جراحية.

واصل طلال الحديث عن الإصلاحات. فقد دعا إلى إجراء تغييرات في نطاق الشرع على أساس الاجتهاد، الأمر الذي كان يعني عملياً إدخال أحكام قانونية جديدة على الشرع لضبط الظواهر الاجتماعية الجديدة. ولو فتح بات الاجتهاد لتمكنت فئات اجتماعية جديدة من تقديم مطالبها والاستناد إلى القيام وتفسير الشرع بما يتفق ومصالحها.

ولمـا لم يجـد طلال وجماعتـه دعمـاً داخـل البلاد هاجروا. وفي 15 آب (أغسطس) 1962، عقـد طلال مـؤتمراً صـحفياً في بـيروت. وانتقـد في تصـريحاته المنشورة بصـحيفة "الأنـوار" النظـام السـعودي على الرغم من أنه لم يذكر الملك بالاسم. وقال الأمير أن هدف مجموعته يتمثل في إقامة ديمقراطية دستورية في الإطـار الملكي وقـد أيـده أربعـة أمـراء هم عبـد المحسن بن عبد العزيز وبدر بن عبد العزيز وفواز بن عبد العزيز وسعد بن فهد.

وخشـــية من إثـــارة غاضـــب الريـــاض حـــاولت الحكومـــة اللبنانيـــة التخلص من الأمـــراء المتمـــردين فغـادروا إلى القـاهرة، حيث اسـتقبل طلال من قبـل الـرئيس عبـد الناصـر. وأدت ثـورة اليمن إلى زيـادة نشاط المجموعة وقتياً(40).

في أواخـــر الخمســـينات وأوائـــل الســـتينات دار الصراع على السلطة بين أفراد العائلة المالكة فقط، ولكنه كان عرضة لتأثير مختلف النزاعـات السياسـية. فقـد كـان برنـامج مجموعـة طلال يجسـد الأفكـار الإصلاحية الليبرالية القومية، ويبين مآلـه مـدى ضـآلة ما وجدته هذه الأفكـار من تربـة خصـبة في المجتمـع السعودي.

وعلى الـــرغم من أن الأســـرة المالكـــة كـــانت تتنازعهـا التناقضـات، إلا إنـه لم يكن لـديها خصـوم أقويـــاء. فجيـــل الشـــبان المتعلمين المتحـــدرين من "الفئات الوسطى" كـان يمثـل مجموعـة ضـئيلة جـداً في الأحســاء وجـــدة، واقتصـــر نشـــاطها ، حســـب

المعلومات المتوفرة، على توزيع منشورات ونشر رسائل مفتوحة في الصحافة بالخارج.

كما كان محدوداً تأثير جبهة التحرير الوطني وهي منظمة ديمقراطية ثورية معارضة. وانحصرت مطالب الجبهة في إلغاء نظام الاستبداد الملكي وإقامة نظام برلماني، ووضع سياسة اقتصادية وطنية، وإعادة النظر في كل الاتفاقيات النفطية، والدعوة إلى الحياد الإيجابي، ورفض تأجير قاعدة الظهران(41).

أما التأثير الأكبر فقد كان للمحافظين سواء من الأمراء أو علماء الدين أو شيوخ القبائل. ولهذا السبب بالذات لم يشارك سعود شخصياً في مؤتمر بلدان عدم الانحياز في بلغراد لأن يوغسلافيا "بلد شيوعي ملحد"(42).

في 28 أيلول (سبتمبر) 1961، انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. واعترفت الحكومة السعودية فوراً بالحكومة السورية الجديدة. وفي أواخر 1961، استمرت مجدداً الحرب الإعلامية بين إذاعتي القاهرة ومكة بعد أن كانت قد خمدت . وانتقدت القاهرة استبداد النظام الإقطاعي في السعودية وتفشي الفساد فيه، بينما اتهمت مكة الرئيس عبد الناصر بالتدخل في شؤون الدول العربية الأخرى، وزعمت أنه يخون القضية الفلسطينية ويتساهل إزاء إسرائيل. وتأزمت العلاقات إلى حد جعل الحكومة السعودية ترفض قبول كسوة الكعبة من مسلمي مصر عام 1962.

وفي الـوقت نفسـه جـرى تقـارب بين النظـام السعودي والأردن(43).

ففي 30 آب (أغسـطس) 1962، اجتمـع سـعود وحسـين في الطـائف ووقعـا اتفاقيـة حـول تنسـيق السياسـة الخارجيـة وتطـوير العلاقـات الاقتصـادية والعسـكرية والثقافيـة، واتفقـا على رسـم الحدود.وعرفت هـذه الاتفاقيـة بميثـاق الطـائف، ولم يخف على أحد أنها كانت موجهة ضد مصر(44).

الثـورة اليمنيـة وردود الفعـل في السعودية. في 19 أيلول (سـبتمبر) 1962، تـوفي إمـام اليمن أحمـد فتـولي الحكم أبنـه وولي عهـده الأمير محمد البدر، وفي 26 من الشهر نفسه قـامت الثورة في اليمن. فقد استغلت مجموعة من الضـباط المنـاوئين للحكم الملكي برئاسـة عبـد اللـه السـلال فرصة تغير الإمامـة فأطـاحت بالبـدر واسـتولت على السلطة. وحصل النظام الجمهوري الجديد على تأييـد فـوري من مصـر. وعنـد ابتـداء شـهر تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1962، كـانت 26 دولـة قـد اعـترفت بالجمهورية العربية اليمنية.

صـادرت الحكومـة الجمهوريـة أراضـي وقصـور وجـزء من الممتلكـات الأخـرى لأسـرة حميـد الـدين وكبار أنصارها. وأعلن النظام الجديد أن كل مواطـني البلـد متسـاوون في الحقـوق بصـرف النظـر عن انتمائهم الديني أو القبلي، وألغى الـرق، وبـدأ بـإحلال المحاكم المدنية محل الشرعية، وأخـذ يفتح مـدارس عامة جديدة.

غدت ثورة اليمن تحذيراً خطيراً للعائلة المالكة الحاكمة في السعودية، إذ كانت فيها كل العناصر الموضوعية للوضع الذي أدى إلى الانفجار الثوري في البلد المجاور: النظام الإقطاعي الديني، وتفشي الفساد في أعلى فئات المجتمع وانتشار الفقر والجوع بين السكان الذين كانوا قد تحملوا للتو _ في فترة 1958 ـ1960_ أعباء "تنظيم الاقتصاد والمالية" التي تجسدت في انخفاض مستوى المعيشة وزيادة البطالة. وأهم من هذا وذاك إنه ظهرت في أوساط الضباط والموظفين والتجار وذوي المهن الحرة والعمال والطلبة فئة "وسطى" نشيطة من الأشخاص الذين اعتنقوا أفكار التحرر الوطني والاجتماعي بصيغتها المختلفة _الماركسية والناصرية والبعثية_ وأخذوا يلحون في المطالبة بالتغيير. وكان المد الثوري في البلدان العربية آنذاك في تصاعد.

غير أن تطور الأحداث في اليمن والاستقرار النسبي للنظام السعودي، بينا أن شطراً ضئيلاً فقط من السكان كان يسعى للتغيير، وأن جزءاً أقل كان مستعداً للعمل الحاسم من أجل التغيير، فالمجتمع عموماً، سواء في السعودية أو في اليمن نفسه، لم يكن قد تخطى بعد المستوى الإقطاعي القبلي، وكانت جماهير السكان تؤثر التنظيم الاجتماعي السائد وتقتنع بالمؤسسات الاجتماعية القديمة وتنساق وراء التقاليد،وبالتالي وراء الزعماء المحافظين، ولم تكن تعرف بل لا تريد أن تعرف أي فكر غير الإسلام بالصيغة التي كان عليها في القرون

الوسطى. وأدى ذلك كله إلى تسهيل مهمة النظام السعودي في البقاء (بدعم هائل من الولايات المتحدة وسائر البلدان الغربية) وتقديم العون للقوى الملكية في اليمن.

التجأ الإمام البدر إلى السعودية، وتجمع في المناطق المتاخمة لليمن كبار أنصار النظام الملكي والإقطاعيون وشيوخ القبائل اليمنيون. وزودت الحكومة السعودية المالكين بالمال والسلاح، وأغدقت الأموال على القبائل المناوئة للجمهورية وساندت التحركات المعادية للجمهورية داخل اليمن.

عادت السعودية لتقف في معسكر واحد مع بريطانيا، في مكافحة الجمهورية اليمنية. فقد أيدت سلطات الاحتلال البريطانية المالكين خوفاً من تأثير الجمهورية اليمنية على عدن والمحميات وتزايد نفوذ مصر الناصرية في شبه الجزيرة العربية. وفيما بعد حصل الملكيون في اليمن على تأييد كل من الأردن وإيران.

في بداية تشرين الأول (أكتوبر)، وبناء على طلب السلال، بدأت مصر بنقل قواتها إلى اليمن جواً وبحراً. وفي 5 تشرين الأول (أكتوبر) سمحت السعودية للملكيين بتشكيل حكومة منفى في جدة. وفي 11 من الشهر تحدث نائب رئيس الجمهورية اليمنية عبد الرحمن البيضاني عن "حالة حرب" مع السعودية(45).

في تشرين الأول (أكتوبر) أيضاً، هرب عدد من الطيارين السعوديين المكلفين بنقل شحنات عسكرية إلى حدود اليمن، هربوا إلى مصر حيث

طالبوا اللجوء السياسي. وكان قد وصل إلى مصر طيار أردني قادماً من الطائف، حيث أرسل الملك حسين عددا من الطائرات الأردنية لمساندة النظام السعودي. وقصفت الطائرات المصرية تجمعات الملكيين والمرتزقة الذين حشدوا لتأييدهم. وزعمت الحكومة السعودية أن الطائرات المصرية قصفت في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) ومطلع تشرين الثاني (نوفمبر) مخيمات الملكيين في نجران وجيزان، ويبدو أن القصف قد حصل بالفعل، ولكن من الملفت للنظر إن الصحفيين الأجانب الذين نقلهم السعوديين إلى جيزان لم يجدوا أثراً لقنابل أو الصواريخ(46).

ولفترة من الوقت، احجمت السلطات السعودية عن استخدام طائراتها الحربية، وتولت قوات من الحرس الوطني حراسة المطارات.

ويقول الصحفي الأمريكي شميدت إن "الفئات العليا من المجتمع السعودي كانت منقسمة على نفسها حول ما إذا كان ينبغي الاتفاق مع النظام الجديد في صنعاء أو تأييد الإمام في الجبال، وقد وقع ستة من أعضاء الحكومة السعودية، وهم جميعاً لا ينتمون إلى الأرستقراطية، مذكرة يوصون فيها بالاعتراف بالجمهوريين. أما الفريق الآخر، وكان بزعامة الأمير خالد، فقد بدأ فعلاً بمساعدة الملكيين. وكان الملك سعود، كالعادة، متذبذباً بين الدعم النشيط للملكيين والاعتراف الحذر بالثوريين"(47).

أثناء هذا الوضع غير المستقر عاد ولي العهد فيصل في 24 تشرين الأول(أكتوبر) من نيويورك

حيث تـرأس الوفـد السـعودي إلى الأمم المتحـدة، ووعـد بـدعم من الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أثنـاء زيارته الـبيت الأبيض. وذكـر شـميدت أن "ولي العهـد اكتشف أن الوزراء غير الأرستقراطيين الذين يمثلون في الواقع الطبقة المتوسطة الجديدة في السعودية، كـانوا انهزامـيين. ونظـراً لضـعف إيمـانهم بمسـتقبل السعودية وقدرتها على الإصلاح وحماية نفسـها، فقـد أخذوا يتوقعون بـأن يتمكن الـرئيس عبـد الناصـر من إحراز النجاح في اسـتراتيجيته الواضـحة الراميـة إلى استثمار الثورة اليمنية والتهديد العسـكري لهـدم بنيـة النظـام الملكي السـعودي، وكـان بعض الشـباب من أفـراد الأسـرة الحاكمـة يشـاطرون هـذه النزعـات الانهزامية"(48).

قررت العائلـة السـعودية الحاكمـة رص صـفوفها لمواجهـة الخطـر. وكـان غالبيـة الأمـراء يميلـون إلى حرمان سـعود من أي دور فعـال في السياسـة. فقـد غدا الملـك شخصاً غـير مرغـوب فيـه نتيجـة لتفشـي الفساد والإسراف في الأبهة، كما أن سُـمعته انحطت في أنظار المحافظين بسبب صِلاته مع الإصـلاحيين و "الأمـراء الأحـرار". كمـا أن واشـنطن كـانت تـؤثر فيصل، لأنها لم تنس تصـريحات سـعود وأعمالـه ذات الطابع القومي في المرحلة الأولى لتسـلمه السـلطة وفي سـنتي 1961 و 1962. وإزاء ضـغط الأمـراء وعلمـاء الـدين اضـطر الملـك في 25 تشـرين الأول (أكتـوبر) 1962 إلى تعـيين فيصـل رئيسـاً للـوزراء ووزيراً للخارجية.

شـــكل فيصـــل الحكومـــة الجديـــدة في 31 من تشرين الأول (أكتوبر) وفي تشـرين الثـاني (نوفمـبر) طرح برنامجاً من عشرة بنود(49):

تعتقد حكومة صاحب الجلالة أن الوقت قـد حـان الآن لإصدار نظام أساسي للحكم مسـتمد من كتـاب اللـه وسنة رسوله وسيرة خلفائه الراشدين حيث يضع في وضوح كامل المبادئ الأساسية للحكم وعلاقة الحاكم بـالمحكوم وينظم سـلطات الدولـة المختلفـة وعلاقـة كـل جهـة بـالأخرى وينص على الحقـوق الأساسـية للمواطن ومنها حقـه في حريـة التعبـير عن رأيـه في حدود العقيدة الإسلامية والنظـام العـام..." (تلي هـذا المقطـع عبـارات متهمـة تعـد بـــ "تطـويـر" مجلس الشـورى). "وممـا يسـاعد على بلـوغ هـذا الهـدف السامي أن قواعد شـريعتنا السـمحة مرنـة متطـورة صالحة لمواجهة كل الظروف وقابلة للتطبيق في كل زمان ومكان حسب متطلبات ذلك الزمان والمكان".

أعلن فيصل أن الحكومة درست أيضـاً مسـألة نظـام الإدارة المحليـــة. ووعـــدت بإصـــدار أحكـــام بهـــذا الخصوص عما قريب.

نص البرنـامج على حـرص "حكومـة صـاحب الجلالـة على أن يكـون للقضـاء حرمتـه ومكانتـه فهـو منـاط القسط ورمز العدالـة". وأعلن عن نيـة الحكومـة في إصـدار أحكـام حـول اسـتقلالية الهيئـات القضـائية وتشكيل وزارة للعدل تكون النيابة العامة تابعة لها.

"ولما كانت نصوص الكتاب والسنة محددة ومتناهيـة بينمـا وقـائع الأزمنـة ومـا يسـتجد للنـاس في شـؤون دنياهم أمور متطورة وغير متناهية، ونظـراً لأن دولتنـا

الفتية تقيم حكمها... على أساس الكتاب والسنة نصاً وروحاً، فقد أصبح لزاماً علينا أن نمنح الفتيا عناية أكبر وأن يكون لفقهائنا وعلمائنا حملة مشاعل الهدى دور إيجابي فعال في بحث ما يستجد من مشاكل الأمة بغية الوصول إلى حلول مستمدة من شريعة الله ومحققة لمصالح المسلمين، ولذلك كله فقد قررت حكومة حضرة صاحب الجلالة تأسيس مجلس للإفتاء يضم عشرين عضواً من خيرة الفقهاء والعلماء".

"إن حكومة صاحب الجلالة لتشعر شعوراً تاماً بواجبها للعمل بكل جد واهتمام لنشر دعوة الإسلام وتثبيت دعائمه والذود عنه قولاً وعملاً".

قررت الحكومة " أن تقوم حالاً بإصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يتمشى مع الأهداف الإسلامية الرفيعة".

أعلنت الحكومة أن إحدى المهمات الكبرى تتمثل في "النهوض بالمستوى الاجتماعي للأمة" بما في ذلك اعتماد مجانية الطب والتعاليم ودعم المواد الاستهلاكية الضرورية والضمان الاجتماعي. "وعندما تقدم الدولة لطائفة العمل فيها نظاماً يحميهم من البطالة، نكون بذلك قد وصلنا إلى المستوى الاجتماعي الذي ما يزال حلماً يراود كثيراً من دول العالم المتحضر وحققنا فعلياً أهداف العدالة الاجتماعية الحقة دون أن تطغي الدولة على حريات الناس الفردية أو تسلبهم أموالهم وحقوقهم... إنها تسعى جادة إلى إجراء تعديلات هامة في شكل

الحياة الاجتماعية وإلى توفير الوسائل للتسلية لجميع المواطنين".

"تؤمن حكومة صاحب الجلالة بأن التطور الاقتصادي والتجاري والاجتماعي الذي ساد مجتمعنا في السنوات الأخيرة ما يزال في كثير من مجالاته يفتقر إلى التنظيم ولذلك فإن مجموعة كبيرة من الأنظمة الهامة ستأخذ طريقها تباعاً إلى الصدور". وجرى التأكيد على ضرورة استحداث هيئات مستقلة لمتابعة تنفيذ هذه الأنظمة.

وجاء في البرنامج أن "الانتعاش المالي والتطور الاقتصادي هو شغل الحكومة الشاغل... فقد اتخذت حكومة صاحب الجلالة وسوف تتخذ إجراءات هامة وحاسمة لوضع برامج إصلاحية ملموسة ينتج عنها انتعاش دائم للحركة الاقتصادية".

ونص البرنامج على ضرورة إلغاء الرق بشكل مطلق وحظره وعتق العبيد جميعاً.

ولذا فإن ولي العهد ورئيس الوزراء قد طرح برنامجاً لتعزيز وصيانة النظام الملكي دون إجراء تغيرات جوهرية في أسسه. وإن العبارات المبهمة حول إصدار نظام أساسي مستمد من القرآن والسنة مع مراعاة التغيرات في المجتمع، وحول النظام القضائي وإصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أثارت استياء الكثير من السعوديين، وغير ذلك مما ورد في البرنامج الجديد كان يهدف إلى إخماد النزعات الثورية في أوساط جزء من السكان وإرضاء أنصار الإصلاحات المعتدلة. ووعد رئيس الحكومة الطبقة البرجوازية المتنامية

بإصدار أنظمة جديدة وتشكيل "هيئات مستقلة" لمتابعة تنفيذها، وضمان الانتعاش الاقتصادي. ووعد فيصل فئات واسعة من السكان بتحسين وضعهم المعاشي وتخفيض الأسعار وتقديم مختلف الخيرات الاجتماعية وحمايتهم من البطالة. وتمشياً مع روح العصر وجد فيصل أن من الضروري التأكيد على وسائل التسلية البريئة مبتعداً بذلك عن الزهد الصارم. وأخيراً فقد أشار البرنامج إلى اعتزام إلغاء الرق.

لم ينفذ برنامج فيصل قط من حيث العموم. وفيما بعد لم تعد وسائل الأعلام والإصدارات الرسمية السعودية تذكر هذه الوثيقة الهامة خشية جلب الأنظار للوعود المنسية حول الإصلاحات.

وكانت مختلف إجراءات الحكومة ذات طابع محدود للغاية. ففي 7 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1962، صدر مرسوم بإلغاء الرق، والتزمت الحكومة بموجبه بدفع سبعمائة دولار عن كل عبد وألف دولار عن كل أمة. وفي 7 تموز (يوليو) 1963، بلغ العدد الإجمالي للعبيد الذين طالب أسيادهم بدفع تعويض عنهم 1682 عبداً، فدفعت الحكومة التعويضات وأعتقتهم. واعتبر سائر العبيد معتوقين بعد التاريخ المذكور الذي حدد كأجل نهائي لدفع التعويضات. وكان الجزء الأساسي من المعتوقين من عبيد العائلة المالكة. وذكرت مجلة "نيوزويك" أن "غالبية أسياد العبيد تجاهلوا عرض الحكومة لأن مبلغ التعويض كان يقل مرتين عن سعر العبد في سوق الرقيق"(50).

وفي العادة كان العبد المعتوق يضطر إلى البقـاء عيد أسياده السـابقين، لصـعوبة إيجـاد عمـل في بلـد يكثر فيه العاطلون عن العمل، أو يبقى دون مقومات العيش(51).

توصل فيصل والمقربون أليه، بأنفسهم أو بنصـح من الخـبراء الأمريكـان، إلى اسـتنتاج حـول ضـرورة تدخل الحكومة بنشـاط أكـبر في الحيـاة الاقتصـادية. والمقصود بذلك تأسيس قطاع عام في الاقتصاد.

صـدر في 22 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1962، مرسـوم يقضـي بتأسـيس الهيئـة العامـة للبـترول والمـوارد المعدنيـة (بـترومين) لـدى وزارة الصـناعة البتروليـة والتعدينيـة، برئاسـة الـوزير. وأوكلت إلى الهيئة أعمال استخراج ونقل وتسـويق النفـط وسـائر المـوارد المعدنيـة. ولهـذا الغـرض تـرتب تأسـيس شركات أو قيام الهيئة نفسـها باسـتثمار رأسـمال في الشركات القائمة بالفعل. كما كلفت بترومين بمهمـة تطوير الصـناعة البتروكيمياويـة بالاسـتفادة من الغـاز الطبيعي(52).

في مطلع عام 1963، صدرت أنظمة المصرفين الصـناعي والـزراعي في السـعودية. ونصـت ميزانيـة سـنة 1962 ـــ 1963 على زيـادة كبـيرة في الاعتمادات المخصصة لأغراض التعليم والصحة(53).

نهاية ازدواجية السلطة. مبايعة فيصـل ملكاً. بعد أن أعلنت حكومة فيصـل الأحكـام العرفيـة في الأول من كـانون الثـاني (ينـاير) 1963، شـرعت تنكل بالمعارضـة. واعتقلت الشخصـيات ذات الميـول الإصلاحية، بالإضـافة إلى إلقـاء القبض على عـدد من

الضباط المظليين بتهمة التآمر ضد نظام الحكم. ولكن جبهة التحرير الوطني صعدت من نشاطها في الخارج(54).

في خريف 1962، قصد سعود أوروبا للعلاج، فأخذ فيصل يعمل بنشاط لإحكام سيطرته على السلطة، وعين أخاه غير الشقيق عبد الله قائداً للحرس الوطني وأخاً آخر حاكماً للرياض.

عاد سعود إلى الرياض في 27 نيسان (إبريل) 1963 ولكنه غدا في عزلة. فقد طالبه 39 من أخوته بتسليم فيصل السلطة الفعلية، على أن يظل ملكاً، فغادر سعود البلاد.

أثر ذلك عزل فيصل كل "أبناء سعود من المناصب الحكومية الهامة، وعين محلهم أخوته الثلاثة خالد وفهد وسلطان، وعمه الأمير مساعد بن عبد الرحمن الذي كان من خلصائه. وبعد ذلك أبعد ولي العهد عن العاصمة جزءاً كبيراً من الحرس الملكي الذي كان مؤلفاً من ثلاث كتائب مزودة بالدبابات والمدافع المضادة للجو وتدرب غالبية ضباطه في الولايات المتحدة. وكان جنود الحرس الملكي يتقاضون رواتب عالية ويحصلون على دور وقطع أراضي وسلفة للبناء. ونقل فيصل كتيبتين من الحرس الملكي (كتيبة مشاة وكتيبة مدرعات) إلى الحدود السعودية اليمنية في الجنوب، ودمجهما في الجيش النظامي(55).

سمح للملك سعود بالعودة شريطة إلا يتدخل في شؤون البلد، فاضطر إلى الموافقة وعاد إلى السعودية في 13 أيلول (سبتمبر) 1963(56).

في 22 آذار (مارس) 1964، قام سعود بمحاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الدولة، فطالب بوضع السلطة التنفيذية بكاملها تحت إشرافه. رفض فيصل وحشد الحرس الوطني لمؤازرته. وفي 25 آذار نصح مفتي الديار السعودية الملك بالموافقة على مطالب ولي العهد، فرفض الملك آملاً في الحصول على دعم وحدات الحرس الملكي المتبقية تحت أمرته. وحينذاك أصدر فيصل أمراً إلى الحرس الوطني بتطويق القصر. وكانت القوى غير متكافئة بتاتاً، فاستسلم الحرس الملكي(57).

في 29 آذار (مارس)، اصدر العلماء فتوى أيدها أفراد الأسرة المالكة، حول تسليم السلطة بأكملها لفيصل على أن يبقى سعود ملكاً بالاسم فقط(58).

وأثر هذه الفتوى أصدر مجلس الوزراء سلسلة من القرارات في 28 ـ 30 آذار، تقضي بإلغاء سيطرة الملك على الحرس الملكي وحرسه الخاص، وتسليم التشكيل الأول لوزارة الدفاع والثاني لوزارة الداخلية. وألغى مجلس الوزراء البلاط وقُلص إلى النصف المخصصات السنوية للملك، فجعلها 183 مليون ريال سعودي (الدولار الأمريكي = 4.5 ريال). ولم يعد بإمكان سعود إدارة شؤون الدولة، وأُحيلت كل صلاحيات الملك لولي العهد فيصل. ووقع 68 أميراً من الأسرة المالكة مذكرة تؤيد إحالة السلطة إلى فيصل(59).

لقد كانت أحداث آذار (مارس) عام 1964 تكراراً لانقلاب عام 1958، مع فارق واحد وهو أن

سعود حاول في هذه المرة إبـداء نـوع من المقاومـة ولكنه أخفق.

بدأ فيصل في صيف 1964، يمهد للإطاحة بأخيـه غـير الشـقيق عن العـرش نهائيـاً. وفي 24 تشـرين الأول (أكتوبر) غادر جدة متوجهاً إلى الرياض، والتقى في الطريق بزعمـاء البـدو. واجتمـع الأمـراء وشـيوخ القبائـل وعلمـاء الـدين في العاصـمة، حيث عرضـوا على سعود التنازل عن العرش والكـف عن ممارسـة النشاط السياسي.

في 28 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1964 اجتمع علماء الدين في منزل مفتي الديار السـعودية محمـد بن إبراهيم آل الشيخ، ثم عقدوا اجتماعاً مـع الأمـراء في فندق "الصحراء" بالرياض. ويـذكر دي غـوري أن عدد المشاركين في الاجتماعين بلغ زهاء مائة أمـير و 65 عالماً، أي كـل الفئـة العليـا من الهـرم السياسـي الديني في السعودية(60).

صـادق مجلس الـوزراء في 2 تشـرين الثـاني (نوفمبر) على قرارين: فتوى العلماء بمبايعـة فيصـل ملكاً، ورسالة وقعها جميع أفراد الأسرة المالكة تبـايع فيصل ملكاً وتدين له بالولاء. كما بـايع الملـك الجديـد أعضـاء مجلس الشـورى وممثلـو أهم المحافظـات. وتوجـه أعضـاء الحكومـة برئاسـة خالـد إلى سـعود لإعلامـه بـالقرار. وفي 4 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) أقسـم الحـرس الوطـني يمين الـولاء لفيصـل. ولكن سـعود زل مـترددلً آملاً في حـدوث معجـزة، فهـدد بحرمانه من أملاكه ووضعه تحت الإقامـة الجبريـة إذا استمر متعنتاً. حينـذاك وقَّع تنازلـه عن العـرش، وفي

كانون الثاني (يناير) 1965، غادر البلاد، بعد أن أدى يمين الولاء لأخيه. وفي آذار (مارس) 1965 عين فيصل أخاه غير الشقيق الأمير خالد ولياً للعهد(61).

انتهت بذلك مرحلة الصراع على السلطة بين آل سعود والتي استمرت ست سنوات. وفي العام الأول لتوليه الحكم جمع فيصل بين منصبي الملك ورئيس الوزراء، وتولى السلطة التنفيذية الفعلية وكان يقوم بتعيين الوزراء وإعفائهم ويقبل استقالتهم. وصار جميع الوزراء خاضعين مباشرة للملك الذي غدت لديه عملياً سلطة كبيرة مماثلة لسلطة والدة عبد العزيز.

المعارضة في الستينات ومطلع السبعينات. أدت ثورة اليمن والمجابهة المصرية السعودية إلى تصاعد مؤقت في نشاط مجموعة الأمير طلال.

فقد أعلن في 23 تشرين الأول (أكتوبر) 1962 عن تشكيل جبهة التحرير العربية ونشر برنامجها. وذكر طلال أن التنظيم الجديد سيناضل من أجل إقامة نظام ديمقراطي في السعودية وإلغاء الرق هناك ويعمل في سبيل إعادة النظر في اتفاقيات الامتيازات النفطية بغية حماية مصالح البلد وإنشاء شركة وطنية لاستخراج النفط، ويكافح في سبيل الوحدة العربية وضد الأحلاف الإمبريالية والقواعد العسكرية. وقد راعى الأمير فيصل الكثير من مطالب طلال وأدرجها في بيانه البرنامجي.

في مطلع الستينات وضعت الصيغة التنظيمية لمجموعة معارضة أخرى وهي اتحاد أبناء الجزيرة

العربيـة (اتحـاد شـعب الجزيـرة العربيـة فيمـا بعـد)، وترأسها ناصر السـعيد، العامـل السـابق في أرامكـو. وأعلنت المنظمة أنها تمثل جميـع فصـائل الكـادحين، بمن فيهـا العمـال والفلاحـون والطلاب والموظفـون والجنـود والضـباط والأطبـاء. ووزعت المنظمـة في جـدة والريـاض ومكـة منشـورات مناهضـة للحكم الملكي. ودعت المنظمـة في إذاعـة موجهـة من القـاهرة إلى تصـفية الحكم الملكي السـعودي وتأسيس جمعية وطنية تمثل كل فئات الشـعب، كمـا أعلنت عن تأييـدها لعبـد الناصـر وتنديـدها بالملـك حسين(62).

وبعـد ثـورة اليمن انتقلت قيـادة الاتحـاد من القـاهرة إلى صـنعاء. وأنشـأت المنظمـة قيـادة عليـا للعمـل في السـعودية، كـان من بين أعضـائها ناصـر السعيد(63).

بـديهي أن مجموعـتي طلال (الإقطـاعيون الليـبراليون والبرجوازيـة التجاريـة) وناصـر السـعيد ("الفئـات الوسـيطة") كانتـا متبـاينتين من حيث التركيب الاجتمـاعي والتطلعـات السياسـية وأسـاليب النضال، كما كانتا تتبادلان التهجمات.

إمـا جبهـة التحريـر الوطـني فقـد حـاولت توحيـد القوى المعارضة، وفي كانون الأول (ديسمبر) 1962 انـدمجت بجبهـة التحريـر العربيـة، حيث صـار أسـم التنظيم الجديد جبهة التحرير الوطني العربية وانتخب طلال أمينـاً عامـاً لهـا. وشـرعت هـذه الجبهـة بنشـر موادهـا في صـحيفة "الكفـاح" اللبنانيـة تحت ركن "صـوت الجبهـة". وكـان برنامجهـا يشـمل المطالبـة

بالحكم الدستوري الديمقراطي وانتخاب هيئات السلطة وحرية الفكر والكلمة وحرية الاجتماع والتنظيم السياسي والنقابي، وحق الكادحين في الإضراب والتظاهر، وإجراء تغيير جذري في الجهاز الحكومي، ونشر التعليم ومكافحة الأمية وتعليم النساء أسوة بالرجال، وتصنيع البلد وتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين، وتطوير الصحة وتوفير الخدمات الصحية لجميع المواطنين، وإقامة التعاونيات الزراعية، وتحسين وسائل المواصلات وتعزيز الجيش وتجهيزه بأحدث الأسلحة، وإعادة النظر في اتفاقيات النفط لصالح العربية السعودية، وإنشاء شركة وطنية لاستخراج وتكرير النفط، والدفاع عن الوحدة العربية والنضال ضد الأحلاف الإمبريالية والقواعد العسكرية، وإتباع سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع جميع البلدان(64).

بيد أن مجموعة طلال انسحبت في آب (أغسطس) 1963 من جبهة التحرير الوطني العربية، ومنذ ذلك الحين أخذت تسمى مجدداً جبهة التحرير الوطني. وقد تدهورت علاقات "الأمراء الأحرار" بالرئيس عبد الناصر وخصوصاً بعد أن أخذت إذاعة اليمن تدعو إلى "تصفية جميع أفراد الأسرة السعودية المالكة دون استثناء". وفي شباط (فبراير) 1964، عاد طلال إلى الرياض بعد أن كان أخوته قد وصلوا إليها قبل شهر من ذلك(65). ولذا انفرط عقد "الأمراء الأحرار"، ولم يسمع منذ ذلك الحين أي شيء عن نشاطهم السياسي.

لم تتمكن المعارضة المنظمة من إحراز نجاح داخل البلد. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1962، أُعتقل 40 من الضباط الشباب الذين خططوا للقيام بانقلاب. وفي شباط (فبراير) 1963، اكتشفت أجهزة الأمن السعودية مجموعة جديدة توحد المعارضين اليساريين(66).

شهد البلد اضطرابات عمالية في فترة 1962 _ 1966. ففي عام 1962 توقف عمال المطابع المصريون في جدة عن العمل احتجاجاً على التهجمات ضد مصر. وفي عام 1963، أضرب السعوديون والبحرانيون العاملون لدى أحد المقاولين في المنطقة الشرقية. وفي العام نفسه جرى إضراب في معمل للإسمنت. كما أضرب عمال النفط في المنطقة المحايدة مطالبين بتقليص أسبوع العمل من 48 إلى 40 ساعة. وفي عام 1964، قاطع عمال أرامكو مطاعم الشركة وحوانيتها، ونظموا مظاهرة. وعلى الرغم من صدور مرسوم عام 1965 الذي يحظر كل أنواع الاتحادات والروابط العمالية وحتى العقود الجماعية، فإن تسعمائة من عمال أرامكو برهنوا عام 1966 على وجود نوع من التنظيم لديهم، ورفعوا إلى مكتب الشكاوى التابع لمجلس الوزراء عريضة تتضمن مطالب اقتصادية(67).

بيد أن كل هذه النشاطات لم تكن ذات طابع جماهيري. وحتى مطلع عام 1967 لم تكن هناك بوادر تدل على أن النظام السعودي قد تعرض لخطر جدي يذكر من قبل المعارضة السرية. وكانت

السلطات تعلن بين الحين والحين عن اعتقال أفراد بتهمة القيام "بنشاط هدام" أو "الانتماء إلى منظمة سرية معادية للنظام". وفي كانون الأول (ديسمبر) 1965، أعلنت وزارة الداخلية عن اعتقال 65 شخصاً بتهمة "النشاط الهدام"، ووجهت لـ 34 شخصاً تهمة "الانتماء إلى منظمة سرية انحرفت عن الصراط المستقيم، وترمي إلى الإخلال بأمن البلاد". وبعد أن سجل المتهمون إقراراً تحريرياً أعلنوا فيه أنهم مذنبون وطلبوا العفو، أطلق الملك سراحهم ولكن حظر عليهم مزاولة وظائف حكومية، وأبعد الأجانب منهم. وكانت هناك مجموعة ثانية تتألف من 31 شخصاً اتهموا بـ "الشيوعية" وإتباع "المبادئ الهدامة". وحكم على 19 منهم بالحبس لمدد تتراوح بين 5 سنوات و 15 سنة(68).

وفي 9 كانون الثاني (يناير) 1967 أعلن عن إلقاء القبض على "مخربين مدربين"، واتهموا بتنظيم تفجيرات في مؤسسات حكومية عديدة منها وزارة الدفاع ومبنى البعثة العسكرية الأمريكية وقصور الأمراء والقاعدة العسكرية القريبة من حدود اليمن. وزعم أن المخربين ليسوا من المواطنين السعوديين، بل أنهم متسللون من جمهورية اليمن. وفي آذار (مارس) أعدم 17 منهم علناً في الرياض (بقطع رؤوسهم) وطرد من البلد ما يزيد على 600 يمني(69).

في كانون الأول (ديسمبر) 1966، انتقل الملك السابق سعود من أوروبا إلى القاهرة، وسرعان ما غدا واضحاً أنه لم يفقد الأمل في استعادة عرشه

بمساعدة... الرئيس عبد الناصر. ومن سخريات القدر أن سعود كان من ألد خصوم الرئيس المصري، وسبق أن أتهم بتنظيم مؤامرة لاغتيال عبد الناصر. وتحدث سعود في سلسلة مقابلات من إذاعة القاهرة سمى فيها فيصل بـ "عميل للإمبريالية" واتهمه بأنه... تحالف مع الاستعمار ضد أشقائه العرب. وقد أثارت تأكيدات سعود حول أمله في العودة إلى البلد "بأي ثمن"، تكهنات بأنه يخطط لتنظيم غزو عسكري للسعودية بمساعدة القبائل الموالية له.

في نيسان (إبريل) 1967، وصل سعود "إلى صنعاء في زيارة استغرقت ثلاثة أيام. وقد رحب به عبد الله السلال باعتباره "الملك الشرعي" للسعودية. وبعد حرب حزيران (يونيو) 1967، الذي جرى أثره تقارب مصري سعودي وتقرر وقف العمليات العسكرية في اليمن، توقفت حملة سعود وغادر إلى أوروبا في أيلول (سبتمبر). ولكنه عاد إلى مصر في تشرين الثاني (نوفمبر)، إلا أنه لم تتوفر معلومات عن نشاطه السياسي لحين وفاته في شباط (فبراير) 1969(70).

أبان حرب حزيران (يونيو) جرت في رأس تنورة والظهران مظاهرات معادية لإسرائيل وأمريكا. وهاجم المتظاهرون في الظهران القنصلية الأمريكية. وجرت أثر ذلك حملة اعتقالات، وتذكر بعض المصادر أن عدداً من المعتقلين قد قتلوا. وطُرد من البلد مئات الفلسطينيين. وفي أواخر حزيران (يونيو) نظم

المستخدمون العرب في أرامكو إضراباً جزئياً استمر بضعة أيام(71).

شهد عام 1968، انحساراً وقتياً في المعارضة الداخلية والخارجية للملك فيصل. وسحبت القوات المصرية من اليمن، وتخلت مصر عملياً عن دعم المعارضة داخل المملكة مقابل دعم مالي ومساعدات أخرى من السعودية.

وقد أثارت سياسة التغييرات التدريجية والحذرة التي أجراها الملك فيصل استياء داخل الأسرة الحاكمة، سواء لدى أولئك الذين اعتبروا التغييرات مغالية في الليبرالية والديناميكية، أو الذين اعتبروها بطيئة للغاية وغير حاسمة. وكان لكل من وجهتي النظر هاتين أنصار بين الأمراء، مما أدى إلى احتكاكات مبعثها التنافس الشخصي. وحصل نوع من التوتر داخل العائلة المالكة بسبب سوء صحة الملك فيصل والصراع الخفي على الإرث السياسي المحتمل. وقد أجريت لفيصل عملية جراحية في جنيف في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1970. وبديهي أن حالته الصحية أثارت المسألة التالية: أي من كتل الأمراء ستكون لها الكلمة الفصل في حال وفاة الملك أو اعتزاله. وأصبح الشخص الثالث في العائلة، بعد ولي العهد خالد، فهد بن عبد العزيز وهو من مجموعة قوية من الأشقاء المنتسبين إلى عائلة السديري من جهة الأم(72).

عملت سراً في السعودية خلال الستينات ومطلع السبعينات بضع منظمات يسارية هي جبهة التحرير الوطني السعودية واتحاد شعب الجزيرة العربية،

بالإضافة إلى المجموعات الجديدة مثل الحزب النجدي الثوري الذي أعلن عن اعتزامه النضال ضد "الطغمة الرجعية الحاكمة". والجبهة القومية الديمقراطية في العربية السعودية المكونة من بعثين وناصريين سابقين. وكانت مراكز نشاط هذه القوى خارج المملكة، ومن المحتمل إنه كان لها أعضاء نشيطون داخل البلد(73).

في الخامس من حزيران (يونيو) 1969، نظمت مجموعة كبيرة من الضباط السعوديين، وغالبيتهم من سلاح الطيران، محاولة انقلاب. وزعم أن الضباط كانوا يعتزمون اغتيال الملك فيصل وأخاه الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران، والاستيلاء على العاصمة. ويستفاد من عدة مصادر أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ساهمت في كشف تنظيم الضباط الثوريين. وقد اعتقلت أجهزة الأمن بضع مئات من الضباط لا تزيد رتبة غالبيتهم على رائد. وذكر بيان صادر عن اتحاد شعب الجزيرة إن من بين المعتقلين العميد داود الرومي آمر قاعدة الظهران وسعيد العمري قائد حامية الظهران اللذين قتلا أثناء التعذيب. كما اعتقل عدد من عمال النفط المستخدمين وموظفي المصارف الذين لهم علاقة بالضباط الثوريين. وزعمت جبهة التحرير الوطني أن 40 من المتهمين بالمحاولة الانقلابية قد أعدموا في آب (أغسطس)(74).

وخلال الأشهر التي أعقبت كشف المحاولة الانقلابية، كانت تنتشر خارج المملكة أنباء حول حملات اعتقال وإعدام وتعذيب جماعية. وذكرت

الصحف أن عدة محـاولات انقلابيـة جـرت في أيلـول (سبتمبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) 1969 ونيسـان _ أيار (إبريل _ مايو) 1970 وفي تموز (يوليـو) 1970. ومن المحتمل أن تكون السلطات هي الـتي أشـاعت أنباء "المحـاولات الانقلابيـة" لتـبرير أعمـال التنكيـل(75). وتفيد معطيات السعوديين في المهجر أن عـدد السجناء السياسيين في المملكـة بلـغ حـوالي الألفين عام 1973(76). وقد تكون في ذلك مبالغة.

أثارت ثـورة الفـاتح من سـبتمبر عـام 1969 في ليبيـا قلـق الأسـرة الحاكمـة، لتشـابه الظـروف الاجتماعيـة السياسـية في البلـدين. وأخـذ النظـام السعودي يزيد من اهتمامه بتعزيز القوات المسـلحة، وخصوصاً سـلاح الطـيران والحـرس الوطـني وجهـاز الأمن المكـون من شـعبة مكافحـة الجاسوسـية ومديريـة الأمن العـام، وتـولى فهـد النـائب الثـاني لـرئيس الـوزراء وزيـر الداخليـة الأشـراف على كـل أجهزة الأمن. ووزعت وحـدات الجيش في كـل أنحـاء البلـد، ولم يسـمح لهـا قـط بالتحشـد حـول المراكـز الرئيسية. وبعد عام 1962، بـدأ انتقـاء ضـباط سـلاح الطـيران من أفـراد الأسـرة المالكـة وسـائر الأفخـاذ المقربة إليها. ولكن المحاولـة الانقلابيـة في حزيـران (يونيو) 1969، أظهـرت أن هـذه الخطـوات لم تعـط المردود المنتظر(77).

اسـتمر فيصـل في اتخـاذ الإجـراءات بمواصـلة التنميـة الاقتصـادية، بمـا في ذلـك وضـع الخطـة الخمسـية الـتي أقـرت في نهايـة عـام 1970. وقـد تحسنت شبكة النقل والمواصلات وتطـورت شـبكات

الإذاعة والتلفزيون. واستمر تطبيق مشاريع تحضير البدو، وتوسع قطاع الخدمات العامة والصحة والتعليم(78).

خرجت أحداث اليمن عن الإطار المحلي، وضلع فيها القطبان المتناحران الرئيسيان في الشرق الأوسط خلال الستينات، وهما مصر والسعودية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تحظى بدعم الاتحاد السوفييتي، في حين أن العربية السعودية تحصل على مؤازرة الولايات المتحدة وبريطانيا، لاكتشافنا أن أحداث اليمن، على الرغم من محدوديتها الوضعية، قد اكتسبت أهمية دولية.

المجابهة السعودية المصرية في اليمن. عندما بدأت أحداث اليمن طلبت الرياض المساعدة من واشنطن. وأشار الرئيس الأمريكي جون كندي في رسالة موجهة إلى رئيس الوزراء فيصل أثر تسلمه السلطة، إلى أن بإمكان السعودية الاعتماد على الولايات المتحدة في مجال صيانة أمن المملكة وسلامة أراضيها. وفي 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1962، قامت مقاتلات أمريكية بتحليقات استعراضية فوق الرياض وجدة والظهران.

في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) وقع ميثاق الدفاع بين الجمهورية العربية اليمنية والجمهورية العربية المتحدة. وبدأت مصر تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية متزايدة للجمهوريين. ومن المهم الإشارة إلى أن كلًا من الجمهورية العربية المتحدة والعربية السعودية كان يعتبر ميثاق الدفاع المشترك

المعقود بين مصر والسـعودية واليمن في جـدة عـام 1956، أساسا قانونيا لإسداء العون للجمهوريين (من قبل مصر) وللملكيين (من قبل السعودية)(79).

في الأول من كـانون الثـاني (ينـاير 1963، أعلن رئيس الـوزراء فيصـل التعبئـة العامـة. وفي الـوقت نفســه طلبت الحكومــة الســعودية المســاعدة من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي مطلع كانون الثـاني (ينـاير) 1963 أعلنت الولايـات المتحـدة عن إرسـال عـدد من طائراتهـا وسـفنها الحربيـة إلى السـعودية(80).

وبعـد فـترة وجـيزة وافقت الحكومـة الأمريكيـة على مسـاعدة السـعودية في إنشـاء شـبكة للـدفاع الجوي على امتداد الحدود اليمنية قرب نجـران. وفي 6 شباط (فبراير) بدأت تـدريبات مشـتركة للمظلـيين الأمريكان والسعوديين قرب جدة، وشارك فيهـا مائـة مظلي أمريكي وصلوا من ألمانيا الغربية(81).

اتسـع نطـاق الحـرب الأهليـة في اليمن والـنزاع السـعودي المصـري. وقـام السـعوديون بتمويـل الملكـيين وتزويـدهم بالأسـلحة والـذخائر والمـؤن والمـواد الطبيـة. وفي كـانون الأول ديسـمبر)، وصـل تعداد القوات المصـرية في اليمن إلى 13 ألفـاً، وفي شباط (فبراير) 1963، بلغ عشرين ألفاً، كما أوفـدت مصر إلى اليمن أطباء ومعلمين ومهندسـين زراعـيين وفنيين(82).

في 27 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1962، وجـه الـرئيس الأمـريكي جـون كنـدي رسـائل إلى رئيس الـوزراء السـعودي فيصـل والملـك الأردني حسـين

ورئيس الجمهورية العربية المتحدة عبد الناصر والرئيس اليمني السلال، ضمنها تصوراته حول سبل حل نزاع اليمن. وقد تجاهل الرئيس الأمريكي الإمام وحاشيته. واقترح كندي على الجمهورية العربية المتحدة سحب قواتها المسلحة من اليمن، وفي المقابل اقترح على السعودية والأردن ومشايخ وسلاطين اتحاد جنوب الجزيرة (الذي شكله البريطانيون عوضاً عن محميات جنوب اليمن)، اقترح وقف المساعدات للملكيين. وفي اليوم نفسه أعلن فيصل عن رفضه اقتراح كندي. وفي اليوم التالي رفض الرئيس جمال عبد الناصر بدوره اقتراح كندي، وأعلن أنه لن يوافق على سحب القوات المصرية من أراضي اليمن إلى إذا زال الخطر الذي يهدد اليمن الجمهوري. ولم يوافق على مبادرة كندي إلى الرئيس اليمني عبد الله السلال(83).

يبدو أن واشنطن اعتبرت قضية الملكيين ميؤوساً منها في خاتمة المطاف. وفي 14 كانون الأول (ديسمبر) 1962، أعلنت حكومة الجمهورية العربية اليمنية أنها ستغلق السفارات والبعثات الدبلوماسية لجميع البلدان التي لم تعترف بالجمهورية. وفي 19 كانون الأول، أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية رسمياً عن اعتراف الولايات المتحدة باليمن الجمهوري(84).

في أوائل عام 1963 خاض الجمهوريون اليمنيون المدعومون من قبل القوات المصرية معارك ضارية ضد الملكيين والمرتزقة المتسللين من السعودية ومحميات جنوب اليمن البريطانية. وكانت

وحـــدات الملكـــيين المشـــكلة بمســـاعدة الســـعودية وبريطانيا جزئياً، تتـألف آنـذاك من زهـاء أربعين ألـف شخص، ولها قواعد تموين ومعسـكرات على أراضـي السعودية وجنوب اليمن. وعلى الـرغم من ذلـك فقـد تمكن المصـــريون والجمهوريـــون في شـــباط _ آذار (فـبراير _ مـارس) 1963 من تحريـر مـدينتي مـأرب وحريب في شرق اليمن من الملكيين. بيد أن وحدات الملكيين كـانت تتسـلل باسـتمرار إلى أراضـي اليمن عـبر الجبـال والصـحاري. وكـانت هنـاك منـاطق في الجبال واقعة تحت سـيطرة المتمـردين التامـة. وقـد تحـولت الحـرب الأهليـة داخـل اليمن في الواقـع إلى حـرب بين الجمهوريـة العربيـة المتحـدة والسـعودية واستنزفت الطرفين(85).

يقول شميدت: "لو درسنا باهتمام فترة السنوات الأربـــع لوجـــدنا أن كلا من الطـــرفين بـــذل جهـــوداً مستميتة للخروج من المأزق. وقام المصـريون بـأول هذه الجهود في شباط ـ آذار (فبراير _ مـارس) عـام 1963 أثنـاء مـا يسـمى بـــ "هجـوم رمضـان"، حينمـا تمكنوا من الاستيلاء على الجوف في شـمال شـرقي اليمن ومدينتي مأرب والحـريب في الجـزء الشـرقي من البلد. وجاء الجهد الثاني، الذي قام بـه الملكيـون، وبعد فترة فصل القوات. ففي كانون الثاني _ شـباط (ينـــاير _ فـــبراير) 1964 تمكن الملكيـــون من أن يقطعوا لبضعة أسابيع الطريـق بين صـنعاء والحديـدة وهـــو الشـــريان الرئيســـي الـــذي يغـــذي الجيش المصري... إما الجهد الثالث فقد بذله المصريون في صـيف العـام نفسـه بتحشـيدهم قـوات في الشـمال

الغـربي، حيث جـرت في آب ـ أيلـول (أغسـطس ـ سبتمبر) أكبر العمليات الهجومية وذلك في منطقة حرض. وكان هدف العملية يتمثل في إغلاق الحدود مع السعودية وأسر الإمـام أو قتلـه. ولكن لم يتحقـق أي من هذه الأهداف. وفي هذه الأثناء هيأ الملكيـون في الشمال والشمال الشرقي الظـروف لشـن أكـبر هجماتهم، وقاموا بالجهد الرابع خلال فـترة السـنوات الأربـع وبعـد الانهيـار التـام لاتفاقيـة الإسـكندرية بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر، مني الجمهوريون بهزيمـــة أدت إلى عقــــد اتفاقيــــة جــــدة في آب (أغسطس) 1965 وانسـحاب المصـريين من شـمال وشرق اليمن"(86).

في ربيـع 1963، اتفقت الريـاض والقـاهرة على ضـرورة إنهـاء العمليـات الحربيـة في أراضـي اليمن وفصـل القـوات. وفي نيسـان (إبريـل) 1963 اتفقت الجمهورية العربية المتحـدة والسـعودية والجمهوريـة العربية اليمنية على السماح لمراقبين من هيئـة الأمم المتحدة بدخول اليمن.

وفي تموز (يوليو) 1963، وصـلت وحـدات الأمم المتحدة إلى شمال اليمن وأقامت نقاط سـيطرة في عدد من المناطق. وقـامت دوريـات جويـة وبريـة من قوات الأمم المتحدة بالكشـف على منـاطق الحـدود(87)، غير أن مردود هذه العمليات كان ضئيلاً للغاية.

في مطلع آذار (مارس) 1964، اتفق وفدان من مصر والسـعودية على عقـد لقـاء بين رئيس الـوزراء فيصل والـرئيس عبـد الناصـر لوضـع خطـة ملموسـة لإنهاء الحـرب في اليمن. وقـد عين موعـد اللقـاء في

نيسان (إبريل) ولكنه أرجئ بسبب احتدام الصراع على السلطة بين فيصل وسعود. وأصرت الجمهورية العربية المتحدة على أن تعترف السعودية بالجمهورية العربية اليمنية وتكف عن مساعدة الملكيين اليمنيين، على أن يعقب ذلك انسحاب القوات المصرية من اليمن. ولكن السعودية ظلت تعترف بالإمام البدر حاكماً شرعياً لليمن، وتسوف في بدء المفاوضات الرسمية التي كانت لتعني اعترافها بأنها طرف في النزاع اليمني، وأصرت على أن يتم أولاً الانسحاب غير المشروط لجميع القوات الأجنبية (أي المصرية) من اليمن. ولم تدرج السعودية في عداد هذه القوات وحدات المرتزقة العاملة إلى جانب الملكيين، والتي لم تكن من الناحية الشكلية ضمن جيش أي من الدول. وفي هذا الظرف لم يعد هناك جدوى من عمل بعثة الأمم المتحدة، المرابطة في اليمن من تموز (يوليو) 1963، فغادرت البعثة وقوات الأمم المتحدة البلد في مطلع أيلول (سبتمبر) 1964(88). كان ثمة خطر تحول النزاع في اليمن إلى حرب حقيقية بين الجمهورية العربية المتحدة والعربية السعودية. وقد نشرت صحيفة "النهار" البيروتية في مطلع أيلول (سبتمبر) 1964 مقابلة فيصل قال فيها أن القوات المسلحة السعودية يمكن أن تدخل أراضي اليمن بطلب من الإمام(89). وكان ذلك تهديداً سافراً، إلى أن السعودية لم تكن تمتلك القوات الكافية للقيام بمثل هذه العملية.

ظل الموقف المصر على حاله، ولكن تم خلال المفاوضات المصرية السعودية التي جرت في مؤتمر القمة العربي بالإسكندرية في أيلول (سبتمبر) 1964، الاتفاق على أن يتولى البلدان التوسط بين الجمهوريين والملكيين لتسوية النزاع(90).

في 2 و 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1964 عقد في مدينة أركويت بالسودان مؤتمر حضره ممثلون عن الجمهورية العربية اليمنية والملكيين، وتقرر خلاله وقف إطلاق النار ابتداء من 8 تشرين الثاني 1964، بيد أن هذه الهدنة لم تدم أكثر من يومين(91).

أدت العمليات الحربية الطويلة الأمد في اليمن إلى خلق صعوبات كبيرة ليس للجمهورية العربية اليمنية فحسب، بل لمصر والسعودية أيضاً. وقد أزداد تعداد القوات المصرية الموجودة في أراضي اليمن من 3 آلاف إلى خمسين ألفاً . وخلال الفترة الممتدة من تشرين الأول (أكتوبر) 1962 إلى ربيع 1965، فقدت مصر زهاء 15 ألف قتيل في اليمن(92). كما قتل عشرات الآلاف من اليمنيين(93). وقد أتت الحرب على خزانة مصر وقوضت اقتصادها. ولم تنشر الحكومة السعودية معلومات عن نفقاتها ولكن من المؤكد أنها أنفقت مبالغ طائلة.

لقد بالغ عبد الناصر في تقدير قواه، بإرسال قوات لمساعدة الجمهوريين. ويبدو أنه أعتقد بأن العملية سوف تستغرق بضعة أسابيع أو عدة أشهر على أكثر تقدير. وكانت النتائج المحتملة لهذه العمليات تبدو له جديرة بالجهود: طرد البريطانيين

من جنوب اليمن، بما فيه عدن، والانفجار الثوري في السعودية الذي يمكن أن يؤدي إلى قيام نظام ديمقراطي ثوري صديق له في هذا البلد الغني بالنفط، والضغط على مواقع الغرب في حوض الخليج. ولكن أمد الحرب طال. ولم يكن المجتمع اليمني مهيئاً بعد للتغييرات الثورية العميقة التي بدأت في البلد. وكان للملكيين مواقع قوية داخل اليمن ودعم كبير من الخارج. كما أن الجنود المصريين، من أبناء الفلاحين الذين تربوا في وادي النيل وحوضه. لم يكونوا مكيفين بالشكل المطلوب لخوض عمليات في الجبال والصحاري. وقد أزداد تعداد القوات المصرية إلى 60 _ 70 ألفاً عام 1967(94).

بيد أن كلاً من مصر والسعودية كان يربط بمصير اليمن حسابات تتعدى حدود اليمن وحتى الجزيرة العربية كلها. فقد صارت القضية اليمنية من البنود الأساسية لمجمل السياسة العربية لكل من البلدين.

وابتداء من أواخر عام 1964، استغلت الجمهورية العربية المتحدة نجاحاتها العسكرية المؤقتة في اليمن فاتخذت موقفاً أكثر تشدداً إزاء السعودية. وبدأت ترتسم معالم نزعة ازدياد دور القيادة المصرية في إدارة شؤون الدولة في الجمهورية العربية اليمنية(95).

في أواخر حزيران (يونيو) 1965، أشار عبد الناصر إلى أنه إذا لم تسفر المفاوضات السعودية المصرية عن نتائج ملموسة فإن مصر سوف تضطر إلى تصفية بؤر العدوان بالقوة(96). وأثيرت في

الجمهورية العربية اليمنية مسألة الأراضي التي صارت جزءاً من السعودية، وهي عسير (منطقة مدينة جيزان) ونجران. وسعت الصحف المصرية للبرهنة على عائدية هذه الأراضي لليمن.

ضعفت مواقف مصر في الجمهورية العربية اليمنية إلى حد كبير في أواسط عام 1965. وأخذ يتزايد في المعسكر الجمهوري نفوذ الجناح المحافظ ذي الميول المناوئة لمصر، والمعتمد على شيوخ القبائل وعلماء الدين وبعض فئات التجار. ولم تتحقق آمال زعماء مصر في حدوث تعقيدات في الوضع السياسي الداخلي للسعودية. وفي اليمن بدأ الملكيون الذين سلحتهم السعودية وإيران يهاجمون، بينما كان الجمهوريون والمصريون يسلمون موقعاً أثر آخر(97).

هكذا كانت الأوضاع في لحظة انعقاد لقاء الرئيس عبد الناصر بالملك فيصل في جدة 22 آب (أغسطس) 1965، والذي تكلل في 24 من الشهر بعقد أول اتفاقية مصرية سعودية تهدف إلى تسوية النزاع في اليمن. ولم يشارك في المفاوضات الجمهوريون ولا الملكيون(98).

نصت اتفاقية جدة لعام 1965 على منح الشعب اليمني حق البت في مسألة نظام الدولة عن طريق استفتاء شعبي على أن يجري في موعد أقصاه 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1966، وعقد مؤتمر لجميع القوى الوطنية والساسة المتنفذين في اليمن وذلك يوم 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1965 في مدينة حرض لصياغة قرار حول نظام الحكم للفترة

الانتقالية السابقة للاستفتاء العام، وتشكيل حكومة مؤقتة لإدارة شؤون البلد أثناء الفترة الانتقالية، وتحديد طابع الاستفتاء، وتكليف السعودية ومصر مسؤولية الإشراف على تنفيذ مقررات المؤتمر. وكان ينبغي على السعودية أن توقف فوراً المساعدات العسكرية للملكيين اليمنيين، وتمنع استخدام أراضيها لشن عمليات عسكرية ضد اليمن الجمهوري. والتزمت مصر بسحب قواتها المسلحة من أراضي اليمن خلال عشرة أشهر ابتداء من 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1965. وتقرر إيقاف العمليات الحربية في اليمن وتشكيل لجنة مشتركة للتسوية السلمية من ممثلي البلدين(99).

ويبدو أنه تم في جدة التوصل إلى اتفاق حول عزل الرئيس اليمني عبد الله السلال والإمام البدر عن الحياة السياسية لفترة طويلة. ومما يؤكد هذه التوقعات أن السلال غادر إلى القاهرة والبدر إلى الطائف فور عقد الاتفاقية. وقد افتتح مؤتمر حرض في 23 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1965.

ومنذ أواخر عام 1965، بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا ببيع السعودية كميات من الأسلحة والطائرات النفاثة، الأمر الذي اعتبره عبد الناصر عملاً معادياً لمصر(100). في أوائل آذار (مارس) 1966، استأنف الملكيون العمليات الحربية، فأنهوا بذلك الهدنة التي تم الاتفاق عليها في جدة. ولم تكن العمليات العسكرية لمصر والجمهوريين موفقة، فأصبحوا محصورين في مثلث صنعاء _تعز _ الحديدة(101).

وفي 22 آذار (مارس) 1966، أعلن عبد الناصر عن نيته إبقاء القوات المصرية في اليمن حتى يتعزز الجيش الجمهوري إلى حد يؤهله للدفاع عن بلده(102). وفي أول أيار (مايو) 1966، أكد عبد الناصر مجدداً أن الجمهورية العربية المتحدة لن تقتصر على ضرب القواعد التي تستخدم ضد اليمن في نجران وجيزان، بل ستحتلها إذا واصلت السعودية عملياتها العدوانية ضد الجمهورية العربية اليمنية(103).

قام الملك فيصل بزيارة رسمية للولايات المتحدة لمدة ثلاثة أيام ابتدأت في 21 حزيران (يونيو) 1966. وعند حلول صيف 1966 كانت الأوساط الحاكمة في السعودية قد تمكنت من تحسين علاقاتها مع عدد من الأنظمة الملكية في العالم الإسلامي، وعقد اتفاقيات حول استلام أسلحة وأعتدة بريطانية وأمريكية.

تفاقمت الخلافات داخل الجمهورية العربية اليمنية، وفي آب (أغسطس) 1966 حاول رئيس وزرائها العمري الحيلولة دون عودة السلال من القاهرة التي كان بد أمضى فيها عشرة أشهر(104). وقد قمعت حركة العمري وعاد السلال إلى السلطة.

ظلت العلاقات السعودية المصرية في أوج التوتر. وفي 9 شباط (فبراير) 1967 أغلقت الحكومة السعودية فروع "بنك القاهرة" و بنك "مصر" في جدة. وأصدرت الحكومة المصرية بدورها مرسوماً يقضي بمصادرة كل الأموال المنقولة وغير المنقولة للملك فيصل وأفراد الأسرة الحاكمة في

مصر. ووضع الحجز على أموال 40 شركة سعودية و 31 من رعايا السعودية(105).

نهاية المجابهة مع مصر. أحدثت حرب حزيران (يونيو) 1967 وهزيمة مصر تغييراً جذرياً في الوضع داخل اليمن. فقد بدأت مصر منذ 12 حزيران (يونيو) سحب قواتها المسلحة _ 15 ألف شخص و 150 دبابة وكل المدفعية الثقيلة _ من هناك(106).

وفي ظروف التنامي المنقطع النظير لمشاعر العداء لإسرائيل في العالم العربي، اضطرت الصفوة السعودية الحاكمة إلى التضامن مع مصر بوصفها ضحية للعدوان الإسرائيلي، وذلك رغبة منها في الحفاظ على سمعتها في العالم العربي والاحتفاظ بالسلطة داخل البلد.

وفي 31 آب (أغسطس) 1967، وأثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي في الخرطوم، وقع الرئيس عبد الناصر والملك فيصل اتفاقية حول التسوية السلمية في اليمن. ونصت الاتفاقية على أن تسحب مصر كل قواتها من اليمن خلال ثلاثة أشهر، وتعهدت السعودية بوقف المساعدات للملكيين.

وفي مؤتمر الخرطوم قطعت الكويت والسعودية وليبيا وعداً بأن تقدم لمصر والأردن اللتين تضررتا أكثر من غيرهما نتيجة للعدوان الإسرائيلي، مساعدة سنوية مقدارها 135 مليون جنيه إسترليني، خصص 95 مليونا منها لمصر وأربعين مليونا للأردن. وتعهدت الكويت بدفع 55 مليون جنيه إسترليني والسعودية بدفع 50 مليوناً وليبيا 30 مليوناً(107).

غير أن السعودية حذرت من أنها لن تنفذ وعـدها إلى بعد إنجاز انسحاب القوات المصرة من اليمن.

وفي العاشـر من تشـرين الأول (أكتـوبر) 1967 أعلن أن القوات المصرية قد سُحبت كلها تقريبـاً من صنعاء، وإن آخـر وحـدة سـوف تغـادر الحديـدة في 9 كانون الأول (ديسمبر) 1967(108).

وضـع انسـحاب القـوات المصـرية الجمهوريـة العربيـة اليمنيـة في موقـف صـعب لأن السـعودية واصـلت تقـديم عـون كبـير للملكـيين، بمـا في ذلـك تدريب التشكيلات العسـكرية للقبائـل الـتي تـؤازرهم داخل أراضيها. وكانت اتفاقية الخرطوم الـتي وقعتهـا مصر بعد نكسة حزيـران تعـني حـل القضـية اليمنيـة وفـق الشـروط الـتي أملتهـا السـعودية عمليـاً. وأدى انســحاب القــوات المصــرية إلى تعقيــد أوضــاع الجمهوريين، وبخاصة الجناح اليساري التقدمي. وأدى ذلك بدوره إلى تزايد نشاط الملكيين المسـتندين إلى دعم الســعودية الــتي واصــلت نهج خنــق حركــة الجمهوريين اليمنيين(109).

العلاقـات بين السـعودية والجمهوريـة العربية اليمنية واليمن الجنـوبي (1967 _ 1973). أثـر توقيـع اتفاقيـة الخرطـوم جـرى في الجمهورية العربية اليمنيـة انعطـاف حـاد إلى اليمين. في الأول من تشـرين الثـاني (نوفمـبر) 1967 غـادر السـلال إلى بغـداد. وفي ليلـة الخـامس من الشـهر بسطت القوى اليمنية سيطرتها على صـنعاء والمـدن الأخـرى. وكـان مصـير السـلال قـد تقـرر بانسـحاب القوات المصرية من اليمن(110).

تسلمت مقاليد السلطة في البلـد فئـة إقطاعيـة وعشـائرية تسـعى للتعـاون مـع السـعودية والـدول الغربية. وفي 8 تشرين الثاني (نوفمـبر) 1967 أعلن رئيس الوزراء الجديد العيني أن حكومته موافقة على التفـــاوض مـــع ممثلي الملكـــيين، بمن فيهم عائلـــة الإمام، بشرط الإبقاء على النظام الجمهـوري(111).

وكـان مصـير سـلالة حميـد الـدين هـو الإشـكال المستعصـي بين المكـيين والزعمـاء الجـدد في الجمهورية العربية اليمنية.

انتقل الملكيون إلى الهجوم وطوقوا صنعاء. ولما أدرك الجمهوريون أن المسألة صارت مسألة حيـاة أو مـوت، شـرعوا في مطلـع كـانون الأول (ديسـمبر) بتشـكيل فصـائل المقاومـة الشـعبية من الطلاب والموظفين والعمـال والحرفـيين والتجـار. وبلـغ عـدد المتطوعين عشرين ألفاً فصـاروا ركـيزة في الـداخل الأمـر الـذي سـمح للجيش بتركـيز جهـوده على الجبهات، كما رفد بوحـدات من المتطـوعين. اسـتمر حصـار صـنعاء سـبعين يومـاً، وذاد الجمهوريـون عن العاصمة وأبعدوا الملكيين عنها وانتقلوا إلى الهجـوم (112).

ابتـداء من شـباط (فـبراير) 1969 لم تعـد السـعودية تصـر على عـودة الإمـام البـدر إلى اليمن. وطـرأت على معسـكر الجمهـوريين تبـدلات ترضـي الرياض.

وقـام رئيس الـوزراء العمـري بحـل فصـائل المقاومـة الشـعبية الـتي ذادت عن صـنعاء في شـتاء 1967 ـ 1968، وضمت أكثر الجمهوريين ثباتاً، وفي

أيار (مايو) 1968، قام رجال القبائل بتجريد الفصائل من السلاح. وقد قمعت محاولة الانقلاب التي قام بها الجمهوريون اليساريون، ونفي قائدها العسكري عبد الوهاب عبد الرقيب الذي قاد عملية الدفاع عن صنعاء طوال سبعين يوماً. وفي كانون الثاني (يناير) عام 1969، عاد عبد الرقيب إلى صنعاء وقام بمحاولة فاشلة أخرى لإزاحة العمري من منصب رئيس الوزراء، وقُتل(113).

وأصبح النظام الجمهوري المحافظ في الجمهورية العربية اليمنية خصماً لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، الأمر الذي كان من مصلحة فيصل، فقرر التخلي عن محاولات إعادة نظام الإمامة، وقلص المخصصات التي تمنح لعائلة حميد الدين.

توقفت العمليات الحربية في شمال اليمن في أواسط نيسان (إبريل) 1970، ونصت اتفاقية وقعتها السعودية والجمهورية العربية اليمنية في الشهر المذكور على تخلي الحكومة اليمنية عن العديد من التدابير التي لا ترضي الرياض. وبدأ "تطهير" الجيش وهيئات أمن الدولة في اليمن من العناصر اليسارية، وعاد من السعودية الكثير من الملكيين الذين تبوأ عدد منهم مناصب في هيئات السلطة العليا(114).

في 23 تموز (يوليو) 1970، اعترفت السعودية رسمياً بالجمهورية العربية اليمنية(115)، وأعقبت ذلك اعتراف بريطانيا بها في 29 من الشهر نفسه(116). وفي مطلع آذار (مارس) 1971، وقعت الجمهورية العربية اليمنية والسعودية اتفاقية حول الدفاع المشترك(117).

قـام رئيس وزراء الجمهوريـة العربيـة اليمنيـة الحجري بزيـارة إلى الريـاض في آذار (مـارس) عـام 1973. ونص بلاغ سـعودي يمـني مشـترك صـدر في 18 آذار على أن الحدود بين البلـدين "ثابتـة ونهائيـة" على الرغم من أن معاهدة الطائف المعقودة في 20 آذار (مـارس) 1934 بين الملـك أبن سـعود والإمـام يحـيى قـد ذكـرت أن اليمن وافـق على وضـع عسـير ونجـران وجـيزان "تحت إشـراف" السـعودية. كـانت فـترة المعاهـدة 20 سـنة، وفي عـام 1953 وافـق الإمام أحمد على تمديد مفعولها لعشرين سنة أخرى. وهكذا فعنـدما دنـا عـام 1973 موعـد انتهـاء مفعـول المعاهدة، حصلت السعودية على تنازل هـام جـداً من الجمهورية العربية اليمنية، بحملها على الاعتراف بأن عسـير ونجـران وجـيزان قـد أصـبحت من أراضـي السعودية بشكل نهائي(118). ظل النفوذ السـعودي هـو السـائد في الجمهوريـة العربيـة اليمنيـة خلال السـبعينات. وأدى التقـارب مـع الريـاض إلى تحسـن علاقات اليمن الشمالي بالولايات المتحـدة وبريطانيـا وألمانيـا الغربيـة، وإلى إضـعاف روابـط التعـاون مـع الاتحاد السوفييتي.

كان اهتمام السعودية في منطقة جنوب الجزيرة متمركـزاً في الأسـاس على اليمن الشـمالي في السـتينات. ولكن الأمـور تغـيرت بحصـول اليمن الجنوبي على الاستقلال عام 1967. وبمـا أن العائلـة الحاكمة السعودية اعتبرت شبه الجزيرة بأكمله دائرة لنفوذها، فقد كانت راغبة في المساهمة في اقتسـام التركة الاستعمارية البريطانية، خصوصاً وأن بريطانيـا

لم تعارض توطد النفوذ السعودي في مستعمراتها السابقة ورأت الأوساط البريطانية الحاكمة في النظام الملكي السعودي خير حليف لها في شبه الجزيرة.

لا يستبعد أن تكون الرياض قد خططت لإنشاء اتحاد تابع للسعودية عوضاً عن محميات عدن الشرقية، بل لعلها كانت ترغب حتى في إيجاد منفذ مباشر للمملكة إلى المحيط الهندي. كما كان من المزمع أن تقدم السعودية مساعدة مالية لاتحاد جنوب الجزيرة المكون أساساً من إمارات محمية عدن الغربية التي كان الحكام البريطانيون يعتزمون أن يُسَّلموا حكومتها مقاليد السلطة بعد انسحابهم من جنوب اليمن(119).

أبان المرحلة الأخيرة، وحينما تضافر النضال في سبيل الاستقلال الوطني مع النضال في سبيل التحولات الاجتماعية، اضطر الكثير من الإقطاعيين للهرب إلى السعودية حتى قبل إعلان استقلال اليمن الجنوبي. وتسلمت مقاليد السلطة في جنوب اليمن الجبهة القومية للمنظمات اليسارية ذات الطابع الثوري الاستبدادي. أما رابطة الجنوب العربي وهي المنظمة السياسية للإقطاعيين، فقد اعتبرت غير شرعية، ونقلت نشاطها بأكمله تقريباً إلى السعودية. وكانت هناك منظمة أخرى مالت تدريجياً إلى السعودية، وهي جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل، انتقلت إلى الجمهورية العربية اليمنية حيث اتخذت من تعز مقراً لها.

استغلت السعودية المصاعب الاقتصادية لجنوب اليمن والخلافات داخل الجبهة القومية واستياء القوى اليمنية، لافتعال عصيانات ضد الحكومة. وفي صيف 1968 حدثت حركات عصيان في حضرموت وبيحان ومناطق أخرى. واشتد التدخل السعود أثر 22 حزيران (يونيو) 1969، بعد أن تسلم مقاليد السلطة في جنوب اليمن الجناح اليساري للجبهة القومية الذي سار بالبلد في طريق التحولات الاجتماعية السياسية على غرار التحولات السوفييتية.

في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1969 هاجمت وحدات من الجيش النظامي السعودي نقطة الوادي في حضرموت على الحدود بين السعودية وجنوب اليمن. وقد صدت القوات المسلحة في اليمن الجنوبي الهجوم وردت السعوديين على أعقابهم، غير "أن اشتباكات الحدود استمرت(120)

ساهمت السعودية في إنشاء ما يسمى بـ "جيش الإنقاذ الوطني" من المعارضين الذين فروا من اليمن الجنوبي، على أراضيها المتاخمة لحدود هذا البلد. وجرت محاربة حكومة الجبهة القومية تحت شعار "إنقاذ البلد من نفوذ الشيوعية الحمراء". وفي 25 شباط (فبراير) 1971، اتحدت جبهة تحرير جنوب اليمن ورابطة الجنوب العربي فشكلتا منظمة القوى الوطنية لجنوب اليمن وانبثقت عنها "لجنة إنقاذ جنوب اليمن" التي أقامت صلات مع "جيش الإنقاذ الوطني". وكانت هذه المنظمات تمول من قبل السعودية وتحظى مساندة سلطات الجمهورية العربية اليمنية. وقد تسللت فصائلها المسلحة مراراً

إلى أراضي جنوب اليمن في عامي 1971و 1972 (121).

انعقد في آذار (مارس) عام 1972 المؤتمر الخامس للجبهة القومية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية _ وهو الاسم الجديد للدولة _ وانبثق عن المؤتمر التنظيم السياسي _ الجبهة القومية. وأعلن المؤتمر عن سعي التنظيم للاستناد في نشاطه إلى مبادئ الاشتراكية العلمية وتشكيل حزب طليعي من طراز جديد. وصار عداء الرياض للقيادة الماركسية في اليمن الجنوبي يتخذ صبغة إيديولوجية واضحة المعالم.

وجرت في أيلول (سبتمبر) 1972، حرب حدود واسعة النطاق بين اليمنيين، ولكن البلدين اتفقا على إنهاء العمليات الحربية في 29 تشرين الأول (أكتوبر)، إي بعد شهر تقريباً من بدئها(122).

ولما تيقنت السعودية من استحالة إسقاط النظام اليساري في جنوب اليمن بالقوة، أقامت معه علاقات دبلوماسية، ولكنها لم تحد عن مواقع العداء لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

العلاقات السعودية البريطانية في الستينات ومطلع السبعينات.في كانون الثاني (يناير) 1963، وافقت السعودية على إحالة قضية البريمي إلى الأمم المتحدة واستأنفت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا(123). وقد أرغمت الرياض ولندن على القبول بحلول وسط بفعل ثورة اليمن عام 1962 وتنامي حركة التحرر الوطنية في شبه الجزيرة العربية بأكمله.

كمـا أخـذ يتغـير طـابع العلاقـات البريطانيـة الأمريكية في شبه الجزيـرة العربيـة. وصـار التعـاون يحـل تـدريجياً محـل المقاومـة الأمريكيـة لمحـاولات بريطانيا استعادة مواقعها في السعودية.

وفي كـانون الأول (ديسـمبر) 1965، عقـدت الولايـات المتحـدة وبريطانيـا اتفاقيـة مـع السـعودية الـتزمت بموجبهـا بريطانيـا تصـدير طـائرات نفاثـة وأجهزة رادار ومعدات عسكرية أخـرى إلى المملكـة، بلغت قيمتهـا الإجماليـة 280 مليـون دولار، بينمـا التزمن الولايـات المتحـدة بتصـدير صـواريخ "أرض ـ جو" بمبلغ 70 مليون دولار. وخطـط لإقامـة صـواريخ في عدة نقـاط على الحـدود مـع الجمهوريـة العربيـة اليمنية. وقد يبدو للوهلة الأولى أن احتكارات الصناعة الحربية البريطانية انـتزعت من منافسـيها الأمريكـان صفقة مربحة للغايـة. أمـا في الواقـع فقـد كـان ذلـك "اتفـاق أحبـاب" يقضـي بـأن تشـتري بريطانيـا من الولايـات المتحـدة طـائرات أحـدث، وتسـدد قيمتهـا بـالأموال الـتي كسـبتها من بيـع معـدات حربيـة إلى السعودية(124).

قام الملك فيصل بزيارة لبريطانيا في أيار (مايو) 1967، وكان ذلك دليلاً على حدوث تحسن محسوس في العلاقـات بين البلـدين. وبعـد أن بـدأت بريطانيـا بتصـدير طـائرات حربيـة من طـراز "لايتـنينغ" عـام 1966، أخذت تعد الكوادر لسلاح الطيران السعودي. وأوفد إلى السعودية أكثر من ألـف مـدرب بريطـاني، بينما قبل سعوديون في المعاهد الحربيـة البريطانيـة. وابتداء من عام 1963 اسـتأنف البريطـانيون تـدريب

الحرس الوطني. واشترت المملكة في الستينات والسبعينات 25 مقاتلة نفاثة بريطانية الصنع من طراز "سترايك ماستر"، ووقعت عام 1970 صفقة عسكرية أخرى تنص على شراء معدات للدفاع الجوي من بريطانيا.

في مطلع أيار (مايو) 1973 وقعت الرياض ولندن صفقة قيمتها 250 مليون جنيه إسترليني لشراء أصناف جديدة من الأسلحة وطائرات وصواريخ. وتعهد البريطانيون بإرسال الطائرات وإيفاد زهاء ألفين من الفنيين والمستشارين والمدربين. وقد تدرب على يد البريطانيين آنذاك منتسبو سلاح الطيران السعودي ابتداء من الطيارين الذين تلقوا تعليمهم في المدرسة العليا بالرياض وانتهاء بالفنيين الشباب من معهد الأعداد الفني في الظهران(125).

غير أن الوفاق البريطاني الأمريكي في مجال تصدير الأسلحة لم يدم أمداً طويلاُ. ففي السبعينات صارت سوق السلاح السعودية المغرية مسرح تنافس ضار بين احتكارات الصناعة الحربية الأمريكية والبريطانية.

قضايا الخليج. شهدت فترة الستينات ومطلع السبعينات تزايداً حاداً في نشاط الدبلوماسية السعودية في بلدان حوض الخليج، وبخاصة في إمارات الجزيرة. وكان لذلك عدة أسباب. ففي تلك الفترة تعاظم دور إيران الشاهنشاهية وجبروتها ونفوذها، وكانت السياسة السعودية إزاءها تقوم على الجمع المعقد بين التعاون والتنافس. وقد حددت

بريطانيـــا خطـــة لجلاء قواتهـــا من منطقـــة الخليج وشــرعت بتنفيــذها، وفي هــذه المــرة أيضــاً كــانت السعودية من الطـامعين بــ "التركـة البريطانيـة" مـع مراعـاة المخططـات الاسـتراتيجية الأمريكيـة الـتي كانت تفرد لحوض الخليج أهمية متعاظمة.

يقول السـفير الأمـريكي السـابق في السـعودية سـلايفان: "إن السـعودية كـانت تعتـبر، بشـكل غـير مباشر، إن كل الدول المتاخمة لها، باسـتثناء العـراق، هي ضمن دائرة نفوذها. ولئن كانت تحجم في الفترة الأولى عن التدخل في النزاعات الجاريـة خـارج هـذه الحـــدود، فـــذلك لأنهـــا لم يكن بوســـعها المســـاس بالمصالح الحيوية الهامة للسعودية"(126).

جرى في أواسط الستينات تقارب بين السعودية وإيران بوصـفهما نظـامين ملكـيين لهمـا مصـلحة في قمع الحركات الثورية في الشرقيين الأوسـط الأدنى، وخصوصاً في حوض الخليج، لمجابهة مصر التي كانت آنذاك قائـد السياسـة المناوئـة للملكيـة والغـربي في المنطقـة. وقـدم العـاهلان، بـدرجات متفاوتـة، دعمـا للملكـيين في اليمن. وفي عــام 1965، أيــد الشــاه فكـرة "الحلـف الإسـلامي" الـتي طرحهـا فيصـل. وتضافرت جهود الرياض وطهران في المساعدة على أحداث انعطاف جـذري في سياسـة مصـر بعـد وفـاة جمال عبد الناصر. وحتى بداية السبعينات صار لاتفاق طهران والرياض في إطار الأوبك الكلمـة الفصـل، إذ كـانت حصـتهما من صـادرات النفـط الإجماليـة تربـو على النصف. وعلى الرغم من أن الشاه أتخـذ، قـولاً، موقفــاً أكــثر تشــدداً في مجــال الأســعار، إلى أن

العاهلين كانا يجدان الحلول الوسط، وتزعما معسكر "المعتدلين" في أوبك.

إما قي حوض الخليج فإن السعودية، التي كانت قدرتها العسكرية تقل خمس مرات أو أكثر عن القدرة الإيرانية، ظلت تنظر بكثير من الخوف لخطط ونشاطات طهران "الإمبراطورية"، ولكنها لم تصل بالأمور قط إلى حد النزاع أو الاشتباك. وكان حكام الدول الصغيرة المطلة على الخليج في الجزيرة العربية يناورون بين جارتيهم القويتين.

في كانون الثاني (يناير) 1968، قررت حكومة حزب العمال البريطانية إبطال مفعول المعاهدات المعقودة حول محميات البحرين وقطر وإمارات ساحل الصلح البحري السبع (أبو ظبي وعجمان ودبي والفجيرة ورأس الخيمة والشارقة وأم القيوين) وسحب جزء كبير من قواتها من هناك. وفي أول آذار (مارس) 1971، أعلنت حكومة المحافظين التي استلمت مقاليد الحكم في حزيران (يونيو) 1970 أن الجلاء سوف ينجز قبل نهاية عام 1971(127).

اتخذت لندن هذا القرار وأخذت تبحث بنشاط عن فرص للحفاظ على نفوذها الاقتصادي والسياسي في المنطقة. ولهذا الغرض طرحت خطة إنشاء اتحاد من الإمارات التسع التي كانت خاضعة للحماية البريطانية.

بيد أن إيران عارضت انضمام البحرين إلى الاتحاد العربي، وأعلنت أنها تعتبرها جزءاً من أراضيها. وكانت للملك فيصل علاقات ودية مع أمير البحرين ورفض مطامع إيران في الإمارة. كما كانت

إيــران والســعودية على خلاف في قضــايا أخــرى. وذكـرت مجلـة "إيكونومسـت" البريطانيـة أن شـاه إيران حاول استمالة الملك فيصل إلى إتبـاع سياسـة موحدة على نحو أوسع نطاقا في منطقة الخليج، بمـا في ذلك إقامة تعاون عسـكري يجعـل السـعودية في وضع تابع لإيران(128). وقد آثر فيصل، بسبب ضعفه عسكريا، استثمار المساعدة الماليـة كوسـيلة لتعزيـز النفــوذ الســعودي في الإمــارات الصــغيرة بشــبه الجزيرة.

واتفـق فيصـل مـع الشـاه في مفاوضـات عـام 1968 على تـدقيق حـدود الجـرف القـاري. وفي 24 تشرين الأول (أكتـوبر) عـام 1968 وقعت السـعودية وإيران اتفاقيات بهذا الخصوص.

أعلن شاه إيران في ربيع 1971 أن بلاده تتحمل مسؤولية الدفاع عن الخليج بعد انسحاب البريطانيين من هنـاك(129). واعـتزمن إيـران تثـبيت سـيطرتها على الخليج عسكريا دون إقامة اعتبار لرأي العرب.

أخفقت فكرة إنشاء اتحاد من تسع إمارات. فقـد سعى أمـيرا البحـرين وقطـر إلى الاسـتقلال، كمـا أن الحكومــة الإيرانيــة عاضــرت عمليــاً إنشــاء اتحــاد "الإمارات التسع". لذا قررت بريطانيـا تأسـيس دولـة جديدة تضم إمارات ساحل الصلح السبع، حيث كـانت الكلمـة الطـولى لشـيخ أبـو ظـبي زايـد الـذي خاصـم السعودية بسبب النزاع على البريمي.

وفي 14 آب (أغسطس) 1971، أعلنت البحرين استقلالها، وأعقبتها قطـر في 1 أيلـول (سـبتمبر) من العـام نفسـه، ورفض البلـدان الانضـمام إلى الاتحـاد.

وأرغم ذلك السعودية على البحث عن حل وسط مع أبو ظبي لتسوية النزاع على البريمي.

بعد إعلان استقلال البحرين، تخلت إيران شكلياً عن مطامعها في هذه الأمارة. لذا خفت حدة الخلافات بين الشاه والملك فيصل. غير أن خطط إيران في منطقة الخليج لم تقتصر على البحرين.

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1971، عقدت اتفاقية بين إيران وإمارة الشارقة ملّكت إيران عملياً جزيرة أبو موسى التي ظلت من الناحية الشكلية جزءاً من الأمارة. وحصلت إيران على حق إقامة قاعدة عسكرية في الجزيرة على أن تدفع مقابل ذلك لشيخ الشارقة 1.5 مليون جنيه إسترليني سنوياً، ويستمر الدفع لحين بلوغ دخل الشيخ من النفط 3 ملايين جنيه إسترليني سنوياً(130).

وقد أخفقت محاولات إيران لحمل شيخ رأس الخيمة على التخلي عن حقوقه في جزيرتي الطمب الكبرى والطمب الصغرى الهامتين استراتيجياً والواقعتين في مضيق هرمز عند مدخل الخليج. ولكن حينما أعلنت بريطانيا في 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1971 إنها لم تعد تتحمل مسئولية الدفاع عن إمارات ساحل الصلح البحري، أدخلت إيران قواتها إلى هاتين الجزيرتين، كما هي الحال بالنسبة لجزيرة أبو موسى ويبدو أن طهران ولندن توصلتا إلى اتفاق حيال هذه العمليات. وانتقاماً من بريطانيا لمساندتها إيران في احتلال الجزر، أممت ليبيا ممتلكات "شركة النفط البريطانية" وسحبت ودائعها من البنوك البريطانية. واتهم العراق بريطانيا وإيران بالتواطؤ

وقَطَعَ العلاقات الدبلوماسية معهما. كما نددت الكويت وسوريا باحتلال إيران للجزر. وفي الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1971 طالبت مصر بسحب القوات الإيرانية من الجزر الثلاث، ولكنها لم تمض أبعد من ذلك(131).

لقد كان الاستيلاء على الجزر الثلاث ضربة لمصالح السعودية لأنه عزز إلى حد كبير مواقع إيران في الخليج، ولكن السعودية لم تشجب رسميا سياسة الشاه التوسعية(132). ويمكن التكهن بأن السعودية كانت تشعر بأنها لا تمتلك ما يكفي من القوة للدخول في مجابهة صريحة مع إيران.

في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) 1971، أعلن عن انبثاق دولة الإمارات العربية المتحدة من أبو ظبي ودبي والشارقة والفجيرة وعجمان وأم القيوين، ثم انضمت أليها رأس الخيمة. وعقدت بريطانيا معاهدة صداقة جديدة مع الإمارات. وصار زايد شيخ أبو ظبي رئيساً للاتحاد وأصبح حاكم دبي الشيخ راشد نائباً للرئيس.

لم تقم السعودية طوال سنوات علاقات دبلوماسية رسمية مع دولة الإمارات بسبب خلافها على الأراضي مع أبو ظبي وهو العضو الأكثر نفوذاً في الدولة. بيد أن ذلك لم يمنع من اتخاذ السعودية موقفاً متعاطفاً إزاء الإمارات. وأيد فيصل دولة الإمارات العربية المتحدة عند انتمائها إلى هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. وجرت مفاوضات غير رسمية حثيثة بين السعودية والدولة الجديدة وسائر بلدان شبه الجزيرة العربية. وحاولت الحكومة

السعودية إلا تعطي المبادرة السياسة لإيران التي اعترفت بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ تشرين الأول (أكتوبر) 1972.

أقام فيصل علاقات دبلوماسية مع سلطنة عمان بعد الزيارة التي قام بها السلطان قابوس إلى السعودية في 14 كانون الأول (ديسمبر) 1971 (133). وبعد مرور فترة من الزمن ـ في تشرين الأول (أكتوبر) 1974 ـ سوت السعودية خلافها مع أبو ظبي حول عائدية منطقة اللواء وواحة البريمي، مما مهد الطريق لاعتراف الرياض بدولة الإمارات العربية المتحدة(134).

صار للسعودية نفوذ كبير في الدولة الجديدة، وبدأت تقدم عونا مالياً كبيراً للإمارات غير النفطية. واعتمد عدد من الإمارات على السعودية، في محاولة لمنع التنامي الخطير للنفوذ الإيراني.

سعى كل من فيصل والشاه، على الرغام من تناقضاتهما، لقمع الحركة الثورية في منطقة الخليج. وعلى الرغم من أن السعودية كانت مهتمة في تعزيز نفوذها في عمان ذات الموقع الإستراتيجي الهام والتي تجمعها بها حدود مشتركة، فإن فيصل أبدى تحفظاً عندما طلب منه السلطان قابوس العون حينما بلغت حركة الثوار في ظفار أوجها. ولم يكن التدخل السافر في شؤون عمان متماشياً مع طابع سياسة فيصل. ولكن من جهة أخرى تغاضت الحكومة السعودية عملياً عن التدخل الإيراني في عمان. ومنذ نيسان (إبريل) عام 1973، بدأت هليكوبترات ووحدات برية إيرانية تشارك مشاركة

فعالة في المعارك على أراضي ظفار. وبعد ذلك نقلت إلى عمان تشكيلة عسكرية إيرانية كاملة قوامها بضعة آلاف شخص.

واستمرت العمليات العسكرية للقوات الإيرانية بضع سنوات. وقد توقفت الجبهة الشعبية لتحرير عمان، وهي منظمة يسارية ماركسية عن الكفاح المسلح عملياً. وقد شجبت الحكومة السعودية بعبارات غامضة تصرفات إيران وعارضت "التدخل الأجنبي" في السلطنة، موجهة احتجاجها عملياً ليس ضد الغزو الإيراني، بل ضد القوى التي ساعدت الجبهة الشعبية لتحرير عمان(135).

السعودية في الشؤون العربية من مؤتمر الخرطوم عام 1967 حتى حرب أكتوبر عام 1973. تم خلال مؤتمر الخرطوم وضع وإقرار مبادئ تنسيق سياسة الدول العربية، وخصوصاً فيما يخص التسوية في الشرق الأوسط. وضعت في الخرطوم صيغة اللاءات الثلاث المعروفة المعبرة عن الموقف العربي المشترك حيال إسرائيل "لا صلح، لا مفاوضات مباشرة، لا اعتراف"، والتي تمسكت بها طوال سنوات جميع الدول العربية بما فيها مصر والسعودية.

استأنفت السعودية العلاقات الودية شكلياً مع مصر عبد الناصر، بعد تقديم تنازلات ملموسة من قبل القاهرة. ولم يعد تناسب القوى كما كان في أواسط الخمسينات. وأخذت السعودية تتحول من بلد غارق في الديون إلى مصدر للرساميل ومعين لتقديم المساعدة المالية لدول المجابهة العربية. وبإسهام

أمريكي وبريطاني، عززت السعودية قواتها المسلحة المجهزة تجهيزاً جيداً، وأن كانت قليلة العدد. وكان على مصر التي استنزفتها حرب اليمن وهزمتها إسرائيل، وفقدت شبه جزيرة سيناء وعوائد قناة السويس، إن تركز كل جهودها على استعادة قدرتها الدفاعية وتتبع سياسة خارجية أكثر تحفظاً وتقدم تنازلات اضطرارية للسعودية.

غير أن "الوفاق" مع القاهرة كان اضطرارياً للرياض أيضاً، لأن فيصل لم يعتبر قط الرئيس عبد الناصر حليفاً له، ولم يشاركه آراءه. وعلى الرغم من هزيمة العرب في حرب 1967، فإن العمليات الثورية في بلدان الشرق الأوسط لم تخفت. وتدل على ذلك الانقلابات الثورية في ليبيا والسودان ومحاولات الانقلاب في السعودية نفسها وتنامي حركة المقاومة الفلسطينية. ولذا فأن السعودية لم تبخل بالقوى والمال لدعم النزعات اليمينية في مصر وتعزيز النظام الملكي في الأردن.

أرسل إلى جنوب الأردن لواء سعودي قوامه ثلاثة آلاف شخص. وكان اللواء بعيداً عن الجبهة مع إسرائيل، ولكنه قريب بما فيه الكفاية لمساندة الملك حسين. ومن الواضح أن فيصل اعتبر الأردن دولة حاجزة تفصله عن إسرائيل. وعمل فيصل باستمرار على حث الولايات المتحدة وبريطانيا لمساندة الملك حسين(136).

في أيار (مايو) 1970، أحدث جرار عطلاً في أنابيب التابلاين في الأراضي السعودية. وكان هذا بمثابة حافز لنزاع سوري سعودي كان يؤدي إلى

قطع العلاقات وإلى حرب في التجارة والترانزيت(137). ولكن بعد استلام حافظ أسد مهمات الرئاسة في أواخر عام 1970، استؤنفت العلاقات بين دمشق والرياض وسويت الخلافات فيما بينهما.

ظل الرئيس عبد الناصر الشخصية المحورية في العالم العربي على الرغم من هزيمة 1967. وتزايدت التناقضات بين القاهرة والرياض مع استعادة مصر لقدرتها العسكرية. ولم يتمكن المشاركون في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الرباط في كانون الأول (ديسمبر)1969، حتى من صياغة بيان مشترك. وأفهم عبد الناصر أنه ليس بوسعه أن يأمل في زيادة المساعدة المالية التي كان يتلقاها من السعودية وليبيا والكويت بموجب قرار مؤتمر الخرطوم في آب (أغسطس) 1967 (138).

تغير الوضع بعد وفاة عبد الناصر في 28 أيلول (سبتمبر) 1970. فقد صعد الملك فيصل فوراً نشاطه في الصراع من أجل تزعم العالم العربي. وكان من مصلحته أن تتوطد مواقع القوى اليمينية المصرية التي تخلت، خطوة فخطوة، عن مواصلة النهج الناصري. وكانت واشنطن الطامحة إلى استعادة مواقعها المهتزة في العالم العربي بسبب دعمها لإسرائيل، تأمل في أن تكون السعودية وسيطاً لمد الجسور إلى كبريات البلدان العربية وفي مقدمتها مصر التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة عام 1967. وكان الرئيس المصري الجديد أنور السادات مهتماً بالتقارب مع السعودية،

آملاً في زيادة المساعدة المالية. وحينما زار الملك فيصل مصر في حزيران (يونيو) 1971 استقبل استقبالاً حافلاً. وترضية للضيف السعودي أطلق السادات سراح "الإخوان المسلمين". ومنحت السعودية مصر ثلاثين مليون جنيه إسترليني، ووعدت بزيادة العون المالي والسنوي والإلغاء التقييدات المفروضة على زيادة رعاياها لمصر(139).

توطدت علاقات السعودية بنظام السادات، وساعدت على ذلك سياسة التخلي عن النهج الناصري داخل مصر وخارجها، وهي سياسة تعزى في المقام الأول إلى أسباب داخلية، ولكن الأموال السعودية عملت على تشجيعها. في فترة 1970 - 1973 أقصي الكثيرون من أوفى أنصار عبد الناصر من مناصب حكومية وحزبية هامة. وظهرت العلائم الأولى لسياسة "الانفتاح" الاقتصادي قبل حرب 1973، ممهدة الطريق تدريجياً لنمو النزعات الرأسمالية.

بالرغم من وجود معاهدة الصداقة والتعاون السوفييتية المصرية المعقودة في 27 أيار (مايو) 1971، قام السادات في تموز (يوليو) 1972 بعمل غير ودي خطير إزاء الاتحاد السوفييتي، إذ طالب باستدعاء الخبراء السوفييت من مصر.

وقد تم أثناء زيارة الملك فيصل إلى القاهرة في أيار (مايو) 1973 الاتفاق على أن تعتمد السعودية مبلغ 250 مليون جنيه إسترليني لإعادة تسليح الجيش المصري. وكان من المؤهل أن تتحمل الكويت وأبو ظبي وقطر جزءاً من المبلغ. وحث

الملك فيصل الرئيس السادات على تنويع مصادر السلاح، في محاولة لتقويض التعاون العسكري السوفييتي المصري(140). ولكن مثل هذا الانعطاف في السياسة المصرية ما كان يمكن أن يحدث قبل حرب أكتوبر. فلم يكن بوسع مصر، وهي تستعد لخوض حرب ضد إسرائيل، أن تبدأ إعادة تجهيز جيشها حتى وإن وجدت مصدر آخر للسلاح، لأن ذلك كان سيؤدي إلى فقدان قدرتها القتالية.

لقد ساعد التقارب المصري السعودي على تقوية منهج السادات في القطيعة مع الاتحاد السوفييتي والتوجه التام صوب الولايات المتحدة الأمريكية.

"الحلف الإسلامي". في أواسط الستينات اقترنت السياسة الخارجية المناوئة للغرب (الإمبريالية) في عدد من الأقطار العربية بإصلاحات داخلية ذات صفة اشتراكية وتوجهات نحو البحث عن بنى اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة. وكانت مصر الرائدة على هذا الطريق في الستينات.

وأصبحت السعودية التي صارت منذ بداية الستينات في قلب الأحداث السياسية في الشرق الأوسط، المركز الرئيسي المجابهة مصر عبد الناصر. وشرعت الصفوة الحاكمة السعودية، في محاولة لتقويض نفوذ مصر وسوريا وغيرهما، بالبحث عن سبل وأساليب لرص صفوف البلدان ذات الأنظمة المحافظة "المعتدلة" وكانت فكرة دالاس حول إنشاء أحلاف عسكرية تساهم فيها الدول الغربية قد بلغت من سوء السمعة دركاً سحيقاً بحيث

لم تجر حـتى محاولـة بعثهـا. وكـان النظـام الملكي لا يحظى بشعبية في غالبية البلدان. وبغية رفع شعارات جذابـة لمواجهـة فكـرة القوميـة العربيـة والتضـامن العربي المقـترن بالـدعوة إلى التحـولات الاجتماعيـة، توجهت السعودية إلى الإسلام.

إن تأثير الإسلام الهائـل لم يخفت حـتى في دول علمانية "متحدثة" مثـل تركيـا، وفي أواخـر السـتينات وأوائل السبعينات بدأت عملية "الانبعاث الإسـلامي". وكـانت الغالبيـة السـاحقة من الجمـاهير في البلـدان العربيـة تـرى في التقاليـد والعـادات والمؤسسـات الإسلامية شـكلاً طبيعيـاً لوجودهـا الاجتمـاعي ووعيهـا الاجتماعي، وكـان بالإمكـان اسـتثمار الـدين لأغـراض معادية للغرب أو مناهضة للسوفييت على حد سـواء. ومن البديهي أن يرى النظـام السـعودي في الإسـلام أداة لمحاربة خصومه داخل البلد وخارجه.

طـرح الملـك فيصـل خطـة تأسـيس "الحلـف الإسـلامي" آملاً في جعلـه نقيضـاً للجامعـة العربيـة. وحظيت مبـادرة فيصـل بتعـاطف واشـنطن ولنـدن اللتين كانتا، تقليدياً، تعتبران الدين حـائلاً دون انتشـار الأفكار الاشتراكية والشيوعية.

زار الملـك فيصـل إيـران في كـانون الأول (ديسمبر) 1965. وأثناء مفاوضاته هنـاك اقـترح لأول مـرة علنـاً عقـد مـؤتمر قمـة إسـلامي وأيـد الشـاه الفكرة. وفي 31 كـانون الثـاني (ينـاير) 1966، أعلن الملك فيصل في عمان أثناء زيارتـه الرسـمية للأردن أنه سوف تشكل لجنة إسلامية للتحضير لمؤتمر قمـة إسلامي(141).

جابه فيصل مصاعب منذ الخطوات الأولى. فقد أثار تأييد فكرة "الحلف الإسلامي" من قبل الشاه، عدو عبد الناصر وصديق إسرائيل، مخاوف حتى لدى العديد من الملوك العرب. وفي خاتمة المطاف لم يوافق على عقد المؤتمر الدول الإسلامية أحد باستثناء إيران والأردن، أما البلدان الأخرى فقد عارضت مبادرة فيصل(142).

في 22 شباط (فبراير) 1966، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب ألقاه باجتماع جماهيري في جامعة القاهرة أن الإمبريالية والرجعية تقومان بتأسيس الحلف الإسلامي، وإنه على غرار حلف بغداد والأحلاف السياسية السابقة، موجه ضد حركات التحرر الوطني(143).

شجب فكرة "الحلف الإسلامي" بصيغ مختلفة كل من الجزائر والجمهورية العربية اليمنية والعراق وسوريا والكويت والعديد من البلدان الإسلامية في آسيا وأفريقيا، وعدد من المنظمات العربية والدولية. وتنصل من الفكرة حتى حلفاء إيران في حلف السنتو، فترتب تأجيلها. وحينذاك لجأت السعودية إلى عقد مؤتمرات إسلامية على مستويات مختلفة(144).

أدت الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967 إلى بعث خطط تقارب الدول الإسلامية ولكن على أساس جديد تماماً مهد له تسارع عملية "الانبعاث الإسلامي". فقد شجبت كل البلدان النامية، بصرف النظر عن أنظمتها، احتلال أراض عربية بالقوة، واعتبرت تصرفات إسرائيل صدى للاستعمار القديم

بأسوأ أشكاله: تهجير السكان الأصليين من أراضيهم وإسكان مستوطنين مكانهم. فقد اعتبرت العمليات الإسرائيلية سابقة خطرة حتى من قبل الدول التي بدا إنها بعيدة عن فلسطين ونزاع الشرق الأوسط. وكان حكام البلدان التي يشكل المسلمون أغلبية سكانها يراعون المشاعر الدينية للجماهير التي اعتبرت احتلال إسرائيل لشرقي القدس والمسجد الأقصى تدنيساً للإسلام، أما النظام السعودي القائم على الوهابية والذي يعتقد أحكام الشريعة وينادي بـ "نقاء" الإسلام ويفتخر بأن بلاده مهد الإسلام وأنه حامي الحرمين، فما كان بوسعه الاعتراف باحتلال شرقي القدس دون أن يقوض أسس وجوده نفسها. وكان تهجير الفلسطينيين من وطنهم يعني إدخال عنصر بلبلة ستمثل في تواجدهم في البلدان التي حطوا رحالهم فيها، وبينها بلدان تحكمها أنظمة ملكية، ويعزز النزعات الثوري. أما احتلال إسرائيل لسيناء والضفة الغربية فقد كان يعني اقترابها جغرافياً من السعودية. ولكي يلعب الملك فيصل دور الزعيم العالم العربي ويزيد من وزنه ونفوذه في العالم الإسلامي، ويدافع عن المصالح الرسمية للسعودية، كان عليه أن يتخذ موقفاً أكثر وضوحاً في معاداة إسرائيل، وأن تغدو نداءاته "التضامن الإسلامي" موجهة ضد خصم محدد.

في آب (أغسطس) عام 1969، أحرق المسجد الأقصى، فدعا الملك حسين إلى عقد مؤتمر لرؤساء الدول والحكومات العربية لتدارس الوضع،ولكن الملك فيصل اقترح عقد مؤتمر قمة إسلامي(145).

أضطر عبد الناصر لتأييد نداء الملك فيصل، وأن لم يكن مهتماً على ما يبدو بانعقاد المؤتمر ولم يحضر شخصياً. ولم تؤيد تركيا ونيجيريا دعوى الملك فيصل وأعلنتا أنهما دولتان علمانيتان. كما إن إيران أبدت في البداية تحفظاً وقررت دراسة الوضع وأهداف عقد المؤتمر بمزيد من الدقة والتمحيص(146).

انعقد مؤتمر القمة الإسلامي في أيلول (سبتمبر) عام 1969 في الرباط غير أن الخلافات الجدية بين أعضائه، وبالدرجة الرئيسية بين الدولتين العربيتين المتنفذتين _مصر والسعودية_ قللت من أهمية المؤتمر. وقبل بضعة أيام من افتتاح المؤتمر أطيح بالملك الليبي في أول أيلول (سبتمبر) عام 1969، مما أضعف إلى حد كبير مواقع الأنظمة الملكية في "العالم الإسلامي". وجابه النظام السعودي أيضاً اختبارات عسيرة. فقبل أيام من افتتاح مؤتمر الرباط اعتقل في السعودية أشخاص اتهموا بالأعداد لمؤامرة زعم أنه حدد يوم السابع من أيلول (سبتمبر) 1969 موعداً لتنفيذها. وكانت محاولة انقلاب أخرى قد أحبطت في حزيران (يونيو) من العام نفسه.

دُعي إلى مؤتمر الرباط 35 بلداً إسلامياً، بيد أن 25 بلداً فقط أرسلت وفودها، علماً بأن عشرة بلدان فحسب مُثلت برؤساء دولها(147).

غير أن المؤتمرين تمكنوا من إيجاد لغة مشتركة في بعض القضايا، فطالبوا بإعادة وضع القدس إلى ما كان عليه قبل حزيران (يونيو) 1967. وأشار بيان

صادر عن المؤتمر إلى أن رؤساء الدول والحكومات وممثليهم يعلنون عن تأييدهم التام للشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه المغتصبة وفي نضاله من أجل تحرير الوطن، ويؤكدون تمسكهم بالسلام القائم على الكرامة والعدل(148).

في 23 _ 25 آذار (مارس) عام 1970، عقد برعاية الملك فيصل في جدة مؤتمر وزراء خارجية البلدان الإسلامية وحضره مندوبون عن 23 بلداً(149). وفي 4 آذار (مارس) 1972، عقد المؤتمر الثاني لوزراء خارجية الدول الإسلامية في جدة وشارك فيه 31 بلداً إسلامياً. وبمبادرة من الملك فيصل أقر المؤتمرون بالإجماع تأسيس صندوق "الجهاد" ضد إسرائيل. وندد المؤتمر تنديداً شديداً بموقف الولايات المتحدة المؤيد لإسرائيل، ودعاها إلى الكف عن تقديم المساعدة العسكرية والاقتصادية لهذا البلد.

أثر الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973 أخذ يتزايد في المؤتمرات الإسلامية الاهتمام بقضايا التعاون الاقتصادي والإجراءات المشتركة ضد أعمال إسرائيل التوسعية العدوانية، ودعم حقوق الشعب العربي الفلسطيني. وبفضل تزايد القدرات المالية للسعودية وما تقدمه من قروض ومنح، تعاظم وزنها في البلدان الإسلامية.

السعودية في منظمة أوبك. درست الحكومة السعودية دراسة دقيقة سوق النفط في العالم، وبدأت تدرك مدى الأرباح الطائلة التي تحصل

عليها شركات النفط خارج السعودية، مع وجود مبدأ "المناصفة".

عقد في نيسان (إبريل) 1959 أول مؤتمر نفطي عربي حضره ممثلون عن السعودية. وبدأت البلدان المصدرة للنفط تدرك ضرورة القيام بنشاطات جماعية. وقد أثار بالغ القلق لدى هذه البلدان انخفاض الأسعار القياسية. ففي الفترة من عام 1957 حتى عام 960، أنخفض السعر القياسي للنفط بالنسبة لرأس تنورة من 2.12 إلى 1.84 دولار عن الطن، مما أدى إلى تقليص كبير في عائدات البلدان المصدرة للنفط(150).

في أيلول (سبتمبر) عام 1960، أسست في بغداد منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) وضمت العراق وإيران والكويت والسعودية وفنزويلا. وفيما بعد انضمت إليها أبو ظبي وقطر وليبيا والجزائر وإندونيسيا ونيجيريا والإكوادور والغابون. وكان الهدف الرئيسي لأوبك في تلك المرحلة رفع أسعار النفط الخام إلى مستوى عام 1954، وإبقاؤها على هذا المستوى، وإجراء مشاورات بين البلدان والشركات حينما تظهر حاجة لتغيير الأسعار، ومراقبة حجم الإنتاج عند الضرورة.

في 25 كانون الثاني (يناير) 1965، وقعت الحكومة السعودية وأرامكو اتفاقية التزمت بموجبها الشركة باعتبار بدل الإيجار جزءاً من نفقات الاستثمار التي تحسم من عوائد الإجمالية، على أن تدفع ضرائب عن الجزء المتبقي. وبفضل ذلك

ارتفعت حصة السعودية من عوائد تصدير النفط الخام وتعدت نسبة الـ 50%(151).

حينما كان ثمة فائض نسبي في أسواق النفط العالمية، والمشتري وليس البائع هو الذي يملي شروطه، اقتصر أعضاء أوبك على تقديم مطالب معتدلة. ولكن تجمعت لديهم عاماً أثر عام خبرة العمل المشترك التي بينت مدى ما يعود به تضافر الجهود من منافع.

في عام 1969، اقترحت الحكومة الجمهورية في ليبيا على أصحاب الامتياز زيادة حصتها من الأرباح من 50% إلى 54 __ 55%. ولما رُفض الطلب قلصت عام 197 حجم الأستخراج المسموح به. وبسبب تعطل قناة السويس ونسف الفدائيين الفلسطينيين لأنابيب النفط المارة عبر الجزيرة العربية، لم تتمكن الشركات العالمية من مقاطعة النفط الليبي الذي كان يشكل زهاء خُمس استهلاك أوروبا الغربية، فأعلنت استسلامها. وأحدث انتصار ليبيا سلسلة من ردود الفعل، فأرغمت بلدان الخليج الشركات على أن تدفع لها نسبة مماثلة من الأرباح(152).

عندما بدأت البلدان الخليجية الأعضاء في أوبك مفاوضات مع شركات النفط في طهران في 12 كانون الثاني (يناير) 1971، كانت تشكل مجموعة موحدة. وكانت أحوال السوق العالمية تميل أكثر فأكثر لصالح البلدان المصدرة. وقد أيدت السعودية، التي كانت واشنطن ولندن تأملان منها العون، مطالب سائر أعضاء أوبك. فاضطرت شركات النفط

إلى الموافقة على تنفيذ أكثرية المطالب المقدمة من بلدان الخليج الستة المصدرة للنفط(153).

وقد وقعت في 14 شباط (فبراير) عام 1971 في طهران اتفاقية بين البلدان الخليجية الأعضاء في أوبك وشركات النفط منحت عملياً حق الأشراف على الأسعار القياسية للبلدان المصدرة للنفط.

بينت اتفاقيات طهران أن أعضاء أوبك قد حققوا الأهداف المطروحة عام 1960. ولكن ظلت معلقة مسألة مساهمة حكومات البلدان المصدرة للنفط في ممتلكات ونشاط الشركات، الأمر الذي لو تم لعنى حدوث تغير جذري في العلاقات بين الطرفين. وفي 21 كانون الثاني (يناير) 1972 بدأت مفاوضات بهذا الخصوص بين أوبك وشركات النفط. وكان أمام حكومات الدولة المصدرة للنفط ثلاثة سبل لتغيير اتفاقيات الامتياز: التأميم الشامل، أو تقليص فترة الامتياز، أو تقليص الاتفاقيات القائمة بأن يضاف إليها مبدأ الإسهام الجزئي الذي يؤدي تدريجياً إلى التملك التام لصناعة النفطية.

اختارت الرياض السبيل الثالث وأصبح وزير النفط السعودي الشيخ أحمد زكي اليماني الممثل الرئيسي للأوبك في المفاوضات مع شركات النفط العالمية(154).

واتفقت الحكومة السعودية مع أرامكو على أن تتسلم الحكومة تدريجياً 51% من أسهم الشركة.

عندما حلول السبعينات كانت العلاقات بين السعودية، بوصفها من كبار أعضاء أوبك وأول مصدر للنفط في العالم، وبين شركات النفط، قد خرجت

عن الإطـــار الاقتصـــادي البحت للخلاف على نســـبة الأربـاح من بيـع النفـط الخـام. فقـد أصـبحت جملـة القضايا المتعلقة بالنفـط _ ابتـداء من الأشـراف على اسـتخراجه ونقلـه وانتهـاء بتسـويقه وأسـعاره _ من القضـايا الأساسـية في السياسـة العالميـة. وتزايـدت باطراد أهمية القضية النفطية في السياسة الخارجيـة الأمريكيـــة، وذلـــك ابتـــداء من "مشـــروع مارشـــال" ومروراً بأزمة النفـط الإيرانيـة وأزمـة قنـاة السـويس ووقف تصدير النفط في 1956 _ 1957 والمقاطعة النفطية عـام 1973، وانتهـاء بـالقفزة الجديـدة الـتي سجلتها أسـعار النفـط في أواخـر السـبعينات. وبغيـة إبقاء بلدان الشرق الأوسط المنتجة للنفـط في فلـك الولايات المتحدة الأمريكية، أنفقت واشنطن مليارات الدولارات وأنشأت ماكنة إدارية عسكرة ضخمة على نطـاق العـالم كلـه، ونسـقت مـع شـركات النفـط المتعـددة الجنسـيات وأقـامت ممـرات في المحيـط لأسـاطيل النـاقلات وخـرقت قـوانين حظـر الاحتكـار الأمريكية نفسها.

في الخمسينات كانت سيطرة الولايات المتحـدة على نفط حوض الخليج توفر أرباحاً للشـركات وتُبقي في أيـدي واشـنطن الخرطـوم النفطي الـذي يغـذي اقتصاد بلدان العالم غير الاشتراكي. وفي عام 1959 حـــدد الـــرئيس الأمـــريكي إيزنهـــاور كميـــة النفـــط المســـتوردة من الشـــرق الأوســـط بـ 2.5% من الاستهلاك الأمريكي(155). وكان الاقتصـاد الأمـريكي آنذاك غير خاضع عملياً لهـذا المصـدر النفطي، إلا أن منطقـة الشـرقيين الأوسـط والأدنى كـانت تكتسـب

أهمية استراتيجية متزايدة في مخططات الحكومة الأمريكية المعادية للاتحاد السوفييتي.

أصبحت الولايات المتحدة في السبعينات المستورد الرئيسي للنفط في العالم. وبطبيعة الحال تنامى دور السعودية القادرة على إبقاء استخراج النفط على مستواه أو حتى زيادته. وقد استعرضت السعودية نفوذها أثناء الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973.

"سلاح النفط". أحست الرياض إحساساً واضحاً بتناقض وتذبذب النهج الأمريكي في الشرق الأوسط. فقد كانت واشنطن من جهة تسعى لضمان "أمن الولايات المتحدة في مجال الطاقة" ومصالح شركاتها، والسيطرة على صادرات النفط من الشرق الأوسط إلى حليفاتها في أوروبا الغربية واليابان، الأمر الذي يقتضي تعزيز العلاقات مع البلدان العربية، أو على الأقل المحافظة منها حيث توجد احتياطات النفط الرئيسية، وخصوصاً السعودية. ومن جهة أخرى قدمت واشنطن المساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية لإسرائيل ونهجها العدواني التوسعي، الأمر الذي قوض أساس العلاقات الوثيقة مع الدول العربية.

أن الحكومة السعودية، حينما أحست بوزنها المتعاظم في عالم النفط والمال، أخذت تطمح إلى زعامة العالم العربي، الأمر الذي تطلب بالضرورة إتباع سياسة معادية لإسرائيل. وكانت مهمة تحرير شرقي القدس متماشية ليس مع الأهداف الدعائية والسياسية الخارجية فحسب، بل ومع مقتضيات

تدعيم النظام من الداخل، بوصفه "حـامي الحـرمين" الـذي يؤكـد أن القـرآن دسـتوره. لـذا فـإن الحكومـة السـعودية ، مـع حاجتهـا الماسـة إلى دعم الولايـات المتحدة والتعاون الواسع النطاق معها، اضطرت إلى الإعلان عن مجابهة مـع واشـنطن في الـنزاع العـربي الإسرائيلي.

في السـادس من تمـوز (يوليـو) 1973، قـال الملك فيصل في حديث مـع صـحفيين أمريكـيين في جدة، أنه سيكون من الصعب على السعودية مواصلة التعـاون الوثيـق مـع الولايـات المتحـدة، إذا واصـل الأمريكان دعم إسرائيل. وقبل بضعة أسابيع من ذلك تلقى المساهمون في أرامكو تحذيراً من الملك يقول أن السـعودية سـوف تجمـد اسـتخراج النفـط على مستوى واحد إذا لم تغير الولايات المتحـدة سياسـتها إزاء إسرائيل(156).

في الأسابيع والأشهر التي سـبقت حـرب أكتـوبر حـذر فيصـل الحكومـة الأمريكيـة مـراراً من أن تأييـد واشـنطن لإسـرائيل قـد يخـرب العلاقـات السـعودية الأمريكية واكتسبت لهجـة الحكومـة السـعودية شـدة متزايدة. ودعت السعودية واشنطن إلى الضغط على إسرائيل وحملها على تنفيـذ قـرار مجلس الأمن رقم 242 الصـادر في 22 تشـرين الثـاني (نوفمـبر) عـام 1967 (الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة في حزيـران (يونيـو) 1967، وإلا فـإن الولايـات المتحدة سوف تواجه عقبـات تقليص تصـدير النفـط(157).

لم تأخـذ الولايـات المتحـدة أوروبـا الغربيـة هـذه التحـــذيرات على محمـــل الجـــد(158). فقـــد كـــانت المقاطعتان النفطيتان عامي 1956 و 1967 ضئيلتي المردود ولكن العـرض كـان آنـذاك أكـثر من الطلب، ولدى الاحتكارات احتياطي هائل من الوقـود السـائل. وعلاوة على ذلك كان بوسع الولايات المتحدة حينذاك الاســتغناء عن اســتيراد النفــط. أمــا في مطلــع السبعينات فقد تغير الوضع تغيراً جذرياً.

ألمحت الحكومة السعودية في صيف 1973 إلى أنهـا سـتؤيد مصـر عنـد نشـوب حـرب جديـدة مـع إسرائيل.

بـدأت الحـرب العربيـة الإسـرائيلية الجديـدة في السادس من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1973. وفي الأيــام الأولى قــام الجيشــان المصــري والســوري بعمليات ناجحة، وبعد ذلـك بـدأ الإسـرائيليون هجومـاً مضاداً ولكنهم لم يفلحوا في إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية. وفي ظروف الشرق الأوسط الملموسة كان عــدم إحــراز النصــر معــادلاً بالنســبة للإســرائيليين الهزيمة، أو على الأقل الهزيمة السياسية.

تمكنت الدول العربية من إظهـار التضـامن، على الرغم من اختلاف أنظمتها. وساهمت وحدات عراقية مساهمة فعالـة في المعـارك على الجبهـة السـورية. وأرســلت الأردن والمغــرب وتــونس والســعودية والكــويت والجزائــر إلى بلــدان المجابهــة قطعــات عســكرية وأن كــانت رمزيــة في الغــالب. وقــررت الســعودية وليبيــا زيــادة المســاعدة الماليــة لمصــر

وتقديم عون لسوريا، لتعويض البلدين عن الخسائر المالية الاقتصادية التي سببتها الحرب.

في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) 1973، أي في اليوم الثاني للحرب، أرسل وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر برقية إلى الملك فيصل يدعوه فيها إلى إقناع مصر وسوريا بوقف العمليات الحربية. ورد فيصل بأنه يؤيد مصر وسوريا تأييداً تاماً، ودعا واشنطن إلى بذل الجهود لحمل إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي تحتلها(159).

وفي التاسع من تشرين الأول استدعت الحكومة السعودية كل منتسبي القوات المسلحة من الإجازات وأعلنت حالة التأهب في الجيش(160). وفي 14 من الشهر المذكور أرسلت السعودية وحدة عسكرية لمساعدة سوريا(161).

الفصل الثامن عشر

الوضع الداخلي والسياسة الخارجية

في السبعينات ومطلع الثمانينات

عقد وزراء النفط في عشرة بلدان عربية اجتماعاً في 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 اتخذوا فيه قراراً بتقليص استخراج النفط بنسبة لا تقل عن 5% شهرياً حتى تتم تسوية النزاع في الشرق الأوسط. وفي الواقع قلصت السعودية والكويت الإنتاج بنسبة 10% دفعة واحدة.

ولما أقامت الولايات المتحدة "جسراً جوياً" لتزويد إسرائيل بالسلاح عمدت السعودية وسائر الأقطار العربية إلى اتخاذ إجراءات أكثر حزماً. ففي 20 _ 22 تشرين الأول (أكتوبر) أعلنت البلدان العربية تباعاً عن وقف ضخ النفط إلى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى هولندة التي اتخذت موقفاً موالياً لإسرائيل. كما فرض الحضر على تصدير النفط الخام لمعامل التكرير التي تصدر مشتقات النفط إلى الولايات المتحدة أو تبيعها إلى الأسطول البحري الحربي الأمريكي.

إلى جانب مؤتمر وزراء النفط العرب، التقى في الكويت ممثلون عن البلدان المصدرة للنفط في منطقة الخليج، بما فيها إيران، وتم الاتفاق على زيادة السعر القياسي للنفط بنسبة 70% تقريباً، وفي كانون الأول (ديسمبر) 1973 تقرر بعد اجتماع طهران مضاعفة السعر الجديد. وخلال الفترة الممتدة من كانون الثاني (يناير) 1973، إلى كانون الثاني 1974 ارتفعت الأسعار القياسية والعائدات الفعلية للبلدان المصدرة للنفط، ومن ضمنها السعودية، خمس مرات. وعلاوة على فرض الحظر قام العراق بتأميم حصة الولايات المتحدة وهولندة في "شركة نفط البصرة".

لقد وضعت المقاطعة النفطية الولايات المتحدة في مأزق صعب، إذ كانت تستورد من البلدان العربية في النصف الأول من عام 1973 ما يربو على ربع وارداتها الإجمالية من النفط. وكانت المشاكل أكبر بالنسبة لأوروبا الغربية واليابان.

ففي مطلع السبعينات كانت بلدان الشرقيين الأوسط والأدنى تصدر لليابان تسعة أعشار النفط الذي تستهلكه ولأوربا الغربية 85%.

في 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1973، قررت عشر دول عربية مصدرة للنفط تخفيض الإنتاج في شهر كانون الأول (ديسمبر) بنسبة 25% مقارنة بشهر أيلول (سبتمبر). وجاء رد فعل أوروبا الغربية دون إبطاء. ففي صباح السادس من تشرين الثاني دعت حكومات البلدان "التسعة" إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن حول العمليات الحربية وكذلك القرار رقم 242 بكل بنوده، بما في ذلك الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة عام 1967. وصدر بيان مماثل عن اليابان.

بيد أن الكثير من الدول العربية المصدرة للنفط أخذت، بعد توقف العمليات الحربية، تعارض التقييدات المفروضة بحجة أنها تلحق الضرر ببلدان صديقة للعرب.

وفي مطلع كانون الأول (ديسمبر) 1973، قرر أعضاء منظمة البلدان العربية المصدرة للنفط (أوابك، تأسست عام 1968) المجتمعون في الكويت إلغاء القرار القاضي بتقليص استخراج النفط بنسبة 5% في شهر كانون الأول. وعزي القرار إلى الرغبة في تحسين أوضاع البلدان الأعضاء في الجماعة الاقتصادية الأوروبية التي اتخذت موقفاً ودياً حيال العرب. كما أشار البلاغ الصادر عن اجتماع الكويت إلى أن الدول الأفريقية والإسلامية سوف تحصل على النفط وفق العقود المتفق عليها.

واستمر لفترة من الوقت حظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وهولندة.

في 25 كانون الأول (ديسمبر) 1973، قررت البلدان العربية المنتجة للنفط في مؤتمرها الدوري بالكويت زيادة استخراج النفط في كانون الثاني (يناير) 1974 بنسبة 10% وتصدير النفط بالكميات السابقة إلى اليابان وبلجيكا، وبريطانيا، وفرنسا، وأسبانيا، والفليبين، كما جرت الإشارة إلى أن استخدام البلدان العربية سلاح النفط لم يمارس تأثيراً ملموساً على الوضع الاقتصادي للولايات المتحدة وسائر البلدان المعادة للعرب، ولم يغير سياستها.

نزولاً عند إصرار السعودية أُلغي حظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة في 18 آذار (مارس) 1974. ولذا كانت الغلبة لنزوع السعودية إلى التعاون الاقتصادي والسياسي والعسكري المتعدد الجوانب مع الولايات المتحدة.

إن استخدام "سلاح النفط" خلال حرب أكتوبر وبعدها وازدياد القدرة المالية للسعودية عدة أضعاف بفضل ارتفاع أسعار النفط، قد جعلا من المملكة زعيماً للدول العربية المحافظة. وساعد الملك فيصل على مد الجسور بين مصر والولايات المتحدة وأحداث انعطاف كامل في سياسة مصر الخارجية وتعزيز القوى اليمينية داخلها. وساعدت السعودية على تعزيز القوى المناوئة للاتحاد السوفييتي في كل منطقة الشرقيين الأوسط والأدنى، بل حتى خارجها.

بيد أن أتباع السياسة الخارجية بمساعدة دفتر الصكوك فحسب، قد بين من جهة أخرى ضعف السعودية لأنه لم يكن مسنوداً بالقدرة العسكرية أو بالكوادر اللازمة لتنفيذ المهمات المرسومة.

وقد تأثر التعاون مع الولايات المتحدة والغرب بفعل التناقضات في التعامل مع إسرائيل، وبالمشاعر العميقة لسكان السعودية. وقد مرت علاقات السعودية بالولايات المتحدة بفترة أزمة في أواخر عام 1974 ومطلع عام 1975، حينما أخذ الرئيس الأمريكي فورد ووزير الخارجية كيسنجر ووزير الدفاع شليسنجر ووسائل الأعلام، يتحدثون عن احتمال احتلال الولايات المتحدة لحقول النفط على الساحل العربي للخليج.

وترتب على واشنطن بذل جهود كبيرة لإقناع السعودية بعدم وجود خطط محددة من هذا القبيل. واتقى كيسنجر بالملك فيصل في 14 آذار (مارس) 1975. وتظاهرت الحكومة السعودية بأنها تثق بوعود واشنطن. هذا علماً بأنه لم يكن لدى الأسرة المالكة أي مخرج آخر.

بدا أن وضع الملك فيصل داخل البلد مكين، وأن هيبته ارتفعت بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973، ولكن على الرغم من ذلك أخذت تتسرب إلى الصحافة خارج السعودية شائعات حول خلافات داخل العائلة المالكة. وجاءت الضربة من جهة غير متوقعة.

في 25 آذار (مارس) 1975، وأثناء استقبال الملك للمهنئين بالعيد أطلق فيصل بن مساعد، أبن

أخ الملك الذي عاد لتوه من الولايات المتحدة حيث أمضى عدة سنوات في المدارس والجامعات أطلق النار من المسدس على عمه وأرداه قتيلاً ولا يستبعد أن تكون لهذه الجريمة دوافع شخصية. فالأمير الشاب قد عقد قرانه على إحدى بنات الملك الراحل سعود. وتنتسب أمه إلى آل رشيد. وقتل رجال الشرطة أخاه، وهو من المتعصبين دينياً، أثناء مظاهرة احتجاج على افتتاح محطة التلفزيون في الستينات. ويذهب رأي آخر إلى أن أبن مساعد كان مختلاً عقلياً. بيد أن هناك رأياً مفاده أن وراء القاتل يداً أمريكية أوحت بالعملية انتقاماً من فيصل لمشاركته في المقاطعة النفطية، ولكي يكون ذلك تحذيراً لسائر أفراد العائلة المالكة. وعلى أي حال لم تعلن الدوافع الحقيقية لجريمة وأعدم أبن مساعد. بويع خالد ملكا وأصبح رئيساً للوزراء. وقام بصياغة السياسة الداخلية والخارجية ولي العهد الأمير فهد الذي صار النائب الأول لرئيس الوزراء واحتفظ مؤقتاً بمنصب وزير الداخلية. وأصبح قائد الحرس الوطني الأمير عبد الله، بينما أسندت وزارة الدفاع والطيران إلى الأمير سلطان شقيق فهد.

لم يكن بين الأحداث الداخلية خلال السنوات الأربع التي أعقبت اغتيال فيصل ما يشير إلى خطر على الاستقرار. إلا أن المعارضة داخل المجتمع السعودي أخذت تنضج.

كان تأسيس الحزب الشيوعي في السعودية عام 1975 يعني ظهور جماعة معارضة أخرى من اليسار. صحيح أنها لم تكن تتمتع بنفوذ فعلي إلا أنها

استهدفت توحيد وقيادة العمال والفلاحين الفقراء، والبدو والحضر والفئات الديمقراطية من المثقفين والطلبة.

ومع نهوض الحركة المناوئة للشاه والمعادية للغرب في إيران، والتي ارتدت صبغة دينية، ظهرت في السعودية أيضاً كتل وتنظيمات تعادي النظام من مواقع "الإسلام الخالص" وهي التي تزعمت الحركات الشعبية المعادية للحكومة في خريف 1979.

منذ آب (أغسطس) 1979، نما إلى علم السلطات السعودية أن خلايا سرية تشكلت في الجيش النظامي وأن أسلحة تهرب إلى البلد، وإن مظاهر الاستياء تلاحظ في أوساط الأمراء الشبان. ولقطع دابر تهريب الأسلحة إلى البلد حظرت السلطات السعودية مرور قوافل الشاحنات المحملة بالبضاعة والقادمة من لبنان وسوريا، عبر أراضي المملكة.

في أيلول (سبتمبر) شددت الحكومة إجراءات الأمن. وأعتقل عدد من ضباط الطيران والدبابات والمشاة. وزعم أن عشرة أمراء شباب من العائلة السعودية الذين أشتبه بأن لهم نزعات راديكالية، قد تم استدعاؤهم من قبل الملك والأمراء المقربين إليه بغية استجوابهم.

جرت حملة الاعتقالات الثانية بعد توزيع عدد كبير من المنشورات في البلد في شهر أيلول (سبتمبر). ودعا بعض المنشورات للعودة إلى التمسك بأهداف الدين الإسلامي، بينما دعا البعض الآخر إلى الإطاحة بـ "الحكام المستبدين العملاء". وطلبت منشورات

أخـرى بطـرد جميـع الأجـانب من المملكـة. ولم تفلح السـلطات في تحديـد هويـة كـاتبي المنشـورات أو موزعيهـا، بيـد أن ذلـك جعـل الجـو يتكهـرب. وفي الأسبوع الأخير من أيلول (سـبتمبر) أعلن إنـذار أولي في الحرس الوطني والجيش النظامي.

بدأت الاضطرابات المناوئة للحكومة في أواسـط تشـرين الثـاني (نوفمـبر) في الحجـاز. فقـد داهمت فصائل مسلحة صغيرة من المنتفضين بشكل مفاجئ القـوات الحكوميـة واحتلت مواقـع على الطـرق المؤدية إلى المدينة المنورة. وبدأ التململ في أفخـاذ من قبائل قحطان وعتيبة ويماني التي كـانت الأسـرة المالكة قد استولت على جزء من أراضيها.

وسيطر المنتفضون على جزء كبير من الأراضـي الممتدة بين مكة والمدينة. وثمة معلومات تفيـد بـأن جنـوداً من الجيش النظـامي والحـرس الوطـني انخرطـوا في صـفوف المنتفضـين يـوم 19 تشـرين الثاني (نوفمبر). وقدر عـددهم الإجمـالي بـ 3.5 ألـف شخص.

قسم زعماء الحركة قـواتهم إلى طـابورين اتجـه أحدهما إلى مكة والثاني إلى المدينة. غـير أن قـوات موالية للنظـام كـانت ترابـط في المدينـة وضـواحيها. صـدت هجـوم المنتفضـين يـوم 20 تشـرين الثـاني. وتفيـد بعض المعلومـات أن عـدد القتلى في المدينـة ربا على 250 شخصاً.

أمـا في مكـة فقـد أخـذت السـلطات على حين غرة. وفي 20 تشرين الثاني (نوفمـبر) 1979، الـذي

يوافـق اليـوم الأول من القـرن الخـامس الهجـري، استولى المنتفضون على المسجد الحرام.

وأعلنت منظمـة "حركـة الثـوار المسـلمين في شبه الجزيرة العربيـة" الـتي لم تكن معروفـة آنـذاك أنها تتـولى قيـادة الانتفاضـة. وأعلن الـزعيم الـروحي للمعارضـين وهـو محمـد القحطـاني الـذي قـال عن نفسه إنه "المهدي" المنتظر، إن هدف الحركة يتمثل في "تطهـير الإسـلام" و "تحريـر البلـد من زمـرة الكفار: العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة".

أما الزعيم السياسي فهو جهيمـان العتيبـة البـالغ من العمر 47 عاماً.

وقد سجلت خطبه التي أذاعتها مكبرات الصـوت المثبتـة على سـطح المسـجد، على شـرائط كاسـيت ووزعت بين السكان. وقد صب جهيمان اللعنات على "المدنيـة الغربيـة" الـتي تقـوض كيـان المجتمـع السعودي وقيمه، وندد بـ "نفاق" الحكومة التي تدعي من جهة، أنها مركز الدين الحنيف في العـالم، ولكنهـا من الجهة الأخرى تناصر "الظلم والفساد والرشـوة". ونـدد جهيمـان بـالأمراء الـذين "يسـتولون على الأراضي" و "يبذرون أمـوال الدولـة" و "بالسـكيرين" الـذين يحيـون "حيـاة الفسـق والفجـور في أفخم القصور". ودعا للعودة، بزعامة المهـدي، إلى النظـام السـائد في صـدر الإسلام الـذي قـال عنـه أنـه كـان "العصر الذهبي"، عصر العدل والمساواة.

ولم يكن بوسـع العائلـة القبـول بشـروط المنتفضين، إذ إنها تضمنت مطالب بإقصـاء عـدد من كبار الأمراء عن مناصبهم وإعـادة النظـر في شـروط

استخراج وتسويق النفط (في البداية طالب المنتفضون بوقف بيع النفط إلى الغرب عموماً) والعودة إلى أحكام الإسلام "الخالص" وطرد جميع المستشارين العسكريين الأجانب من البلد.

عاد ولي العهد الأمير فهد من تونس وأصر على قمع الانتفاضة بالقوة.

واستمرت المقاومة الضارية التي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعين وأدت، كما تقول السلطات، إلى مصرع عشرات الأشخاص، بينما بقول شهود العيان أن القتلى كانوا يعدون بالمئات. وكان بين القتلى "المهدي" نفسه، أما الزعيم السياسي للحركة جهيمان العتيبة فقد أعدم مع 62 من رفاقه في 9 كانون الثاني (يناير) 1980.

وكان بين من أعدموا، علاوة على السعوديين، مصريون ويمنيون وكويتيون وعرب آخرون،

أثناء الصدامات في مكة بدأ التململ بين أوساط الشيعة في المنطقة الشرقية. وآنذاك رابط 12 ألفاً من جنود الحرس الوطني حول حقول النفط،

كان الشيعة يقطنون أهم منطقة استراتيجية في البلد (عددهم 300 _ 350 ألف نسمة). وقد أصبحوا جزءاً من الطبقة العاملة قبل بضعة عقود، وأسسوا نقابات سرية وتزعموا المظاهرات والإضرابات السياسية (وخصوصاً المناهضة للأمريكان).

وتعرض الشيعة إلى الاضطهاد بسبب انتمائهم إلى تيار إسلامي يعتبره حكام الرياض زندقة.

وخلافاً لأوامر الحظر الحكومية، قرر الشيعة الاحتفال بيوم عاشوراء في 27 تشرين الثاني

(نوفمبر). وحاول الحرس الوطني منع المواكب الدينية بالقوة،

وعندها تدفقت جموع تحمل صورة الخميني على القطيف وسائر مدن المنطقة الشرقية، وأخذت تهاجم الثكنات العسكرية. وأحرق المتظاهرون المصانع والبنوك وهتفوا بشعارات معادية للملك. ووزعت منشورات تهيب بالشعب إلى إسقاط "نظام الاستبداد" وإعلان الجمهورية.

واستمرت الاضطرابات ثلاثة أيام ورد الحرس الوطن بعنف، ويقول شهود العيان أن عشرات من المتظاهرين قتلوا أو جرحوا.

بعد فترة من الارتباك الناجم عن تحركات الشيعة وانتفاضة مكة، شرعت الحكومة باتخاذ إجراءات تهدئة وتنكيل في آن واحد. فقد أقصي عدد من كبار الضباط وبينهم قواد الإنصاف الثلاثة للقوات المسلحة وستة من كبار ضباط الأمن بسبب تماهلهم أو عدم أهليتهم، كما نحي حاكم مكة. وسارع خالد وفهد وسواهما من كبار الأمراء إلى زيارة المتنفذين من شيوخ القبائل وتفقد القواعد العسكرية . وطرد من البلد آلاف من العمال الأجانب "المشتبه بهم". وفي 17 كانون الأول (ديسمبر) أختطف زعيم المعارضة اليسارية ناصر السعيد الذي خرج سراً إلى بيروت، ولم يعد له أثر منذ ذلك الحين.

استدعي الطلبة الموفدون للدراسة في الخارج على الرغم من أن السنة الدراسية كانت في منتصفها.

وبغية تهدئة علماء الدين أغلقت صالونات حلاقة النساء والنوادي النسائية.

وسرحت مذيعات التلفزيون على الرغم من احتشامهن في الملبس. وصدرت تعليمات جديدة تحظر على الفتيات مواصلة الدراسة في الخارج.

ونزولاً عند مطالب "الإصلاحيين" والتكنوقراطيين والموظفين وممثلي "الفئات الوسطى" الراغبين بالمشاركة في السلطة، أعلن ولي العهد فهد عن الشروع في وضع "قانون أساسي" ينص على تعيين مجلس شورى.

إلى أمد غير بعيد، كان الزعماء الأمريكان الذين أرعبهم شبح الثورة الإيرانية، يخشون من أن "انفتاح النظام السعودي، أي تكييف المؤسسات السياسية المهترئة للتحولات الاجتماعية الاقتصادية، يمكن أن يتم بعد فوات الأوان. وهذا ما أعلن عنه لمجلة "نيوزويك" الأسبوعية وصحيفة "واشنطن ستار" في كانون الثاني (يناير) 1980 أحد موظفي وكالة المخابرات المركزية. كما أن زلة لسان أدت بهذا الموظف إلى إيراد عبارة قالها جيمس كارتر رئيس الولايات المتحدة آنذاك ومفادها أنه "لا يمكن ضمان استمرار وجود النظام السعودية إلا على امتداد السنتين القادمتين فقط". وقد أدر تسرب هذه وغيرها من المعلومات السرية إلى طرد معتمدي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من السعودية على رؤوس الأشهاد.

جرى توسيع وتعزيز أجهزة الأمن السعودية، ولعب دوراً كبيراً في هذا المجال المستشارون الذين

أوفـدتهم إلى الريـاض وكالـة المخـابرات المركزيـة الأمريكيـة ومخـابرات جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة وفرنسـا. وأغـدقت الخـيرات على منتسـبي الجيش النظـامي والحـرس الوطـني. فقـد ازدادت رواتبهم مرتين خلال بضعة أشهر.

وتغاضت السلطات عن النشاط "التجاري" الـذي مارسه الكثير من الضباط.

وعلى سـبيل الحـذر والحيطـة وزعت القـوات النظامية على امتداد الحدود وأبعدت وحدات الدبابات عن المـدن، وكـانت الـذخائر تـوزع بكميـات ضـئيلة للغاية.

في 10 كانون الثاني (يناير) 1980، نظم الشيعة في مدن وقرى المنطقـة الشـرقية مظـاهرة سـلمية ذات طابع مناوئ للحكومة.

وفي 17 من الشهر نفسه، جرت مظاهرة أخرى في القطيف. وفي 2 شباط (فبراير) 1980، تجـددت في القطيف الاضطرابات وخرجت مظـاهرات تحمـل شعارات خمينية، ووقع عدد من القتلى والجرحى.

في كـانون الثـاني (ينـاير) 1980، جـرت في السـعودية تـدريبات ومنـاورات مصـرية أمريكيـة مشـتركة، كـانت جـزءاً من منـاورات أوسـع في المنطقة.

حلت في البلد فترة هدوء بعد الأحـداث العاصـفة في أواخر عام 1997 ومطلـع عـام 1980 . ولم يعـد الصراع السياسي بالحدة السابقة.

في 12 حزيـران (يونيـو) 1982، تـوفي الملـك خالد أثـر نوبـة قلبيـة، وقـد انتقلت السـلطة إلى ولي

العهد فهد دون مشاكل، وأصبح عبد الله أخوه لأبيه ولياً للعهد.

وعلى الصعيد الدولي ظلت العربية السعودية مرتبطة أوثق ارتباطاً بالولايات المتحدة. فإن هيمنة الرأسمال الأمريكي على صناعة استخراج النفط في البلد (وأن كانت قد أصبحت على أساس المقاولة شكلياً) واعتماد المملكة على السلاح الأمريكي والحاجة إلى تأييد الولايات المتحدة لإبقاء النظام نفسه وتأثير التقلبات الاقتصادية في الولايات المتحدة على الأرصدة السعودية، كل هذه العوامل حددت توجه الرياض نحو واشنطن. وبالإضافة إلى الروابط الاقتصادية والسياسية والعسكرية الوثيقة، قامت صلات شخصية دائمة بين كبار المسئولين في البلدين وتبودلت الزيارات فيما بينهم. ودرس أبناء علية القوم وسواهم في الولايات المتحدة.

بغية مساعدة واشنطن على أن تصبح "حامية مصالح العرب" في العلاقات مع البلدان المصدرة للنفط، لعبت السعودية دور "عامل الاعتدال" في منظمة أوبك.

فبعد الثورة الإيرانية صارت السعودية تصدر أحياناً ما يعادل نصف الصادرات الإجمالية لبلدان أوبك، لذا فان كلمتها في المنظمة أصبح لها تأثير حاسم. وتعارض الرياض، قولاً، تصعيد الأسعار مغازلة بذلك واشنطن.

ولكن ظل هناك سؤال معلق: ألم يكن ذلك توزيعاً للأدوار؟ إذ أن زيادة أسعار النفط كانت في مصالح شركات إنتاج الطاقة الأمريكية، والولايات

المتحدة عموماً، في الصراع التنافسي مع بلدان أوروبا الغربية واليابان. فبعد زيادة أسعار النفط قلصت السعودية إلى حد كبير استخراج النفط وأعاقت هبوط أسعاره في الأسواق العالمية.

أصبحت السعودية أكبر مودع أجنبي في البنوك الأمريكية وأكبر مستثمر للمال في مجال شراء السندات الحكومية والاقتصاد والعقار في الولايات المتحدة. وتفيد بعض المصادر بأن المقادير الفعلية للاستثمارات السعودية كانت أكبر بكثير من الأرقام المعلنة رسمياً.

وقدرت السعودية نفسها في تقرير مغلق مرفوع إلى صندوق النقد الدولي عام 1978 استثماراتها في الخارج بمبلغ 133 مليار دولار، وغالبيتها في الولايات المتحدة. ويعتقد الخبراء أن ما لا يقل عن مائة مليار دولار أخرى أضيفت إلى هذا المبلغ عند نهاية عام 1981. وتوظف الأموال السعودية في الولايات المتحدة بالدرجة الرئيسية عبر "تشيز منهاتن بنك" و "مورغان غارادتي تراست".

وكانت الايداعات السعودية في الولايات المتحدة والبلدان الأخرى تعود أجمالاً بفوائد تصل إلى عشرة مليارات دولار سنوياً.

قدمت الرياض قروضاً وسلفاً تعد بالمليارات إلى البنك الدولي للإنشاء والتعمير وصندوق النقد الدولي، فأخذت تساهم رسمياً في صياغة قرارات هاتين المنظمتين. وفي عام 1978، أصبحت السعودية عضواً دائماً في هيئة إدارة صندوق النقد الدولي.

ساعد الاتفاق الذي ذكرت الصحف الأمريكية أنه عقد بين الملك خالد والرئيس فورد عام 1977، على تعزيز العلاقات السعودية الأمريكية، فقد التزمت السعودية بموجبه بعدم زيادة أسعار النفط لأكثر من 5% حتى عام 1984 (الأمر الذي لم تلتزم به)، واستثمار جزء كبير من عائدات النفط لشراء سندات الخزانة الأمريكية الطويلة الأمد. والتزمت الولايات المتحدة بتقديم مساعدة عسكرية للسعودية لمواجهة أي عدوان.

عندما حرمت واشنطن من النفط الإيراني قامت السعودية بزيادة استخراج النفط إلى 10.3 مليون برميل يومياً، وغطت احتياجات الأسواق العالمية من الوقود السائل.

في 15 أيار (مايو) 1978 وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على اقتراح الحكومة الأمريكية ببيع طائرات حربية إلى مصر والسعودية وإسرائيل. وكان من المقرر أن تحصل السعودية قبل عام 1983 على 60 طائرة من طراز "ف 15" ولكنها تعهدت بالا تُجهز بمعدات للعمليات الهجومية وإلا ترابط في قواعد قريبة من إسرائيل.

في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1981، وبعد صراع طويل داخل الهيئات التشريعية العليا في الولايات المتحدة، وافق مجلس الشيوخ على اقتراح البيت الأبيض ببيع السعودية معدات حربية تضم خمسة من "الرادارات الطائرة" من طراز "أواكس" بمبلغ 8.5 مليار دولار. وقد وقفت ضد هذه الصفقة مراكز الضغط الموالية لإسرائيل في الكونغرس

الأمـريكي الـتي تعـارض بيـع أسـلحة حديثـة لأي بلـد عـربي. بيـد أن أغلبيـة المشـرعين رأت أن الصـفقة المذكورة تستجيب لمصالح واشنطن في المنطقة.

ومــع ذلــك ظهــرت خلافــات بين البلــدين في الموقف من قضايا الشرق الأوسط.

إن العلاقات بين السعودية وبلدان أوروبا الغربيـة واليابــان لم ترتــق قــط إلى مســتوى العلاقــات مــع الولايات المتحدة، ولكنها كانت ودية ومتنوعة بما فيـه الكفايـة وكـانت السـعودية تشـتري أسـلحة وآليـات حربية من بريطانيا وفرنسا وألمانيا الاتحادية.

وإن دول "الســـوق المشـــتركة" واليابـــان هي المستورد الرئيس للنفط السعودي، كما أن جزءاً من البـترو دولارات السـعودية يوظـف في هـذه الـدول. وتزايــدت بســرعة واردات الســعودية من المعــدات الصناعية والأسـلحة من أوربـا الغربيـة واليابـان. وفي السـبعينات وقعت الريـاض اتفاقيـات حـول التعـاون الاقتصـادي والتقـني مـع فرنسـا وإيطاليـا والـدنمرك واليابان وسويسـرا وبريطانيـا. وقـد طـرأ فجـأةً فتـور وقتي على العلاقات مع بريطانيـا بسـبب عـرض فيلم "مــوت أمــيرة" في التلفزيــون البريطــاني إذ اعتــبر الفيلم إهانة للأخلاقية السعودية.

إن كيس النقود الثقيل والقدرة على تقديم هبات وقروض للبلدان العربية والإسلامية وسائر بلدان آسيا وأفريقيـا، يشـكلان دعمـاً كبـيراً للسياسـة الخارجيـة الســعودية. وفي الســبعينات والثمانينــات شــغلت المملكـة المرتبـة الثانيـة بعـد الولايـات المتحـدة من حيث تصدير الرساميل على شكل مساعدات.

تعززت العلاقـات بين السـعودية وباكسـتان عـام 1975، أثــر اســتيلاء ضــياء الحــق على الســلطة. وتسارعت عمليـة التقـارب بين البلـدين على أسـاس وحدة موقفهما في معاداة الثورة الإسلامية في إيران والثــورة اليســارية في أفغانســتان. ودفعت الريــاض كلفة الأسلحة الأمريكية المصدرة إلى باكستان والتي كــان جــزء منهــا يســرب إلى المعارضــة المســلحة الأفغانية.

واتســـع التعـــاون بين البلـــدين في الميـــدان العسكري. وتسربت إلى الصحف أنباء حول استخدام طيارين باكستانيين في سلاح الطيران السعودي.

وأبــدت الســعودية نشــاطاً كبــيراً في الســاحة العربية وبعد مؤتمر القمة الذي انعقد في الرباط في تشــرين الأول (أكتــوبر) 1974، اعــترفت الريــاض بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وأولت الســلطات الســعودية اهتمامــاً خاصــاً لـ "فتح" باعتبارهــا المنظمــة الأساســية في منظمــة التحريــر الفلســطينية ووضــعت تحت تصــرفها مبــالغ طائلــة أملاً في بســط نفوذهــا عليهــا ولكنهــا لم تفلح كثيراً في ذلك.

حينمــا نشــبت الحــرب الأهليــة في لبنــان عــام 1975، اتخذت الرياض موقفــاً مزدوجــاً إزاء الكتــائب المســيحية والمســلمين اللبنــانيين ومنظمــة التحريــر الفلسطينية. وفي 18 تشرين الأول (أكتــوبر) 1976، دعا الملك خالد إلى مؤتمر في السعودية شارك فيــه الرئيس المصــري أنــور الســادات والــرئيس الســوري

حافظ الأسد ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات.

ووقعت هناك اتفاقية حول إنهاء الحرب في لبنان. وجعلت القوات السورية شكلياً بإمرة لجنة رباعية تضم السعودية ومصر والكويت وسوريا. وقد توقفت الحرب في لبنان.

كان موقف الرياض حيال النزاع العربي الإسرائيلي معقداً. فأن التعاون مع الولايات المتحدة حامية إسرائيل وحليفتها يتنافى مع طموح الرياض إلى لعب دور زعيم العالم العربي والمكافح ضد الصهيونية والعدوان الإسرائيلي ومن أجل تحرير العتبات الإسلامية في القدس العربية. وبناء على قرار قمة الرباط في تشرين الأول (أكتوبر) 1974، أخذت مصر وسوريا تحصلان على منحة سنوية مقدارها 570 مليون دولار لكل منهما، بينما تحصل الأردن على 300 مليون ومنظمة التحرير الفلسطينية على 28 مليوناً، وذلك من صندوق خاص أسسته السعودية والكويت ودولة الإمارات كما حصلت بلدان المجابهة على مساعدة سعودية مباشرة لتغطية عجز الميزانية وشراء أسلحة من الغرب.

على صعيد الشرق الأوسط قدمت الرياض مساعدة فعالة للبلدان ذات الأنظمة المحافظة. وساندت النزعات الداعية إلى الانفتاح الاقتصادي في البلدان ذات القطاع العام القوي، والتخلي عن التعاون مع الاتحاد السوفيتي والتوجه إلى الولايات المتحدة. وبالاستناد إلى العون السعودي تمكن

السادات من القيام بـ "ثورته البيضاء" في مصر وإعادة النظر جذرياً في السياسة الداخلية والخارجية وصولاً إلى إلغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتي في آذار (مارس) 1976. ولكن حينما زار السادات القدس في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1977 واتبع نهج الصلح مع إسرائيل الذي أدى في خاتمة المطاف إلى اتفاقيات كامب ديفيد، فإن ذلك لم يكن مقبولاً بالنسبة للرياض على الصعيد العلني على أي حال.

في 26 آذار (مارس) 1979، وقعت في الولايات المتحدة معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر. وفي اليوم التالي عقد وزراء الخارجية العرب مؤتمراً في بغداد تقرر خلاله قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر وإنزال عقوبات أخرى بها. وفي 24 نيسان (إبريل) قطعت السعودية العلاقات الدبلوماسية مع مصر وتوقفت عن تزويدها بالمساعدات المالية، ولكنها استمرت في استخدام الأيدي العاملة المصرية.

الفصل التاسع عشر

البنية الاقتصادية والاجتماعية

للعربية السعودية في <<عصر البترول>>

(من الخمسينات حتى مطلع الثمانينات)

ازدادت عوائد العربية السعودية خلال فترة بين 1938 و 1973 لأكثر من 8.5

السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية	السنوات	العوائد الإجمالية
1938	0.5	1950	56.7	1962	409.7	1976	33500
1939	2	1951	110	1963	455.2	1977	38000
1940	2.5	1952	212.2	1964	523.2	1978	36700
1941	2	1953	169.8	1965	586.2	1979	59200
1942	2	1954	236.3	1966	760.3	1980	104200
1943	2	1955	348	1967	879.8	1981	113300
1944	2.5	1956	290.2	1968	926.8	1982	76000
1945	5	1957	296.3	1969	949	1983	46000
1946	12.5	1958	297.6	1970	1944.9	1984	43700
1947	17.5	1959	313.1	1971	1944.9	1985	28000
1948	31.5	1960	333.7	1972	2779		
1949	39	1961		1973			

2000 0 2300 0	198 6 198 7	.3 4330 .9		377. 6			

ألف مرة ورأت المملكة ازدياداً جباراً بعد ذلك، كما تشير المعطيات أدناه (بملايين الدولارات): وخلال سنوات العقود الأخيرة المتبقية حتى نهاية القرن استقرت عائدات المملكة السعودية من النفط.

كان الجزء الأكبر من عوائد النفط في الأربعينات والخمسينات ينفق على الأغراض الاستهلاكية. ويعزى ذلك إلى فقر البلد الذي كان يجد مشقة كبيرة في تدبير لقمة العيش، كما يعزى أيضاً إلى تخلف التركيب السياسي الاجتماعي في السعودية. وبدأ كما لو أن الطبقات الحاكمة التي كانت الأموال في يدها قد قطعت صياماً استمر بضعة قرون وانكبت على الاستهلاك بشراهة متزايدة. ولم تكن الفئات الدنيا لتحصل عملياً على شيء من عوائد النفط.

ولئن كان جهاز الدولة آنذاك يتفق ومتطلبات مجتمع إقطاعي عشائري على مستوى القرون الوسطى، فإنه لم يكن مناسباً ألبته للتصرف بأموال ضخمة وأداء وظائف اجتماعية اقتصادية جديدة. ففي الثلاثينات والأربعينات، بل حتى في الخمسينات، لم تكن خزينة الدولة في العربية السعودية منفصلة عملياً عن خزانة الملك الخاصة. ولم يعرف البلد أي نظام مالي أو نقدي، ولم تسر فيه تشريعات صناعية أو تجارية أو تعتمد مؤسسات حكومية أو اجتماعية،

ولم تتــوفر لديــه كــوادر مؤهلــة للتحكم بالمســتوى المســتجد للعوائــد. كمــا أن النظــام الــديني لم يكن ليساعد على اعتماد مستحدثات جديدة أو دفـع عجلـة التنمية الاقتصادية إلى الأمام.

ومــا عــدا فئــة ضــئيلة من الســكان المتعلمين والعمال لم ينشـأ في البلـد رأي عـام يطـالب الملـك بالإنفــاق على المجتمــع. كــان يتعين على الملــك أن يقدم المبرة وكرم الضيافة والسخاء ويوزع جـزءاً من العائـدات بشـكل هبـات ومعونـات لشـيوخ العشـائر وعلماء الدين، فضلاً عن أفراد الأسـرة المالكـة. لكن أحداً لم يكن ينتظر منه أو يطالبه بأن يسير إلى أبعــد من هذه الواجبات التقليدية إزاء رعاياه.

في أواخر الخمسينات كـان نصـف عوائـد النفـط (التي ربت على 300 مليون دولار سنوياً) من نصـيب العائلة المالكة، بينمـا حصـل التجـار وموظفـو الدولـة والمستشارون على جزء كبير آخر(1). وثمة رقم أقل يذكره فيلبي، إذ يقول أن المداخيل المباشرة للعائلـة المالكـة كـانت تبلـغ في الخمسـينات خمس عائـدات الدولة(2).

وكمــا في غالبيــة بلــدان الشــرقيين الأوســط والأدنى، أصبحت الوظيفة الحكوميـة وسـيلة للاغتنـاء في العربيــة السـعودية. فـإن جهـاز المـوظفين كـان يـدعي زيفـاً الـولاء للمبـادئ الوهابيـة ولكنـه يمـارس الاختلاس والرشوة. وذكر مؤلفـون أمريكـان "أن من لم يكن يقــوم بــذلك يعتــبر أمــا أحمــق أو غــريب الأطوار"(3). وقد اقترن اتساع الجهـاز البـيروقراطي وزيادة عوائد النفـط بانتشـار الفسـاد الـذي بلـغ حـداً

أصبح معه الجزء الأكبر من اعتمادات الميزانية يتسرب إلى جيوب القيمين على استخدامها، بمن فيهم أفراد الأسرة السعودية. وغالباً ما كان موظفو الدولة يمارسون الاتجار وفي المقابل يتبوأ التجار مناصب حكومية. ولذا فإن هؤلاء الأشخاص ما كانوا ليترددوا قط في استثمار مناصبهم لتحقيق مآرب شخصية(4).

ونظراً لضيق مجال استثمار رؤوس الأموال في العربية السعودية، وخصوصاً في التوظيفات الطويلة الأجل فإن كميات كبيرة من الأموال أخذت تتسرب أعلى الخارج ابتداء من الأربعينات والخمسينات وتستقر هناك كودائع مصرفية أو شراء العقار(5).

النظام المالي. المداخيل والنفقات.

قبل عام 1952 لم يكن يوجد في السعودية نظام نقدي موحد. فإلى جانب الريال السعودية كان يتناول في الحجاز الجنيه الذهبي الإنجليزي والمصري، وفي شرق البلاد الربية الهندية، أما طالر ماريا تيريزا فقد كان عملة متداولة في كل مكان ويعادل ثلاثة ريالات سعودية(6).

في عام 1952 أنشئت وكالة النقد السعودية وخولت صلاحيات بنك الإصدار، وبعد بضع سنوات أسس البنك المركزي الذي اصدر ريالاً مغطى بالذهب (زهاء 0.2 غرام) وبالعملة الصعبة. وكان الدولار الأمريكي يعادل 3.75 ريال، وفي عام 1960 أصبح يساوي 4.5 ريال(7). وبدأ إصدار ما يسمى "بصكوك الحجاج" التي حلت محلها تدريجياً النقود الورقية.

وفي الأعـوام التاليـة عـدلت القيمـة الرسـمية للريال السعودي مـرتين. فـأثر تخفيض سـعر الـدولار وبقاء المحتوى الـذهبي للريـال على وضـعه السـابق، ارتفـاع سـعره ابتـداء من كـانون الأول (ديسـمبر) 1971 وأصبح الدولار يعادل 4, 14 ريالاً(8). وفي آب (أغسطس)1973 رفعت السعودية سعر الريال وزيد محتواه الذهبي إلى زهاء 0.21 غرام، وأصبح الـدولار يعادل 3.55 ريال(9).

وعلاوة على مقرها في جدة، افتتحت وكالة النقد فروعـاً في مكـة والمدينـة و الـدمام، وكـانت مهمتهـا الرئيسـية تتمثـل في العمـل على ضـمان اسـتقرار وتوطيد العملة السعودية ومركزة المداخيل والنفقات ومسـاعدة وزارة الماليـة والاقتصـاد الوطـني. وكـان الخبراء العاملون في الوكالة من الأجانب(10).

في عـام 1957 انضـمت العربيـة السـعودية إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنـذ عـام 1970 انتسـبت إلى الرابطـة الدوليـة للتنمية(11). وأصبحت هذه المنظمـات الدوليـة الـتي يهيمن عليهـا رأس المـال الأمـريكي هي الـتي تتحكم في السياسـة الماليـة والاقتصـادية للمملكـة، على الرغم من أن تحقيق توصياتها غالباً ما كان متعذراً.

حـتى عـام 1952 كـانت "الشـركة التجاريـة الهولندية" العاملـة منـذ عـام 1926 البنـك الرئيسـي للسعودية ومن خلاله قدمت سوكال الـدفعات الأولى المترتبة عليها عند الحصول على الامتيازات النفطيـة. وفي الأربعينات وأوائل الخمسينات بـدأ العمـل "بنـك دي لا أندوشـين" الفرنسـي والبنـك العـربي الأردني

وبنك "ميدل أيست" البريطاني و "نشينل بنك" الباكستاني(12).

وفي أواسط الستينات كان في السعودية ثلاثة بنوك وطنية وهي البنك التجاري الوطني ومقره جدة وبنك الرياض وبنك التسليف الزراعي الذي أنشئ عام 1964(13).

وأسس البنك التجاري الأهلي في أواسط الثلاثينات من قبل أشهر البيوتات التجارية في جدة(14). وفي عام 1974، بلغ عدد البنوك السعودية 12 بنكاً لها 72 فرعاً ووكالة، بالإضافة إلى عشرة بنوك أجنبية(15).

وبلغت العوائد المباشرة المستحصلة من شركات النفط أكثر من أربعة أخماس مداخيل الدولة. أما إذا أخذنا في الاعتبار المداخيل غير المباشرة الناتجة عن نشاط الشركات، فيمكن القول أن كل مداخيل الدولة، ومجمل اقتصاد البلاد عموماً، كان وما يزال قائماً على استخراج البترول وتصديره.

أما مصادر الدخل الثانوية فهي تتمثل في رسوم البلدية والمرافئ والمطارات وغيرها، والعوائد من استثمار السكك الحديد وشركة الطيران ورسوم الطرق والزكاة. وفي عام 1954، كانت الزكاة لا تشكل سوى مليون دولار ونيف، أي أقل 1% من مداخيل الدولة. وفي الخمسينات خفضت الحكومة نسبة الزكاة من 2.5% إلى 1.25% من مداخيل السكان، على افتراض أن المسلمين سوف يتولون بأنفسهم إنفاق المتبقي في عمل المعروف(16).

إما بالنسبة لنفقات الدولة فإن الجـزء الأساسـي منها كان يخصص في الأربعينات والخمسينات للإنفاق على العائلـة المالكـة والقـوات المسـلحة والشـرطة ولتمويل العشائر والمؤسسات الدينية(17).

وفي عام 1960، زارت العربيـة السـعودية بعثـة البنـك الـدولي للإنشـاء والتعمـير الـتي أوصـت، فيمـا أوصت، بتأسيس هيئة مركزية للتخطيط وتركيز جهود الحكومـة على أهم المشـاريع الاقتصـادية، وخصوصـاً التي لا تستثمر الرساميل الخاصة، ومواصـلة دراسـة الثروات المعدنية والمائية.

وفي عام 1961 أنشئت الهيئـة العليـا للتخطيـط الـــتي كلفت بوضـــع سياســـة التنميـــة الاقتصـــادية بالاشتراك مع سائر الوزارات والمصالح وذلك استناداً إلى توصـيات البنـك الـدولي للإنشـاء والتعمـير، كمـا كلفت بمتابعة تنفيذ المشـاريع الاقتصـادية. وفي عـام 1965، حلت محلها منظمة التخطيط المركزية الـتي منح رئيسها رتبة وزيـر. ولم يكن هنـاك فصـل واضـح لوظائف كل من منظمة التخطيـط المركزيـة ووكالـة النقد ووزارة الماليـة والاقتصـاد، لـذا غالبـاً مـا كـانت تنشأ تناقضات حادة فيما بينهـا. ولم يتم تنفيـذ أي من الخطط الاقتصادية التي أقرت في مطلـع السـتينات(18).

في الســـتينات أخـــذت تتزايـــد في اعتمـــادات الميزانيـة النفقـات المخصصـة للمواصـلات والصـحة والتعليم والزراعة وتـوطين القبائـل والـري. وخصـص للصحة في عام 1959 وكـذلك في 1973 _ 1974 60 مليـون ريـال و 499 مليـون ريـال على التـوالي،

كما خصص للمشاريع الاقتصادية 55 مليون ريال و 14 مليار و 263 مليون ريال على التوالي.

وازدادت الميزانية أجمالاً من 1112 مليون ريال في عام 1959 إلى 22 مليار و 810 ملايين ريال في السنة المالية 1973 ـ 1974.

ونصت ميزانيات الدولة في الستينات وأوائل السبعينات على زيادة استثمارات التنمية الاقتصادية والصحة والتربية. بيد أن مشاريع التنمية الاقتصادية كانت إلى حد كبير تغطية لنفقات ذات طابع عسكري استراتيجي (19). وبعد عام 1967 بلغت الاعتمادات المباشرة وغير المباشرة للقوات المسلحة والشرطة، أي لأهداف حماية النظام، خمس الميزانية (بعد أن كانت تشكل حوالي الثلث)(20). وبلغت نفقات الجيش 10 ـ 13% من الناتج الوطني الإجمالي، أي أكثر مما في أي بلد من بلدان حلف الناتو بما فيها الولايات المتحدة، ولم تزد عليها سوى نفقات بلدان الشرق الأوسط الضالعة مباشرة في النزاع العربي الإسرائيلي(21). وكان جهاز الدولة المتضخم "يأكل" ويسرق جزءاً هائلاً من الأموال(22).

منذ أواخر الستينات وبداية السبعينات لوحظت ظاهرة جديدة في الممارسة المالية العربية السعودية، تمثلت ي تصدير الرساميل عبر قنوات حكومية، من خلال وكالة النقد، وكان الجزء الأساسي من ايداعات الدولة محفوظاً في "مورغان غارنتي تراست كومباني" وتشيز منهاتن بنك(23)، كما أودعت مبالغ كبيرة في بنوك أوروبية. وبلغت الأرقام

الإجماليـــة للايـــداعات الســـعودية في الخـــارج: 785 مليون دولار عام 1969 و 890 مليونـا عـام 1970 و 1540 مليونا عام 1971 و 2870 مليونا عـام 1972 و4790 مليونـاً عـام 1973 و 19200 مليـون عـام 1974 و 38700 مليـــون عــــام 1975 و 49590 مليوناً عام 1976(24).

وهـــذه أرقـــام تقريبيـــة هي مجـــرد مؤشـــر على الاتجاه العام وليس على الكميات الدقيقة للرســـاميل المودعة.

بعد زيادة أسعار البترول القياسية لعـدة أضـعاف لم يعـــد بوســـع البلـــد أن يســـتوعب أو حـــتى "يأكـــل" المداخيل المتزايدة، فأخذ يصـدر الرسـاميل بكميـات متزايدة، وبلغت الايداعات في الخارج بضـع عشـرات المليارات من الدولارات في أواخر السبعينات. وكـان القســـم الأكـــبر من الايـــداعات الســـعودية يتكـــون من ســـندات الخزانـــة الأمريكيـــة والايـــداعات المصـــرفية وأســـهم الشـــركات ومن اســـتثمارات الـــدولارات الأوروبيـــة في الســـوق والعقـــارات. وتفيـــد إحصـــائيات "فيرســـت ناشـــنل بنـــك أوف شـــيكاغو" أن 70% من الاستثمارات السعودية كانت مرتبطة بالدولار.

ميلاد ونشوء الصناعة الوطنية. في مطلع الأربعينـــات لم تكن العجلـــة مســـتخدمة في غالبيـــة منـــاطق العربيـــة الســـعودية. ومن الخطـــأ القـــول بـــأن سكان هذه المناطق "لم يعرفوا العجلة". ولكن غيابها هو مؤشر دقيق على مستوى تطـور القـوى المنتجـة في البلـــد. وحـــتى مطلـــع الســـتينات كـــان "الإنتـــاج

الوطـــني". مقتصــراً على الضــروريات التقليديــة من عمل الصناع والحرفيين العاملين في البيوت(25).

وكان الصدع قد بدأ يـدب في الاقتصـاد التقليـدي للعربية السعودية، وما يتصل به من مسـتوى مختلـف في تطور القوى المنتجة، والفقـر والمـرض والأميـة، قبل ظهور شركة أرامكو. وقد تسارعت هذه العمليـة بفعــل هجــوم المؤسســة الرأســمالية المعاصــرة والإســراف في الاســتيراد الــذي يـؤدي إلى عــواقب وخيمة على الحرف المحلية (كما هـو الحـال بالنسـبة للحياة البدوية). وفي أواخر الخمسينات ذكـر بـاحثون أمريكان أن "فروع الحـرف قـد عـانت في السـنوات الأخيرة من ركود شامل بفعـل تزايـد اسـتيراد السـلع الصناعية الرخيصـة..". وأن عـدد العـاملين في الإنتـاج الحرفي الذي لم يكن أصلاً كبيراً قد أصبح اليوم ضئيلاً للغاية"(26).

ولقد مارست أرامكـو، وسـط اقتصـاد ينتمي إلى فترة القـرون الوسـطى أو مـا قبلهـا، تـأثيراً مباشـراً على مجتمع الجزيـرة. فقـد اسـتمالت القـوة العاملـة المـأجورة وشـيدت مـدناً وبلـدات عصـرية وأنشـأت هيئـات الخـدمات وورشـات شـارك فيهـا رأس المـال الوطني ومدة شبكة من الطرق. وكل هذه التحـولات التي تعـد تقـدماً بالنسـبة لاقتصـاد العربيـة السـعودية وتطورهـا الاجتمــاعي، لم تكن عملاً خيريــاً تســديه الشــركات الأمريكيــة، بــل اســتدعتها ضــرورة تهيئــة أبسط الظروف الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعيـة والسياسية الملائمة لعمل أرامكو بشكل طبيعي.

وبمساعدة الرساميل المحلية أخذت تظهر في المنطقة الشرقية فروع ثانوية للصناعة والبناء تتولى تقديم الخدمات لأرامكو. ولئن كان في البلد عام 1944 مقاولان محليان فقط، فقد أرتفع العدد عام 1947 إلى 107 مقاول وبلغ عام 1955 زهاء المائتين وعمل لديهم بضعة آلاف من العمال. وشارك عدد كبير من المقاولين في مد خط أنابيب البترول عبر الجزيرة العربة وفي شق الطرق ومد خط السكك الحديد بين الدمام والرياض، وإنشاء المطار العسكري في الظهران وبناء المدارس والمستشفيات ودور العمال والمستخدمين المشتغلين لدى أرامكو وتعمير ميناء الدمام (27 _ 28). وافتتح عدد من المقاولين السعوديين مكاتب إنشائية وأسسوا شركات نقل بحوزتها عشرات السيارات وورشات تصليح. وعلى الرغم من أن حصة المقاولين من الحجم الإجمالي للأموال التي أنفقت على الأعمال الإنشائية لأرامكو كانت ضئيلة، فأنها ظلت في تزايد مطرد ومن خلال تنمية الصناعات العربية صارت أرامكو توجه نشاط الشركات المحلية من خلال توزيع الطلبيات المربحة عليها أو حجبها عنها.

أقيمت في المحافظة الشرقية معامل صغيرة لإنتاج المواد الإنشائية والقناني والأوكسجين والثلج والمرطبات ومحطات كهربائية وورش لصنع الأثاث. كما ازداد عدد الشركات التجارية والحوانيت والدكاكين(29).

ولكن "عند حلول عام 1960 لم تكن توجد عملياً في البلد صناعة وطنية" كما يشير الباحث السوفييتي أوزولينغ وهو مصيب في ذلك(30). وباستثناء مصانع تكرير البترول العائدة ملكيتها لرأس المال الأجنبي، لم تكن توجد في السعودية أي مؤسسة يربو عدد العاملين فيها على المائة.

وفي المتوسط كانت كل مؤسسة "ضخمة" تضم ستة عمال ، علماً بأن عددهم الإجمالي قارب الـ5500(31). وقد بلغت الاستثمارات "الصناعية" بضع عشرات من ملايين الدولارات، بينما بلغت استثمارات أرامكو زها ألف مليون دولار.

وكانت كل المؤسسات تقريباً ملكاً لرأس المال الخاص باستثناء الورش الحكومية الكبيرة لتصليح السيارات(32).

وفي الأربعينات ومطلع الخمسينات أنصب اهتمام الطبقة الحاكمة في السعودية على الإثراء الشخصي وأخذت تستهلك و "تأكل" بشرهة عوائد النفط، ولم تكترث البتة بمصير الصناعة الوطنية والحرف. ولكن بالتدريج نضجت لدى أكثر ممثلي هذه الطبقة تنوراً وبصيرة فكرة حول ضرورة تدخل الدولة في الاقتصاد، أو في تقنينه وتشجيعه. ونشأت هذه الأفكار سواء بفعل العمليات الجارية في البلدان العربية أو نتيجة للانتقاد الذي تعرض له النظام من المنظمات المعارضة الأكثر تطوراً الوليدة في البلد أو بمشورة الخبراء الأمريكان.

وفي معرض تقييم السياسة الاقتصادية للعربية السعودية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية،

قسمها أوزولينغ إلى أربع مراحل سماها اصطلاحاً: "فترة الانتشاء بالثورة" 1946 ـ1956. إن العربية السعودية التي خطت الخطوات الأولى على طريق التحول إلى دولة "برجوازية إقطاعية"(33) متعددة الأنماط شهدت زيادة سريعة في استخراج النفط رافقتها ارتفاع مماثل في مدخول الطبقة الحاكمة. "الفترة الانتقالية" 1957 ـ 1963. اضطرت الحكومة إلى اتخاذ بعض التدابير لإنعاش الاقتصاد الوطني. وتقرر فرض رقابة على العمليات النقدية وتحديد الاستيراد وموازنة النفقات والمداخيل.

ومنذ عام 1964، نشأت لأول مرة في البلد قاعدة متينة متسعة باطراد لتحقيق زيادة سريعة في رصيد التراكم الوطني. وهذا أمر نادر تقريباً بالنسبة لبلد تسوده الأنماط الإقطاعية وشبه الإقطاعية العاجزة بذاتها عن أن تكون قاعدة للتراكم. ويعزى ظهور قطاع جديد في الاقتصاد، وهو قطاع الدولة الرأسمالي، في أواسط الستينات إلى جملة أسباب يدخل ضمنها تمركز موارد مالية طائلة في يد الدولة وضرورة عدم الاقتصار على حماية مصالح الطبقة البرجوازية المتنامية بل وشق الطريق أمامها، وتهيئة الظروف الملائمة لمزاولة الأعمال الحرة.

وتبدأ الفترة الرابعة من السبعينات. إذ إن الحكومة التي كانت تؤثر التخطيط الجاري القصير الأمد (لفترة سنة مالية واحدة) قد أقرت أول خطة خمسية للتنمية الاقتصادية في البلد (1971 ـ 1975).

في أيار (مايو) 1962 صدر مرسوم حول حماية الصناعة الوطنية ألغيت بموجبه الرسوم الجمركية المفروضة على استيراد المكائن والمعدات وقطع الغيار وبعض الخامات والمواد نصف المصنعة. والتزمت الحكومة بتخصيص أراض للمؤسسات الصناعية الجديدة. وفي عام 1962 عدل أسم وزارة التجارة إلى وزارة التجارة والصناعة، وكلفت بوضع التدابير الكفيلة بحماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية، وتقديم تسهيلات للرأسمال الوطني في مجال استيراد المعدات الصناعية، وفي ميدان الضرائب والقروض(34).

وعكفت منظمة التخطيط المركزية التي أسست عام 1965 على وضع توصيات تهدف تنويع الاقتصاد السعودية وتهيئة أول برنامج خماسي للتنمية الصناعية. وفي عام 1965 أقر لأول مرة لزوم تسجيل كل الشركات الجديدة في وزارة التجارة والصناعة.

واستناداً إلى مرسوم حماية وتشجيع الصناعة الوطنية الصادر في أيار (مايو) 1962، تم حتى نهاية عام 1971 إنشاء 188 شركة يراوح عدد العاملين في كل منها 7 إلى 64 عاملاً. وكان معدل رأس مال كل شركة يساوي 1.1 مليون ريال سعودي(35).

واستثمرت أكبر الرساميل في قطاع البناء. بيد أن القسم الأكبر من المؤسسات الصناعية السعودية ظل عاجزاً عن العمل بكل طاقاته نظراً لضيق السوق والمزاحمة الأجنبية وعدم توفر ما يكفي من الأيدي العاملة والمواد الخام وكان التطور الناجح من

نصيب صناعة الأسمنت فقط، حيث أزداد انتاجهـا من ثلاثين ألـف طن في 1957 _ـ 1958 إلى 911 ألفاً عام 1972(36).

يتضـمن دليـل الغرفـة التجاريـة في جـدة قائمـة بالمؤسسات الـتي كـانت موجـودة في هـذه المدينـة التي هي أكبر مدن الحجاز في أواخر الستينات. وهي ، كما أسلفنا، مقتصرة على صناعة المرطبـات والثلج والـــورق والطـــابوق والمـــواد الإنشـــائية الأخـــرى والمستحضرات الكيماوية المنزلية وحقـول الـدواجن. واليكم أمثلة على رساميل تلـك المؤسسـات: شـركة المرطبات _15 مليون ريال، شـركة الأسـمنت ـ 25 مليون ريال، معدل الطابوق _200 ألف ريال، شـركة المستحضرات الكيماويـة المنزليـة _ 7.5 ملايين ريال.

في السـتينات قـام رجـال الأعمـال السـعوديون بإنشاء معمل في موقع بين الرياض والخـرج ومصـنع للطابوق في جـدة ومصـنعين للأسـمنت في الريـاض والهفـوف ، كمـا زيـدت إنتاجيـة مصـنع الأسـمنت في جدة ومعمل الورق في الدمام. وجرى توسيع معامـل الطـابوق والزجـاج والأثـاث والبسـكويت والحلويـات والمواد الغذائية، وورشات الصهر والميكانيك وتصـليح السيارات(37).

وخصصـت الدولـة مبـالغ كبـيرة لتعمـير وتشـجير المدن والكهربة والخدمات البلدية.

وعمومـاً جـرى التطـور الاقتصـادي خلال هـذه السـنوات باتجـاه توسـيع وتطـوير الهيكـل الارتكـازي بالدرجـــة الأولى، ممـــا أدى إلى زيـــادة الطلب على

الكهرباء والمواد الإنشائية. وقد قدر المبالغ الإجمالي للاستثمارات في الصناعة الوطنية عند نهاية عام 1969 بمليار ريال، ويعني هذا تحقيق زيادة قدرها 6.5 مرة خلال تسع سنوات(38).

وقد ذكر كناورهيز أن عدد العمال في المدن عام 1968 بلغ 101569 عاملاً، وازداد إلى 146740 عام 1971، ولكنه لم يبين ما إذا كان العمال الأجانب يدخلون ضمن هذا العدد. أما عدد "المؤسسات" فقد ارتفع خلال العامين المذكورين من 42886 إلى 60929 .والمقصود بالدرجة الأولى الورش العاملة في قطاع الخدمات (ورش تصليح السيارات والأدوات المنزلية) والمؤسسات الصغيرة للغاية التي تولت إنتاج سلع جديدة، وكان غالبيتها في الحجاز(39).

وفي عام 1967/1968 كما هي الحال عام 1971، كان معدل العاملين في كل "مؤسسة" 2.23 شخص منهم 1.42 عامل أجير0.91 عامل غير أجير أي من أفراد الأسرة التي تمتلك المؤسسة(40).

وكما في العديد من البلدان المختلفة المعتمدة على الغرب، كانت الحكومة السعودية تأمل في استمالة رأس المال الأجنبي لتطوير الصناعة الوطنية، ففي عام 1957 صدر مرسوم حول "تنظيم استثمارات رأس المال الأجنبي" وقد انسحب مفعوله، باستثناء حالات معينة، على جميع الاستثمارات الموجودة أو المستقبلية في البلد. واستثنت منه الشركات صاحبة الامتياز والشركات "ذات الأهمية الحيوية للتنمية الاقتصادية في

المملكـــة". ونص المرســـوم على أن رأس المـــال السـعودي في أي شـركة أجنبيـة يجب ألا يقـل عن 51%، وألا يقـل عـدد السعوديين العـاملين فيها عن 75%، على أن يتقاضـــو مـــا لا يقـــل عن 45% من الأجور. وألزمت الشركات بمراعـاة أحكـام الشـريعة ومسك دفاترها باللغة العربية، وبأن تتخذ من العربيـة السعودية مقراً لمكاتبها الرئيسية(41).

في شـباط (فـبراير) 1964، أقـر قـانون جديـد حول الاستثمارات الأجنبية شمل رأس المال الأجنـبي بموجبه بطائفـة من الامتيـازات الـتي كـانت ممنوحـة لـرأس المـال الوطـني وطبقـا لهـذا القـانون أعفيت المؤسسات التي يساهم فيها رأس المال الأجنبي من ضريبة الدخل ورسوم الشركات لمدة خمس سـنوات من تاريخ تشغيل المؤسسات شريطة ألا تقـل حصـة رأس المـال الوطـني فيهـا عن 25% طيلـة فـترة شمولها بالتسهيلات. وسمح للأجـانب بـإخراج الأربـاح ورأس المال دون عوائق. ولم يعد إسهام رأس المال الوطـني شـرطاً يفـرض على الأجـانب عنـد تأسـيس الشــركات، بـل أصـبح عـاملاً يسـاعد على شـمولها بطائفـة من الامتيـازات الإضـافية. أمـا الاسـتثمارات الأجنبية في صـناعة النفـط واسـتخراج المعـادن فقـد جـرت وفـق اتفاقـات خاصـة(42). وحـتى نهايـة عـام 1971، بلغ عدد الشركات الصناعية 66 شركة برأس مال قدره 103 ملايين ريال. وليس ثمة أرقام دقيقـة عن عدد عمال تلك المؤسسات.

في مطلع السبعينات كانت البرجوازية الصـناعية في العربة السعودية مما برحت في حالة جنينية، ولم

يكن لها وزن اقتصادي أو سياسي. وقد كـان النشـاط الصناعي يدر قليلاً وتحفه مخاطر كبيرة بحيث أنـه لم يجتـذب أصـحاب رؤوس الأمـوال من التجـار وأفـراد الأسـرة السـعودية والفئـة العليـا من الجهـاز البـيروقراطي. وقـد آثـر هـؤلاء تحويـل أمـوالهم إلى الخارج أو استثمارها في تجارة الاستيراد أو المضاربة بالأراضـي أو بنـاء المسـاكن، وفي أحسـن الأحـوال استخدامها في المقاولات والشركات الإنشائية.

لذا جابهت الحكومة منذ بداية السـتينات ضـرورة الاضطلاع بمهمة التنمية الصناعية في البلد.

وقد اضطرت الدولة التي كانت من حيث الجوهر الطبقي في مرحلة الإقطاع المبكـر إلى تـولي إقامـة قطـاع رأسـمالي عـام في الاقتصـاد، وخصوصـاً في الحقـول الصـناعية الـتي تتطلب توظيـف رسـاميل كبيرة.

وتوخياً لهذا الغرض أنشئت شركة حكومية باسـم الهيئة العامـة للبـترول والمـواد المعدنيـة (بـترومين)(43).

وقد اشـترت بـترومين من أرامكـو مصـنع تكريـر النفـط في جـدة وشـرعت بتوسـيعه، وسـيطرت في الوقت نفسه على شبكة توزيـع المشـتقات النفطيـة. وشرعت بترومين، بالتعاون مع شركات أجنبيـة، ببنـاء مصانع كيماوية يستخدم بها الغاز المصاحب الذي كان فيما مضى يحرق في حقـول النفـط، للاسـتفادة منـه في إنتـاج الأسـمدة والكـبريت والحـوامض واللـدائن(44). وفي عــام 1973، بلــغ إنتــاج الأســمدة في

مؤسسات بترومين 50 ألف طن(45). ثم اعتمدت بترومين أموالاً لتطوير صناعة المعادن.

إلى جانب مصنع الحديد والصلب ومعمل إنتاج الأسمدة في الدمام، كانت المؤسسات الكبرى للصناعة في السعودية في بداية السبعينات متمثلة بمعمل تكرير النفط في جدة حيث بلغ عدد العاملين هناك 500 عامل، ومصانع الأسمنت الثلاثة التي بلغ مجموع العاملين فيها 981 شخصاً(46).

وشيدت في الخرج مجموعة من المصانع الحكومية التي تعتبر ضخمة في نطاق السعودية. فقد عمل هناك عام 1965، 850 عاملاً و 54 مهندساً وفنياً وكلهم سعوديون(47). علاوة على البترول اكتشفت في السعودية ثروات طبيعية أخرى مثل الجبس والنحاس والحديد واليورانيوم والملح الحجري والفضة والذهب وغيرها. ولكن استثمار هذه الثروات لم يبدأ عملياً في الستينات(48). وجدير بالذكر أن شركة إنكلو أميركية كندية قامت في الفترة من 1934 إلى 1954 باستخراج الذهب في منطقة مهد الذهب وذلك من مقالع قديمة، وبلغ مجموع ما استخرجته خلال عشرين عاماً زهاء 26 طناً من الذهب، وبعد ذلك اعتبرت أن مواصلة الاستخراج غير مربحة(49).

في تموز (يوليو) عام 1972، أقرت في العربية السعودية قوانين جديدة لتنظيم استثمار الثروات المعدنية (باستثناء النفط). وزيدت المساحات القصوى للأراضي المخصصة للتنقيب من مائة كيلومتر مربع إلى عشرة آلاف كيلومتر مربع،

وأُعفيت الشركات التي تباشر العمل من الضرائب لمدة خمس سنوات وأدى ذلك إلى تنشيط ملحوظ في التنقيب عن النحاس بخاصة(50).

أما في الفروع الصناعية الرئيسية التي تتطلب استثمارات مالية كبيرة، وحيث تكون مساهمة رأس المال الأجنبي أمراً حتمياً، فإن الحكومة السعودية حاولت، عبر بترومين،إن تمارس الرقابة على الشركات المؤسسة حديثاً. فقد وظفت فيها أموال الدولة وكانت في غالبية الأحوال تحمل أسهم ضمان الإدارة (51% أو أكثر من الأسهم) وكان ممثلو الحكومة أعضاء في مجالس الإدارة. ولكن المشاريع الصناعية غالباً ما كانت تصبح غير ريعية وتغدو مصدر إثراء للموظفين المحليين والشركات الأجنبية، وذلك بسبب عدم أهلية ممثلي الحكومة السعودية وتفشي الفساد بينهم.

وفي الخمسينات والستينات والسبعينات أنجزت بنجاح اكبر، وأن كان ذلك على حساب إهدار أموال كبيرة، مهمة إقامة شبكات عصرية من الطرق والمواصلات، وذلك باستخدام التكنولوجيا الموردة والكوادر الأجنبية.

فقد كان البلد المترامي الأطراف والقليل السكان والمكون أساساً من الصحاري الحجرية والرملية، بحاجة إلى الطرق. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1951، مد خط للسكك الحديد ذو طريق واحد طوله 577 كلم من الدمام على سواحل الخليج العربي عبر الهفوف والظهران إلى الرياض(51). وما زال النقاش محتدماً حتى اليوم حول الجدوى

الاقتصادية لهذا الخط وعلى أي حال لم تشيد في البلد خطوط أخرى ولم تنفذ مشاريع تمديد الخط إلى المدينة وجدة ويتبع وإعادة بناء خط الحجاز الذي دمر خلال الحرب العالمية الأولى.

وبدأ بشكل حثيث شق طرق السيارات في الخمسينات. ففي المقاطعة الشرقية ربطت هذه الخطوط بين الظهران والخبر والدمام ورأس تنورة والجبيل. وشقت طرق معبدة إلى الكويت وإلى الأردن وسوريا ولبنان، بمحاذاة خط أنابيب النفط. وشقت طرق مماثلة من جدة إلى مكة والمدينة ومن ثم طريق جبلي من الطائف إلى مكة. وفي السبعينات استمر شق الطرق بوتائر أكبر من السابق، ودشن الطريق الذي يربط بين الحجاز ونجد والأحساء، وربطت طرق السيارات بين المراكز الرئيسية في البلاد. وكان من أكبر مشاريع المواصلات في الفترة 1971 _ 1975 إنجاز أعمال شق طريق الطائف _ أبها _ جيزان، وطوله اكثر من 700 كيلومتر.

وتم بناء أو توسيع أو تعمير موانئ في جدة وينبع على البحر الأحمر وفي الدمام والخبر وميناء سعود على الخليج العربي. وفي الستينات كان يوجد في البلد مطاران عصريان في جدة والظهران، ومن ثم شيدت مطارات كبرى في الرياض والمدينة والطائف، وأخذت طائرات شركة الخطوط السعودية المرتبطة بشركة "TWA " الأمريكية تقوم برحلات منظمة إلى عشرات من بلدان العالم.

ربطت المراكز الرئيسية في البلد بشبكة للهاتف أصبحت اوتماتيكية منذ السبعينات وشغلت إذاعات ضخمة في جدة ومن ثم في الرياض ومكة، علاوة على إذاعات أصغر في مناطق أخرى. وظلت شركة أرامكو لفترة طويلة تملك محطة التلفزيون الوحيدة في البلد، ولكن تم في الستينات إنشاء شبكة للتلفزيون على نطاق البلد كله، وذلك بعد صراع مع علماء الدين(52).

لقد وضع كناورهيز جدولاً لنمو الاقتصاد السعودي للفترة 1962 _ـ 1972. وادرج ضمن المنتوج الإجمالي الداخلي النفقات العسكرية والخدمات. واعتباراً من عام 1966 استبدل طريقة الحسابات. ولكننا يمكن أن نحصل على صورة عامة للاقتصاد على الرغم من الطابع التقديري للعديد من معطياته. وتفيد معلومات كناورهيز أن المنتوج الإجمالي ازداد خلال الفترة المذكورة من 8.6 مليار ريال سعودي إلى 21.3 مليار. وظل استخراج النفط يحتل المرتبة الأولى في اقتصاد البلد. وكانت الزراعة تتطور بمنتهى البطء، حتى انتقلت في مطلع الستينات من المرتبة الثانية في الاقتصاد إلى المرتبة الثامنة. وشغل تكرير النفط المرتبة الثانية. وازداد الإنتاج الصناعي من 157 مليون ريال في 1962 إلى 417 مليوناً في 1972، كما ازداد البناء من 311 مليون ريال إلى 1415 مليوناً. ولا تأخذ هذه الأرقام بالاعتبار التضخم النقدي وارتفاع الأسعار على سبيل المضاربة ولا تبين حصة الخامات والبضائع المستوردة شبه المصنعة في قيمة الإنتاج الصناعي.

وفي السبعينات، كما يقول أوزرلينغ، ظلت الصناعة النفطية عموماً "أساس اقتصاد البلد والمجمع الصناعي الوحيد المتطور والذي يفي بالمتطلبات التكنولوجية الحديثة. ولكن نظراً لأن ملكيته تعود بمجملها تقريباً إلى رأس المال الأجنبي والأمريكي أساساً، فإنه ينبغي اعتباره كياناً اقتصادياً قائماً بذاته ولا يدخل عضوياً ضمن الاقتصاد الوطني السعودي وإن نشاط هذا القطاع معزول إلى حد كبير عن عملية إعادة الإنتاج الجارية ضمن الاقتصاد الوطني بمعناه المباشر"(53). وباستثناء المجمع النفطي ظلت السعودية من أكثر بلدان العالم تخلفاً من الناحية الاقتصادية وفي أواسط السبعينات وبعد 15 عاماً من الجهود فإن إسهام الصناعة الوطنية في الناتج الوطني الإجمالي ظل ضئيلاً للغاية.

وانتجت الصناعة التحويلية الوطنية في النصف الثاني من الستينات ما يربو على 2% من الناتج الإجمالي في البلاد. وفي مطلع السبعينات انخفضت حصتها بسبب تسارع نمو الصناعة النفطية. ولكي تحقق المؤسسة أرباحاً وقدرة على المزاحمة لابد لها أن تعتمد على قاعدة تكنولوجية متطورة وكوادر مؤهلة وسوق ذات سعة كافية. إلا إن هذه الشروط لم تكن متوفرة في العربية السعودية. ولم يعط ثماره وجود الرساميل الضخمة واستعداد الحكومة لاستثمار الأموال في الصناعة وتعمقت المشاكل الاقتصادية بسبب ضعف الهياكل الارتكازية وارتباك الإحصاء وفساد جهاز الدولة وتواطؤ الشركات الأجنبية التي ضاعفت مراراً أسعار الأجهزة وكلفة

البناء وحكمت على المؤسسات الجديدة بالخسارة مسبقاً.

التجارة والبرجوازية التجارية: في مستهل السبعينات كانت حياة البلد واقتصادها مرتهنتين بالاستيراد. فقد كانت العربية السعودية تستورد من الخارج كل معدات الصناعة والطاقة والمكائن وقطع الغيار والمحركات والأدوات والمستحضرات الكيماوية والمواد الطبية والغالبية الساحقة من السلع الاستهلاكية وقرابة نصف المواد الغذائية. ولم يكن البلد يغطي احتياجاته إلا في مجال مشتقات النفط وجزئياً في مجال المواد الإنشائية وبعض أنواع الأسمدة الكيميائية.

وبعد الأزمة المالية عام 1958، فرضت قيود على استيراد الكماليات، إلا إن تلك القيود طبقت طوال عامين فقط. ومنع منعاً باتاً استيراد المشروبات الكحولية، مما أدى إلى اتساع التهريب.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك بلدان أوروبا الغربية واليابان أكبر العملاء التجاريين للعربية السعودية. أما بريطانيا التي ظلت خلال العشرينات والثلاثينات المهيمن الوحيد تقريباً على أسواق المملكة، فإنها فقدت مكان الصدارة على الرغم من احتفاظها بمواقع قوية. وفيما يخص الاستيراد من البلدان العربية فقد كان مقتصراً أساساً على الماشية واللحوم والفواكه والخضروات والحبوب وبعض السلع الاستهلاكية(54).

وسيطر التجار السعوديون على غالبية الصفقات التجارية في البلد، سواء بالنسبة لتجار الجملة أو المفرد. وأدت زيادة الاستيراد وازدياد الطلب على السلع وتنوعها إلى انتعاش السوق وتنامي البيوتات التجارية القديمة وظهور عشرات ومئات من الشركات الجديدة. ولقد كانت التجارة في البلدان الإسلامية مهنة محترمة على الدوام، خصوصاً وأن النبي (ﷺ) قد زاولها.لذا فأن رأس المال السعودي الخاص، وبالدرجة الأولى الحجازي، تدفق على ميدان التجارة (وكذلك المضاربة بالأرض وبناء المساكن). وقد توفرت لهذا الغرض الكوادر والتقاليد والصلات الكفيلة بأداء المهمة. وكان بين أصحاب البيوتات التجارية في الحجاز والأحساء عدد من أبناء سوريا وفلسطين وحضرموت الذين اكتسبوا الجنسية السعودية(55).

وقد أثار تدفق التجار العرب في الخمسينات استياء التجار المحليين. ولذا صدرت في مطلع الستينات مراسيم تقيد حركة التجار الوافدين من سائر البلدان العربية. وألزم كل تاجر أجنبي (مسلم من بلد عربي) بأن يتخذ له شريكاً سعودياً على أن يكون له ما لا يقل عن 51% من رأس المال. ونتيجة لذلك اضطر آلاف من التجار العرب إلى مغادرة العربية السعودية(56).

وغدا الاستيراد ركيزة لعدد من البيوتات التجارية الكبرى مثل "علي رضا" و "الغصيبي" و "جفلي" و

"بغشان" و "جمية" و "السليمان" و" خشقجي" و "فرعون"(57). وعلاوة على الاستيراد مارست هذه الشركات المقاولات وبناء المساكن والفنادق وتنظيم شركات الملاحة والنقل والأسواق التجارية (سوبر ماركت) كما استثمرت جزءاً من أموالها في صناعات معينة. وكانت هذه في الغالب مؤسسات عائلية وليست شركات مساهمة. وفي السبعينات بلغت الدورة السنوية لرأس مال كبرياتها مليار دولار. وعمل إلى جانبها عشرات ومئات من صغار المستوردين ذوي رؤوس الأموال المحدودة ولكل منهم وكيلان أو ثلاثة. وتبدل الموقف جذرياً في المجال التجاري، وخصوصاً إذا تذكرنا أن التجار من جيل أسبق أو جيلين كانوا يستوردون الأطعمة والأقمشة والثياب من بومباي والأخشاب من مالابار.

أسست عائلة "على رضا" ومقرها الرئيس في جدة والتي يبدو أنها من أصل إيراني، بيتها التجاري في الستينات من القرن الماضي. وقبيل الحرب العالمية كان أحد أبنائها نائباً عن جدة في المجلس العثماني، وتولى آخر ولاية جدة وسلم المدينة عام 1925 إلى ابن سعود. ومنذ عام 1940، أصبحت شركة "على رضا" وكيلاً لشركة "فورد"، وأسندت أليها بعد الحرب العالمية الثانية وكالة "وستنكهاوس" و ITT وشركتي "أوميغا" و "بيسو" للساعات. وعين عدد من أفراد العائلة في مناصب وزير التجارة وسفير المملكة في كل من الولايات المتحدة وفرنسا كما أسند إليهم منصب وكيل وزارة

الخارجية. واستثمرت أسرة علي رضا أموالها في العقار والصناعة وحقل الخدمات وإنتاج الكهرباء والمواصلات والصناعة النفطية(58)، وساهمت في مقاولات حكومية كبيرة، كمشاركتها في "الشركة الهندسية العربية الإيطالية للمقاولات" التي تولت استيراد المعدات.

وكان ثمة وسيلة للإثراء تتمثل في أن يكون طرف سعودي ضامناً لشركة أجنبية تعقد صفقات لشق الطرق أو بناء الموانئ أو الفنادق أو تعمير المدن. فقد بدأ نجم عائلة جفلي بالصعود اثر حصولها على عقد لكهربة الطائف لصالح بريطانية(59). وبعد ذلك أصبحت العائلة وكيلا لشركة "مرسيدس" في السعودية وقامت باستيراد الإطارات، وقطع الغيار وشراء عدد من المزارع(60).

ويجدر بالذكر أن الإثراء السريع كان من نصيب أولئك الذين يكلفون بإنجاز أعمال لصالح الدولة أو العائلة المالكة. فقد ذكر المؤلف السعودي فؤاد شاكر في معرض تعداده للبيوتات التجارية في جدة ومكة أن أسرة صالح عيسى البكري أثرت بسرعة بفضل توليها تزويد العائلة المالكة وضباط الجيش والشرطة والمدارس الحكومية في الرياض بما تحتاجه من الأقمشة(61).

هناك طريقة أخرى لتكون البرجوازية وهي صفقات العقار. ففي 1955 / 1956 أطلقت أسعار الأرض وإيجار المساكن في المدن الكبيرة. وقد

ارتفعت الإيجارات عندئذ بنسبة 300 ـ 400 بالمائة، وزادت منذ ذلك الحين عشرات المرات. وجرى تهافت على شراء الأراضي وأزيلت أحياء الفقراء لتشيد مكانها عمارات بغية تأجيرها أو بيعها(62).

وقد أثرت من المضاربة بالأراضي شركة الأخوة الأربعة من آل سويدان في الرياض. إذ أنهم ابتاعوا عام 1969 قطعاً واسعة من الأراضي في مناطق واعدة بالعاصمة وباعوها بعد بضع سنوات بسعر يزيد مائة مرة على سعر الشراء. كما أنهم قاموا ببناء وبيع فيلات ودور سكنية واستيراد المواد الإنشائية والرافعات وسواها(63).

تمركزت في الحجاز أكبر البيوتات التجارية في المملكة. وكانت أكثر المنتفعين من ارتفاع أسعار النفط وزيادة الاستيراد وتنفيذ طلبيات الدولة، وقامت بتوسيع نشاطها ليشمل البلد كله. عام 1948 تأسست غرفة تجارية في جدة وسمح بلأنتساب أليها لتجار المدينة المنورة والطائف وجيزان وتبوك حيث لم تكن فيها غرف تجارية، ولبعض تجار مكة والرياض. وبلغ عدد أعضائها في أوائل السبعينات زهاء الألفين(64).

بدأ غالبية كبار تجار المنطقة الشرقية أعمالهم كمقاولين لدى أرامكو. وكان بعضهم من العاملين سابقاً في الشركة مثل سليمان عليان الذي عمل فيها سائقاً لشاحنة ثم أسس شركة للنقليات. وكان أحد أقربائه الأبعدين، الغصيبي، قد بدأ نشاطه

بمنصب كاتب بسيط، ثم اقتنى محطة بنزين وصار بعد ذلك وكيلاً لشركة بيبسي كولا.

ولم يتيسر للتجار السعوديين ولوج الميدان العالمي بسهولة. ويستثنى من ذلك أربعة من رجال الأعمال أصبحوا من كبار أصحاب الثروات في العالم وهم خشقجي وفرعون (وكان أبواهما من أطباء الملك) وسليمان عليان الذي ترأس "البنك السعودي البريطاني" وأكرم وجيه السعودي الجنسية والسوري المولد.

وقد أثرى خشقجي من توريد الأسلحة للجيش السعودي والحصول على "عمولة" من مؤسسات الصناعة الحربية الأمريكية، وكون مجموعة شركات رأسمالها 400 مليون دولار ومقرها في لوكسمبورغ وهي باسم "تريد هولدنغ كوربوريشين"(65).

وتولى فرعون رئاسة "الهيئة السعودية للأبحاث والتنمية" وشملت دائرة أعماله تجارة المكائن والمشاركة في إنتاج السلع الغذائية الاستهلاكية والتأمين.

أما وجيه فقد مارس أعماله من خلال شركته المسماة "تكنيك دي افانغارد" ومقرها لوكسمبورغ أيضاً. ومن أشهر مشترياته سفينة "فرانس" العابرة للمحيطات والتي جهزها بأثاث فرنسي تحفي ثمين.

وقد استثمرت هذه المجموعة من رجال الأعمال أموالاً في شركات أجنبية لها صلة بأعمال البناء وفي

البنـوك. بيـد أن محاولاتهـا للسـيطرة على البنـوك الغربية الكـبرى لم تفلح بسـبب مقاومـة رأس المـال العـالمي في البلـدان المتطـورة وغيـاب الخـبرة والكوادر الإداريـة لـدى الأثريـاء السـعوديين. وأودعت هـذه المجموعـة الرباعيـة من رجـال الأعمـال السعوديين أموالهم في بنـوك ببلـدان آسـيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينيـة واسـتثمرت رسـاميل في مجمعـات سياحية وفندقيـة وشـركات ملاحـة وفي العقـار بكـل أنحاء العالم.

لقد شـكلت البرجوازيـة السـعودية الـتي تربطهـا وشـائج وثيقـة بالعائلـة المالكـة نوعـاً فريـداً من الأوليغارشيا التجارية المالية. فقـد نمت في "دفيئـات زجاجيـة" تقيهـا من المنافسـة الأجنبيـة، واسـتفادت أساساً من الاستيراد الذي كانت عوائد النفط غطـاءه في التحليل الأخير. وقد ذكـرت مجلـة "ميـدل إيسـت أيكونوميك دايجست" إن "العائلة السـعودية الحاكمـة وأعضاء الحكومة يحاولون التهـرب من كـل مـا يمكن أن يشي بصلاتهم مع أرباب الأعمال هؤلاء، ولكن من المعـروف أن هنـاك وسـطاء يسـتخدمون كسـتار للتغطية على النشاط التجاري لأفراد العائلـة المالكـة والوزارة"(66).

ومن خلال الأسـرة الحاكمـة والعوائـل المرتبطـة بها كانت عوائد النفط توزع على الجهاز البيروقراطي الـذي أصـبح الفسـاد المستشـري فيـه أشـبه بعـرف اجتماعي شبه علـني، وتنفـق على الجيش والشـرطة وكبـار القـادة فيهمـا، وعلى الوسـطاء وبـالأخص

الشـركات الأجنبيـة، كمـا تصـرف مختلـف الأعمـال العامة والمشاريع الاقتصادية التي غـدت بقـرة حلوبـاً ومصدراً لإثراء المسئولين عنها والأجانب والوسـطاء. كما أن التجار السـعوديين أثـروا على حسـاب تخلـف المجتمع باستيلائهم على جزء كبير من عائدات النفط عند إعادة التوزيع.

ملكية الأرض والانتفاع بها: مـا هـو تـأثير تنامي عوائد النفط على الفـروع التقليديـة للاقتصـاد: الزراعـة وتربيـة المواشـي الـتي عمـل فيهـا غالبـة السـكان، وعلى العلاقـات الاجتماعيـة في الواحـات وقبائل البدو الرحل وشبه الرحل؟ كانت غالبة أراضي البلاد تعتـبر أرضـاً أميريـة، أي ملكـاً للدولـة ممثلـة بالملك. أما في الواقع فإن جـزءاً كبـيراً من الأراضـي الأميريـة كـان يسـتثمر من قبـل سـاكنيه، وبالدرجـة الأساسـية القبائـل، أو إقطاعـات مشـمولة بحقـوق ملكية مجتزأة. أما الأراضي غـير الأميريـة فقـد كـانت ملكاً لأفراد أو أفخاذ أو عوائل أو قبائل أو من راضـي الأوقاف.

وشملت الأراضي الأميريـة المـراعي والصـحاري العائـدة للقبائـل وبلغت مسـاحتها 80% من أراضـي البد. وفي عام 1925، قلص الملك عبد العزيز حقوق القبائـل المتعـارف عليهـا وكـان عنـد الضـرورة يغـير حدودها وفق مشيئته.

وكانت الدولة ممثلة بالبنك والحكومة تملـك كـل ثروات بـاطن الأرض، لـذا فقـد كـان بوسـعها ترحيـل

القبائل من منطقة إلى أخرى إذا اقتضت ذلك ضرورات ترتبط، مثلاً، باستثمار الموارد الجوفية. أما في سائر الأحوال فإن القبائل واصلت استثمار الأرض كسابق عهدها. وفي الغالب لم تكن القبائل الرحل تتجاوز الحدود المقررة لها، ولكن عندما تسقط في منطقة ما كمية أكبر من الأمطار، كان بوسع القبائل الارتحال إلى مراعي قبائل أخرى.

وكانت ملكية أراضٍ كبيرة تنشأ، عندما تقطع الدولة جزءاً من الأراضي الأميرية وتمنحها لشخص (الإقطاعية). ومنحت اقطاعات كثيرة للضباط كبار التجار الذين كانوا يؤجروها على أساس المحاصصة. وطبقاً لمرسوم ملكي صادر عام 1957، ألزم الراغبون في الحصول على اقطاعات باستحصال أذن من أمير المنطقة ومن الملك لتملّك الأرض وتسجيلها. وأثر ذلك يجوز التصرف بالأرض: نقل ملكيتها، وهبها، تأجيرها أو جعلها وقفاً. وليس واضحاً هل يشمل ذلك الإقطاعات القديمة أم الجديدة فقط؟

وعلى الرغم من أن الإقطاعات ظلت من الناحية الشكلية ملكاً للدولة، فإن الإقطاع نفسه كان شكلاً انتقالياً نحو الملكية الخاصة (الملك)(67). وليس لدينا معلومات عن أحجام الإقطاعات في السعودية.

الملك هو الشكل الوحيد للملكية الخاصة للأرض المعترف به في المملكة، وهو يعني أن الشخصية المعنوية تمتلك الأرض ولها كل حرية التصرف بها.

وقد انتشر الملك على وجه خاص في عسير، حيث كانت الزراعة متطورة أكثر مما في المناطق الأخرى ولكنه لم يشمل عملياً الأراضي الجافة.

كما عرف في البلد المشاع، وفي بعض الأحوال كانت قطع من هذه الأراضي توزع على أفراد الأسرة الكبيرة أو الفخذ لحراثتها. وغالباً ما كان أبن شيخ العشيرة يعين مديراً للملك المشاع. وفي بعض الأحيان كانت تؤجر على أساس المحصصة ثم يتولى كبير العائلة توزيع الأرباح على أفرادها. ولكن في إطار المشاع كان يعاد توزيع الحصص طبقاً لحقوق الإرث. ومن المعتقد أن المشاع شمل زهاء سدس الأراضي المستصلحة وغالبيتها في نجد والمنطقة الشرقية.

وكانت هناك أشكال غير عشائرية للمشاع، كما لدى سكان الواحات. ففي عسير كانت حراثة الأرض وزراعتها وجني المحصول تتم على أساس جماعي وتوزع الغلال بالتساوي.

وفي جيزين وخيبر كانت أراضي الواحات ملكاً لقبائل البدو. ونظراً لتفشي الملاريا هناك فإن القبائل ما كانت لتغدو إلى تلك الواحات إلا لتلقيح الطلع ثم جني البلح، إما رعاية النخيل في سائر أوقات السنة فقد كانت تسند إلى الأجراء المحليين، وهم في العادة من أخلاف المعتوقين. وبعد ذلك يوزع المحصول بين رجال القبيلة مع مراعاة عدد الأفراد في عائلة كل منهم(68).

أراضي الأوقاف صيغة خاصة من الملكية في الأقطار الإسلامية. فبوسع المسلم أن يوقف أرضه للصرف على المؤسسات الدينية والجمعيات الخيرية. ولا يجوز بيع الأوقاف أو مصادرتها وتحال أغلبية الأوقاف إلى المدارس الدينية أو المساجد فتغدو ملكاً لها تؤجره أو تتصرف فيه. ولا يحق للحكومة أن تستولي على الأوقاف وحسب تقديرات مديرية الأوقاف السعودية لعام 1956 بلغت نسبة ملكية الأوقاف من الأراضي المزروعة 5% في عسير، و 10% في الحجاز و 15% في المنطقة الشرقية ونجد(69).

إن ارتفاع نسبة الوفيات بين الفلاحين الذي جعل مستحيلاً عملياً طوال قرون تكاثر السكان الموسع، وضع عقبة طبيعية في طريق تقسيم الأراضي إلى قطع صغيرة. وعند غياب هذا "المنظم الطبيعي" كانت الأسر تتخذ التدابير الكفيلة للحيلولة دون بيع أو تقسيم الأراضي المستزرعة. وغالباً ما كان الورثة يوافقون على أن تكون ملكيتهم للأرض جماعية شريطة أن يمنح كبير الأسرة حق زراعتها أو تأجيرها، ويمنح هذا الحق أحياناً بالتناوب ويحصل كل من تسند أليه هذه الوظائف أجرة إضافية علاوة على الحصة. وبغية الحفاظ على ملكية الأرض في يد أسرة واحدة كان التزاوج بين أبناء العمومة محبذاً(70).

يذكر "الدليل الإقليمي" إن 60% من الأراضي كانت تؤجر بينما يتولى مالكو الأرض زراعة 40% منها فقط. وتراوح نسبة الأراضي المؤجرة في عسير

والحجاز بين 70 و 80%(71). وهذه الأرقام تتطابق مع المعلومات المتوفرة في أواخر الخمسينات. إذ إن 40% من الأراضي كان تستزرع من قبل مالكيها و 10% من قبل مستأجرين يدفعون مبالغ نقدية و 50% من قبل مستأجرين محاصصين(72).

ويرى أوزولينغ أن زهاء 60% من الأراضي المزروعة في البلد يعود للملاكين الكبار والمتوسطين (خمسة هكتارات أو أكثر) الذين قاموا بتأجيرها كلياً أو جزئياً(73) وثمة معطيات أخرى (واضح أنها دون الواقع الفعلي) تفيد بأن نسبة الأراضي المؤجرة تتراوح بين 20 و 22% من الأراضي المزروعة(74). وهذا الأرقام المتناقضة هي دليل أخر على أن المعطيات الإحصائية حول العربية السعودية يجب أن تعامل بحذر بالغ. يذكر البحث المعنون "قوانين العمل والممارسة في العربية السعودية" أن نسبة الأراضي المستأجرة لم تصل في أواخر الستينات إلى أكثر من عشر المساحة الكلية للأرضي(75). ولكن يبدو أنه لم تدرج ضمن هذه الأرقام إلا الأراضي التي كان يدفع عنها أجر نقدي.

سمح بتأجير كل أصناف الأراضي: الأميرية والإقطاعية والمشاع والملك والوقف وأراضي القبائل. وكانت شروط الإعارة والتأجير تثبت تحريرياً أو شفهياً.

وتنص 70% من عقود التأجير بالمحاصصة على أن المالك يوفر الأرض والماء والبذور والمسكن أحياناً. وإذا كان المستأجر يعمل طوال السنة ولديه ماشية وأسمدة ومعدات زراعية وطعام وبيت فإنه يدفع لمالك الأرض 50% من محصول الحبوب و 75% من التمور.

إما إذا كان المستأجر لا يقدم سوى قوة عمله، فإن المالك يحصل على 80% من الحبوب و 95% من التمور. ولكن نسبة مثل هذه العقود بلغت زهاء 5%. وينص حولي 10% من عقود التأجير على أن المستأجر يوفر البذور ويكون نصيبه القسم الأكبر من المحصول. وتتفاوت حصة مالك الأرض تبعا لنوعيتها وتوفر المياه وقرب الأسواق وعوامل أخرى. وأدى إدخال المكائن إلى جعل المستأجر الذي لديه مكائن يحصل على شروط أفضل من غيره(76).

في حالة القحط يضطر المستأجر إلى الاستلاف لإعالة أسرته. وعندما يقترض من المالك فإنه غالباً ما يكبل نفسه بقيود لا يستطيع الفكاك منها ويصبح تابعاً لمالك الأرض كلياً(77).

إن مدة عقود إعارة الأراضي لزراعة النخيل أو أشجار الفاكهة تراوح بين 4 و 7 أعوام. وفي هذه الحالة يعتمد شكل للمحاصصة يسمى "المغارسة". إذ يلتزم المستأجر بزراعة الأشجار وسقيها حتى تعطي ثمارها الأولى، فيحصل مقابل ذلك على كل الغلال ما بين صفوف الأشجار(78).

أما تأجير الأراضي الأميرية فقد كان يتم وفق قواعد أدق، ويتوقف على بعد الأرض ونوعية التربة وشكل الري وكمية النخيل والطلب على المنتجات الزراعية ومدة عقود تأجير الأراضي الأميرية طويلة، وتصل إلى زهاء خمس سنوات، إلا أنها في عسير كانت لا تتجاوز السنة(79).

أما أراضي الأوقاف فقد تولت التصرف بها مديرية الأوقاف التابعة لوزارة الحج والمؤسسات الدينية في مكة، وفي العادة كانت تلك الأراضي تعار بالمحاصصة(80).

إن الجزء الأكبر من حقوق التصرف بالمياه في العربية السعودية يمكن أن يشترى ويباع أو يعار أو يستورد بصرف النظر عن الأرض. لذا فإن الشخص الذي يشتري أو يرث أو يستأجر قطعة أرض لا تكفي مياها للري بوسعه أن يشتري أو يستأجر المياه وفق عقد إضافي. وفي عسير وتهامة فقط كان حق التصرف بالمياه يتطابق مع حقوق ملكية الأرض(81).

كان تنظيم حقوق التصرف بالمياه بين الحضر متطوراً ومعقداً للغاية، ويشمل التناوب في استخدامها ومدته وموسم الري وتقسيم كمية المياه وفقاً لمساحة الأرض. وغالباً ما كان توزيع المياه يخضع لإشراف ورقابة أشخاص يعينهم ويدفع أتعابهم مالكو المياه ومستهلكوها. وكانت مياه الآبار والعيون تخضع لملكية فردية أو جماعية. وفي العادة لصاحب

الأرض حـــق في كـــل عيـــون الميـــاه الواقعـــة على أراضيه، وليسـت هناك حاجـة لاستحصـال أذن خـاص لحفـــر بـــئر فيهـــا. ولكن الحصـــول على أذن خـــاص ضـــروري إذا كـــانت البـــئر تحفـــر في أرض غـــير مستصـــلحة ســابقاً صـــارت إقطاعيـــة. والآبـــار الـــتي يحفرها البدو الرحل تظل تحت تصـرف القبيلـة أثنـاء فترة مكوثها في المنطقة، وعنـد رحيلهـا تصـبح البـئر "مشـــاعة". وكـــانت هنـــاك أشـــكال معقـــدة لملكيـــة القنوات والترع الجوفية.

إن حقـــوق اســتثمار ميـــاه الآبـــار الارتوازيـــة، في المنطقة الشرقية، مثلاً، كانت مرتبطة بمقدار إسـهام مالكها الأول في إقامة الأجهـزة والصـهاريج ومعـدات التوزيع. ووضع نظام خاص لحقـوق التصـرف بالميـاه عند توزيع تيارات المياه على الوديان(82).

يـــذكر كنـــاور هـــيز أن 33242، إي 47.3 % من مجموع ملكيات الأراضـي البـالغ 70352 كـان موزعـا على قطـــع تقـــل مســـاحة الواحـــدة منهـــا عن نصـــف هكتار، وأن 13661 (19.4) كـانت مسـاحتها تـراوح بين 0.5 _ـــ 1 هكتـــار(83) أي أن زهـــاء 67% من الأراضي كـانت مسـاحة كـل منهـا لا تتجـاوز الهكتـار. ويؤكـد هـذه الأرقـام بشـكل تقريـبي دليـل "قـوانين العمـــل والممارســـة في العربيـــة الســـعودية"(84). ويعني ذلك أن القطاع السـلعي الصـغير كـان السـائد في الزراعة.

وفي مطلع الستينات تأسست جمعيات تعاونية زراعية في الطائف والمدينة وبريدة. وكانت تمارس مختلف الأعمال _ من تقديم البذور حتى حفظ المحاصيل وتسويقها. لكنها لم تنتشر على نطاق واسع.

في واحات عسير والحجاز والأحساء الكثيفة السكان نسبياً، كان يعمل في الأراضي عادة أفراد أسرة المالك ونادراً ما يستخدم الأجراء الزراعيون. وساد وضع مماثل في واحات نجد. أما في القصيم وجبل شمر فقد كان الأجراء الزراعيون يشغلون لفترة طويلة أو قصيرة. وفي موسم العمل الزراعي الكثيف كان هناك نقص في عدد الأجراء الزراعيين، وخصوصاً في المنطقة الشرقية، لذا كان يجري التعاقد مع العاملين في فروع الصناعة الثانوية للقيام بهذا العمل(85).

وكانت العقود مع الإجراء الزراعيين شفوية أو تحريرية، غير أنه استمر الاستغلال العشائري الإقطاعي للمعتوقين وبعض الأجراء(86).

وفي نجد كان عدد النساء أكثر من عدد الرجال في الأعمال الزراعية، إذ أن الرجال يؤثرون التجارة والعمل في المستودعات والميكانيك والبناء والحرف(87).

وفي بداية السبعينات بلغ معدل دخل الفلاح الفقير زهاء 1500 _ 1600 ريال سنوياً (دون

احتساب الكسب الإضافي)(88). ولكن المداخيل كانت تختلف اختلافاً كبيراً تبعاً للمنطقة ومساحة الأرض ونوعية الغلال وتوفر المياه. وكان العامل الزراعي الدائمي يتقاضى 1600 ـ 2000 ريال سنوياً(89)، أما العمال المؤهلون (سواق الجرارات والآلآت الزراعية) فإن أجورهم السنوية وصلت إلى 3500 ريال(90) ولكن عددهم كان قليلاً، علماً بأن غالبيتهم من غير السعوديين. وعموماً لم يكن بوسع الفلاحين الفقراء والإجراء توفير ظروف مقبولة لحياة عوائلهم.

بلغت نسبة الفلاحين المتوسطين (من 2 إلى 5 هكتارات) 10.7% من المجموع الكلي. ولكن يمكن أن يدرج ضمن هذه الطائفة مالكو الأراضي التي تراوح مساحتها بين 0.5 و 2 هكتار وخصوصاً في المناطق التي يجنى فيها أكثر من محصول في السنة. وكان غالبية الفلاحين المتوسطين يحصلون على دخل سنوي قدره 3 ـ 5 آلاف ريال، وهو مبلغ يكفل الحد الأدنى للمعيشة، لكنه لا يوفر المال اللازم لتحديث الإنتاج. وندرج في صنف "الأغنياء" أولئك الذين يملكون قطعاً تراوح مساحتها بين 5 و 10 هكتارات (4.8% من المجموع الكلي). ويراوح دخل هؤلاء بين 6 و 10 آلاف ريال، وكانت لديهم قدرة على الانتقال إلى الإنتاج السلعي المكثف اعتماداً على معدات الري والأسمدة(91). بيد أن غالبية هذه الأراضي كانت ملكاً لتجار ومرابين وموظفين يؤجرونها بشروط شبه إقطاعية.

وكان عدد الاستثمارات الكبيرة (أكثر من عشـرة هكتارات) قرابـة 3.5 ـ 5 آلاف (4.5 ـ 7%)(92) وغالبية أصحابها من الإقطاعيين وشيوخ القبائل وأبناء الأسرة الحاكمة والتجار والمؤسسات الدينية.

وكـانت الغالبيـة السـاحقة من المـالكين الكبـار تسـكن المـدن وتـؤجر الأرض، باسـتثناء أفـراد قبائـل مارسـوا الإنتـاج السـلعي المكثـف مسـتفيدين من منجزات الهندسة الزراعيـة. ووصـلت عوائـد الملكيـة الكبرى إلى مائة ألـف ريـال سـنوياً، ولكنهـا غالبـاً مـا كانت "تستهلك" من قبل المـالكين وأفـراد عـوائلهم: لشـراء العقـار والكماليـات والسـيارات، ولا تسـتخدم عملياً لتوسيع وتكثيف الإنتاج الزراعي(93).

ويجمع الباحثون على أن تنـامي الملكيـة الكبـيرة قد اقترن بإفلاس صغار الملاكين. ونظراً لعـدم تـوفر إحصاءات دقيقة حول هـذا الموضـوع، سنقتصـر على إيـراد بعض الاتجاهـات العامـة. كـان بوسـع صـغار المالكين الموشكين على الإفلاس وبضـمنهم من لهم حصـص في الأراضـي المملوكـة جماعيـاً، إن يـبيعوا أراضيهم أو حصصهم، على أن تعرض أولا على سـائر أفـراد المشـاعة، وبهـذا تتـوفر للفلاح الغـني امكانيـة السـيطرة على عـدة حصـص. ولكن إذا لم يكن ثمـة راغب، فإن الـبيع يتم لأشـخاص من خـارج المشـاعة. وكـان صـغار الملاكين، حينمـا يعجـزون عن تسـديد السـلفة الـتي دُفعت لهم مقابـل الأرض أو الوفـاء بالـديون أو سـداد إيجـار الأرض، يعمـدون في نهايـة المطاف إلى بيع أراضـيهم أو التنـازل عنهـا للمـرابين

مقابل الديون. وكان تجار المدن أكبر مشتري الأراضي، علاوة على الموظفين الذين أثروا من الارتشاء وغيرهم من "القطط السمان"(94).

تفيد معطيات أوردها عبد الله الدباغ مدير إحدى الدوائر بوزارة الزراعة السعودية، إن غالبية الفلاحين صاروا منذ بداية الستينات مدينين دائمين للتجار وكبار ملاكي الأراضي. وتزايدت الديون عاماً أثر عام، مما أرغم الفلاحين في خاتمة المطاف على بيع أراضيهم. وازداد عدد الفلاحين المعدمين والعمال الزراعيين(95).

منذ أواسط الستينات جرت أولى المحاولات لتعزيز الفئة المتوسطة من الفلاحين. وفي عام 1967، صدر مرسوم ملكي حول توزيع الأراضي الأميرية غير المستثمرة والصالحة للزراعة وتربية المواشي. وصار بوسع كل مواطن الحصول على أرض، وفق حقوق الإقطاعية، في حالة تمكنه من استثمارها(96).

ووضعت تحت تصرف الفلاحين أراض تراوح مساحتها بين 5 و 10 هكتارات. أما قطع الأراضي التي وضعت تحت تصرف الشركات (بما فيها الأجنبية) فقد بلغت مساحة بعض منها 400 هكتار. بيد أن هذا المرسوم لم يعد بالنتائج المتوخاة لذا فإن الدولةقامت "بإحياء" أراض جديدة عن طريق الري وشق الطرق والترع بغية استمالة الناس إلى هناك(97).

وقد أجرى العالم السعودي عبد الرحمن الشريف في أواسط الستينات بحثاً اجتماعياً اقتصادياً في منطقة عنيزة(98)، ذكر فيه أن الملكيات الصغيرة (من 0.1 إلى 2.5 هكتار) في القصيم تشكل 45.3% من مجموع الاستثمار.

وكان زهاء خمس الملكيات كبيراً نسبياً، ويقول الباحث أنها تكونت أساساً نتيجة "لإحياء" الأراضي البور، أي أراضي الدولة. ولكن، "إحياء الأراضي" لا يعني بالضرورة تحويلها إلى أراض محروثة أو مروية. فقد كان يكفي غرس أشجار لكي تتحول قطعة الأرض إلى ملكية "القائم بالإحياء". وبديهي أن تنشب خلافات كثيرة حول تحديد استيراث مثل هذه الممتلكات أو رسم حدودها. وحلت الخلافات استناداً إلى الشرع.

وفي عام 1961، أصدر مجلس الوزراء قراراً يلزم الراغب بإحياء الأرض باستحصال موافقة أمير المنطقة. وإذا كان من المزمع القيام بعمليات بناء في هذه الأراضي، فأن الأمير يحيل الموضوع إلى البلدية التي ترفعه بدورها إلى وزارة الداخلية ومجلس الوزراء.

أما إذا كانت الأرض الزراعية خارج حدود البلدية، فإن البت في الأمر يعود إلى وزارة الزراعة ومجلس الوزراء. ومن يحصل على إذن بإحياء الأرض ويخل بالتزاماتة، فإنه يفقد الحق في ملكية هذه الأرض. ونص القرار الجديد على أن نقل ملكية الأرض لا يتم

إلا بمرسوم ملكي أو بأمر صادر عن رئيس الوزراء أو من ينوب عنه.

وكان بالإمكان تـأجير الأرض لمـدة مائـة سـنه أو ألـف سـنة، إي دون تقييـد زمـني عمليـاً. ويغـدو المسـتأجر بمثابـة مالـك للأرض. ولكنـه ملـزم بـدفع الإيجـار في نهايـة كـل سـنة. وبوسـع المسـتأجر الأساسي إعادة تأجير هذه الأرض إلى شخص ثاني أو إقامة منشآت عليها. وكانت عقود الإيجار هذه تتوارث من الآباء إلى الأبناء. ويرى عبد الرحمن الشـريف أن هـذا الشـكل من الإيجـار كـان الأوسـع انتشـاراً في عنيزة.

وعند تسليم أرض فيها أشجار، وهي في الأساس النخيل، فإن بدل الإيجار يحتسب وجود هـذه الأشـجار والبئر التي حفرها صاحب الأرض. أما إذا تطلب الأمر استثمار مبـالغ إضـافية فـإن المسـتأجر يغـدو المالـك الثاني للأرض، ولكنه يدفع لمالـك الأرض الأول حصـة محددة بمثابة شريك له. وفي العادة تبلغ الحصـة في مثل هذه الأحوال ربع المحصول. وبوسع مالك الأرض أن يطلب من المستأجرين تخصيص عـدد من أشـجار النخيل فيها له.

وأجـرت الباحثـة اليابانيـة موتوكـو كاتـاكورا(99) الـتي عملت في وادي فاطمـة بالحجـاز في الفـترة 1968 ـ 1970، دراسة ميدانية هامة حـول أوضـاع الفلاحين في السعودية.

وتقـــول الباحثـــة أن جـــزءاً كبـــيراً من البـــدو المتوطنين في وادي فاطمة كـانت لـديهم أراض (من 0.6 إلى 2 هكتـــار) يســـتثمرونها بأنفســـهم. وكـــانوا يفضلون استئجار الأراضي من أبنـاء عشـيرتهم. وهي تقسم بين جميع الورثة مما يؤدي إلى تقلص مســاحة الاستثمار الواحـدة. وفي بعض الأحيـان كـان الأشـقاء يشتركون في حراثة الأرض.

في عام 1946، أُسست في وادي فاطمة شركة "عين عزيزيـة" بـرأس مـال حكـومي وأهلي، وتـولت تزويد جدة ومكة بالميـاه. وتنـازل كثـيرون من ملاكي الأرض الـتي تتـوفر فيهـا عيـون للميـاه عن أراضـيهم للشــركة مقابــل تعــويض نقــدي وانتقلــوا إلى جــدة. وتقـول كاتـاكورا: "في وادي فاطمـة يتضـح بجلاء أن من يســيطر على المــاء يســيطر أيضــاً على اقتصــاد الصحراء".

إن وجود عدة مـالكين للمـاء ووجـود مسـتأجرين ثــانويين ووســطاء يشــترون المحاصــيل قــد زاد من تعقيد القضايا المتصلة بملكية الأرض واسـتثمارها في وادي فاطمة.

وكان العمال الزراعيون يحصـلون على 5 ـ 10 ريالات يومياً، وتزداد الأجرة إذا كانوا من أبناء القبيلة. وفي حالة عدم وجود ناظر مختص فـإن مالـك الأرض والمسـتأجر يقتسـمان العوائـد مناصـفة. وقـد تتعقـد عملية الاقتسـام بسـبب نظـام الوسـطاء المتشـابك.

وفي بعض الأحيان كان الوسيط _ المستأجر يتصرف كمزارع فيستأجر في هذه الحال عمالاً زراعيين.

تورد كاتاكورا المثال التالي: استأجر تاجر ثري أراضٍ خالية من الماء بثمن بخس من الفلاحين، وحفر آباراً عميقة ووضع مضخات ثم قام بتأجير الأراضي مقابل مبلغ يزيد عشر مرات عما في السابق، وتولى استثمار قطع أخرى كمزارع. وفي بعض الأحيان كان المالك الاسمي الأول يغدو المستأجر الثاني. كما أن بوسع المزارعين استئجار أراضي الأوقاف.

اعتبرت مزاولة بعض الأعمال "عيباً" على البدوي (القصاب، مرب الدواجن، الحلاق، الخادم، الأعمال اليدوية). وحينما استوطن بعض البدو في وادي فاطمة فإن الآخرين أخذوا يسخرون منهم. ورفض البدو جميعاً القيام بتشغيل المضخات والآبار، على الرغم من أن الأجور كانت مغرية. وعمل اليمنيون ناظرين على المضخات والآبار، وبلغ عددهم في وادي فاطمة عام 1970 أربعمائة شخص.

حينما نضبت عيون كثيرة في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، عاد البعض من المزارعين إلى حياة البداوة. سكن وادي فاطمة، علاوة على اليمنيين الأربعمائة، 64 فلسطينياً و 28 أردنياً و12 سورياً و 8 مصريين و5 عراقيين و4 سودانيين. وكان أكثرية الفلسطينيين والأردنيين والسوريين والمصريين من العمال المهرة والمعلمين والموظفين.

وكـان جـزء كبـير من المنـاطق الآهلـة في وادي فاطمــة متكونـاً على أسـاس قبلي. وبلــغ مجمــوع السـكان هنـاك عشـرين ألفـاً تقريبـاً، ووصـل عـدد الاسـتثمارات إلى 3744. وكـان 30% من السـكان ينتمون إلى قريش و30% إلى حرب و15 إلى لحيان و10% إلى الشـيوف و5% من المعتـوقين، وشـكل المتبقون عشرة بالمائة.

وتمثلت السلطة في وادي فاطمة بـالأمير وثلاثـة مـوظفين علاوة على القاضـي وشـرطي ومـوظفين آخرين. وضـم مكتب الـدين مـديراً وسـبعة مفتشـين. ويبـدو أن مـا تقصـده كـاتكورا فـرع هيئـات الأمـر بالمعروف.

وكـانت الجمعيـة التعاونيـة تـدير محطـة للبـنزين وتشارك في توزيع الأسمنت وبناء مقهى. كمـا كـانت هناك دائرة بريد ومحطة هاتف.

وضم مجلس القريـة في أريـاف الـوادي 5 _ 9 أشــخاص، وفي عــام 1961 شُــكل مركــز التنميــة الاجتماعية لتعليم المنتسبين مهناً جديدة، كمـا نظمت هناك أحاديث حول أسس المعارف الطبيـة والوقايـة، وإرشادات للنساء.

وكـانت في ووادي فاطمـة 13 مدرسـة ابتدائيـة للبنين و 5 مدارس للبنات، ومدرسة متوسطة واحـدة و 4 مدارس لمحو الأمية للذكور ومثلها للإناث. وكـان التعليم في المدارس الابتدائية مجانياً. وكـانت الدولـة

تـــدفع رواتب المعلمين وتـــزود التلاميـــذ بـــالكتب والقرطاسية. كما أن التعليم هناك كان إلزامياً. وكـل معلمي مدارس البـنين كـانوا سـعوديين، فيمـا قـامت نساء أجنبيات بتعليم البنات.

صعوبات الزراعـة. أتـاحت بعض الدراسـات التي أجرتها مؤسسات سعودية وبعثات أجنبية إمكانية جمـع معلومـات حـول العـاملين في الزراعـة، وهي أشمل بكثير من المعلومات المتوفرة في العشرينات والثلاثينـات، ناهيـك عن المعلومـات المتـوفرة في مطلع القرن. بيد أن المعطيات الإحصـائية تظـل غـير موثوقـة إطلاقـاً، وينبغي التعامـل معهـا بوصـفها تقديرات تقريبية.

تفيد معطيات مختلفـة أن نسـبة المشـتغلين في الزراعـــة بالســـعودية تـــراوحت في الخمســـينات والســتينات بين 1/8 و 1/4 من الســكان الأصــليين القــادريين على العمــل، أمــا المجمــوع الإجمــالي للعاملين في الزراعة وتربية المواشي (الرحل وشـبه الرحل) فقد كان يراوح بين 1/2 و 2/3 من السـكان. هذا علماً بأن العـدد الإجمـالي للسـكان الأصـليين في هذا البلد الذي تساوي مسـاحته ثلـثي مسـاحة أوروبـا الغربيــة، يقــدر بـ 3,5 ــ 4.5 مليــون نســمة في الســتينات و 4 ــ 5 ملايين نسـمة في السـبعينات (100).

في أواســط الســتينات كـان مسـاحة الأراضـي المســتثمرة في الســعودية تــراوح بين 210 آلاف و

300 ألف هكتار(101) (همة معطيات أخرى تراوح بين 150 و 500 ألف هكتار)(102). وكان 20% فقط من هذه الأراضي _ في عسير وجنوب الحجاز_ يتوفر له ما يكفي من الهواطل والأمطار للزراعة. أما الثمانون بالمائة من الأراضي المستزرعة في الواحات فقد كانت تروى من مياه الآبار والعيون والينابيع والسدود في الوديان. والتمر هو أهم المحاصيل الزراعية (المرتبة الرابعة في العالم) وتأتي بعده الحنطة والشعير والدخن والذرة والأرز والعلف والخضروات والفواكه. وفي عسير كان يزرع البن بكميات قليلة.

وقد جرت عدة محاولات لرفع مستوى الزراعة في البلاد. فقبل اكتشاف النفط دعا أبن سعود خبراء أجانب للتنقيب عن المياه وأصر على جعل شركات النفط تبحث عن الماء. وتحفر الآبار الارتوازية.

وأُنشئت عام 1937 في منطقة الخرج الغنية بينابيع المياه الزاخرة (وفق معايير نجد) مزرعة كبيرة بمشاركة خبراء عراقيين ومصريين، وجلبت إلى هناك معدات زراعية ودواب العمل وماشية الأنسال. وأقيمت هناك منظومة حديثة للري وبضعة حقول متخصصة على مساحة تقرب من ألفي هكتار، حيث زُرعت الحنطة والخضروات والبطيخ والشعير والعلف والنخيل، وجرى تموين البلاط الملكي بخضروات المزرعة(103). وفي الفترة 1945 _ 1959 أشرف على المشروع أمريكان، ثم تولت الأشراف إدارة سعودية.

وفي الستينات شرعت الحكومة بإنشاء خمسة مراكز زراعية: في جيزان والمدينة و القصيم والرياض والهفوف، وأنيطت بها مهمة الإرشادات للمزارعين وتزويدهم بالمعدات والبذور والشتلات والأسمدة وتعليمهم مكافحة الآفات الزراعية(104). وأسس عام 1964 بنك التنمية الزراعية الذي افتتح حتى عام 1973 ثمانية فروع و37 مكتباً في الأرياف(105).

انتفعت من إجراءات الحكومة فئة الفلاحين الأغنياء الذين أصبحوا يزاولون العمل على غرار المزارع الحديثة، وشرعت أكبر الاستثمارات بشراء المعدات الزراعية. وفي النصف الثاني من الستينات كان في البلد 277 جراراً و21 ألف مضخة ميكانيكية(106).

في بداية السبعينات طرأ على الإنتاج الزراعي بعض الزيادة، وخصوصاً في الأحساء والمناطق المتاخمة وفي القصيم. ولم تكن تلبية الطلب المتزايد على الخضروات والفواكه ممكنة إلا بفضل مزارع كبيرة ومتوسطة تستخدم المكائن والأسمدة. كما جرى إنشاء حقول للدواجن ومؤسسات للحوم والألبان(107). وأعطت مردوداً عالياً مناطق النخيل الواسعة في الأحساء والمدينة وبريدة وعنيزة، وحقول الخضروات والبساتين في الأحساء والخرج والمدينة(108).

ولكن على الـرغم ممـا اتخذتـه الحكومـة من إجراءات وما حققته المزارع الرأسمالية من نجاح فإن الزراعة في البلد عموماً عانت من الصعوبات في الستينات والسبعينات بسبب تقلبات السوق وأساليب الهندسة الزراعية المتخلفة والظروف الاجتماعية على حد سواء. فقد غزت السعودية المنتجات الزراعية الرخيصة المتدفقة من بلدان أخرى. ولم تجرؤ الحكومة على زيادة الرسوم المستحصلة عنها خشية أن يؤدي ارتفاع الأسعار إلى استياء واسع في أوساط السكان. بيد أن مزاحمة الأغذية المستوردة أدت إلى تقويض المزارع الصغيرة وجزء من المزارع المتوسطة، فقد أفلس الفلاحون، مالكو ومستأجرو القطع الصغيرة من الأراضي لعدم توفر المال الكافي لشراء المعدات والأسمدة والبذور، ولجهلهم بالطرق الحديثة في الزراعة والظروف المتجددة في السوق. ولوحظ في الواحات نقص في الأيدي العاملة لأن الفلاحين الشباب والنشطين كانوا يهاجمون بوتائر سريعة إلى المدينة للعمل في البناء أو أجهزة الدولة أو في قطاع الخدمات والتجارة(109).

ولدى استخدام المضخات الميكانيكية في المزارع الكبيرة وزيادة استهلاك المياه من قبل المدن والمصانع إلى انخفاض المنسوب العام للمياه وجفاف الآبار وهلاك المزروعات والبساتين وواحات بأكملها. وزاد في الطين بلة قحط الخمسينات والستينات، ولم يتمكن الفلاحون الفقراء من شراء

مضـخات أحـدث وحفـر آبـار أعمـق، لـذا فـإنهم "اكتسحوا" من الإنتاج الزراعي. وظهرت هناك مزارع كـبرى تعـود ملكيتهـا لأشـخاص لا يسـكنون الريـف ويديرها مصريون أو فلسطينيون ويعمل فيها يمنيون. وأصبح بعض الفلاحين المفلسين أجـراء في المـزارع الكبيرة الرأسمالية النمـط، بينمـا هجـر البعض الآخـر أراضـيهم أو باعوهـا وانطلقـوا يبحثـون عن الـرزق(110).

لقـد كـانت حصـة الزراعـة من النـاتج الوطـني الإجمـالي في تقلص مسـتمر. إذ تفيـد حسـابات أوزولينغ أن الناتج الوطـني الإجمـالي محسـوباً للفـرد الواحـد ارتفـع في الفـترة من 1964 / 1965 حـتى 1974 / 1975 من 460 إلى 1300 دولار، أمـا في الزراعة فقـد ازداد من 80 إلى 105 دولارات فقـط. وإذا أخذنا نسبة التضـخم في الاعتبـار لوجـدنا أنـه لم تكن هناك عملياً أي نمو. وأصبحت الغالبيـة السـاحقة من الفلاحين والرحـل تعـاني من نقص مسـتمر في التغذية ومن الأمراض(111).

وأوزولينغ على صواب حينمـا يقـول أن "الزراعـة وتربية المواشي ما برحا أكـثر فـروع الاقتصـاد تخلفـاً وركوداً". إلا أن رأيه في تحليل الأوضاع في الستينات والسـبعينات يبـدو متشـدداً جـداً، فهـو يقـول أن "المزارعين لم يحصلوا على أي نفع من تطور صناعة النفـط ومن الزيـادة السـريعة في واردات ميزانيـة الدولة". لقد استفادت العوائل الفلاحيـة والبدويـة في تلك الفترة من عمل الفلاحين الموسـمي في المـدن

ومن المعونات الحكومية وبرامج محو الأمية وتطوير المدارس وتحسين المواصلات.

في "عصر البترول" راحت الزراعة في السعودية ضحية لتصادم قوى واتجاهات متباينة. ولم تعط المشاريع الحكومية وبناء السدود وحفر الآبار سوى مردود محدود بسبب تفشي الفساد الأجهزة التي كانت تفرض أسعاراً تزيد على سعر الكلفة أضعافاً، وبالتالي فإن تلك المشاريع كانت في النتيجة خسارة(112). ومن الأسباب التي عرقلت تطور الإنتاج في الواحات كثرة الاستثمارات الصغيرة واستمرارية العلاقات الإقطاعية وما قبل الإقطاعية التي تكبل الفلاحين. وكانت قلة ريعية توظيف الأموال في الزراعة بسبب مزاحمة الأغذية المستوردة، تقترن بتسرب الأيدي العاملة إلى المدينة. فقد كان البلد يستورد زهاء نصف ما يستهلكه من الأغذية(113). وفي ظل العلاقات الإنتاجية القائمة في الزراعة وخصوصية حالة السوق واجه القطاع الزراعي الهام جداً صعوبات بالغة في الستينات والسبعينات.

استمرار انحلال الاقتصاد التقليدي وضمور الهيكل العشائري: إن نمط حياة بدو الجزيرة العربية واقتصادهم الذي ظل قائماً لأكثر من ألف سنة، أخذ يتغير بسرعة في الأربعينات والخمسينات والستينات من القرن الحالي. فقبل تدفق عائدات النفط أدى تطور النقل الآلي في

العربية السعودية وسائر بلدان الشرق الأوسط إلى حرمان أصحاب الإبل من الأسواق الأساسية للماشية، كما أدى قيام الدولة المركزية إلى حرمانهم من العوائد التي يحصلون عليها من غزواتهم على المستوطنين ومن رسوم القوافل المارة.

وفي أواخر الخمسينات ومستهل الستينات جاءت كارثة الجفاف لتسرع من انحلال الاقتصاد البدوي، وأدت إلى نفوق عدد كبير من الماشية وإلى إفلاس البدو. واضطر البلد إلى استيراد الأغنام والإبل. وتفيد معطيات خبراء الجامعة العربية بأن عدد رؤوس المواشي تقلص في المنطقة الشرقية، مثلاً، عشرات المرات(114). أما الباحثون الأمريكان الذين وضعوا "الدليل الإقليمي للعربية السعودية" فهم أكثر حذراً في تقديراتهم ويذهبون إلى أن التقلص بلغ زهاء 20% وذلك بسبب الجفاف ونضوب المراعي وانتقال شباب البدو إلى المدن(115).

ويستفاد من مصادر مختلفة أنه كان في السعودية في أواسط الستينات 0.6ـ1 مليون رأس من الجمال و4ـ6 ملايين من الغنم والماعز و0.25 مليون رأس من الأبقار(116).

ويتفق الباحثون على أن عدد البدو الرحل تقلص بوتائر سريعة في الخمسينات والستينات سواء من حيث الأرقام النسبية أو المطلقة. ولكن عدم توفر إحصاءات موثوقة لا يتيح الإمكانية للتحدث عن هذه العملية بالدقة الكافية المسندة بالأرقام. ويقول

تويتشـــل، اســتناداً إلى تقــديرات منظمــة التغذيــة الدولية، أن 12% من سكان السعودية كانوا في عام 1956 مزارعين مسـتموطنين وإن 66% كـانوا بـدواً رحلاً (بمن فيهم شبه الرحل) وإن 22% يقيمــون في المــدن. وقــدر تويتشـــل العــدد الإجمــالي لســكان السعودية مـا بين 6.3 ملايين نسـمة، وهـو يميـل إلى الاعتقـاد بـأن عـددهم كـان 4.5 ملايين نسـمة. وبعـد تسـع سـنوات بلغت نسـبة البـدو، في اعتقـاد خـبراء الجامعــة العربيــة، 30%، منهم في نجــد 50% وفي منــاطق الحجــاز الســاحلية 20% ويــذكر "الــدليل الإقليمي للعربية السعودية" إن تربية المواشي كانت في أواسط الستينات مصدر الدخل الرئيسـي لنصـف السـكان على الـرغم من أن البـدو الـذين يقتصـرون على رعاية الإبـل لم يكونـوا يشـكلون سـوى 200 ـ 300 ألف شخص من المجموع الكلي للسكان البـالغ 4 ـ 4.5 مليون(117).

حتى أواسـط السـتينات اضـطرت جمـاهير البـدو الرحـــل إلى الحفـــاظ على تربيـــة الإبـــل، باعتبارهـــا المصدر الوحيـد الـذي يعتمـد عليـه لإقامـة الأود، وإن كان على شفا الجوع، وذلك لعدم توفر بـديل مقبـول للعمل. ولكن السياسة الحكوميـة في مجـال تـوطين البدو لم تثمر سوى عن نتائج جزئية ومحدودة.

وفي أواخر الستينات أقر برنـامج لعشـرين عامـاً نص على التـوطين التـدريجي لزهـاء 60 ألـف أسـرة بدوية (400 ـ 450 ألـف نسـمة) بيـد أنـه لم ينفـذ(118). فإن مصادر المياه المتوفرة كانت عـاجزة عن

إرواء مساحات جديدة من الأراضي بدون توظيف مبالغ طائلة، علماً بأن خيرة الأراضي كانت مستثمرة بالفعل. وحتى عندما عمدت الدولة "إلى ارواء آلاف الهكتارات، كما فعلت في حرض، على منتصف الطريق بين الرياض والدمام، لم يكن البدو يوافقون بالتوطن إلا على مضض. وحصل أن البدو الذين لم يعتادوا ممارسة الزراعة، كانوا يعودون إلى نمط حياتهم السابق بعد ممارسة العمل الحقلي موسمين أو ثلاثة دون تحقيق تحسن في مستواهم المعيشي. كما لم يكن سهلاً استئصال إزدراء البدوي بعمل الفلاح(119). ولكن العودة إلى حياة البداوة كانت في الستينات استثناء وليس قاعدة وإذا كان التكيف لزراعة صعباً على البدو، فإنهم وجدوا في المدن طائفة واسعة من الأشغال، كما تلقوا معونات حكومية هناك.

وكما هي الحال بالنسبة لسائر فئات السكان فأن البدو تأثروا بالصناعة النفطية. ففي الثلاثينات بدأب شركات البترول تستخدم البدو كأدلاء في البداية ثم كعمال غير مهرة. ولكنها سرعان ما تيقنت من أنهم يمارسون العمل الأول برغبة ورضا، بينما يعزفون عن الثاني. وأقبل البدو على قيادة السيارات إذ أن استبدال مقود الإبل بمقود السيارات لم يبد أمراً مهيناً حتى لأبناء الشيوخ، بل كان متماشياً مع نفسية البدوي(120).

افتتحت أرامكو دورات خاصة لتعليم شباب البدو قيادة وتصليح الشاحنات(121).

وفي الخمسينات والستينات شجعت الحكومة بيع السيارات للبدو فأخذ بعضهم يبيع الإبل ليشتري شاحنات. وبفضل عطايا الملك النقدية والعينية تسنى للمشايخ شراء وسائط النقل. وصارت الشاحنات تحل محل الجمال حيثما سمحت بذلك طبيعة المنطقة، كما صارت تستخدم في نقل المياه إلى المراعي أو نقل الأغنام والماعز من مرعى إلى آخر.

اكتشفت مصادر جديدة للمياه بفضل أعمال الحفر التنقيبي الحثيثة. ولم تعد هذه المصادر تعتبر ملكاً لقبيلة بعينها، بل صارت تقام حولها خيام يسكنها أفراد قبائل وأفخاذ عديدة وأصبحت تضمحل شيئاً فشيئاَ حدود الديرة التقليدية، أي أراضي القبائل التي كانت برسم حدودها وفقاً لوجود المراعي والينابيع.

أخذت الحكومة تزود البدو ببذور البرسيم لزراعتها في الوديان بعد هطول الأمطار، وجرى تعويد الرحل على تجميع احتياطي من الحشائش تحوطاً للجفاف، مما ساعد على التحول إلى النمط شبه المتحضر وشبه البدوي في تربية الواشي(122).

شرع البدو الرحل سابقاً يقيمون مضاربهم بالقرب من البلدات والمدن التي يقيم فيها العاملون في حقول النفط، وأخذوا يشاركون في خدمة هذه الحقول ويزاولون الزراعة. وأنشأ البدو يقيمون بيوتاً طينية، وظهر في مرابعهم مسجد ومدرسة ابتدائية ودكان أو اثنان(123).

إن تطــور المــدن وازديــاد الطلب على اللحــوم والتحســـن في مجـــال توفـــير الميـــاه واســـتخدام الشــاحنات، مكنت جميعــاً البــدو من تغيــير تركيبــة قطعــانهم. فلئن كــانت تربيــة الإبــل تعـد قبـل انتهـاء الحرب العالمية الثانيـة العمـل الرئيسـي أكـبر قبائـل البدو في السعودية، فأن هذه القبائل تحولت تدريجياً، منذ الخمسينات والستينات، إلى تربية الأغنام. ويعزى ذلك إلى أن تربية الأغنام تتطلب قدراً أقل من الحــل والترحــال وتــتيح للرجــال والنســاء على حــد ســواء ممارسة أشغال أخرى، يتعذر القيــام بهــا على مــربي الإبل. وأصبحت تربية الأغنام عملاً مربحاً.

فيما مضى كانت تربية الماعز والأغنام وقفاً على الأقوام شبه الرحل والقبائل "الوضـيعة" وتعـتر دليـل مركــز اجتمــاعي واقتصــادي أدنى. ولكن في أواخــر الستينات أصبح مــالكو القطعــان الكبــيرة من المــاعز والأغنــام من أثــر الرحــل وأكــثرهم نفــوذاً. وجــرى استخدام القوة المأجورة على نطاق متسع في رعاية القطعان(124).

كانت قبيلة آل مرة تعتبر من آخر القبائل البدوية النقية في السعودية، وتعتاش حتى الآونة الأخيرة من تربية الإبل حصراً. ولعبت عزلة الربــع الخــالي، الــذي ترتحل فيه، وقساوة ظروفه الطبيعيــة دوراً هامــاً في اســـتمرارية النشـــاط الاقتصـــادي التقليـــدي، إذ أن الجمال فحسب تحتمل ظروف هذه المنطقة.

ولكن حتى في هذه القبيلة أخذ الوجهاء والفقراء يزاولون تربية الأغنام، وأصبح الفقراء أول النازحين عن القبيلة، هذا بينما آثر "المتوسطون" الحفاظ على نمط الحياة السابق. وقد شرع الوجهاء ببيع الإبل أو توزيعها على الأقارب والزبائن، بغية تربية الأغنام من آل مرة مكافئاً لمربي الإبل من الناحية الاجتماعية.

نزح عدد لا يستهان به من رجال آل مرة الفقراء إلى المدن لغرض الكسب، ولكنهم عادوا إلى ديارهم فيما بعد. واشترى بعض منهم شاحنات وزاولوا تربية الأغنام(125).

ولئن كانت الحال هكذا في قبيلة آل مرة البدوية النقية، فأن من السهل التكهن بأن هذه العمليات جرت بوتائر أسرع وأكثف في قبائل الرحل الأخرى الأقرب إلى مراكز استهلاك المنتجات الحيوانية والتي لديها مصادر أوفر من المياه(126).

أتاح استخدام الشاحنات في تربية الأغنام الإمكانية لبعض الأسر للتوطن في القرى. وأخذ الوهن يدب في صلات القربى داخل القبائل لأن مربي الأغنام نادراً ما يرتحلون سوية مع رعاة الإبل.

في بعض الأحيان كان مربو الأغنام يعودون إلى مراعيهم القديمة صيفاُ، ولكنهم في الأغلب كانوا يمكثون قرب الآبار الجديدة حيث يسكن أبناء قبائل أخرى. وأدى الانفصال الاقتصادي عن رعاة الإبل

والتخالط مع القبائل والأشغال الجديدة إلى قيام روابط اجتماعية جديدة وتغير نفسية الرحل. وأصبح تزاوج أبناء وبنات العمومة أقل انتشاراً بين البدو(127).

وإن التغيرات في النشاط الاقتصادي في ظروف الأمن النسبي الذي توفره الدولة المركزية أدت إلى إضعاف تبعية الأسر البدوية للتنظيم العشائري الحربي الديمقراطي. وتقلص حجم الوحدة العائلية القائمة بذاتها اللازم لبقائها على قيد الحياة(128). وأدى العمل في المدينة إلى المزيد من الوهن في الصلة بين الخلايا العائلية المنفصلة والقبيلة.

وتأثرت السيكولوجية العشائرية بوسائل الإعلام، إذ ظهرت أجهزة الراديو والتلفزيون في المضارب. وكان الإطلاع على القيم الاجتماعية الجديدة متقدماً في بعض الحالات على تغير النشاط الاقتصادي.

وتسرب من التنظيم العشائري أنشط أفراده منجذبين إلى الوظائف المغرية في القوات المسلحة والشرطة أو في جهاز الدولة البيروقراطي وزودوا الحرس الوطني والهجانة والشرطة بكوادر الضباط، كما زاول بعض ممثليهم التجارة. وأصبحت هيبة المناصب الجديدة والرواتب العالية عاملاً منافساً لمشاعر الافتخار بالنسب وكرم المحتد(129).

وبغية الاحتفاظ بولاء علية البدو دأب السعوديون على مدهم بالأموال مقابل الكف عن مهاجمة

المتوطنين وجباية الأتاوات من القوافل. وتزايدت هذه العطايا مع تزايد عوائد النفط(130). وأصبح الإخلاص للملك والقرب من ديوانه مؤشرين على رفاهية العلية ومكانتها الاجتماعية، إلى جانب ما توفره لها من مكانة ملكيتها من المواشي أو الأراضي في الواحات، وسطوتها داخل القبيلة وارتكازها على بقايا البنية الحربية الديمقراطية. وانتقل عدد من الشيوخ قبائل البدو إلى المدن ومارسوا البزنس، مما أدى أيضاً إلى إضعاف الروابط العشائرية التقليدية(131).

بيد أن الوهن الذي أصاب التنظيم العشائري لم يعن اندثار عامل صلات العشيرة والدم من مجتمع الجزيرة. فحتى في المدن احتفظ أبناء كل قبيلة بروابط التعاضد والتضامن، وكانوا يؤثرون أن يسكنوا ويعملوا سوية ويتفاخروا بنسبهم على أبناء العشائر الأخرى أو على "مقطوعي الأصل"(132). وظلت صلات الفخذ والعشيرة تحدد دور الفرد ونجاحاته واخفاقاته في الجهاز البيروقراطي والجيش والشرطة بل حتى في ميدان الأعمال.

وفي الخمسينات لم يكن البسطاء من البدو يحصلون إلا على جزء يسير من الأموال التي تقدمها الأواسط العليا. وقد كتب عن ذلك الأمير طلال الذي تزعم في الستينات رابطة "الأمراء الأحرار" في كتابه "رسالة إلى مواطن"(133). كما أشار فيلبي إلى أن "سيل الثروات الأسطورية لم يعد على الصحراء إلا بنذر يسير من الفوائد الفعلية. فقد ظل

التعليم والخدمات الصحية بمنأى عن البدوي. وعلى الرغم ممن ارتفاع أسعار المنتجات الحيوانية، فأن مستوى حياة البدو انخفض"(134).

وقد أدركت الأسرة السعودية الحاكمة خطورة تعاظم الاستياء بين البدو، فشرعت منذ الخمسينات باتخاذ تدابير للحد من التأثيرات السلبية لأزمة الاقتصاد البدوي. وبفضل عوائد النفط تسنى للدولة تقليص الزكاة إلى النصف. وكان عشرات الآلاف من البدو يقيمون مضاربهم حول الرياض والمدن الأخرى وتتولى الدولة إطعامهم لمدة أسابيع أو أشهر. وفي مستهل الستينات كانت الدولة تمون أكثر من نصف مليون بدوي، وأستمر العدد في الارتفاع خلال الستينات والسبعينات(135).

نشأ وضع غير طبيعي: إذ أن النشاط الاقتصادي لشريحة لا يستهان بها من السكان توقف أو تحول إلى مصدر ثانوي للدخل، ولكن لم يستعض عنه بمصدر آخر. وصار عشرات الآلاف، أن لم نقل مئات الآلاف، من البدو يعيشون اضطراراً متطفلين على حساب جزء من الريع النفطي كانت الطبقة الحاكمة تقاسمهم إياه.

نشوء الطبقة العاملة السعودية وخصائصها. العمل المأجور. إن نشوء سوق الأيدي العاملة المأجورة عملية طويلة الأمد تنضج خلالها هذه السوق في أحشاء المجتمع السابق الرأسمالية، وتتضمن العملية المذكورة: انعزال

المنتجين المباشرين عن وسائل الإنتاج طوال عقود بل قرونا حيانا، وزيادة نسبة السكان العاملين في الصناعة والتجارة مع ما يقترن بذل من درجة مهنية مناسبة وتغيرات اجتماعية سيكولوجية، وتوسيع تدريجي في ميدان استخدام العمل المأجور. ولقد جرت هذه العملية في العربية السعودية بسرعة بالغة، خلال حياة جيل أو جيلين ورافقها هدم موجع للنمط القديم.

منذ اللحظات الأولى احتاجت أرامكو إلى اليد العاملة المحلية، ولكن لم تتوفر في المجتمع الإقطاعي العشائري سوق فعلية لها، بيد أن الأعمال التي عرضتها الشركة كانت تعد بتحسين الأحوال المادية والوضع الاجتماعي لبعض فئات السكان الذين تركوا مهنهم السابقة (ووسائل الإنتاج إن كانت لديهم) وأصبحوا العمود الفقري للقوى العاملة ونواة الطبقة العاملة المحلية المقبلة.

عام 1965 كان 7.6% من عمال أرامكو ينحدرون من أصل بدوي و23.4% يعتبرون أنهم على صلة بالعشائر 44.8% من الفلاحين، أما القسم المتبقي فهم من صيادي الأسماك والبحارة والغطاسين الباحثين عن اللؤلؤ والحرفيين(136).

وأشتغل كعمال لدى الشركة أبناء العشائر "الدنيا" مثل العوازم والشرارات وفلاحون وأجراء زراعيون أو حرفيون من أبناء الطائفة الشيعية في المنطقة الشرقية(137). ولم يكن هؤلاء "يزدرون"

بالعمل الجسدي وبالأجانب "الكفار". وفيما يخص البدو "الكريمي المحتد" أو المتوطنين من الوهابيين المتعصبين، فقد دفعهم إلى العمل الجوع والفاقة(138). وكما أسلفنا فأن البدو عملوا كحراس وسواق وعمال كهرباء، بيد أنهم لم يكونوا مكيفين لممارسة العمل الجسدي المضني أو الرتيب الممل.

في بادئ الأمر استخدمت أرامكو حتى العبيد الذين استأثر مالكوهم بجزء من أجورهم. وكان يصادف أن يضطلع شيخ القبيلة أو التاجر المرابي بدور الوسيط الذي يوفر العمال للشركة ويتقاضى جزءاً من أجورهم.ولم يتسع نطاق هذه الممارسات، إذ فضلت أرامكو استخدام أشخاص يتوقف مصيرهم عليها وليس على الوسطاء أو الشيوخ أو أصحاب العبيد. واضطرت الشركة إلى فتح مدارس ودورات مختصة لأعداد الأخصائيين المؤهلين من بين السعوديين.

في مطلع السبعينات استقر عدد العاملين لدى أرامكو في حدود 11 _ 12 ألفاً(139).

إن تمركز الطبقة العاملة الفتية في مؤسسة واحدة وظروف العمل الشاقة وانخفاض مستوى الأجور، هذه العوامل جميعاً ساعدت على تحقيق الخطوات الأولى في تنظيم العمال ونضالهم دفاعاً عن حقوقهم. وغالباً ما كان العمال الوافدون من البلدان العربية على درجة أعلى من الوعي البروليتاري والخبرة التنظيمية. وبعد اضطرابات

عـــامي 1953 و 1956، قـــامت إدارة أرامكـــو والسلطات السعودية بممارسة البطش والتنكيل ضـد العمال، وسرح العمال "المشتبه بهم سياسياً" والذين أدرجوا في القوائم السوداء(140).

بيد أن البطش والملاحقة والضغوط والتمييز لم تكن تمثـل سـوى جـانب واحـد من جـوانب نشـاط الشركة والسلطات السـعودية الـرامي إلى الحيلولـة دون حصول تحركات عمالية. وقد كانت الأربـاح الـتي تحصـل عليهـا أرامكـو في السـعودية طائلـة وعـدد العمـال ضـئيلاً إلى حـد جعلها تزيـد أجـورهم بنسـبة كبـيرة. وشـملت الزيـادة بالدرجـة الأولى العمـال المهـرة، والـذين أصـبحت أجـورهم منـذ أواخـر الخمسـينات أكـثر من رواتب صـغار مـوظفي الدولـة ورجال الشرطة، وتزيد على أجور العمال غير المهرة بـ4 ـ 6 مـرات. وفي السـنوات التاليـة ظلت نسـبة زيادة أجور العـاملين لـدى أرامكـو ومسـتوى حيـاتهم أعلى من زيـادة مـدخول سـائر العـاملين بـالأجور(141).

في أواخـر الأربعينـات عمـل في أرامكـو عشـرة آلاف سعودي غالبيتهم من العمال غير المهـرة. وبعـد مضي عشر سنوات صار ثلثا السـعوديين من العمـال المهرة وشبه المهـرة. وخلال الفـترة نفسـها أسـندت إلى 44 سـعودياً مناصـب هامـة في الشـركة وعين زهـاء ثلاثـة آلاف سـعودي في الحلقـات الوسـيطة(142). وظل عدد السعوديين المشتغلين بشـكل دائم في أرامكـو كعمـال أو مـوظفين في ارتفـاع مسـتمر

فبلغ عام 1964 نسبة 80% من مجموع العاملين (12800)، وازدادت النسبة عام 1970 إلى 83% (من مجموع 10353)(143). وأصبح كثيرون من السعوديين يعملون جيولوجيين ومهندسين وفنيين وأطباء وحفارين ومحللين في المختبرات. وكانت التغيرات في البنية العامة للقوى العاملة في أرامكو ناجمة عن الارتفاع الملموس في الكفاءة المهنية للسعوديين العاملين في مجالات النفط والذين جرى تأهيلهم في مراكز تدريبية وورشات بمناطق استخراج النفط وفي خارج البلد. ففي عام 1971 بلغت نسبة الفنيين ورؤساء العمال والمهندسين والمدراء 14.5% (مقابل 0.1% عام 1952) من المجموع الإجمالي للسعوديين العاملين في أرامكو، ونسبة العمال المهرة 59.4% (مقابل 3% عام 1952) والعمال غير المهرة 26.1 % 96.9 % عام 1952)(144). وارتفع معدل الأجر السنوي للسعوديين في أرامكو من 3800 ريال عام 1953 إلى 10700 ريال عام 1964، وأصبح من أعلى المستويات لدى أرامكو 17800 ريال(145). وعلاوة على ذلك أخذت إدارة الشركة تدفع للذين أمضوا مدة طويلة في العمل "النزيه" علاوات ومكافآت خاصة وتوفر لهم بيوت السكن المزودة بأسباب الراحة، أو تمدهم بسلف تسدد على أقساط لشراء بيوت(146). وكانت الشركة تتولى تسديد جزء من القروض المقدمة لشراء بيوت، وفي نهاية عام 1970 كان 88% من جميع السعوديين العاملين لدى أرامكو يمتلكون بيوتاً(147). ولذا يصبحون مدينين

للشركة، الأمر الذي ثبت الملاك عملياً. كما قامت أرامكو بافتتاح مستشفيات ومدارس ومستوصفات، وبتشجيع منها مارس جزء من العمال التجارة.

وبعد أن تخلصت الشركة، بمساعدة السلطات السعودية، من العمال النشطاء سياسياً قامت بـ "شراء" الآخرين وأنقذت نفسها مؤقتاً من التحركات العمالية المنظمة.

ولم تكن الظروف الاجتماعية السياسية العائق الوحيد في طريق تكون الطبقة العاملة السعودية، إذ أن ضيق سوق العمل المأجور الناجم عن قلة عدد السكان قد لعب دوره أيضاً. ويذكر "الدليل الإقليمي" إن العامين بالأجرة كانوا يشكلون ربع المجموع الكلي للفاعلين اقتصادياً الذي بلغ مليون شخص عام 965. ويمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات: أولاً _ العمال الأجراء أباً عن جد في الحرف والتجارة والخدمات والزراعة. ثانياً _ الذين انخرطوا للخدمة في جهاز الدولة. ثالثاً _ الذين اشتغلوا في الصناعة الحديثة والقطاع التجاري.

وكانت الحكومة أكبر مستأجر للأيدي العاملة _ 150 ألفاً في عام 1965، علماً بأن الوافدين كانوا يشكلون نسبة كبيرة بين مستخدمي الدولة. وفي مطلع السبعينات تجاوز عدد موظفي جهاز الدولة (ما عدا الجيش والشرطة) 120 ألف شخص.

وكان في البلد آنذاك 18 ألف عامل صناعي في مدن المنطقة الشرقية الظهران ورأس تنورة والخبر والدمام (في صناعة النفط أساساً والفروع المرتبطة بها) وكذلك في جدة. وكان الأجراء يشكلون 82 ألفاً من باقي العمال في عام 1965.

وفي عام 1970 قدرت مديرية التخطيط المركزية في العربية السعودية عدد العاملين بـ 1.50 ألف شخص (ما عدا مستخدمي الدولة والقوات المسلحة). ويعمل نصفهم تقريباً في الزراعة ـ 476 ألفاً (يشكل البدو 145 ألفاً منهم). ويعمل في صناعة النفط والمعادن 29 ألفاً، وفي الصناعة التحويلية 52 ألفاً، وفي البناء 142 ألفا، وفي الكهرباء والمرافق العامة 20 ألفا وفي التجارة 130 ألفا، وفي النقليات والمواصلات والمستودعات 62 ألفاً، وفي الخدمات 138 ألفاً. وتجدر الإشارة إلى أن المؤسسات التي يزيد عدد عمالها على الخمسين كانت تعد على أطراف الأصابع (ما عدا صناعة النفط).

وبالمقارنة مع البلدان النامية الأخرى فأن نسبة العاملين في القطاع الزراعي كانت في السعودية أوطأ، أما نسبة العاملين في حقل الخدمات فهي أعلى.

وفيما يخص البنية الاجتماعية في المدن فإن العاملين في الصناعة كانوا يشكلون نسبة ضئيلة في حين أن جهاز الدولة متضخم للغاية. وتشكلت الفئات

الــدنيا من ســكان المــدن من أشــباه البروليتــاريين القادمين في غالبيتهم من الأريـاف (الفلاحين والبـدو) والأمــيين وغــير المــؤهلين. وقــد اســتخدموا كعمــال دائمين أو مؤقـتين غـير مـؤهلين في البنـاء والتجـارة والخدمات، ولكن كثيرين منهم كانوا يتقاضون إعانات من الحكومة(148).

وفي أواخـر السـتينات ومطلـع السـبعينات وضـع في البلد حد أدنى رسمي لإجـرة العامـل قـدره سـتة ريالات في اليـوم، ولكن أصـحاب الأعمـال لم يكونـوا عادة يتقيدون به وخصوصاً بالنسـبة للعمـال الأجـانب. وحتى إذا اعتمدنا الإحصاءات الرسـمية نجـد أن الحـد الأدنى لاجور العمال السعوديين في التجارة بلغ 200 ـ 210 ريالات شهرياً ولغير السعوديين 120 ـ 180، وفي الخدمات 130 ـ 170 ريالاً للسعوديين و 140 ـــ 150 لغـــيرهم و 100 ـــ 120 في الحـــرف للسعوديين مقابل 90 ـ 110 لغيرهم. وكان الوضـع افضل بكثير بالنسـبة للعمـال شـبه المـؤهلين إذ كـان هنــاك طلب مســتمر عليهم. وفي المتوســط كــان الواحد منهم يتقاضى 300 ـ 400 ريـال شـهرياً في القطاع الخاص (باستثناء الصناعة النفطية) و 600 ـ 700 ريال في مؤسسات الدولة. ويـداني هـذه الفئـة من حيث المــداخيل موظفــو المكــاتب الــذين راوح مــرتبهم الشــهري بين 300 و 500 ريــال. وعمومــاً كـانت هـذه الفئـة من العـاملين بـالأجرة تـوفر الحـد الأدنى للمعيشـة. أمـا العمـال المؤهلـون فقـد كـانوا يحصلون، وفق المعايير آنـذاك، على مـداخيل كبـيرة:

700 ـ 1000 ريال شهرياً وتصل إلى 1500 ريال لذوي المهارة العالية(149).

كيف كانت صورة البنية الاجتماعية لمدينة في وسط الجزيرة، مثلاً، وما هي الإمكانيات التي كانت متوفرة فيها لإنشاء سوق للعمل المأجور؟ يمكن استخلاص الجواب من دراسة أجراها الباحث الاجتماعي السعودي عبد الرحمن الشريف في عنيزة في أواسط الستينات. كان في المدينة آنذاك 216 حرفياً و 350 صانعاً، أي أن عدد الأسر المعتاشة على الحرف يقرب من 560 (18 ـ 20% من سكان المدينة). هذا ما يقوله الباحث، ولكن يبدو لنا أن عدد الأسر كان أقل إذ غالباً ما يعمل الأبناء مع أبيهم والأخوة مع أخيهم. ويدرج الباحث في فئة "الحرفيين" القصابين والنجارين والخبازين والداباغين والبنائين والحمالين والصباغين والحدادين والميكانيكيين والحاكة والحلاقين وأصحاب الكاراجات وورش تصليح السيارات والطحانين والغسالات والكهربائيين(150).

وأشار باحثون آخرون إلى أن نظاماً غير دقيق للتصنيف الحرفي كان قائماً في السعودية، وكان لدى التجار شيوخ يمثلونهم في مجلس المدينة ويتابعون المواصفات ونوعية البضائع والتقيد بالعرف التجاري(151).

وفي مطلع الستينات كان في عنيزة 23.5 ألف نسمة ويزيد عدد النساء بثلاثة آلاف على الرجال

الذين غادر كثيرون منهم إلى مناطق أخرى بحثاً عن الرزق(152).

كانت عنيزة مركزاً تجارياً كبيراً نسبياً ومن أضخم المراكز في نجد، وليبوتاتها التجارية صلات مع الرياض والدمام وجدة ومكة والمدينة، وكذلك مع العراق والكويت وسوريا(153).

تكوّن في المدينة حي خاص سكنه 500 بدوي، الكثيرون منهم وفدوا من هجر الأخوان السابقة. وصار البدو موظفين صغاراً وانتسبوا إلى الجيش، وتعلموا السياقة(154). واضطر بعضهم أن يصبحوا بنائين وعمالاً زراعيين ورعاة، ولكن الإزدراء البدوي التقليدي بالعمل الجسد والحرف ظل قائماً. وبالإضافة إلى ذلك أصر البدو على عدم التزاوج خارج إطار القبيلة ولم يزوجوا بناتهم حتى لأثرياء الحضر(155). ولكن فرص الاغتناء الاقتصادي وتسلق السلم الوظيفي للحضر جعلت الكثيرين منهم يتعالون بدورهم على البدو(156).

لقد توفرت في مدن الجزيرة المستلزمات الموضوعية لقيام سوق محدودة للعمل المأجور. وكان الصناع والعمال غير المؤهلين والفلاحون المفلسون والبدو مرشحين لأن يصبحوا بروليتاريين. ولكن كان ثمة مشاكل ذات طابع اجتماعي نفساني تعترض سبيل نشوء الطبقة العاملة.

ويطرح عدد من الباحثين الأمريكان رأيا جازماً مفاده أن "قابلية العمل لم تكن مرتبطة بالوضع الاجتماعي في السعودية. والأرجح أن من كان يسمح لنفسه بعدم مزاولة عمل كان في وضع اجتماعي أرقى... فأن للعمل في العربية السعودية مكانة واطئة في حين أن الناظر أو المساهم في اتخاذ القرارات السياسية كان في موقع أرقى. لذا ظلت الخدمة في أجهزة الدولة العمل المنشود. فحتى صغار الموظفين يتمتعون بالاحترام... وفي العادة فأنه كلما ارتفع مقام الشخص قل عمله. وينطبق هذا بشكل خاص على الجهاز الحكومي. فالموظف الذي يتسنم منصباً أعلى في جهاز الدولة يكون له امتياز مباشرة العمل في وقت متأخر والانصراف قبل الآخرين، ولديه متسع أكبر لتسلية "الزوار"(157).

ويقول عبد الرحمن الشريف أن الحرفيين وتلاميذهم كانوا مرتبطين بعلاقات تشبه علاقة الأب بابنه. وكانت النزعة "الأبوية" في السعودية عاملاً قائماً في العلاقات بين أرباب العمل والعمال. إذ كانت الروابط العائلية والوضع الاجتماعي متقدمة على اعتبارات الأهلية والفعالية. ولعبت الروابط الشخصية العائلية دوراً هاماً في التوظيف(128).

وكان رب العمل يمثل السلطة والهيبة وعليه في الوقت نفسه الاهتمام باحتياجات العمال. كما أنه يفقد هيبته إذا لم يبد تشدداً وصرامة. ولكنه كان يفقد الاحترام والتعاطف إذا لم يساعد العامل عند

مرضه أو زواج أبنه أو لم يسد له النصح والمشورة(159)؟

وكان رب العمل ينتقي عماله من بين أفراد عائلته ومعارفه. وعلى الرغم من أن هذا التقليد ظل معمولاً به في الشركات التجارية والصناعية الصغيرة، فأن استخدام العمال "بصرف النظر عن الروابط الشخصية" صار متبعاً في المؤسسات الكبيرة في الستينات(160).

ويشير "الدليل الإقليمي" إلى أن "الصناعي كان يطلب من العمال الأمانة والدقة والاستعداد للخضوع للسلطة والنظام المعمول به بصرف النظر عن العوامل الشخصية، وكانت تلك كلها أموراً غريبة على أبناء البلد الأعراب القادمين من الأرياف الذين لم يعتادوا ساعات العمل المنتظمة وكانوا ينتظرون معاملة أبوية من رب العمل"(161).

وأدى الازدهار النفطي وأزمة الزراعة وتربية المواشي وظهور أعمال جديدة في المدن وارتفاع مستوى الحياة فيها إلى تمدن سريع في العربية السعودية. وقد كان السكان دائماً موزعين بشكل غير متساو في البلد، إذ أن غالبيتهم قطنوا المناطق الواقعة بين المدينة والطائف في سهل الحجاز الساحلي وفي عسير ونجد من بريدة إلى الخرج وكذلك في المنطقة الشرقية بين رأس تنورة وحرض. وزاد التمدن من التباين في توزيع السكان.

بلغ عدد سكان العاصمة السعودية الرياض زهاء 80 ألفاً عام 1955 وازداد إلى 162 ألفاً عام 1962 وبلغ في مستهل السبعينات 300 _ 350 ألفاً، وبالنسبة لمكة بلغت هذه الأرقام على التوالي 100 ألف و 159 ألفاً و 200 ألف، وجدة 80 ألفاً و148 ألفاً و 250 _ 300 ألف والمدينة 50 ألفا و 72 ألفاً و 100 ألف والطائف 8 آلاف و 54 ألفاً و 100 ألف. وفي نهاية الستينات بلغ عدد سكان الهفوف والخرج زهاء 100 ألف، وميناء الدمام 40 ألفاً وميناء الخبر 35 ألفاً(162). وليس واضحاً إذا كانت هذه الأرقام تضم الوافدين أم لا.

الوافدون (الأجانب). على الرغم من مصاعب الاندماج في المجتمع السعودي أقام في السعودية عدد كبير من الوافدين وغير العرب: العبيد والمعتوقون من أصل أفريقي وأخلاف الحجاج الوافدين من بلدان مختلفة والذين استقروا في مكة وجدة.

وأدى الطلب على الأيدي العاملة إلى اجتذاب أعداد متزايدة من الوافدين الجدد إلى العربية السعودية، وخصوصاً المؤهلين(163). كما أن البلد كان بحاجة إلى غير المؤهلين لممارسة الأعمال الشاقة أو المستهجنة. وصارت هذه الأعمال تسند إلى يمنيين وسودانيين وصوماليين. أما الفلسطينيون والأردنيون والسوريون واللبنانيون فقد أصبحوا تجاراً ومعلمين وموظفين وأطباء ومهندسين وحرفيين.

وفي مطلـــع الســـتينات عمـــل المصـــريون معلمين ومــوظفين، ولكن أثــر تــدهور وقطــع العلاقــات بين البلديين توقف تدفق القوى العاملة المصـرية مؤقتـاً(164). واستؤنف بعـد تحسـن العلاقـات بين الريـاض ونظام السـادات. وفي النصـف الثـاني من السـتينات عمـــل في الســـعودية مئـــات آلاف المصـــريين في مختلف المجالات: من الطب والهندسـة حـتى العمـل اليدوي غير المؤهل.

وقدر كناورهيز عدد الوافدين من غير السعوديين في مطلـــع الســـبعينات بـ 15 ـــ 20% في مكـــة والمدينـة والطـائف، و23% في الريـاض و 35% في جدة. إلا أن هذا الباحث لا يذكر هل تضم هذه النسب أحفاد المعتوقين والأجانب "القدامى" المتجنســين أم أنها تقتصر على الوافدين مؤخراً إلى البلاد.

في عام 1964، كان الوافدون يشـكلون حـوالي ثلث الأيـدي العاملـة في المـدن، وفي عـام 1968، صـاروا يشـكلون 45% منهـا، وفي السـنوات التاليـة أكثر من نصفها. من الطبيعي أن نسبة الأجـانب أكـبر بين المهندســين والفنــيين. فقـــد كـــان 60% من مهندســـي وزارة المواصـــلات مصـــريين وأردنـــيين ولبنـانين وسـوريين(165). وكـان الأجـانب يشـكلون الغالبية الساحقة من مدرسي المعاهـد العليـا وجـزءاً كبيراً من معلمي المدارس وموظفي الجهـاز الإداري. وبلغت نسبتهم في الصـناعة التحويليـة وخصوصـاً في الحجاز 60 ـ 70%، وفي النقل والمواصـلات 50% وفي البناء ما بين 30 ـ 50%(166).

وعمل في أرامكو عدد كبير من الأجانب. وعلى الرغم من أن عدد السعوديين في ملاك الشركة أرتفع، إلا أنها استمرت في استقدام الأطباء من الهند والمحاسبين من باكستان والمعلمين من الأردن ومصر والمترجمين من لبنان. وكان الفلسطينيون يشغلون الكثير من المناصب الهندسية الفنية وفي الحلقات الوسيطة من جهاز الموظفين(167). وكانت نسبة السعوديين أقل في الشركات والفروع الأخرى.

وقد حظر على الأجانب العمل في المملكة دون أذن رسمي. وأُلزم الأجنبي بأن يدخل البلد بشكل شرعي وأن يكون ممتلكاً ناصية معارف أو مهن يحتاجها البلد، وأن يكون لديه مكان عمل متفق عليه مسبقاً. غير أن كثيرين دخلوا العربية السعودية بشكل غير شرعي، وبخاصة من اليمنيين(168).

وبلغ العدد الإجمالي للعمال الأجانب المسجلين عام 1963 ـ 76 ألفاً وعام 1965 ـ 144 ألفا وعام 1967 ـ 165 ألفا وعام 1969 ـ 231 ألفا وعام 1970 ـ 320 ألفاً(169)، وفي نهاية 1972 ـ 700 ألف(170). ولا تشمل هذه الأرقام سوى القوى العاملة "شرعياً" في المدن.

وثمة تقديرات تفيد بأن عدد الوافدين بلغ في النصف الثاني من السبعينات 2 ـ 3 ملايين. أي كان معادلاً تقريباً لمجموع المواطنين البالغين. وربا عدد اليمنيين وحدهم على المليون(171)، وعمل في

العربية السعودية أشخاص ينتمون إلى 50 قومية، بينهم بضع عشرات الآلاف الأوروبيين والأمريكان(172). ولم يكن هناك وضع مماثل إلا في إمارات الخليج النفطية وليبيا، ولكن أبعاد النزوح إلى السعودية كانت أكبر.

إن عواقب استيراد القوى العاملة بكميات كبيرة يصعب حصرها، ولكنها تعني في المقام الأول أن وتيرة التغيرات الاجتماعية في العربية السعودية تتسارع وتنشأ تناقضات اجتماعية من نمط جديد.

المعتوقون. القبائل "الوضيعة". النساء. ولئن كان ظهور الصناعة النفطية في البلد والارتفاع الحاد في مداخيل الفئة الحاكمة، واتساع السوق الداخلية قد أدت إلى نشوء نمط رأسمالي وطبقة عاملة في البلد، فإن هذه العوامل نفسها عززت مؤقتاً في الأربعينات والخمسينات نمط العبودية، على الرغم من أن هذا الرأي قد يبدو متناقضاً. وقد تزايد آنذاك الطلب على العبيد(173).

أُلغي الرق في العربية السعودية عام 1962 بضغط خارجي وليس داخلياً، على الرغم من أن بعض الأصوات ارتفعت داخل البلد أيضاً مطالبة بإلغاء هذه المؤسسة الاجتماعية المخزية. وظل الرق عملياً موجوداً في السعودية حتى بعد إلغائه. ولكن ليس كنمط قائم بذاته بل كان يجري إبقاء العبيد والإماء في عائلات الصفوة سراً.

وحتى بعد إلغاء العبودية لم يصبح العبيد مواطنين متكافئين الحقوق في السعودية التي ظل مجتمعها محافظاً على صفات التقسيم الفئوي. ولكن ينبغي القول أن العبيد كان بإمكانهم في بعض الحالات بلوغ درجات عالية في السلم الوظيفي، كما هي الحال سابقاً.

وظلت القبائل "الوضيعة": الصلبة (في الشمال) وهتيم والشرارات (في الحجاز) والعوازم (في الأحساء) وغيرها تعاني من الإجحاف. وكانت هذه القبائل ترفد البلد بالعمال والحرفيين لمزاولة "المهن المستهجنة" كالقصابين والحلاقين والموسيقيين والسمكرين. وحتى إذا تمكن بعض أبناء هذه القبائل من تجميع ثروة، فأنهم ظلوا كالسابق لا يتصاهرون مع القبائل "الكريمة المحتد". فقد أسس عبد الله السليمان وهو شخصية معروفة من بني خصر، صار وزيراً للمالية في عهد عبد العزيز، واحداً من أكبر بيوتات الأعمال في المملكة. ولكن أبناء القبائل "الرفيعة النسب" مثل عنزة وعتيبة وشمر وقريش، ناهيك عن آل سعود وأرستقراطية القبائل، ظلوا يأنفون من مصاهرته(174).

ثمة سمات مشتركة للأوضاع الاجتماعية للوافدين والقبائل "الوضيعة" والصناع والشيعة. إذ أنهم ظلوا وكأنهم خارج المجتمع ولا يتمتعون بحقوق سياسية.

من الأسـباب الـتي أدت إلى تفـاقم الحاجـة إلى الأيدي العاملـة في السـعودية وجـود تقييـدات كبـيرة على العمل النسوي. فقد كانت أوضـاع النسـاء تحـدد طبقـاً للشـريعة بـأكثر صـيغها تشـدداً وصـرامةً وكـان علمـاء الـدين يفرضـون رأيهم على السـلطات بهـذا الخصـــوص على الـــرغم من تـــراجعهم في ميـــادين أخرى.

في مطلع السـبعينات أُسسـت معاهـد للتمـريض في الرياض وجـدة والهفـوف، وازداد عـدد التلميـذات في المـــدارس. وخلال الســـتينات تعلمت القـــراءة والكتابـة وتـدبير الشـؤون المنزليـة وسـواها 5700 امرأة في 17 دورة لمحو الأمية في الأرياف.

وكان المبدأ الرئيسي المعتمـد يتمثـل في توجيـه النسـاء إلى الفـروع والمهن الـتي تكفـل أن يكـون اختلاطهن مع قريناتهن فقط(175)

فعلى ســبيل المثــال تخّــرج في معهــد الإدارة الحكومية منذ تأسيسه عام 1961 زهاء عشـرة آلاف موظف ولم تكن بينهم امرأة واحدة(176).

تشـريعات العمل. لم تعـد أحكـام الشـريعة الإسـلامية قـادرة على اسـتيعاب علاقـات العمـل الجديدة الـتي تطلب تقنينهـا. ونظـراً لنشـوء الحركـة العماليـة أقـرت الحكومـة عـام 1974 قـانون العمـل الـذي كـان في كثـير من أحكامـه نسـخة عن قـانون المصري. وفيما بعد عُدِّلت مـواد كثـيرة منـه وأُدخلت

إضافات. وكان من المفترض أن يسري قانون على كل مؤسسة ناعية أو تجارية أو زراعية يزيد عدد العاملين فيها على العشرة. إن مجرد الاعتماد الشكلي لتشريعات عمل على غرار ما جرى في مصر حيث أثمر نضال العمال الطويل عن حصولهم على بعض الحقوق، كان بحد ذاته خطوة هامة في التقدم الاجتماعي.

لقد حدد القانون أسبوع عمل من ستة أيام ومدة يوم العمل ثماني ساعات وإجازة سنوية بمرتب لمدة عشرة أيام وإجازة مرضية لمدة خمسة أيام. وحظر عمل الأطفال الذين دون العاشرة. وحددت مواد خاصة نظام العمل الإضافي وأجوره والتعويضات في حالة الإصابة بعاهة أثناء الواجب. وجعل الحد الأدنى للأجور 5 ريالات يومياً. ونص القانون على أن عقد العمل يمكن أن يكون تحريرياً أو شفوياً. وألزم القانون أرباب العمل بإنشاء حوانيت خاصة للعمال ومدارس ومستشفيات ومكتبات ورياض أطفال.

وخولت وزارة المالية صلاحية تفتيش أي مؤسسة والحصول على معلومات من أرباب العمل والعمال عن ظروف العمل والحياة، ومطالبة أرباب العمل بتنفيذ أحكام القانون. ونص القانون على أن استخدام العمال يجب أن يستند إلى إذن خاص من وزارة المالية(177).

في عام 1950 شكلت وزارة المالية مديرية العمل في المنطقة الشرقية وأصبحت دائرة مستقلة

عام 1953، ثم أُدمجت عام 1961 بوزارة العمل والشؤون الاجتماعية عند استحداثها(178).

ولم يمنح القانون العمال من حق تشكيل نقابات، وفي عام 1965صدر مرسوم ملكي خاص يحظر إضرابات العمال(179).

ومنح أرباب العمل حق تسريح العمال دون تبيان الأسباب. كما أهمل القانون حقوق النساء العاملات ولم يتطرق إلى الرواتب التقاعدية. ولم يطبق الضمان الاجتماعي والتقاعد إلا في مستهل الستينات(180).

ومع تطور واتساع نطاق العمل المأجور تزايدت نزاعات العمل(181) التي تقرر أن تتولى النظر فيها هيئة تحكيم من عضوين يعين رب العمل أحدهما وتعين الحكومة الآخر، ولكن الهيئة لا تضم مندوباً عن العمال. وفي حالة اختلاف عضوي الهيئة فإن الحكومة التي تزعم إنها هي الحكم العدل تعين قاضياً أعلى مرتبة. ومن الناحية العملية كان الموظفون الحكوميون يقفون إلى جانب أرامكو عند نشوب نزاع بينها وبين العمال. فبخلاف ذلك يتهمون بـ "النشاط الشيوعي" ويقالون من مناصبهم. وطالب العمال في عرائض رفعت إلى الملك بأن تقوم مديرية العمل بحماية مصالح العمال بالفعل وليس بالقول(182). ويؤكد كتاب "قوانين العمل وتطبيقاتها في العربية السعودية" الصادر في الولايات المتحدة على أن "الإضرابات جرت على الرغم من الخطر.

ونظمت غالبيتها في القطاع النفطي الصناعي المعقد في منطقة الحياد والمنطقة الشرقية. وعلى الرغم أن العاملين في حقول النفط كانوا يتمتعون بظروف عمل أفضل من سائر فئات العمال، فإنهم ناضلوا في سبيل مطالبهم بإصرار متميز ولأمد طويل"(183). وتولى الكويتيون تنظيم الإضرابات في منطقة الحياد لأن الإضرابات في الكويت لم تكن محظورة شكليا. وبلغ الاستياء أشده لدى عمال شركات المقاولة، التي مارست أبشع أنواع الاستغلال ولم تراع قوانين العمل(184).

وجاء في كتاب "قوانين العمل..." إن "عمال النفط قاموا بالتظاهر والاعتصام ومغادرة موقع العمل والمقاطعة وكتابة العرائض والنداءات إلى مسؤولي الشركات، ولكنهم لم يلجؤا إلى العنف. وقد أجريت حملة اعتقالات وزج بزعماء العمال في السجن. وفي بعض الحالات كان العمال يسرحون والأجانب يرحلون لمجرد احتجاجهم بأي شكل من الأشكال. كما أوقف العمل مرات عديدة"(185). وكانت مطالب العمال ذات طابع اقتصادي وتتعلق بالمكافآت والخدمات الطبية والمواصلات والتغذية.

في الستينات أدى ازدياد الأجور وأعمال التنكيل المتواصلة إلى إضعاف حدة نزاعات العمل. غير أن استياء العمال والنقد الموجه للنظام في الخارج حملا الحكومة على إدخال تعديلات على تشريعات العمل. فإن ازدياد عوائد النفط والنهوض الاقتصادي قد أتاحا

للحكومة ورجال الأعمال الموافقـة على تقـديم بعض التسهيلات الإضافية للعمال.

ونص القانون الجديد للمؤسسات التي يبلـغ عـدد العاملين فيها عشرة عمال أو أكثر والذي أسـتن عـام 1969، على يوم عمل من ثمـاني سـاعات ولأسـبوع عمل من 48 ساعة و 36 ساعة في كـل أسـبوع من شهر رمضان. وفي أرامكو وسائر شـركات اسـتخراج النفط وكذلك في بترومين حدد أسبوع عمـل من 40 سـاعة من عطلـة لمـدة يـومين في الأسـبوع. وبلغت مدة الإجازات المدفوعة للعمال 21 يومـاً والإجـازات المرضية 30 يوماً تدفع كاملة و 60 يوماً يدفع خلالهـا ثلاثـة أربـاع المـرتب. ونص القـانون على منح العمـل إذونات إذا اقتضت الظـروف العائليـة. وفي الصـناعة النفطية بلغت إجازة العمال 28 يوماً ووصـلت إجـازة المستخدمين إلى الشهر.

وحظرت المادة 75 تسريح العمال بدون أسباب، كما جعل الحد الأدنى للأجور 10 ريالات يومياً.

راعى قـانون عـام 1969 بعض مطـالب العمـال الاجتماعية. فالمؤسسات التي يعمل فيها 50 شخصـاً فمـا فـوق يجب أن تـزود بنقطـة طبيـة. والخـدمات العلاجية مجانيـة وتـدفع تكـاليف العمليـات الجراحيـة والعلاج في بعض الحـــالات من صـــندوق الضـــمان المختص. وفي المناطق النائية تقرر أن يتلقى العمال سكناً وتغذية بأسعار ثابتة (ثلاث وجبـات يوميـاً). وفي

المؤسسات التي يعمل فيها 500 شخص فما فوق تفتتح حوانيت تبيع البضاعة بأسعار متهاودة.

تضمن القانون مادة خاصة حول العاملات ولكن لم تكن لها أهمية تذكر لأن استخدام عمل النساء كان محدوداً للغاية، وحظر القانون اشتغال الرجال والنساء سوية.

وقد منع تشغيل من هم دون الثالثة عشرة، وحدد يوم العمل للقاصرين بست ساعات.

ووردت شروط للأمن الصناعي وتعويضات عن الإصابة أثناء الدوام وعن التعويق بنتيجة إصابات العمل.

وفي عام 1969 نفسه وضع، إلى جانب القانون المذكور، نظام الضمان الاجتماعي الذي اعتبر إلزامياً على الرغم من معارضة علماء الدين. وقد جمع النظام، إلى حد ما، بين أساليب الضمان الاجتماعي الحديث وتقاليد البر والإحسان الإسلامية. ومنذ الستينات كان جزء من صندوق الضمان يأتي من جباية الزكاة ومن المعونات الحكومية. واعتباراً من عام 1969 تعين على العمال والمستخدمي أن يقدموا بدلات إلى المديرية العامة للضمان الاجتماعي.

كان تشغيل العامل يتطلب استحصال إذن من مكتب العمل أو دائرة الإقامة. وألزمت كل شركة يزيد عدد عمالها على المائة بتشغيل 75% من

السعوديين على أن يتقاضوا ما لا يقل عن 51% من الأجور. وبناءً على طلب بترومين كان ينبغي على الشركات المختلطة تشغيل نسبة مماثلة(186).

أن محدودية تشريعات العمل كانت بادية للعيان وذلك لأن الأغلبية المطلقة من الكادحين السعوديين عملت في مؤسسات يقل عدد العاملين في كل منها عن العشرة. ولم يطبق القانون عملياً إلا في كبريات الشركات. ويؤكد مؤلفو كتاب "قوانين العمل وتطبيقها في العربية السعودية" على أن "الكثير من مواد قانون 1969 ظلت حبراً على ورق(187).

أكدت المواد 189 ـ 191 على حظر الإضرابات وأعلنت أن قيام العمال بنشاطات جماعية يشكل جريمة عقوبتها الحبس لمدة لا تتجاوز الست سنوات أو دفع غرامات كبيرة(188).

شكلت عام 1969 هيئات للنظر في نزاعات العمل، وزاولت أعمالها جنبا إلى جنب مع المحاكم الشرعية. كما في الماضي تولى موظفون حكوميون البت في القضايا، وفي حال عدم توصلهم إلى قرار تحال إلى مكتبة الشكاوى. وفي عام 1970، شكلت الهيئة العليا لنزاعات العمل(189).

التعليم. في أواخر الخمسينات أشار باحثون أمريكان إلى أن "التعليم العام مازال في مرحلة الطفولة". وفي 1956 كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة أكثر بقليل من 5% (190).

في عـام 1954 كـان 8% فقـط من الأطفـال الذين بلغوا سن الدراسة يرتـادون المـدارس. وأنشـأ الملك سعود في قصره بالرياض مدرسة على النمـط الإنجليزي لأبنائه وخدمهم وعبيدهم. كمـا أنشـأ أخـواه عبد الله وفيصل مـدارس لأولادهمـا ولكن تيقن حـتى أفراد الأسرة المالكة من ضـرورة منح فـرص التعليم ولو لجزء من السكان(191).

في عام 1954 استحدثت وزارة المعـارف وأُقيم نظام المـدارس على غـرار النظـام المعمـول بـه في أكـثر البلـدان العربيـة تطـوراً. ومـدة الدراسـة في المرحلة الابتدائية ست سنوات وفي المتوسطة ثلاث سـنوات وفي الثانويـة ثلاث سـنوات. وفي النصـف الثـاني من الخمسـينات لم يتخـرج في المـدارس الثانوية سوى بضع عشرات من التلاميذ(192). وظل الاهتمـام الأكـبر في المـدارس منصـباً على حفـظ القـرآن والفقـه بينمـا أُعـير اهتمـام أقـل للطبيعيـات والرياضيات.

أوفـد الملـك عبـد العزيـز عـدداً من الشـباب السـعوديين إلى الخـارج وانفـق على تحصـيلهم. وبضغط من نعلماء الـدين المحـافظين حـاول الملـك سعود في بداية عهده نبذ هـذا التقليـد، علمـاء الـدين المحافظين حاول الملك سـعود في بدايـة عهـده نبـذ هـذا التقليـد، ولكنـه اضـطر فيمـا بعـد إلى الإقـرار بضـرورة دراسـة السـعوديين في الخـارج. وفي عـام 1957، كان ما لا يقـل عن سـتمائة سـعودي يتلقـون العلم في جامعـات ومعاهـد أجنبيـة (في مصـر

والولايات المتحدة وسوريا ولبنان وأوروبا الغربية). وبعد العام المذكور حظي التعليم في الخارج بمزيد من التشجيع.

افتتح أول معهد دراسي عال في السعودية ـ كلية الحقوق الإسلامية ـ في مكة عام 1949. وكان برنامج الدراسة يكاد يكون مقتصراً على القرآن والحديث واللغة وتأريخ العرب. وأنيطت بالكلية مهمة أعداد المدرسين للمدارس الثانوية، التي كانت برامج العديد منها مماثلة لبرامج الكلية نفسها. وفي عام 1953 افتتحت في الرياض كليتا الشريعة واللغة العربية، لإعداد مدرسين وحقوقيين وقضاة(193).

وافتتحت جامعة مدنية غير دينية على غرار الجامعات المصرية في الرياض عام 1957، وكان جل أساتذتها من الأجانب، والتعليم مجاني فيها، وصار عدد غير قليل من خريجيها أنصاراً لتحديث البلد.

صار التعليم يحظى باهتمام متزايد وذلك للنهوض بهيبة الدولة ولتوفير ما يحتاجه المجتمع من الاختصاصين. وفي مستهل الستينات وفد من الخارج زهاء ألفي معالم(194)، وزاد هذا الرقم إلى عشرة أضعافه بعد عشر سنوات تقريباً(195)، ولكن طرحت مهمة قصر التدريس على السعوديين، ولو في المراحل الابتدائية. في عام 1973، كان في العربية السعودية 14 كلية لإعداد المعلمين ومعهدان لإعداد مدرسي المدارس المتوسطة والثانوية(196).

وبلغت نفقات التعليم عام 1959 مقدار 118 مليون ريال، وارتفع الرقم عام 1973 إلى 1677 مليوناً(197). وبعد إن كان عدد الدارسين في المدارس بكل أنواعها لا يزيد على 143 ألفاً عام 1963، فأنه وصل عام 1973 إلى 739.3 ألف تلميذ، ولكن عدد البنات أقل من نصف عدد الصبيان. (في عام 1960 كان عددهن أقل بزهاء 25 مرة من عدد الصبيان)(198). وكتبت "التايمس" استنادا إلى معلومات تلقتها من وزارة المعارف السعودية أن عدد تلامذة المدارس في عام 1973 بلغ 600 ألف من البنين و 200 ألف من البنات.

تزايد بسرعة عدد طلاب جامعة الرياض. إذ كان فيها عام 1960 حوالي 500 طالب و 15 من طلاب الدراسات العاليا (في المعاهد الدينية 2200 طالب و 260 طالب دراسات عليا)، أما في عام 1973، فقد بلغ عدد طلاب الجامعة 4400 (عدد طلاب الدراسات العليا غير معلوم ولكنه يربو على الثلاثمائة فيما يبدو). وفي عام 1968 / 1969، افتتحت كلية النساء في جدة وجامعة عبد العزيز التي توزعت كلياتها على جدة ومكة(199).

في عام 1973 بلغ عدد الطلاب في جامعة عبد العزيز زهاء 2500، وفي كلية النفط والمعادن بالمنطقة الشرقية قرابة 900 وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة (حيث غالبية الطلاب من الأجانب) 660. ويستفاد من أرقام عام 1971 أن عدد الدارسين في الكليات والمعاهد الإسلامية بلغ حوالي

11 ألف طالب و500 طالب دراسات عليا. ورغم أن 60% من طلبة جامعة عبد العزيز درسوا العلوم التكنيكية إلا أن الكثيرين اشتغلوا بعد التخرج في وظائف إدارية حكومية(200).

في الستينات والسبعينات تزايد عدد السعوديين الموفدين للدراسة في الخارج، وخصوصاً في الولايات المتحدة حيث بلغ عددهم 3 _ 5 آلاف في أواسط السبعينات(201).

أسست أول مدرسة مهنية فنية عام 1949. وفي عام 1960، أنشئ في الرياض المعهد الفني النموذجي الحكومي واستدعى أساتذة من الخارج للتدريس فيه. وأنشئت مدارس فنية صناعية في مكة وجدة والدمام وبريدة والمدينة المنورة وسواها من المدن(202).

ولم يكن التعليم مختلطاً في أي من المراحل. ففي جامعة الرياض يسمح للفتيات بارتياد المكتبة في ساعات خاصة، أما في جامعة عبد العزيز فقد كان تدريس الفتيات يجري بواسطة التلفزيون(203).

إن الصفوة الحاكمة التي سعت إلى تطوير نظام التعليم، حاولت أن تجعل منه أداة لتربية الدارسين بروح الولاء للمؤسسات الحكومية والاجتماعية التقليدية وللنظام بشكل عام. وأكد الأمير فيصل عام 1963، وكان في الواقع رئيساً للدولة، إن برامج

التعليم في الأقطار الإسلامية مشحونة بالمبادئ والميول الخطرة التي تصرف أبناء المسلمين عن دراسة تاريخ دينهم وتراثه الغني وعن الدراسة العلمية العميقة الدقيقة لأصول الشريعة الإسلامية. فالإنسان ينشد الخير، ويجده هنا، في الشريعة الإسلامية، وينشد الأمن ويجده فيها، وينشد الحرية وهي موجودة هنا، وينشد التقدم وهو فيها، وينشد العلاج فيجده في الشريعة، وينشد الدعاية للعلم فيجدها فيها أيضاً. كل شيء موجد في الشريعة الإسلامية.

وفي عام 1970، صدر البرنامج الحكومي الموسوم "سياسة التعليم" وأكد على أن المهمة الأساسية للتعليم هي التعريف بالدين وجعل تصرفات الدارسين متماشية مع شرائع الدين واحتياجات المجتمع(204). ولكن مطالب علماء الدين المحافظة لم تعد تقبل دون تحفظات من لدن كل الفئات الاجتماعية. وأصبح التعارض بين الأفكار السلفية المستندة إلى التفسير الوهابي للإسلام وبين السعي للتحديث والتغير الاجتماعي، وهو سعي ناجم عن انتشار التعاليم، عنصراً من عناصر التوتر في المجتمع السعودي.

أن التوسع السريع في التعليم الذي استدعته المستلزمات الموضوعية للتطور قد هيأ أسباب البلبة في المجتمع السعودي كما أن ارتفاع المستوى الثقافي والمعارف الإنسانية والتكنيكية لدى سكان العربية السعودية، قد أدى إلى تنامي المتطلبات

الاجتماعية والسياسية، وخصوصاً في ظروف تكاثر السفرات التي يقوم بها العديد من السعوديين إلى الخارج، وانتشار أجهزة الراديو والتلفزيون، ووفود عدد كبير من الأجانب إلى البلد. وتزايد باطراد عدد السعوديين الذين صار لديهم من سعة الأفق القدر الكافي لطرح تساؤل حول مشروعية وأحقية بقاء النظام السياسي القديم والقيم الاجتماعية البالية.